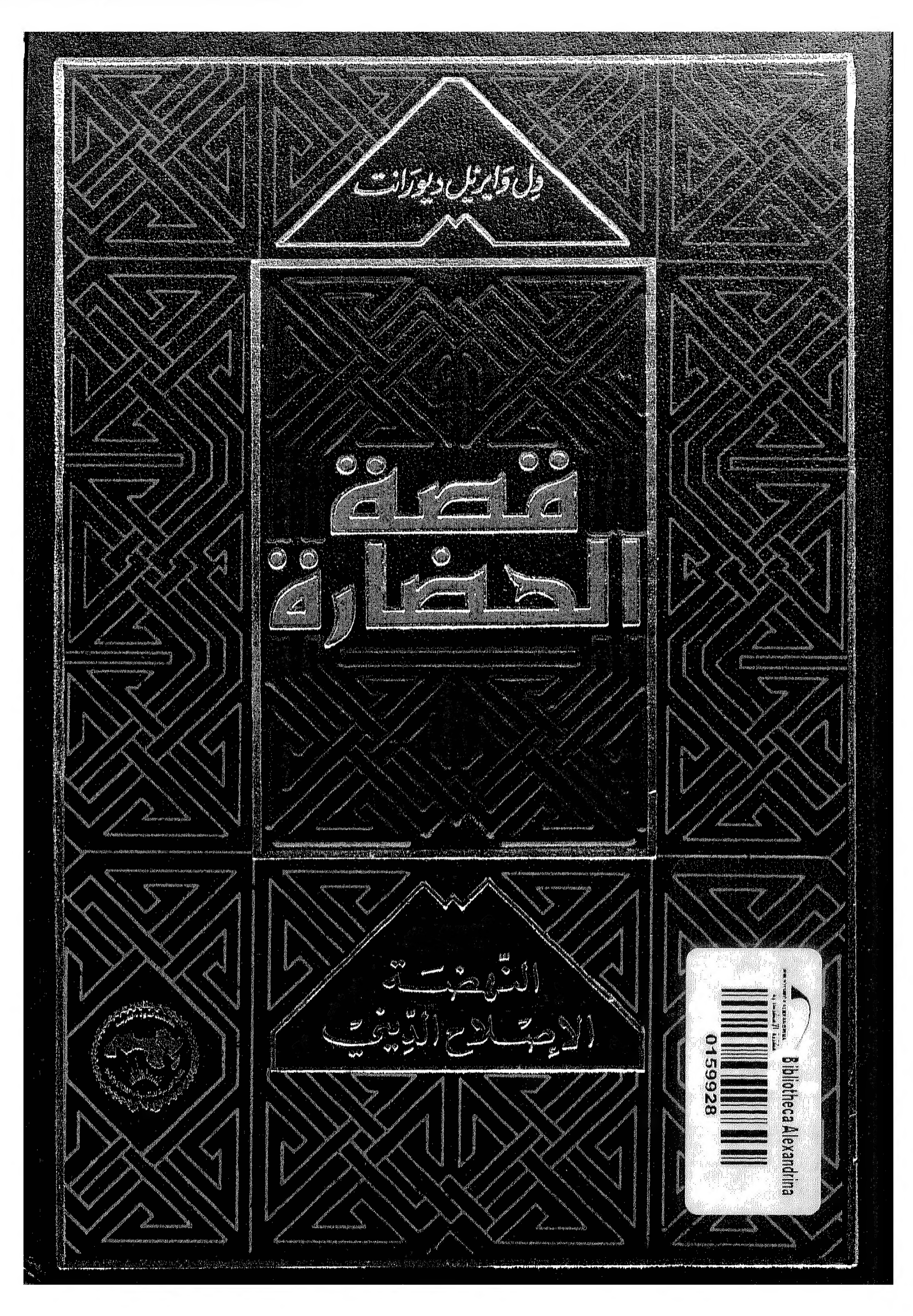
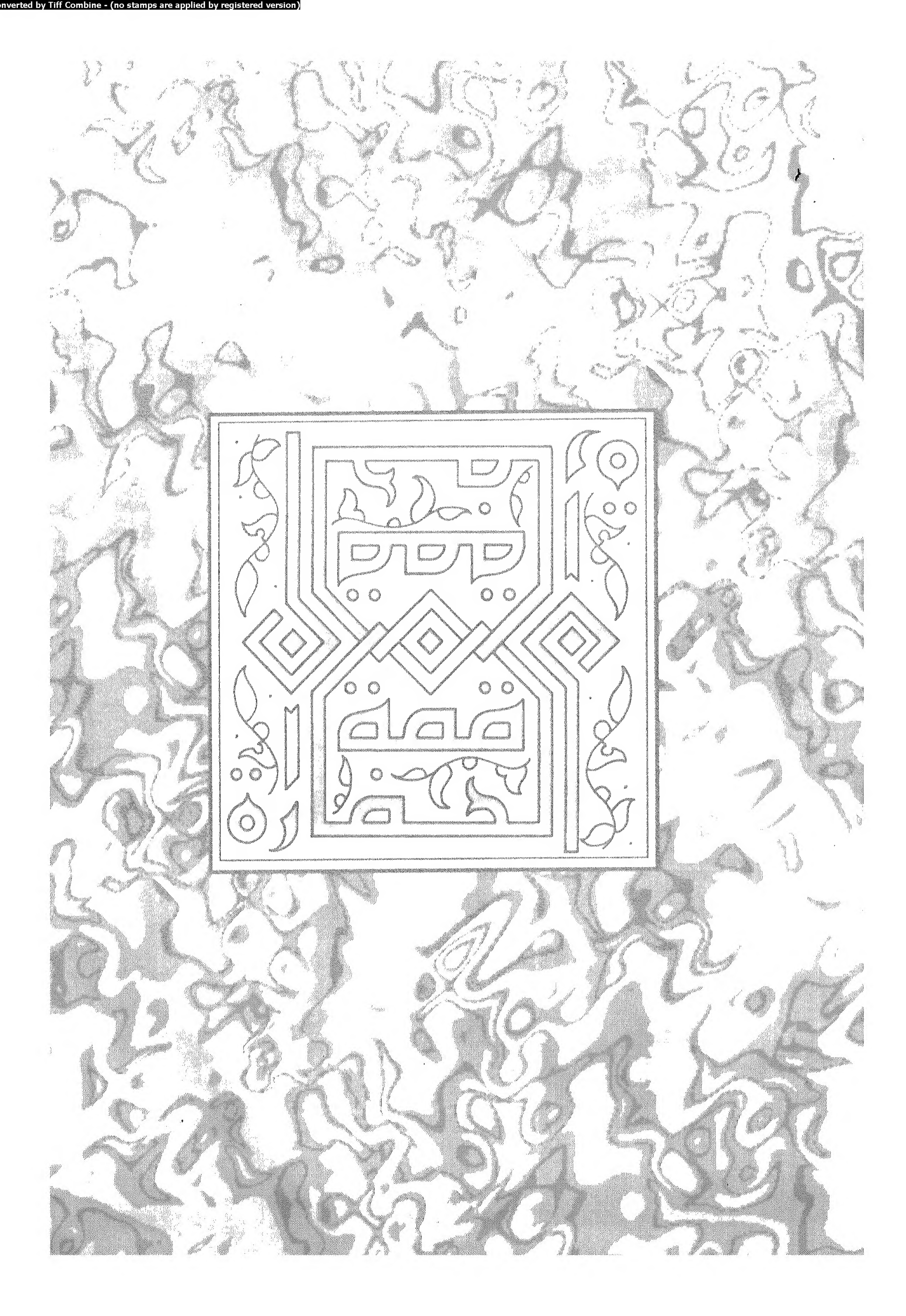
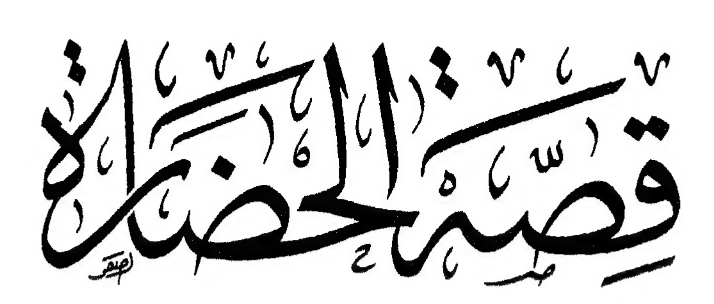

ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
النهضة
الإصلاح الديني
Bibliotheca Alexandrina
0159928

قصة الحضارة




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



ول وايرل ديورانت

النهضة

وهو يروي تاريخ الحضارة في إيطاليا من مولد بتراركه
حتى ممات تيشيان من ١٣٠٤ إلى ١٥٧٦

ترجمة
محمد بدران

الجزء الرابع من المجلد الخامس







تونس

بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: داجيلاب ـ بيروت ـ لبنان



(الصورة رقم ١) معجزة القديس مرقس – بالبندقية
من عمل تنتورتو . انظر ص ٢٦٠



فهرس الجزء الرابع من المجلد الخامس

الكتاب الخامس

الصداع

الموضوع — الصفحة

الباب التاسع عشر – الثورة العقلية

الباب العشرون – الانحلال الخلقى

الباب الحادى والعشرون — الانهيار السياسى

الكتاب السادس : الخاتمة

الباب الثانى والعشرون — أفول نجم البندقية

الباب الثالث والعشرون — انحطاط عصر النهضة

الموضوع | الصفحة

فهرس الصور

الكتاب الخامس

الصدع



الباب التاسع عشر

الثورة العقلية

الفصل الأول

الفنون الخفية

الحضارة فى كل عصر من العصور وعند كل أمة من الأمم نتاج أقلية من الأهلين تستمتع بامتيازاتها وتتحمل تبعاتها. والمؤرخ العليم بما تتصف به السخافات من عناد شامل نفاذ يوطن نفسه على الاعتقاد بما سوف يكون للخرافات من مستقبل باهر مجيد؛ ذلك أنه لا يتوقع أن تنشأ درل كاملة على أكتاف خلائق ناقصة؛ ويدرك أن نسبة قليلة من الناس فى أى جيل هى وحدها التى تستطيع أن تتحرر من المتاعب الاقتصادية تحرراً يتيح لها من الفراغ والنشاط ما تستطيع به أن تفكر تفكيرها الخاص بدل تفكير أسلافها أو من يحيطون بها؛ ويتعلم هذا المؤرخ أن يبتهج إذا استطاع أن يجد فى كل فترة من الفترات عدداً قليلا من الرجال والنساء رفعوا أنفسهم بقوة عقولهم أو بفضل مولدهم أو ظروفهم من وهدة الخرافات، والفنون الخفية، والسذاجة العقلية إلى مستوى من الذكاء القائم على العلم وعلى المودة يدركون به ما هم فيه من جهل لا حد له.

ومصداقاً لهذا كانت الحضارة فى إيطاليا إبان عصر النهضة ميزة يختص بها القليلون، وينشئها القليلون، ولا يستمتع بها إلا القليلون. أما الرجل

العادى الساذج ، الذى ليس أكثر من فرد فى جماعة ، فكان يحرث الأرض ويستخرج منها المعادن ، ويجر عربات النقل أو يحمل الأثقال ، ويكد ويكدح من مطلع الفجر إلى غسق الليل ، حتى إذا أمسى المساء أنهكه التعب فلم يجد فى نفسه قدرة على التفكير . ومن أجل هذا كان يتلقى آراءه ، ودينه ، وما يجيب به عن ألغاز الحياة من الهواء الذى يحيط به ، أو يرثها من كوخ آبائه وأجداده ؛ فكان يترك غيره يفكرون لأن غيره من الناس كانوا يرغمونه على أن يعمل لهم ؛ ولم يكن يكتفى بقبول العجائب التى تخلب لبه ، وتريح نفسه ، وتلهمه وتروعه ، والتى يحتويها دينه التقليدى — وهى عجائب كان يتكرر انطباعها فى عقله كل يوم عن طريق العدوى ، والتلقين ، والفن — بل كان يضيف إليها من ثنايا عقله الشياطين ، والسحر ، والنذر ، والتنبؤ بالغيب ، والتنجيم ، وعبادة المخلفات ، وصنع المعجزات التى يتألف منها ما يمكن أن نسميه الميتافيزيقا الشعبية التى لا تجيزها الكنيسة وتستنكرها وترى فيها مشكلة تسبب لها من المتاعب أكثر مما يسببه عدم الإيمان . وبينا كان الرجل الممتاز فى إيطاليا أرقى من مثيله فى طبقته من أبناء ما وراء الألب فى الثروة والثقافة بنصف قرن أو أكثر ، كان الرجل العادى المقيم فى جنوب الألب يشارك نظراءه فى شمال تلك الجبال فى كل ما كان سائداً فى ذلك العصر من خرافات وأوهام .

وكثيراً ما كان الكتاب الإنسانيون أنفسهم يسلمون عقولهم لسخافات بيئتهم ، وينثرون فى الصحف التى تفيض بالفصاحة الشيشرونية روح هذه البيئة أو سخافاتها إن شئت . فهاهو ذا بجيو مثلا يرتع ويمرح وسط النذر وغرائب المخلوقات كالفرسان الذين لا رءوس لهم والذين يهاجرون من كومو إلى ألمانيا ؛ أو آلهة البحار الملتحين الذين يخرجون من أعماق البحار ليختطفوا النساء الحسان من شواطئها[1] . وها هو ذا مكيفلى المتشكك فى الدين لا يستبعد أن يكون « الهواء مليئاً بالأرواح » ويجهر باعتقاده أن الحوادث الخطيرة

تسبقها وتدل عليها خوارق الطبيعة ، والنبوءات ، والوحى ، والعلامات التى تظهر فى السماء(٢) . وكان أهل فلورنس الذين يظنون أن الهواء الذى يتنفسونه يجعلهم مهرة لا يجاريهم فى ذلك غيرهم من الناس ، يعتقدون أن جميع الحوادث الخطيرة تقع فى أيام السبت ، وأن السير إلى الحرب فى شوارع معينة من المدينة يجر عليهم مصائب لا يستطيعون النجاة منها(٣) . واضطرب عقل بولتيان من جراء مؤامرة باتسى Pazzi اضطراباً لم يسعه معه إلا أن يعزو إليها ما أعقبها من مطر مدمر ، وعفا عن الشبان الذين أرادوا أن يضعوا حداً للمطر ، بأن أخرجوا جثة زعيم المؤامرة ، وعرضوها فى شوارع المدينة ، ثم ألقوها فى نهر الآرنو(٤) . وكتب مرسليو فتشينو بدافع عن التنبؤ بالغيب ، والتخمين ، ووجود الشياطين ، واعتذر عن عدم زيارة پيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola لأن النجوم وقتئذ لم تكن فى اقترانها مبشرة بالخير(٥) . ولعل ذلك الاقتران كان وهما صوره له الخيال . وإذا كان يسع الكتاب الإنسانيين أن يؤمنوا بهذا ، فهل يحق لنا أن نلوم عامة الشعب الذين لا نصيب لهم من الفراغ ولم ينالوا حظاً من التعليم إذا ظنوا أن العالم الطبيعى ملىء بالقوى الخارقة وأنه أداة لها تستخدمه لا غير .

وكان سكان إيطاليا يعتقدون أن كثيراً من الأشياء من مخلفات المسيح أو الرسل حقا . وقد بلغت هذه المخلفات من الكثرة درجة يستطيع الإنسان معها أن يجد فى الكنائس الرومانية فى عهد النهضة أشياء تمثل جميع مناظر الأناجيل . فواحدة منها تدعى أن قطعة من قماط الطفل يسوع ، وأخرى تقول إن بها عود دريس من مزود بيت لحم ، وثالثة تزعم أنها تضم قطعا من الأرغفة والسمك التى تضاعف عديدها ؛ ورابعة تنادى أن بها المائدة التى استخدمت فى العشاء الأخير ؛ وواحدة تعتقد أن بها صورة العذراء التى رسمها الملائكة للقديس لوقا(٦) . وكانت كنائس البندقية تعرض جسم القديس مرقص ، وقطعة من ذراع القديس چورچ وإحدى أذنى القديس

بولس ، وبعض السمك المحمر الذى أكل منه القديس لورنس ، وبعض الحجارة التى قتلت القديس استيفن[٧] .

وكان الاعتقاد السائد أن لكل جسم – بل لكل عدد وكل حرف – قوة سحرية . ويقول أرتينو إن بعض العاهرات الرومانيات كن يطعن عشاقهن لحم الجثث البشرية المتعفنة يسرقنه من المقابر ليقوين به باههم[٨] . وكانت الرقى تستخدم لألف غرض من الأغراض ؛ ويقول أبوليان إنك إذا تلوت الرقية الصحيحة استطعت أن تقى نفسك شر الكلاب . وكانت الأرواح الخيرة والشريرة تملأ الهواء ؛ وكثيراً ما كان الشيطان يظهر بنفسه أو يلبس جسم من ينيبه ليغوى أو يرهب ، أو يخدع ، أو ينفث القوة أو العلم فيمن يريد ؛ وكان لدى العفاريت طائفة لا تنفد من العلم الخفى يستطيع المرء أن ينال ما يريده منها إذا استطاع أن يستميلها إليه بطريقة خاصة . وظل بعض رهبان الكرمل المقيمين فى بولونيا (حتى أدانهم سكستس الرابع فى عام ١٤٧٤) يعلمون الناس أن لا ضرر مطلقاً من أخذ العلم عن الشياطين[٩] ، وكان السحرة المحترفون يعرضون رقاهم المجربة الصحيحة التى ينالون بها معونة الشياطين على من يؤدون ثمنها من الطالبين . وكان المعتقد أن الساحرات – ونقول الساحرات لأنهن كن فى العادة من النساء – أقدر بنوع خاص على الاتصال بأولئك العفاريت الذين يقدمون هذا العون ، وكن يعاملنهم كأنهم عشاقهن أو آلهة لهن . وكانت اللاتى خلعت عليهن هذه القوى الشيطانية يستطعن – كما يعتقد الناس – أن يتنبأن بالمستقبل ، ويطرن فى أقصر اللحظات مسافات شاسعة ، ويدخلن من الأبواب المغلقة صغيرة أو كبيرة ، ويصبن بشرهن المستطير من يسىء إليهن من الناس . وكان فى مقدورهن أن يبعثن فى النفوس الحب أو البغض ، ويحدثن الإجهاض ، ويصنعن السم ، ويحدثن الموت برقية أو نظرة .

وأصدر إنوسنت الثامن فى عام ١٤٨٤ مرسوماً بابويا يحرم فيه الالتجاء

إلى الساحرات ، ويسلم فيه بصحة بعض ما يدعينه من القوى ، ويعزو إليهن بعض العواصف والأوبئة ، وشكا من أن بعض المسيحيين ، الذين حادوا عن الشعائر الدينية الصحيحة ، كانوا قد اتصلوا اتصالا جسمياً بالشياطين ، وأنهم استعانوا بالرقى ، والعبارات السحرية المسجعة ، واللعنات ، وغيرها من الفنون الشيطانية . فأوقعوا ضرراً شديداً ببعض الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والحيوانات[١٠] . وأشار البابا على عمال محاكم التفتيش أن يكونوا يقظين حذرين من هذه الأعمال . ولم يفرض هذا المرسوم على الناس الإيمان بالسحر على أنه من العقائد الرسمية للكنيسة . ولم يبدأ به عقاب الساحرات ؛ ذلك أن اعتقاد الناس بوجود الساحرات ، وعقابهن فى بعض الأحيان قد حدثا قبل صدور هذا المرسوم بزمن طويل . وكان البابا حين أصدره أميناً على ما جاء فى العهد القديم إذ يقول : « لا تدع ساحرة تعيش »[١١] . وكانت الكنيسة قد ظلت قروناً طوالا تؤمن بإمكان تأثير الشياطين فى الآدميين[١٢] . ولكن افتراض البابا حقيقة وجود السحر قد قوى الاعتقاد بصحة هذا التأثير ، وكان التحذير الذى وجهه لأعضاء محكمة التفتيش بعض الأثر فى اضطهاد الساحرات[١٣] . فقد حدث فى العام الأول بعض هذا المرسوم أن حرقت إحدى وأربعون امرأة فى كومو وحدها بتهمة أنهن من الساحرات[١٤] . وقضى المفتشون فى بريشيا عام ١٤٨٦ على عدد من الساحرات المزعومات بأن يسلمن إلى السلطة الزمنية أى أن يعدمن ، ولكن الحكومة رفضت تنفيذ الحكم ، وغضب لذلك إنوسنت أشد الغضب[١٥] وسارت الأمور سيراً أكثر من هذا انسجاما بين السلطتين فى عام ١٥١٠ ، فنحن نسمع أن ١٤٠ امرأة قد أحرقن فى بريشيا متهمات بالسحر ، وفى عام ١٥١٤ فى بابوية ليو الرحيم الظريف أحرق ثلثمائة أخريات فى كومو[١٦] .

وازداد عدد الأشخاص الذين يعتقدون . أو يعتقد غيرهم فيهم

أنهم يمارسون السحر زيادة سريعة وبخاصة فى إيطاليا الواقعة فى جنوب جبال الألب ، ولعل ذلك كان بسبب ما أحدثه الاضطهاد من استفزاز للنفوس أو لغيره من الأسباب . وأخذ الأمر يتفاقم حتى اتخذت صورة وباء فى طبيعته وكثرة المصابين به . وقال الناس وقتئذ إن ٢٥,٠٠٠ شخص حضروا « سبتا للساحرات » على سهل قريب من بريشيا ، وفى عام ١٥١٨ أحرق عمال محكمة التفتيش سبعين ساحرة مزعومة من أهل ذلك الإقليم ، وزج آلاف فى سجون المحكمة . واحتج مجلس السيادة فى بريشيا على زج الناس جملة فى السجون ، وحال دون الاستمرار فى قتل السحرة والساحرات ، فما كان من ليو إلا أن أصدر مرسوماً (١٥ فبراير سنة ١٥٢١) ، يأمر فيه بحرمان أى موظف يأبى أن ينفذ دون تحقيق أو جدل أحكام عمال محكمة التفتيش ، ووقف جميع الخدمات الدينية بين أية جماعة تمتنع عن هذا التنفيذ . وتجاهل مجلس السيادة هذا المرسوم ، وعين أسقفين ، وطبيبين من أهل بريشيا ، وعامل من عمال محكمة التفتيش للإشراف على ما يحدث بعدئذ من محاكمات للسحرة والساحرات ، وللبحث فى عدالة ما صدر من أحكام سابقة ؛ وخول هؤلاء الرجال دون غيرهم سلطة إصدار الأحكام على المتهمين . وأنذر مجلس السيادة المندوب البابوى بأن يضع حداً لإدانة الناس لكى يستطيع بذلك مصادرة أملاكهم[١٦] . وكان هذا إجراء غاية فى الجرأة ولكن الجهالة وشهوة القتل والتعذيب تغلبتا آخر الأمر ، وظل إحراق الناس بتهمة السحر وصمة عار لا تمحى من تاريخ البشرية فى القرنين التاليين ، فى البلاد البروتستنتية والكاثوليكية ، وفى العالم الجديد والعالم القديم على حد سواء .

وكانت الرغبة الجنونية فى معرفة المستقبل عوناً كبيراً للمتنبئين بحظوظ الناس بأنواعهم المألوفة — قراء الكف ، ومفسرى الأحلام ، والمنجمين ؛ وكان هؤلاء أكثر عدداً وأعظم قوة فى إيطاليا منهم فى سائر أنحاء أوربا .

وكادت كل حكومة إيطالية يكون لها منجم رسمي يحدد لها بالنظر في مواقع النجوم الأوقات الملائمة للبدء في المشروعات الهامة . ولم يشأ يوليوس الثانى أن يغادر بولونيا إلا بعد أن أنبأه منجمه أن الوقت ملائم لمغادرتها ، وكان سكستس الرابع وبولس الثالث يطلبان منجميهما تحديد الساعات التي يعقدان فيها مؤتمراتهما الكبرى(١٦ ب) . وقد بلغ انتشار العقيدة القائلة بأن النجوم تسيطر على أخلاق البشر وشئونهم حداً جعل كثيراً من أساتذة الجامعات في إيطاليا يصدرون في كل عام تنبؤات قائمة على أساس التنجيم(١٦ حـ) ، وكان من أفانين أرتينو المضحكة أن يحاكى هذه التقاويم التي يضعها أولئك العلماء . ولما أن أعاد لورندسو ده ميديتشي جامعة بيزا ، لم يقرر ضمن مواد الدراسة فيها منهجاً للتنجيم ؛ ولكن الطلاب ضجوا طالبين وضع هذا المنهج ، ولم يجد بداً من الخضوع لمطلبهم(١٦ و) . ووجه پيكو دلا ميرندولا أحد العلماء الأعلام المحيطين بلورندسو هجوماً كتابياً شديداً على التنجيم ، ولكن مرسيليو ڤتشينو الأغزر منه علما دافع عنه . وصاح جوتشياردينى قائلا : « ألا ما أسعد المنجمين الذين يؤمن الناس بأقوالهم ولو صدقوا مرة واحدة وكذبوا مائة مرة ، على حين أن غيرهم من الناس يفقدون الثقة بهم إذا كذبوا مرة واحدة وصدقوا مائة مرة »(١٢ هـ) . لكن التنجيم مع ذلك كان ينطوى على شيء من التطلع نحو النظرة العلمية إلى الكون ؛ وكان فيه إلى حد ما مهرب من الاعتقاد بوجود كون تسيطر عليه مشيئة الله أو نزعات الشياطين ، ويهدف إلى العثور على قانون طبيعي شامل ينسق المظاهر الطبيعية ويوفق بينها .

الفصل الثانى

العـــــلوم

لم يكن سبب تأخر العلوم هو مقاومة الكنيسة . بل كان ما يتمسك به الناس من خرافات وأوهام . ولم تكن الرقابة على النشر عقبة كأداء فى سبيل العلم إلى أن قامت حركة الإصلاح المعارضة عقب مجلس ترنت (١٥٤٥ وما بعدها) ، فقد جاء سكستس الرابع إلى رومة (١٤٦٣) بأشهر منجم عاش فى القرن الخامس عشر وهو چوهان ملر رچيو « مونس » Johan Müller "Regiomontnus". وكان كوبرنيق فى عهد البابا ألكسندر يدرس العلوم الرياضية والفلك فى جامعة رومة ، ولم يكن كوبرنيق هذا قد وصل بعد إلى نظريته التى هزت كيان العالم والتى تقول بدوران الأرض فى فلكها حول الشمس ، ولكن نقولاس الكوزانى Nicholas of Cusa كان قد أشار إليها قبل ذلك الوقت ، وكلاهما من رجال الدين . وكانت محكمة التفتيش ضعيفة ضعفاً نسبياً فى إيطاليا طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكان من أسباب هذا الضعف بعد البابوات عنها فى أفنيون ، وما قام بينهم من نزاع أثناء عهد الانشقاق ، وما وصل إليهم من عدوى الاستنارة فى عهد النهضة . وحدث فى عام ١٤٤٠ أن حاكمت محكمة التفتيش فى ميلان أماديو ده لاندى Amadeo de' Landi صاحب النزعة المادية ، وبرأته مما عزى إليه ، وحمى نصير جبريلى ده سالو Oabriele de, Salo هذا الطبيب الملحد من محكمة التفتيش مع أنه « اعتاد أن يقول إن المسيح ليس هو الله بل هو ابن يوسف »(٦٧) . وكان التفكير فى إيطاليا أكثر حرية والتعليم فيها أكثر تقدماً مما كانا فى أى بلد آخر خلال القرن الخامس عشر وفى أوائل القرن السادس عشر . وكانت مدارسها التى تعلم

الفلك ، والقانون ، والطب ، والآداب ملتقى الطلاب من أكثر من عشرة أقطار ، ولمـــا أن أتم تومس ليناكر Thomas Lamacrel الطبيب والعالم الإنجليزى دراسته الجامعية فى إيطاليا وقفل راجعاً إلى إنجلترا أقام فى جبال الألب الإيطالية مذبحاً ، ودشنه وهو يلقى آخر نظرة على إيطاليا باسم هذه البلاد **الأم الحنون للعلم** منشئة الدراسات وجامعة العالم المسيحى التى يواصل فيها العلماء دراساتهم بعد تخرجهم .

وإذا لم يكن العلم قد تقدم خلال القرنين السابقين على أيام ڤيساليوس Vesalius (١٥١٤ — ١٥٦٤) إلا تقدماً يسيراً فى هذا الجو المشبع بالخرافات من أسفل ، وبالتحرز العقلى من أعلى ، فقد كان أكبر السبب فى هذا أن المناصرة والتكريم كانا موجهين إلى الفن ، والمنح مخصصة للأدب ، وللشعر ، ولم تكن قد قامت بعد دعوة واضحة للأساليب والأفكار العلمية فى حياة إيطاليا الاقتصادية والعقلية . ووكان يسع رجلا مثل ليوناردو أن يكون ذا نظرة كونية شاملة ، ويمس أكثر من عشرة علوم بعقلية الطُّلَعة المتشوف ، ولكن البلاد كانت خالية من المعامل العلمية الكبرى ، وكان تشريح الأجسام لا يزال فى بدايته ، ولم يكن ثمة مجهر يستعان به على دراسة علم الأحياء أو الطب ، أو مرقب يكبر الكواكب ويأتى بالقمر على حافة الأرض . وكان حب الجمال السائد فى العصور الوسطى قد نضج حتى عاد فناً فخماً جليلا ، ولكن لم يكن فى تلك العصور حب للحقيقة ينمو حتى يصير علما ، وكان كشف الآداب القديمة قد بعث فى الناس نزعة أبيقورية متشككة تمجد القديم وتتخذه مثلا أعلى بدل أن تجعلهم يخلصون إخلاص الرواقيين للبحوث العلمية التى تهدف إلى تشكيل المستقبل . ذلك أن النهضة قد وهبت روحها للفن ، ولم تترك للأدب منها إلا القليل ، وتركت أقل من هذا القليل للفلسفة ، وأقل من هذا وذاك العلوم . ولهذا كان ينقصها من هذه الناحية ذلك النشاط العقلى المتعدد الأشكال والذى امتاز به العصر الذهبى اليونانى من أيام بركليز

وإسكلس إلى زينون الرواق وارستاخوس الفلكي . ولم يكن فى مقدور العلوم أن تتقدم حتى تمهد الفلسفة لها الطريق .

من أجل هذا كان من الطبيعي أن يجد القارئ ، الذى يعرف عشرة من أسماء الفنانين ، مشقة فى تذكر اسم عالم إيطالى واحد فى عصر النهضة عدا اسم ليوناردو ، وهو لا يذكر اسم أمرجو فسپوتشى نفسه إلا إذا ذُكِّر به ، وأما جليليو فهو من رجال القرن السابع عشر (١٥٦٤ – ١٦٤٢) . والحق أنا لا نجد أسماء خالدة فى ذلك العصر إلا فى الجغرافية والطب . ففى أولها اشتهر أودريك البردنونى Oderic of Pordenone الذى سافر إلى الهند والصين للتبشير بالدين (حوالى عام ١٣٢١) وعاد عن طريق التبت وبلاد الفرس ، وكتب وصفاً لما شاهد ، وأضاف معلومات كثيرة قيمة لما كتبه ماركوپولو قبل جيل من ذلك الوقت . ولاحظ پاولو تسكانيلى Paolo Toscanelli الفلكى ، والطبيب ، والجغرافى مذنب هالى فى عام ١٤٥٦ ، ويقال إنه أمد كولمبس بالمعلومات وبالتشجيع فى مغامرته لاجتياز المحيط الأطلنطى[١٦ و] . وقام أمرجو فسپوتشى الفلورنسى بأربع رحلات بحرية إلى العالم الجديد (١٤٩٧ وما بعدها) ، وقال إنه أول من كشف أرض القارة وأعد لها خرائط ؛ نشرها مارتن وولد سيملر Martin Waldseemüller واقترح أن تسمى القارة « أمريكا » ، وأعجب الإيطاليون بالفكرة وأذاعوها فى كتاباتهم[١٦ خ] .

وكانت علوم الأحياء آخر ما نشأ من العلوم ، لأن نظرية خلق الإنسان خلقاً خاصاً منفصلا عن سائر الكائنات – وهى التى كان يؤمن بها الناس كافة تقريباً – قد جعلت من غير الضرورى ومن الخطر أن يبحث الناس فى أصله الطبيعي . وكانت هذه العلوم تقتصر فى الأغلب الأعم على البحوث والدراسات العملية فى علم النبات الطبى ، وفلاحة البساتين ، وتربية الأزهار ، والزراعة : من ذلك أن پيترو ده كريستشنتسى Pietro de Crescenzi

نشر وهو فى سن السبعين (١٣٠٦) كتيباً فى الجغرافية خليقاً بالإعجاب وإن كان قد تجاهل كتابات مسلمى أسپانيا فى ذلك الميدان ، وهى خير من كتابته . وأنشأ لورندسو ده ميديتشى فى كاريجى Careggi حديقة شبه عمومية من النباتات النادرة الوجود ، وأما أولى الحدائق العمومية المخصصة لعلم النبات فهى التى أنشأها لوكا غينى Luca Ghini فى پيزا عام ١٥٤٤ ، وكان للحكام ذوى النزعة الحديثة كلهم تقريباً حدائق للحيوان ، كما كان الكردنال أپوليتو ده ميديتشى Ippolito de Medici يحتفظ بمعرض من الآدميين — هم طائفة من الهمج ينتمون إلى عشرين قومية مختلفة كلهم من ذوى الأجسام القوية الممتازة .

الفصل الثالث

الطب

وكان الطب أكثر العلوم ازدهاراً لأن الناس يضحون بكل شيء ما عدا الحرص على صحة الأجسام ؛ وكان الأطباء ينالون من الثروة الإيطالية الجديدة قسطاً موفوراً مشجعاً ؛ فقد كانت بلدوا مثلاً تؤدى لواحد منهم ألفى دوقة فى العام ليكون مستشاراً طبياً لها ، وتتركه فى الوقت نفسه حراً يتقاضى ما يشاء من الأجر فى عمله الخاص . وكان بترارك الذى يعيش من مرتباته يندد أشد التنديد بأجور الأطباء العالية وبأثوابهم القرمزية وقلانسهم المصنوعة من فرو السنجاب(١٦) . وخواتمهم البراقة ومهاميزهم الذهبية . وقد حذر بجد وحرارة البابا المريض كلمنت السادس من الوثوق بالأطباء فقال :

« أعرف أن الأطباء يحاصرون فراش مرضك ، وطبيعى أن يملأ هذا قلبى خوفاً عليك . ذلك أن آراءهم متضاربة على الدوام ؛ وأن من لا يجد منهم جديداً ينطق به يجلله عار التخلف عن غيره من الأطباء . وهم يتجرون بحياتنا لكى تذيع شهرتهم بما يستحدثون من جديد كما يقول پلنى Plini . وحسب الواحد منهم أن يقول إنه طبيب لكى يؤمن الناس بكل كلمة يقولها ، وليس هذا شأن الحرف الأخرى ، مع أن كذبة الطبيب يكمن فيها من الأخطار ما لا يكمن فى كذبة غيره . وهم يتعلمون مهنتهم على حسابنا ، وحتى موتنا يهىء لهم أسباب الخبرة ، فالطبيب وحده من حقه أن يقتل الناس دون أن يخشى عقاباً ؛ ألا أيها الأب يا أرحم الراحمين ! انظر إلى عصبتهم نظرتك إلى جيش من الأعداء ، واذكر القبرية المحذرة التى نقشها رجل بائس على شاهد قبره : « لقد مت من كثرة الأطباء ! »(١٧) .

ولقد كان الأطباء في جميع البلاد والعهود المتحضرة ينافسون النساء فيما يمتزن به من أنهن أكثر من يشتهي بنو الإنسان أكثر من يهجون ».

وكان الأساس الذى قام عليه تقدم الطب هو بعث التشريح . ذلك أن خـدم الكنائس كانوا يتعاونون مع الأطباء كما كانوا يتعاونون مع الفنانين ، فيقدمون جثث الموتى لتشرح فى المستشفيات التى يشرف عليها أولئك الأطباء . فكان منديتو ده لوتسى Mondino de' Luzzi مثلا يشرح جثث الموتى فى بولونيا وكتب كتاباً فى « التشريح Anatomia (١٣١٦) بقى مرجعاً من أهم المراجع مدى ثلاثة قرون . على أنه كان يصعب على الأطباء مع ذلك أن يحصلوا على الجثث ، وحدث فى عام ١٣١٩ أن سرق بعض الطلاب فى بولونيا جثة فى إحدى المقابر وجاءوا بها إلى أستاذ فى الجامعة شرحها أمامهم ليدرسوا أجزاءها ، فسيق الطلاب للمحاكمة ؛ ولكنهم برئوا ؛ وأخذ ولاة الأمور المدنيون من ذلك الوقت يغضون الطرف عن استخدام جثث المشنوقين التى لا يطالب بها أحد فى « التشريحات »[١٨] . ويعزى إلى بيرينجاريو دا كبرى Berengario da Capri (١٤٧٠—١٥٥٠) أستاذ التشريح فى جامعة بولونيا أنه شرح مائة جثة[١٩] . وكان التشريح يحدث فى جامعة بيزا منذ عام ١٣٤١ إن لم يكن قبله ، وسرعان ما سمح به فى جميع مدارس الطب بإيطاليا ومنها مدرسة الطب البابوية القائمة فى روما ؛ وأجاز سكستس السادس (١٤٧١ — ١٤٨٤) هذا التشريح رسمياً[٢٠] .

واستعاد التشريح فى عهد النهضة على مهل تراثه المنسى فى عهد اليونان والرومان الأقدمين ؛ وحرره رجال أمثـال أنطونيو بنيفينى Antonio Beniveni ، وألسندرو أكيلنى Alessandro Achillnni ، وألسندرو بينيدتى Alessandro Beneditti ومار كانطونيو دلا تورى Marcantonio della Torre ، حرره هؤلاء من سيطرة العرب ، وعادوا به إلى جالينوس وأبقراط ؛ وشكوا حتى فى هذين العميدين المقدسين ، وأضافوا إلى المعارف

العلمية فى الجسم البشرى كل عصب ، وعظم ، وعضله فيه : ووجه بينيفيني بحوثه فى التشريح لمعرفة الأسباب الداخلية للأمراض ، وكانت رسالته فى **الأسباب الخفية والعجيبة الأمراض وعلاجها** (De abditis nonullis ac Mirandts Morborum et canatiornm causis ١٥٠٧) أساس التشريح المرضى (الباثولوچى) وجعل فحص الجسم بعد الموت عاملا أساسياً فى نمو الطب الحديث . وزاد فن الطباعة الجديد فى هذه الأثناء سرعة تقدم الطب لأنه يسر انتشار الكتب الطبية وتبادلها بين الدول المختلفة .

وفى وسعنا أن نقدر بعض التقدير انتكاس العلوم الطبية فى العالم المسيحى اللاتينى خلال العصور الوسطى إذا لاحظنا أن أعظم المشرحين والأطباء فى ذلك العصر لم يكادوا يبلغون من العلم قبل عام ١٥٠٠ ما بلغه أبقراط ، وجالينوس ، وسورانوس Soranus فى الفترة المحصورة بين ٤٥٠ ق . م و ٢٠٠ بعد الميلاد . وكان العلاج فى خلال العصور الوسطى لا يزال قائماً على نظرية الأخلاط لأبقراط ؛ وكانت الحجامة هى العلاج الشافى من كل العلل . وكانت أول محاولة معروفة لنقل الدم هى التى قام بها طبيب يهودى لعلاج البابا إنوسنت الثامن (١٤٩٢) ؛ وأخفقت هذه المحاولة كما قلنا من قبل . وكان الراقون لا يزالون يدعون لعلاج العجز الجنسى وفقدان الذاكرة بالرقى الدينية أو تقبيل المخلفات ؛ ولعل سبب التجائهم إلى هذه الأساليب أن هذا العلاج الإيحائى كان يساعد على الشفاء فى بعض الحالات ؛ وكان الصيادلة يبيعون حبوباً وعقاقير عجيبة ويكثرون أموالهم بأن يضموا إلى سلعهم الكتب والورق ، والأدهان ، والحلوى ، والتوابل ، والحلى[٢١] .

وألف ميشيل سفنرولا والد الراهب الثائر رسالة **الطب التجريبى** (حوالى عام ١٤٤٠) ورسائل أخرى أقصر منها ؛ بحث فى إحداها كثرة إصابة الفنانين العظام بالأمراض العقلية ؛ وتحدث فى رسالة أخرى عن مشهورى الرجال الذين طال عمرهم نتيجة تعاطيهم المشروبات الكحولية كل يوم .

وكان الأطباء الدجالون لا يزالون كثيرى العدد ، ولكن القانون أصبح وقتئذ يعنى بتنظيم مهنة الطب أكثر من ذى قبل ؛ فكانت العقوبات توقع على الذين يمارسون الطب دون أن يحصلوا فيه على درجة علمية ؛ وكان حصولهم عليها يتطلب دراسة منهج فيه يدوم أربع سنوات (١٥٠٠) ؛ ولم يكن يسمح لأى طبيب بأن يشخص مرضاً خطيراً إلا إذا ضم إليه زميلا له . وكانت شرائع البندقية تحتم على الأطباء والجراحين أن يجتمعوا كل شهر ليتبادلوا المذكرات الطبية ، وأن يحتفظوا بجدة معلوماتهم بالاستماع إلى منهج فى التشريح مرة كل عام على الأقل . وكان يفرض على طالب الطب وقت تخرجه أن يقسم بألا يطيل على مريض زمن مرضه ، وأن يشرف على تحضير الدواء الذى يصفه له ، وألا يشارك الصيدلى فى الثمن الذى يتقاضاه نظير إعداد الدواء . وحدد هذا القانون نفسه (قانون البندقية الصادر فى عام ١٣٦٨) أجر الصيدلى نظير تحضير الدواء بعشرة صلديات[٢٢] . والصلدى عملة لا يستطاع الآن تقدير قيمتها . وقد وصلت إلى علمنا عدة حالات جعل فيها شفاء المريض شرطاً لتقاضى الطبيب أجره. وذلك بناء على تعاقد خاص بينهما[٢٣] .

وأخذت الجراحة ينتشر صيتها انتشاراً سريعاً كلما اقترب سجل عملياتها وآلاتها مما كان عليه من التنوع والاتفاق فى عهد المصريين الأقدمين . من ذلك أن برناردو دا رابلو Bernardo da Rapallo ابتكر الجراحة العجانية لاستخراج الحصوة (١٤٥١) ؛ واشتهر ماريانو سانتو Mariano Santo بكثرة نجاحه فى استخراج حصاة المثانة بالشق الجانبى (حوالى ١٥٣٠) وابتكر چيوڤنى دا ڤيجو جراح يوليوس الثانى وسائل لربط الشرايين والأوردة خيراً من الوسائل التى كانت معروفة من قبل ؛ وعادت الجراحة التعويضية التى كانت معروفة للأقدمين إلى الظهور فى صقلية حوالى عام ١٤٥٠ ؛ وكانت الأنوف ، والشفاه ، والآذان المشدوهة تصلح بترقيعها

بالجلد المأخوذ من أجزاء أخرى من الجسم ، وقد بلغ من إتقانها أن الناظر إليها لا يكاد يتبين خطوط الالتحام(٢٤) .

وأخذت أساليب الصحة العامة تتحسن تحسناً مطرداً . من ذلك أن أندريا دندولو حين كان دوج البندقية (١٣٤٣ — ١٣٥٤) أنشأ أول لجنة بلدية معروفة للصحة العامة(٢٥) ، وحذت حذو البندقية فى ذلك غيرها من المدن الإيطالية . وكانت هذه اللجان الخاصة بالصحة العامة تختبر جميع الأطعمة والعقاقير التى تعرض للبيع على الجماهير ، وتأمر بعزل من يصابون ببعض الأمراض المعدية . ولما فشا الموت الأسود فى أوربا منعت البندقية فى عام ١٣٧٤ جميع السفن التى تحمل أشخاصاً يرتاب فى أنهم مصابون بالمرض أو بضائع مشتبها فى أنها مصابة به من الدخول فى موانيها . وفى راجوسا Ragusa كان القادمون يحجزون فى أماكن خاصة ثلاثين يوماً قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى المدينة . وكانت البضائع المشتبه فيها تعامل هذه المعاملة نفسها . وأطالت مرسيليا مدة الحجر الصحى (١٣٨٣) (الكرنتينة la quarantine) فجعلته أربعين يوماً ، وحذت البندقية حذوها فى عام ١٤٠٣(٢٦) .

وأخذت المستشفيات يتضاعف عددها بهمة رجال الدين وغير رجال الدين وغيرتهم ، فأنشأت سينا فى عام ١٣٠٥ مستشفى اشتهر بسعته وبما كان يؤديه من خدمات ، وأسس فرانتشيسكو اسفوردسا المستشفى الكبير Ospedale Maggiore فى ميلان (١٤٥٦) ، وحولت البندقية فى عام ١٤٢٣ جزيرة سانتا ماريا دى نادساريت Santa Maria di Nazaret إلى محجر صحى لإيواء المصابين بالجذام ؛ وكان هذا أول محجر معروف من نوعه فى أوربا كلها(٢٧) . وكان فى فلورنس فى القرن الخامس عشر ثلاثة وخمسون مستشفى(٢٨) ؛ وكانت هذه المؤسسات كلها تستمد معونة سخية من الهبات الخاصة والعامة ؛ وكانت بعض المستشفيات مضرب المثل فى روعة البناء

وفخامته ، ومنها المستشفى الكبير فى ميلان ؛ ومنها ما كان يزين جدرانه بالتحف الفنية المُلهِمة . واستخدم مستشفى كبا Ospedafe del Coppa فى بستويا چيوڤنى دلا رُبيا ليشكل بجدرانه نقوشاً من الصلصال المحروق تصف فى وضوح نماذج من مناظر المستشفيات ، وامتازت واجهة مستشفى البرءاء Ospedali degli Innocenti فى فلورنس الذى خططه برونيلسكو بالمدليات الرائعة المصنوعة من الصلصال المحروق التى وضعها فى البندريلات القائمة على عقود بابها أندريا دلاربيا . ولشد ما تأثر لوثر بما وجده فى إيطاليا من معاهد طبية وخيرية فى عام ١٥١١ ، وهو الذى روع بما كان فيها من فساد خلقى . وقد وصف لنا فى **حديث المائدة** مستشفياتها بقوله :

« المستشفيات فى إيطاليا جميلة البناء مزودة أعجب التزويد بأحسن أنواع الطعام والشراب ، ويعتنى فيها أحسن عناية بخدمة المرضى ، وجدرانها مغطاة بالصور والنقوش . وإذا جاءها مريض نزعت عنه ملابسه بحضور كاتب يثبتها عنده بعناية وتحفظ فى أمان . ثم يلبس المريض قميصاً أبيض اللون ، ويخصص له سرير مريح عليه غطاء نظيف من التيل . ويحضر إليه على الفور طبيبان ويأتيه الخدم بالطعام والشراب فى آنية نظيفة . . . . ويزور المستشفى بالتناوب كثير من السيدات ويعنين بالمرضى وهن محجبات الوجوه ، حتى لا يعرف أحد كنههن ؛ وتبقى كل واحدة منهن فى المستشفى بضعة أيام ، تعود بعدها إلى منزلها ، وتحل غيرها محلها . . . . وتضارع هذه المستشفيات فى الجودة ملاجئ اللقطاء فى فلورنس ، حيث يعنى أكبر عناية بإطعام الأطفال وتعليمهم ، وحيث يزودون بحلل متشابهة من الثياب ويلقون أعظم العناية بجميع أنواعها[٢٩] » .

وكثيراً ما يكون من نحس طالع الطب أن أمراضاً جديدة تقابل تقدمه العظيم فى العلاج — وتكاد تعقبه على الدوام . ومصداقاً لهذا نقول إن الجدرى والحصبة اللذين لا نكاد نسمع عنهما فى أوربا قبل القرن السادس عشر أصبحا

وقتئذ فى مقدمة الأوبئة الأوربية . وقاست أوربا فى عام ١٥١٠ أول وباء أنفلونزا سجله التاريخ فى ربوعها . واجتاح إيطاليا فى عامى ١٥٠٥ و ١٥٢٨ وباء من أوبئة التيفوس — وهو مرض لم يرد له ذكر قبل عام ١٤٧٧ . ولكن ظهور الزهرى فجاءة وانتشاره السريع فى إيطاليا وفرنسا فى أواخر القرن الخامس عشر كانا أكثر الظواهر رهبة وأشدها اختباراً لعلم الطب فى عصر النهضة . ولسنا نعرف هل كان الزهرى موجوداً فى أوربا قبل عام ١٤٩٣ أو هل جاء إليها من أمريكا حين عاد منها كولمبس فى ذلك العام ، فتلك مسألة لا تزال مثار الجدل بين العلماء وليس هذا موضع البت فيها .

وتؤيد بعض الحقائق النظرية القائلة إنه مرض أصيل فى أوربا ؛ من هذه أن مومسا أقرت فى محكمة بديجون أنها أقنعت أحد طلابها بعدم الاقتراب من لأنها مصابة بالمرض **الكبير** le gros mal ، ثم لا نرى بعدئذ وصفاً لهذا المرض فى ذلك السجل[٣٠] . وفى الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٩٤ أمر منادى المدينة فى باريس أن يأمر كل المصابين بـ **البثرة الكبيرة** [٣١]. أن يخرجوا من المدينة . ولسنا نعرف ماذا كانت هذه « البثرة الكبيرة » ، فلربما كانت هى الزهرى نفسه . وفى أواخر عام ١٤٩٤ غزا إيطاليا جيش فرنسى ، واحتل نابلى فى ٢١ فبراير من عام ١٤٩٥ ، وسرعان ما فشا فيها بعدئذ وباء أطلق عليه الإيطاليون اسم **الداء الفرنسى** il morlo gallico يزعمون أن الفرنسيين قد جاءوا به إلى إيطاليا . وأصيب بهذا المرض كثيرون من الجنود الفرنسيين ، ولما عاد هؤلاء إلى فرنسا فى شهر أكتوبر من عام ١٤٩٥ نشروا الوباء بين الأهلين ؛ ولهذا سمى فى فرنسا **مرض نابلى** Le mal de Naples لأن الأهلين افترضوا أن الجنود الفرنسيين قد أصيبوا به فيها . وفى السابع من شهر أغسطس عام ١٤٩٥ أى قبل عودة الجيش الفرنسى من إيطاليا بشهرين أصدر الإمبراطور مكسمليان مرسوماً ورد فيه ذكر **المرض الفرنسى** malum Francicum ؛ وغير خاف أن هذا « المرض

الفرنسى » لا يمكن أن يعزى إلى الجيش الفرنسى الذى لم يكن قد عاد بعد من إيطاليا . وأخذ لفظ « **المرض الفرنسى** morbus gallicus» منذ عام ١٥٠٠ يطلق على مرض الزهرى فى جميع أنحاء أوروبا[٣٢] . ويحسن بنا أن نختتم هذه الفقرة بقولنا إن هذه كلها مجرد إشارات وليست أدلة قاطعة على أن الزهرى كان موجوداً فى أوروبا قبل عام ١٤٩٣ .

أما القول بأن أصل المرض أمريكى فقائم على تقرير كتبه طبيب أسبانى يدعى راى دياز ده إزلا Rug Diaz de Izla بين عامى ١٥٠٤ و ١٥٠٦ (ولكنه لم ينشر إلا فى عام ١٥٣٩) . وهو يقول إن قبطان سفينة أمير البحر أصيب فى أثناء عودة كولمبس إلى أوروبا بحمى شديدة مصحوبة بطفح جلدى مروع ؛ ويضيف إلى ذلك قوله إنه هو نفسه عالج وهو فى برشلونة بحارة مصابين بهذا المرض الجديد الذى لم يكن ، على حد قوله ، معروفاً فيها من قبل . وقد قال إنه هو بعينه المرض الذى كانت تطلق عليه أوروبا اسم « المرض الفرنسى » ويؤكد أن العدوى قد جاءت إليهم من أمريكا[٣٣] . ومعروف أن كولمبس حين عاد من رحلته الأولى إلى جزائر الهند الغربية وصل إلى پالوس Palos فى أسـبانيا فى الخامس عشر من شهر مارس سنة ١٤٩٣ . وقد لاحظ پنتور Pintor طبيب البابا اسكندر السادس فى ذلك الشهر نفسه ظهور المرض الفرنسى لأول مرة فى رومة[٣٤] . ومرت سنتان كاملتان تقريباً بين عودة كولمبس واحتلال الفرنسيين ناپلى — وهى مدة تكفى لانتشار الداء من أسبانيا إلى إيطاليا — ؛ غير أننا لسنا واثقين من أن الوباء الذى اجتاح ناپلى فى عام ١٤٩٥ هو الزهرى عينه[٣٥] ، والعظام التى يمكن أن يفسر ما فيها من تغيرات على أنه من فعل الزهرى جد نادرة فى المخلفات الأوربية قبل عهد كولمبس ، لكن عظاماً كثيرة من هذا النوع قد وجدت فى أمريكا من مخلفات العهود السابقة لرحلة كولمبس(*) [٣٦] .

(*) ويختم سارتن بحثه بقوله : « أما من حيث الزهرى فإنى قد عجزت حتى الآن عن أن —

ومهما يكن مصدر المرض الجديد ، فإنه انتشر بسرعة مروعة ، ويلوح أن سيزارى بورچيا قد أصيب به فى فرنسا ، كما أصيب به أيضاً كثير من الكرادلة ويوليوس الثانى نفسه ؛ على أننا يجب أن ندخل فى حسابنا إمكان انتقال العدوى به عن طريق الاختلاط البرىء بأشياء أو أشخاص تحمل أو يحملون جرثومة المرض النشيطة . وكان الطفح الجلدى يعالج فى أوربا من زمن بعيد بالمرهم الزئبقى ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد أصبحت مركبات الزئبق شائعة شيوع البنسلين فى هذه الأيام . وكان الجراحون والدجالون يسمون بالكيميائيين لأنهم حولوا الزئبق إلى ذهب ، واتخذت إجراءات للوقاية من الداء . من ذلك أن قانوناً صدر عام ١٤٩٦ يحرم على الحلاقين قبول المصابين بالزهرى أو استخدام الآلات التى استعملوها أو استعملت لهم . وتقرر فحص العاهرات مراراً أكثر من ذى قبل ، وحاولت بعض المدن تجنب هذه المشكلة بطرد المومسات منها ؛ فنفتهن فيرارا وبولونيا فى عام ١٤٩٦ بحجة أنهن مصابات « بنوع من الطفح السرى يسميه بعضهم بجذام القديس أيوب »(٣٨) . ودعت الكنيسة إلى العفة لأنها هى طريق الوقاية الذى يحتاجه الناس وعمل بهذه النصيحة كثيرون من رجال الدين .

وكان أول من أطلق لفظ syphilis (الزهرى) على هذا الداء هو چرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro أحد الأشخاص ذوى المواهب المتعددة ولكنه مع ذلك من جلة العلماء فى عصر النهضة . وقد بدأ

= أكشف وصفاً واحداً له قبل الأوصاف التى ظهرت متتابعة تتابعاً سريعاً فى عام ١٤٩٥ والأعوام التالية له . ولا أزال حتى الآن غير مقتنع رغم التأكيدات الكثيرة التى صدرت فى السنين الأخيرة ، بأن الزهرى الأوربى وجد قبل أيام كولمبس »(٣٧) .

ومن شاء الإستزادة من العلم بتاريخ الأوبئة وأثرها فى أحداث العالم فإنه واجد علماً ومتعة فى كتاب Rats, Lice and History الذى ترجمه إلى العربية الدكتور أحمد بدران ونشرته مؤسسة فرانكلين باسم التيفوس والتاريخ .

حياته بداية طيبة : فقد ولد فى فيرونا (١٤٨٣) من أسرة شريفة أنجبت قبله عدداً من الأطباء المشهورين . ودرس فى پدوا كل شيء تقريباً ؛ وكان من زملائه فى الدرس كوبرنيق وكان پمپونتسى Pomponazzi وأكايني Achilini يعلمانه الفلسفة والتشريح ؛ ولما بلغ الرابعة والعشرين من العمر كان هو أستاذ للمنطق ثم ما لبث أن اعتزل هذا العمل ليخصص نفسه للبحث العلمى بوجه عام والبحث الطبى بوجه خاص تخففه رغبة قوية فى دراسة الآداب القديمة . وأثمر جمعه بين العلوم والآداب على هذا النحو شخصية مصقولة مهذبة . كما أثمر قصيدة رائعة مكتوبة باللغة اللاتينية على نمط قصيدة **الفلاحة** Georgics لفرچيل سماها **الزهرى ، النجاه من الداء الفرنسى** Syphilis, sive le morlo gallico (١٥٢١) . وكان الإيطاليون من أيام لكريتيوس قد برعوا فى كتابة القصائد التعليمية ، ولكن من الذى كان يظن أن المطوقات المتناوبة(*) يمكن أن يتحدث عنها بشعر سلس ؟ أما لفظ سفِلِس فكان يطلق فى الأساطير القديمة على راع اعتزم ألا يعبد الله الذى لا يستطيع رؤيته ، بل يعبد الملك ، وهو وحده سيد قطعانه الذى يمكنه أن يراه ؛ ولذلك غضب منه أپلو فملأ الهواء بأبخرة كريهة أصيب منها سفلس بمرض مصحوب بطفح وخراجات فى جميع أجزاء جسمه ؛ تلك فى جوهرها هى قصة أيوب . واقترح فراكستورو أن يبحث عن أول ظهور « مرض شديد الوطأة ، نادر لم يرقط فى القرون الماضية اجتاح أوربا كلها ومدن آسية وليبيا المزدهرة وغزا إيطاليا فى تلك الحرب المشئومة التى كانت سبباً فى اشتقاق اسمه من بلاد غاله (فرنسا) » ليتبين مبدأ ظهوره ، وانتشاره الوبائى ، وأسبابه ، وعلاجه . وهو يرتاب فى أن المرض قد وفد من أمريكا ، لأن ظهوره كاد يكون فى وقت واحد فى كثير من بلاد أوربا البعيدة

(*) اسم طبى يطلق على نوع من الجراثيم منها جرثومة الحمى المالطية وحمى البحر المتوسط والزهرى الخ . (المترجم)

بعضها عن بعض . ويقول إن العدوى : « لم تكن تظهر فى الحال ، بل كانت تبقى كامنة فترة من الزمن قد تطول أحياناً إلى شهر . . . بل إلى أربعة أشهر . وكانت قرح صغيرة تبدأ فى الظهور فى معظم الحالات على الأعضاء التناسلية . . . . ثم تظهر على الجلد بعدئذ بثرات عليها غشاء . . . . ثم تأكل هذه البثرات المتقرحة الجلد . . . وتصل عدواها إلى العظام نفسها . . . . وتتآكل فى بعض الحالات الشفتان ، أو الأنف ، أو العينان ، وفى حالات أخرى تتآكل جميع الأعضاء التناسلية »(٣٩) .

ثم تمضى القصيدة فتبحث فى علاج هذا الداء بالزئبق أو بالجواياك (صمغ خشب الأنبياء) — وهو « خشب مقدس » يستعمله هنود أمريكا .

وتحدث فرانكستورا فى كتاب آخر منشور يسمى **العدوى** عن بعض الأمراض المعدية — كالزهرى ، والتيفوس ، والتدرن — وطرق انتشارها . واستدعاه بولس الثالث فى عام ١٥٤٥ ليكون كبير الأطباء لمجلس ترنت . وأقامت ڤيرونا نصباً عظيماً تخليداً لذكراه ، ونقش چيوڤنى دال كاڤينو Giovanni dal Cavino صورته على مدلاة تعد من أجمل التحف الفنية التى من نوعها .

وكانت العادة المتبعة قبل عام ١٥٠٠ أن يطلق على جميع الأمراض المعدية على اختلاف أنواعها ذلك الاسم العام الشامل وهو « الطاعون » . ثم كان من الأعمال الدالة على تقدم الطب أنه قد ميز فى وضوح وشخص طبيعة هذا الوباء الخاص ؛ وأعد العدة لمقاومة انتشار مرض خطير كالزهرى . ولم يكن الاعتماد على أبقراط وجالينوس كافياً فى هذه الأزمة الطاحنة ؛ كما أنه لم يكن فى مقدور مهنة الطب أن تواجه هذه التجربة الغير المتوقعة إلا لأنها قد أدركت ضرورة الدراسة المفصلة الدائمة التجدد لأعراض هذا الداء ، وأسبابه ، وطرق علاجه بتجارب تجرى فى ميدان دائم الاتساع متصلة بعضها ببعض على الدوام .

وإلى هذه المؤهلات العالية ، وإلى الإخلاص فى العمل ، والنجاح فيه ،

يرجع فضل اعتراف الناس بأن الطبقة الممتازة من الأطباء تمثل فى إيطاليا أرستقراطية عصامية لم ترث المجد عن الآباء والأجداد . ولما أن فصل أولئك الأطباء مهمتهم عن الكنيسة فصلا تاماً ، أصبح الناس يجلونهم أكثر مما يجلون رجال الدين ؛ فلم يكن كثيرون منهم مستشارى الأمراء ، والأحبار ، والملوك فى الطب فحسب ، بل كانوا إلى ذلك مستشاريهم السياسيين ، وكثيراً ما كانوا رفاقهم المحببين . وكان كثيرون منهم من الكتاب الإنسانيين ، ملمين بالآداب القديمة ؛ يجمعون المخطوطات والروائع الفنية ؛ وكثيراً ما كانوا أصدقاء كبار الفنانين وثيقى الاتصال بهم . وآخر ما نقوله عنهم أن كثيرين منهم قد حققوا المثل الأبقراطى الأعلى وهو الجمع بين الفلسفة والطب(*) ، فكانوا يتنقلون فى يسر من موضوع إلى موضوع فى دراساتهم وفى تعليمهم ، ولبثوا فى الهيئة المهنية الفلسفية المتآخية حافزاً لإخضاع أفلاطون ، وأرسطو ، وأكوناس — كما أخضعوا أبقراط ، وجالينوس ، وابن سينا — للفحص المتجدد ، الجرىء الذى يهدف إلى معرفة الحقيقة .

(*) لقد حقق هذا الجمع على أوسع نطاق أطباء العرب (انظر الجزء الثالث عشر من هذه السلسلة . (المترجم)

الفصل الرابع

الفلســفة

يبدو من أول نظرة أن النهضة الإيطالية لم تثمر محصولا موفوراً من الفلسفة ، ذلك أن محصولها هذا لا يمكن أن يضارع ما أثمرته الفلسفة المدرسية الفرنسية فى أيام عزها من عهد أبلار إلى عهد أكوناس ، دع عنك « مدرسة أثينة الفلسفية » . وأعظم الأسماء التى اشتهرت بها فى الفلسفة (إذا تجاوزنا الزمن الذى يحدد عادة لنهاية النهضة) هو جيور دانو برنو Giordano Bruno (١٥٤٨ ؟ — ١٦٠٠) ؛ وعمل هــذا الرجل خارج نطاق الفترة التى ندرسها فى هذا الكتاب . ويبقى بعد ذلك اسم پمپونتزى Pomponazzi ، ولكن منذا الذى يعظم الآن هذا الصارخ المتشكك الجرىء المسكين ؟

وقد احتضن الإنسانيون مبادئ الثورة الفلسفية حين اكتشفوا ونشروا بحذر عالم الفلسفة اليونانية ولكنهم كانوا فى معظم الأحوال — إذا استثنينا ﭬلا Valla — أكثر دهاء وحرصاً من أن يعرضوا معتقداتهم جهرة . وكان أساتذة الفلسفة فى الجامعات تقف فى سبيلهم تقاليد الفلسفة المدرسية ؛ ولهذا فإنهم بعد أن قضوا سبعة أعوام أو ثمانية يضربون فى تلك البيداء انتهوا إما إلى الخروج منها إلى ميادين أخرى من الدراسة وإما إلى دفع أجيال أخرى إليها ، بعد أن مجدوا لهم ما صادفوه من العوائق التى حطمت إرادتهم ووصلت بعقولهم سالمة إلى غاية عقيمة لا حياة فيها . ومن يدرى لعل الكثيرين منهم أحسوا بقسط من السلامة العقلية والاقتصادية والاقتصار على المسائل الخفية الغامضة يصوغونها بعناية وحذر فى مصطلحات مجلببة غير مفهومة المعنى ؟ وكانت الفلسفة المدرسية لا تزال فى معظم الكليات الفلسفية خاضعة للتقاليد

والرسميات، وقد أخذت أطرافها تتجمد استعداداً للموت والفناء ؛ وأصبحت المسائل القديمة التي كانت مثار الجدل في العصور الوسطى يعاد النظر فيها بأساليب الجدل القديمة التي كانت متبعة في تلك العصور ، ويبذل في هذا الجدل كثير من الجهد والعناء ثم تنشرها هيئة التدريس في الكليات مزهوة بها مفتخرة .

وكان ثمة عنصران من عناصر الحياة يعملان لإحياء الفلسفة : هما النزاع القائم بين الأفلاطونيين والأرسطوطاليين ، ثم انقسام الأرسطوطاليين أنفسهم إلى مستمسكين بتقاليدهم القديمة ورشديين(*) . وأضحى هذا النزاع في بولونيا وپدوا مبارزة حقيقية ومسائل حياة أو موت بمعناهما الحرفي . وكانت كثرة الإنسانيين أفلاطونية بتأثير جمستس پليثو Gemistus Pletho ، وبساريون Bessarion ؛ وثيودورس جادسا Fheodorus Gaza ، وغيرهم من اليونان وقد سكروا بخمر **المحاورات** ، وكان من العسير عليهم أن يفهموا كيف يطبق أي إنسان المنطق الجاف ، وما حواه كتاب **الأرغانون** الهزيل ، والطريقة « الوسطى الذهبية » الرصاصية التي ينادي بها أرسطو الحذر . ولكن هؤلاء الأفلاطونيين كانوا يصرون على أن يبقوا مسيحيين ؛ وكأنما كان مارسليو فتشينو Marsilo Ficino ممثلا لهم ومندوباً عنهم حين كرس نصف حياته للتوفيق بين أسلوبي التفكير المختلفين . ولكي يحقق هذا الغرض شرع يدرس دراسة واسعة ، وتوسع في هذه الدراسة حتى شملت زردشت وكنفوشيوس . ولما وصل في دراسته إلى أفلوطين ، وترجم هو نفسه **الإنيادات** ، أحس أنه عثر في الأفلاطونية الحديثة الصوفية على الخيط الحريري الذي يستطاع به ربط أفلاطون بالمسيح . وحاول أن يصوغ هذا الارتباط في كتابه **اللاهوت الأفلاطوني** Theologia platonica وهو خليط

(*) أتباع ابن رشد الفيلسوف الأندلسي العربي . (المترجم)

مهوش من الدين القويم ، والإيمان بالعلوم الخفية ، والهلينية ، ووصل فيه بعد تردد وإحجام إلى نتيجة من نوع مذهب الأحدية(*) فقال إن الله هو روح العالم . وأصبح هذا هو فلسفة لورندسو والملتفين حوله ، والمجامع العلمية الأفلاطونية فى رومة ، ونابلى ، وغيرهما من البلاد ؛ ووصلت هذه الفلسفة من نابلى إلى چيوردانو برونو ، ثم انتقلت من برونو إلى أسپنوزا ، ومنه إلى هيجل ، ولا تزال حية قائمة إلى يومنا هذا .

ولكنهم كانوا يجدون ما يقولونه دفاعاً عن أرسطو وخاصة إذا أسىء فهمه وتفسيره . ترى هل كان أكوناس على حق حين فهم أنه يقول بالخلود الشخصى ، أو هل كان ابن رشد محقاً حين فهم من كتاب النفس أنه لا يؤكد عدم الموت إلا لنفس بنى الإنسان الكلية ؟ وكان ابن رشد الرهيب ، ذلك الفيلسوف العربى المرعب ، الذى ظل الفن الإيطالى زمناً طويلا يصوره منكباً على وجهه تحت قدمى القديس تومس ، كان ابن رشد هذا منافساً يدعو إلى غلبة الفلسفة الأرسطوطالية بلغ من قوته أن أضحت پدوا وبولونيا تعجان بإلحاده . وكانت پدوا هى التى أضاع فيها مرسليوس ، الذى تسمى باسمها ، احترامه للكنيسة(**) . وفى پدوا استقى فلپو ألجيرى دانولا Filippo Algeri da Nola برونو المولود فى نولا نفسها تلك الأخطاء المروعة التى لقى فيها ذلك المصير المحزن إذ ألقى به فى برميل من القار وهو يغلى(٤٠) . ويبدو أن نقولتو ڤرنياس Nicoletto Vernias ، كان ، وهو أستاذ للفلسفة فى پدوا (١٤٧١ — ١٤٩٩) ، يعلم فيها العقيدة القائلة إن النفس الكلية العالمية وحدها ، لا النفس الفردية ، هى الخالدة(٤١) ، وعرض تلميذه أجستينو نيفو Agostino Nifo هذه الفكرة نفسها فى رسالة له

(*) أى القائلين بوحدة الوجود أى أن الله والعالم أحد واحد . (المترجم)

(**) ينتمى مرسليوس فيلسوف پدوا إلى الإصلاح الدينى لا إلى النهضة ولهذا أرجأنا الحديث عنه إلى المجلد التالى .

تدعى De intllectu et daemonibus (١٤٩٢) . وكان المتشككة يسعون فى العادة إلى تهدئة ثائرة محكمة التفتيش بأن يفرقوا (كما كان ابن رشد يفرق) بين نوعين من الحقيقة — الدينية والفلسفية : فيقولون إن قضية من القضايا يمكن رفضها فى الفلسفة إذا نظر إليها من ناحية العقل ، ولكنها مع ذلك يمكن قبولها على أساس الإيمان إذا أخذنا بقول الكتاب المقدس أو الكنيسة . وعبر نيفو عن هذا المبدأ ببساطة كان فيها جريئاً متهوراً فقال : « يجب أن نتحدث كما يتحدث الكثيرون ، ويجب أن نفكر كما يفكر القليلون[٤٢] . وبدل نيفو رأيه أو بدل أقواله لما تبدل لون شعره وتصالح مع مبادئ الدين القويم ، وكان وهو أستاذ الفلسفة فى بولونيا يجتذب الأعيان ، وكرائم السيدات ، وجماهير لا تحصى ، محاضراته المصحوبة بالتجهم والسخرية ، والمحلاة بالقصص والفكاهة . وأصبح من الناحية الاجتماعية أكثر معارضى بمبونتسى نجاحاً .

وكان پيترو بمبوتتسى ، القنبلة الجهرية لفلسفة النهضة ، ضئيل الجسم إلى حد جعل أصفياءه يسمونه پريتو Peretto — أى « بطرس الصغير » . ولكنه كان كبير الرأس ، عريض الجبهة ، أقنى الأنف ، صغير العينين ، نفاذهما أسودهما ، وكان رجلا يأخذ الحياة والفكر مأخذاً جدياً أليما . وقد ولد فى مانتو (١٤٦٢) ودرس الفلسفة والطب فى پدوا ، ونال الدرجتين فيهما وهو فى سن الخامسة والعشرين ، ولم يلبث أن أصبح أستاذاً فى جامعة تلك المدينة نفسها و غمرته جميع تقاليد فلسفة پدوا المتشككة ، وبلغت فيه غايتها . حتى قال فيه ڤانينى Vanini المعجب به : « لقد كان يحق إلى فيثاغورس أن يحكم بأن روح ابن رشد قد تقمصت جسم بمبونتسى »[٤٣] . ويلوح أن الحكمة تكون على الدوام تجسداً لحكيم قديم أو صدى لأقواله لأنها تبقى على الدوام دون أن يطرأ عليها تغيير بعد أن تمر بآلاف الأنواع المختلفة من الأغلاط .

وواصل بمبونتسي التدريس في پدوا من ١٤٩٥ إلى ١٥٠٩ ؛ ثم اجتاحت أعاصير الحرب المدينة وأغلقت قاعات جامعتها التاريخية . وفي عام ١٥١٢ نجده مستقراً في جامعة بولونيا حيث بقي إلى آخر أيام حياته ، وتزوج ثلاث مرات ، وظل على الدوام يحاضر عن أرسطو ، ويشبه في تواضع جم علاقته بأستاذه بدودة تحاول ارتياد مجاهل فيل(٤٤) . وكان يرى أن من الأسلم له ألا يعرض آراءه كأنه هو صاحبها ، بل أن يعرضها على أنها متضمنة في آراء أرسطو كما شرحه اسكندر الأفروديسي . وكانت طريقته تبدو أحياناً مسرفة في التواضع ؛ يظهر فيه الخضوع الشديد للسلطة الميتة . غير أنه لما كانت الكنيسة تدعي أن عقائدها هي نفسها عقائد أرسطو ، متبعة في ذلك رأي أكوناس ، فلعل بمبونتسي كان يشعر بأن الجهر بأية عقيدة خارجة على سلطان الكنيسة عقيدة أرسطوطالية بحق ستؤدي إلى غضب رجال الدين ، إن لم تؤد به هو نفسه إلى الحرق حياً . ذلك أن مجلس لاتران الخامس الذي عقد برياسة ليو العاشر (١٥١٣) أدان كل من يقول إن النفس واحدة لا تتجزأ في جميع الناس ، وإن النفس الفردية يحق عليها الفناء ونشر بمبونتسي بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أكبر كتبه المسمى **في خلود النفس** الذي حاول فيه أن يثبت أن هذا الرأي الذي رفضه المجلس هو رأي أرسطو بحذافيره ، فأرسطو حسبما يرى پيترو يقول إن العقل يعتمد على المادة في كل خطوة من خطى تفكيره ، وإن أكثر المعارف تجريداً تستقى في آخر الأمر من الحواس ؛ وإن العقل لا يستطيع أن يؤثر في العالم إلا عن طريق الجسم ؛ ولهذا فإن النفس المجردة عن الجسم ، إذا بقيت بعد الإطار الفاني ، لا تكون إلا طيفاً لا حول له ولا عمل يقوم به . ويختم بمبونتسي حديثه بأن من واجبنا بوصفنا مسيحيين ومن أبناء الكنيسة المخلصين لنا ، أن نؤمن بخلود النفس الفردية ؛ أما بوصفنا فلاسفة فليس هذا من واجبنا . ويبدو أنه لم يدر قط بخلد بمبونتسي أن دعواه لا تستقيم أمام دعوى

الكنيسة التى كانت تقول ببعث الجسم والروح جميعاً ؛ ولعله لم يكن يحمل هذه العقيدة على محمل الجد ، ولم يكن يظن أن قراءه أنفسهم سيحملونها على هذا المحمل . ومبلغ علمنا أن أحداً لم يثر رأيه هذا ضده .

وأثار الكتاب عاصفة من الاحتجاج ، وأقنع الرهبان الفرنسيس دوج البندقية بأن يأمر بإحراق كل ما يمكن العثور عليه من نسخة علناً ؛ ونفذ هذا الأمر فعلا . ثم قدمت الاحتجاجات إلى المحكمة البابوية ، ولكن بمبو وبيبيا كانت لهما مكانة سامية فى مجالس ليو ، وأكدا له أن النتائج التى يعرضها الكتاب سليمة ليس فيها ما يعارض الدين الصحيح ، والحق أنها كانت كذلك . ولم يستطع المعارضون أن يسخروا ليو لما كانوا يريدون ، وقد كان يعرف حق المعرفة تلك الحيلة الصغيرة حيلة الحقيقتين(*) التى يقول بها بمپونتسى ، ولكنه قنع بأن أمر بمپونتسى بكتابة كلمة لطيفة يعلن بها خضوعه للكنيسة(٤٥) . وأجابه پترو إلى ما طلب وأصدر **كتاب الاعتذار** (١٥١٨) الذى يؤكد فيه بوصفه مسيحياً بأنه يؤمن بكل تعاليم الكنيسة . ثم أمر ليو حوالى ذلك الوقت أجستينو بأن يرد على كتاب بمپونتسى ؛ وإذا كان أجستينو مولعاً بالجدل ، فقد قام بهذه المهمة بحذق وسرور . ومن عجب أنه بينا كان رأس بمپونتسى معلقاً فى ميزان محكمة التفتيش ، إذا صح ذلك التعبير ، كانت ثلاث جامعات تتنافس للانتفاع بخدماته ؛ ولعل فى هذا التنافس دليلا على أن العداء بين الجامعات ورجال الدين كان لا يزال قائماً لم تنقطع أسبابه . فلما أن سمع رجال الحكم فى بولونيا أن بيزا تسعى لإغرائه بالمجىء إليها ، وكانت وقتئذ خاضعة رسمياً للبابا ، ولكنها مع ذلك أصمت أذنها عن سماع نداء الرهبان الفرنسيس الحانقين ، أطالت بقاء بمپونتسى فيها ثمانى سنين أخرى ورفعت مرتبه إلى ١٦٠٠ دوقة (٢٠،٣٠٠٠ ؟ دولار) فى العام(٤٦) .

(*) أى أننا نستطيع أن نقبل الشىء الواحد بالاعتقاد على إيماننا الدينى وأن نرفضه معتمدين على عقائدنا الفلسفية . (المترجم)

وواصل بمپونتسى حملته التى يدعو فيها إلى التشكك فى كتابين صغيرين لم ينشرهما فى حياته ، أرجع فى أحدهما المسمى De incantione كثيراً من الظواهر الخارقه للطبيعة كما يزعم الناس إلى أسباب طبيعية . وكان سبب تأليفه أن طبيباً كتب إليه عن علاج شاف يقال إنه ثمرة رقى أو سحر ، فأمره پيترو أن يشك فى الأمر وكتب له يقول : « إن من السخف ومما يدعو إلى السخرية أن يحتقر الإنسان ما هو واضح وطبيعى لكى يلجأ إلى علة غير واضحة لايؤكد صحتها أى احتمال موثوق به »[٤٧] . وهو بوصفه مسيحياً يؤمن بالملائكة والأرواح ، ولكنه بوصفه فيلسوفاً يرفضها ، ويقول إن جميع العلل فى عالم الله طبيعية . وهو يتأثر بتدريبه الطبى فيسخر بالاعتقاد الشائع فى المصادر السحرية الخفية الشافية من الأمراض ويقول إنه لو كان فى مقدور الأرواح أن تشفى أمراض الأجسام لكانت هذه الأرواح مادية أو كانت تستخدم وسائل مادية كى تستطيع أن تؤثر فى جسم مادى ، ثم يمضى فيصور فى سخرية الأرواح الشافية تهرول غادية رائحة ومعها ما لديها من جبس ، ومرهم ، وحبوب[٤٨] . على أنه يعتقد أن لبعض النباتات والحجارة قوة علاجية ، ويصدق المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس ، ولكنه يظن أنها كانت عمليات طبيعية ، ويقول إن الكون تسيطر عليه قوانين ثابتة منسقة ، وإن المعجزات ليست إلا مظاهر غير عادية لقوى طبيعية لا نعرف نحن إلا جزءاً من قدرتها ووسائلها ، والناس يعزون إلى الأرواح أو إلى الله ما لا يستطيعون إدراكه بعقولهم[٤٩] . ويصدق بمپونتسى كثيراً مما ورد فى التنجيم دون أن يرى فى ذلك ما يتعارض مع هذه النظرة ، نظرة العلل الطبيعية للأشياء ؛ وهو لا يقول إن حياة الآدميين خاضعة لتأثير الأجرام السماوية فحسب ، بل يضيف إلى ذلك أن جميع الأنظمة البشرية ، ومنها الأديان نفسها ، تنشأ ، وتزدهر ، وتضمحل بفعل المؤثرات السماوية ، ويصدق هذا أيضاً فى رأيه على المسيحية ، ويقول إن ثمة فى تلك الأيام

دلائل على أن المسيحية آخذة فى الزوال(٥٠) ؛ ثم يقول بعدئذ إنه بوصفه مسيحياً يرفض هذا كله ويراه سخفاً وهراء .

أما كتابه الأخير De Fato فيبدو أنه أكثر اتفاقاً مع الحقائق العلمية لأنه دفاع عن حرية الإرادة ؛ وهو يعترف بأن هذه الحرية لا تتفق مع علم الله بكل شىء ومعرفته بكل شىء قبل وقوعه ، ولكنه يصر على اعتقاده بحرية الإنسان فى نشاطه وعلى أنه لابد له أن يفترض فى الإنسان قسطاً من حرية الاختيار إذا كان للإنسان شىء من التبعة الأخلاقية . وكان فى رسالته عن الخلود قد عالج إمكان نجاح أى قانون أخلاقى إذا لم يستند إلى العقاب والثواب تفرضهما قوة غير بشرية . وآمن بفخر شبيه بافتخار الرواقيين أن الفضيلة نفسها جزاء كاف للفضيلة ، وليس ذلك الجزاء جنة بعد الموت(٥١)، ولكنه يقر بأنه لا يمكن حمل معظم الناس على مراعاة السلوك الحسن إلا بالاعتماد على الآمال والمخاوف يتلقونها من قوة غير بشرية . وهذا ، فيما يقول ، هو الذى دعا كبار المشرعين إلى أن يغرسوا فى نفوس الناس الإيمان بوجود حالة فى المستقبل تحل محل الشرطة التى لا يخلو منها مكان ، وأكثر منها اقتصاداً ؛ ويبرر ، كما يبرر أفلاطون تلقين الناس الخرافات والأساطير إذا كان فى مقدورها أن تساعد على كبح جماح ما فطر عليه الآدميون من خبث(٥٢) :

« ولهذا وعدوا الصالحين بالنعيم السرمدى فى الدار الآخرة ، وأنذروا الطالحين بالعقاب الأبدى الذى يرعبهم أشد الرعب . والكثرة الغالبة من الناس ، إذا فعلوا الخير ، إنما يفعلونه خوفاً من العقاب الأبدى لا أملا فى النعيم السرمدى ، لأنا أكثر علما بالعقاب من تلك النعم السرمدية . وإذ كان فى وسع الناس جميعاً أيا كانت طبقتهم أن يفيدوا من هذة الطريقة الأخيرة ، فإن المشرع ، وهو يرى ميل الناس إلى الشر وينزع هو إلى الخير العام ، قد نادى بأن النفس الخالدة ، غير مبال فى ندائه هذا بالحقيقة ، وإنما يعنى

بالخير والصلاح ، كي يستطيع بذلك أن يهدى الناس إلى الفضيلة(٥٢أ) .
وهو يرى أن الكثيرين من الناس يبلغون من السذاجة في العقل ، والوحشية في الأخلاق درجة لابد معها من معاملتهم كما يعامل الأطفال أو المرضى ، وليس من الحكمة أن يعلم هؤلاء العقائد الفلسفية . ويقول عن آرائه هو : « يجب ألا تنقل هذه الأشياء لعامة الناس لأنهم يعجزون عن تلقى هذه الأسرار ، بل إن من واجبنا أن نحذر من التحدث عنها إلى رجال الدين الجهلاء »(٥٣) وهو يقسم بنى الإنسان إلى فلاسفة ورجال دين ، ويعتقد اعتقاداً لايصح لنا أن نلومه عليه وهو أن « الفلاسفة وحدهم هم آلهة الأرض ، وأنهم يختلفون عن سائر الناس أيا كانت مراتبهم وأحوالهم ، بقدر ما يختلف الناس الأحياء عن تلك الصور المرسومة على القماش »(٥٤) .

وكان في اللحظات التي هو فيها أكثر تواضعاً منه في غيرها يدرك ضيق مجال العقل البشرى وما في المتافيزيقا من عبث شريف . وقد صور نفسه في سنيه الأخيرة رجلا منهوكاً هزيلا ، حائراً ، وشبه الفيلسوف ببرومثيوس الذى حكم عليه بأن يشد إلى صخرة وأن ينقر قلبه صقر لا ينقطع عن ذلك أبداً(٥٥) لأنه أراد أن يسرق النار من السماء — أى أن يختطف المعرفة الإلهية . ويقول في هذا : « إن المفكر الذى ينقب عن الأسرار الإلهية الخفية ليشبه بروتيوس Proteus . . . . فمحكمة التفتيش تحاكمه بتهمة الإلحاد ، والجماهير تسخر منه لأنه أبله »(٥٦) .

وأنهك الجدل الذى شغل كثيراً من وقته قواه وأضعف صحته ، فكان يتغلبه الداء في أثر الداء حتى اعتزم أخيراً أن يموت ، فاختار إلى الانتحار أشق صورة من صوره : إذ آثر أن يموت جوعاً ، فقاوم كل حجة يراد بها حمله على العدول عن قراره وكل تهديد وجه إليه ، وتغلب على القوة نفسها وأبى أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب ، فلما مضت على هذا النظام الصارم سبعة أيام شعر بأنه كسب المعركة التى تقرر حقه في أن يموت ،

وأنه يستطيع وقتئذ أن يتكلم وهو آمن فقال : « إنى أفارق الحياة مسروراً » . ولما سأله بعضهم : أنى تذهب ؟ أجاب « إلى حيث يذهب جميع الخلائق الهالكين » . ويبذل أصدقاؤه آخر جهودهم ليقنعوه بأن يتناول بعض الطعام ، ولكنه أبى وفضل الموت (١٥٢٥)(٥٧) . وأمر الكردنال جندساجا الذى كان تلميذاً له أن تنقل رفاته إلى مانتوا وأن توارى فى ثراها ، وأقام فيها تمثالا تخليداً لذكراه ، وجرى فى هـذا على سنة التسامح التى تسود عصر النهضة .

ولقد عمد بمبونتسى إلى التشكك الذى ظل قرنين كاملين يحطم أسس العقائد المسيحية فصاغه فى صورة فلسفية . واجتمعت عوامل كثيرة لتجعل الطبقات الوسطى والعليا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر « أكثر الشعوب الأوربية تشككاً »(٥٨) ، نذكر منها إخفاق الحروب الصليبية ؛ انتشار الأفكار الإسلامية فى العالم الغربى بتأثير الحروب الصليبية ، والتجارة ، والفلسفة العربية ؛ وانتقال البابوية إلى أفنيون ، وانقسامها السخيف على نفسها فى عهد الانشقاق الكبير ؛ وتكشف عالم وثنى يونانى — رومانى ملىء بالحكماء والفن العظيم رغم خلوه من الكتاب المقدس ومن الكنيسة ؛ وانتشار التعليم وتحرره المتزايد من السيطرة الكهنوتية ؛ وفساد أخلاق رجال الدين ومنهم البابوات أنفسهم وانهماكهم فى شئون الدنيا مما يوحى بعدم إيمانهم بما يجهرون به من عقائد ؛ واستخدامهم فكرة المطهر لجمع المال لأغراضهم الخاصة ، ومعارضة طبقات التجار وأصحاب المال الناشئة لسيطرة رجال الكنيسة ؛ وتحول الكنيسة من منظمة دينية إلى سلطة دنيوية سياسية ، هذه العوامل كلها وكثير غيرها هى التى أدت إلى النتيجة السالفة الذكر .

ويتضح من شعر بولتيان وبلتشى Pulci وفلسفة فتشينو Ficino ، أن لورندسو والملتفين حوله لم يكونوا يؤمنون إيماناً حقاً بحياة فى الدار الآخرة ؛

كما أن عواطف مدينة فيرارا تتضح من استهزاء أريستو بالجحيم الذى كان يبدو لدانتى من قبل رهيباً بحق . ويكاد نصف الأدب فى العصور الوسطى يكون معارضاً للكهنوت ؛ وكان كثيرون من رؤساء العصابات المغامرة يجهرون بكفرهم(٥٩) ، كما كان رجال الحاشية Cortigiani أقل تديناً من العاهرات Cortigiane ؛ وكان التشكك فى أدب وظرف سمة السيد المهذب ، والصفة التى ينبغى له أن يتصف بها(٦٠) . وكان پترارك يأسف لأن كثيرين من رجال العلم يرون أن تفضيل الدين المسيحى على الفلسفة الوثنية دليل على الجهل(٦١) ؛ وتبين أن معظم أفراد الطبقة العليا فى البندقية فى عام ١٥٣٠ يهملون أداء الواجبات الدينية فى عيد الفصح أى أنهم لا يذهبون للاعتراف وللعشاء الربانى ولو مرة واحدة فى العام(٦٢) . ويقول لوثر إنه وجد قولا شائعاً بين الطبقات المتعلمة فى إيطاليا حين يذهبون للقداس : « هيا بنا نرتكب الخطأ الذى يرتكبه العامة »(٦٣) .

أما عن الجامعات فإن الحادثة الآتية العجيبة تكشف عن مزاج الأساتذة والطلبة : دُعى سيمونى پوردسيو Simone Porzio تلميذ پمپوناتسى بعد وفاة أستاذه بقليل ليحاضر فى پيزا ، فاختار موضوعاً لمحاضراته كتاب **المتيورولوجيا** لأرسطو . ولكن المستمعين لم يعجبهم هذا الموضوع ، وصاح بعضهم بعد أن نفذ صبرهم : « وماذا تقول فى النفس ؟ quid de anima » . واضطر پوردسيو إلى أن يطرح كتاب المتيوروچيا جانباً ويتناول كتاب **النفس** وسرعان ما كان المستمعون كلهم آذاناً صاغية(٦٤) . ولسنا نعرف هل جهر پوردسيو فى تلك المحاضرة باعتقاده أن النفس البشرية لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن نفس أسد أو نبات ؛ ولكننا نعرف أن هذا هو ما كان يدعو إليه فى كتابه **العقل البشرى** De mente humana(٦٥) ؛ ويبدو أنه لم يصب بأى أذى من جراء دعوته هـــذه . وروى يوچينيو طرالبا

Euginio Tarralba ، الذى اتهمته محكمة التفتيش الأسبانية فى عام ١٥٢٨ ، أنه كان فى شبابه يأخذ العلم فى رومة على ثلاثة من المعلمين يقولون كلهم إن النفس هالكة (٦٦) . ودهش إرزمس إذ وجد فى رومة أن المبادئ الأساسية للدين المسيحى كانت موضوعات للجدل المتشكك بين الكرادلة أنفسهم ؛ وأن واحداً من رجال الكنيسة أخذ يشرح له سخف الاعتقاد بحياة فى الدار الآخرة ؛ وكان غيره يسخرون من المسيح والرسل ؛ وكان غيرهم ، كما يؤكد إرزمس نفسه ، يقولون إنهم سمعوا كبار الموظفين البابويين ينكرون القداس ويسبونه(٦٧) . أما الطبقات الدنيا فقد ظلت مستمسكة بإيمانها ، كما سنرى بعد ؛ وما من شك فى أن الآلاف المؤلفة الذين أنصتوا إلى سفنرولا كانوا يؤمنون بما يسمعون ؛ ولنا فى المثل الذى ضربه ڤتوريا كولنا ما يدل على أن التقى قد يبقى مع العلم . لكن سهام الشك كانت قد نفذت فى العقيدة الكبرى ؛ وكانت روعة أسطورة العصور الوسطى قد لوثها ما تراكم عليها من ذهبها .

الفصل الخامس

جوتشياردينى

إن عقل جوتشياردينى لهو خلاصة لما حدث فى ذلك الوقت من تشكك منشؤه خيبة أمله وتكشف الغشاء عن عينى أهله . وكان هذا العقل من أقوى عقول زمانه ، لايطيقه ذوقنا لإسرافه فى سخريته ، ولا يتفق مع آمالنا لإفراطه فى تشاؤمه ، ولكنه عقل نافذ كالضوء الكشاف يجوب أطراف السماء ، صريح صراحة الكاتب الذى قرر بحكمته ألا ينشر ما يكتب إلا بعد وفاته .

وكان فرانتشيسكو جوتشياردينى يستمتع منذ البداية بميزة مولده الأرستقراطى . فكان منذ طفولته يستمع إلى حديث المتعلمين باللغة الإيطالية الصحيحة ، وقد تعلم أن يقبل الحياة كما هى بواقعية الرجل الواثق من مكانته وطمأنينة باله . وقد شغل عم والده منصب حامل شعار الجمهورية عدة مرار ؛ كما تولى جده معظم المناصب الرئيسية فى الحكومة واحداً بعد واحد ؛ كان والده يعرف اللغتين اللاتينية واليونانية وقد شغل هو الآخر عدة مناصب دبلوماسية . وكتب فرانتشيسكو يقول إن « أشبينه هو مستر مرسيلو فتشينو أعظم الفلاسفة الأفلاطونيين فى العالم فى أيامه »[٦٨] ولم يحل هذا بين المؤرخ وبين أن يكون أرسطوطاليسى النزعة . ودرس القانون المدنى وعين وهو فى الثالثة والعشرين من عمره أستاذاً للقانون فى جامعة فلورنس . وكان كثير الأسفار ، ولم يفته حتى أن يلاحظ « المخترعات العجيبة التى لا يتصورها العقل » ، والتى ابتدعها هيرونيمس بوش Hieronymus Bosch فلاندرز[٦٩] وتزوج ماريا سلفياتى Maria Salviati وهو فى السادسة والعشرين من عمره « لأن آل سلفياتى كانوا ، فضلا عن ثرائهم العظيم ،

يفرقون غيرهم من الأسر فى النفوذ والسلطان ، وأنا مولع أشد الولع بهذه الأشياء »(٧٠) .

ولكنه مع ذلك كان شغوفاً بالتفوق يروض نفسه على تأليف الكتب العظيمة فى فن الأدب . وقد كتب وهو فى السادسة والعشرين من عمره **تاريخ فلورنس** Storia Fiorentina وهو من أعجب ثمار عصر نرى فيه العبقرية التى امتلأ إناؤها بتراثها المستعاد ، ولكنها تحررت من التقاليد ، تنساب حرة كاملة فى عشرات المسايل ، وقد اقتصر هذا الكتاب على جزء قصير من تاريخ فلورنس ، وهو الجزء المحصور بين عامى ١٣٧٨ و ١٥٠٩ ، ولكنه عالج هذه الفترة بدقة فى التفاصيل ، وبحث للمراجع ونقد لها ، وتحليل نفاذ للعلل ، ونضوج ونزاهة فى الحكم ، وقدرة على القصص الواضح فى لغة إيطالية حلوة ؛ لم يرق إلى شىء منها **تاريخ فلورنس** Storie Fiorentine الذى كتبه ميكفلى بعد أحد عشر عاماً من ذلك الوقت فى العقد السابع من حياته .

وأرسل جوتشارديني فى عام ١٥١٢ ، وهو لا يزال شاباً فى الثلاثين ، سفيراً لفرديناند الكاثوليكى ، ثم عينه ليو العاشر وكلمنت السابع فى أوقات متعاقبة متلاحقة حاكماً لرچيو إميليا ، ومودينا ، وبارما ، ثم حاكماً عاماً على إقليم رومانيا كله ، ثم قائداً عاماً لجميع الجيوش البابوية ، وعاد إلى فلورنس فى عام ١٥٣٤ وأيد السندروده ميديتشى طوال الخمس السنوات التى فرض فيها هذا الوغد سلطته الإستبدادية على المدينة . وكانت له اليد الطولى فى إقامة كوزيمو الأصغر دوقاً على فلورنس ، ولما ذهب ما كان يأمله من السيطرة على كوزيمو هذا انسحب إلى قصره الريفى ليكتب فى عام واحد المجلدات العشرة التى يتألف منها أعظم كتبه على الإطلاق وهو **تاريخ إيطاليا** Storia d' Italia

وهذا الكتاب أقل من كتابه الأول فى حلاوة أسلوبه وقوته . وكان جوتشياردينى فى هذه الأثناء قد درس كتابات الأدباء الإنسانيين وانزلق إلى الاهتمام بالشكل وجمال اللفظ ؛ ومع هذا كله فالأسلوب جزل يبشر بنثر جبن Gibbon مضرب المثل فى البلاغه . وعنوان الكتاب الفرعى وهو **تاريخ الحروب** يقصر موضوعه على المسائل العسكرية والسياسية ، ولكن ميدان البحث يتسع فى الوقت نفسه حتى يشمل كل إيطاليا ، وكل أوربا من حيث علاقتها بإيطاليا ؛ وهذا أول تاريخ ينظر إلى نظام أوربا السياسى على أنه كلٌ متصل . وجوتشياردينى يكتب فى الغالب عما شاهده بنفسه ، وإذا ما قرب الكتاب من نهايته فإنه يكتب عن الحوادث التى اشترك فيها بنصيب ، وقد بذل جهودا كبيرة فى جميع الوثائق ؛ وهو أكثر دقة وأجدر بالثقة من مكيڤلى . وكان إذا ما رجع إلى العادة القديمة ، التى يرجع إليها معاصره الذى يفوقه شهرة ، عادة اختراع الخطب ليلقيها أشخاص قصته ، يقول بصراحة إن هذه الخطب ليست صحيحة إلا فى جوهرها ، وينص على أن بعضها حقيقى ؛ وهو يستخدم هذه وتلك ليعرض على القارئ جانبى موضوع من موضوعات النقاش أو يكشف عن سياسة الدول الأوربية فى الدخل والخارج . وهذا التاريخ الضخم و**تاريخ فلورنس** الباهر مجتمعين يرفعان جوتشياردينى إلى مقام أعظم مؤرخ فى القرن السادس عشر . وكما أن ناپليون كان شديد الرغبة فى أن يرى الفيلسوف جيته ، كذلك أبقى شارل الخامس فى بولونيا الأعيان وقواد الجيش جالسين فى حجرة الانتظار بينا كان هو يتحدث مع جوتشياردينى حديثاً طويلا ، ويقول : « إن فى وسعى أن أخلق عشرين نبيلا فى ساعة ، ولكنى لا أستطيع إيجاد مؤرخ واحد فى عشرين عاماً »(٧١) .

أما من حيث هو رجل من رجال الدنيا ، فإنه لم يكن ينظر بعين الجد إلى ما يبذله الفلاسفة من جهود لمعرفة أسرار الكون . وما من شك فى أنه لو رأى ما يثيره يمپوننسى من حماسة لتبسم ساخراً منها . وكان يرى أن من

العبث أن يثور بيننا النزاع حول خوارق الطبيعة لأن هذه الخوارق بعيدة عن مداركنا . والأديان كلها فى رأيه تقوم على افتراض صحة الأساطير ، ولكن هذا مما يمكن اغتفاره إذا كانت هذه الأديان تساعد على الاحتفاظ بالنظام الاجتماعى والتأديب الأخلاقى ؛ ذلك بأن الإنسان ، كما يراه جوتشياردينى ، أنانى يعمل لنفسه ، فاسد الأخلاق ، خارج على القانون ؛ ولهذا وجب أن توضع فى سبيله ، فى كل خطوة يخطوها ، عوائق من العادات ، والأخلاق ، والقوانين ، والقوة ؛ والدين فى العادة أقل الوسائل الموصلة إلى هذه الغاية مدعاة للنفور . ولكن إذا ما فسد الدين حتى أصبح عاملا على فساد الأخلاق بدلا من أن يكون سبباً فى صلاحها ، فإن المجتمع تسوء حاله لأن الدعامة الدينية التى يستند إليها قانونه الأخلاقى قد تقوضت من أساسها ، ويكتب جوتشياردينى فى سجله السرى يقول :

ليس ثمة من يبغض الطمع ، والشره ، ومظاهر الإفراط فى القساوسة كما أبغضها أنا ، وليس ذلك لأن كل الشرور بغيضة فى ذاتها فحسب ، بل لأن . . . هذه الشرور يجب ألا يكون لها مكان عند رجال يفترض فيهم أنهم ذوو علاقة خاصة بالله . . . . ولقد كانت علاقتى ببعض البابوات مما جعلنى أرغب فى مثل عظمتهم مضحياً فى سبيل ذلك بمصالحى نفسها . ولولا هذا الاعتبار لأحببت مارتن لوثر كما أحب نفسى ؛ وليس ذلك لأنى أحب أن أكون حراً طليقاً من القيود التى تفرضها علينا المسيحية . . . بل لأنى أحب أن أرى هذا الحشد من الأوغاد (questa caterva di scelerate) محصورين فى نطاق الحدود الواجبة ، فإما أن يحيوا حياة مبرأة من الإجرام أو حياة مجردة من السلطان(٧٢) .

ولكن أخلاقه مع ذلك قلما كانت خيراً من أخلاق القساوسة ؛ وكان القانون الذى وضعه لحياته هو أن يكيف نفسه فى كل ساعة حتى تتفق مع أقوى سلطة قائمة . أما مبادئه العامة فقد اختص بها كتبه ، وفيها هى أيضاً يستطيع أن يكون ساخراً سخرية مكيڤلى :

« إن الإخلاص مجلبة للسرور ويكسب صاحبه الثناء ؛ أما الخداع فمجلبة للوم والكراهية ، بيد أن أولهما أكثر نفعاً للناس منه لصاحبه ؛ ولهذا فإن من واجبى أن أثنى على من كان أسلوب حياته متسماً بالصراحة والإخلاص ، فلا يلجأ إلى الخداع إلا فى بعض الأشياء ذات الخطر العظيم ، وفى هذه الحالة يكون الخداع أكثر نجاحاً كلما كثرت محاولات الإنسان فى أن يشتهر بين الناس بالإخلاص(٧٣) .

وكان ينفذ ببصره وراء دعاوى الأحزاب السياسية المختلفة فى فلورنس ، ويرى أن كل حزب وإن نادى بالحرية إنما يسعى وراء السلطان :

« يبدو واضحاً لى أن الإنسان قد طبع على الرغبة فى السيطرة على زملائه وإثبات تفوقه عليهم ، ولهذا فما أقل من يحبون الحرية حباً يحول بينهم وبين تحين الفرصة المناسبة لحكم الناس وفرض السلطان عليهم . انظر عن كثب إلى سلوك الناس الذين يقيمون فى مدينة واحدة ، ولاحظ خلافاتهم وتقص أسبابها ، تجد أن هدفهم التسلط عليهم لا طلب الحرية لهم . ولهذا ترى أن أكبر الأهلين مقاماً لا يسعون إلى الحرية ، وإن كانوا لا ينفكون يلوكون هذا بلسانهم ، بل كل ما يضمرونه فى سرائرهم هو ازدياد سلطانهم وتفوقهم على غيرهم . أما الحرية عندهم فهى خداع وتصنع يخفى وراءه شهوة التفوق فى السلطان والشرف(٧٤) .

وكان يحتقر جمهورية سدريتى التجارية التى اعتادت أن تحمى حريتها بالذهب لا بالسلاح ، ولم يكن يؤمن بالشعب ولا بالديمقراطية .

« إن الحديث عن الشعب حديث عن الجنون ، لأن الشعب وحش جبل على الاضطراب والأخطاء ، ومعتقداته الباطلة بعيدة عن الحقيقة بعد أسبانيا عن الهند . . . وتدل التجارب على أن الأشياء قلما تحدث كما تتوقع الجماهير . . . وسبب ذلك أن النتائج . . . تعتمد فى العادة على رغبة عدد قليل من الأفراد تختلف نواياهم وأهدافهم فى جميع الأحوال تقريباً عن نوايا الكثرة وأهدافها »(٧٥) .

وكان جوتشياردينى مثلا لآلاف فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، لا إيمان لهم فى شىء ما على الإطلاق ، فقد واحب المسيحية ، وعرفوا أضواء السياسة ؛ ولم تكن لهم مثل عليا ، أو أحلام ؛ ألقوا بأنفسهم فى أماكنهم لا حول لهم ولا طول بينما كانت الحرب والهمجية تكتسحان إيطاليا ؛ وكانوا شيوخاً مفكرين تحررت عقولهم وتحطمت آمالهم ، تبينوا بعد فوات الأوان أنه إذا ماتت الأساطير فلن تتحرر إلا القوة .

الفصل السادس

مكيفلى

١ — الدبلوماسى

بقى من هذه الطائفة رجل واحد يصعب علينا أن نضمه إلى صنف بعينه ، فقد كان دبلوماسياً ، ومؤرخاً ، وكاتباً مسرحياً ، وفيلسوفاً ، وأكبر مفكر ساخر فى زمانه ، ولكنه كان مع ذلك وطنياً متحمساً يتحرق رغبة فى تحقيق مثل أعلى نبيل ، أخفق فى كل ما أخذ على عاتقه أن يقوم به من الأعمال ، ولكنه طبع التاريخ بطابع يكاد يكون أشد عمقاً مما طبعه به إنسان آخر فى ذلك العصر .

كان نقولو مكيفلى ابن أحد المحامين فى فلورنس — وكان هذا المحامى رجلا متوسط الثراء ، يشغل منصباً صغيراً فى الحكومة ، ويمتلك بيتاً ريفياً صغيراً فى سان كاستشيانو San Casciano على مسيرة عشرة أميال من المدينة ؛ وتلقى الغلام التعليم الأدبى المعتاد ، وتعلم أن يقرأ اللغة اللاتينية بسهولة ، ولكنه لم يتعلم اللغة اليونانية . وراقه التاريخ الرومانى ، وأولع بليفى ؛ ويكاد يجد لكل نظام سياسى ، وكل حادثة فى أيامه شبيهاً فى تاريخ رومة يوضح ذلك النظام وتلك الحادثة . وبدأ يدرس القانون ، ولكن يبدو أنه لم يتم هذه الدراسة ؛ وقلما كان يعنى بفن النهضة ، ولم يظهر شيئاً من الاهتمام حين كشفت أمريكا ، ولعله كان يشعر بأن كل ما حدث بعد هذا الكشف أن مسرح السياسة قد اتسع ، أما المسرحية فستبقى كما كانت وسيظل أشخاصها دون تغيير . وكان شغله الشاغل هو السياسة ؛ فن الحصول على النفوذ ، ولوحة الشطرنج التى تنتقل عليها قطع القوة والسلطان . وعين فى عام ١٤٩٨

وهو فى التاسعة والعشرين من عمره أميناً للديتشى دلا جويرا Dieci della Guerra — مجلس الحرب المكون من عشرة — وظل فى هـذا المنصب أربعة عشر عاماً .

وكان هذا المنصب فى بادئ الأمر من المناصب المتواضعة — عمله جمع محاضر الجلسات ، والسجلات ، وتلخيص التقارير ، وكتابة الرسائل ؛ ولكنه كان يعمل فى أداة الحكم ، ويستطيع مراقبة سياسة أوربا من نقطة الملاحظة الداخلية ، وكان فى وسعه أن يحاول التنبؤ بالتطورات المقبلة بتطبيق معلوماته التاريخية . . وأحست روحه المتوثبة ، العصبية ، الطموحة ، بأن الوقت دون غيره هو الذى يحتاجه لكى يرقى إلى القمة ، ويسخر قوى الدولة العنيفة ضد دوق ميلان ، ومجلس شيوخ البندقية ، وملك فرنسا ، وملك نابلى ، والبابا ، والإمبراطور . وما لبث أن أرسل فى بعثة إلى كترينا اسفوردسا Caterina Sforza كونته إمولا وفورلى (١٤٩٨) . وأثبتت كترينا أنها أشد دهاء من أن تقع فى حبائله ، فعاد صفر اليدين بعد أن لاقى جزاءه . وجُرِّب مرة أخرى بعد عامين ، وصحبه فى هذه التجربة فرانتشيسكو دلاكاسا فى بعثة إلى لويس الثانى عشر ملك فرنسا . ومرض دلاكاسا ، وكان على مكيفلى أن يرأس البعثة ؛ فتعلم اللغة الفرنسية ، وتنقل مع الحاشية من قصر إلى قصر ، وبعث إلى مجلس السيادة من الأنباء اليقظة ، والتحليلات الدقيقة ، ما جعل أصدقاءه فى فلورنس يثنون عليه ويقولون إنه أصبح دبلوماسياً ضليعاً .

وكانت نقطة الانقلاب فى تطور ذهنه هى البعثة التى عين فيها مساعداً للأسقف سدرينى وسافرت إلى سيزارى بورجيا فى أربينو (١٥٠٢) . ولما استدعى إلى فلورنس ليلقى بياناً عنها بنفسه ، احتفل بمنزلته الراقية التى بلغها فى العالم بأن اتخذ له زوجة . وأرسل مرة أخرى إلى سيزارى فى شهر أكتوبر ، فالتقى به فى إمولا ، ووصل إلى بنجاليا Benigallia فى الوقت الذى

استطاع أن يرى فيه سعادة بورجيا بعد أن أفلح فى اقتناص الذين ائتمروا به ، أو خنقهم ، أو سجنهم . وكانت هذه حوادث هزت مشاعر إيطاليا بأجمعها ؛ أما أثرها فى مكيڤلى بعد أن التقى بالطاغية الباهر وجهاً لوجه ، فقد كانت دروساً فى الفلسفة . ذلك أن رجل الأفكار وجد نفسه وجها لوجه أمام رجل الأعمال فكرمه هذا وعظمه ، وتحرق قلب السياسى الشاب حسداً حين أدرك المسافة التى لابد له أن يقطعها من التفكير التحليلى النظرى إلى العمل الرائع المحطم . فهاهو ذا رجل يصغره بست سنين ، قد قضى فى سنتين اثنتين على أكثر من عشرة طغاة مستبدين ، وأصدر الأوامر إلى أكثر من عشر مدن ، وأثبت أنه الكوكب الوضاء فى سماء زمانه ؛ وما أضعف ما بدت الألفاظ أمام هذا الشاب الذى لم يكن ينطق منها إلا بالقليل ، وكان ينطق بهذا القليل فى ازدراء ! وأصبح سيزارى بورجيا من تلك الساعة بطل فلسفة مكيڤلى ، كما أصبح بسمارك فيما بعد بطل فلسفة نتشة . فقد وجد فى هذا الرجل الذى تجسدت فيه إرادة القوة والسلطان فلسفة أخلاقية فوق الخير والشر ، ونموذجاً للإنسان الأسمى .

ولما عاد مكيڤلى إلى فلورنس فى عام ١٥٠٣ ، أدرك أن بعض رجال الحكومة يظنون أن بورجيا الجرىء المتهور قد غلبه على أمره فبدل عقليته غير ما كانت . ولكن جهوده التى بذلها لتحقيق مصالح مدينته أعادت إليه احترام سدرينى حامل شعار المدينة ومجلس العشرة الحربى . وشهد فى عام ١٥٠٧ انتصار مبدإ من مبادئه الأساسية . فقد كان من زمن بعيد يقول إنه ما من دولة تحترم نفسها تقبل أن تعهد بالدفاع عن أراضيها إلى جنود مرتزقين ، وذلك لأنها لا تستطيع الركون إليهم فى الأزمات ، ولأن فى مقدور العدو المسلح بالقدر الكافى من الذهب أن يبتاعهم هم وقائدهم . ولهذا يرى مكيڤلى أنه يجب إنشاء قوة حرس وطنى من أبناء البلاد ، والأفضل أن تكون هذه القوة مؤلفة من الفلاحين الأشداء الذين ألفوا المشاق وعاشوا

فى الهواء الطلق . ويجب أن تكون هذه القوة على الدوام حسنة التجهيز والتدريب ، كما يجب أن تكون هى آخر خط للدفاع القوى الثابت عن الجمهورية . وقبلت الحكومة هذا المشروع بعد تردد طويل ، وعهدت إلى مكيڤلى أن ينفذه . فلما كان عام ١٥٠٨ قاد **حرسه الوطنى** إلى حصار پيزا ، حيث أظهر براعة فائقة ، وسلمت له پيزا ، وعاد مكيڤلى إلى فلورنس وقد بلغ ذروة مجده .

وأرسل فى بعثة أخرى إلى فرنسا (١٥١٠) ، اجتاز فيها سويسرا ، وأثار حماسته الاستقلال المسلح لدولة سويسرا الاتحادية ، واتخذها مثلا أعلى يريد أن يحققه لإيطاليا . ولما عاد من فرنسا أدرك المشكلة التى تواجهها بلاده : كيف تستطيع إماراتها المتفرقة أن تتحد لتدافع عن إيطاليا إذا ما قررت دولة متحدة مثل فرنسا أن تستولى على شبه الجزيرة بأجمعها .

وجاءت التجربة الكبرى لحرسه الوطنى قبل الأوان . ذلك أن يوليوس الثانى قد استشاط غضباً من فلورنس لأنها رفضت الانضمام إليه فى طرد الفرنسيين من إيطاليا ، فأمر جيوش الحلف المقدس فى عام ١٥١٢ أن تسقط حكومة الجمهورية وتعيد آل ميديتشى إلى العرش . وهزم حرس مكيڤلى الوطنى الذى عهد إليه الوقوف فى خط الدفاع الفلورنسى عند پراتو Prato وولى رجاله الأدبار أمام جنود الحلف المدربين . واستولى جنود الحلف على فلورنس ، وانتصر آل ميديتشى ، وفقد مكيڤلى سمعته ومنصبه الحكومى ، وبذل كل ما فى وسعه لاسترضاء المنتصرين ؛ وكان يسعه أن ينجح ، لولا أن شابين متحمسين دبرا مؤامرة لإعادة الجمهورية ، فاكتشف أمرهما ، ووجد بين أوراقهما ثبت يحتوى أسماء أشخاص يعتمدان على تأييدهم ، ومن بينها اسم مكيڤلى ؛ فألقى القبض عليه ، وعذب أربع دورات على العذراء ؛ ولكنهم لم يجدوا دليلا على اشتراكه فى المؤامرة فأطلق صراحه . وخشى مكيڤلى أن يقبض عليه مرة أخرى ، فانتقل هو

وزوجته وأبناؤه الأربعة إلى بيت أسرته فى سان كاستشيانو ، حيث قضى السنين الخمس عشرة الباقية من عمره ما عدا السنة الأخيرة منها ، يعانى الفقر ويعلل نفسه بالآمال ، ولولا هذه الكارثة لما سمعنا به قط ، لأن هذه السنين العجاف هى التى ألف فيها الكتب التى هزت مشاعر العالم كله .

٢ — المؤلف والرجل

وكانت هذه عزلة موحشة لرجل عاش فى خضم بحر السياسة الفلورنسية . وكان أحياناً يذهب راكباً إلى فلورنس ليتحدث مع أصدقائه القدامى ، ويتحسس ما عسى أن يكون هناك من فرص للعودة إلى المناصب الحكومية . وكتب عدة مرار إلى آل ميديتشى فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يتلق منهم جواباً ، وقد وصف حياته فى رسالة ذائعة الصيت إلى صديقه فتورى Vittori سفير فلورنس فى رومة ، وأشار فيها إلى سبب تأليف كتاب **الأمير** فقال :

لقد ظللت منذ حلت بى الكارثة الأخيرة أحيا حياة هادئة فى الريف ؛ فأصحو فى مطلع الشمس وأسير إلى إحدى الغابات حيث أقضى بضع ساعات أراجع فيها عمل الأمس ؛ ثم أمضى بعض الوقت مع قاطعى الأشجار وأجد لديهم على الدوام متاعب يفضون بها إلىّ سواء أكانت متاعبهم هم أو متاعب جيرانهم . فإذا غادرت الغابة ذهبت إلى نبع ماء ثم إلى حظيرتى التى أصطاد منها الطيور ، وتحت إبطى كتاب دانتى ، أو پترارك أو أحـــد الشعراء الذين هم أقل منهما شأناً مثل تيبلس Tibellus أو أوفد . وأقرأ فى هذه الكتب عن عواطفهم الغرامية وقصص حبهم ، فتذكرنى بتاريخ حبى أنا ؛ ويمر الوقت وأنا مبتهج مسرور بهذه الأفكار . ثم آوى بعدئذ إلى الفندق القائم على جانب الطريق ، وأتحدث إلى المارة ، وأسألهم عن أخبار الأماكن التى أقبلوا منها ، وأستمع منهم إلى ما يحدثوننى عنه وهو كثير ، وألاحظ مختلف

الأذواق والأوهام المستكنة في عقول بني الإنسان . وأصل بهذا إلى ساعة الغداء فأبتلع في صحبة من معي ما عسى أن أجده في هذا المكان الصغير من طعام غير ذي شأن يفي به ما ورثته عن أبوي من مال قليل . وأعود بعد الظهر إلى الفندق حيث أجد في العادة صاحبه ، وقصاباً ، وطحاناً ، واثنين من صانعي الطوب ، فأختلط مع هؤلاء الأقوام الغلاظ طول النهار ألعب معهم النرد وغيره ، وتثور بيننا آلاف المنازعات ، ونتبادل كثيراً من السباب ، ونتشاحن على أتفه النقود حتى تسمع أصواتنا في بلدة سان كاستشيانو . ويؤدي انغماسي في هذا الانحطاط إلى ضعف قواي العقلية ، فأصب غضبي على القدر وبلواه . . . .

وأعود إلى داري في المساء ، وآوي إلى حجرة مكتبي ، وأخلع عند بابها ملابسي الريفية الملطخة بالطين والأقذار ، وأرتدي ثياب رجال البلاط ؛ حتى إذا لبست ما يليق بي من الثياب دخلت الأبهاء القديمة لقدماء الرجال الذين يرحبون بي أحسن الترحيب ، ويطعمونني الطعام الوحيد الذي أحبه وأرتضيه ؛ والذي ولدت له ، ولا أستحي من التحدث إليهم وسؤالهم عن بواعث أعمالهم ، وتصل بهم إنسانيتهم إلى أن يجيبوا عن أسئلتي ، وأقضي على هذا النحو أربع ساعات لا أشعر فيها بملل ولا أذكر فيها متاعب ، ولا أعود أخشى الفقر أو أرهب الموت ، لأن كياني كله يكون مستغرقاً فيهم . وإذ كان دانتي يقول إنه لا وجود لعلم دون أن يحتفظ الإنسان بما يستمع ، فقد سجلت ما حصلت عليه من حديثي مع هؤلاء العظام وألفت منه كتيباً سميته **في الإمارة** غرقت فيه إلى أبعد عمق أستطيعه من التفكير هذا الموضوع ، وبحثت فيه طبيعة الإمارة ، وعدد أنواعها ، وطريق الوصول إليها ، والاحتفاظ بها ، وسبب ضياعها ؛ فإذا كنت تعنى بشيء من عبثي ، فإنك لن تجد في هذا ما يسوؤك . ويجب أن يرحب به على

الأخص كل أمير حديث العهد بالإمارة . ومن أجل هذا أهديه إلى فخامة جوليانو . . . (فى ١٠ ديسمبر سنة ١٥١٣)[٧٦].

ونرجح أن مكيڤلى قد اختصر القصة بقوله هذا . والظاهر أنه بدأ بوضع كتابه المسمى **أحاديث عن العشرة الكتب الأولى لليڤى** ، وأنه لم يتم شروحه للثلاثة الأولى منها . وقد أهدى هذه الأحاديث Discorsi إلى دسانوبى بونديلمنتى Zanobi Bunodelmonti وكوزيمو رتشـــيلى Cosimo Rucelli وقال : « أبعث إليك بأعظم هدية أقدمها لك . لأنها تشمل كل ما تعلمته بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة . ويشير إلى أن آداب القدامى وقانونهم وطبهم قد بعثت من جديد ليستنير بها المحدثون فى كتاباتهم وأعمالهم ؛ وهو يقترح كذلك بعث مبادئ الحكمة القديمة ، وتطبيقها على السياسة المعاصرة . وهو لا يستمد فلسفته السياسية من التاريخ ، ولكنه يختار من التاريخ حوادث تؤيد النتائج التى قادته إليها تجاربه وأفكاره . ويأخذ أمثلته كلها تقريباً من ليڤى ، وتؤدى به سرعته أحياناً إلى إقامة حججه على الأقاصيص ، ويستعين فى بعض الأحيان بمقتبسات من پوليبيوس Polybius .

ولما سار بعض الخطى فى **أحاديثه** أدرك أنها ستطول أكثر مما يجب ، وأنها لن تتم إلا بعد زمن طويل ، فلاتفيد فى أن تكون هدية عملية لأحد الحاكمين من آل ميديتشى . لهذا قطع عمله ليكتب خلاصة تضم ما وصل إليه من النتائج ؛ لأن هذه تتاح لها فرصة لقراءتها أفضل من البحث المطول ، وتكون أعود عليه بصداقة الأسرة القوية التى تحكم وقتئذ (١٥١٣) نصف إيطاليا . وهكذا وضع كتاب **الأصول** Il principe (وهو العنوان الذى اختاره له) فى عدد قليل من شهور هذا العام . وكان ينوى إهداءه إلى جوليانو دى ميـــديتشى ، الذى كان يحكم فلورنس فى ذلك الوقت ، ولكن جوليانو توفى (١٥١٦) ، قبل أن يصمم مكيڤلى على إرسال الكتاب إليه ؛ ولهذا غير صيغة الإهداء وبعث به إلى لورنسو ، دوق أربينو ؛ الذى

لم يرسل إليه ينبئه بوصوله . وتداولت الأيدى المخطوط ، وكتبت منه عدة نسخ خلسة ، ولم يطبع إلا فى عام ١٥٣٢ بعد خمس سنين من موت المؤلف ، وأصبح من ذلك الحين من أكثر ما يعاد طبعه من الكتب فى أى لغة من اللغات .

وليس فى مقدورنا أن نضيف إلى ما وصف به نفسه إلا صورة له لا يعرف مصورها محفوظة فى معرض أفيزى . ويظهر فيها شخصاً نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، غائر الخدين ، حاد العينين أسودهما ، رقيق الشفتين مطبوقهما ، تنم معارفه عن رجل تفكير أكثر مما هو رجل عمل ، له من الذكاء الحاد أكثر مما له من الإرادة الطيبة والوداعة . ولم يكن فى مقدوره أن يصبح دبلوماسياً صالحاً ، لأنه لم يكن يسعه أن يخفى دهاءه ، ولا أن يكون حاكماً قديراً لأنه كان مسرفاً فى عنفه ، يقبض على الأفكار بتعصب وعناد ، كما يقبض فى صورته على قفازيه اللذين يؤكدان مرتبته نصف الأرستقراطية ، وهذا الرجل الذى كثيراً ما كتب كما يكتب الفيلسوف الكلبى ، والذى كثيراً ما تنقلب شفتاه انقلاب الساخر المتهكم ، والذى اعتاد الكذب حتى جعل الناس يظنونه يكذب حين يقول الحق(٧٧) ، هذا الرجل كان فى خبيئة نفسه وطنياً شديد الحماسة ، يرى أن مصلحة الشعب هى القانون الأعلى ، ويخضع كل القوانين الأخلاقية لغاية واحدة هى توحيد إيطاليا وإنقاذها مما تعانيه .

وكان يتصف بكثير من الصفات غير المحبوبة ؛ منها أنه لما أقبلت الدنيا على بورجيا اتخذه مثلا أعلى ، ولما انصرفت عنه سار وراء الجماهير وندد « بالقيصر »(*) الساقط ووصفه بأنه مجرم و « عاص للمسيح »(٧٨) . ولما طرد آل ميديتشى لعنهم بأفصح عبارة ، فلما عادوا إلى الحكم لعق أحذيتهم ملتمساً منهم منصباً . ولم يكن يزور المواخير قبل الزواج وبعده فحسب ،

(*) سيزارى وقيصر لفظ واحد . (المترجم)

بل كان يبعث إلى أصدقائه بأوصاف مفصلة لمغامراته فيها(٧٩) وإن كثيراً من رسائله لتبدو فيها الغلظة والوقاحة واضحتين وضوحاً لم يجرؤ معه كاتب سيرته والمعجب به ، الذى أطال فى الترجمة له ، على نشرهما ، ولما قرب مكيڤلى من سن الخمسين كتب يقول : « إن شباك كيوبد لاتزال تقتنصنى ؛ والطرق الوعرة لا تستنفد صبرى ، والليالى السوداء لاتوهن شجاعتى . . . إن عقلى كله لمتجه للحب اتجاهاً أحمد عليه ڤينوس »(٨٠) . تلك أشياء فى وسعنا أن نغفرها له . لأن الرجل لم يخلق لكى يقتصر على زوجة واحدة ؛ ولكننا لانستطيع أن نغفر له بمثل هذه السهولة عدم وجود كلمة حنان واحدة موجهة إلى زوجته فى كل ما بقى لدينا من رسائله وهو كثير ؛ وإن كان هذا مما يتفق مع سنة تلك الأيام .

ووجه قلمه البليغ فى هـــذه الأثناء إلى أنواع من التأليف متباينة ، وبز الأساتذة فى كل نوع منها . وكان منها رسالة فى فن الحرب (L'arte della guerra) نشرها فى عام ١٥٢٠ ، وأعلن فيها من برجه العاجى للدول والقواد شرائع السلطة العسكرية والنجاح فقال إن الأمة التى تفقد الفضائل العسكرية أمة هالكة لا محالة . والجيش لا يحتاج إلى الذهب بل إلى الرجال ؛ لأن « الذهب وحده لا يأتى بالجند الصالحين على الدوام ، ولكن الجند الصالحين يأتون بالذهب »(٨١) ، والذهب ينساب إلى خزائن الأمة القوية ، ولكن القوة تفارق الأمة الغنيـــة لأن الثراء يعمل على الراحة والاضمحلال ؛ ولهذا يجب أن يظل الجيش مشغولا على الدوام ، فحرب صغيرة تشب من حين إلى حين تبقى العضلات العسكرية صالحة والجهاز الحربى صالحاً متأهباً . وسلاح الفرسان جميل إلا إذا واجهته الحراب القوية ؛ ويجب أن يعد هذا السلاح عصب الجيش وأساسه (٨٢) . والجنود المرتزقة عار يجلل إيطاليا ، ودليل على تراخيها وضعفها ، وسبب فى خرابها ، ومن واجب كل دولة أن يكون لها حرس وطنى من أهلها مؤلف من رجال يحاربون دفاعاً عن وطنهم وأرضهم .

وأراد مكيڤلى أن يجرب حظه فى القصص فكتب قصة تعد من أحب الروايات للشعب فى إيطاليا ، وهى قصة بيلفاجور أرتشدياڤولو Belfagor arcidiavolo ، التى تفيض بالفكاهة والهجاء يصبهما على الزواج . ثم تحول بعدئذ إلى كتابة المسرحيات ، فألف أهم مسلاة ظهرت على مسرح النهضة الإيطالى وهى مسرحية مندراجولا Mandragola . وتضرب مقدمة هذه الرواية نغمة جديدة إذ يجامل فيها النقاد مجاملة لا عهد لهم بها من قبل :

« إذا شاء أحد أن يبعث الخوف فى قلب المؤلف بالقدح فيه ، فإنى أحذره بأن المؤلف أيضاً يعرف كيف يقدح ، بل إنه بارع فى هذا الفن ، وأنه لا يحترم أحداً فى إيطاليا وإن كان ينحنى ويتذلل لمن هم أحسن لباساً منه(٨٣) » .

والمسرحية تكشف عن أخلاق عصر النهضة كشفاً يروع الإنسان ويذهله . والمكان الذى تقع فيه حوادثها هو مدينة فلورنس ، ومضمونها أن كليماكو Callimaco يسمع إنساناً يعرفه يمتدح جمال لكريدسيا زوجة نتشياس فيقرر أنه لا بد من أن يغويها ، وإن لم يكن قد رآها من قبل ، وإن لم يكن يقصد بإغوائها إلا أن ينام هادئاً مستريح البال . ويقلقه أن لكريدسيا تشتهر بتواضعها بقدر ما تشتهر بجمالها ، ولكن أمله يقوى حين يقال له إن نتشياس يألم من أنها لا تحمل . ويرشو كليماكو صديقاً له لكى يقدمه لنتشياس على أنه طبيب ، ويدعى أنه سيخلط له مزيجاً يجعل فى مقدور أية امرأة أن تحمل ، ولكنه يعرف مع الأسف الشديد أن أى رجل يضاجعها بعد أن تتناوله سيموت بعد قليل ، ويعرض عليه أن يقوم بهذه المغامرة المهلكة ، ويرضى نتشياس أن يحل هو محله متبعاً فى ذلك طيبة الخلق التقليدية التى يتصف به أشخاص القصص لمبتكريهم . غير أن لكريدسيا تناضل عن عفتها ؛ وتتردد فى أن ترتكب جريمتين فى ليلة واحدة هما جريمة الزنا والقتل لكن الرجاء لن يخيب كله ، ذلك أن أمها ، فى حرصها الشديد على أن يكون

لابنتها خلف ، ترشو راهباً فينصحها أثناء اعترافها بأن تنفذ الخطة ؛ وتخضع لكريدسيا ، وتشرب الدواء ، وتنام مع كليماكو ، وتحمل . وتختتم القصة خاتمة سعيدة لكل أشخاصها : فالراهب يطهر لكريدسيا ، ويبتهج نتشياس لأنه أصبح له ولد مشكوك في بنوته ، ويستطيع كليماكو أن ينام . والمسرحية ممتازة في بنائها ، بديعة في حوارها ، قوية في هجائها . وليس الذي يثير دهشتنا فيها هو ما موضوع الإغواء ، الذي طالما رددته المسالى القديمة حتى مللناه ، وليس هو ما تحتويه من تفسير الحب تفسيراً جسدياً شهوانياً ، بل هو المحور الذي تدور عليه وهو استعداد الراهب لأن يحلل الزنا نظير خمسة وعشرين دوقة ؛ إن المسرحية قد مثلث في عام ١٥٢٠ بنجاح عظيم أمام ليو العاشر . وقد بلغ من سرور البابا بها أن طلب إلى الكردنال جوليو ده ميديتشي أن يعهد إلى مكيفلي بعمل من نوع التأليف فاقترح جوليو أن يكون هذا العمل هو كتابة تاريخ لفلورنس وعرض عليه في نظير ذلك ثلثمائة دوقة (٣,٧٥٠ ؟ دولاراً) .

وكتب التاريخ فعلا (١٥٢٠ — ١٥٢٥) وكاد يحدث في فن كتابة التاريخ ثورة لا تقل حدة عن الثورة التي أحدثها في الفلسفة السياسية كتاب **الأمير** . ولسنا ننكر أنه كانت في الكتاب عيوب أساسية خطيرة : ذلك أن السرعة التي صدر بها جعلته عديم الدقة ، وأنه نقل فقرات كبيرة عن المؤرخين السابقين ، وأن النزاع بين الأحزاب كان يلقى فيه من الاهتمام أكثر مما تلقاه الأنظمة ، وأنه أغفل التاريخ الثقافي إغفالا تاماً ، كما أغفله المؤرخون كلهم تقريباً قبل أيام ڤلتير . ولكنه كان أول تاريخ كبير كتب باللغة الإيطالية ؛ وكانت لغته الإيطالية هذه واضحة ، جزلة ، خالية من التعقيد ؛ وقد رفض الخرافات التي كانت فلورنس تجمل بها منشأها ؛ وتخلى عن الطريقة المألوفة القديمة وهي تأريخ الحوادث سنة فسنة ، وعمد بدلا منها إلى الرواية المنسجمة المتصلة المنطقية ؛ ولم يكن يعالج الحوادث

فحسب . بل كان يبحث فى أسبابها ونتائجها ، وأفاض على فوضى السياسة الفلورنسية تحليلا للمنازعات القائمة بين الأسر ، والطبقات ، والمصالح يكشف عنها ويوضحها . وقد جعل محور القصة موضوعين يوحدان بين أجزائها : أولهما أن البابوات قد أبقوا إيطاليا مشتتة منقسمة على نفسها لكى يحافظوا على استقلال البابوية فى الشئون الزمنية ، وثانيهما أن ما حدث فى إيطاليا من تقدم عظيم كان فى عهد الأمراء أمثال ثيودريك ، وكوزيمو ، ولورندسو . ومما يدل على شجاعة المؤلف ، وكرم البابا من الناحيتين العقلية والمالية أن يكتب كتاباً بهذه النزعة رجل يسعى للحصول على المال من البابا ، وأن يرضى البابا كلمنت السابع بأن يهدى إليه الكتاب دون أن يشكو مما جاء فيه .

وشغل **تاريخ فلورنس** مكفلى خمس سنين ، ولكنه لم يحقق ما كانت تتوق إليه نفسه وهو عودته إلى السباحة فى مجرى الساسة الموحل . ولما أن خسر فرانسس الأول كل شىء عدا شرفه وحياته فى پاڤيا (١٥٢٥) ، وألفى كلمنت السابع نفسه عاجزاً ضعيفاً أمام شارل الخامس ، بعث مكيڤلى برسائل إلى البابا وإلى چوتشياردينى يوضح ما يستطاع عمله لصد الفتح الأسبانى — الألمانى الذى كان يتهدد إيطاليا ؛ ولعل اقتراحه بأن يمد البابا چيوڤنى دلى باندى نيرى Giovanni delle Bande Nere بالمال ، والسلطان ، والسلاح كان من شأنه أن يؤجل المصير المحتوم إلى حين . ولما مات چيوڤنى ، وزحفت الجحافل الألمانية على فلورنس الحليفة الغنية لفرنسا والمجزئة لمن ينهبها ، أسرع مكيڤلى إلى المدينة ، واستجاب إلى ما طلبه كلمنت فوضع تقريراً عن الطريقة التى يمكن بها إعادة أسوارها بجعلها صالحة للدفاع عنها . وفى الثامن عشر من مارس سنة ١٥٢٦ اختارته الحكومة الميديتشية ليرأس لجنة من خمسة « أمناء على الأسوار » . ليقوموا بهذه المهمة . غير أن الألمان مروا بفلورنس واتجهوا إلى رومة . ولما نهبت هذه المدينة ، وأسر الغوغاء كلمنت ، طرد الحزب الجمهورى فى فلورنس آل ميديتشى مرة أخرى ،

من المدينة وأعادوا إليها الحكم الجمهورى . (١٦ مايو سنة ١٥٢٧) . وابتهج مكيفلى لهذا العمل وطالب بمنصبه القديم منصب أمين مجلس العشرة الحربى ، وكان يرجو أن يعود إليه ؛ لكنه لم يجب إلى طلبه (١٠ يونية سنة ١٥٢٧) ؛ ذلك أن صلابة آل ميديتشى قد أفقدته عطف الجمهوريين ومعونتهم .

ولم تطل حياته بعد هذه الصدمة ؛ فقد خبت فيه جذوة الحياة والأمل وتركته جسداً بلا روح . وانتابه المرض ، وكان يشكو من تقلصات شديدة فى المعدة ؛ واجتمع حول فراشه زوجته ، وأبناؤه ، وأصدقاؤه ؛ واعترف أمام قسيس ومات ولما يمض على رفض طلبه غير اثنى عشر يوماً ، وخلف أسرته فى الدرك الأسفل من الفاقة ، وترك إيطاليا التى كان يعمل جاهداً لتوحيدها خراباً يبابا . ودفن فى كنيسة الصليب المقدس ، حيث أقيم له نصب جميل نقشت عليه هذه العبارة : « ليس فى مقدور أى مديح أن يوفى هذا الاسم العظيم حقه » — وهو قول يشهد بأن إيطاليا التى توحدت آخر الأمر قد تجاوزت عن سيئاته وذكرت له أحلامه .

٣ — الفيلسوف

ولنبحث الآن الفلسفة « المكيفلية » بأكثر ما نستطيع من النزاهة فنقول إننا لا نجد عند غير مكيفلى مثل ما نجده عنده من الاستقلال فى الرأى ومن التفكير الجرىء المجرد من الخوف فى عالم الأخلاق والسياسة ، وإن من حق مكيفلى أن يدعى أنه قد شق طرقاً جديدة فى بحار لم يكد يطرقها أحد قبله .

وفلسفة مكيفلى تكاد تكون فلسفة سياسية خالصة ، ليس فيها شىء من فلسفة ما بعد الطبيعة ، ولا اللاهوت ، ولا الإيمان أو الكفر ، ولا بحث فى الجبرية أو القدرية ؛ وحتى الفلسفة الأخلاقية نفسها لا تلبث أن تنحى ،

جانباً لأنها بوصفها فلسفة تابعة للسياسة ، وتكاد تكون أداة لها . وهو يفهم السياسة على أنها الفن العالى الذى يراد به إيجاد دولة ، أو الاستيلاء عليها ، أو حمايتها ، أو تقويتها ؛ وهو يهتم بالدولة لا بالإنسانية عامة ؛ ولا يرى فى الأفراد إلا أنهم أعضاء فى دولة ، إلا إذا نظر إليهم من حيث أنهم يساعدون على تقرير مصيرها ؛ وهو لا يعنى قط باستعراض الأفراد على مسرح الزمان . وهو يريد أن يعرف لم تنشأ الدول وتسقط ، وكيف يمكن تأخير اضمحلالها المحرم إلى أبعد ما يستطاع من الوقت .

وهو يرى أن فلسفة التاريخ وعلم الحكم أمكن وجودهما لأن الطبيعة البشرية لا تتبدل أبداً :

« يقول الحكماء ، ولهم الحق فيما يقولون ، إن من شاء أن يتنبأ بالمستقبل فعليه أن يرجع إلى الماضى ؛ لأن الأحداث البشرية تشابه دائماً أبداً أحداث الأزمنة الماضية . ومنشأ هذا التشابه أنها ثمرة أعمال خلائق كانوا ، ولا يزالون ؛ وسيكونون على الدوام ، تحركهم نفس العواطف والانفعالات ، ولهذا فإن هذه العواطف والانفعالات لابد أن تكون النتائج نفسها(٨٤) . . . وأنا أعتقد أن العالم كان هو بعينه على الدوام ، وأنه كان يحتوى دائما كل ما يحتويه الآن من خير وشر ، وإن كان هذا الخير وذاك الشر يختلف توزيعهما بين الأمم باختلاف الأوقات »(٨٥) .

وظاهرتا نشأة الحضارات والدول واضمحلالها من أكثر الظواهر المتتابعة المنتظمة دلالة فى التاريخ . وهنا يواجه مكيفلى مشكلة معقدة غاية التعقيد بقانون بسيط غاية البساطة فيقول : « الشجاعة تنتج السلم ؛ والسلم تنتج الراحة ، والراحة تستتبع الفوضى ، والفوضى تؤدى إلى الخراب . ومن الفوضى ينشأ النظام ، والنظام يؤدى إلى الشجاعة (virtu) ، ومن هذه ينال المجد والحظ الحسن . ومن أجل هذا قال الحكماء إن عهد السمو الأدبى يأتى فى أعقاب التفوق الحربى ؛ وإن . . . المحاربين العظام ينشئون قبل

الفلاسفة »(٨٦) . وقد تكون هناك أسباب أخرى لنشأة الأمم واضمحلالها غير الأسباب العامة وهي عمل القادة والزعماء من الأفراد وتأثيرهم ؛ من ذلك أن مطامع الحاكم المتطرفة ، التي تعميه فلا يرى أن موارده لا تكفي لتحقيق أغراضه ، قد تكون سبباً في خراب دولته إذ تجرها إلى الاشتباك في الحرب مع دولة أعظم منها قوة . وللحظ والمصادفات كذلك أثر في قيام الدول وسقوطها . « فالحظ هو الذي يتحكم في نصف أعمالنا ، ولكنه يترك لنا مع ذلك القدرة على توجيه النصف الآخر »(٨٧) . وكلما كثر نصيب الإنسان من الشجاعة قل خضوعه لتقلبات الحظ واستسلامه له .

وتاريخ دولة ما يتبع قوانين عامة ، يحددها ما تنطوي عليه طبيعة الناس من خبث وشر . والناس كلهم بطبيعتهم مقتنون ، مخادعون ، مخاصمون ، قساة ، فاسدون .

« ومن أراد أن ينشئ دولة ، ويضع لها قوانين ، فليفترض من بادئ الأمر أن الناس جميعاً أشرار ، مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل ؛ فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثة مختفية إلى حين ، فيجب أن يعزى اختفاؤها هذا إلى سبب غير معروف ؛ ومن واجبنا أن نفترض أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها ؛ ولكن الزمن . . . لن يعجزه الكشف عنها . . . والرغبة في الاقتناء من الغرائز الفطرية العامة في واقع الأمر ، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون ؛ ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك ولا يلامون عليه »(٨٨) .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريقة الوحيدة لجعل الناس أخياراً — أي قادرين على أن يعيشوا بنظام في مجتمع — هي أن يطبق عليهم القسر ، والخداع ، والاعتياد واحداً بعد واحد . ومن هذا تنشأ الدولة : تنظيم القوة على يد الجيش والشرطة ، ووضع القواعد والقوانين ، وتكوين العادات تدريجاً للاحتفاظ بالزعامة والنظام في الجماعة البشرية . وكلما كانت

الدولة أكثر نماء . قلت الحاجة إلى استخدام القوة أو ظهورها فيها ؛ واكتفى بدلا منها بالتعليم وغرس العادات ، لأن الناس يكونون فى يدى المشرع أو الحاكم القدير أشبه بالصلصال اللين فى يدى المثال .

والدين خير وسيلة لتعويد الناس الذين فطروا على الشر الخضوع إلى القانون والنظام . ويكتب مكيڤلى الذى يسميه پاولو چيوڤيو Paolo Giovio أحد المعجبين به الكافر الهجاء(٨٩) ، عن الدين حماسة بالغة يقول :

« لم تر الآلهة أن الشرائع التى وضعها رميولوس كافية لرومة ، وإن كان هذا الأمير هو الذى أنشأها . . . ، ولهذا أوحت إلى مجلس الشيوخ الرومانى أن يختار نوما پمپليوس Numa Pompilius خليفة له . . . . ووجد نوفا شعباً متوحشاً أشد التوحش ، أراد أن يغرس فيه عن طريق فنون السلم عادة الطاعة المدنية ، فلجأ إلى الدين الذى رآه أقوى مؤيد للمجتمع المدنى وألزمه ، فأقامه على أسس بلغ من قوتها أن مضت قرون طوال دون أن يوجد فى مكان ما خوف من الآلهة أكبر مما كان فى هذه الجمهورية . وقد يسر هذا تيسيراً كبيراً جميع المشروعات التى حاول القيام بها مجلس الشيوخ أو كبار أعضائه . . . . وقد ادعى نوما أنه تحدث إلى إحدى الحور ، وأنها أملت عليه كل ما يريد أن يقنع به الناس . . . والحق أنه لم يوجد قط مشرع عظيم . . . لم يلجأ إلى القوة الإلهية ، وإلا لما أطاع الناس شرائعه ؛ لأن ثمة شرائع صالحة كثيرة يدرك المشترع الحكيم أهميتها ، ولكن أسباب وضعها لا تتضح للناس وضوحاً يكفى لأن يمكنه من إقناع غيره من الناس بإطاعتها ؛ وهذا هو السبب الذى يجعل العقلاء من الناس يلجئون إلى السلطة الإلهية ليتغلبوا على هذه الصعوبة(٩٠) . . . . واتباع الأنظمة الدينية هو سبب عظمة الجمهوريات ؛ وإهمال هذه النظم يؤدى إلى خراب الدول ؛ ذلك أنه إذا انعدم من بلد ما خوف الله ، قضى على هذا البلد لا محالة ؛ إلا إذا دعمه خوف الأمير وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينقص

هذا البلد من خشية الله . لكن حياة الأمراء قصيرة . . . . [٩١] .

« وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم . . . وجب عليهم قبل كل شيء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية ، وأن ينظروا إليها بالاحترام اللائق بها ؛ وهذا بعينه يصدق على الجمهوريات ، فهى لا بقاء لها إلا إذا حافظت على هذا النقاء ووجهت إلى تلك الشعائر هذا الاحترام نفسه[٩٢] . . . وأكثر من يستحق الثناء ممن نالوا هذا الثناء هم الذين أنشأوا الأديان وأقاموها . ويليهم فى هذا الذين أقاموا الجمهوريات أو الممالك . وأعظم الناس بعد هؤلاء وأولئك هم الذين قادوا الجيوش ووسعوا أملاك بلادهم . وقد نضيف إليهم رجال الأدب . . . وعكس هذا أيضاً صحيح . فالذين يهدمون صرح الدين ، ويقضون على الجمهوريات والممالك والذين هم أعداء الفضيلة والآداب ، أولئك يجللهم العار . وتصب عليهم اللعنات من الناس أجمعين »[٩٣] .

وبعد أن ارتضى مكيڤلى الدين بوجه عام انتقل إلى الدين المسيحى فأخذ يوجه إليه أشد النقد لأنه عجز عن إيجاد مواطنين طيبين . ذلك أنه حول أكثر ما يجب تحويله من العناية إلى السماء ، وأضعف الناس بأن أخذ يدعوهم إلى الفضائل النسوية وفى ذلك يقول :

« إن الدين المسيحى يدعونا إلى الاستخفاف بحب الدنيا ، ويجعلنا أكثر رقة وليناً . أما القدماء فكانوا عكس هذا ، كانوا يجدون أعظم أسباب بهجتهم فى هذا العالم . . . ولم يكن دينهم يقدس إلا الذين يتوج هاماتهم مجد هذا العالم الأرضى ، كقواد الجيوش ، ومؤسسى الجمهوريات ؛ على حين أن ديننا نحن قد مجد الوادعين الذين يقضون زمانهم فى التأمل والتفكير بدل أن يمجد رجال العمل . وقد جعل هذا الدين أعلى درجات الخير الذلة ، وضعف العزيمة ، واحتقار الأمور الدنيوية ؛ أما الدين القديم فكان يجعل أعلى درجات الخير عظم العقل ، وقوة الجسم ، وكل ما يبعث فى الناس

الإقدام والجرأة . . . . ومن أجل هذا خر العالم صريعا أمام الأشرار ، فقد وجد هؤلاء الناس أكثر استعداداً للخضوع إلى الضربات طمعاً منهم فى دخول الجنة بدل أن يردوا عليها بمثلها(٩٤) . . . . .

« ولو أن الدين المسيحى قد احتفظ به حسب القواعد التى وضعها له مؤسسه ، لكانت الدول والبلاد المسيحية أقوى اتحاداً وأكثر سعادة مما هى الآن . وهل ثمة أدل على ضعفها وانحلالها من أن أقرب الشعوب إلى الكنيسة الرومانية ، وهى رأس هذا الدين ، أقلها تديناً ؛ ومن يبحث المبادئ التى يقوم عليها هذا الدين ويرى البون الشاسع بين هذه المبادئ وبين أساليبها الحاضرة وشعائرها ، يحكم من فوره أن انهيار هذا الدين أو مصيره المحتوم آت غير بعيد(٩٥) . . . . ولعل الدين المسيحى كان يقضى عليه قضاء لا مرد له بسبب ما فيه من فساد لو لم يرد إليه القديسان فرانسس ودمنيك مبادئه الأصيلة . . . وإذا شئنا أن نضمن للطوائف أو الجمهوريات الدينية حياة أطول وأبقى ، وجب أن نرجع بها مراراً وتكراراً إلى مبادئها الأولى الأصيلة(٩٦) » .

ولسنا نعرف هل كتبت هذه الألفاظ قبل أن تصل إلى إيطاليا أنباء الإصلاح الدينى أو بعد وصولها إليها .

ويختلف خروج مكيڤلى على المسيحية عن خروج ڤلتير ، وديدرو ، وپين Paine ، ودارون ، واسپنسر ، وريئان عليها . ذلك أن هؤلاء الرجال كانوا يرفضون لاهوت المسيحية ، ولكنهم يحتفظون بالقانون المسيحى الأخلاقى ويعجبون به . وظلت هذه الحال قائمة إلى أيام نتشة ولطفت « حدة النزاع الناشئ بين الدين والعلم » . أما ميكڤلى فلا يشغل باله بالعقائد الدينية وبعدها عن المعقول ؛ فهو يرى هذا البعد أمراً طبيعيا ويأخذه على أنه قضية مسلم بها ، ولكنه يقبل اللاهوت المسيحى قبولا حسناً بحجة أن نظاماً ما من المعتقدات التى فوق الطبيعة هو دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . أما الذى يرفضه من المسيحية رفضاً با[illegible]ادئها الأخلاقية . و[illegible] [illegible]راه من

أن الصلاح والخير هما الرقة ، والذلة ، والاستسلام وعدم المقاومة ، وحبها للسلم ، وتنديدها بالحرب ؛ وافتراضها أن الدول والأفراد مرتبطون بقانون أخلاقي واحد . وهو يفضل عن هذه المبادئ القانون الأخلاقي الروماني ، القائم على المبدإ القائل إن سلامة الشعب أو الدولة هي القانون الأعلى : «وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها ، وجب علينا ألا نقبل البحث في العدل أو الظلم ، والرحمة أو القسوة ، وما هو خليق بالثناء أو الازدراء ؛ بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها وننحى كل ما عدا هذا جانباً »(٩٧) . ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هي إلا قانون للسلوك وضع لأفراد المجتمع أو الدولة لحفظ النظام الجماعي ، والوحدة ، والقوة ؛ وإن حكومة تلك الدولة لتعجز عن أداء واجبها ، إذا كانت وهي تدافع عن الدولة ، تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقي الذي يجب عليها أن تغرسه في نفوس شعبها . ومن ثم فإن الدبلوماسي غير مقيد بالقانون الأخلاقي الذي يتقيد به شعبه . « فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر له نتيجة هذا العمل ذنبه »(٩٨) ؛ ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة . « وما من رجل صالح يلوم رجلا غيره يحاول أن يدافع عن بلاده ، أيا كانت السبيل التي يسلكها لهذا الدفاع »(٩٩) . فضروب الغش ، والقسوة ، والجرائم التي يرتكبها الرجل في سبيل الاحتفاظ بدولته ، كلها « غش شريف» و« جرائم مجيدة » (١٠٠) . ومن ثم فإن رميولوس كان على حق حين قتل أخاه ، لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلب الوحدة ، وإلا مزقت إرباً(١٠١) . وليس ثمة « قانون طبيعي » أو « حق » متفق عليه من الناس جميعاً ؛ والسياسة إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالا تاماً .

وإذا ما طبقنا هذه المبادئ على قانون الحرب الأخلاقي ، فإن مكيفلي واثق كل الثقة من أنها تجعل نزعة السلام المسيحية سخفاً وخيانة . ذلك أن الحرب تناقض وصايا موسى كلها تقريباً ؛ فهل تجيز القسم ، والكذب ،

والسرقة ، والقتل ، وارتكاب الزنا آلاف المرات ، ولكنها إذا ما حافظت على المجتمع أو كانت سبباً فى تقويته فهى خير . وإذا ما وقفت الدولة عن التوسع أخذت الاضمحلال ، وإذا فقدت الرغبة فى الحرب فقل عليها السلام . والسلم إذا طالت فوق ما يجب تؤدى إلى الضعف والتفكك ، ولذلك كانت حرب تدور بين الفينة والفينة مقوية للقومية ، تعيد للأمة النظام ، والشدة ، والوحدة . ولهذا فإن الرومان فى عهد الجمهورية كانوا دائماً مستعدين للحرب ، فإذا رأوا أنهم مقبلون على نزاع مع دولة أخرى ، لم يفعلوا شيئاً يجنبهم الحرب ؛ بل أرسلوا جيشاً ليهاجم فليب فى مقدونية وأنطونيوخوس الثالث فى بلاد اليونان ولم ينظروا حتى يأتى هذان المليكان بشرور الحرب إلى أرض إيطاليا(١٠٢) . ولم يكن الرومانى يرى أن الفضيلة هى الذلة ، أو الرقة ، أو السلام ، بل كان يرى أنها هى القوة ، والرجولة ، والبسالة ، مضافة إلى النشاط والذكاء . وهذا ما يعنيه مكيفلى بلفظ virtu .

ثم ينتقل مكيفلى من هذه النظرة نظرة الحاكم المتحرر من القيود الأخلاقية ليواجه ما كان يبدو له أنه هو المشكلة الأساسية فى أيامه : وهى أن يحصل لإيطاليا على الوحدة والقوة اللتين لا غنى لها عنهما لنيل حريتها الجماعية . وهو يرى بعين المقت ما يسود بلاده من انقسام ، واضطراب ، وفساد ، وضعف ؛ وهنا نرى ما كان فى أيام پترارك جد نادر — نرى رجلا لا يؤدى تفانيه فى حب قطره إلى أى نقص فى حبه مدينته . فإذا ما بحث عن الذى تقع عليه تبعة بقاء إيطاليا مقطعة الأوصال ، ضعيفة بسبب ذلك أمام العدو ، قال :

لا تستطيع أمة من الأمم أن تكون متحدة وسعيدة إلا إذا كانت تطيع حكومة واحدة سواء كانت جمهورية أو ملكية ، كما هى الحال فى فرنسا وأسبانيا ؛ والسبب الوحيد الذى يمنع إيطاليا من أن تكون هذه حالها هو الكنيسة . ذلك أنها وقد حصلت لنفسها على سلطان زمنى واحتفظت

بهذا السلطان ، لم تؤت فى يوم من الأيام من القوة أو الشجاعة ما يكفى لأن يجعلها قادرة على الاستيلاء على بقية البلاد وفرض سيادتها الوحيدة على إيطاليا بأجمها (١٠٣) .

وهنا تبدو لنا فكرة جديدة : تلك هى أن مكيڤلى لا يهاجم الكنيسة لأنها تدافع عن سلطتها الزمنية ، بل يهاجمها لأنها لم تستخدم جميع مواردها لإخضاع إيطاليا كلها لحكمها السياسى . ومن أجل هذا أعجب مكيڤلى بسيزارى بورچيا فى إمولا وسنجاليا لأنه ظن أنه وجد فى هذا الشاب القاسى فكرة إيطاليا المتحدة وأملها ؛ وكان على استعداد لأن يبرر أية وسيلة يستخدمها آل بورچيا ليحققوا بها ذلك الهدف الأسمى النبيل . ولربما كان خروجه على سيزارى بورچيا ، حين خرج عليه فى رومة عام ١٥٠٣ ، بسبب غضبه من أن معبوده هذا قد سمح بأن تقضى كأس من السم (كما كان مكيڤلى يظن) على هذا الحلم اللذيذ .

وكان قد مضى على إيطاليا قرنان من الزمان وهى مقسمة مشتتة ، سببا لها من الضعف والانحلال الاجتماعى ما لم يكن لينجيها منهما (فى رأى ميكيڤلى)

(*) كتب جوتشياردينى تعليقاً هاماً على هذه الفقرة قال فيه : « صحيح أن الكنيسة قد حالت بين إيطاليا وبين اجتماعها فى دولة واحده ، ولكنى لا أعرف أخير هذا أم شر . نعم إنها لو أصبحت جمهورية واحدة لكان هذا بلا ريب سبباً فى ارتفاع اسم إيطاليا إلى ذروة المجد ، ولكان فيه أعظم النفع لعاصمة تلك الجمهورية ، ولكنه كان يؤدى حتما إلى خراب جميع ما عداها من المدن . وما من من شك أيضاً فى أن انقسامنا قد جر علينا كثيراً من الكوارث ، وإن كان من واجبنا أن نذكر أن غزوات البرابرة قد بدأت فى أيام الرومان أى فى نفس الوقت الذى كانت فيه إيطاليا متحدة . ولقد أفلحت إيطاليا المنقسمة على نفسها فى أن تضم عدداً كبيراً من المدن الحرة ، حتى لأعتقد أنها لو اتحدت فى جمهورية واحدة لجرت عليها هذه الجمهورية من الشقاء أكثر ما أنالته إياها من السعادة .... لقد كانت هذه البلاد تتوق إلى الحرية على الدوام ، ولهذا فإنها لم تتحد قط تحت سلطان حكومة واحدة » — Consiperazioni interno ai Discorsi di machiavelli i, 12 .

(١٠٤)

إلا أشد الوسائل عنفاً . فلقد عم الفساد الحكومات والشعب ، وحلت الرذائل الشهوانية محل الروح الحربية والمهارة العسكرية ؛ وعهد المواطنون إلى غيرهم — كما عهد إليهم أيام احتضار رومة القديمة — عهدوا إلى الجيوش المرتزقة كما عهدوا أولئك إلى البرابرة — أن يدافعوا عن مدنهم وأرضهم ؛ وماذا يهم تلك العصابات المأجورة أو يهم زعماءها من وحدة إيطاليا ؟ إنهم يعيشون ويتخمون بسبب انقسامها . لقد اتفقوا فيما بينهم على أن يتخذوا الحرب لعبة لا تقل لهم أمنا عن السياسة ؛ فجنودهم لا يقبلون بحال من الأحوال أن يعرضوا أنفسهم للقتل ، وإذا ما التقوا بالجيوش الأجنبية ولوا الأدبار ، وأنزلوا إيطاليا منزلة الاسترقاق والاحتقار »(١٠٥) .

وإذن فمذا الذى يوحد إيطاليا ؟ وكيف السبيل إلى هذه الوحدة ؟ ليست السبيل إليها هى الإقناع بالوسائل الدمقراطية ؛ ذلك أن الرجال متطرفون فى نزعتهم الانفرادية ، وفى حزبيتهم ، وفسادهم ، مما يحول بينهم وبين قبول الوحدة قبولا سليماً ، ومثلهم فى ذلك مثل المدن نفسها ؛ ولهذا فإن هذه الوحدة لابد أن تفرض عليهم بجميع وسائل السياسة والحرب ؛ ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا غير الطاغية القاسى الذى خلا قلبه من الرحمة ؛ والذى لا يسمح لضميره بأن يجعل منه إنساناً جباناً ، بل يضرب بيد من حديد ، ويجعل هدفه العظيم يبرر كل ما يلجأ إليه من الوسائل .

ولسنا واثقين من أن هذا هو المزاج الذى ألف به كتاب **الأمير**. وشاهد ذلك أن مكيفلى كتب إلى صديق له فى عام ١٥١٣ أى فى العام الذى يبدو أنه شرع يكتب فيه هذا الكتاب يقول : « إن فكرة الوحدة الإيطالية فكرة مضحكة . ذلك أنه حتى لو استطاع رؤساء الدولة الإيطالية أن يتفقوا ، فإنا ليس لدينا من الجنود من لهم شىء من القيمة غير الجنود الأسبان . يضاف إلى هذا أن الشعب لا يمكن أن يتفق فى يوم من الأيام مع الزعماء(١٠٦) . لكن حدث فى ذلك العام نفسه عام ١٥١٣ أن جلس

ليو العاشر على كرسى البابوية ، واتحدت فلورنس ورومة تحت سلطان آل ميديتشى بعد أن ظلتا عدوتين زمناً طويلا ، ولما أن بدل مكيڤلى صيغة إهداء كتابه فجعلها للورندسو ، دوق أربينو ، كانت هذه الدولة أيضاً قد سقطت فى يد آل ميديتشى ، ولم يكن الدوق الجديد قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره فى عام ١٥١٦ ، وكان قد أظهر غير قليل من الطموح والبسالة ؛ وكان من حق مكيڤلى أن نسامحه إذا نظر إلى هذا الشاب المتهور على أنه هو الذى يستطيع بهداية ليو ودپلوسيته (واتباع تعاليم مكيڤلى) أن يحقق ما بدأه سيزارى بورچيا بإرشاد ألكسندر السادس — أى أن يقود الدول الإيطالية ، أو فى القليل الدول الواقعة منها شمال ناپلى مع استبعاد دولة البندقية المتكبرة ؛ بعد ضمها فى اتحاد له من القوة ما يفل عزيمة الغزاة الأجانب . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن هذا كان أمل ليو أيضاً . وإن إهداء كتاب **الأمير** لآل ميديتشى لىدل على أن المؤلف كان يظن مخلصاً أن هذه الأسرة هى التى يمكن أن تحقق وحدة إيطاليا . وإن كان الغرض الأول من هذا الإهداء فى أغلب الظن هو أن يكون وسيلة لإيجاد منصب بها يشغله مؤلفه .

وكان شكل كتاب الأمير هو الشكل التقليدى المألوف : فقد أفرغ فى القالب الذى أفرغت فيه مائة من الرسائل فى العصور الوسطى خاصة بحكم الأمراء ، وسار على الطريقة التى اتبعت فى هذه الرسائل . أما فى محتوياته فقد كان ثورة لا شك فيها . فلم توجه فى الكتاب دعوة مثالية إلى أمير من الأمراء ليكون قديساً ، ولم يطلب إليه أن يطبق ما جاء فى **موعظة الجبل** على مشاكل العروش ، بل نراه على عكس ذلك يقول :

« لما كنت أقصد أن أكتب شيئاً يفيد من يفهمه ، فإنه يبدو لى أن أتبع حقيقة الأمور الصحيحة من أن أجرى وراء الخيال . لقد صور كثيرون جمهوريات وإمارات لم تعرف أو تر فى يوم من الأيام ؛ لأن البعد شاسع

بين الطريقة التى يعيش بها الإنســان والطريقة التى يجب أن يعيش بها ، ومن أجل ذلك فإن من يهمل ما يفعل فى سبيل ما يجب أن يفعل يجر على نفسه الخراب بأسرع ما يحتفظ لنفسه بالبقاء ؛ وإن الرجل الذى يريد أن يعمل حسب ما يجهر بأنه هو الفضيلة لا يلبث أن يلقى الوبال بين ما يحيط به من السرور من كل جانب . ومن ثم كان لابد للأمير الذى يريد أن يحتفظ بمركزه أن يعرف كيف يرتكب الخطأ وأن يفيد منه أولا يفيد حسبما تدعو إليه الحاجة(١٠٧) .

ولهذا فإن من واجب الأمير أن يفرق فى قوة وحزم بين المبادئ الأخلاقية ومطالب الحكم ، أى بين ضميره الخاص والصالح العام ؛ وأن يكون مستعداً لأن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شراً فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض . ويجب عليه أن يزدرى أساليب التردد والضعف التى لا تبلغ الإنسان الغرض كاملا ؛ والأعداء الذين لا يستطاع كسب صداقتهم يجب القضاء عليهم ؛ ومن واجب الأمير أن يقتل من ينازعونه عرشه . ولا بد له أن ينشئ جيشاً قوياً لأن الحاكم لايستطيع أن يتحدث بصوت أعلى من صوت مدافعه . ومن واجبه أن يحافظ دائماً على صحة جنوده ، وحسن نظامهم ، وعدتهم ، وأن يعد نفسه للحرب بأن يعرض نفسه فى كثير من الأحيان لصعاب الصيد وأخطاره . وعليه فى الوقت نفسه أن يدرس فنون الدبلوماسية ؛ لأنه يستطيع أن يحصل بالمكر والخداع فى بعض الأحيان أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة وقد لا يكلفانه ما لا تكلفه . ويجب عليه ألا يتمسك بالمعاهدات إذا أصبحت تجلب الضرر للأمة ؛ « والسيد العاقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ على العهد إذا كان فى وسع أعدائه أن يتخذوا محافظته هذه سلاحا لإيذائه ، وإذا ما زالت الأسباب التى جعلته يقطع هذا العهد على نفسه »(١٠٨) .

ولا غنى للأمير عن قسط من تأييد الشعب . ولكن إذا كان لا بد

للحاكم أن يختار بين أن يخافه الشعب دون أن يحبه ، وبين أن يحبه دون أن يخافه وجب عليه أن يضحى بالحب(١٠٩) ؛ لكن حكم الجماهير بالرأفة والرقة أسهل من حكمها بالغطرسة والقسوة(١١٠) . . . وشاهد ذلك أن الأباطرة تيتوس ، ونيرفا ، وتراجان ، وهدريان ، وأنطونينوس ، وماركس أوريليوس لم يحتاجوا إلى الحرس البريتورى ولا إلى الفيالق الحربية لحمايتهم ، لأنهم كانوا يحتمون بسلوكهم الطيب ، وبإخلاص شعبهم وبحب مجلس الشيوخ لهم (١١١) . ومن الوسائل التى يحصل بها الأمير على تأييد الشعب أن يناصر الفنون والعلوم ، وأن يهيئ له الحفلات والألعاب العامة . ويكرم أهل الحرف بشرط أن يحتفظ على الدوام بجلال مركزه(١١٢) . ويجب عليه ألا يهب الناس الحرية ، ولكن من واجبه أن يمتعهم قدر المستطاع بمظاهر الحرية . وعليه أن يعامل المدن التابعة له — كمدينتى أرتسو وبيزا التابعتين للبندقية ، بالشدة والعنف ، بل وبالقسوة فى بادئ الأمر فإذا ما استقرت له الأمور وأطاعه أهل هذه المدن ، أمكنه أن يجعل خضوعهم له أمراً عادياً مألوفاً بأساليب اللطف والمجاملة لأن القسوة إذا طالت وعمت أهل المدن الخاضعة كانت بمثابة انتحار من يلجأ إليها(١١٣) .

وعلى الحاكم أن ينشر الدين وأن يظهر هو نفسه بمظهر الرجل المتدين أيا كانت عقائده الخاصة(١١٤) . والحق أن تظاهر الأمير بالفضيلة أهم وأفيد له من أن يكون فاضلا بحق :

« إن تظاهر الأمير بالفضائل كلها نافع له وإن لم يكن من الضرورى أن يتصف بها ؛ فعليه مثلا أن يتظاهر بأنه رحيم ، وفىّ ، شفيق ، متدين مخلص ؛ ومما يفيده أيضاً أن يتصف بهذه الصفات ، على أن يكون ذا عقل مرن يمكّنه إذا دعت الحاجة من أن يتصف بعكسها . . . وعليه أن يحذر من أن ينطق بكلمة لا تنطبق عليها الصفات الخمس السالفة الذكر ؛ ويجب أن يبدو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لمن يرونه ويستمعون له كأنه الرحمة ، والإيمان ، والتدين ، والاستقامة مجسمة ، وعلى الإنسان أن يلوّن سلوكه ، وأن يكون مرائياً لأن الناس سذج منهمكون فى حياتهم الحاضرة ، إلى حد يسهل معه خداعهم . . . وفى مقدور كل إنسان أن يرى مظهرك ، ولكن قل من الناس من يعرف حقيقة مخبرك ، وأولئك النفر القلائل لايجرءون على مخالفة رأى الكثرة فيك(١١٥) .

ويضرب مكيڤلى لهذه الحكم أمثلة واقعية ، فيذكر نجاح الإسكندر السادس ، ويرى أن هذا النجاح يرجع كله إلى كذبه المدهش الذى يستثير الإعجاب ؛ ويعجب بفرديناند الكاثوليكى ملك أسپانيا ، لأنه كان يتظاهر دائماً بمظهر المدافع عن الدين فى مغامراته الحربية ؛ ويمتدح الوسائل التى ارتقى بها فرانتشيسكو اسفوردسا عرش ميلان وهى الشجاعة الحربية والمهارة فى الأساليب العسـكرية منضمة إلى الدهاء الدپلوماسى ، ولكن أعظم مثل يضربه ، وهو مثل يكاد يبلغ فى اعتقاده حد الكمال ، هو سيزارى بورچيا :

« إذا استعدنا فى ذاكرتنا جميع أعمال هذا الدوق فإنى لا أعرف عملا منها يستحق عليه اللوم ، بل إنه ليبدو لى أنى أضعه أمام الناس لكى يقلده كل من يقبضون بأيديهم . . . على أزمة الحكم . . . لقد كانوا يحسبونه قاسياً ؛ ولكن قسوته هى التى أزالت الخلاف من رومانيا كلها ، وضمت شتاتها ، وأعادت إليها السلم والولاء . . . ولقد أوتى روحاً عالية ، وآمالا كباراً ، لم يكن يستطيع بغيرها أن ينظم مسلكه ؛ ولم يحل بينه وبين تحقيق أغراضه إلا قصر حياة الإسكندر ، ومرضه هو . ولهذا فإن من شاء أن يضمن لنفسه الأمان فى إمارته الجديدة ، ويكسب الأصدقاء ، ويغلب الأعداء بالقوة أو الختل ، ويبعث فى قلوب الناس حبه والخوف منه فى آن واحد ، وأن يؤيده الجند ويجلوه ، ويبيد من أوتوا قوة يستطيعون بها

أن يؤذوه ؛ أو كانت لديهم أسباب تدعوهم إلى هذا الإيذاء ، ويستبدل بنظام الأشياء القديم نظاماً جديداً ؛ وأن يكون قاسياً وكريماً ، نبيلا وحراً ، ويحطم قوة الجند غير الموالين له وينشئ بدلهم جيشاً جديداً ، ويحتفظ بصداقة الملوك والأمراء بحيث يرون أن من واجبهم أن يخفوا لمعرفته متحمسين ، فإذا فكروا فى أذاه كانوا حذرين — من شاء هذا فإنه لن يجد مثلا أروع من أعمال هذا الرجل » .

وكان مكيفلى يعجب ببورچيا لأنه كان يشعر بأن أساليبه وأخلاقه تمهد السبيل إلى توحيد إيطاليا ، وأنها لم تحل بينها وبين بلوغ تلك الغاية إلا ما صحبها من مرض البابا وولده . وهو يتوسل فى ختام كتابه **الأمير** إلى لورنسو الدوق الشاب ، ويتوسل عن طريقه إلى ليو وآل ميديتشى ، أن يعملوا على توحيد شبه الجزيرة . وهو يصف أهل بلاده بأنهم مستعبدون ، « أكثر من العبرانيين ، وأنهم يعانون من الظلم أكثر مما يعانيه الفرس ، وأنهم مشـــتتون أكثر من الأثينيين ، وأنهم قوم لا رئيس لهم ، ولا نظام ، مهزومون ، منهوبون مغتصبون ، ممزقون ، تجتاح بلادهم الجيوش الأجنبية » : « لقد أصبحت إيطاليا وكأنها مسلوبة الحياة ، تنتظر من يقبل عليها ليأسوا جراحها . . . وتدعو الله أن يقيض لها من ينجيها من هذه المظالم وهذه المخازى التى يوقعها عليها الإجانب »(١١٧) . إن الموقف جد خطير ؛ ولكن الفرصة مواتية . « ذلك أن إيطاليا متأهبة ، راغبة فى أن تسير وراء العلم ، إذا ما رفعه إنسان ما » ومن أحق برفعه من آل ميديتشى ، أشهر الأسر كلها فى إيطاليا ، والتى تتزعم الكنيسة فى هذه الأيام ؟

« ومن ذا الذى يستطيع أن يعبر عن الحب الذى سوف يفيض به قلب إيطاليا وهى ترحب بمحررها ؛ أو عن تعطشها للانتقام من أعدائها ، أو عن إيمانها القوى ، وإخلاصها ، ودموعها ؟ وأى باب يمكن أن يغلق فى وجهه ؟ ومن ذا الذى يضن عليه بالطاعة ؟ إن هذا السلطان الأجنبى الهمجى الذى

نرزح تحته لتزكم رائحته الكريهة أنوفنا . فليتول إذن بيتكم المجيد هذه المهمة ، وليستعن على القيام بها بالبسالة والأمل ، اللذين يتذرع بهما كل من يقوم بمغامرة عادلة ، حتى تسمو تحت علم هذا البيت مكانة بلادنا ، وتحقق بفضل رعايتها تلك الكلمات التي كتبها پترارك :

« إن ذوى الرجولة يمتشقون الحسام ليقاتلوا ذوى الجنة ، وستكون المعركة جد قصيرة ، لأن البسالة القديمة لم ينضب بعد معينها فى عروق إيطاليا » .

٤ — تأملات

وهكذا وجهت إلى آل ميديتشى تلك الدعوة التى وجهها دانتى وپترارك إلى الأباطرة الأجانب ؛ والحق أنه لو أن ليون عاش أطول مما عاش ، ولعب أقل مما لعب ، لشهد مكيڤلى بداية تحرر إيطاليا . ولكن الشاب لورنتسو توفى عام ١٥١٩ ، وتوفى ليو عام ١٥٢١ ؛ وفى عام ١٥٢٧ وهو العام الذى توفى فيه مكيڤلى ، كان قد تم خضوع إيطاليا لدولة أجنبية ، وكان لابد أن يتأخر ذلك التحرر ٣٤٣ سنة حتى يحققه كافور Cavour بأساليب مكيڤلى فى الحكم .

ويكاد الفلاسفة يجمعون على التنديد بكتاب **الأمير** كما يكاد الحكام يجمعون على العمل بما فيه من حكم . وبدأ غداة نشره (١٥٣٢) ظهور ألف كتاب تعـــارضه . لكن شارل الخامس درسه بعناية ، وجاءت با كترين ده ميديتشى إلى فرنسا ، وكان مع هنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا وقت وفاتهما ، وكان ريشليو يعجب به ، ووليم أورنج يضعه تحت وسادته كأنه يريد أن يستظهره بطريق النضح (١١٨) . وكتب فردريك الأكبر ملك بروسيا كتابه **ضد مكيڤلى** ليجعله تمهيداً لكتاب يتجاوز فيه ما ورد فى كتاب الأمير . ولم يكن معظم الحكام يرون بطبيعة الحال أن هذه

التعاليم وحى جديد ، إلا إذا فهمنا لفظ الوحى أنها تكشف فى غير حكمة أو حذر أسرار طائفتهم . أما الحالمون الذين حاولوا أن يجعلوا من مكيڤلى ثائراً كاليعقوبيين فقد خيل إليهم أنه لم يكتب **الأمير** ليعبر عن فلسفته ، بل كتبه من قبيل السخرية ، ليكشف للناس عن أساليب الحكام وحيلهم ؛ بيد أن كتاب **المقالات** ينطق بهذه الآراء نفسها ويبسط القول فيها ؛ وقد جرؤ فرانسس بيكن فكتب هذه العبارة يصفح بها عن مكيڤلى : « إنا لنشكر لمكيڤلى وأمثاله من الكتاب الذين أظهروا لنا صراحة وفى غير خداع ما اعتاد الناس أن يفعلوه ، لا ما يجب أن يفعلوه »(١١٩) . وأما حكم هيجل Hegal فكان دلالة على الذكاء والكرم :

كثيراً ما أخرج كتاب **الأمير** فى رعب لأنه يحتوى حكماً وأمثالا تدعو إلى أشد أنواع الاستبداد وأدعاها إلى الاشمئزاز ؛ ولكن الحقيقة أن شعور مكيڤلى القوى بضرورة قيام دولة موحدة هو الذى دعاه إلى وضع المبادئ التى لا يمكن أن تقوم دول فى الظروف المحيطة به وقتئذ إلا على أساسها . فقد كان لابد من القضاء على الأمراء والإمارات القائمة وقتئذ ؛ وإنا وإن كان رأينا فى ماهية الحرية لا يتفق مع الوسائل التى يشير بها . . . . والتى تشمل أشد أنواع العنف وأكثرها تطرفاً ، وجميع صنوف الخداع ، والاغتيال ، وما إليها — فلا يسعنا إلا أن نقر أن الطغاة الذين لابد من قهرهم لم يكونوا ليغلبوا بغير هذه الوسائل(١٢٠) .

كذلك صور مكولى Macaualy فى مقال له ذائع الصيت فلسفة مكيڤلى على أنها انعكاس طبيعى لإيطاليا المتوقدة الذكاء الفاسدة الأخلاق التى عودها حكامها المستبدون من زمن بعيد مبادئ كتاب **الأمير** .

ويمثل مكيڤلى آخر صورة من تحدى الوثنية المنتعشة التى عادت إلى الحياة للمسيحية المستضعفة . والدين فى فلسفته يصبح مرة أخرى ، كما كان فى رومة القديمة ، خادماً ذليلا للدولة حلت فى واقع الأمر محل الله . فالفضائل

التي يعظمها مكيفلي هي الفضائل الرومانية الوثنية دون غيرها — الشجاعة ، والصبر ، والاعتماد على النفس ، والذكاء ، والخلود الوحيد شهرة زائلة لا غير ؛ ولعل مكيفلي قد بالغ فيما للمسيحية من أثر مضعف موهن ، فهل يا ترى نسي مكيفلي الحروب العوان التي شبت نارها في العصور الوسطى ، حروب قسطنطين ، وبلساريوس ، وشارلمان ، وفرسان المعبد ، والفرسان التيوتون ؛ وحروب يوليوس الثاني التي لم يمض عليها وقت طويل ؟ إن المبادئ الأخلاقية المسيحية لم تؤكد الفضائل النسوية إلا لأن الرجال كانوا يتصفون بالصفات المضادة لها ، وكانت فيهم قوية لدرجة تؤدي إلى الخراب والدمار ؛ فكان لابد من وجود ترياق شاف لهذا الداء ، ومثل أعلى مضاد له يوعظ به الرومان القساة في المجتلد ، والبرابرة الغلاظ الذين اجتاحوا إيطاليا ، والشعوب الخارجة على القانون التي تحاول الهبوط إلى بلاد الحضارة . إن الفضائل التي يزدريها مكيفلي تعمل لبناء المجتمعات المنظمة السلمية ، أما الفضائل التي يعجب بها (لأنها تنقصه كما تنقص نتشه) ، فتعمل لقيام دول قوية ذات نزعة حربية ، وحكام طغاة في مقدورهم أن يقتلوا الناس بالآلاف ليرغموهم على التضامن والائتلاف ؛ وعلى إراقة الدماء أنهاراً لتوسيع رقعة البلاد التي يحكمونها . لكنه خلط بين خير الحاكم وخير الأمة ، وأفرط في التفكير في الاحتفاظ بالسلطة ، وقلما فكر فيما على صاحبها من واجبات ، ولم يفكر مطلقاً فيما تؤدي إليه من فساد . وتجاهل ما بين دول المدن الإيطالية من تنافس منعش ، وخصب ثقافي ، وقلما كان يعنى بما في ذلك الوقت من فن رائع ، بل إنه لم يعن بفن رومة القديمة نفسه ، ذلك بأنه ضل في عبادة الدولة ضلالا مبيناً . نعم إنه أعان على تحرير الدولة من الكنيسة ، ولكنه أسهم في إقامة نوع من القومية العارمة ودعا الناس إلى عبادتها ، ولم تكن هذه القومية أرقى رقياً واضحاً من الفكرة السائدة في العصور الوسطى عن وجود دول خاضعة لمبادئ أخلاقية دولية يمثلها البابا .

لقد تحطم كل مثل أعلى بسبب ما طبع عليه الناس من أنانية ، ومن الواجب على كل مسيحى صريح أن يقر بأن الكنيسة وهى تدعو إلى المبدإ القائل بأن الإنسان غير ملزم بالمحافظة على عهده مع الزنديق والجرى على هذه السنة نفسها (كما حدث حين نكث عهد الأمان مع هوس Auss فى كنستانس ومع ألفنسو دوق فيرارا فى رومة) نقول إن من الواجب على كل مسيحى صريح أن يقر بأن الكنيسة وهى تدعو إلى هذا إنما كانت تعمل بمبادئ مكيڤلى عملا يحطم رسالتها بوصفها قوة أخلاقية .

ومع هذا فإن فى صراحة مكيڤلى قوة حافزة دافعة إلى حد ما . ذلك أنا إذا قرأنا كتابه ، واجهنا فى وضوح لا مثيل له عند غيره من المؤلفين ، ذلك السؤال الذى قلما تعرض له غيره من الفلاسفة : هل سياسة الحكم مقيدة بالمبادئ الأخلاقية ؟ وقد نخرج من كتبه بنتيجه واحدة على الأقل : وهى أن الأخلاق الطيبة لا يمكن أن توجد إلا بين أفراد مجتمع مسلح بالوسائل التى نستطيع تعليمها وإلزام الناس باتباعها ، وأن المبادئ الأخلاقية التى يجب أن تتبعها الدول جمعاء يجب أن تؤجل حتى تقوم منظمة تضم الدول جمعاء ، ويكون لها من القوة المادية وفيها من الرأى العام ما تستطيع بهما المحافظة على القانون الدولى . وإلى أن يحين ذلك الوقت فستظل الأمم كالوحوش فى الغاب ، وأيا كانت المبادئ التى تجهر بها حكوماتها ، فإن السنن التى تسيطر عليها هى الواردة فى كتاب **الأمير** :

وإذا ما عدنا بأنظارنا إلى المائتى عام من الثورة الفكرية التى سادت إيطاليا من أيام پترارك إلى مكيڤلى ، تبين لنا أن جوهر هذه الثورة وأساسها لا يعدوان أن يكونا نقص الاهتمام بالعالم الآخر ، والاهتمام المتزايد بالحياة . . فقد ابتهج الناس إذ كشفوا من جديد حضارة وثنية لا يشغل بال الناس فيها الخطيئة الأولى ، أو عقاب الجحيم ، ترتضى فيها الغرائز الفطرية وتعد عناصر فى مجتمع نابض بالحياة خليقة بأن تغتفر . وفى هذه الحضارة فقد

النسك والزهد ، وإنكار الذات ، والإحساس بالخطيئة ما كان لها سلطان على الطبقات العليا من سكان إيطاليا ، وكادت تفقد ما كان لها عندهم من معنى . فاضمحلت الأديرة لقلة من كان يدخلها من الرهبان الجدد ؛ وكان الرهبان — والإخوان ، والبابوات أنفسهم يسعون وراء ملذات الدنيا بدل تعاليم المسيح . وتراخت قيود التقاليد والسلطان ، وكان صرح الكنيسة الضخم أخف على قلوب الناس وأغراضهم من ذى قبل . وأضحت الحياة أكثر اهتماماً بما هو فى خارج الإنسان ؛ ومع أن هذه الضعة كثيراً ما اتخذت شكل العنف ، فإنها طهّرت كثيراً من النفوس من المخاوف والاضطرابات العصبية التى كانت تخيم على العقول فى العصور الوسطى وتسبب لها الكآبة والظلمة . وأخذ العقل الطليق يمرح سعيداً فى جميع الميادين عدا ميدان العلم ، وذلك لأن ما ينشأ عن هذا الانطلاق وذاك التحرر من خصب قلما كان يتفق حتى ذلك الحين مع ما تتطلبه التجارب والبحوث العلمية من تهذيب نفسى وصبر طويل ؛ فهذا التهذيب وذاك الصبر إنما يجيئان فى الدور الإنشائى الذى يعقب التحرر . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد أفسحت أساليب التقى السبيل إلى عبادة العقل والعبقرية ؛ واستبدل بالسعى وراء الشهرة الخالدة الاعتقاد ، بألا ضرورة للتقيد بالمبادئ الأخلاقية وعدت المُثُل الوثنية كالحظ ، والأقدار ، والطبيعة على فكرة الله المسيحية .

وكان لا بد لهذا كله من ثمن . لقد قوض التحرر الساطع للعقل دعائم القوة العليا السماوية المشرقة على الأخلاق ، ولم توجد قوة أخرى لها ما لهذه من سلطان تحل محلها . وكانت النتيجة التحلل من جميع الموانع والقيود : وإطلاق العنان للغرائز والشهوات ، وانتشار الفساد ، والاستمتاع المرح به استمتاعاً لم يعرف التاريخ له مثيلا منذ أن حطم السوفسطائيون الأساطير ، وحرروا العقول ، وأرخوا قيود الأخلاق فى بلاد اليونان القديمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب العشرون

الانحلال الخلقى

١٣٠٠ – ١٥٣٤

الفصل الأول

منابع الفساد الخلقى وأشكاله

ليس ثمة ميدان يمكن أن يتعرض فيه المؤرخ لتأثير أهوائه وميوله فيضل ويصدر أحكاماً خاطئة ، كالميدان الذى يطرقه حين يريد التحقق من المستوى الأخلاقى لعصر من العصور – اللهم إلا إذا كان هذا الميدان هو ميدان البحث فى أسباب ضعف العقيدة ، الدينية ، وهو ميدان وثيق الصلة بميدان الأخلاق ، فى كلتا الحالين يكون أكثر ما يسترعى نظره هو الاستثناء غير المألوف الذى يؤثر فى النفس بمظهره فيصرف الإنسان عن الأحوال المألوفة التى لا تسجلها صفحات التاريخ . وإذا ما أقبل على المشكلة التى أمامه ولديه فكرة يريد أن يثبتها كالفكرة القائلة إن التشكك فى أمور الدين يؤدى إلى انحلال الأخلاق – نقول إنه إذا أقبل على المشكلة بهذه الفكرة زادت الحقائق انطماساً فيعجز عن تبين الحقيقة كاملة . هذا إلى أن الحادثات المسجلة قد تفسر بالنقيضين ، ويكاد يستطيع قارئها أن يثبت بها أى شىء حسب ما يختاره من تلك الحادثات مدفوعاً إلى ذلك بميله وهواه . فنى وسعه مثلا أن يوجه اهتمامه إلى مؤلفات أريتينو Aretino وسير تشيليني ، Cellini الذاتية ، ورسائل مكيڤلى وڤتورى ليشتم منها رائحة الانحلال ، كما أن

فى مقدوره أن ينقل من رسائل إزبلا وبيتريس دست ، ورسائل إلزبتا جندساجا وألسندرا استرتسى ما يصور به الحنان الأخوى والحياة البيتية المثالية . ولهذا ينبغى لقارئ التاريخ أن يكون على حذر .

وكان ثمة عوامل كثيرة سببت ذلك الانحلال الخلقى الذى صاحب ما كان فى النهضة من رقى فكرى عظيم . وأكبر الظن أن العامل الأساسى فى هذا الإنحلال هو زيادة الثراء الناتج من موقع إيطاليا الهام فى ملتقى الطرق التجارية بين أوربا الغربية وبلاد الشرق ، ومن تدفق العشور وغيرها من القروض التى كانت ترد إلى رومة من ألف مجتمع مسيحى . وزاد انتشار الإثم بازدياد المال الذى تتطلبه نفقاته ، وأضعف انتشار الثراء اتخاذ الزهد مثلا أعلى للحياة : فقــد أصبح النساء والرجال يشمئزون من المبادئ الأخلاقية التى قامت على الفقر والخوف ، والتى أضحت الآن تتعارض مع غرائزهم ووفرة مالهم . وأخذوا يستمعون بعطف متزايد إلى آراء أبيقور القائلة إن على الإنسان أن يستمتع بالحياة ، وإن كل الملذات يجب أن تعد بريئة حتى يثبت جُرمها ؛ وغلبت مفاتن النساء أوامر الدين ونواهيه .

وربما كان العامل الثانى الذى يلى الثراء فى إفساد الأخلاق هو ما كان فى ذلك العصر من تقاتل سياسى . ذلك أن تطاحن الأحزاب والشيع المتعادية ، وكثرة الحروب ، وتدفق مرتزقة الجنود الأجانب ، وما حدث بعد ذلك من غزو الجيوش الأجنبية أرض إيطاليا ، وهى جيوش لم تكن تراعى فى تلك الأرض أي قيد من القيود الخلقية ، واضطراب أحوال الزراعة والتجارة بسبب ويلات الحرب وتخريبها ، وقضاء الحكام المستبدين على الحرية واستبدالهم القوة الغاشمة بالسلم والقانون : كل هذه الظروف أشاعت الاضطراب فى حياة إيطاليا وحطمت العادات التى كان الأهلون يعتزون بها ويحافظون عليها ، وهى فى العادة الحارس الأمين على الأخلاق . ووجد الناس أنفسهم يضربون على غير هدى فى بحر عجاج من العنف والجبروت ،

بدا لهم فيه أن الدولة والكنيسة كلتيهما عاجزتان عن حمايتهم فتولوا هم أنفسهم تلك الحماية بأحسن ما يستطيعون ، بالسلاح وبالخداع ؛ حتى أصبح الخروج على القانون هو السنة المتبعة والشريعة المقررة . وانغمس الحكام الطغاة فى الملذات جميعها بعد أن وجدوا أنفسهم فوق القانون يحيون حياة قصيرة ولكنها حياة مثيرة ، وحذت حذوهم أقلية الأهلين ذات الثراء .

وإذا شئنا أن نقدر أثر التحلل من الدين فى تحلل بنى الإنسان الفطرى من القيود الخلقية ، وجب علينا أن نبدأ بالتفرقة بين تشكك القلة المتعلمة ، وتقوى الكثرة التى تعض على تقواها بالنواجذ . إن الاستنارة على الدوام من مزايا الأقليات ، والتحرر من صفات الأفراد ، لأن العقول لا تتحرر جماعات . . . فقد يحتج عدد قليل من المتشككة على الخلافات الزائفة ، والمعجزات المزورة ، وصكوك الغفران التى تعرض تعهدا بالأداء الآجل نظير ثمن عاجل ؛ ولكن جمهرة الشعب تقبل هذه كلها فى رهبة وخشوع وأمل . وقد حدث فى عام ١٤٦٢ أن ذهب البابا العالم پيوس الثانى وجماعة من الكرادلة إلى ملتى ليستقبلوا رأس الرسول أندرو المحمول من بلاد اليونان ، وألقى الكردنال العالم بساريون Bessarion خطبة رهيبـــة حين وضع الرأس الموهوم الثمين فى كنيسة القديس بطرس . وكان الشعب يحج إلى لوريتو وأسيسى ، ويهرع إلى رومة فى سنى الأعياد ، ويطوف بمواضع الصليب من كنيسة إلى كنيسة ، ويصعد وأفراده ركع على الدرج المقدسة Seale Sanla التى قيل لهم إنها هى الدرج التى صعد عليها المسيح إلى محكمة پيلاطس . وقد يسخر الأقوياء من هذا كله وهم أصحاء ، ولكن قلما كان يوجد إيطالى فى عصر النهضة لا يطلب القربان المقدس وهو على فراش الموت . فها هو ذا ڤيتيلتسو ڤيتيلى Yitelozze Yitelli الزعيم المغامر المستأجر الذى حارب الإسكندر السادس ، وسيزارى بورچيا يتوسل إلى رسول أن يذهب إلى رومة ليسأل البابا أن يغفر له قبل أن يشد جلاد سيزارى

الحبل حول عنقه ؛ وكانت النساء على الأخص يعبدن مريم ؛ ولم تكد قرية من القرى تخلو من صورة لها تصنع المعجزات ؛ وأضحت المسبحة وقتئذ (ولعل ذلك كان فى عام ١٥٢٤) الأداة المحببة للتسبيح والصلاة . وكان فى كل بيت محترم صليب ؛ وصورة مقدسة أو صورتان ، وأمام الصورة أو الصورتين فى كثير من البيوت مصباح يظل موقداً على الدوام . وكانت ميادين القرى وشوارع المدن تزدان أحياناً بتمثال للمسيح أو العذراء موضوع فى صندوق خاص أو كوة فى جدار . وكانت أعياد التقويم الدينى يحتفل بها فى أبهة وفخامة تخفف عن عامة الشعب كدحهم وتدخل السرور على نفوسهم ، وكان تتويج البابا كل عقد من السنين أو نحوه تعرض فيه المواكب والألعاب ، تذكر عارفى التاريخ القديم بما كان يجرى فى رومة القديمة . ولم يكن قط دين من الأديان أجمل مناظر من الدين المسيحى حين أقام فنانو النهضة ونحتوا أضرحة ، وصوروا أبطال هذا الدين وقصصه ، وحين اجتمعت المسرحيات والموسيقى ، والشعر ، والبخور فى عبادة الله ، وازدانت العبادة بما كان فيها من ألوان رائعة ؛ وروائح ذكية ، ومناظر فخمة .

ولكن هذا لم يكن إلا جانباً واحداً من جوانب المنظر فيه من الاختلاف والتناقض ما لا يليق معه وصفه بإيجاز . لقد كان كثير من كنائس المدن يخلو نسبياً من المصلين ، كما هى حالها فى هذه الأيام[1] . أما فى الريف فلنستمع إلى ما يقوله أنطونيو كبير أساقفة فلورنس فى وصف فلاحى أسقفيته حوالى عام ١٤٣٠ :

« وفى الكنائس نفسها كانوا أحياناً يرقصون ، ويقفزون ، ويغنون مع النساء . وفى أيام الأعياد لم يكونوا يقضون فى الصلاة أو فى سماع القداس إلا وقتاً جد قصير ؛ أما معظم الوقت فيقضونه فى الألعاب ؛ أو فى الحانات ، أو فى النزاع عند أبواب الكنائس . وهم يجدفون فى حق الله وأوليائه الصالحين ، أو ينطقون بأقوال مثيرة أقل من هذه قبحاً . تنطق ألسنتهم

بالكذب والحنث بالعهود وقول الزور ؛ ولا يؤنبهم ضميرهم على الفسق والفجور وما هو أسوأ من هذا وذاك . وما أكثر من لا يعترفون منهم بذنوبهم ولو مرة واحدة فى العام . وما أقل من يتناولون القربان المقدس . . . ولا يكادون يفعلون شيئاً يربون به أبناءهم كما يفعل الصالحون المؤمنون . ويستخدمون الرقى والتعاويذ لأنفسهم وحيوانهم ، ولكنهم لايفكرون أبداً فى الله ولا فى سلامة أرواحهم . . . . أما قساوسة الأبرشيات فلا يعنى منهم أحد بالقطيع الذى يرعونه ، بل كل ما يعنون به هو أصواف ذلك القطيع وألبانه ، فلا يهدونه بالمواعظ العامة والاعترافات أو بالتحذير الفردى ؛ بل يرتكبون نفس الخطايا التى يرتكبها من يرعونهم ، ويسيرون سيرتهم الفاسدة[٢] » .

ومن حقنا أن نستدل من حياة رجال أمثال بمپونتسى ومكيڤلى ، ومن موتهم الطبيعى ، على أن شطراً كبيراً من الطبقات المتعلمة فى إيطاليا عام ١٥٠٠ قد فقد إيمانه بالمسيحية الكاثوليكية ؛ ولنا أن نفترض ، فى حذر أكثر من هذا ، أن الدين حتى بين الطبقات غير المتعلمة ، قد فقد بعض ما كان له من سلطان على الحياة الأخلاقية . وكانت نسبة متزايدة من السكان قد نبذت العقيدة القائلة بأن القانون الأخلاقى موحى به من عند الله . وما كاد يبدو للناس أن الوصايا العشر من وضع البشر ، وما كادت تجرد مما فيها من نعيم فى الجنة وعذاب فى النار ، حتى فقد ذلك القانون الأخلاقى ما كان له من رهبة وقوة ، فلم يعبأ أحد بالمحرمات ، وحل محلها قانون جر المغانم وانتهاب اللذات ؛ وضعف شعور الناس بالخطيئة ، والرهبة من الجريمة ؛ وتحرر ضمير الناس من القيود أو كاد ، وأخذ كل إنسان يفعل ما يبدو له ميسراً ولو لم يكن مما اعتاد الناس أن يروه حقاً . ولم يعد الناس يرغبون فى أن يكونوا صالحين ، بل كل ما يريدونه أن يكونوا أقوياء . ومارس كثيرون من الناس ، قبل مكيڤلى بزمن طويل ، امتيازات القوة ، والغش والخداع — أى المبدأ القائل

بأن الغاية تبرر الوسيلة — التي يجيزها ذلك السياسي لحكام الدول . ولعل قانونه الأخلاقي لم يكن إلا صورة تمثلت له بعد أن شهد ما حوله من أخلاق وعادات . وقد عزا بلاتينا Platina لپيوس الثاني قوله إنه « حتى إذا لم يكن الدين المسيحي مؤيداً بالمعجزات ، فإن من الواجب مع ذلك أن يتقبل لما فيه من حث على الأخلاق الكريمة »[٣] . ولكن الناس لم يكونوا يتبعون هذه الفلسفة في تفكيرهم ؛ بل كل ما كانوا يقولونه : إذا لم تكن ثمة نار ولا جنة ، فإن من واجبنا أن نمتع أنفسنا على ظهر الأرض ، ونترك العنان لشهواتنا ، دون أن نخشى عقابا بعد الموت . ولم يكن شيء يستطيع أن يحل محل العقوبات السماوية الضائعة إلا رأى عام قوى مفكر ؛ ولكن رجال الدين ، والكتاب الإنسانيين ، ورجال الجامعات لم يرقوا إلى المستوى الذى يستطيعون معه أداء هذا الواجب .

ذلك أن الكتاب الإنسانيين لم يكونوا أقل فساداً من رجال الدين الذين يوجهون هم لهم سهام النقد . نعم إنه كان من بينهم قلة شاذة من العلماء النابهين الذين يرون الاحتشام والوقار مما يتفق مع التحرر العقلي — أمثال أمبروجيو ترافيرسارى Ambrogio Traversari ، وڤيتوريو دا فيلترى Vitoiro da Feltre ومرسليو ڤيتشينو Mersilio Vicino ، وألدس مانوتيوس Aldus Manutius . . . . ولكن أقلية كبيرة من الرجال الذين بعثوا الآداب اليونانية والرومانية كانت تعيش كما يعيش الوثنيون الذين لم يسمعوا قط شيئاً عن المسيحية . وكان تنقل أفرادها سبباً في اقتلاعهم من كل بيئة وجدوا فيها ؛ فقد كانوا ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، يطلبون في كل منها المجد أو المال ، ولا يستقرون في واحدة منها . وكانوا مولعين بالمال ولع المرابي أو زوجته ، مزهوين بعبقريتهم ، ومكاسبهم ، وملامحهم ، وثيابهم ؛ غلاظاً وقحين في ألفاظهم ، غير كريمين حقيرين في أحاديثهم ، غير أوفياء في صداقتهم ، متقلبين في حبهم ، وهاهو ذا أريستو ، كما قلنا من قبل ، لم يجرؤ على أن

يعهد بابنه إلى معلم من الكتاب الإنسانيين خشية أن تصيبه عدوى المعلم الخلقية .
وأكبر الظن أنه لم ير من الضرورى أن يحرم على ولده قراءة قصة أورلندو فيوريوسو Orlando Furioso التى كانت تتخللها بعض العبارات الوقحة الحلوة النغمة . وقد كشف ڤلا ، وبجيو وبيكاديلى Becadelli ، وفيلفو بإيجاز بليغ فى حياتهم المستهترة عن إحدى المسائل الأساسية فى علم الأخلاق وفى الحضارة بوجه عام : ونعنى بها « هل ينبغى أن يكون القانون الأخلاقى ، إذا أريد أن يكون ذا أثر فى النفوس ، مؤيداً من قوة غير قوة بنى الإنسان — وهل لابد لأن يكون له ذلك الأثر أن يؤمن الإنسان بحياة غير هذه الحياة الدنيا أو يعتقد أن هذا القانون الأخلاقى منزل من عند الله ؟

الفصل الثانى

أخلاق رجال الدين

لقد كان يسع الكنيسة أن تحتفظ بحقوقها القدسية المستمدة من الكتب المقدسة العبرية والتقاليد المسيحية لو أن رجالها تمسكوا بأهداب الفضيلة والورع . ولكن كثرتهم الغالبة ارتضت ما فى أخلاق زمانها من شر وخير ، وكانوا هم أنفسهم مرآة تنعكس عليها ما فى سيرة غير رجال الدين من أضداد . فقد كان قس الأبرشية خادماً ساذجاً ، لم يوت فى العادة إلا قسطاً ضئيلا من التعليم ، ولكنه غالباً ما يعيش معيشة يقتدى بها[٤] (وإن خالفنا فى هذا رأى الراهب الصالح أنطونينو) ، لا يعبأ به رجال الفكر ، ولكن يرحب به الشعب . وكان بين الأساقفة ورؤساء الأديرة بعض من يحيون حياة منعمة ، ولكن كان منهم كثيرون من الرجال الصالحين ، ولعل نصف مجمع الكرادلة كانوا يسلكون مسلك أتقياء المسيحيين المتدينين الذى يخزى مسلك زملائهم الدنيوى المرح[٥] .

وانتشرت فى جميع أنحاء إيطاليا المستشفيات ، وملاجئ اليتامى ، والمدارس ، وبيوت الصدقات ، ومكاتب القرض وغيرها من المؤسسات الخيرية يديرها رجال الدين . واشتهر الرهبان البندكتيون ، والفرنسيس المتشددون ، والكرثوزيون بمستوى حياتهم الخلقى الرفيع إذا قيس إلى أخلاق أهل زمنهم . وواجه المبشرون مئات الأخطار وهم يعملون لنشر الدين فى أراضى « الكفار » وبين الوثنيين المقيمين فى العالم المسيحى . واختفى المتصوفة عن أعين الناس وابتعدوا مما كان فى زمانهم من عنف ، وأخذوا يعملون للاتصال القريب بالخالق جل وعلا .

وكان بين هذا التقى والورع كثير من التراخى فى الأخلاق بين رجال

الدين ، نستطيع أن نثبته بما نضربه من مئات الأمثال . فهاهو ذا بترارك نفسه الذى بقى مخلصاً لدين المسيح إلى آخر أيام حياته ، والذى صور ما فى دير الكرثوزيين ، الذى كان يعيش فيه أخوه ، من نظام وتقى فى صورة طيبة مستحبة ، ها هو ذا يندد أكثر من مرة بأخلاق رجال الدين المقيمين فى أفنيون . وإن الحياة الخليعة التى كان يحياها رجال الدين الإيطاليون ، والتى نقرأ عنها فى روايات بوكاتشيو المكتوبة فى القرن الرابع عشر إلى روايات فلتشيو فى القرن الخامس عشر ، إلى روايات بنـــديتلو فى القرن السادس عشر ، إن هذه الحياة الخليعة موضوع يتكرر وصفه فى الأدب الإيطالى فبوكاتشيو يتحدث عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس فى الملذات طبيعية كانت أو غير طبيعية[٦] . ووصف ماستشيو الرهبان والإخوان بأنهم « خدم الشيطان » . منغمسون فى الفسق واللواط ، والشره ، وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقاً من رجال الدين »[٧] .

وهاهو ذا أريتينو الذى لم يتورع عن أية قذارة يسخر من الطابعين بقوله إن أخطاءهم لا تقل عن خطايا رجال الدين ؛ ويزيد على ذلك قوله : « والحق أنه لأسهل على الإنسان أن يعثر على رومة مستفيقة عفيفة من أن يعثر على كتاب صحيح »[٨] وديكا بجيو Pogglo يفرغ كل ما عرفه من ألفاظ السباب فى التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ، ونفاقهم ، وشرههم ، وجهلهم ، وغطرستهم[٩] . ويقص فولينجو Folengo فى كتاب أرلنديتو Oriandino هذه القصة نفسها ؛ ويبدو أن الراهبات ، ملائكة الرحمة فى هذه الأيام ؛ كان لهن نصيب ، فى هذا المرح ، أو أنهن كن مرحات رشيقات فى البندقية بنوع خاص حيث كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قرباً يسمح لمن فيها بالاشتراك من حين إلى حين فى فراش واحد : وتحتوى سجلات الأديرة على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسى بين الرهبان والراهبات[١٠] . ويتحدث أريتينو عن راهبات البندقية حديثاً لا تطاوع الإنسان نفسه على أن

ينطق به[١١] ؛ وجوتشيارديني ، الرجل الرزين المعتدل عادة ، يخرج عن طوره ويفقد اتزانه حين يصف رومة فيقول : « أما بلاط رومة فإن المرء لا يستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحى أبد الدهر ، وهى مضرب المثل فى كل ما هو خسيس مخجل فى العالم » .

ويبدو أن هذه شهادات مبالغ فيها ، وقد تكون غير نزيهة ، ولكن استمعوا إلى قول القديسة كترين السينائية :

« إنك أينما وليت وجهك — سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغاراً فى السن أو كبارا — لم تر إلا شراً ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة . إنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، بخلاء . . . تخلوا عن رعاية الأرواح . . . . اتخذوا بطونهم إلهاً لهم ، يأكلون ويشربون فى الولائم الصاخبة ، حيث يتمرغون فى الأقذار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور . . . ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء . . . ويفرون من الخدمات الدينيـــة فرارهم من السجون »[١٣] .

وهنا أيضاً يجب أن نسقط بعض ما يحتويه هذا الوصف من مبالغة ، إذ ليس فى وسع الإنسان أن يثق بأن الولى الصالح يتحدث عن سلوك الآدميين وهو غير غاضب . ولكن فى وسعنا أن نصدق هذه الخلاصة التى يعرضها مؤرخ كاثوليكى صريح :

« وإذا كانت هذه هى حال الطبقات العليا من رجال الدين فإن المرء لا يعجب إذا كان من دونهم من الطبقات ومن القساوسة قد انتشرت بينهم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأخذ انتشارها يزداد على مدى الأيام . ألا إن إن الحياء قد زال من العالم . . . ولقد كان أمثال أولئك القساوسة هم الذين دفعوا إرزمس ولوثر إلى وصفهما المبالغ فيه لرجال الدين حين زارا

رومة فى أيام يوليوس الثانى . غير أن من الخطأ أن يظن المرء أن القساوسة كانوا فى رومة أكثر فساداً منهم فى غيرها من المدن . ذلك أن لدينا من الوثائق ما يثبت بالدليل القاطع فساد أخلاق القسيسين فى كل مدينة تقريباً من مدن شبه الجزيرة الإيطالية . بل إن الحال فى كثير من الأماكن — كالبندقية مثلا — كانت أسوأ كثيراً منها فى رومة . فلا عجب والحالة هذه إذا تضاءل نفوذ رجال الدين كما يشهد بذلك مع الأسف الشديد الكتاب المعاصرون ، وإذا كان المرء لا يكاد يجد فى كثير من الأماكن أى احترام يظهره الشعب للقسيسين . ذلك أن الفساد قد استشرى بينهم إلى حد بدأنا نسمع معه آراء تحبذ زواجهم . . . ولقد كان الكثير من الأديرة فى حال يرثى لها . وأغفلت فى بعضها الأيمان الثلاث الأساسية بالتزام الفقر ، والعفة ، والطاعة إغفالا يكاد يكون تاماً . . . . ولم يكن النظام فى كثير من أديرة النساء أقل من هذا فساداً(١٤) .

وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسى والانهماك فى ملاذ المأكل والمشرب فإنا لا نستطيع أن نعفو عن أعمال محاكم التفتيش ، وإن كانت هذه المحاكم قد اضمحل شأنها فى إيطاليا اضمحلالا كبيرا أثناء القرن الخامس عشر . مثال ذلك أن أماديو ده لاندى Amadeo de' Landi ، أحد علماء الرياضة ، حوكم فى عام ١٤٤٠ لأنه اتهم بالمادية وصدر الحكم ببراءته ؛ وحدث فى عام ١٤٧٨ أن حكم بالإعدام على جاليتو مارتشيو Galeotto Marcio لأنه كتب يقول إن أى إنسان يحيا حياة صالحة يكون مصيره الجنة أيا كان دينه ، ولكن البابا سكستس الرابع أنجاه من الموت(١٥) ؛ وفى عام ١٤٩٧ حمى مرضى جبريلى دا سالو Gabriele de Salo هذا الطبيب من محكمة التفتيش مع أنه قال إن المسيح ليس إلها ، بل هو ابن يوسف ومريم ، حملت به أمه بنفس الطريقة السخيفة التى تحمل بها كل أم ، وإن جسم المسيح لا يحتويه العشاء الربانى ، وإنه لم يفعل المعجزات بقوة إلهية

بل بتأثير النجوم(١٧) ؛ وهكذا تنفى كل أسطورة غيرها من الأساطير ، وفى عام ١٥٠٠ أحرق چيورچيو دا نافارا Giorgio da Navara فى بولونيا لأنه ، على ما يظهر ، أنكر ألوهية المسيح ، ولم يكن له من يحميه من الأصدقاء أصحاب النفوذ . وفى ذلك العام نفسه أعلن أسقف أرندا Aranda أن ليس ثمة جنة ولا نار ، وأن صكوك الغفران ليست إلا وسيلة لجمع الأموال ، ولم يوقع عليه مع ذلك أى عقاب(١٨) . وفى عام ١٥١٠ أراد فردناند الكاثوليكى أن يدخل محاكم التفتيش فى نابلى ، ولكنه لقى مقاومة عنيفة من جميع السكان على اختلاف طبقاتهم اضطر معها إلى التخلى عن هذه المحاولة(١٩) .

وكان فى وسط هذا الانحلال الكنسى عدة مراكز للإصلاح الطيب . من ذلك أن البابا پيوس الثانى أبعد أحد رؤساء الرهبان الدمنيكيين من مركزه ، وأدخل النظام فى أديرة البنادقة ، وبرتشيا ، وفلورنس ، وسينا . وفى عام ١٥١٧ أنشأ سادوليتو ، وچيبيرتى Geberti ، وكارفا Caraffa وغيرهم من رجال الكنيسة « محراب الحب القدسى » ليكون مركزاً لأتقياء الرجال الذين يريدون ملجأ مما فى رومة من انهماك وثنى مفاتن الدنيا . وفى عام ١٥٢٣ أنشأ كارفا طائفة الثياتين Theatines ، التى يعيش فيها القساوسة غير المنتمين إلى طوائف الرهبان معيشة يستمسكون فيها بقواعد الرهبنة ، من عفة ، وطاعة ، وفقر . ونزل الكردنال كارفا عن كل مرتباته ووزع جميع أملاكه على الفقراء ؛ وحذا حذوه القديس جيتانو Saint Gaetano وهو أيضاً من مؤسسى طائفة الثياتين . وكان كثيرون من هؤلاء الأنقياء الصالحين رجالا كرام المحتد ، عظيمى الثراء ، وقد أدهشوا رومة باستمساكهم الشديد بالقواعد التى فرضوها على أنفسهم ، وبزياراتهم لضحايا الطاعون دون أن يخشوا الموت . وفى عام ١٥٣٣ أنشأ أنطونيو ماريا زكريا Antonio Maria Zaccaria طائفة مماثلة لهذه من القساوسة فى ميلان ، سمى أفرادها أولا قساوسة القديس بولس النظاميين ، ولكنهم لم يلبثوا أن

تسموا باسم البرنابيين Barnabites نسبة إلى كنيسة القديس برنابا St. Barnabas . ووضع كارفا برنامجاً طيباً لإصلاح رجال الدين فى البندقية ، وحاول جيبرتى إدخال إصلاحات مثلها فى أسقفية فيرونا (١٥٢٨ — ١٥٣١) . وأصلح إجيديو كانيسيو Egidio Canisio أحوال النساك الأوغسطينيين ، وكذلك أدخل جريجريو كرتيزى Gregoreo, Cortese إصلاحات شبيهة بإصلاحاته بين الرهبان البندكتيين فى پادوا .

وكان أكبر ما بذل من الجهود لإصلاح الأديرة فى ذلك العصر هو تأسيس طائفة الكاپوتشين Capuhin Order . فقد خيل إلى ماتيو دى بسى Matteo di Bassi أحد الرهبان الفرنسيس المترمتين من مونتى فلكونى Montefalcone أنه رأى القديس فرانسس فى رؤيى رأنه سمعه يناديه بقوله : « أحب أن تتبع قاعدتى بنصها ، بنصها ، بنصها » . وعرف أن القديس فرانسس كان يلبس قلنسوة مستدقة ذات أربعة أركان ، فاتخذ مثلها غطاء لرأسه . وسافر إلى رومة وحصل من البابا كلمنت السابع (١٥٢٨) على إذن بانشاء فرع جديد من طائفة الرهبان الفرنسيس يمتازون من غيرهم بقلانسهم ، وبالتزامهم القاعدة الأخيرة من قواعد القديس فرانسس . وكانوا يلبسون أخشن الثياب ، ويمشون حفاة طول العام ، ويعيشون على الخبز ، والخضر ، والفاكهة ، والماء ؛ ويراعون فروض الصيام الدقيق ، وينامون فى صوامع ضيقة فى أكواخ فقيرة مقامة من الخشب والطين ، ولا يسافرون قط إلا راجلين . ولم يكن عدد أفراد الطائفة الجديدة كبيراً ولكنها كانت مثلا حافزاً للإصلاح الواسع الانتشار الذى تسرب إلى طوائف رهبان الأديرة والرهبان المتسولين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر [٢٠].

وقد بدئت بعض هذه الإصلاحات استجابة إلى دعوة الإصلاح البروتستنتى ؛ لكن كثيراً منها قد نشأ من تلقاء نفسه ، وكان شاهداً على ما فى المسيحية والكنيسة من قوة حيوية كانت سبباً فى نجاتهما .

الفصل الثالث

الأخلاق الجنسية

ولننتقل بعدئذ إلى أخلاق غير رجال الدين ، ونبدأ بالعلاقة بين الرجال والنساء ، ونذكر من بادئ الأمر أن الإنسان بفطرته ينزع إلى تعدد الأزواج ، وأن لا شيء يستطيع أن يقنعه بالزوجة الواحدة إلا أقسى العقوبات ، ودرجة كافية من الفقر والعمل الشاق ، ومراقبة زوجته له مراقبة دائمة . ولسنا واثقين من أن الزنا كان فى العصور الوسطى أقل انتشارا مما كان فى عصر النهضة ؛ وكما أن الزنا فى العصور الوسطى كانت تخفف من مساوئه روح الفروسية وما فيها من شهامة ، كذلك كان يخفف من هذه المساوئ بين الطبقات المثقفة التقدير المثالى لرقة المرأة المتعلمة ومفاتنها الروحية . وساعدت زيادة التكافؤ بين الجنسين فى التعلم والمركز الاجتماعى على خلق رفقة عقلية جديدة بين الرجال والنساء ؛ فكانت الحياة فى مانتوا ، وميلان ، وأربينو ، وفيرارا ، ونابلى تزدان وتزداد حمية بظهور النساء الفاتنات المثقفات .

وكانت فتيات الأسر العريقة يحتجبن إلى حد ما عن الرجال من غير أسرهم . وكن يلقن على الدوام دروساً فى مزايا الاستعفاف قبل الزواج ؛ وكان هذا التلقين يلقى أحياناً من النجاح درجة نسمع معها أن فتاة أغرقت نفسها بعد أن اعتدى على عفافها ، وإن كان هذا بلا شك فعلا شاذاً بدليل أن أسقفاً اقترح أن يقام لهذه الفتاة تمثال[21] ، وفى المقابر الرومانية امرأة عريقة النسب خنقت نفسها لتنقذ شرفها ، وحمل جسمها فى موكب نصر مخترقاً شوارع رومة وعلى رأسها إكليل من الغار[22] . بيد أنه كانت هناك بلا شك مغامرات كثيرة من فتيان وفتيات قبل الزواج ؛ ولولا هذا

لما استطعنا أن نفسر وجود ذلك العدد الجم من الأبناء غير الشرعيين فى كل بلد من بلاد إيطاليا فى عصر النهضة . لقد كان من ليس له أبناء غير شرعيين من الرجال والنساء يعد شخصاً ممتازاً يحق له أن يفخر على غيره ، ولكن وجود أولئك الأبناء لم يكن يجلل أبوبهم عاراً كبيراً ؛ وكان الرجل إذا تزوج يستطيع فى العادة أن يقنع زوجته بأن تقبل انضمام أبنائه غير الشرعيين إلى أسرته لكى يربوا مع أبنائها منه ، ولم تكن حال الابن غير الشرعى عقبة كأداء فى سبيله ؛ ويكاد المجتمع لا يلقى بالا مطلقاً إلى هذه الوصمة الاجتماعية . وكان فى وسع النغل أن يعد ابناً شرعياً بهبة ينفحها لرجال الكنيسة . كما كان فى وسعه أن يرث أملاك أبويه ، وأن يرث العرش نفسه إذا لم يكن له أخ شرعى يليق بهذه الوراثة ، أو لم يكن له أخ شرعى على الإطلاق . مثال ذلك أن فيرانتى الأول خلف ألفنسو الأول على عرش نابلى ، وأن ليونلو دست خلف نقولو الثالث على عرش فيرارا . ولما أن قدم پيوس الثالث إلى فيرارا فى عام ١٤٩٥ استقبله سبعة من الأمراء كلهم أبناء غير شرعيين(٢٣) . وكان التنافس بين الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين مصدر كثير من حوادث العنف فى عصر النهضة ؛ كما كانت نصف الروايات تدور حول إغواء النساء ، وكانت النساء يقرأن فى العادة هذه القصص أو يستمعنها ، وكل ما يظهرنه من دلائل الحياء أن يطرقن بأبصارهن لحظات قصارا . وقد وصف ربرت أسقف أكوينو فى أواخر القرن الخامس عشر أخلاق الشبان فى أسقفيته بأنها فاسدة ، وقال إن أولئك الشبان لا يستحون من هذا الفساد . ويروى أنهم كانوا يقولون له إن الفسق ليس من الخطايا ، وإن العفة من الأوامر التى عفا عليها الزمان ، وإن عادة احتفاظ البنات بعذرتهن آخذة فى الزوال(٢٤) . وحتى مضاجعة المحارم كان لها من يحبذونها ويتباهون بها .

أما اللواط فقد كاد يصبح من مستلزمات بعث الحضارة اليونانية .

وكان الكتاب الإنسانيون يكتبون عنه بما يشبه الاعتزاز العلمى ، ويقول أريستو إنهم كلهم كانوا منغمسين فيه . وكان پولتيان ، وفلپو ، واستروتسى وسنودو Sanudo صاحب اليوميات يتهمون بهذه العادة اتهاماً له ما يبرره(٢٥). كذلك اتهم بها ميكل أنجيلو ، ويوليوس الثانى ، وكلمنت السابع ، وإن لم يبلغ هذا الاتهام من القوة والإقناع مبلغه فى الحال السالفة الذكر . وقد وجد القديس برناردينو هذه العادة منتشرة فى نابلى انتشاراً لم يسعه معه إلا أن ينذر هذه المدينة بأنها سيصيبها ما أصاب سدوم وعموره(٢٦) . ويقول أرتينو إن هذا الشذوذ الجنسى كان شائعاً واسع الانتشار فى رومة(٢٧) ؛ وإنه هو كان يطلب إلى دوق مانتوا أن يبعث إليه بين كل خليلة وأخرى فتى وسيما(٢٨) ، وتلقى مجلس العشرة فى مدينة البندقية فى عام ١٤٥٥ مذكرة رسمية تصف « انتشار رذيلة اللواط انتشاراً واسع النطاق فى هذه المدينة » ، وأراد المجلس « أن يتقى غضب الله » فعين رجلين فى كل حى من أحياء البندقية مهمتهما القضاء على هذه العادة(٢٩) . وعرف المجلس أن بعض الرجال قد اعتادوا لبس أثواب النساء ، وأن بعض النساء قد أخذن يرتدين ملابس الرجال ، وقد سمى هذا العمل « ضرباً من اللواط »(٣٠) . وأدين رجل من الأشراف وآخر من رجال الدين فى عام ١٤٩٢ بممارسة اللواط ، فأعدما فى الميدان العام وأحرق رأساهما أمام الجماهير(٣١) . ولقد كانت هذه حالات شاذة بطبيعة الحال لا يليق بنا أن نتخذها أساساً لحكم عام ؛ ولكن لنا أن نفترض أن اللواط كان منتشراً انتشاراً أكثر من العادة فى إيطاليا أثناء عصر النهضة وأنه ظل منتشراً فيها حتى قامت حركة الإصلاح المعارضة .

وفى وسعنا أن نقول هذا القول نفسه عن الدعارة . فإذا أخذنا بقول إنفسورا — الذى كان يميل إلى المبالغة فيما يورده من الإحصاءات عن رومة فى عهد البابوات — قلنا إنه كان فى رومة ٦٫٨٠٠ من العاهرات مسجلات فى عام ١٤٩٠ ، بخلاف العاهرات اللاتى يمارسن هذه الحرفة خفية ، وذلك

بين سكان البلد البالغين ٩٠٫٠٠٠ نسمة[٣٢] ويقدر التعداد الذى أجرى في البندقية عام ١٥٠٩ عدد العاهرات بـ ١١٫٦٥٤ عاهراً من بين سكانها البالغ عددهم نحو ٣٠٠٫٠٠٠[٣٣] ؛ وقد نشر طابع مغامر « سجلا بأشهر المحاظى وأشرفهن فى البندقية احتوى أسماءهن ، وعناوينهن ، وأجورهن » . وكن فى الطرق يترددن على الحانات ، وفى المدن ينزلن عادة فى ضيافة الفتيان اليافعين ، والفنانين المتلهفين . ويصف لنا متشيليني ليلة قضاها مع حظية له كأنها حادث عادى غير ذى بال ، كما يصف عشاء لجماعة من الفنانين من بينهم جوليو رومانو وهو نفسه ، وقد طلب إلى كل واحد من الحاضرين أن يأتى بامرأة غير متمنعة ، وفى مأدبة أخرى أرقى من هذه درجة أقامها لورندسو استروتسى المصرفى فى عام ١٥١٩ لأربعة عشر شخصاً من بينهم أربعة كرادلة وثلاث نساء من الخليعات[٣٥] .

ولما ازداد الثراء وازدادت الرغبة فى التنعم بدأ الأثرياء المنعمون يطلبون المحاظى اللائى يتمتعن بقسط من التعليم والمفاتن الاجتماعية ، وكما أن طائفة الخليلات قد نشأت فى أثينة أيام سفكليز للوفاء بهذا المطلب ، كذلك نشأت فى رومة فى أواخر القرن الخامس عشر وفى البندقية فى القرن السادس عشر طبقة من الخليلات المهذبات ينافسن أظرف السيدات فى ثيابهن ، وآدابهن ، وثقافتهن ، بل وفى تقاهن وترددهن على الكنائس فى أيام الآحاد : وبينا كانت العاهرات العموميات يمارسن حرفتهن فى المواخير ، كانت الخليلات الرومانيات السالفات الذكر يقمن فى بيوتهن ، وينفقن بسخاء كبير على المآدب ، ويقرأن الكتب ، ويقرضن الشعر ، ويغنين ، ويعزفن على الآلات الموسيقية ، ويشتركن فى الأحاديث مع الطبقة المثقفة المتعلمة ؛ ومنهن من كن يجمعن الصور والتماثيل ، والطبعات النادرة من الكتب وآخر ما صدر منها ؛ ومنهن من كن يعقدن الندوات الأدبية . وأردن أن يحتفظن بمقامهن لدى الكتاب الإنسانيين فتسمت الكثيرات منهن بأسماء لاتينية — كامليا ، يولكسينا ، وپنشسيليا Penthesilea ، وفوستينا Faustina ، وإمپيريا

Imperia ، وتوليا Tullia . وكتب أحد الظرفاء الأفاكين ، فى أيام البابا اسكندر السادس مجموعة من النكت الشعرية بدأها بطائفة منها فى مدح العذراء أو القديسين ثم اتبعها بلا حياء بطائفة أخرى فى الثناء على العشيقات فى أيامه(٣٦) . ولما ماتت إحدى أولئك العشيقات حزن عليها نصف سكان رومة ، وكان ميكل أنجيلو من الكثيرين الذين أنشاوا الأغانى تخليداً لذكراها(٣٧) .

وأشهر هاته الخليلات المهذبات إمبريا ده كنياتس Imperia de Cugnatis . وقد أثرت هذه السيدة مما كان يغدقه عليها نصيرها وحاميها أجستينو تشيجى Agostino Chigi. ، فزينت بيتها بالأثاث المترف الوثير والتحف النادرة ، وجمعت حولها طائفة كبيرة من العلماء ، والفنانين ، والشعراء ، ورجال الدين ؛ وحتى سادوليتو Sadoleto التقى نفسه كان يتغنى بمديحها(٣٨) . وأكبر الظن أن إمبريا هذه هى التى اتخذها رفائيل نموذجاً لسابفو فى صورة البرناسوس Barnassus . وماتت فى ريعان شبابها ونضرة جمالها ولم تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها (١٥١١) ؛ وكرمت بعد موتها بأن دفنت فى كنيسة سان جريجوريو San Gregorio ، وأقيم لها قبر من الرخام محفور أجمل حفر ومصقول أحسن صقل ؛ ورثاها مائة شاعر بأفخم المراثى(٣٩) . (وجدير بالذكر أن ابنتها آثرت الانتحار على التفريط فى عرضها(٤٠)) . ولا تقل عنها شهرة توليا الأرغونية Tullia d' Aragona ابنة كردنال أرغونة الغير الشرعية . وكان أهل زمانها يعجبون بشعرها الذهبى وعينيها البراقتين ، وسخائها ، وعدم اهتمامها بالمال ، ورشاقة قوامها ، وسحر حديثها ؛ واستقبلت فى نابلى ، وروما ، وفلورنس ، وفيرارا استقبال الأمراء الزائرين . وقد وصف سفير مانتوا فى فيرارا دخولها المدينة فى رسالة غير دبلوماسية بعث بها إلى إزبلا دست عام ١٥٣٧ قال فيها :

أرى من واجبى أن أسجل مقدم سيدة ظريفة بلغ من تواضعها فى سلوكها وافتتان الناس بأدبها مبلغاً لا يسعنا معه إلا أن نصفها بأنها ربانية . وهى تغنى

ارتجالا جميع النغمات والألحان . . . وليس فى فيرارا كلها سيدة واحدة ، ولا ڤكتوريا كولونيا Victória Colonna دوقة بسكارا Pescara يمكن أن تقارن بتوليا(٤١) .

وقد رسم مورتو ده بريشيا Moretto de Brescia صورة ساخرة لها تبدو فيها بريئة براءة الراهبة الحديثة العهد بالرهبنة . وقد أخطأت إذ عاشت بعد أن زالت مفاتنها ، وماتت فى كوخ حقير قريب من نهر التبر ؛ وبيع كل ما تمتلكه بالمزاد فلم يزد ثمنه على اثنى عشر كروناً (١٥٠ ؟ دولارا) ولكنها احتفظت رغم فقرها بعودها ومعزفها إلى آخر أيام حياتها . وتركت وراءها أيضاً كتاباً ألفته **فى خلود الحب الكامل**(٤٢)

وما من شك فى أن هذا العنوان يدل على الطراز الذى كان يتحدث به المتحدثون ويكتب به الكتاب عن الحب العذرى فى عهد النهضة . فإذا لم تسمح امرأة لنفسها أن تزنى فى تلك الأيام ، فقد كان يسمح لها على الأقل بأن تثير فى الرجل نوعاً من الغرام الشعرى ، فتهدى إليها القصائد والمجاملات الأدبية والمؤلفات . ونشأت فى تلك الأيام بتأثير هيام شعراء الفروسية الغزلين ، و**الحياة الجديدة** لدانتى ، وأحاديث أفلاطون عن الحب الروحى فى عدد قليل من الجماعات عاطفة رقيقة من الهيام بالمرأة — كانت عادة زوج رجل غير المستهام بها . على أن الكثرة الغالبة من الناس لم يكونوا يعنون قط بهذه الفكرة ويفضلون على هذا الحب العذرى الحب الشهوانى الصريح ؛ فكانوا يكتبون الأغانى ولكن همهم الوحيد كان هو الاتصال الجنسى ، وقلما كان هذا الحب ينتهى بالزواج إلا فى حالات جد نادرة لا تتجاوز واحدا فى المائة وذلك على الرغم مما يكتبه الكتاب فى رواياتهم الغرامية .

ذلك أن الزواج فى تلك الأيام كان مسألة مال ، وكان جمع المال مستطاعاً دون حاجة إلى نزعات الشهوة الجسمية ، وكانت خطبة الزواج تنظم فى مجالس الأسر ، ويقبل معظم الشبان والفتيات دون احتجاج ذى أثر من

يختار زوجاً له أو لها . وكان من المستطاع خطبة البنت وهى فى الثالثة من عمرها ، وإن كان الزواج يؤجل فى العادة حتى تتم الثانية عشرة . وكانت البنت فى العصور الوسطى ، إذا بقيت حتى الخامسة عشرة دون زواج ، تجلل أسرتها العار . ثم أجلت تلك السن التى تجلب العار على الأسرة حتى السابعة عشرة فى القرن السادس عشر ، وذلك لكى يترك للفتاة من الوقت ما تستطيع معه الحصول على قسط من التعليم العالى(٤٣) : أما الرجال الذين يستمتعون بجميع ميزات الاختلاط الجنسى دون زواج ولا يجدون أية صعوبة فى هذا الاختلاط ، فلم يكن يستطاع إغراؤهم بالزواج إلا إذا جاءت الزوجة معها ببائنة قيمة . ومن أجل هذا وجدت فى أيام سفنرولا Savonarola كثيرات من البنات الصالحات لأن يكن زوجات واللائى عجزن عن أن يجدن أزواجاً لحاجتهن إلى البائنات . ولهذا أيضاً أنشأت فلورنس نوعاً من التأمين الذى يقضى بأن تقوم الدولة بأداء البائنات لمن هن فى حاجة إليها وأطلق على هذا النظام اسم : مال العذارى Motne delle fauciulle وكانت البنات يحصلن منه على بائناتهن إذا أدين قسطاً سنوياً قليلا(٤٤) . وفى سينا بلغ عدد الشبان العزاب من الكثرة ما اضطر المشرعين إلى فرض عقوبات قانونية عليهم ؛ وفى لوقا صدر فى عام ١٤٥٤ مرسوم يقضى بحرمان كل العزاب ما بين سن العشرين والخمسين من الوظائف العامة . وكتبت السندرا إسترتسى Alessandra Strozzi فى ذلك الوقت (١٤٥٥) تقول : « إن تلك الأيام غير ملائمة للزواج(٤٥) . ورسم رفائيل نحو خمسين صورة للعذارى ولكنه لم يرسم قط صورة زوجة ، وكان هذا هو الشىء الوحيد التى اتفق معه ميكل أنجيلو فيه ، وكانت حفلات الزفاف نفسها تستنفد مبالغ طائلة من المال ؛ وها هو ذا ليوناردو برونى Leonado Bruni يشكو من أن زواجه قد ذهب بميراثه(٤٦) . وكان الملوك والملكات ، والأمراء والأميرات ، ينفقون ما يعادل مليون دولار على حفلة زفاف بينما كان القحط يقضى على حياة أبناء الشعب(٤٧) . وأعد ألفنسو العظيم Alfonso the Magnificent صاحب

نابلى مأدبة عشاء لثلاثين ألفاً على ساحل الخليج . وكان أجمل من هذا وأفخم الحفل الذى أقامه أربينو لاستقبال الدوق جويلدو حين جاء من مانتوا بعروسه إلزبتا جندساجا : فقد اصطفت على سفح أحد التلال نساء المدينة فى أبهى الحلل ، واصطف أمامهن أطفالهن يحملون أغصان الزيتون ؛ ومن ورائهم منشدون على ظهور الجياد فى أشكال بديعة يرددون أغانى وضعت لهذه المناسبة خاصة ، وقدمت سيدة جميلة تمثل إحدى الإلهات إلى الدوقة الجديدة ولاء أهل المدينة وعظيم حبهم(٤٨) .

وكانت المرأة بعد الزواج تحتفظ غادة باسمها الخاص ؛ فهاهى ذى زوجة لورندسو ظلت تسمى السيدة كلارتشى أرسينى Clarice Orsine ، على أنه كان يحدث أحياناً أن تضيف الزوجة إلى اسمها اسم زوجها — مثل ماريا سلفيانى ده ميديتشى Maria Salviati de Medici وكان ينتظر حسب نظرية الحب فى العصور الوسطى أن ينشأ الحب بين الرجل وزوجته أثناء اشتراكهما خلال الزواج فى الأفراح والأتراح ، والرخاء والشدة ، ويلوح أن هذا هو الذى كان يحدث فى معظم الحالات . ولسنا نعرف حباً نشأ بين فتى وفتاة أعمق أو أصـــدق من الحب الذى نشأ بين ڤيكتوريا كولنا والمركيز پيسكارا Pescara وقد خطبت له وهى فى الرابعة ، كما لا نعرف إخلاصا أعظم من إخلاص إلزبتا جندساجا التى صحبت زوجها المقعد فى جميع ما أصابه من محن ونفى ، وظلت وفية لذكراه حتى توفيت .

ومع هذا فإن الزنا كان واسع الانتشار(٤٩) . وإذ كانت معظم الزيجات التى تعقد بين أفراد الطبقات العليا زيجات دبلوماسية تبتغى بها المصالح الاقتصادية أو السياسية ، فقد كان كثيرون من الأزواج يرون أن من حقهم أن تكون للواحد منهم عشيقة ؛ وكانت الزوجة فى العادة تغمض عينيها عن هذه الإساءة أو تطبق شفتيها فلا تنطبق بشىء مما قد تشعر به من أسى نتيجة لهذا التصرف . وكان بعض رجال الطبقات الوسطى يدعون أن الزنا من

الملاهى المشروعة . ويلوح أن مكيڤلى وأصدقاءه لم يكونوا يتحرجون عن تبادل الرسائل المفصحة عن خياناتهم لزوجاتهم . وإذا ما ثأرت الزوجة لنفسها من زوجها فاقتدت به كان الزوج فى كثير من الأحيان يتجاهل فعلها هذا ويحمل قرنيه راضياً[٥٠] . لكن تدفق الأسبان على إيطاليا عن طريق نابلى وبتشجيع الإسكندر السادس وشارل الخامس جاء إلى الحياة الإيطالية بالغيرة على العرض والشرف ، فكان الزوج فى القرن السادس عشر يرى من واجبه أن يعاقب زوجته بالموت إذا زنت فى الوقت الذى يحتفظ فيه هو بمزاته الفطرية كاملة غير منقوصة . وكان فى وسع الزوج أن يهجر زوجته وأن ينعم مع ذلك بالحياة ؛ أما الزوجة إذا هجرها زوجها فلم يكن أمامها إلا أن تطالب برد بائنتها ، ثم تعود إلى بيت أهلها ، وتعيش عزبة لأنها لم يكن يسمح لها بأن تتزوج مرة أخرى . وكان فى وسعها أن تدخل الدير ، ولكنه كان ينتظر منها فى هذه الحال أن تهبه جزءاً من بائنتها[٥١] . ويمكن القول بوجه عام إن الزنا كان يتخذ سلوى يستعاض بها عن الطلاق .

الفصل الرابع

الرجل فى عصر النهضة

كان اجتماع التحرر الفكرى والتحلل من القيود الخلقية هو الذى أوجد « رجل النهضة » ؛ غير أنه لم تكن له من الخواص ما يجعله خليقاً بذلك اللقب . فقد كان فى ذلك العصر كما كان فى غيره من العصور أكثر من عشرة أنماط . وكل ما كان له من ميزة أنه كان ممتعاً طريفاً ، ولعل سبب ذلك أنه كان من طراز شاذ غير مألوف . وكان فلاح النهضة هو الفلاح بعينه فى جميع العهود إلى أن جعلت الآلات الزراعة صناعة . وكان دهماء المدن الإيطالية فى عام ١٥٠٠ كما كانوا فى رومة فى عهد القياصرة أو فى أيام مسولينى ، ذلك أن المهنة هى التى تطبع الرجل بطابعها ، كذلك كان رجل الأعمال فى عصر النهضة شبيهاً بأمثاله فى الماضى والحاضر . أما القس فى ذلك العصر فكان يختلف عن قس العصور الوسطى أو قس هذه الأيام ؛ فقد كان أقل إيماناً منهما بالدين وأكثر استمتاعاً بالدنيا ، وكان فى وسعه أن يعشق ويحارب . ثم حدث فى هذه الأنماط تغير فجائى يستلفت النظر ، أدى إلى انحراف فى النوع وفى طراز العصر ، ونشأ عنه الرجل الذى ترتسم صورته فى ذهننا حين نقول إن رجل النهضة طراز فذ فى التاريخ ، وإن كان ألقبيادس إذا رآه أحس بأنه طراز قديم ولد من جديد .

وكانت خصائص هذا الطراز تدور حول بؤرتين : الجرأة الفكرية والخلقية . كان حاد الذهن ، يقظاً ، متعدد الكفايات ، مستعداً لقبول كل مؤثر وكل فكرة ، مرهف الحس بالجمال ، حريصاً على نيل الشهرة . وكانت له روح ذات نزعة فردية جريئة عديمة المبالاة ، تعمل على تنمية جميع المواهب الكامنة فيها ؛ روح مزهوة فخورة تسخر من الذلة المسيحية ،

وتحتقر الضعف والجبن ، وتتحدى العرف ، والتقاليد ، والأخلاق ، والمحرمات ، والبابوات ، بل تتحدى الله نفسه فى بعض الأحيان . وكان فى وسع هذا الرجل أن يقود حزباً ثائراً فى المدينة ، أو جيشاً فى الدولة ، فإذا كان من رجال الكنيسة فقد كان يسعه أن يجمع مائة منصب تحت مسوحه ، وأن يستخدم ثروته فى الوصول إلى السلطان . وفى الفن لم يعد هذا الرجل صانعاً يعمل مغموراً مع غيره فى مشروع جماعى كما كان يعمل نظيره فى العصور الوسطى ؛ لقد كان شخصاً « منفرداً منفصلا عن غيره » يطبع أعماله بطابعه ، ويوقع باسمه على ما يرسمه من الصور ، بل كان من حين إلى حين يحفره على ما يصنعه من تماثيل كما حفر ميكل أنجيلو اسمه على تمثال العذراء وهى تندب طفلها . ومهما تكن الأعمال التى يقوم بها رجل النهضة هذا فقد كان فى حركة دائمة ، ساخطاً ، متأففاً من القيود ، تواقاً لأن يكون « رجلا عالمياً » — جريئاً فى تفكيره ، حاسماً فى أفعاله ، فصيحاً فى أقواله ، ماهراً فى فنه ، ملماً بالأدب والفلسفة ، ليس غريباً على النساء فى القصور ولا عن الجند فى المعسكرات .

ولم يكن فساد خلقه إلا جزءاً من نزعته الانفرادية ؛ وإذ كان هدفه هو أن ينجح فى التعبير عن شخصيته ، وكانت بيئته لا تفرض عليه أية معايير يتقيد بها فلا يجد قدوة يقتدى بها بين رجال الدين ، ولا يجد ما يرهبه فى العقيدة الربانية ، فإنه يجيز لنفسه أن يسلك أية وسيلة تبلغه غايته ، ويستمتع بكل لذة تصادفه فى الطريق . لكنه رغم هذا كله كانت له فضائله . لقد كان رجلا واقعياً ، قلما ينطق بتافه القول إلا لامرأة برمة . وكان مؤدباً إذا لم يكن يقتل ، وحتى فى هذه الحال كان يفضل أن يقتل فى غير قسوة . وكان ذا نشاط ، وقوة فى الخلق ، وذا إرادة موجهة موحدة ؛ وكان يقبل المعنى الذى يفهمه الرومان الأقدمون من لفظ الفضيلة وهو « الرجولة » ؛ ولكنه كان يضيف إلى هذا المعنى الحذق والذكاء . ولم يكن مسرفاً فى القسوة من

غير داع ، وكان يمتاز عن الرومان الأقدمين باستعداده لأن يكون تقياً صالحاً . وكان معجباً بنفسه ، غير أن هذا الإعجاب لم يكن إلا وليد إحساسه بالجمال وحسن الشكل . وكان تقديره للجمال فى المرأة والطبيعة ، وفى الفن والجريمة : هو المصدر الأساسى للنهضة . وقد استبدل حاسة الجمال بالحاسة الخلقية ؛ ولو أن هذا الطراز من الرجال قد تضاعف وغلب على غيره لحلت أرستقراطية فى الذوق لا تهظها تبعات محل أرستقراطية المولد أو الثروة .

لكننا نقول مرة أخرى إنه لم يكن غير نوع واحد من أنواع كثيرة من رجل النهضة . ألا ما أعظم الفرق بين پيكوذى النزعة المثالية واعتقاده بقدرة بنى الإنسان على أن يبلغوا بأخلاقهم درجة الكمال ، وبين سفنرولا الصارم الذى لا تبصر عينه الجمال ، والمنهمك فى التقى والاستقامة ، وبين رفائيل الظريف الرشيق الذى ينشر الجمال من حوله بسخاء ، وميكل أنجيلو ذى الجنة ، الذى طغى على عقله التفكير فى يوم الحساب قبل أن يصوره ، وبوليثيان صاحب النغم الحلو الذى ظن أن الرحمة موجودة حتى فى الجحيم ، وفنورينودا فلترى الأمين الذى نجح أيما نجاح فى الجمع بين زينون والمسيح ؛ وجوليانو ده ميديتشى الثانى الذى بلغ من رحمته فى عدالته درجة رأى معها أخوه البابا أنه لا يصلح للقيام بأعباء الحكم ! ما أعظم الفرق بين هؤلاء مع أنهم جميعاً من رجال النهضة . وإنا لندرك رغم ما نبذله من الجهد فى اختصار البحث ، وصياغة القواعد العامة ، أنه لم يكن ثمة رجل يصح أن يطلق عليه اسم « رجل النهضة » : لقد كان فى ذلك العصر رجال لا يتفقون إلا فى شىء واحد ! وهو أن الحياة لم تبلغ من الشدة ما بلغته فى تلك الأيام . لقد كانت العصور الوسطى تقول — أوتدعى أتقول — لا للحياة ؛ أما النهضة فكانت تقول لها نعم بقلبها ، وروحها ، وبكل ما كان فيها من قوة .

الفصل الخامس

المرأة فى عصر النهضة

كان ظهور المرأة فى المجتمع من أبهج مظاهر ذلك العصر ؛ وكانت مكانتها فى التاريخ ترتفع فى العادة كلما زاد الثراء وإن استثنينا من ذلك حالها فى البلاد الشديدة القرب من الشرق فى أيام بركليز . ويرجع السبب فى ارتفاع منزلة المرأة كلما زاد الثراء إلى أن الرجل إذا لم يعد يخشى الجوع ولى وجهه نحو المرأة ؛ وأنه إذا ما ظل يسخر حياته لطلب المال فإنما يفعل ذلك ليضعه بين قدمى المرأة ، أوبين يدى الأطفال الذين جاءت له بهم ؛ وإذا قاومته تصورت له فى صورة المثل الأعلى ؛ .وقد أوتيت فى العادة من الحصافة ما يجعلها تقاومه ، وتتقاضى منه أعلى ثمن نظير النعمة التى يغمر بهاؤها مشاعره إذا ما فكر فيها ، وإذا ما جمت إلى مفاتنها الجسمية محاسن عقلها وخلقها ، وهبته أعظم ما يطمع فيه من السعادة التى لا يسمو عليها إلا ما يطمع فيه من المجد وخلود الذكر ، وهو فى نظير هذا يرفع منزلتها حتى تصبح مالكة حياته المسيطرة عليها .

على أننا لا ينبغى أن نظن أن هذه المكانة العليا كانت هى نصيب المرأة العادية فى عصر النهضة ، فالواقع أنه لم ينلها إلا قلة من النساء المحظوظات ؛ أما الكثرة الغالبة منهن فكن يخلعن ثياب العرس ليحملن أعباء المنزل ومتاعب الأسرة حتى يوارين الثرى : وليستمع القارئ إلى برنرد ينو يحدد الوقت المناسب لضرب الزوجة :

« وأوصيكم أيها الرجال ألا تضربوا زوجاتكم وهن حاملات فإن فى ذلك أشد الخطر عليهن . ولست أعنى بهذا أنكم يجب ألا تضربوهن أبداً ؛ ولكن الذى أعنيه أن تختاروا الوقت المناسب لهذا الضرب . . . . وأنا أعرف

رجالا يهتمون بالدجاجة التى تضع بيضة فى كل يوم أكثر من اهتمامهم بأزواجهم . فقد تكسر الدجاجة أحياناً وعاء أو قدحاً ، ولكن الرجل لايضربها خشية أن يفقد بذلك البيضة التى يحصل عليها منها ، إذن فما أشد جنون الكثيرين من الرجال الذين لا يطيقون سماع كلمة من زوجاتهم اللائى يأتين لهن بهذه الثمار الطيبة ! ذلك أن الواحد منهم إذا سمع من زوجته كلمة يرى أنها نابية ، عمد من فوره إلى عصا وشرع يضربها بها ، أما الدجاجة التى لاتنقطع عن الوقوقة طول النهار فإنه يصبر عليها من أجل بيضتها[٥٢] » .

وكانت الفتاة من الأسر العريقة تدرب عادة على النجاح فى الحصول على الزوج الثرى والاحتفاظ به ، وكان هذا التدريب أهم مادة فى منهج تعليمها . وكانت تبقى إلى ما قبل زواجها بضعة أسابيع فى عزلة إلى حد ما إما فى دير أو فى منزل أبويها ، تتلقى من معلميها أو من الراهبات تعليما لايقل درجة عما يتلقاه جميع من فى طبقتها من الرجال إذا استثنينا منهم العلماء . وكانت فى العادة تتعلم شيئاً من اللغة اللاتينية ، وتدرس إلى حد ما كبار الشخصيات فى تاريخ اليونان والرومان ، وآدابهم ، وفلسفتهم . وكانت تعزف على بعض الآلات الموسيقية ، وتمارس أحياناً فن النحت والتصوير ؛ وكان بعض النساء يبلغن منزلة العلماء ، ويناقشن علناً بعض المسائل الفلسفية مع الرجال ؛ ومن هؤلاء كسندرا فيديلى من نساء البندقية ؛ ولكن أمثالها كن من الشواذ النادرات الوجود . وكان عدد لابأس به منهن يقرض الشعر الجيد مثل قسطنتسا ڤارانا Contanza Varana ، وفيرونيكا جمبارا Veronica Gambara ، وڤتوريا كولنا . غير أن المرأة المتعلمة فى عصر النهضة ظلت محتفظة بأنوثتها ، وعقيدتها المسيحية وما توجبه عليها هذه العقيدة من القانون الأخلاقى ؛ وكان احتفاظها بهذه الصفات بهما وحدة فى الثقافة والخلق يعز على رجل النهضة الراقى أن يقاومها .

ذلك أن الرجل المتعلم فى ذلك العصر كان يحس بجاذبيتها أشد الإحساس ،

وكان هذا الإحساس يصل به إلى درجة تدفعة إلى أن يؤلف ويقرأ الكتب التى تحلل مفاتنها تحليلا علمياً مفصلا . من ذلك أن أنيولو فيرندسو Agnolo Firenzulo الراهب الفلمبروزى Vallombrosan ألف حواراً موضوعه جمال المرأة ، وأظهر فى هذا الموضوع الشائق حذقاً وعلما غزيراً لايكادان يليقان بالرهبان . وهو يعرف الجمال نفسه كما يعرفه أفلاطون وأرسطو بأنه « التآلف المنتظم ، والتوافق الذى لايستطاع الوصول إلى كنهه ، والذى ينتج من وجود عناصر مختلفة ، واتحادها ، وتفاعلها ، بحيث أن كل عنصر من هذه العناصر يتناسب مع العناصر الباقية أتم التناسب وأحسنه ، وأن يكون بمفرده جميلا بمعنى ما ؛ ولكنها قبل أن تجتمع لتكون جسماً واحداً تختلف فيما بينها وتتنافر »(٥٣) . ثم يمضى فيبحث بمنتهى الدقة كل جزء من أجزاء المرأة ويضع الموازين القسط لجمال كل واحد منها ؛ فيقول إن الشعر يجب أن يكون غزيراً ، طويلا ، أشقر — ويفسر الأشقر بأنه أصفر خفيف الزرقة قريب من السمرة ؛ أما البشرة الجميلة فهى البراقة الصافية ولكنها ليست البيضاء الشاحبة ؛ والعينان الجميلتان هما السوداوان الكبيرتان ، الممتلئتان ، اللتان فيهما مسحة من الزرقة فى حدقة بيضاء ؛ أما الأنف فيجب ألا يكون أقنى ، لأن الأنف الأقنى منفر فى المرأة بنوع خاص ؛ ويجب أن يكون الفم صغيراً ، أما الشفتان فلابد أن تكونا ممتلئتين ، والذقن يجب أن يكون مستديراً ذا نونة ؛ والعنق يجب أن يكون مستديراً طويلا بعض الطول — ولكن يجب ألا تظهر فيه الحرقدة(*) ؛ ويجب أن تكون الكتفان عريضتين ، وأن يكون الصدر ممتلئاً منحدراً انحدار آومرتفعاً فى ظرف وخفة ، واليدان بضتين ممتلئتين ناعمتين ؛ والساقان طويلتين ، والقدمان صغيرتين(٥٤) ؛ وإنا لنحس بأن فيرندسو لو قد أمضى كثيراً من الوقت يفكر فى موضوعه ، وأنه اكتشف موضوعاً جديداً بديعاً من موضوعات الفلسفة .

(*) الحرقدة عُقدة الحنجور Adam's apple .

ولم تقنع المرأة فى عهد النهضة بهذه المفاتن فمضت كما مضت أختها فى جميع العصور تصبغ شعرها — لتحيله على الدوام تقريباً أشقر — وتضيف إليه الضفائر المستعارة تكمله بها ؛ وتبتاعها من القرويات اللاتى كن يقصصن غدائرهن بعد أن يذهب جمالهن ويعرضنها للبيع[٥٥] . وكانت المرأة الإيطالية فى القرن السادس عشر تجن جنوناً بالعطور ، تضمخ بها شعرها ؛ وقبعتها ، وقميصها ، وجوربها ، وقفازيها ، وحذاءيها جميعها . ولقد امتدح أريتينو الدوق كوزيمو لأنه عطر له المال الذى بعث به إليه ، « ولا تزال بعض مخلفات ذلك العصر محتفظة برائحتها الذكية لم تفقدها بعد »[٥٦] . وكانت منضدة لباس السيدة ذات الثراء تميد بما عليها من مواد التجميل ، تحتويها عادة قوارير بديعة الشكل من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب . ولم تكن الأصباغ الحمراء تستخدم فى الوجه وحده ، بل كانت يزين بها أيضاً الثديان ، وكانا فى المدن الكبيرة يترك الجزء الأكبر منهما عارياً[٥٧] . وكانت مستحضرات كثيرة تستخدم لإزالة العيوب الجسمية ، ولتلميع أظافر اليدين ، ولجعل البشرة ناعمة ملساء . وكانت الأزهار تزين الشعر والثياب ، واللؤلؤ والماس ، والياقوت ، والصفير (الياقوت الأزرق) والزمرد ، والعقيق ، والجمشت ، والزبرجد ، والياقوت الأصفر ، والعقيق تزين الأصابع فى الخواتم ، والذراعين فى الأساور ، والرأس فى الأكاليل ، والأذنين (بعد ١٥٢٥) فى الأقراط ، وكانت الحلى فوق ذلك ترصع بها أغطية الرأس ، والأثواب ، والأحذية ، والمراوح .

وكانت ملابس السيدات ، إذا جاز لنا أن نحكم عليها من صورهن ، كثيرة الكلفة ، ثقيلة الوزن ، غير مريحة للجسم . وكانت الأثواب المصنوعة من المخمل ، والحرير ، والفراء تتدلى فى ثنيات ضخمة من الكتفين ، أو من مشابك فوق الثديين إذا كانت الكتفان عاريتين . وكانت الأثواب تشد بمنطقة فى الوسط وتكنس الأرض خلف القدمين . وكان حذاء المرأة الثرية

عالياً عند باطن القدم وعند الكعب ، لكي يحفظ قدميها من أقذار الشوارع ؛ ومع هذا فإن وجهه الأعلى كان يصنع عادة من الديباج الرقيق المقصب . وكانت نساء الطبقات العليا وقتئذ تستخدم المناديل ، تصنع في العادة من التيل ، وكثيراً ما كانت تخطط بالخيوط الذهبية أو توشى بالخرم (الدنتلا) . كذلك كانت التنورات والثياب الداخلية توشى بالخرم وتطرز بالحرير ؛ وكانت الأثواب أحياناً تعلو حتى تلتف حول العنق وتمنعها من التثنى أسلاك معدنية ، وكانت فى بعض الأحيان ترتفع فوق الرأس . أما أغطية رءوس النساء فكانت تتخذ مائة شكل وشكل : كان منها عمامات ، وتيجان ، ومناديل رأس ، أو أقنعة ، تمسك باللآلى ؛ أوقلانس مقامة على أسلاك معدنية ، أو شبيهة بقلانس الغلمان أو حراس الحراج . . ولما زار بعض الفرنسيين مدينة مانتوا سُروا وذهلوا حين رأوا المركيزة إزبلا تلبس قلنسوة ذات ريش من الجواهر ، ولكنها عارية الكتفين والصدر حتى حلمتى الثديين(٥٨) . وكثيراً ما شكا الواعظون من ارتفاع صدور النساء ارتفاعاً يراد به استلفات عيون الرجال . وكانت شهوة العرى تتملك النساء أحياناً إلى حد تخرج معه عن المعقول ، حتى لقد قال ساتشتى إن بعض النساء يتعرين تماماً إذا خلعن أحذيتهن(٥٩) . وكانت بعض النساء يشددن أجسامهن بمشدات يمكن تضييقها بإدارة مفتاح لها ، وقد رثى پترارك « لبطونهن التى ضغطنها فى غير رحمة حتى ليقاسين من الغرور آلاماً كالتى يقاسيها الشهداء لتمسكهم بالدين »(٦٠) .

وتسلحت نساء الطبقات العليا فى عصر النهضة بهذه الأسلحة الفتاكة فرفعن جنسهن من رق العصور الوسطى ومن حياة الدير المحتقرة حتى أصبحن متساوين مع الرجال . فقد كانت المرأة تتحدث مع الرجل حديث الند للند فى الأدب والفلسفة ، وكانت تحكم الدول حكماً يتصف بالفطنة والحصافة ، كما فعلت إزبلا ، أوبقوة ليست كمثلها قسو الرجال كما فعلت كترينا اسفوردسا

وكانت أحياناً تلبس الزرد ، وتتبع زوجها إلى ميدان القتال ، وتفوقه فيما يصدر من أوامر العنف والقسوة . وكانت تأبى أن تغادر المجلس حين تروى القصص البذيئة ؛ ولم تكن تستحى مما تسمع ، فكانت تستمع إلى الألفاظ الصريحة المكشوفة دون أن تخدش هذه الألفاظ حياءها أو تفقدها فتنتها . وكم من امرأة إيطالية فى عهد النهضة سما بها عقلها أو سمت بها فضائلها إلى أرقى منزلة . نذكر منهن بيانكا مارية فسكنتى Biance Maria Visconti التى حكمت ميلان فى غياب زوجها فرانتشيسكو اسفوردسا بحزم وقوة لم يسعه معهما إلا أن يقول إنه يثق بها أكثر مما يثق بجيشه كله ، ثم إنها فى الوقت عينه اشتهرت « بالتقى ، والرأفة وكثرة الصدقات ، وروعة الجمال »(٦١) ونذكر كذلك إميليا پيو Emilia Pio التى مات زوجها وهى فى نضرة الشباب ، ولكنها احتفظت بذكراه إلى درجة أنه لم يعرف عنها فيما بقى من حياتها أنها شجعت رجلا ما بالالتفات إليها ؛ ولكريدسيا تورنابونى Lucrezia Tornaboni أم لورندسو الأفخم ومشكلة أخلاقه ، والزبتا جندساجا ، وبيتريس دست ، ولكريدسيا بورچيا الظريفة المفترى عليها وكترينا كرنارو Caterina Cornaro التى جعلت أسولو Asolo مدرسة الشعراء والفنانين ، والرجال المهذبين ، وڤيرونيكا جمبارا Veronica Gamdara الشاعرة صاحبة الندوة فى كريجيو Correggio ؛ وڤتوريا كولنا ربة ميكل أنچيلو التى لم يمسسها بشر .

وتمثلت فى ڤتوريا ، دون ما زهو وخيلاء ، جميع الفضائل الهادئة التى كانت للبطلات الرومانيات فى عهد الجمهورية ، ثم جمعت إلى هذه الفضائل أنبل الصفات المسيحية . وكانت فرع شجرة طيبة ممتازة : فكان والدها فبريدسيو كولنا Fabrizio Colonna ، كبير رجال الشرطة فى نابلى ، وأمها أنيزى ده منتيفيلترو Agnese de Montafeltro ابنة فيديريجو دوق أربينو المتبحر فى العلم : وقد خطبت وهى فى سن الطفولة لفيرانتى فرانتشيسكو دا ڤالوس Ferrante Francesco d'Avalos مركيز پيسكارا ؛

وتزوجت به حين بلغت التاسعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) وكان الحب الذى ألف بينهما قبل الزواج وبعده قصيدة أجمل من كل الأغانى التى تبادلوها أثناء حروبه. ولما جرح فى واقعة رافنا (١٥١٢) وأدناه الجرح من منيته وأسر، انتهز الفراغ الذى أتاحه له أسره فألف **كتاب الحب** وأهداه إلى زوجته. وكان فى هذه الأثناء قد اتصل بإحدى وصيفات إزبلا دست[٦٢]؛ فلما أطلق سراحه عاد مسرعا إلى ڤتوريا، ثم خرج إلى حرب بعد حرب، حتى لم تكد تراه فيما بعد. فقد قاد جيوش شارل الخامس فى پاڤيا (١٥٢٥)؛ وانتصر بها فى معركة حاسمة، ولما عرض عليه تاج ناپلى إذا رضى أن ينضم إلى المؤتمرين على الإمبراطور فكر قليلا ثم كشف لشارل عن المؤامرة؛ ولما حضرته الوفاة (فى نوفمبر من عام ١٥٢٥) لم يكن قد رأى زوجه طيلة ثلاث سنين. وجهلت هى أو تجاهلت خياناته الزوجية، فقضت السنين العشرين التى ترملتها بعده فى أعمال البر، والتقى، والوفاء لذكراه؛ ولما طلب إليها أن تتزوج مرة أخرى أجابت بقولها: « إن زوجى فردناند الذى تظنونه مات، لم يمت بالنسبة لى »[٦٣]. وعاشت بقية حياتها فى عزلة هادئة فى إسكيا Ischia ثم أوت إلى دير فى أرڤيتو وانتقلت منه إلى دير آخر فى ڤيتربو، ثم عاشت فى عزلة شبيهة بعزلة الدير فى رومة. وهنا اتخذت لها عدداً من الأصدقاء الإيطاليين الذين كانوا يعطفون على حركة الإصلاح الدينى وإن ظلت هى مستمسكة بدينها القديم. ووضعت فترة من الزمان تحت رقابة محكمة التفتيش، فكان الذى يجرؤ أن يكون صديقاً لها يتعرض للاتهام بالإلحاد. ولكن ميكل أنچيلو عرض نفسه لهذا الخطر، ونشأت بينه وبينها علاقة حب روحانى لم يتعد قط حدود الشعر.

وحررت نساء النهضة المتعلمات أنفسهن دون أن يقمن بدعاوة ما لهذا التحرر، ولم تكن وسيلتهن إليه غير ذكائهن، وخلقهن، وكياستهن، وربما أرهفن من حواس للرجال بمفاتنهن الجنسية والروحية والعقلية. وقد

أثرن فى زمنهن فى كل ميدان من الميادين . فى الميدان السياسى لقدرتهن على حكم الدول بدلا من أزواجهن الغائبين ؛ وفى ميدان الأخلاق يجمعن بين الحرية وطيب العادات ، والصلاح ؛ وفى الفن بما أظهرن من جمال الأمومة الذى صورت على مثاله مئات من صور العذراء الأم ، وفى الأدب إذ فتحن أبوابهن للشعراء والعلماء وعطفن عليهم وابتسمن لهم . ولسنا ننكر أن كثيراً من الهجاء قد وجه وتنثذ للنساء كما وجه إليهن فى كل عصر من العصور ؛ ولكن كل بيت مرير أو ساخر قيل فيهن كان يقابله أوراد وتسابيح من المديح والابتهال . وقصارى القول أن النهضة الإيطالية ، كالاستنارة الفرنسية ، قامت على أكتاف الجنسين ؛ فكانت النساء يرتدن كل ميدان من ميادين الحياة ؛ وتجرد الرجال من خشونتهم وغلظتهم ، ورقت آدابهم وألفاظهم ، وخطت الحضارة رغم تحللها وعنفها نحو الرشاقة والرقه خطوات لم تشهد أوربا مثلها مدى ألف عام .

الفصل السادس

المنزل

وتبدت الرقة المطردة الزيادة فى شكل البيت وفى الحياة المنزلية . لقد ظلت مساكن الشعب كما كانت من قبل — ذات جدران مغطاة بالملاط أو الجص مطلية بالجير ، عارية عن الزينة ، وأرض مغطاة بالبلاط ، وفناء داخلى به فى العادة بئر ، ويحيط بالفناء طبقة أو طبقتان من الغرف مزودتان بأبسط لوازم الحياة . أما قصور العظماء والأغنياء الحديثى الثراء فكانت روعة وترف تذكر الإنسان مرة أخرى بقصور رومة الإمبراطورية . ذلك أن الثروة التى كانت محبوسة من قبل على الكتدرائيات قد صبت الآن صباً على القصور فجاءتها بالأثاث ، ووسائل النعيم والمتعة ، والزينة التى قلما نجدها إذا تخطينا جبال الألب فى قصور الأمراء والملوك ؛ فهاهو ذا بيت تشيجى الريفى ، وقصر مسيمى Massimi اللذان خططهما بلدساري پروتسى Baldassare Peruzzi يحتوى كل منهما على متاهة من الغرف تزدان كل واحدة منها بالعمد الأسطوانية والمربوعة ، أو الأطناف المنقوشة ، أو السقف ذات اللوحات المذهبة ، أو القبة والجدران المصورة ، أو المصطلى المحلى بالتماثيل ، أو الصور المنحوتة فى الجص ، أو النقوش العربية ، أو الأرضية المصنوعة من الرخام أو القرميد . وكان فى كل قصر سرر ، ونضد ، وصناديق ، وأصونة صنعت لتعيش مائة عام وتسر الناظرين ؛ وكانت خزائن أدوات المائدة أو نضدها مثقلة بالصحاف الفضية والأوانى الخزفية الجميلة الأشكال ، وكان فى القصر فرش وثيرة مريحة ، وطنافس جميلة ، وستر بديعة ، وكثير من الملابس الداخلية المتينة الصنع المعطرة . وكانت مدافئ عظيمة تدفئ الحجرات ، والمصابيح أو المشاعل ، أو القناديل

تثيرها . ولم يكن شيء ما ينقص هذه القصور غير الأطفال .

ذلك أن تحديد النسل يكثر كلما كثر المال اللازم لإعالة الأطفال ، وكانت الكنيسة والكتب المقدسة تأمر بزيادة النسل ومضاعفة عدد الأبناء ، ولكن الرغبة فى التنعم كانت تشير بالإقلال منهم ؛ وحتى فى الريف حيث يكون الأطفال مصدر ثراء كانت الأسر التى بها ستة أبناء نادرة الوجود ، وفى المدن حيث يكون الأطفال عبئاً على الآباء كانت الأسر صغيرة العدد — وكلما زاد ثراء الأسرة قل عدد أفرادها — وكثير من الأسر لم يكن فيها أبناء على الإطلاق(٦٤) . غير أن الأسر الإيطالية كان فى مقدورها أن تنجب أطفالا ظرفاء كما نتبين ذلك من صور الأطفال التى رسمها الفنانون ومن رسوم دوناتلو ولوكا دلا ربيا Luca della Robbia ، والتماثيل المنحوتة كتمثال « القديس يوحنا الشاب » الذى نحته أنطونيو رسيلينو والمحفوظ فى المتحف الأهلى بواشنجتن . وإن تضامن الأسرة ، والولاء والحب المتبادلين بين الآباء والأطفال ليزيدهما رونقاً وجمالا ما كان سائداً فى ذلك الوقت من انحلال فى الأخلاق .

وكانت الأسرة لا تزال وحدة اقتصادية ، أخلاقية ، جغرافية ، اذا عجز أحد أعضائها عن الوفاء بما عليه من دين وفى به سائر الأعضاء ، وتلك ظاهرة تخالف ما اتسم به ذلك العصر من نزعة فردية . وقلما كان عضو يتزوج أو يترك البلاد دون موافقة أسرته ، وكان الخدم أعضاء فى الأسرة أحراراً بمولدهم ، صريحين فى حديثهم . وكان للوالد على الأبناء سلطان كامل ، وأمره مطاع فى الأزمات ، ولكن الأم كانت هى التى تحكم المنزل فى العادة ، ولم يكن حب الأم أبناءها يختلف عند الفقيرات عنه لدى الأميرات ، انظر إلى ما كتبته بيتريس دست عن والدها . الصغير إلى أختها إزبلا : « كثيراً ما تمنيت أن تكونى هنا لتشاهديه بعينيك ، فلو أنك كنت هنا لما خالجنى أقل شك فى أنك لن تستطيعى أن تحاجزى نفسك عن تقبيله وتدليله »(٦٥)

وكانت معظم الأسر من الطبقة الوسطى تحتفظ بسجل يحوى تواريخ ميلاد أعضائها ، وزواجهم ، وموتهم ، والحوادث الهامة فى حياتهم تتخللها فى بعض المواضع تعليقات ناطقة بالحب والمودة . فقد كتب چيوڤنى روتشيلى Giovanni Rucelli (أحد أسلاف الكاتب المسرحى صاحب هذا الاسم نفسه) هذه العبارة فى أواخر أيامه فى سجل من هذا النوع لأسرته :

« أحمد الله الذى خلقنى إنساناً عاقلا مخلداً ؛ فى بلد مسيحى ؛ قريب من رومة ، مركز العقيدة المسيحية ؛ وفى إيطاليا أشرف بلاد العالم المسيحى ؛ وفى فلورنس أجمل مدائن العالم كله . . . . أحمد الله الذى جعل لى أماً ممتازة ، رفضت بعد موت أبى كل عروض الزواج مع أنها لم تكن تجاوزت سن العشرين عند وفاته ، وكرست حياتها كلها للعناية بأبنائها ؛ كما رزقنى أيضاً زوجة صالحة ، حبتنى حباً صادقاً ، ووجهت أعظم عنايتها لبيتها وأبنائها ، أبقاها الله لى كثيراً من السنين ، وكان موتها أفدح خسارة أصابتنى أو يمكن أن تصيبنى طوال حياتى . فإذا ما تذكرت جميع هذه النعم والمزايا ، فإنى الآن وأنا فى سن الشيخوخة أحب أن أتجرد من جميع المنافع الدنيوية لكى أتوجه بروحى كلها إلى التسبيح بحمدك يا الله والثناء عليك يا حى يا قيوم يا من وهبتنى الحياة(٦٦) » .

وكتب رجلان ، أو لعلهما رجل واحد ، حوالى عام ١٤٣٦ رسالتين عن الأسرة وطريقة حكمها . لقد كان أنيولو بندلفينى Anolo Pandolfini فى أغلب الظن صاحب الرسالة الفصيحة المسماة **رسالة فى حكم الأسرة** Trattato del governo della famiglia ؛ وكتب ليون باتستا ألبرتى Leon Baltista Alberti بعده بقليل **رسالة فى الأسرة** Trattato della famiglia ، يشبه الكتاب الثالث من كتبها « **الاقتصاد** Economieo » أعظم الشبه الرسالة السابقة حتى لقد ظن بعضهم أن الكتابين ليسا إلا صورتين

مختلفتين لرسالة واحدة من قلم ألبرتى. وليس ببعيد أن تكون نسبة كل واحدة منهما لصاحبها صحيحة ، وأن ما بينهما من تشابه كبير يرجع إلى أن كلا المؤلفين قد اعتمد فى رسالته على كتاب اكسنوفون **Xenophon** فى الاقتصاد **Ocenomicus** ورسالة بندلفينى أحسن الرسالتين . وكان صاحبها رجلا ثرياً شبيهاً فى هذا بآل روتشلاى ؛ وقد خدم فلورنس فى مناصب دبلوماسية ، وكان سخياً فى هباته للمشروعات العامة . وقد كتب رسالته فى أواخر حياته . الطويلة ووضعها فى صورة حوار بينه وبين أبنائه الثلاثة : فهم يسألونه هل يسعون إلى المناصب العامة ؛ ولكنه يشير عليهم بالابتعاد عنها ، لأنها تتطلب أعمالا تتصف بالخيانة والقسوة ، والسرقة ، وتعرض صاحبها لارتياب الناس ، وحسدهم ، وتوجيه السباب له . ويقول لهم إن نجاح المرء فى نيل السعادة لايقف على نيل المناصب العامة أو الشهرة الواسعة ، بل إن سعادته تعتمد على زوجته ، وأبنائه ، ونجاحه الاقتصادى ، وسمعته الطيبة ، وأصدقائه الأوفياء . وينبغى للمرء أن يتخذله زوجة تنقص عنه فى السن إلى درجة تجعلها خاضعة لتعاليمه قابلة لأن يشكلها على هواه ؛ وعليه أن يعلمها ، فى السنين الأولى من زواجهما ، واجبات الأمومة ، وفنون تدبير المنزل . والحياة الهنيئة مصدرها الاقتصاد والنظام فى العناية بصحة الجسم والعقل ، وحسن استخدام المواهب ، والوقت ، والمال : فأما العناية بالصحة فتكون بالتعفف ، والرياضة ، والاعتدال فى الطعام ؛ وأما حسن استخدام المواهب فوسيلته الدرس ، والتخلق بالأخلاق الشريفة باتباع أوامر الدين وبالقدوة الصالحة ؛ والانتفاع بالوقت يكون بتجنب البطالة ، والانتفاع بالمال يكون بحسن تدبير الدخل ، والنفقات ، والادخار والعمل على توازن هذه العوامل الثلاثة . والرجل الحكيم يستثمر ماله أولا فى مزرعة أو ضيعة يصرف شئونها بحيث تمده هو وأسرته بمسكن ريفى ، وبما يلزمه من الحب والنبيذ ، والزيت ، والطيور ، والخشب، وبأكثر ما يستطيع الحصول عليه من ضرورات الحياة

الأخرى . ويحسن به كذلك أن يكون له بيت فى المدينة ، حتى يستطيع أبناؤه أن ينتفعوا بما فيها من وسائل التربية والتعليم . ويتعلموا بعض الفنون الصناعية(٦٧) . لكن من واجب الأسرة أن تقضى أكبر جزء تستطيعه من الوقت فى بيتها الريفى :

« ذلك أن للبيت الريفى مزايا عظيمة شريفة على حين أن كل ما للإنسان من ملك يتطلب من صاحبه العمل ويعرضه للخطر ، والخوف ، وخيبة الأمل . أما البيت الريفى فهو على الدوام صادق شفيق رحيم . . . . ففى الربيع تبعث الأشجار الخضراء ، ويبعث تغريد الطيور ، فى نفسك البهجة والأمل ، وفى الخريف يعود عليك الجهد المعتدل بثمرة تعادله مائة مرة ، وأنت طول العام أبعد ما تكون عن الحزن والكآبة . ذلك أن البيت الريفى هو البقعة التى يحب فيها الرجال الصالحون الأشراف أن يجتمعوا بعضهم ببعض . . . . فأسرع إذن إلى هناك ، وطر من كبرياء الأغنياء وخيانة أشرار الرجال(٦٨) » .

ويرد على هذا كاتب يسمى چيوڤنى كمپانو **Giovanni Compano** بالنيابة عن ملايين الملايين من الفلاحين فيقول : « لو لم أكن من أبناء الريف ، لابتهجت من فورى بهذا الوصف للسعادة الريفية ؛ أما وأنا الريفى الزارع ، « فإن ما ترونه أنتم سبباً للبهجة ، أراه أنا باعثاً للملل والسآمة »(٦٩) .

الفصل السابع

الأخلاق العامة

لقد كان بندلفيني محقاً فى حكم واحد من أحكامه على الأقل — وهو أن الأخلاق المتصلة بالمعاملات التجارية وعند الجماهير بوجه عام كانت أكثر ما ينفر منه الإنسان فى حياة عصر النهضة — ذلك بأن النجاح ، لا الفضيلة ، فى ذلك الوقت كان هو الميزان الذى توزن به أقدار الرجال وحتى بندلفينو التقى المستقيم نفسه يدعو الله أن يرزقه الثراء لا السمعة الخالدة . لقد كان الناس فى ذلك الوقت كما هم الآن يجرون وراء المال ، ولا يؤنبهم ضميرهم كثيراً بسبب ما يتبعونه من الوسائل لجمعه . فكان الملوك والأمراء يغدرون بحلفائهم ، وينكثون أقوى عهودهم إذا لاح لهم بريق الذهب . ولم يكن رجال الفن أحسن حالا من الملوك والأمراء ! فكثيرون منهم تناولوا مقدم أجور عن أعمال عجزوا عن إتمامها أو عند البدء فيها ، ولكنهم احتفظوا مع ذلك بما قبضوا من أجور ، وكان بلاط البابا نفسه مضرب المثل فى هذا الجشع المالى . ولنستمع مرة أخرى إلى أعظم مؤرخ للبابوية .

« لقد استشرى الفساد ومد جذوره فى جميع مناحى الإدارة البابوية . . . وخرج عدد الهبات التى تنصبُّ فيها صباً والقروض التى تغتصبها اغتصاباً عن كل حد . . . يضاف إلى ذلك أن العقود كانت تتداول وتزور بأيدى الموظفين أنفسهم ، فلا عجب والحالة هذه إذا ارتفعت من جميع أنحاء العالم المسيحى أعلى الصيحات بالشكوى من هذا الفساد وذلك الاغتصاب المالى الذى يقوم به موظفو الإدارة البابوية ، حتى لقد قيل إن لكل شىء فى روما ثمنه »[٧٠] .

وكانت الكنيسة لا تزال تحرم أخذ الفائدة على الأموال وتعدها بجميع

أنواعها من قبيل الربا ، وكان الواعظون يندون بهذا العمل ، وحرمته أحياناً بعض المدن — مثل پياتشندسا — وأنذرت من يمارسه بالحرمان من القربان المقدس ومن الدفنة المسيحية عند مماته . ولكن إقراض المال بالفائدة ظل يجرى فى مجراه ، لأن هذه القروض لم يكن منها بد فى الأعمال الاقتصادية ، التجارية والصناعية ، الآخذة فى الاتساع . وسنت القوانين تحرم أن يزيد سعر الفائدة على عشرين فى المائة ، ولكننا مع ذلك نسمع عن حالات بلغ فيها هذا السعر ثلاثين فى المائة . وكان المسيحيون ينافسون اليهود فى عقد القروض ، حتى لقد شكا مجلس ڤيرونا البلدى من أن المسيحيين يفرضون على المدينين شروطاً أقسى مما يفرضه اليهود[٧١] . غير أن غضب الشعب قد حل أشده على اليهود ، وكثيراً ما أدى إلى أعمال العنف الموجهة إلى الساميين . وواجه الرهبان الفرنسيس هذه المشكلة وحاولوا تخفيف العبء عن أشد المدينين بؤساً بإنشاء أرصدة الإحسان (momnti di pieta) ومعناها الحرفى (أكوام الإحسان) جمعوها من الهبات والوصايا ليقرضوا منها المحتاجين ؛ وكانوا فى أول الأمر يقرضونهم بغير فائدة . وكان أول رصيد من هذا النوع هو الذى أنشئ فى أرڤينو عام ١٤٦٣ ؛ ولم تلبث كل مدينة كبيرة أن حذت حذوها ؛ وتطلب ازدياد مقدار هذه الأرصدة تخصيص بعض المال لإدارتها والإشراف عليها ؛ فما كان من مجلس لاتران الخامس الذى عقد فى عام ١٥١٥ إلا أن منح الرهبان الفرنسيس الحق فى أن يفرضوا على كل قرض ما يكفى من المال لتغطية نفقات الإدارة والإشراف . وسار بعض رجال الدين فى القرن السادس عشر على هذه السنة نفسها فأجازوا أخذ فائدة معتدلة على القروض[٧٢] . ثم أخذ سعر الفائدة ينخفض انخفاضاً سريعاً فى القرن السادس عشر بفضل منافسة أرصدة الإحسان ، وأكثر من هذا فى أغلب الظن بفضل ازدياد مهارة رجال المصارف المحترفين ومنافستهم للأفراد المقرضين .

وازداد النظام الصناعى قوة باتساع مداه وباختفاء العلاقة الشخصية بين العامل وصاحب العمل . ذلك أن رقيق الأرض فى نظام الإقطاع كان يستمتع ببعض الحقوق فى مقابل ما يفرض عليه من الأعباء ، فقد كان ينتظر من سيده أن يعنى به إذا مرض ، أو حلت بالبلاد أزمة اقتصادية ، أو شبت فيها نار حرب ، أو بلغ سن الشيخوخة . وكانت نقابات الحرف فى المدن الإيطالية تؤدى بعض هذه الواجبات للطبقة العليا من العمال ، ولكن العامل « الحر » كان فى العادة « حراً » فى أن يموت جوعاً حين لا يجد عملا يقتات منه ، فإذا وجده كان لا بد له أن يقبله بالشروط التى يفرضها عليه صاحب العمل نفسه ، وما كان أقسى هذه الشروط . وكان كل اختراع وكل تحسين فى وسائل الإنتاج وفى الأنظمة المالية يزيد من أرباح صاحب العمل ، وقلما كان يزيد الأجور . وكان رجال الأعمال يقسو بعضهم على بعض بقدر ما يقسون على عمالهم : فنحن نسمع عن كثير من الحيل التى كانوا يلجئون إليها فى تنافسهم ، وعن عقودهم الخادعة ؛ وعن وثائقهم المزورة التى يخطئها الحصر(٧٣) . فإذا ما تعاونوا كان تعاونهم بهدف لخراب بيوت منافسيهم فى بلد غير بلدهم . بيد أننا نجد أحياناً أمثلة دالة على الإحساس بواجب الشرف بين كثيرين من التجار الإيطاليين ، واشتهر رجال المال فى إيطاليا بالأمانة والاستقامة فى المعاملة أكثر مما اشتهر بهما أمثالهم فى أوربا(٧٤) .

وكانت الأخلاق الاجتماعية مزيجاً من العنف والعفة . وإنا لنجد فى الرسائل التى كانت تتبادل بين الأفراد فى ذلك الوقت شواهد كثيرة على ما كانوا يتصفون به من الرقة والحنان ؛ ولم يكن الإيطاليون العاديون يضارعون الأسبان فى شراستهم أو الجنود الإيطاليين فى إقدامهم على ذبح أعدائهم جماعات . ولكن ما من أمة فى أوربا كان فيها من الاغتياب ونهش الأعراض مثل ما كان يدور حول جميع الرجال البارزين فى رومة ؛ وهل يستطيع أحد غير الإيطاليين فى عهد النهضة أن يصف أريتينو بأنه من أولياء

الله الصالحين ؟ . وانتشر العنف بين الأفراد انتشاراً واسع النطاق . وكان من أسباب قوة النزاع بين الأسر زوال العادات القديمة والعقيدة الدينية ، والتراخى فى أخذ الناس بالقانون ، ولهذا كان الناس يثأرون لأنفسهم بأنفسهم ، وظلت الأسر يقتل بعضها بعضاً جيلا بعد جيل ، كما ظل التبارز عادة مألوفة مشروعة فى إيطاليا لا يقف حتى يقتل أحد المتبارزين نده ، وحتى الأولاد الصغار كان يسمح لهم بأن يقاتل بعضهم بعضا بالمدى ، ويعد هذا أيضاً من الأعمال المشروعة(٧٥) . وكان النزاع بين الأحزاب أشد منه فى أى مكان آخر فى أوربا ، وكانت الجرائم وأعمال العنف يخطئها الحصر . وكان من المستطاع ابتياع السفاحين بأثمان لا تكاد تزيد على أثمان صكوك الغفران ، وكانت قصور رومة تزدحم بأولئك السفاحين المستعدين لاغتيال أى إنسان بإشارة من سادتهم . وكان كل إنسان يحمل خنجراً ، وكان عاجنو السموم يجدون كثيرين من طالبى سمومهم ، حتى بلغ الأمر أن أهل رومة قلما كانوا يعتقدون أن إنساناً ذا شخصية بارزة أو مال موفور مات ميتة طبيعية ... وكان كل ذى شخصية يطلب أن يذوق شخص آخر بين يديه كل ما يقدم له من طعام أو شراب . وانتشرت فى رومة قصص عن سم بطىء لا يسرى مفعوله إلا بعد فترة طويلة تكفى لستر آثار من يقدمه . وكان على الإنسان أن يكون يقظاً محاذراً فى تلك الأيام ؛ فإذا غادر المنزل فى ليلة من الليالى ، فقد ينصب له كمين ويسرق ماله ، ويكون من حسن حظه ألا يلقى حتفه ؛ وحتى فى الكنيسة نفسها لم يكن الشخص آمناً على نفسه ، وكان عليه إذا سار فى الطرق العامة أن يستعد لمقاومة قطاع الطرق . ولهذا كان من الواجب أن يصير عقل رجل النهضة حاداً كحدة نصل السفاح .

وكانت القسوة أحياناً قسوة جماعية تسرى عدواها فى الأفراد والجماعات . مثال ذلك أن فتنة اندلع لهيبها فى أرتسو عام ١٥٠٢ ضد أحد المندوبين الفلورنسيين ، فقتل فيها مئات من أرتسو فى شوراعها بحيث فيها أسر

بأكملها ، وجرد أحد الضحايا من ثيابه وشنق ووضعت شعلة متقدة بين عجيزتيه ؛ فما كان من الجماهير المرحة المبتهجة إلا أن أطلقت عليه اسم الملوط[٧٦] . وانتشرت قصص العنف ، والقسوة ، والشهوات انتشار الخرافات ؛ حتى لقد كان بلاط فيرارا الذى يزدان بالشعر والأدب تروعه جرائم الأمراء وما يوقعه الملوك من ضروب العقاب . وكان تحلل الحكام المستبدين أمثال آل ڤسكنتي ومالاتستا أنموذجاً ينسج على منواله ذوو العنف الهواة من أفراد الشعب ، وحافزاً لهم على تقليده .

وتدهورت المبادئ الأخلاقية الحربية على مر الزمن . فقد كانت المعارك كلها تقريباً فى بواكير عهد النهضة لا تزيد على اشتباكات غير ذات بال بين جنود مرتزقة يحاربون فى غير عنف شديد ، ويعرفون متى يقفون القتال ، وكان النصر ينال إذا ما سقط فى حومة الوغى عدد قليل من الرجال ، وكان السجين الحى الذى يستطاع فداؤه أعظم قيمة من العدو الميت . ولما ازدادت قيمة الزعماء المغامرين المأجورين ، وكبرت الجيوش وتطلبت نفقات ضخمة ، سمح للجنود بأن ينهبوا المدن المفتوحة بدل أن تؤدى إليهم أجور منتظمة ؛ وكانت مقاومة النهب تؤدى إلى المذابح التى يهلك فيها العدد الجم من السكان ؛ وكانت وحشية الجنود الفاتحين تزداد حينما يشمون رائحة الدم المسفوك . ومع هذا كله فقد كانت قسوة الإيطاليين فى الحرب أقل من قسوة الغزاة الأسبان والفرنسيين . مثال ذلك أنه حين استولى الفرنسيون على كابوا فى عام ١٥٠١ أوقعوا بأهلها مذبحة ، شنيعة سقط كثير من النساء حتى اللاتى كرسن أنفسهن لعبادة الله . . . ضحية لشهواتهم أو شرهم ، وبيع كثير من أولئك المخلوقات البائسات فى رومة بعدئذ بأبخس الأثمان »[٧٧] كما يقول جوتشيارديني . وغير خاف أنهن بعن للمسيحيين . وزاد استرقاق أسرى الحرب كلما تقدمت أساليبها فى عصر النهضة .

ولسنا ننكر أنه كان ثمة أمثلة من الولاء الجميل بين الإنسان والإنسان ،

جو بين المواطن والدولة ؛ ولكن ازدياد المقدرة على المكر والدهاء زاد من قدر الغش والخداع . فكان القواد يبيعون أنفسهم لمن يؤدى إليهم أعظم الأثمان ، فإذا ما احتدم القتال أخذوا يفاوضون العدو للحصول على أثمان أكبر من التى اشتروا بها . كذلك كانت الحكومات تبدل موقعها فى أثناء الحرب فيصبح الحلفاء أعداء بجرة قلم . وكان الأمراء والبابوات يغدرون بمن أمنوهم على أنفسهم من القادمين إلى بلادهم والخارجين منها[٧٨] ؛ والحكومات توافق على اغتيال أعدائها سراً فى الدول الأخرى[٧٩] . وكان الخونة يوجدون فى كل مدينة وفى كل معسكر : ومن أمثلة هؤلاء برنر دينو دل كورتى Bernardino del Corte الذى باع قلعة لدفيكو لفرنسا ؛ والسويسريون والإيطاليون الذين غدروا بلدفيكو وباعوه للفرنسيين ؛ وفرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى الذى منع جنوده من أن يخفوا لنجدة البابا فى عام ١٥١٧ ، ومالاتستا بجليونى الذى باع فلورنس فى عام ١٥٣٠ . . . ولما ضعفت العقيدة الدينية حلت محل فكرة الحق والباطل فى كثير من العقول فكرة النافع وغير النافع من الوجهة العملية ؛ وإذا كانت الحكومات فى العادة قصيرة الأجل لا تصبح ذات سلطان شرعى بطول الزمن ، فقد ضعفت عند الناس عادة إطاعة القانون ، وكان لابد من أن تحل القوة فى هذا محل العادة ؛ ولم يكن ثمة طريق للخلاص من استبداد الحكومات إلا قتل المستبدين .

وعم الفساد كل فرع من فروع الإدارات الحكومية . فنى سينا مثلا كان لابد من وضع الإدارة المالية فى آخر الأمر فى أيدى راهب اشتهر بالتقى والورع لأن كل إنسان آخر قد اختلس مال المدينة . وساءت سمعة المحاكم كلها عدا محاكم البندقية لكثرة ما كان فيها من الفساد والرشوة . وتروى قصة من قصص ساكتشى Sacchetti أن قاضياً ارتشى بثور ولكن خصم الراشى بعث إلى هذا القاضى نفسه بقرة وعجلا فحكم

لصالحه(٨٠) . وكان التقاضي كثير النفقة ، ولهذا اضطر الفقراء إلى الاستغناء عنه ، ووجدوا أن قتل الخصم أرخص من مقاضاته . وكان القانون نفسه آخذاً في الرقي ولكن رقيه كان مقصوراً على الناحية النظرية . وقد أنجبت بدوا ، وبولونيا ، وبيزا ، وبيروجيا كثيرين من فقهاء القانون أمثال تشينو دا پستويا Cino da Pistoia ، وبرتولوس من أهل ساسوفيراتو Bartolus of Sassoferrato ، وبلدو دجلي أوبلدي Boldo degli Ubalbi الذي ظل شرحه للقانون الروماني أكبر مرجع في فقه القانون قرنين كاملين . وكان القانون البحري والتجاري يتسع نطاقه باتساع نطاق التجارة الخارجية ؛ ومهد چيوڤني دا لنيانو السبيل لجروتيوس برسالة عن الحرب Tractatus de Bello (١٣٦٠) ، وهي أقدم كتاب معروف عن قوانينها .

لكن تطبيق القانون لم يبلغ من السمو مبلغ نظريته ، ذلك أن نظام الشرطة لم يجار في تقدمه سير الجرائم ، وإن كانت مهمته في حماية الأنفس والأموال قد أخذت تظهر وتتشكل وخاصة في فلورنس . وكثر المحامون ، وظل التعذيب يستخدم في استجواب الشهود والمتهمين . وكانت العقوبات قاسية همجية . ففي بولونيا مثلا كان يمكن تعليق المذنب في قفص من أحد الأبراج المائلة ، ويترك حتى يتقرح جسده في الشمس(٨١) ، وفي سينا كان الرجل المحكوم عليه يمزق إرباً على مهل في شوارع المدينة(٨٢) ؛ وفي ميلان أثناء حكم چيوڤني فسكونتي مضيف پترارك كان المسجونون تبتر أطرافهم طرفاً بعد طرف(٨٣) ؛ وبدأت في أوائل القرن السادس عشر عادة الحكم على المساجين بجذب المجاذيف الثقيلة التي كانت تزود بها السفن ، مشاهد ذلك أن سفائن يوليوس الثاني كانت تحمل على ظهورها أرقاء مشدودين إليها من أرجلهم(٨٤) .

على أننا نستطيع أن نذكر في مقابل هذه الأعمال الهمجية تطور الإحسان المنظم ورقيه ، فقد كان كل من يترك وصية يفرد جزءاً من ماله ليوزع

على الفقراء من أهل الأبرشية التى يعيش فيها . وإذ كان المتسولون لا يحصى لهم عدد ، فإن بعض الكنائس كانت تقيم ما يشبه مطاعم الشعب الحديثة ، وجرياً على هذه السنة كانت كنيسة القديسة مارية (سانتا ماريا) فى كامپو سانتو برومة ، تطعم ثلاثة عشر متسولا فى كل يوم وألتى متسول فى أيام الإثنين والجمعة[٨٥] ، وكانت المستشفيات العامة ، ومستشفيات المجذومين ، وملاجئ المرضى الميئوس من شفائهم ، والفقراء ، واليتامى ، والحجاج المعدمين ، والعاهرات التائبات ، كانت هذه كلها كثيرة العدد فى إيطاليا إبان عصر النهضة . واشتهرت پستويا وڤيتربو باتساع نطاق مؤسساتها الخيرية ، وفى مانتوا أنشأ لدوڤيكو جندساجا المستشفى الكبير Ospedale Maggiore للعناية بالفقراء والعجزة ، وخصه بثلاثة آلاف دوقة كل عام من الأموال الحكومية[٨٦] . وأنشئت فى البندقية جمعية عرفت باسم جمعية الپليجرينى Pellegrini من أعضائها تيشيان وابنى سانسوڤينى Sansovini لتقديم المعونة المتبادلة لأعضائها والبائنات للبنات الفقيرات ، إلى غير هذه وتلك من أعمال البر . وكان فى فلورنس فى عام ١٥٠٠ ثلاث وسبعون منظمة مدنية تقوم بأعمال الإحسان . وتأسست فى عام ١٢٤٤ جمعية الإخوان البائسين Fraternita della Mesericordtia ، ولكنها أهملت حتى ماتت ، ثم أعيدت فى عام ١٤٧٥ ؛ وكان أعضاؤها من غير رجال الدين الذين أخذوا على أنفسهم أن يزوروا المرضى ، ويقوموا بأعمال البر الأخرى ، واستمالوا إليهم قلوب الشعب بإقدامهم بشجاعة على العناية بضحايا الطاعون ؛ ولا تزال مواكبهم الصامتة التى يسيرون فيها بأثوابهم السود من أعظم المناظر رهبة وتأثيراً فى المشاعر فى فلورنس[٨٧] . وكان فى البندقية جماعة من هذا النوع تدعى إخوة سان روكو Confraternita di San Rocco ؛ وأنشئت فى رومة جماعة الإخوة المحزونين Sodality ol the Doloros

التى تبلغ الآن من العمر خمسمائة عام وأربعة أعوام ، وأسس الكردنال جوليو ده ميديتشى فى عام ١٥١٩ جماعة أخوة الصداقه Confraternita della Carita للعناية بالفقراء الذين هم أعلى من طبقة المتسولين ؛ ولتقوم بدفن المعدمين دفنة كريمة . هذا إلى أن الصدقات الفردية التى كان يقدمها ملايين الأفراد ممن لم تعرف أسماؤهم كانت تخفف بعض الشىء من كفاح الإنسان لأخيه الإنسان ، ومن صراعه مع الطبيعة و الموت .

الفصل الثامن

العادات العامة ووسائل التسلية

بين العنف وعدم الأمانة ، والحياة الصاخبة التي كان يحياها طلبة الجامعات ، والفكاهة الخشنة والحنان اللذين يتصف بهما الفلاحون والعمال ؛ بين هذا كله نشأت الآداب العامة الطيبة كأنها فن آخر من فنون النهضة ، فتزعمت إيطاليا وقتئذ أوربا كلها في قواعد الصحة الشخصية والاجتماعية ، والثياب ، وآداب المائدة وطهو الطعام ، وآداب الحديث ، والرياضة البدنية . وكانت فلورنس تدعى أنها هي التي تتزعم إيطاليا في هذا كله عدا الملابس . وكانت تدفعها روحها الوطنية لأن ترثى لما في المدن الأخرى من قذارة ، كما كان الإيطاليون يتخذون لفظ « ألماني » مرادفاً للخشونة في اللغة والحياة(٨٨) . واحتفظت الطبقات المتعلمة في إيطاليا بالعادة الرومانية القديمة عادة الاستحمام الكثير ، وكان أثرياء القوم يتباهون بأثوابهم الجميلة ويؤمون الأماكن ذات المياه المعدنية ، ويشربون المياه الكبريتية يطهرون بها بطونهم في كل عام مما أفرطوا فيه من الطعام والشراب . ولم تكن ملابس الرجال أقل زينة من ملابس السيدات ولا تنقص عنها إلا الحلى ، وكانت لهم أكمام ضيقة ، وجوارب ملونة ، وقبعات كبيرة كالتي شاهدها رفائيل على كستجليوني . وكان الجورب يغطى الساق كلها حتى آخر الفخذ فيجعل الرجال يقفزون في مشيهم قفزاً يدعو إلى السخرية . أما في الجزء الأعلى من الجسم فقد كان في وسع الرجل أن يكون حسن الهندام ، فقد كان يرتدى صدرة من المخمل موشاة بالحرير ومزدانة بالمخرمات . (الدنتلا) ، ولم تكن القفازات والأحذية نفسها تنقصها هذه المخرمات . ويحدث في مهرجان للرجال أن ...

لورندسو ده ميديتشى أن ارتدى أخوه جوليانو أثواباً كلفته ثمانية آلاف دوقة(٨٩) .

وحدث فى القرن الخامس عشر انقلاب تام فى آداب المائدة حين ازداد استعمال الشوكة بدل الأصابع فى تناول الطعام ونقله إلى الفم . ولشد ما دهش تومس كريات Thomas Coryat حين زار إيطاليا حوالى عام ١٦٠٠ من هذه العادة الجديدة التى لم يتعودها الناس فى أى بلد آخر رأيته فى أسفارى » على حد قوله ، وقد ساعد بنفسه على إدخال هذه العادة فى إنجلترا(٩٠) . وكانت السكاكين ، والشوك ، والملاعق تصنع من النحاس الأصفر ، ومن الفضة فى بعض الأحيان – فإذا كانت من الفضة أعيرت للجيران حين يقيمون المآدب . أما الطعام فقد كان طعاماً وسطاً إلا فى المناسبات الهامة أو المآدب التى تقيمها الدولة فى المناسبات الرسمية ، فقد كان التغالى فيها أمراً واجباً إجبارياً . وكانت التوابل – كالفلفل ، والقرنفل ، وجوزة الطيب ، والقرفة ، والعرعر والزنجبيل وما إليها – تستخدم بكثرة لزيادة نكهة الطعام وزيادة الظمأ إلى الشراب ؛ ولهذا كان كل مضيف يقدم لضيوفه أنواعاً مختلفة من الخمور . وفى وسعنا أن نرجع شيوع الثوم فى إيطاليا إلى عام ١٥٤٨ ، ولكن الذى لا شك فيه أن استعماله بدأ قبل ذلك بوقت طويل . وقلما كان يؤخذ على القوم نهم أو شراهة فى الطعام والشراب ؛ ذلك أن الإيطاليين فى عهد النهضة كانوا كالفرنسيين فى العهود المتأخرة خبيرين بالأطعمة والأشربة لا نهمين فيها . وإذا ما تناول الرجال طعامهم بمعزل عن النساء كانوا يدعون معهم بعض المحاظى – واحدة أو اثنتين – كما فعل أريتينو حين عزم تيشيان . أما من هم أكثر احتشاماً فقد كانوا يجملون وجبات الطعام بالموسيقى ، وارتجال الشعر ، والحديث المثقف الدال على حسن التربية .

وقد اخترع فن الحديث – الحديث الجميل – الحديث الذى ينم على

الذكاء ، والأدب ، والتهذيب ، والمتسم بالوضوح ، وروح الفكاهة — اخترع هذا الفن من جديد فى عهد النهضة . وكانت بلاد النوبة القديمة ، وروما قد عرفتا هذا الفن من قبل ، وظل حياً يتعثر فى العصور الوسطى فى أماكن متفرقة من إيطاليا كبلاط فردريك الثانى وإنوسنت الثالث مثلا . ثم ازدهر الآن مرة أخرى فى فلورنس فى أيام لورندسو ، وفى أربينو على عهد البزابتا ، وفى رومة أيام ليو : فكان النبلاء وزوجاتهم ، والشعراء والفلاسفة ، وقواد الجيوش والعلماء ، والفنانون والموسيقيون « يجتمعون فى رفقة العقول ، يتناقلون أقوال أشهر المؤلفين ، ويظهرون فى بعض الأحيان احترامهم وطاعتهم لأوامر الدين ، ويجملون حذلقتهم بلمسة خفيفة من الخيال العجيب ، ويستمتعون بالإصغاء بعضهم إلى بعض . وقد بلغ من إعجاب القوم بهذه الأحاديث أن صاغوا كثيراً من المقالات والرسائل فى لغة الحوار حتى تستطيع استيعاب هذا الضرب من التظرف . لكنهم أفرطوا فى هذا آخر الأمر حتى أضحت اللغة والأفكار مسرفة فى الرقة والأناقة ، وحتى أوهن الولع بهذه الرقة مقتضيات الرجولة ، وأضحت أربينو فى إيطاليا كما كانت رامبوييه Rambouillet فى فرنسا ، وحتى قام موليير يهاجم « الضحك النفيس » فى وقت استطاع فيه أن ينجى فن الحديث الطيب ويحتفظ به لفرنسا .

وقد احتفظ الحديث الإيطالى — رغم التأنق الذى كان طابع القليل منه — بحرية فى موضوعه وألفاظه إلى قدر لا تجيزه الآداب الاجتماعية فى هذه الأيام . وإذ كانت النساء غير المتزوجات ذوات السمعة الطيبة قلما يستمعن إلى الحديث العام ، فقد كان المفروض أن يناقش الرجال المسائل الجنسية بكثير من الصراحة . لكن الأمر لم يقتصر على هذا ؛ ففى أرقى مجامع الرجال ، كنت ترى الفكاهات الجنسية المجردة من الاحتشام ، والتحرر المرح فى الشعر ، والبذاءة الغليظة فى التمثيل ، وكل هذه تبدو لنا الآن من المظاهر التى تشمئز

منها النفس فى عصر النهضة . ولم يكن الرجال المتعلمون يتورعون عن كتابة الشعر البذىء على التماثيل ، وقد كتب بمبو المهذب الرقيق فيما كتب يثنى على بريابوس Priapus[٩١] . وكان الشبان يتنافسون فى النطق بأفحش الألفاظ وأكثرها بذاءة ليبرهنوا بذلك على أنهم بلغوا الحلم . وكان الرجال على اختلاف طبقاتهم يسبون ويلعنون وكثيراً ما يتطرق سبابهم إلى أقدس الأسماء فى الدين المسيحى . ورغم هذا كله فإن عبارات المجاملة لم تكن فى وقت ما أكثر ازدهاراً مما كانت فى تلك الأيام ، كما لم تكن صيغ التخاطب أكثر ظرفاً ورشاقة . وكانت النساء يقبلن يد كل صديق حميم من الذكور حين يقابلنه أو يودعنه ، كما كان الرجال يقبلون أيدى النساء ؛ ولم تكن الهدايا تنقطع بين الصديق والصديق ، وبلغت الكياسة فى الأقوال والأفعال درجة خيل إلى أوربا الشمالية أنها لا تستطيع الوصول إليها ، وأضحت الكتب الإيطالية التى تعلم تلك الآداب هى النصوص المحببة التى تدرس فيما وراء جبال الألب .

ومثل ذلك يقال عن الكتب الإيطالية فى الرقص ، والمثاقفة ، وغيرها من ضروب الرياضة ، فقد كانت إيطاليا تتزعم العالم المسيحى فى الرياضة كما تتزعمه فى الحديث والبذاءة ، فكانت البنات يرقصن فى ليالى الصيف فى ميادين فلورنس ، وكانت أرشقهن قواماً وأبرعهن رقصاً تجاز بإكليل من الفضة ؛ وفى القرى كان الفتيان والفتيات يتراقصون على الخمائل وفى البيوت وفى حفـلات الرقص الرسمية : كان النساء يرقصن مع النساء أو الرجال ، كما كان الرجال يراقصون الرجال أو النساء ؛ وكان الهدف فى كل حالة من الحالات هو الرشاقة . وانتشر رقص الباليه فى عهد النهضة ، وأضيف شعر الحركات إلى غيره من الفنون .

وكان لعب الورق أكثر من الرقص انتشاراً ، فقد أضحى فى القرن الخامس عشر ولعاً تجن به جميع الطبقات ، حتى لقد أدمنه ليو العاشر نفسه .

وكثيراً ما كان يتضمن المقامرة ؛ وحسبنا شاهداً على هذا أن نعيد ما سبقت الإشارة إليه وهو أن الكردنال رفائلو رياريو Rafaello Riario كسب ١٤٠٠٠ دوقة فى دورين لعبهما مع ابن إنوسنت الثامن . وكان الرجال يقامرون أيضاً بالنرد ، وكانوا أحياناً يغشّون فى هذا اللعب بأن يضيفوا إلى النرد أثقالا تؤثر فى وضعه بعد رميه(٩٢) . وأولع القوم أيضاً أشد الولع بهذه اللعبة ؛ ولم تفلح القوانين فى تخفيف حدتها . وكم من أسرة نبيلة خرب الميسر بيتها فى البندقية ، حتى لقد حرم مجلس العشرة مرتين بيع ورق اللعب أو الكعوب وأهاب بالخدم أن يبلغوا عن أسيادهم الذين يخالفون أوامر التحريم(٩٣) . وكان نظام القرض الحسن الذى أنشأه سفنرولا عام ١٥٤٩ يطلب إلى المقترضين أن يتعهدوا بالامتناع عن الميسر إلى أن يوفوا بالقرض على أقل تقدير(٩٤) .

وكان الذين تعودوا الجلوس وقلة الحركة يقضون الوقت فى لعبة الشطرنج ويقتنون مجموعات منه غالية الثمن ، مثال ذلك أن چياكومو لورندانا من أشراف البندقية كان له قطع من الشطرنج تقدر قيمتها بخمسة آلاف دوقة .

وكان للشبان ألعابهم الخاصة ، أغلبها فى الخلاء . فكان الفتى الإيطالى من أبناء الطبقات العليا يدرب على ركوب الخيل ، واستخدام السيف والرمح ، والطعن فى ألعاب البرجاس ؛ وكانت المدن تستعد لهذه المباريات فى بعض أيام الأعياد والعطلات بتسوير مكان فسيح فى أحد الميادين يسهل عادة أن تطل عليه النوافذ والشرفات التى تستطيع أن تنظر منها السيدات لتشجيع فرسانهن . وإذ لم يكن فى هذه المعارك ما يكفى من الجراح والقتل ، فقد أدخل بعض الشبان المتهورين فى الكلوسيوم الرومانية عام ١٣٣٢ مصارعة الثيران ، بحيث يصارع الثور رجلا واقفاً على قدميه وليس معه من السلاح إلا حربة . وقتل فى هذه المصارعة الأولى ثمانية عشر فارساً

كلهم من أبناء الأسر العريقة ، ولم يقتل من الثيران إلا أحد عشر ثوراً (٩٥) . وتكررت هذه المباريات فى رومة وسينا ، ولكنها لم تستهو الذوق الإيطالى فى يوم من الأيام ، وكان سباق الخيل أحب منها إلى الشعب ، وكان يثير حماسة أهل رومة وسينا وفلورنس على السواء . وتنتهى المباريات بصيد الحيوان والطير بالبزاة ، وسباق الجرى ، وسباق الزوارق ، والملاكمة ، وبها يحتفظ الإيطاليون بشجاعتهم أفراداً ؛ أما من حيث هم جماعة فقد كانوا يكلون أمر الدفاع عن مدنهم إلى الجنود الأجانب المرتزقين .

ويمكن القول بوجه عام إن الحياة كانت ممتعة مبهجة بالرغم مما فيها من كدح وأخطار ، ومما تتسم به من رهبة ومخاوف ، منها ما هو طبيعى ومنها ما هو وهمى وخرافى . وكان سكان المدن يستمتعون بالانتقال إلى الريف رجالا وركبانا ، وإلى ضفاف الأنهار وشواطئ البحار ؛ وكانوا يزرعون الأزهار لنزينوا بها بيوتهم وأنفسهم ، وينشئون إلى جوانب بيوتهم الريفية حدائق غناء ذات أشكال هندسية بديعة . وكانت الكنيسة سخية على الأهلين بأعيادها ، كما كانت الدولة تضيف إلى هذه الأعياد الدينية أعياداً مدنية . فكانت أعياد المياه تقام على بحيرات البندقية ومياهها الضحلة ، وعلى مياه نهر الأرنو فى البندقية ، ونهر منتشيو فى مانتوا ، وتشينو فى ميلان . وفى بعض الأيام الخاصة كانت مواكب فخمة تسير فى شوارع المدن مصحوبة بالمركبات والأعلام ، وضع الفنانون ذوو الشهرة العالمية تصميمها لنقابات الحرف . وكانت الفرق الموسيقية تعزف فى هذه المواكب ، والبنات الحسان يغنين ويرقصن ، وأعيان المدينة يسيرون فيها ؛ حتى إذا جن الليل أطلقت الألعاب النارية تشق أجواز الفضاء بأشكالها العجيبة وتختفى فى طبقات الجو العليا . وفى يوم سبت النور فى فلورنس يؤتى بثلاث قطع من الظران جىء بها من الضريح المقدس فى بيت المقدس لتوقد شريطاً يضىء شمعة تدفعها فوق سلك يمامة صناعية حتى تصل إلى الصورايخ الموضوعة فى عربة اتخذت

رمزاً للدولة فى الميدان أمام الكتدرائية فتشعلها . وفى يوم عيد الجسد الطاهر يتقف الاستعراض ليستمع الموكب إلى أنشودة تغنيها جماعة من البنات والأولاد ، أو يشاهد حادثة من الحوادث التاريخية الواردة فى الكتاب المقدس أو الأساطير الوثنية ، تمثلها إحدى الهيئات . وإذا ما جاء عظيم فى زيارة للمدينة كان يستقبل بموكب تشترك فيه العربات على نمط موكب النصر الرومانى القديم الذى كان يستقبل به القائد المنتصر ، مثال ذلك أنه لما زار ليو العاشر فلورنس مدينته المحبوبة فى عام ١٥١٣ خرج أهل المدينة على بكرة أبيهم ليشاهدوا مركبة نصره التى زخرفها ورسم صورها بنتورمو Pontormo وهى تمر تحت أقواس عظيمة منصوبة فى شارع المدينة الرئيسى ، وسارت سبع عربات أخرى فى هذا الموكب يستقلها أفراد يمثلون سبعة أشخاص كبار فى التاريخ الرومانى ، وفى آخرها غلام عار مغطى بالذهب يرمز إلى حلول العصر الذهبى بمجىء ليو ؛ ولكن الغلام توفى بعد الموكب بقليل من تأثير الطلاء الذهبى[٩٦] .

وكان يحدث أحياناً أن ترمز مواكب العربات فى عيد المساخر بفلورنس إلى فكرة معينة مثل الفطنة ، أو الأمل ، أو الخوف ، أو الموت ؛ أو العناصر ، أو الرياح ، أو الفصول ؛ أو كانت تمثل أحياناً بطريقة الإشارات الصامتة قصة كقصة باريس أمبرطروادة وهلين اليونانية ؛ أو باخوس وأدريانى ، مصحوبة بالأغانى التى تتناسب مع كل منظر من مناظرها . وقد كتب لورندسو أغنيته الذائعة الصيت الموجهة إلى الشباب والمرح لإحدى هذه « المقنعات » . وكان كل من فى المدينة — من الغلمان إلى الكرادلة — يلبس قناعاً ، ويلعب ألعاباً ، ويغازل ويتحرر من كل قيد تحرراً يثأر فيه لنفسه مقدماً من الصوم الكبير . وفى عام ١٥١٢ حين بدا أن فلورنس لا تزال تنعم بالرخاء ، ولكن الكوارث التى لم تكن تخطر بالبال تكن بعيدة عنها بأكثر من بضعة شهور ، أعد پيرو دى كوزيمو

Piero di Cosimo موكب « مقنعة لانتصارات الموت » ، سارت فيه عربة ضخمة تجرها جاموستان سوداوان وعليها غطاء أسود رسمت عليه هياكل عظمية وصلبان بيض . ووقف فى العربة تمثال ضخم يمثل الموت يمسك بيده منجلا ، ومن حوله قبور وأشكال حزينة رسمت على أثوابها السود عظام بيض تبرق فى الظلام ، ومشت وراء العربة شخوص مقنعة تغطى رءوسها قلانس سود رسمت عليها رءوس موتى من الأمام ومن الخلف . وقامت من القبور المصورة على العربة شخوص أخرى رسمت بحيث تبدو عظاماً لا غير ، وكانت هذه الهياكل العظمية تنشد نشيداً يذكر الناس بأن الموت حق على الجميع . وسارت أمام العربة وخلفها قافلة من الخيل الهرمة الضعيفة تحمل جثث أموات(٩٧) . وهكذا نطق پيرو دى كوزيمو والموكب قائم على قدم وساق بحكمه على إيطاليا المنغمسة فى الملذات وتنبأ بما كتب لها من سوء المصير ، وكان فى حكمه وتنبؤه يردد أقوال سفنرولا .

الفصل التاسع

التمثيـــل

وترجع بعض أصول المسرحيات الإيطالية إلى هذه المقنعات والاحتفالات الساخرة . ذلك أن منظراً من التاريخ الديني في العادة كثيراً ما كان يمثل على إحدى عربات الموكب أو على مسارح مؤقتة في بعض نقط من طريق الموكب. أما المصدر الأول للمسرحيات الإيطالية فهو ما كانوا يطلقون عليه لفظ « الديفورتيوتى » وهو إحدى حوادث القصص الديني المسيحي يمثلها أعضاء إحدى نقابات الحرف ، أو ممثلون محترفون في بعض الأحيان، ينتمون إلى هيئة تتخذ عرض هذه المناظر عملا لها . وقد وصلت إلينا نصوص بعض هذه التمثيليات من تلك الأيام ، وهي تدل على عظمة مسرحية مدهشة . فواحدة منها تروي قصة العذراء تعثر على المسيح في بيت المقدس ، ثم تفقده مرة أخرى ، وتبحث عنه وهي ذاهبة العقل وتصيح : «أي بني العزيز المحبوب ! أي بني ، أين ذهبت ؟ أي بني اللطيف ، من أي باب خرجت؟ أي بني القدسي ، لقد كنت حزيناً كاسف البال حين غادرتني ! خبروني بالله أين ، أين ذهب ولدي ؟ »[٩٨] .

وفي القرن الخامس عشر نشأ في إيطاليا عامة ، وفي فلورنس خاصة نوع من المسرحيات أرقى من هـذه يعرف بالتمثيليات المقدسة sacra rappresentazione يمثل في مصلى إحدى نقابات الحرف ، أو في مطعم أحد الأديرة ، أو في حقل من الحقول ، أو في أحد الميادين العامة ؛ وكثيراً ما كانت المناظر المعدة لتلك التمثيليات معقدة تنم عن كثير من الذكاء

والفطنة : فكانت السماء تمثل بستر ضخمة رسمت عليها النجوم ، والسحب تمثل بأكداس من الصوف معلقة فى الهواء تتمايل مع الريح ؛ والملائكة يمثلهم غلمان مرفوعون على قوائم من المعدن مختفية فى أقمشة متماوجة هفهافة . وكانت القصة نفسها شعراً فى العادة ، تصحبها الموسيقى تعزف على الكمان أو العود ؛ وكان لورندسو ده ميديتشى ، وبلتشى Pulci من بين الشعراء الذين كتبوا ألفاظ بعض هذه التمثيليات الدينية ؛ وجاء بوليتيان فى مسرحية أورفيو Orfeo فكيف صيغة التمثيلية المقدسة كى تتفق مع الموضوعات الوثنية .

وكانت عناصر أخرى من الحياة الإيطالية تسهم فى هذه الأثناء فى مولد المسرحية الإيطالية . منها المسرحيات الهزلية farse التى كان يمثلها من زمن بعيد أفراد متنقلون فى مدائن العصور الوسطى ، والتى تحتوى أصول المسلاة الإيطالية . وقد برع بعض ممثليها فى ارتجال الحوار لمناظر القصص وحبكاتها . وكان هذا الحوار وسيلة محببة لإظهار قدرة الإيطاليين على الهجاء والمجون . ومن هذه المهازل ظهرت الشخصيات الهازلة الساخرة فى المسالى الشعبية واتخذت صورها وأسماءها المعروفة بها فى تلك اللغة — البنتالونى ، والأرلكينو ، والبلكينيلا أو البنكينلو (*)

وكان للكتاب الإنسانيين نصيبهم فى العوامل المعقدة التى أدت إلى نشأة المسرحية ، وذلك بإعادة نصوص المسالى الرومانية القديمة والإعداد للتمثيل . وقد كشف هؤلاء اثنتى عشرة مسرحية لبلوتوس فى عام ١٤٢٧ وكان اكتشافها حافزاً جديداً ، فمثلت فى البندقية ، وفيرارا ، ومانتوا ، وأربينو ، وسينا ، وروما مسالى بلوتوس ، وترنس ، وانتقلت التقاليد الأدبية القديمة على مر القرون لتكون من جديد المسرحيات الدنيوية . وفى عام ١٤٨٦

---

(١) Punchinello, Pu'chinella, Arlecchino, Pantalone. وتعنى كلها ضروباً من المهرجين .

عرضت مسرحية ميناكمى Menaechmi تأليف بلوتوس للمرة الأولى فى إيطاليا ، وبذلك مهد السبيل لمسرحية النهضة أتم التمهيد . ولما آذن القرن الخامس عشر بالرحيل فقدت المسرحية الدينية ما كان لها من سلطان على النظارة المتعلمين فى إيطاليا ، وأخذت الموضوعات الوثنية تحل بالتدريج المطرد الزيادة محل الموضوعات الوثنية ؛ ولما أن ألف الكتاب الإيطاليون أمثال بيبنا Bibbiena ومكيڤلى ، وأريستو ، وأريتينو مسرحياتهم ، كتبوها بأسلوب بلوتوس البذىء بعيدة كل البعد عن قصص مريم والمسيح التى كانت من قبل محببة للإيطاليين ؛ وعادت إلى الظهور فى هذه المسالى الإيطالية جميع مناظر المسلاة الرومانية ، وجميع الحبكات المصطنعة السطحية التى تدور حول الأخطاء الجنسية ، أو الخطأ فى تمييز الأشخاص بعضهم من بعض ، أو فى المراتب والطبقات . وظهرت فى المسلاة كذلك جميع أنواع الشخصيات ، ومنها القوادون والعاهرات ، التى كان بلوتوس يَسُرُّ بها الطبقات الدنيا من النظارة ، وخشونة الطبقات السفلى القديمة واستهتارها .

ولم يكن للمأساة مكان ما فوق مسرح النهضة رغم احتفاظ هذا العصر بمسرحيات سنكا ، ورغم استكشاف المسرحيات اليونانية من جديد . ذلك أن أهل ذلك الوقت كانوا يفضلون المتعة والتسلية على الدرس العميق ، ولهذا كانوا ينظرون شزراً إلى مسرحية سوفونسبا Sophonisb a (١٥١٥) لجيان ترسينو Gian Trissino ومسرحية روزا مندا Rosamunda لجيوڤنى روتشلاى . وقد مثلت هذه المسرحية الأخيرة أمام ليو العاشر فى فلورنس فى ذلك العام نفسه .

وكان من سوء حظ المسلاة الإيطالية أنها تشكلت حين كانت أخلاق الإيطاليين فى الحضيض . وإن قدرة مسرحية مثل كالندرا Calanda تأليف بيبنا ، ومندراجولا Mandragola لمكيڤلى ، على إشباع رغبات الطبقات

العليا من الإيطاليين ، وملاءمتها لأذواقهم حتى فى أربينو المعروفة برقة أهلها ، وإن ممثليها أمام البابوات دون أن تثير أى احتجاج ، إن هذا وذاك ليدلاننا كيف تجتمع الحرية العقلية مع الانحطاط الخلقى . ولما قامت حركة الإصلاح المعارضة بعد انعقاد مجلس ترنت Trent (١٥٤٥ وما بعدها) ، وجه أشد النقد إلى أخلاق رجال الدين والدنيا على السواء ، ومحيت مسلاة النهضة. فلم يعد لها مكان فى تسلية المجتمع الإيطالى :

الفصل العاشر

الموسيقى

لقد كان من المظاهر التى أنقذت المسلاة الإيطالية أن الرقص التمثيلى ، والمسرحيات الصامتة ، والعزف الموسيقى الجماعى كانت تعرض كلها بين الفصول ؛ ذلك أن الموسيقى كانت عند الإيطاليين — بعد العشق — أهم أنواع التسلية والسلوى عند كل طبقة من طبقات المجتمع فى إيطاليا . يدلنا على ذلك أن منتانى وهو مسافر فى تسكانيا عام ١٥٨١ قد « أدهشه أن يرى الفلاحين وفى أيديهم الأعواد وإلى جانبهم الرعاة ينشدون قصائد أريستو عن ظهر قلب » ؛ ولكن هذا ، كما يقول بعدئذ ، « هو الذى نستطيع أن تشاهده فى جميع أنحاء إيطاليا »(٩٩) . وقد حفظ لنا فن التصوير فى عهد النهضة ألف صورة وصورة لأشخاص يعزفون على الآلات الموسيقية من الملائكة العازفين على العود عند قدمى العذراء فى كثير من الصور التى تمثل منظر التتويج ، إلى الملائكة الصغار المنشدين فى صور ميلتسو Melzzo ، إلى نشوة الرجل العازف على القيثارة فى صورة **الحفلة الموسيقية** . وما أروع صورة الغلام — الذى يصعب علينا أن نعتقد أنه هو المصور نفسه — فى وسط صورة **أعمار الإنسان الثلاثة** لسيباستيانو دل پيومبو Sebastiano del Piombo ، كذلك تنقل لنا الكتب التى ألفت فى ذلك العصر صورة لشعب يغنى أو يعزف على الآلات الموسيقية فى منزله ، وفى أثناء عمله ، وفى الشارع ، وفى المجامع الموسيقية ، وأديرة الرجال والنساء ، والكنائس ، والمواكب ، والمقنعات ، ومواكب النصر ، والاستعراض ، والمسرحيات الدينية والدنيوية ، وفى الفقرات الغنائية ، وفيما بين الفصول فى المسرحيات ، وفى الرحلات الخلوية كالتى تصورها بوكاتشيو

فى كتابه ديكمرون Decameron ، وكان الأثرياء يحتفظون فى بيوتهم بطائفة من الآلات الموسيقية المختلفة الأنواع ، وكانوا ينظمون فيها حفلات موسيقية خاصة . أما النساء فكن ينشئن النوادى لدراسة الموسيقى ولممارستها ، وقصارى القول أن إيطاليا كانت — ولا تزال — تجن جنوناً بالموسيقى .

وازدهرت الأغانى الشعبية فى كل وقت من الأوقات ، ومن هذا المعين الذى لا ينضب كانت الموسيقى العلمية تستمد من آن إلى آن ما ينعشها ويبعث الحياة فيها . فكانت النغمات الشعبية تكيف حتى تتفق مع القصائد الغزلية المعقدة ، ومع الترانيم ، وحتى مع القطع الموسيقية التى تعزف فى الكنائس فى ساعات القداس . وفى « فلورنس » ، كما يقول تشيليني ، « كان من عادة الأهلين أن يلتقوا فى الشوارع العامة فى ليالى الصيف » ليغنوا ويرقصوا[١٠٠] . وكان مغنو الشوارع أو الميادين — Cantori di Piazza — يوقعون ألحانهم الحزينة أو المرحة على أعواد جميلة ، كما كان السكان يجتمعون ليغنوا أناشيد المديح للعذراء عند أضرحتها المقامة فى الشوارع أو على جوانب الطرق ؛ وفى مدينة البندقية كانت أغانى العرس تصعد إلى قبر السماء من مئات قوارب النزهة ، أو ترتفع من حناجر العشاق الذين يتغزلون فى حبيباتهم فى ظلمات الليل على ضفاف القنوات الملتوية . ويكاد كل إيطالى فى ذلك الوقت يستطيع الغناء ، كما يكاد كل إيطالى يستطيع التغنى بعبارات بسيطة متوافقة . وقد وصلتنا مئات من هذه الأغانى الشعبية المسماة بذلك الاسم الجميل فروتولى Frottole أى الفاكهة الصغيرة ؛ وهى فى العادة قصيدة غزلية ، أهم أصواتها السپران (أعلى الأصوات) وإلى جانبه العران ، والرخيم ، والصور(*) . وبينا كان الصوت الرخيم فى القرون الخالية هو المسيطر على النغم ولذلك وصف به ، فقد أصبحت للسپران — أعلى الأصوات — السيطرة عليه فى القرن الخامس عشر ، وقد سمى بهذا

(*) أصوات موسيقية مختلفة .

الاسم Soprano لأن علاماته الموسيقية كانت تكتب فوق سائر العلامات ؛ ولم يكن هذا الجزء من الغناء فى حاجة إلى صوت النساء ، فقد كان كثيراً ما يغنيه غلام أو كان هو الصوت النشاز falsetto من رجل كهل (ولم يظهر الغلمان المخصيون بين المنشدين لدى البابوات قبل عام ١٥٦٢)[١٠١] .

وكان قدر كبير من العلم بالموسيقى يطلب إلى أفراد الطبقة المتعلمة ، فكان كستجليونى مثلا يتطلب إلى رسوله أو رجله المهذب أن يكون من هواة الموسيقى وأن يبرع فيها إلى حد ما لأنها « لا تجعل عقول الرجال حلوة فحسب ، بل إنها فى كثير من الأحيان تبدل الوحوش إلى حيوانات مستأنسة أليفة »[١٠٢] . وكان ينتظر من كل شخص مثقف أن يقرأ الموسيقى البسيطة بمجرد النظر إليها ، وأن يعزف على آلة ما وهو يغنى ، وأن يشترك فى أية حفلة موسيقية دون سابق استعداد[١٠٣] . وكان الأهالى فى بعض الأحيان يقيمون حفلات تجمع بين الغناء ، والرقص ، والعزف على الآلات الموسيقية . وكانت الجامعات بعد عام ١٤٠٠ تقدم للطلاب برامج موسيقية وتمنح فيها درجات علمية ؛ وكان فى إيطاليا مئات من المجامع الموسيقية ؛ وأسس ڤتورينو دا فلترى حوالى عام ١٤٢٥ مدرسة لتعليم الموسيقى فى مانتوا ؛ ولفظ كنسرڤتورى Conservatory الذى يطلق على المعاهد الموسيقية فى هذه الأيام يرجع فى الأصل إلى لفظ كنسرڤتورى (Conservatori) أى الملاجئ ، لأن الملاجئ فى نابلى كانت تتخذ أيضاً مدارس لتعليم الموسيقى[١٠٤] . وكان مما ساعد على انتشار الموسيقى غير ما سبق استخدام فن الطباعة فى طبع العلامات الموسيقية ؛ فقد حدث حوالى عام ١٤٧٦ أن طبع ألريخ هاهن Ulrich Hahn فى رومة كتاباً كاملا للصلوات بالعلامات الموسيقية المتنقلة والسطور ؛ وفى عام ١٥٠١ بدأ أتاڤيانو ده پيتروتشى Ottaviano Petrucci فى البندقية أعمال الطباعة التجارية للأناشيد الدينية » والفاكهة الصغيرة » .

وفى بلاط الملك والأمراء كانت الموسيقى أبرز الفنون عدا فنون الزينة

الشخصية والأناقة . فقد كان الحاكم يختار عادة كنيسة محببة له ، ويجعل المرنمين فيها موضع عنايته ، وينفق المال بسخاء ليجذب إليها أجمل الأصوات وأحسن الآلات من إيطاليا ، وفرنسا ، وبرغندية ، فكان يدرب المغنين الجدد منذ طفولتهم كما فعل فيدريجو فى أربينو ، وكان ينتظر من أفراد المرنمين أن يقيموا للدولة حفلات غنائية ولبلاطه أعياداً من حين إلى حين . وقد ظل جويوم دوفاى Guillaume Dufay من أهل برغندية يشرف على الموسيقى فى قصور آل مالاتستا فى ريمينى وبزارو وفى معبد البابا فى رومة نحو ربع قرن (١٤١٩ — ١٤٤٤) . ونظم جالياتسو ماريا اسفوردسا Galeazzo Maria Sforzo حوالى عام ١٤٦٠ جماعتين من المرنمين الدينيين ، وجاء إليهم من فرنسا بجوسكان دبريه Josquin Deprès الذى كان وقتئذ أشهر المؤلفين جميعاً فى أوربا الغربية . ولما احتفى لودفيكو اسفوردسا بليوناردو فى ميلان كان احتفاؤه به بوصفه موسيقياً ؛ ومما هو جدير بالملاحظة أن ليوناردو اصطحب معه فى سفره من فلورنس إلى ميلان أطلانطى مجليورُتى Atlante Migliorotti وهو موسيقى ذائع الصيت وصانع آلات موسيقية . وأشهر من أطلانطى هذا فى صناعة القيثارة ، والعود ، والأرغن ، والبيان البدائى ، لورندسو جوسناسكو Lorenzo Gusnasco من أهل بافيا الذى اتخذ ميلان كغيرها من المدن موطناً له . وكان بلاط لودفيكو يموج بالمغنين نذكر منهم نارتشسو Narcisso وتبستاجرسا Testagrossa وكوردير Cordier من أهل فلاندرز ، وكوستوفورو رومانو Cristoforo Romano الذى أحبته بيتريس حباً طاهراً عفيفا . وكان بدرو ماريا Pedro Maria الأسبانى يقود الحفلات الموسيقية فى القصر وحفلات الجماهير ، وأنشأ فرنكشينو جافورى Franchino Gaffuri مدرسة خاصة ذائعة الصيت فى ميلان واشتغل فيها بتعليم الموسيقى . وكانت إزبلا دست مرلعة أشد الولع بالموسيقى ؛ واتخذتها أهم موضوع لزخرفة حجرتها الداخلية الخاصة ،

وكانت هي نفسها تعزف على عدة آلات . ولما أن أمرت بإحضار بيان بدائي من لورندسو جوسناسكو اشترطت أن تستجيب لوحة المفاتيح للمس الخفيف ، « لأن يديها رقيقتان إلى حد لا تستطيع معه أن تجيد العزف إذا كانت المفاتيح جامدة »(١٠٥) . وكان يعيش في بلاطها أشهر عازف على العودة في زمانه ، وهو ماركتوكارا Marchetto Cara ، كما كان يعيش فيه بارتولميو ترمبيو نتشينو Bartolomeo Tromboncino الذي ألف أغاني غزلية بلغ من روعتها وإعجاب الناس بها وبه أنه حين قتل زوجته الخائنة ، لم يوقع عليه عقاب ما ومرت المسألة كأنها خلاف لا يلبث أن يزول .

وآخر ما نذكره من هذا القبيل أن الموسيقى كانت تتردد أصداؤها في الكندرائيات والكنائس وفي أديرة الرجال والنساء ؛ وكانت الراهبات في البندقية ، وبولونيا ، ونابلي ، وميلان ينشدن في صلوات المساء ترانيم يبلغ من تأثيرها أن الجموع كانت تهرع من كافة الأنحاء لسماعها . وقد نظم سكستس الرابع جوقة المرنمين في معبد سستيني ، وأضاف يوليوس الثاني إلى المرنمين في كنيسة القديس بطرس جوقة خاصة منهم تدرب المغنين وتعدهم للانضمام لمرنمي معبد سستيني . وكان هذا ذروة الموسيقى في العالم اللاتيني في عهد النهضة . وأقبل على هذه الجماعة أعظم المغنين من جميع البلاد التي تدين بالمذهب الكاثوليكي الروماني . وكان الغناء البسيط لا يزال هو الذي يفرضه القانون على الموسيقى الكنسية ، ولكن الفن الجديد Ars nova الفرنسي — وهو فن معتمد معارض له — كان يتسلل إلى جماعات المرنمين في الكنائس الرومانية ويمهد السبيل لپاليسترينا Palestrina وڤيكتوريا . وكان الاعتقاد السائد في وقت من الأوقات أن ليس من الكرامة أن يصحب الترنيم في الكنيسة من الآلات الموسيقية إلا الأرغن ، ولكن عدداً من الآلات المختلفة أدخل إلى الكنائس في القرن السادس عشر لكي تخلع على الموسيقى الكنسية بعض الروعة والجمال اللذين تمتاز بهما الموسيقى غير الدينية . وظل الأستاذ الفلمنكي أدريان

ولا إيرت Adrian Willaert من أهـــل بروج Bruges . يرأس فرقة المرنمين فى كنيسة القديس مرقص بالبندقية خمسة وثلاثين عاماً درب أفرادها فيها تدريباً حسدتهم عليه رومة . وفى فلورنس نظم أنطونيو اسكوارتشيا بولى مدرسة موسيقية كان لورندسو عضواً فيها . وظل أنطونيو جيلا كاملا يسيطر على فرقة المرنمين فى الكتدرائية العظيمة تردد النغمات التى أسكتت صوت كل شك فلسفى . يدلنا على ذلك أن ليون بانستا ألبرتى Leon Battista Alberti كان من المتشككين حتى إذا غنت الفرقة صدق وآمن وقال :

« إن جميع أنواع الغناء الأخرى تمل بالتكرار ، أما الموسيقى الدينية وحدها فلا تمل . ولست أعلم مبلغ تأثر غيرى بهذه النغمات ، أما أنا فإن هذه الترانيم والمزامير التى أستمع إليها فى الكنيسة تحدث فىّ ذلك الأثر الذى وضعت من أجله ، فتهدئ من جميع اضطراباتى النفسية ، وتبعث فىّ شيئاً من الفتور الذى تعجز الألفاظ عن وصفه ، وتملأ قلبى إجلالا للخالق جل وعلا . وأى قلب قد بلغ من القسوة درجة لا يلين معها إذا سمع ذلك الارتفاع والانخفاض المتزن المتناسق فى الأصوات الكاملة الحقة بتلك النغمات العذبة اللينة ؟ وأؤكد لكم أنى ما استمعت فقط . . . إلى اللفظين اليونانيين كيرى إليسون (ارحمنا يارب) اللذين يدعوان الله إلى أن يقينا شر بؤسنا البشرى إلا انهمر الدمع من عينى . . وفى تلك اللحظة أفكر كذلك فى مبلغ ما للموسيقى من قدرة على تهدئتنا والترفيه عنا »(١٠٦) .

بيد أن الموسيقى ، رغم هذا الانتشار الواسع ، كانت هى الفن الوحيد الذى تأخرت فيه إيطاليا عن فرنسا فى الجزء الأكبر من عهد النهضة . ذلك أن إيطاليا قد أثر فيها انتقال البابوات إلى أفنيون فحرمها من الموارد المالية البابوية ، ولم يكن بلاط الأمراء المستبدين فى القرن الرابع عشر قد بلغ درجة كبيرة من النضوج الثقافى ، ومن أجل هذا كان يعوزها المال والروح اللذان لا غنى عنهما للدرجات العليا من الموسيقى . نعم إنها أخرجت أغانى

غزلية جميلة (يسمونها مدرجال Madrigal وهى كلمة لا يعرف اشتقاقها على وجه التحقيق) ، ولكن هذه الأغانى التى صيغت على غرار أغانى شعراء الفروسية الغزلين البروفنساليين كانت تلحن تلحيناً جامداً منتظماً متعدد النغمات فلم تلبث أن قضى عليها جمودها .

وكان فخر الموسيقى فى القرن الرابع عشر فى إيطاليا هو فرانتشيسكو لنديني Francesco Landini ، العازف على الأرغن ولسان لورندسو فى فلورنس . وقد فقد هذا الفنان بصره منذ طفولته ، ولكنه أصبح رغم ذلك أظرف الموسيقيين وأحبهم إلى الشعب فى زمنه ، وقد برع فى العزف على الأرغن ، والعود ، وفى تأليف الأغانى ، وقول الشعر ، وفى الفلسفة . ولكن هذا الرجل نفسه أخذ الفن أولا عن فرنسا ، فقد طبق فى قطعه الموسيقية الدنيوية التى ألفها ، والبالغ عددها مائتى قطعة ، الفن الجديد الذى استهوى فرنسا قبل تلك الأيام بجيل من الزمان . وكان هذا « الفن الجديد » جديداً جدة مزدوجة : فقد قبل الإيقاع الثنائى كما قبل التوقيت الثلاثى الذى كانت تتطلبه من قبل موسيقى الكنائس ، وابتكرت له علامات موسيقية كثيرة التعقيد والمرونة . ووجه البابا يوحنا الثانى والعشرون الذى كان يصب صواعقه فى جميع الاتجاهات ، وجه هذا البابا إحدى تلك الصواعق على الفن الجديد ورماه بأنه خيال ووهم ومنحط ، وكان لتحريمه إياه بعض الأثر فى الحيلولة دون تقدم الموسيقى فى إيطاليا . على أن يوحنا الثانى والعشرين لم يكن مخلداً ، وإن كان قد بدا للناس فى بعض الأوقات أن هذا قد يكون ؛ فلما قضى نحبه فى سن التسعين (١٣٣٤) ، إنتصر الفن الجديد فى موسيقى فرنسا ، وأعقب هذا انتصاره أيضاً فى إيطاليا .

وكان المغنون والمؤلفون الفرنسيون والفلمنكيون يؤلفون فرق المرتلين البابوية فى أفنيون . فلما أن عادت البابوية إلى رومة جاءت معها بعدد كبير من المؤلفين والمغنين الفرنسيين ، والفلمنكيين ، والهولنديين ، وظل هؤلاء

الموسيقيون الأجانب وخلفاؤهم قرناً من الزمان المسيطرين على الموسيقى الإيطالية : وظل المغنون فى الفرق البابوية حتى زمن سكستس الرابع يفدون إلى إيطاليا من وراء جبال الألب ، كذلك سيطرت الأصوات الأجنبية على موسيقى البلاط فى القرن الخامس عشر . من ذلك أنه لما مات اسكوارتشيالونى Squarcialuni (حوالى عام ١٤٧٥) اختار لورندسو رجلا هولندياً هو هنريخ اسحق Henrich Ysaac ليخلفه فى العزف على الأرغن بكتدرائية فلورنس . وكان هنريخ هو الذى وضع الألحان الموسيقية لبعض أغانى المساخر ، ولبعض أغانى بولتيان ، وهو الذى علم الرجل الذى أصبح فيما بعد ليو العاشر أن يحب الأغانى الفرنسية — بل أن يؤلف بعضها[١٠٧] . وظلت الأغانى الفرنسية وقتاً ما تغنى فى إيطاليا ، كما كانت قصائد شعراء الفروسية الغزولين تغنى فيها وقتاً ما .

وأثمر غزو الموسيقيين الفرنسيين فى إيطاليا ، وهو الذى سبق غزو الجيوش الفرنسية إياها بقرن من الزمان ، أثمر حوالى عام ١٥٢٠ انقلاباً تاماً فى الموسيقى الإيطالية . ذلك أن أولئك الرجال القادمين من الشمال — والإيطاليين الذين دربوا على أيديهم — قد انغمروا فى فيض الفن الجديد واستخدموه فى تلحين الشعر الغنائى الإيطالى . وقد وجد هؤلاء عند بترارك ، وأريستو ، وستادسارو ، وبمبو — كما وجدوا بعدئذ فى تاسو وجواريني — شعراً مطرباً يتحرق شوقاً للموسيقى . ألم يكن الشعر فى الواقع يتطلب على الدوام أن يتلى إذا لم يكن يتطلب أن يغنى ؟ وكانت مقطوعات بترارك قد أغوت من قبل الموسيقيين ، أما الآن فقد لحن كل بيت منها ، ولحن بعض مقطوعاتها اثنتى عشرة مرة أو أكثر ، حتى لقد أصبح بترارك أكثر من لُحِّن له من الشعراء فى الأدب العالمى . ولقد كانت هناك أغان صغيرة لا يعرف مؤلفوها ، ولكنها تعبر عن عواطف ساذجة ذات حيوية تمس شغاف كل قلب ، وتنادى أوتار كل آلة . انظر مثلا إلى هذه الأغنية :

أبصرت فتيات حساناً يتفيأن ظلال أشجار الصيف ،
ينسجن تيجاناً براقة وهن ينشدن أغانى الحب بصوت خفيض ،
وتستعير كل واحدة منهن من أختها أوراق الأشجار وأزهارها :
وفى خلال هذه الأخوة العذبة حولت
أجملهن عينيها الناعستين نحوى وهمست قائلة : « خذ ! »
ووقفت مشدوها حائرا فى الحب لم أنبس ببنت شفة ،
لكنها قرأت ما تنطوى عليه جوانحى وناولتنى تاجها الجميل ؛
فأصبحت من أجل ذلك خادمها حتى الممات(١٠٨) .

وطبق المؤلفون على هذه الأشعار الموسيقى الدينية الكاملة المعقدة الكثيرة الأنغام ذات الأربعة الأصوات — التى يغنيها أربعة أو ثمانية — المتساوية القيمة التى تخضع فيها ثلاثة أصوات لصوت واحد . وجميع هذه النغمات المعقدة الدقيقة المتسلسلة تجمع الأصوات الأربعة المستقلة فى نغم متوافق متآلف . . وهكذا نشأت أغنية الحب فى القرن السادس عشر فكانت من أينع أزاهير الفن الإيطالى ، وبينا كانت الموسيقى فى أيام دانتى خادمة للشعر ، أضحت الآن بعد أن اكتمل نماؤها شريكة له على قدم المساواة ، لا تخفى فيها الألفاظ ، ولا تختفى فيها العواطف بل تجمع بين هذه وتلك فى ألحان تزيد من قدرتها على استثارة النفس ، فى الوقت الذى تبعث بمهارتها الفنية أسباب البهجة فى عقول المتعلمين .

ووجه المؤلفون العظام فى إيطاليا أثناء القرن التاسع عشر ، بما فيهم باليسترينا نفسه ، وجهوا كلهم تقريباً فنهم من آن إلى آن إلى القصائد الغزلية . ويتنازع فيليب ڤيرديلو Philippe Verdelot ، وهو رجل فرنسى عاش فى إيطاليا ، وقسطندسا فيستا Qoatanza Festa الإيطالى الموطن ، شرف الأسبقية فى تنمية هذه الصور الجديدة من صور الشعر بين عامى ١٥٢٠ و ١٥٣٠ . ثم جاء بعدهم بزمن قليل أركادلت Arcadelt وهو رجل فلمنكى

كان يعيش فى رومة ، وذكره ربليه فى كتاباته(١٠٩) . وفى البندقية أعفى أدريان ولايرت Adrian Willaert من واجباته بوصفه رئيس فرقة المرنمين فى كنيسة سان ماركو لكى يؤلف أجمل قصائد الغزل فى أيامه .

وكانت القصيدة الغزلية تغنى عادة دون أن يصحبها عزف موسيقى على الآلات . نعم إن الآلات الموسيقية كان يخطئها الحصر . ولكن ما من واحدة منها ، سوى الأرغن وحده ، كانت تجرؤ على أن تنافس الصوت الآدمى . ولقد نشأت موسيقى الآلات نشأة بطيئة فى أوائل القرن السادس عشر ، وكانت نشأتها من صيغ موسيقية وضعت أولا للرقص أو الغناء الجماعى ؛ وهكذا نشأ البوان والسلطاريل والسرنيد(*) نشأة تدريجية من الرقص المصاحب للغناء مع الآلات مفردة أو مجمعة ، وأصبحت موسيقى الغزل التى تعزف دون غناء هى الكانزونى التى نشأت منها السوناته بعد زمن طويل(١١٠) ، ومن ثم كانت هى منشأ السمفونية .

وكان الأرغن فى القرن الرابع عشر قد وصل فى تطوره ورقيه الدرجة التى هو عليها الآن تقريباً ، فقد ظهرت لوحته الدواسة فى ألمانيا والبلاد الوطيئة فى ذلك العهد ، وسرعان ما أدخلت فى فرنسا وأسبانيا ، أما إيطاليا فقد تأخرت فى قبولها حتى القرن السادس عشر . وكانت الكثرة الغالبة من الأراغن قد أصبح لها قبل ذلك الوقت لوحتان أو ثلاث لوحات من المفاتيح وعدد مختلف من الوقفات والأجهزة التى يمكن بها استخدام عدة مفاتيح فى وقت واحد . وكانت الأراغن الكبرى فى الكنائس تحفاً فنية فى حد ذاتها يقوم الأساتذة العظام بتصميمها ، وحفرها ، ونقشها . كذلك سرى حب الجمال فى الشكل إلى غير الأرغن من الآلات الموسيقية ، فالعود مثلا — وهو آلة البيت المحببة — كان يصنع من الخشب والعاج ، ويتخذ شكل الكمثرى ، وتخرق فيه ثقوب الصوت فى نظام جميل . وكانت لوحة الأصابع فيه تقسم بنقوش من الفضة أو الشبة ، وتنتهى بصندوق للأوتاد يصنع زاوية

(١) كلها ضروب من الرقص وموسيقاه .

خادة مع عنقه . وكانت فتاة جميلة تجذب أوتار العود الذى تحنو عليه فى حجرها فتتكون منه ومنها صورة جميلة يهوى إليها قلب كل إيطالى حساس وكان الكثير من الآلات الموسيقية التى يعزف عليها بالأصابع هى الأخرى محببة جميلة .

أما الذين يفضلون العزف بالوتر على العزف بالأصابيع فكان لهم أنواع مختلفة من الكمان الذى يمسك على الذراع والذى يتكئ على الساق . وقد تطور النوع الثانى حتى أصبح هو الكمان الجهير وأصبح الأول فى عام ١٥٤٠ هو الكمان الصغير . وكانت آلات النفخ أقل انتشاراً من الآلات الوترية ، ذلك أن عصر النهضة كان يبغض الموسيقى التى تحدث بانتفاخ الخدود كما كان يبغضها ألقبيادس اليونانى ؛ ومع هذا فقد وجد الناى ، والفيف ، والقربة ، والبوق ، والقرن ، والصافرة ، والشون ، والمزمار . وأضافت آلات الطرْق — الطبلة ، والدف ، والصنوج ، والطنبور والصنوج الصغيرة التى تستعملها الراقصات — أضافت هذه الآلات ضجيجها إلى العازفين والسامعين . وكانت جميع الآلات الموسيقية فى عصر النهضة شرقية الأصل ما عدا لوحة المفاتيح التى أضيفت إلى غير الأرغن من الآلات للدق على الأوتار أو جذبها بطريقة غير مباشرة . وأقدم هذه الآلات ذات لوحات المفاتيح هو البيان البدائى المسمى كلاڤيكور Clavirchord (ومعنى كلافس هو المفتاح) ؛ وقد ظهرت هذه الآلة فى القرن الثانى عشر ، وكان للعاطفة شأن فى بعثها من جديد فى أيام باخ Bach ؛ وكانت أوتارها تدق بملامس نحاسية صغيرة تحركها المفاتيح . ثم حلت محلها فى القرن السادس عشر آلة الكلاڤيتشمبالو Clavicembalo التى كانت أوتارها تجذب بريشة أو قطعة من الجلد متصلة برافعات خشبية ترتفع إذا ما ضغط على المفاتيح . وقد اتخذت هذه الآلة فى إنجلترا وإيطاليا صورتين مختلفتين سميت فى الأولى ڤيرجنال Viriginal وفى الثانية الاسپينت Spinet .

وكانت هذه الآلات كلها حتى ذلك الوقت أقل شأناً من الصوت

الآدمى ، ولذلك كان جميع الفنانين الفارهين فى عصر النهضة مغنين . لكننا نسمع فى وقت تعميد ألفنسو صاحب فيرارا فى عام ١٤٧٦ عن حفل فى قصر اسكفانيو Schifanio كانت فيه حفلة موسيقية اشترك فيها مائة من النافخين فى الأبواق والزمارين والضاربين على الطنبور . وفى القرن السادس استخدم مجلس السيادة فى فلورنس فرقة منتظمة من الموسيقيين كان منها تشليني . وكانت عدة آلات يعزف عليها فى ذلك العهد مجتمعة ، ولكن هذا النوع من الحفلات قد اختصت به القلة الأرستقراطية . أما العزف المفرد على الآلات فقد كان شائعاً إلى حد يشبه الجنون ، فلم يكن الناس يؤمون الكنائس للصلاة على الدوام ، بل كانوا يؤمونها فى كثير من الأحيان ليستمعوا إلى عازف شهير على الأرغن مثل اسكوارتشيا لوبى أو أوركانيا Orcagna . ولما أن عزف بيتروبونو Pietro Bono على العود فى بلاط بورسو بفيرارا طارت أرواح المستمعين ، على حد قولهم ، من هذه الدار إلى الدار الآخرة(١١٠) . وكان كبار العازفين من أسعد الناس وأحبهم إلى القلوب فى تلك الأيام ، ولم يكونوا يطلبون لأنفسهم حسن السمعة ممن يخلفونهم بل كانوا يحصلون على كل ما يطمعون فيه من الشهرة قبل مماتهم .

أما النظريات فى الموسيقى فقد تأخرت عن الأعمال بنحو جيل : ذلك أن العازفين كانوا يجددون ، أما الأساتذة فكانوا يرفضون ، ثم يجادلون ، ثم يوافقون . وفى هذه الأثناء صيغت مبادى الكرصته(*) ، والنغمات المتعددة المشتركة ، والتسلسل الموسيقى ، لكى يسهل تعليم الموسيقى وانتقالها . لهذا لم تكن أعظم السمات الموسيقية فى عصر النهضة هى النظريات ، بل لم تكن التقدم الفنى للموسيقى ، بل كانت استحالتها من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ، ولهذا لم تعد الموسيقى الدينية فى القرن السادس عشر هى التى تقدمت ، وأجريت عليها التجارب ، بل كان الذى تقدم وجرب هو موسيقى القصائد

(*) كثرة الأصوات وهو لفظ منحوت Polyphone . (المترجم)

الغزلية وموسيقى البلاط . ذلك أن الموسيقى الإيطالية فى القرن السادس عشر خرجت من سيطرة الكنيسة كما خرج الأدب والفلسفة من هذه السيطرة ، وانعكست عليها السمات الوثنية لفن النهضة وما كان فيها من انحلال خلقى ، وأخذت الموسيقى تبحث عن إلهام لها فى شعر الحب وانتهى النزاع القديم بين الدين والجنس إلى وقت ما بانتصار الحب . وذلك انقضى عصر العذراء وبدأ سلطان المرأة ، ولكن الموسيقى فى كليهما كانت خادمة الملكة والمؤتمرة بأمرها .

الفصل الحادى عشر

نظرة شاملة

ترى هل كانت أخلاق إيطاليا فى عصر النهضة أسوأ من أخلاق غيرها من البلاد أو العصور؟ إن المقارنة لمن الأمور العسيرة ، لأن الشواهد كلها محض اختيار . فعصر ألقبيادس فى أثينة مثلا يكشف عن كثير مما فى عصر النهضة من فساد فى العلاقات الجنسية والمماحكات السياسية ، ففيه أيضا كان يحدث الإجهاض على نطاق واسع ، وفيه اتسع المجال للعاهرات المثقفات المتأدبات ؛ وفيه أيضاً تحررت العقول والغرائز فى وقت واحد ، وفيه استبق السوفسطائيون أمثال شرازيبولوس فى جمهورية أفلاطون مكيفلى إلى مهاجمة الفضائل ووصفوها بأنها من سمات الضعف ، ولربما كان العنف الفردى فى بلاد اليونان القديمة أقل منه فى إيطاليا على عهد النهضة ، كما كان الفساد فى الدين والسياسة عند اليونان أقل بعض الشىء منه فى إيطاليا (ونقول ربما عامدين لأنا فى هذه المسائل إنما نعتمد على ما ينطبع فى عقولنا لا على ما نجزم به واثقين) . وكذلك الحال فى أيام الرومان الأقدمين ؛ فنى قرن كامل فى تاريخ الرومان — من عهد قيصر إلى عهد نيرون — نجد الفساد فى الحكم ، والانحلال فى عقدة الزواج أكثر منهما فى عهد النهضة ؛ ولكن كثيراً من الفضائل الرواقية قد بقى فى أخلاق الرومان حتى فى ذلك العصر الفاسد نفسه ، فقد كان قيصر ، رغم ما يتصف به من قدرة على الجمع بين الضدين فى الرشوة والحب ، أعظم القواد فى أمة كل رجالها قواد عظام .

وكانت النزعة الانفرادية فى عصر النهضة ناحية أخرى من نواحى حيويتها ونشاطها ، ولكنها لا تضارع فى الناحيتين الخلقية والسياسية ما كانت عليه النزعة الاستقلالية فى مدن العصور الوسطى ، وأكبر الظن أن الخداع والغدر

والجريمة لم تكن فى فرنسا ، وألمانيا وإنجلترا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أقل مما كانت فى إيطاليا ؛ ولكن هذه الأقطار قد أوتيت من الحكمة والحصافة ما حال بينها وبين إخراج رجل مثل مكيفلى لينشر مبادىء فنها السياسى ويعرضه على الأنظار . لقد كانت العادات والآداب العامة لا المبادئ الأخلاقية أكثر فظاظة وغلظة فى شمال جبال الألب منها فى جنوبها ، إذا استثنينا من هذا الحكم طبقة صغيرة فى فرنسا — يمثلها الفارس الشهم بايار Bayard وجاستن ده فوا Gaston de Foix — كانت لا تزال تحتفظ بالناحية الطيبة من نظام الفروسية . لكن الفرنسيين إذا ما أتيحت لهم الفرص التى أتيحت للإيطاليين لم يكونوا أقل منهم انهماكاً فى الزنا ؛ وما على القارئ إلا أن يتذكر كيف انتشر داء الزهرى بينهم انتشاراً سريعاً ، أو أن يلاحظ الاختلاط الجنسى التى تصفه لنا الأساطير الشعرية ، أو يحصى العاشقات الأربع والعشرين اللاتى كان يستمتع بهن فليب دوق برغندية ، ويتذكر أنييه سورل Agnel Sorels وديان ده بواتييه Dianes de Poitiers من حاشية ملوك فرنسا ؛ أو فليقرأ ما كتبه فى ذلك برانتوم Brantome ..

وإذا كانت ألمانيا وإنجلترا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تضارعا إيطاليا فى الفساد الخلقى فقد كان منشأ ذلك فقر هذين البلدين . ولهذا فإن من جاءوا منهما إلى إيطاليا قد ذهلوا ممـــا شاهدوا فى الحياة الإيطالية من انحلال فى الأخلاق . ولما زار لوثر إيطاليا فى عام ١٥١١ قال من فوره إنه « إذا كان هناك جحيم ، فإن رومة قد بنيت من فوقه ؛ وهذا ما سمعته فى رومة نفسها »(١١١) . وليس منا من لم يعرف الحكم الصارم الذى نطق به فى ذهوله روجر آسكم Roger Ascham العالم الإنجليزى الذى زار إيطاليا حوالى عام ١٥٥٠ :

« لقد كنت يوماً ما فى إيطاليا نفسها ، ولكنى أحمد الله إذ لم أقم فيها إلا تسعة أيام ؛ ومع هذا فإنى شاهدت فى هذا الزمن القصير ، وفى مدينة

واحدة ، من الانغماس فى الذنوب والتحرر من قيود الأخلاق أكثر مما سمعته يقال فى تسعة أيام عن بلدتنا النبيلة لندن . لقد رأيت هناك أن فى مقدور المرء أن يرتكب الخطايا دون أن يتعرض للعقاب ودون أن يهتم بخطاياه أى إنسان ، وقد أوتى من الحرية فى ارتكابها بقدر ما أوتى ساكن لندن من حرية فى أن يختار دون لوم أن يلبس حذاء أو خفاً(١١٢) .

وهو يورد من الأمثال السائرة قولهم « إن الإنجليزى المتطلين هو الشيطان المجسد » .

وإنا لنعرف عن فساد إيطاليا أكثر مما نعرفه عن فساد ما وراء الألب لأنا نعرف عن الأولى أكثر مما نعرف عن الثانية ، ولأن غير رجال الدين من الإيطاليين لم يحاولوا قط أن يخفوا فسادهم ، بل إنهم فى بعض الأحيان ألفوا الكتب للدفاع عن هذا الفساد . على أننا نعود فنقول إن مكيفلى الذى ألف كتاباً من هذا النوع كان يرى أن إيطاليا « أكثر فساد من كل ما عداها من الأقطار ، ثم يليها فى ذلك الفرنسيون ثم الأسبان »(١١٣) . وكان يعجب بالألمان والسويسريين ويقول إنهم لا يزالون يتصفون بكثير من فضائل الرجولة التى كانت لأهل رومة القديمة . وفى وسعنا أن نقول بشىء من الحذر والتردد إن إيطاليا كانت أكثر من غيرها فساداً لأنها كانت أكثر ثراء ، وأضعف حكما ، وأقل خضوعا لسلطان القانون ، وإنها كانت أكثر رقيا فى ذلك التطور الذهنى الذى يؤدى فى العادة إلى التحلل من القيود الأخلاقية .

ولقد بذل الإيطاليون جهوداً مشكورة فى مقاومة ذلك الانحلال . وكانت أقل هذه الجهود ثمرة هى قواعد النفقات التى وضعت فى الدول الإيطالية كلها تقريبا والتى كانت تحرم الإسراف فى الإنفاق على الملابس المتبهرجة ، غير ما كان يتصف به الرجال والنساء من زهو وخيلاء كان أقوى من قوة القانون . وكان البابوات يندِّدون بالفساد الخلقى ، ولكن

التيار القوى كان يجرفهم معه فى بعض الأحيان ، وكانت المحاولات التى يبذلونها لإصلاح مفاسد الكنيسة يحول دون نجاحها عدم رغبة الكهنة فى الإقلاع عن عاداتهم السيئة أو محافظتهم على مصالحهم المكتسبة . على أنهم هم أنفسهم لم يبلغوا من الفساد المبلغ الذى يصورهم به المؤرخون المغالون ، غير أنهم كانوا أكثر اهتماماً بإعادة سلطان البابوية السياسى منهم بإعادة صلاح الكنيسة الأخلاقى . وفى ذلك يقول جوتشياردينى : « إن الحبر الأعظم ليوصف بالصلاح ويمتدح إذا لم يكن أكثر شراً من غيره من الناس »(١١٤) . ولقد بذل وعاظ ذلك العصر العظام جهوداً جبارة لإصلاح ذلك الفساد ؛ ونذكر منهم على سبيل المثال القديس برناردينو السينائى ، وروبيرتو دا لتشو Roberto da Lecce ، وسان چيوڤنى دا كاپستراتوا ، وسفنرولا . ولقد كانت عظاتهم ، وكان مستمعوهم ، جزءاً من لون ذلك العصر وطبيعته . فقد كانوا يندوون بالرذيلة بأقوال مفصلة واضحة ، أذاعت بين الناس شهرتهم وجذبت إليهم القلوب ؛ وقد أقنعوا رجال الإقطاع بالتخلى عن عادة الأخذ بالثأر ، وبالعيش فى وئام وسلام ، وحملوا الحكومات على أن تطلق سراح المدينين المفلسين ، وتسمح للمنفيين بأن يعودوا إلى أوطانهم آمنين ؛ وعادوا بالآثمين الذين قست قلوبهم من الذنوب إلى ما أهملوه من الصلاة ومن مراعاة لقواعد الدين .

غير أن هؤلاء الوعاظ الأقوياء أنفسهم قد أخفقوا فيما كانوا يبتغون ؛ فقد عادت إلى الظهور تلك الغرائز التى تكونت خلال مائة ألف عام قضاها الإنسان صياداً متوحشاً ، حين خرجت من قشرة الأخلاق التى تشققت بعد أن فقدت تأييد العقيدة الدينية واحترام السلطة العليا والقانون الثابت المقرر . ولم يعد فى مقدور الكنيسة التى كانت من قبل تحكم الملوك أن تحكم أو تطهر نفسها . وكان انهيار الحرية السياسية فى دولة إثر دولة قد ثلم حدة الشعور الوطنى الذى بث روح الحرية والنبل فى حكومات مدن العصور الوسطى

المستقلة ؛ فلم نعد نرى إلا أفراداً بعد أن كنا نرى مواطنين . ووجد أولئك الأفراد أنفسهم محرومين من الاشتراك فى حكم بلادهم ، وبأيديهم ثروة ضخمة ، فاتجهوا إلى طلب اللذات ، حتى إذا دهمهم الغزو الأجنبى وجدهم فى أحضان العاهرات. وقد ظلت دول المدن قرنين من الزمان توجه قواتها ، وحذقها ، ودهاءها ، وغدرها ، بعضها نحو بعض ، حتى أصبح مستحيلا عليها أن تضم شملها للوقوف أمام عدو لها مشترك . ولما أخفق الوعاظ أمثال سفنرولا فى كل ما لجأوا إليه من وسائل لإصلاح الحال ، أخذوا يدعون الله ليصب جام غضبه على إيطاليا ، وتنبأوا بأن رومة سيحيق بها الخراب ، وأن الكنيسة ستتحطم وتتبدد(١١٥) . وملت فرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا إرسال الخراج لسد نفقات الحروب التى تشنها الولايات البابوية ، وتمكين الإيطاليين من أن يحيوا حياتهم المترفة ، وأخذوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى شبه الجزيرة التى فقدت إرادتها وجردت من سلطانها ، والتى تستهوى القلوب بجمالها وثرائها . وتجمعت الطيور الجارحة وأخذت تحلق فى سماء إيطاليا توشك أن تنقض عليها لتشبع منها نهمها .

الباب الحادى والعشرون

الانهيار السياسى

١٤٩٤ - ١٥٣٤

الفصل الأول

فرنسا تكشف إيطاليا ١٤٩٤ - ١٤٩٥

نعود بالقارئ إلى الموقف فى إيطاليا فى عام ١٤٩٤ . لقد نشأت قبل ذلك العام دول المدن بفضل قيام طبقة وسطى من السكان أثرت من اشتغالها بأعمال التجارة والصناعة التى اتسع نطاقها . وكانت هذه المدن قد فقدت استقلالها الذاتى وحريتها لعجز حكوماتها شبه الدمقراطية عن حفظ النظام بسبب التقاتل بين الأسر والنزاع بين الطبقات . وبقيت اقتصادياتها محلية فى تكوينها حتى فى الوقت الذى وصلت فيه أساطيلها وغلاتها إلى الثغور النائية ، وكان بعضها ينافس البعض الآخر أشد مما ينافس الدول الأجنبية ، ولم تضم فى يوم ما صفوفها لتقاوم مجتمعة توسع الفرنسيين ، والألمان ، والأسبان التجارى فى الأقاليم التى كانت تسيطر عليها المدن الإيطالية من قبل . ومع أن إيطاليا هى التى أنجبت الرجل الذى أعاد كشف أمريكا ، فإن أسبانيا هى التى أمدته بالمال ؛ واقتفت التجارة خطاه ، وصحب الذهب عودته ، وازدهرت الأمم الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى ، ولم يعد البحر المتوسط الموطن المحبب لحياة الرجل الأبيض الاقتصادية ؛ وأخذت البرتغال تسير السفن إلى

الهند والصين حول قارة إفريقية ، وتتجنب العراقيل التى توضع فى طريقها فى بلاد الشرق الأدنى والأوسط ؛ وحتى الألمان أخذوا يسيرون سفنهم من مصاب نهر الرين بدل أن ينقلوا متاجرهم فوق جبال الألب فى إيطاليا .
وأخذت الأقطار التى ظلت قرناً من الزمان تبتاع منسوجات إيطاليا الصوفية تنسج هى أصوافها ، كما أخذت الأمم التى تؤدى أرباح الأموال إلى المصارف الإيطالية تنمى هى مواردها المالية ، وأضحت الزكاة ، والمرتبات الأولى للمناصب الكنسية التى من حق الكنيسة ، وبنسات بطرس(*) وأثمان صكوك الغفران ، ونقود الحجاج ، أصبحت هذه أهم ما تؤديه إلى إيطاليا البلدان الأوربية الواقعة وراء الألب ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى حول ثلث أوربا مجرى هذا المال : ولهذا حدث فى ذلك الجيل الذى رفعت فيه الثروة المختزنة فى إيطاليا مدنها إلى ذروة مجدها وعلا فيها شأن فنونها ، نقول إنه فى هذا الجيل نفسه قضى فيه على مركز إيطاليا الاقتصادى

وختم فى ذلك الوقت عينه على مصيرها السياسى ، فبينا كانت هى منقسمة إلى نظم اقتصادية متعادية ودول سياسية متحاربة ، كان تطور الاقتصاد القومى فى غيرها من المجتمعات الأوربية يرغم هذه المجتمعات على الانتقال من عهد الإمارات الإقطاعية إلى عهد الدول الملكية ، ويقدم المال اللازم لهذا الانتقال . ففى ذلك الوقت توحدت فرنسا تحت حكم لويس الحادى عشر ، وأخضعت باروناتها فجعلتهم حاشية للملوك ، وجعلت من سكان مدنها رجالا عامرة قلوبهم بالروح الوطنية . واتحدت أسبانيا بزواج فرديناند صاحب أرغونة من إزبلا ملكة قشتالة ، وفتحت غرناطة ، ومكنت بدماء أهلها وحدتها الدينية . كذلك توحدت إنجلترا تحت حكم هنرى السابع ،

(*) ضريبة قديمة مقدارها بنس كان يؤديها كل صاحب بيت فى إنجلترا إلى الكرسى البابوى ثم اصبحت بعد عام ١٨٦٠ ضريبة اختيارية يؤديها أتباع المذهب الكاثوليكى الرومانى إلى هذا الكرسى . (المترجم)

ومع أن ألمانيا لم تكن أقل تشتتاً وانقساماً من إيطاليا ، فإنها كانت تعترف بالسيادة لملك واحد وإمبراطور ، وتمده أحياناً بالمال والجند ليحارب بهما هذه الدولة الإيطالية أو تلك . ثم إن إنجلترا ، وفرنسا ، وأسپانيا ، وألمانيا أنشأت جيوشاً قومية من أهلها ، وأمدها أشرافها بالفرسان والقادة . أما المدن الإيطالية فلم تكن لها إلا قوات صغيرة من الجنود المرتزقة لا هم لها إلا السلب والنهب ، يتولى قيادتها زعماء مغامرون أبغض الأشياء إليهم أن يصابوا بجروح قاتلة . وكانت معركة واحدة كافية لأن تكشف لأوربا ضعف إيطاليا وعجزها عن الدفاع عن نفسها .

وكان نصف بيوت المالكين فى أوربا يزخر وقتئذ بالدسائس الدپلوماسية يريد كل واحد منها أن يحرز قصب السبق فى الاستيلاء على الغنيمة . ونادت فرنسا بأنها صاحبة الحق الأول ، لأسباب كثيرة ، منها أن چيان جاليدسو ڤسكونتى قد زوج ابنته ڤالنتينا (١٣٨٧) من لويس أول دوق لأورليان ، وكان ثمن هذه الصلة الطيبة المربحة بأسرة مالكة هو اعترافه بحقها وبحق الذكور من أبنائها فى أن يرثوا دوقية ميلان إذا لم يكن له وريث ذكر من صلبه ؛ وتم ذلك فعلا حين توفى فيلپو ماريا ڤسكونتى (١٤٤٧) . فاستولى صهره فرانتشيسكوا اسفوردسا حينئذ على ميلان بدعوى أنها من حق زوجته بيانكا ابنة فيلپو ماريا ؛ ولكن شارل دوق أورليان طالب بعرش ميلان بوصفه ابن ڤالنتينا ، ونادى بأن آل اسفوردسا مغتصبون ، وأعلن تصميمه على الاستيلاء على الإمارة الإيطالية إذا ما حانت له الفرصة .

وفضلا عن هذا فإن شارل دوق أنچو كان قد حصل كما يقول الفرنسيون على مملكة ناپلى من البابا إربان الرابع (١٢٦٦) ، مكافأة له على حماية البابوية من ملوك آل هوهنشتاوفن ؛ ثم أوصت چوانا Joanna الثانية ملكة ناپلى بهذه المملكة إلى رينيه René دوق أنچو (١٤٣٥) ؛ وكان ألفنسو صاحب أرغونة قد طالب بها بدعوى أن چوانا قد تبنته إلى وقت ما ،

أقام بالقوة بيت أرغونة على عرش نابلى : وحاول رينيه أن ينتزع المملكة منه ولكنه لم يفلح ؛ وانتقل حقه القانونى فيها بعد موته إلى لويس التاسع ملك فرنسا ؛ وفى عام ١٤٨٢ دعا سكستس الرابع — وكان على خلاف مع نابلى — لويس للاستيلاء على ميلان وقال « إنها ملك له » . وحدث فى ذلك الوقت أن شن حلف من الدول الإيطالية الحرب على البندقية فلجأت فى يأسها إلى لويس تطلب إلية أن يهاجم نابلى أو ميلان ، وقالت إنها تفضل أن يهاجم الاثنتين : وكان لويس وقتئذ مشغولا بتوحيد فرنسا ، ولكن ابنه شارل الثامن ورث حقه فى نابلى واستمع إلى المنفيين من أهلها وإلى أنصار أسرة أنجو فى بلاطه ، وأدرك أن تاج نابلى كان منضما إلى تاج صقلية ، وأن هذا مرتبط بتاج بيت المقدس . لهذا خطرت بباله تلك الفكرة الكبيرة ، أو لعل أحداً أوعز إليه بها ، وهى الاستيلاء على نابلى وصقلية ، على أن يتوج بعدئذ ملكاً على بيت المقدس . ثم يقود حملة صليبية لقتال الأتراك . وحدث فى عام ١٤٨٩ أن قام النزاع بين إنوسنت الثامن وبين نابلى ، فعرض إنوسنت المملكة على شارل إذا قدم للاستيلاء عليها . لكن الإسكندر الثالث (١٤٩٤) حذر الملك من عبور الألب وإلا كان نصيبه الحرمان ؛ غير أن الكردنال جوليانو دلا روفيرى عدو الإسكندر — الذى حارب فيما بعد حين أصبح هو البابا يوليوس الثانى ليطرد الفرنسيين من إيطاليا — قدم إلى شارل فى ليون Lyons وحرضه على غزو إيطاليا وخلع الإسكندر . ووجه سفنرولا دعوة أخرى إلى شارل يرجو من ورائها أن يخلع هذا الملك بيرو ده إميديتشى عن عرش فلورنس والإسكندر عن عرش البابوية فى رومة ، وقبل كثير من أهل فلورنس أن يتولى الراهب زعامتهم . وأخيراً عرض لدوفيكو صاحب ميلان على شارل أن يسمح له باختراق أملاك ميلان إذا ما اعتزم أن يوجه حملة إلى نابلى ، وكان الباعث على هذا خوفه من أن تهاجمه نابلى نفسها .

ووجد شارل أن نصف إيطاليا يشجعه فأخذ يستعد لغزو نابلى . وأراد أن يحمى جناحيه أثناء الغزو فنزل عن أرتوا Artois وفرانش كمتيه Francho Compte إلى مكسمليان إمبراطور الدولة الرومانية ، كما نزل عن رسيون Rousillon وسردانى Cerdagen إلى فرديناند ملك أسبانيا ، ونفح هنرى السابع بمبلغ كبير من المال نظير تخليه عن المطالبة بمقاطعة بريطانى الفرنسية . وفى شهر مارس من عام ١٤٩٤ حشد جيشه فى ليون ، وكان مؤلفاً من ١٨٫٠٠٠ من الفرسان ، و ٢٢٫٠٠٠ من المشاة ، وسير أسطولا ليضمن ولاء جنوى لفرنسا ، فاسترد فى الثامن من سبتمبر بلدة رابلو Rapallo من قوة نابليه كانت قد نزلت بهـا ؛ وروعت أنباء المذبحة الرهيبة التى أعقبت هذه المعركة الأولى إيطاليا كلها التى لم تتعود إلا المذابح المعقولة . وفى ذلك الشهر عينه عبر شارل وجيشه جبال الألب ووقف عند أستى Asti . وسار لدوفيكو صاحب ميلان ، وإركولى صاحب فيرارا لمقابلته . وأقرضه لدوفيكو مالا ؛ وعاقت إصابة شارل بالجدرى تنفيذ خطة الغزو الموضوعة ، فلما شفى قاد جيشه مخترقاً أراضى ميلان إلى تسكانيا ؛ وكان فى وسع القلاع المقامة على حدود فلورنس أن تقاومه ، ولكن بيرو ده ميديتشى جاء بنفسه ليسلمها إليه ومعها بيزا وليفورنو Livorno . وفى السابع عشر من نوفمبر اجتاز شارل ونصف جيشه مدينة فلورنس ؛ وأعجبت جماهير الشعب بمنظر الفرسان الذى لم تشاهد مثله من قبل ، وساءهم ما ارتكبه الجند من السرقات الصغيرة ، ولكنهم ذهب عنهم الروع حين رأوهم يمتنعون عن السلب والنهب . وفى شهر ديسمبر تقدم شارل نحو رومة .

لقد سبق أن نظرنا إلى لقاء الملك والبابا من وجهة نظر الإسكندر ؛ وبقى أن نقول إن شارل سلك مسلكا معتدلا ، فلم يطلب إلا أن يسمح لجيشه بحرية المرور فى لاتيوم ، وأن يتولى هو الوصاية على الأمير جم التركى

السجين البابوى (وكان يمكن استخدامه مطالباً بالسلطنة وخليفة إذا ما سير حمله ضد الأتراك) ، وأن يصحبه سزارى بورجيا ليكون رهينة لديه .
ووافق الإسكندر على هذه الشروط ، وزحف الجيش نحو الجنوب (٢٥ يناير سنة ١٤٩٥) ، لكن بورجيا لم يلبث أن فر ، وكان فى وسع الإسكندر بعد فراره أن يعدل خططه الدبلوماسية .

وفى الثامن والعشرين من فبراير دخل شارل نابلى دخول الظافرين دون أن يلقى مقاومة . وسار فى المدينة ومن فوقه مظلة من القماش الموشى بخيوط الذهب يحملها أربعة من أعيان نابلى . ويتلقى تحيات الجماهير . وأظهر رضاءه وتقديره بأن خفض الضرائب وعفا عمن قاوموا مجيئه ؛ وأقر نظام الاسترقاق بناء على طلب الأعيان الذين كانوا يحكمون الأرض الواقعة وراء المدينة . وظن أن الأمر قد استتب له فأصبح آمناً مطمئناً ، فتوانى وعمد إلى الراحة والاستمتاع بجو البلدة ومناظرها الجميلة ، وكتب بلهجة حماسية إلى دوق بوربون يصف الحدائق التى كان يعيش فى وسطها ، والتى لا ينقصها إلا حواء كى تصبح جنة النعيم ؛ وأبدى دهشته مما فى المدينة عن عمائر ، وتماثيل ، وصور زيتية ، واعتزم أن يأخذ معه إلى فرنسا طائفة ممتازة من الفنانين الإيطاليين ؛ وإلى أن يحين ذلك الوقت بعث إلى فرنسا بسفينة محملة بالتحف الفنية المسروقة من المدينة . وسحرته نابلى بجمالها فأنسته كل شىء عن بيت المقدس وعن حربه الصليبية .

وبينا هو يلهو ويضيع الوقت سدى فى نابلى ، وبينا كان جيشه يستمتع بنساء الشوارع والمواخير ، فيصاب « بالمرض الفرنسى » أو ينشر هذا الداء الوبيل بين الأهلين ، كانت المتاعب تتجمع من خلفه . ذلك أن أعيان نابلى حرموا فى كثير من الحالات من ضياعهم التى انتزعت منهم لترد إلى ملاكها من أسرة أنجو أو للوفاء بما على شارل من ديون لخدمه ، وذلك بدلا من أن يكافأ هؤلاء الأعيان على ما قدموا من معونة لخلع مليكهم

السابق ؛ يضاف إلى هذا أن جميع مناصب الدولة قد أعطيت للفرنسيين ، ولم يكن شيء يستطاع الحصول عليه منهم إلا إذا قدم لهم من الرشاوى ما أغضب الأهلين لتجاوزه القدر الذى اعتادوا تقديمه . ثم إن جيش الاحتلال أضاف الإهانة إلى الأذى بما كان يظهره من احتقاره للشعب الإيطالى ، فلم تمض إلا أشهر قليلة حتى خسر الفرنسيون ما قوبلوا به من ترحيب واستبدلوا به كرها يتربص بهم الدوائر ، ويترقب الفرصة التى تتاح له لطرد الغزاة .

فلما كان اليوم الحادى والثلاثون من شهر مارس انضم الإسكندر الرجل المرن الذى لا يكاد يتلقى الطعنة حتى يفيق منها ، ولدوفيكو التائب النادم على ما فعل ، وفرديناند الغضوب ، ومكسمليان الغيور الحسود ، ومجلس شيوخ البندقية الحذر ، انضم هؤلاء فى حلف للدفاع المشترك عن إيطاليا . ومضى شهر على الملك شارل وهو يجوس خلال نابلى يمسك الصولجان بإحدى يديه ويمسك بيده الأخرى كرة — نظنها تمثل الكرة الأرضية — قبل أن يدرك أن الحلف الجديد يعد جيشاً لقتاله . وفى الحادى والعشرين من مايو عهد أمر نابلى إلى ابن عمه كونت مونپنسييه Montpensier وزحف على رأس نصف جيشه نحو الشمال ، فلما وصل ذلك الجيش البالغ عدده عشرة آلاف مقاتل إلى فورنوفو Fornovo القائمة على نهر تارو من أملاك پارما وجد أن جيشاً عدته أربعون ألف رجل بقيادة چيان فرانتشيسكو جندساجا مركيز مانتوا يسد عليه الطريق . وفى الخامس من يوليه سنة ١٤٩٥ امتحنت قوة الجيوش الإيطالية والفرنسية وخططهما العسكرية لأول مرة . وأساء جندساجا إدارة المعركة وإن كان قد حارب ببسالة . فلم يشترك فى القتال إلا نصف جنده ؛ لم يكن الإيطاليون مستعدين من الناحية العقلية لقتال محاربين لا يرحمون من يقع فى أيديهم ، فولى الكثيرون منهم الأدبار ؛ وضرب فارس بايار وهو صبى فى العشرين من عمره أروع المثل لرجاله

بشجاعته ومجازفته فى القتال ، وحتى الملك نفسه قاتل قتال الأبطال . وكانت المعركة غير حاسمة ادعى فيها كلا الطرفين أنه هو الظافر ، وخسر الفرنسيون قافلة مؤنهم ولكنهم ظلوا المسيطرين على الميدان ، ولما جن الليل تقدموا نحو أستى دون أن يلقوا مقاومة ، وفيها كان ينتظرهم لويس دوق أورليان الثالث ومعه المدد . وفى شهر أكتوبر عاد شارل إلى فرنسا بعد أن خسر الكثير من سمعته ولكنه لم يصب بأذى شديد .

وكانت النتائج الإقليمية لهذه المعركة تافهة : أهمها أن جندسالو **Gonzalo** « القائد العظيم » طرد الفرنسيين من نابلى وكلبريا ، وأعاد أسرة أرغونة إلى عرشها فى شخص فيديريجو **Federigo** الثالث (١٤٩٦) . أما النتائج البعيدة لهذا الغزو فقد تجاوزت كل حد : فقد أثبت تفوق الجيش القومى على الجنود المرتزقة المأجورة ، ويستثنى من هذا الحكم العام الجنود السويسريون المرتزقون وإن يكن هذا الاستثناء موقتاً قصير الأجل . ذلك أن أولئك الجنود السويسريون المسلحين بالحراب البالغ طولها ثمانى عشرة قدماً والمنظمين فى فرق متراصة متلاصقة كانت سداً منيعاً شائكاً أمام الفرسان الزاحفين . ولهذا قدر لأولئك الجنود أن يكسبوا كثيراً من الوقائع . ولكن هذه القوة الهائلة التى أعادت إلى الذاكرة صفوف المقدونيين المتراصة فى حروب الإسكندر الأكبر لم تلبث أن أضحت عديمة الجدوى أمام تقدم المدفعية . ولعل هذه الحرب هى التى حدث فيها لأول مرة أن وضعت المدافع على العربات فأمكن بذلك توجيهها بسهولة فى الاتجاهات المختلفة وتغيير مدى مرماها . وكانت هذه العربات تجرها الخيول لا الثيران (كما كانت العادة فى إيطاليا حتى ذلك الوقت) . وقد جاء الفرنسيون إلى الميدان — كما يقول جوتشياردينى — بعدد كبير من « مدافع الميدان والمدافع المدمرة التى لم تر إيطاليا مثيلا لها من قبل »[٣] . وقاتل الفرسان الفرنسيون أحفاد أبطال فرواسار ، قتال الأبطال فى فورنوفو ، ولكن الفرسان أيضاً ما لبثوا أن خضعوا للمدافع ،

وهكذا تبدلت الحال عما كانت فى العصور الوسطى ؛ فقد كانت فنون الدفاع فى تلك الأيام متقدمة على وسائل الهجوم ، وكان هذا سبباً فى عدم تشجيع الحروب . أما الآن فقد أخذت أساليب الهجوم تتقدم على أساليب الدفاع ، وأصبحت الحرب من ثم أكثر سفكاً للدماء . وثمة نقطة أخرى عظيمة الخطر : تلك هى أن حروب إيطاليا قلما كانت حتى ذلك الوقت تشغل أهلها أنفسهم ، وكانت تلحق الأذى بحقوقهم أكثر مما تلحقه بأرواحهم ؛ أما الآن فقد قدر لهم أن يروا إيطاليا كلها يحل بها الدمار وتخضب أرضها بالدماء ؛ وعرف السويسريون فى تلك الحرب التى دامت طوال العام ما تنطوى عليه سهول لمباردى من خصب ونماء ، وطالما غزوها بعدئذ المرة بعد المرة . وأدرك الفرنسيون أن إيطاليا منقسمة ومشتتة وأنها تنتظر المغير الفاتح . نعم إن شارل الثامن قد ألقى بنفسه فى أحضان العاشقات ، وكاد يمتنع عن التفكير فى نابلى ، ولكن ابن عمه ووريثه كان أصلب منه عوداً ، وما لبث لويس الثانى عشر أن عاود الكرة .

الفصل الثانى

تجدد الهجوم : ١٤٩٦ — ١٥٠٥

وأضاف مكسمليان « ملك الرومان » — أى الألمان — فصلا آخر إلى هذه المسرحية ، فلقد كان يؤلمه ويقض مضجعه أن يفكر فى أن عدوته الكبرى ، أى فرنسا ، تعظم وتقوى ، وتطوقه باستيلائها على إيطاليا . وكانت قد ترامت إليه أخبار غنى هذه البلاد وجمالها وضعفها ، ولم تكن قد أصبحت بعد دولة ، بل كانت شبه جزيرة . وكانت له هو أيضاً ادعاءات ومطالب فى إيطاليا ؛ فقد كانت مدن لمباردى لا تزال من الوجهة القانونية إقطاعيات تابعة للإمبراطورية ، وكان من حقه قانوناً بوصفه رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة أن يعطيها لمن يشاء ؛ ألم يَرْشُه لدوڤيكو بالفلورينات وبيانكا أخرى لكى يمنحه دوقية ميلان ؟ يضاف إلى هذا أن كثيرين من الإيطاليين دعوه إلى المجىء : فلدوڤيكو والبندقية قد طلبا إليه (١٤٩٦) أن يدخل إيطاليا ويساعدهما على صد هجوم فرنسى آخر يهدد البلاد ، ولبى مكسمليان الدعوة ومعه عدد قليل من الجند ، واستطاعت البندقية بدهائها أن تقنعه بالهجوم على ليڤورنو ، فرضة فلورنس الأخيرة على البحر المتوسط ، وبذلك يضعف هذه المدينة التى لا تزال متحالفة مع فرنسا ومنافسة على الدوام للبندقية ، وأخفقت حملة مكسمليان لأنها كانت يعوزها التنسيق والتأييد الكافى ، فعاد إلى ألمانيا دون أن يستفيد من هذا الدرس إلا الشىء القليل (ديسمبر سنة ١٤٩٦) .

وفى عام ١٤٩٨ أصبح دوق أورليان هو لويس الثانى عشر . وإذ كان هو حفيد ڤالنتينا ڤسكونتى فإنه لم ينس قط ما كانت أسرته تدعيه من

حقوق لها فى ميلان ؛ وإذ كان هو ابن عم شارل الثامن ، فقد ورث مطالب آل أنجو فى نابلى . ومن أجل هذا فإنه فى يوم تتويجه اتخذ فيما اتخذ من ألقاب : دوق ميلان ، وملك نابلى وصقلية ، وإمبراطور بيت المقدس .
وأراد أن يمهد السبيل لنفسه فجدد معاهدة سلام مع إنجلترا وعقد معاهدة مثلها مع أسبانيا ؛ ثم أغرى البندقية فوقعت معه شروط حلف « للاشتراك فى حرب ضد دوق ميلان لدوڤيكو اسفوردسا وضد أى إنسان آخر عدا الحبر الأكبر بابا رومة لكى يرد إلى صاحب الجلالة الملك المسيحى . . . دوقية ميلان ملكه الشرعى القديم » ، ووعدها فى نظير ذلك بكريمونا ، والأراضى الواقعة شرق أدا . ثم عقد بعد شهر من ذلك التاريخ (مارس ١٤٩٩) اتفاقاً مع المقاطعات السويسرية لكى تمده بالجنود نظير إعانة مالية قدرها عشرون ألف فلورين . وفى شهر مايو استدرج الإسكندر إلى محالفته بأن أعطى سيزارى بورچيا زوجة فرنسية يجرى فى عروقها الدم الملكى ، ودوقية ڤالنتنوا Valntinois وقطع له عهداً بأن يساعده على استرداد الولايات البابوية . وشعر لدوڤيكو بالضعف أمام هذه الأحلاف ؛ ففر إلى النمسا ، ولم تمض إلا ثلاثة أسابيع حتى اختفت دوقيته بعد أن اقتسمتها البندقية وفرنسا ؛ وفى السادس من شهر أكتوبر سنة ١٤٩٩ دخل لويس ميلان ظافراً ورحبت به إيطاليا كلها تقريباً عدا نابلى .

والواقع أن إيطاليا بأجمعها عدا البندقية ونابلى أضحت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا أو نفوذها ؛ فقد أسرعت مانتوا ، وفيرارا ، وبولونيا وأعلنت خضوعها واستسلامها ؛ وتمسكت فلورنس بحلفها مع فرنسا لأنها رأت فيه الوسيلة الوحيدة لحمايتها من سيزارى بورچيا . وحتى فرديناند ملك أسبانيا ، رغم ما بينه وبين الأسرة الأرجونية من وشائج القربى ، عقد فى غرناطة (١١ نوفمبر سنة ١٥٠٠) ميثاقاً سرياً مع ممثلى لويس يتضمن الاشتراك معه فى فتح جميع إيطاليا الواقعة جنوب الولايات البابوية .

وعاونهما الإسكندر السادس الذى كان بحاجة إلى معونة فرنسا لاسترداد هذه الولايات ، بأن أصدر مرسوماً بابوياً خلع به فيديريجو الثالث ملك نابلى وأيد تقسيم مملكته بين فرنسا وأسبانيا .

وفى شهر يوليه عام ١٥٠١ زحف جيش فرنسى بقيادة استيورت دوبنى Stuart Daubigny الاسكتلندى ، وسيزارى بورجيا ، وفرانتشيسكو دى سان سفرينو الذى غدر بلدوفيكو بعد أن كان من المقربين إليه ، زحف هذا الجيش مخترقاً إيطاليا إلى كابوا واستولى عليها ونهبها ، وتقدم صوب نابلى ، ورأى فيديريجو أن أنصاره جميعاً قد انفضوا من حوله فسلم المدينة إلى الفرنسيين نظير قبوله لاجئاً آمناً فى فرنسا ومعاشاً سنوياً . وفى هذه الأثناء استولى *القائد الأكبر* جندسالو القرطبى Gonzalo de Cordoba على كالبريا وأبوليا باسم فرديناند وإزبلا . وأرسل فيرانتى بن فيديريجو سجيناً إلى أسبانيا بناء على طلب فردبناند ، وذلك بعد أن سلم تارنتو Taranto ووعده جندسالا بأنه سيطلق سراحه . ولما أن اتصل الجيش الأسبانى بالجيش الفرنسى على الحدود الواقعة بين أبوليا وأبروتسى، قام النزاع بينهما على الحد الفاصل بين ما استولى عليه كل منهما ؛ وقامت الحرب بين أسبانيا وفرنسا على تقسيم الأسلاب . واغتبط بذلك الإسكندر أيما اغتباط (يوليه سنة ١٥٠٢) ، وقال البابا لسفير البندقية : « لو أن الله لم يثر الخلاف بين فرنسا وأسبانيا ، لما عرفنا الآن أين نكون ؟ » .

وابتسم الحظ للفرنسيين فى هذه الحرب الجديدة إلى حين ، فقد اجتاحت قوات دوبنى جنوبى إيطاليا كله تقريباً : وحبس جندسالو جنوده فى مدينة بارليتا الحصينة . وهنا وقعت حادثة من حوادث العصور الوسطى الطريفة ألقت شيئاً من البهجة على هذه الحرب المشئومة (١٣ فبراير سنة ١٥٠٣) . ذلك أن ضابطاً فرنسيا وصف الإيطاليين بأنهم شعب مخنث جبان دنىء ، فثار قائد إحدى الفرق الإيطالية فى الجيش الأسبانى لهذه الإهانة

وطلب أن يقاتل ثلاثة عشر من الفرنسيين مثلهم من الإيطاليين . واتفق على هذا ، وأرجئ القتال ، ووقف الجيشان المتحاربان يشاهدان النزال ، بينا كان المحاربون الستة والعشرون يقتتلون حتى أثخن الفرنسيون الثلاثة عشر بالجراح التى أعجزتهم عن مواصلة البراز ووقعوا أسرى فى أيدى الإيطاليين ، وأخذت جندسالو الشهامة الأسپانية التى لا تقل فى بعض الأحيان عن القوة الأسپانية ، فافتدى الأسرى من ماله الخاص وردهم إلى جيشهم(٦) .

وأعادت هذه الحادثة الروح المعنوية لجنود القائد الأكبر ، فخرجوا من بارليتا ، وهزموا المحاصرين وبددوا شملهم ، ثم هزموا الفرنسيين مرة أخرى عند تشيرنيولو Cerignolo . وفى السادس عشر من شهر مايو سنة ١٥٠٣ دخل جندسالو نابلى دون أن يلقى مقاومة ، ورحب به أهلها ، وهم الذين يستطيع كل منتصر أن يعتمد دائماً على ترحيبهم ، وسير لويس الثانى عشر جيشاً آخر لقتال جندسالو ، فالتقى ذلك القائد به على شاطئ كارجليانو ، وأوقع به هزيمة منكرة (٢٩ ديسمبر سنة ١٥٠٣) ؛ وغرق پيرو ده ميديتشى الذى كان يفر مع الفرنسيين فى أثناء الفوضى التى أعقبت هذه الهزيمة ؛ ثم ضرب جندسالو الحصار على جيتا Gaeta آخر معاقل الفرنسيين فى جنوبى إيطاليا ؛ وعرض على من فيها شروطاً سخية سرعان ما قبلوها (أول يناير سنة ١٥٠٤) ؛ وأظهر من الوفاء فى المحافظة على هذه الشروط بعد أن جرد الفرنسيين من سلاحهم ما جعلهم يلقبونه بالقائد الظريف لأنه خرج عن جميع السوابق أشد الخروج(٧) . وعقد لويس مع الأسبان معاهدة بلوا Blois (١٥٠٥) ، التى أنقذ فيها شرفه ظاهرياً بأن نزل عن حقوقه فى نابلى إلى قريبته چرمين ده فوا Germaine de Foix التى تزوجت بعدئذ فرديناند الأرمل وجاءت له بنابلى بائنة لها ، وبذلك أضيف تاج نابلى وتاج صقلية إلى تيجان فرديناند النهم ، وبقيت بعدئذ مملكة نابلى تابعة لأسپانيا حتى عام ١٧٠٧ .

الفصل الثالث

حلف كمبريه : ١٥٠٨ — ١٥١٦

أضحى نصف إيطاليا الآن فى أيدى الأجانب : فقد كان جزؤها الجنوبى ملكاً لأسبانيا ، وجزؤها الشمالى الغربى الممتد من جنوى مجتازاً ميلان إلى حدود كريمونا فى يدى فرنسا ، وكانت الإمارات الصغرى خاضعة لنفوذ فرنسا ، ولم يكن فيها بلد مستقل استقلالا نسبياً سوى البندقية والولايات البابوية ، ولطالما اشتبكتا فى حرب متقطعة للاستيلاء على مدن رومانيا . ذلك أن البندقية كانت تتوق إلى المزيد من الأسواق وإلى موارد الثروة فى شبه الجزيرة لتعوض ما استولى عليه الترك من أسواقها ومواردها أو هددته طرق الملاحة البحرية إلى الهند عن طريق المحيط الأطلنطى . ولهذا اغتنمت فرصة موت الإسكندر ومرض سيزارى بورجيا للاستيلاء على فائنزا ، وراڤنا ، وريمينى ؛ وأخذ يوليوس الثانى يضع الخطط لاستعادتها لنفسه ؛ فأقنع لويس ومكسمليان فى عام ١٥٠٤ بأن يضعا حداً لنزاعهما الذى يخالف تعاليم الدين المسيحى ، وأن ينضما إليه فى مهاجمة البندقية ، وأن يقتسما فيما بينهما أملاكها فى شبه الجزيرة(٨) . ولم يجد مكسمليان فى نفسه ما يمنعه من قبول هذا العرض ، لكن خزائنه كانت خاوية ، ولم تحقق هذه المؤامرة نتيجة ما . غير أن الفكرة ظلت تراود يوليوس وظل هو يحاول إخراجها إلى حيز الوجود .

فى العاشر من ديسمبر دبرت مؤامرة كبرى فى كمبريه ضد البندقية ، انضم إليها الإمبراطور مكمليان لأن البندقية كانت قد انتزعت جورتسا Goriza ، وتريست ، وبردينونى ، وفيومى من سيطرة الإمبراطور ، وتجاهلت حقوقه الإمبراطورية فى ڤيرونا وبدوا ؛ وأبت عليه وعلى جيشه

الصغير حرية المرور إلى رومة لتحقيق الهدف الذى طالما تمناه وهو أن يتوّجه البابا إمبراطوراً . وانضم لويس الثانى عشر إلى هذا الحلف لأن النزاع شجر بين فرنسا والبندقية حول اقتسام شمالى إيطاليا . وانضم إليه كذلك فرديناند ملك أسبانيا لأن البندقية أصرت على الاحتفاظ ببرنديزى ، وأترانتو Otranto وغيرهما من ثغور أبوليا التى ظلت عدة قرون جزءاً من مملكة نابلى ، ولكن البندقية استولت عليها أثناء المتاعب التى لاقتها البندقية فى عام ١٤٩٥ . وانضم يوليوس للحلف (١٥٠٩) لأن البندقية لم تكتف برفض الجلاء عن رومانيا ، بل إنها فضلا عن ذلك لم تتردد فى الجهر برغبتها فى الاستيلاء على فيرارا — التى تقر بأنها إقطاعية بابوية . وكانت الخطة التى وضعتها الدول الأوربية وقتئذ هى أن تستولى فيما بينها على جميع أملاك البندقية فى أرض إيطاليا ، فتسترد أسبانيا ما كان لها من المدن على شاطئ البحر الادرياوى ، ويسترد البابا إقليم رومانيا ، ويحصل مكسمليان على پدوا ، وفيتشندسا وتريفيزو ، وفريولى ، وفيرونا ، ويستولى لويس على بيرجامو وبريشيا ، وكريما ، وكريمونا ، ووادى نهر أدا . ولو قدر النجاح لهذه الخطة لانمحت إيطاليا من الوجود ، ولوصلت فرنسا وألمانيا إلى نهر البو ، وكادت أسبانيا تصل إلى التيبر ، ولأحاطت أملاك الأجانب بالولايات البابوية وضيقت عليها الخناق ولحُطمت البندقية التى كانت وقتئذ خط الدفاع ضد زحف الأتراك . ولم تتقدم دولة إيطالية لمعونة البندقية فى هذه الأزمة الطاحنة ، ذلك أنها كانت قد أغضبتها كلها تقريباً بجشعها ، حتى أن فيرارا نفسها التى كانت ترتاب فيها بحق خذلتها وانضمت إلى الحلف ، وعرض جندسالو النبيل ، الذى أقاله فرديناند من منصبه بغلظة وجفاء ، خدماته على البندقية ليكون قائداً لجيوشها ، ولكن مجلس شيوخها لم يجرؤ على قبول هذا العرض ، لأن أمله الوحيد فى البقاء هو أن يفصل من الحلف أعضاءه واحداً بعد واحد .

ولم تكن البندقية تستحق العطف وقتئذ إلا لأنها وقفت بمفردها أمام قوات ضخمة لا قبل لها بها ، ولأن أغنياءها الأوفياء وفقراءها المجندين كافحوا جنباً إلى جنب بإصرار وعزم لا يكادُ يتصور ، فانتصروا فى الميدان نصراً كلفهم ما لا يطيقون . وعرض مجلس الشيوخ أن يرد فائنزا وريمنى للبابوية ، ولكن يوليوس الغاضب الثائر رد على هذا العرض بقرار الحرمان وأرسل جنوده ليستولوا من جديد على مدن إقليم رومانيا ، بينما كان زحف الفرنسيين يرغم البندقية على تركيز قواتها فى لمباردى . وهزم الفرنسيون البنادقة عند أنيادلو فى معركة من أشد المعارك هولا وأكثرها إراقة للدماء فى أيام النهضة (١٤ مايو سنة ١٥٠٩) ، قتل فيها ستة آلاف رجل فى يوم واحد . واستدعى مجلس السيادة فى ساعة محنته ويأسه بقية جنوده إلى البندقية وتركوا الفرنسيين يحتلون جميع أراضى لمباردى ، وجلوا عن أبوليا ورومانيا ، واعترفت ڤيرونا وفيتشنسا ، وپدوا بأنها لم يعد فى وسعها أن تحميها ، وأطلقت لها كامل حريتها فى أن تسلم للإمبراطور أو تقاومه حسبما تختار . وانقض مكسمليان بأكبر جيش شهدته تلك البلاد حتى ذلك الوقت — فقيل كانت عدته نحو ٣٦,٠٠٠ مقاتل — وضرب الحصار على پدوا . وسبب الفلاحون المحيطون بالمدينة لجيش الإمبراطور أكثر ما يستطيعون من المتاعب ، وحارب أهل پدوا نفسها ببسالة تشهد بصلاح الحكم الذى كانوا يستمتعون به تحت راية البندقية . ونفد صبر مكسمليان ، وكان على الدوام شديد الحاجة إلى المال ، فغادر الميدان وهو غاضب مشمئز إلى التيرول ، وأصدر يوليوس أمره فجاءة إلى جنوده أن ينسحبوا من الحصار ، وعادت پدوا وڤيتشنسا مختارتين إلى سيطرة البندقية ، وسرح لويس الثانى عشر جيشه بعد أن حصل على نصيبه من الأسلاب .

وكان يوليوس قد أدرك قبل ذلك الوقت أن انتصار الحلف انتصاراً كاملا إذا تم كان هزيمة للبابوية ، لأنه يترك البابوات تحت رحمة دولتين

من دول الشمال ، وبدأت حركة الإصلاح الدينى فيهما تفصح عن نفسها . ولهذا فإنه عندما عرضت عليه البندقية أن تجيبه إلى كل ما يطلب « قبل ما عرضته عليه وكان قد أقسم أنه لن يقبل » (١٥١٠) . وبعد أن استرد كل ما يرى أنه ملك حق مشروع للكنيسة ، أصبح حراً فى أن يوجه غضبه نحو الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ يسيطرون على لمباردى وتسكانيا ، فكانوا بذلك جيراناً للولايات البابوية غير مرغوب فيهم . وأقسم وهو فى ميرندولا ألا يحلق لحيته حتى يطرد الفرنسيين من إيطاليا . وهكذا طالت اللحية الفخمة الجليلة التى تظهر فى صورة رفائيل . ونادى البابا وقتئذ فى إيطاليا بذلك الشعار المثير : « ليخرج البرابرة ! Fuori i barbari ! » ، ولكنه نداء جاء بعد فوات الأوان . واعتزم أن ينفذ خطته فألف فى ١١ أكتوبر سنة ١٥١١ « حلف الوحدة المقدسة » منه ومن البندقية وأسپانيا ، ثم ما لبث أن ضم إليه سويسرة وإنجلترا . ولم ينته شهر يناير سنة ١٥١٢ حتى استردت البندقية مدينتى بريشيا وبرجامو بمعاونة الأهلين الفرحين المستبشرين . واستبقت فرنسا معظم جنودها فى بلادها للدفاع عنها إذا ما هاجمتها إنجلترا وأسپانيا .

غير أن قوة فرنسية واحدة بقيت فى إيطاليا بقيادة شاب جرىء فى الثانية والعشرين من عمره من رجال البلاط يدعى جاستون ده فوا Gaston deFoix . ومل هذا الشاب الخمول والجمود ، فسار على رأس جيشه وفك الحصار أولا عن بولونيا ثم هزم البنادقة فى إيزولا دلا اسكالا Isoal della scala ثم استعاد بريشيا ، وأحرز أخيراً نصراً مؤزراً ولكنه غالى الثمن عند رافنا (١١ ابريل سنة ١٥١٢) . وخضبت ميدان القتال دماء نحو عشرين ألف قتيل ، وأصيب جاستون نفسه ، وهو يحارب فى الصفوف الأمامية ، بجراح مميتة .

ونال يوليوس بالمفاوضة ماكان قد خسره فى ميدان القتال ؛ فقد أقنع

مكسمليان أن يوقع هدنة مع البندقية ، وأن ينضم إلى الاتحاد الذى تألف لقتال فرنسا ، وأن يستدعى الأربعة الآلاف من الجنود الألمان الذين كانوا جزءاً من الجيش الفرنسى . ثم زحف السويسريون بتحريضه على لمباردى بقوة تبلغ عشرين ألفاً . وتقهقرت القوات الفرنسية ، التى أفقدتها الانتصارات عدداً كبيراً من أفرادها ، وتخلت عنها الفرقة الألمانية ، أمام جحافل السويسريين والبنادقة والأسبان المحدقين بها ، وارتدت إلى جبال الألب ، بعد أن تركت حاميات قليلة فى بريشيان ، وكريمونا ، وميلان ، وجنوى . وهكذا استطاع الاتحاد المقدس بعد شهرين من الهزيمة التى كانت تبدو ماحقة فى رافنا أن يطرد الفرنسيين من أرض إيطاليا بفضل الدبلوماسية البابوية ، وسماه الإيطاليون محرر إيطاليا .

وعقد المنتصرون مؤتمر مانتوا (فى أغسطس سنة ١٥١٢) لتوزيع الأسلاب ، وفيه أصر يوليوس على أن تعطى ميلان إلى مسيمليانو اسفوردسا Masaimiliano Sforza ابن لدوفيكو ، ونالت سويسرا لوجانو Lugano والإقليم الواقع عند رأس بحيرة مجيورى ؛ وأرغمت فلورنس على أن يسترد عرشها آل ميديتشى واستعاد البابا كل الولايات البابوية التى استولى عليها آل بورجيا ، ثم حصل فضلا عن هذا على پارما ، وپياتشند ، ومودينا ، ورچيو ، ولم ينج من قبضة الحبر الأكبر إلا فيرارا . ولكن يوليوس أورث خلفه مشاكل كثيرة . أولها أنه لم يطرد الأجانب حقيقة من إيطاليا : فقد كان السويسريون لايزالون مستولين على ميلان بوصفهم حراساً لاسفوردسا ؛ ولايزال الإمبراطور يطالب بفيتشندسا وفيرونا مكافأة له ، وأما فرديناند الكاثوليكى أكثر المساومين دهاء فقد دعم قوة أسپانيا فى جنوبى إيطاليا . وكانت قوة فرنسا وحدها هى التى قضى عليها فى إيطاليا . فقد سير لويس الثانى عشر جيشاً آخر للاستيلاء على ميلان ، ولكن السويسريين بددوا شمله عند نوفارا Novara وقتلوا من رجاله ثمانية آلاف

(٦ يونيه سنة ١٥١٣) . ولم يكن باقياً للويس عند وفاته من أملاكه الإيطالية التى كانت من قبل رحبة الاموطئ قدم مزعزع فى جنوى .

ولكن فرانسس الأول أراد أن يسترد هذه الأملاك جميعها . وكان إلى هذا قد سمع (كما يؤكد لنا برانتوم Brantôme) أن سنيوراكلريتشى الميلانية Signore Clerice of Milan أجمل نساء إيطاليا ، وتحرق شوقا إليها[٩] . ولهذا زحف فى شهر أغسطس من عام ١٥١٥ على رأس جيش مؤلف من أربعين ألف رجل وتسلق بهم ممراً جديداً فى جبال الألب ؛ وكان ذلك أكبر جيش شهدته هذه المعارك . وتقدم السويسريون لملاقاته ؛ ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة فى مارنيانو على مبعدة أميال قليلة من ميلان ، ودامت يومين كاملين (١٣ — ١٤ ديسمبر سنة ١٥١٥) ؛ وحارب فيها فرانسس نفسه حرب الأبطال ومنحه الفارس بابار فى ميدان المعركة نفسه لقب فارس تكريماً له واعترافاً ببسالته . وترك السويسريون وراءهم فى أرض المعركة ١٣٫٠٠٠ قتيل ؛ وتخلوا هم واسفوردسا عن ميلان ، ووقعت المدينة مرة أخرى غنيمة فى أيدى الفرنسيين .

وطلب مستشارو ليو العاشر فى تقلبهم وترددهم نصيحة مكيڤلى . فحذرهم من أن يقفوا موقف الحياد بين الملك والإمبراطور بحجة أن البابوية ستكون حقيقة لاحول لها أمام المنتصر ، كما لو كانت قد اشتركت فى القتال ؛ وأشار بعقد اتفاق مع فرنسا بوصفها أهون الشرين[١٠] ، وأمر ليو بالعمل بهذه النصيحة ؛ وفى الحادى عشر من ديسمبر عام ١٥١٥ اجتمع فرانسس والبابا فى بولونيا ليضعا شروط الاتفاق . ووقع السويسريون صلحاً شبيهاً بهذا مع فرنسا ؛ وانسحب الأسپان إلى ناپلى ؛ وحاقت الخيبة مرة أخرى بالإمبراطور ، فسلم ڤيرونا للبندقية . وهكذا انتهت (١٥١٦) حروب جلف كمبريه الذى بدل فيه المشتركون مواقفهم كأنهم فى مرقص ؛ وعادت الأحوال فى آخر الأمر فى جوهرها كما كانت فى أوله ، ولم يفصل قط فى

شىء إلا فى أن تكون إيطاليا هى الميدان الذى تتطاحن فيه الدول الكبرى وتنشب فيه بينها معركة فى إثر معركة أملا فى السيادة على أوربا . وسلمت البابوية پارما وپياتشندسا لفرنسا ، واستردت البندقية أملاكها فى شمالى إيطاليا ، ولكنها حل بها الخراب ماليا ؛ وخربت إيطاليا ولكن الفنون والآداب ظلت فيها مزدهرة ، سـواء كان ذلك بدافع الحادثات المفجعة أو بقوة الماضى الرضى الهنىء . لكن المستقبل كان يخبئ لها أفدح الكوارث .

الفصل الرابع

ليو وأوربا : ١٥١٣ – ١٥٢١

ووضع مؤتمر بولونيا الهيبة الدبلوماسية فى كفة ، والجرأة والسطوة فى كفة أخرى ، وبقى أن تُعرف أية الكفتين هى الراجحة . وأقبل الملك الشاب الوسيم يزهو فى معطفه الموشى بالذهب وفراء السمور ، والنصر معقود لألويته ، وجيشه من ورائه ؛ يتوق إلى أن يلتهم إيطاليا عن آخرها ، ولا يبقى فيها إلا البابا حارساً له على أملاكه ؛ وليس لليو فى مقابل هذا إلا سحر منصبه ودهاء آل ميديتشى . ومن ثم فإذا كان ليو قد أثار الملك على الإمبراطور ، وانتقل من جانب إلى جانب بالحيلة والمراوغة ، ووقع مع كل منهما المعاهدات ضد الآخر ، إذا كان قد فعل هذا بحكم الظروف فليس لنا أن نغالى فى وزن أعماله هـذه بميزان العدالة الصارمة . ذلك أنه لم يكن لديه من السلاح ما يستخدمه لنيل أغراضه غير هذه الوسيلة ، ولقد كان عليه أن يدافع عن تراث الكنيسة الذى وكل أمره إليه ؛ ثم إن أعداءه كانوا هم أيضاً يستخدمون هـذا السلاح نفسه بالإضافة إلى جيوشهم ومدافعهم .

ولقد بقيت الاتفاقات السرية التى عقدت فى ذلك الاجتماع فى طيات الخفاء إلى يومنا هذا . ويلوح أن فرانسس حاول أن يستدرج ليو إلى محالفته ضد أسبانيا ؛ فطلب إليه ليو أن يمهله حتى يفكر فى الأمر — وتلك هى الطريقة الدبلوماسية فى الرفض ؛ وسبب ذلك أن سياسة الكنيسة التقليدية التى طال عليها الأمد لا تسمح بأن تطوق دولة واحدة أملاكها من الشمال والجنوب[١١] . وكانت النتيجة الواضحة الوحيدة لاتفاق عام ١٥١٦ هى

إلغاء قرار بورج التنظيمى The Praqmalie Sanction of Bourges .
وكان هذا القرار المعقود فى عام ١٤٣٨ قد أقام مجلساً عاماً له السلطة العليا على البابوات ومنح ملك فرنسا حق تعيين ذوى المناصب الكنسية الكبرى فى فرنسا . ووافق فرانسس على إلغاء هذا القرار ، بشرط أن يبقى للملك حق الترشيح لهذه المناصب ؛ وقبل ليو هذا الشرط . وقد يبدو أن هذا كان هزيمة للبابا ، ولكن ليو حين قبله إنما كان يجرى على سنة جرى بها العمل فى فرنسا من عدة قرون ؛ وكان بفعله هذا يوفق دون قصد بين الكنيسة والدولة فى فرنسا توفيقاً لا يُبقى للملكية الفرنسية أسباباً مالية لتأييد حركة الإصلاح الدينى . ثم إنه بهذا العمل قد وضع حداً للنزاع الذى طال عليه الأمد بين فرنسا والبابوية على سلطة المجالس والبابوات وحدود هذه السلطة .

واختتم المؤتمر بأن طلب الزعماء الفرنسيون إلى ليو أن يغفر لهم أنهم شنوا الحرب على سلفه ؛ ووجه إليه فرانسس بهذه المناسبة الخطاب قائلا : « أيها الأب المقدس ! ليس لك أن تعجب من أننا كنا أعداء ليوليوس الثانى فقد كان هو على الدوام أعدى أعدائنا ، ولم نلق فى أيامنا خصما أقوى منه ، ذلك بأنه كان فى واقع الأمر قائداً بارعاً ممتازاً ، ولو أنه كان قائداً للجند ، لكان أعظم منه بابا »[١٢] . وغفر ليو ذنوب أولئك التائبين الأشداء على بكرة أبيهم ، وباركهم ، وكادوا فى آخر الاجتماع أن يقطعوا قدميه تقبيلا [١٣] .

وعاد فرانسس إلى فرنسا تعلو هامته هالة من المجد ، واستسلم زمناً ما للعشق واللهو . ولما مات فرديناند الثانى (١٥١٦) ، فكر ملك فرنسا مرة أخرى فى غزو نابلى ، ولعله أراد أن يتخذ هذا العمل وسيلة مجيدة للتخلص من زيادة السكان فى فرنسا . ولكنه مع ذلك عقد معاهدة للصلح مع شارل الأول حفيد فرديناند الذى أصبح الآن ملكاً على أرغونة ، وقشتالة ، ونابلى ، وصقلية . فلما مات مكسمليان (١٥١٩) ، ورشح حفيده شارل ليخلفه على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ظن فرانسس

أنه أجدر بتاج الإمبراطورية من ملك أسبانيا البالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، وأخذ يسعى بنشاط لأن يفوز بالانتخاب لهذا المقام الرفيع . ووجد ليو نفسه مرة أخرى فى أخطر المواقف . لقد كان يفضل أن يؤيد فرانسس ، لأنه رأى أن اتحاد نابلى ، وأسبانيا ، وألمانيا ، والنمسا ، والأراضى الوطيئة ، تحت سلطان مليك واحد ، يوسع رقعة ملكه ، ويزيد ثروته وعدد رجاله زيادة تخل بتوازن القوى ، ذلك التوازن الذى كان فيه حتى ذلك الوقت وقاية للولايات البابوية . لكن اختيار شارل رغم معارضة البابا سينفر منه الإمبراطور الجديد فى الوقت الذى يحتاج فيه أشد الاحتياج إلى معونته للقضاء على الفتنة البروتستنتية . وتردد ليو أطول مما يجب فى أن يشعر الناخبين بنفوذه ؛ واختير شارل الأول إمبراطورا وأصبح هو شارل الخامس . وواصل البابا سياسة توازن القوى فعرض على فرانسس أن يحالفه ؛ ولما تردد الملك كما تردد هو من قبل وقع ليو على حين غفلة اتفاقاً مع شارل (٨ مايو سنة ١٥٢١) ، عرض عليه الإمبراطور الشاب فيه كل شىء تقريباً : عودة بارما وبياتشندسا ، ومعونته ضد فيرارا واوثر ، وإعادة فتح ميلان وإعطائها إلى آل اسفوردسا ، وحماية الولايات البابوية وفلونس إذا هوجمت .

وتجدد القتال فى شهر سبتمبر من عام ١٥٢١ ، وقال الإمبراطور فى ذلك : « إنى أنا وابن عمى فرانسس على تمام الوفاق ؛ فهو يريد ميلان وأنا أريدها »[١٤] . وتولى قيادة القوات الفرنسية فى إيطاليا أوديه ده فوا Odet de Foix, ڤيكونت لوتريه Vicomte de Lautrec . وكان فرانسس قد ولاه هذه القيادة بناء على رجاء أخته التى كانت فى ذلك الوقت عشيقة الملك . وغضبت لويز أميرة سافوى Louise of Sovoy أم الملك من هذا التعيين وحولت فى الخفاء المال الذى أعده فرانسس لجيش لوتريه إلى أغراض أخرى[١٥] ؛ وامتنع من كان فى ذلك الجيش من السويسريين عن القتال لمنع مرتباتهم عنهم . ولما اقترب من ميلان جيش بابوى قوى بقيادة القائد

المحنك برسپرو كرلنا ماركيز پسكارا والمؤرخ جوتشياردينى ، أثار انتصار الإمبراطورية من حزب الجبلين فتنة ناجحة بين الأهلين الذين كانوا يرزحون تحت أعباء الضرائب الفادحة ، انسحب على أثرها لوتريه من المدينة إلى أملاك البندقية ؛ واستولى جنود شارل وليو على المدينة وكادوا لا يريقون فى سبيل ذلك قطرة دماء ؛ وأصبح فرانتشيسكو ماريا اسفوردسا وهو ابن آخر من أبناء لدوفيكو دوقاً لميلان تابعاً للإمبراطور ، وكان فى مقدور ليو أن يواجه الموت وهو فى نشوة الانتصار .

الفصل الخامس

أدريان السادس : ١٥٢٢ – ١٥٢٣

وكان البابا الذى خلفه غير ما كان عليه البابوات فى رومة إبان عصر النهضة : كان بابا عاقداً العزم على أن يكون رجلا مسيحياً مهما كلفه ذلك من جهد . وكان مولده من أسرة وضيعة فى أوترخت Utrecht (١٤٥٩) ، وأشرب حب العلم والتقى من طائفة « إخوان الحياة المشتركة » فى ديفنتر Deventer والفلسفة المدرسية واللاهوت فى لوفان Louvain ؛ واختير فى الرابعة والثلاثين من عمره مديراً لتلك الجامعة ، ثم عين فى سن السابعة والأربعين مربياً لشارل الخامس ، وفى عام ١٥١٥ أرسل فى بعثة إلى أسبانيا ، وفيها أعجب فرديناند بمقدرته الإدارية ، وباستقامته الخلقية إعجاباً حمله على تعيينه أسقفاً لطرطوشة . ولما توفى فرديناند ساعد أدريان الكردنال اكسمينس Ximenes على أن يحكم أسبانيا أثناء غيبة شارل ؛ وفى عام ١٥٢٠ أصبح نائباً للإمبراطور على قشتالة . وظل وهو يتدرج فى معارج الرقى متواضعاً معتدلا فى كل شىء عدا قوة العقيدة ، بسيطاً فى معيشته ، يتعقب الملحدين بحماسة جمعت قلوب الشعب على حبه . ووصلت أنباء فضيلته إلى رومة فاختاره ليو كردنالا ، ولما انعقد المجلس المقدس بعد وفاة ليو رشح أدريان للجلوس على كرسى البابوية ، وكان ذلك فيما يظهر على غير علم منه ، وأكبر الظن أنه كان بتأثير شارل الخامس . وفى الثانى من شهر يناير سنة ١٥٢٢ اختير للجلوس على كرسى البابوية رجل من غير الإيطاليين لأول مرة منذ عام ١٣٧٨ ؛ ومن التيوتون لأول مرة منذ عام ١١٦١ .

ترى كيف يستطيع أهل رومة وهم الذين لا يكادون يسمعون شيئاً عن أدريان يصفحون عن هذه الإهانة التى لحقت بهم باختياره بابا ؟ لقد اتهم

الشعب الكرادلة بأنهم طاشت أحلامهم ، : وأنهم « خانوا دم المسيح » وأذيعت على الشعب منشورات يطلب فيها أصحابها أن يعرفوا كيف « استسلمت الفاتيكان لغضب الألمان »(١٦) . وكتب أريتينو قصة كانت آية في الطعن والهجاء سمى فيها الكرادلة « غوغاء مدنسين » ، ودعا الله أن يواروا الثرى أحياء(١٧) . وغطى تمثال پسكوينو بالمطاعن والهجاء ؛ وتوارى الكرادلة لأنهم كانوا يخشون أن يظهروا أمام الجماهير ، وعزوا هذا الاختيار إلى الروح القدس الذى أوحى به إليهم على حد قولهم(١٨) . وغادر كثير منهم مدينة رومة فراراً من وقاحة الشعب وبطش الإصلاح الكنسى . أما أدريان فقد بقى هادئاً فى أسپانيا ينجز فيها عمله الذى لم يكن قد تم بعد . وأبلغ الحكومة البابوية أنه لا يستطيع القدوم إلى رومة قبل أن يحل شهر أغسطس . ولم يكن يعلم بفخامة الفاتيكان ، فكتب إلى صديق له من أهل رومة يطلب إليه أن يستأجر له بيتاً متواضعاً ذا حديقة ليقيم فيه . ولما قدم إلى المدينة آخر الأمر (ولم تكن عيناه قد وقعتا عليها من قبل) ؛ روع وجهه الأصفر الزاهد وجسمه النحيل من شاهدوه ، وبعثا فى قلوبهم إجلاله ومهابته ؛ ولكنه حين نطق وظهر للإيطاليين أنه لا يعرف اللغة الإيطالية ، وأنه حين يتكلم اللاتينية يخرج الحروف من حلقه ، فكان بذلك بعيداً كل البعد عن النغم الإيطالى العذب والرشاقة الإيطالية ، لما فعل هذا امتلأت قلوب أهل رومة غضباً ويأساً .

وأحس أدريان أنه سجين فى الفاتيكان وأعلن أن ذلك القصر أليق بقسطنطين منه بالقديس بطرس . وأمر بوقف جميع أعمال الزخرفة فى حجره ، وأقال جميع أتباع رفائيل الذين كانوا يقومون بهذا العمل ، وأبعد جميع السائسين الأربعمائة الذين كان ليو يستخدمهم فى اسطبلاته عدا أربعة منهم ؛ ولم يبق من خدمه الخصوصيين إلا اثنين لا أكثر — كلاهما من الهولنديين — وأمرهما أن يخفضا نفقات بيته إلى دوقة واحدة (اثنى عشر دولاراً ونصف

دولار) فى اليوم . واشمأزت نفسه مما شاهده فى رومة من الفساد الجنسى ومن بذىء القول والكتابة ، وقال ما قاله اورندسو ولوثر من أن عاصمة المسيحية بؤرة أقذار ومظالم . ولم يكن يعنى أقل عناية بما عرضه عليه الكرادلة من روائع الفن القديم ، وندد بالتماثيل ووصفها بأنها من بقايا الوثنية ، وسور قصر بلفدير الذى كان يحتوى على أحسن مجموعة فى أوربا من التماثيل الرومانية القديمة[١٩] . وكان يفكر فوق ذلك أن يضيق الخناق على الكتاب الإنسانيين والشعراء ، فقد خيل إليه أنهم يعيشون ويكتبون كما يعيش ويكتب الوثنيون الذين نفوا للمسيح . ولما أن هجاه فرانتشيسكو بيرنى بأقذع الألفاظ ووصفه بأنه هولندى همجى عاجز عن فهم ما ينطوى عليه الفن الإيطالى والآداب والحياة الإيطالية من ظرف ورقة ، أنذره أدريان هو وأمثاله بأن سوف يغرق جميع الهجائين فى نهر التيبر[٢٠] .

وكان هم أدريان الأول ومظهر عاطفته الدينية وتقواه فى أثناء ولايته أن يعود بالكنيسة من حالها فى أيام ليو إلى ما كانت عليه فى عهد المسيح . ولهذا اتخذ أقصر الطرق دون مجاملة أو مداجاة لإصلاح ما استطاع أن يصل إليه من المفاسد الكنسية ؛ فألغى ما لا ضرورة له من المناصب ، واستخدم فى ذلك من العنف ما كان فى بعض الأحيان طيشاً منه وعدم بصيرة ؛ وألغى العقود التى ارتبط بها ليو بأن يدفع معاشاً سنوياً لمن ابتاعوا مناصب فى الكنيسة ؛ وبذلك خسر ٢٥٥٠ ممن ابتاعوا هذه المناصب واستثمروا فيها أموالهم ، خسروا رأس المال والفائدة إذا صح هذا التعبير ، وترددت أصداء صرخاتهم فى أرجاء رومة ونادوا بأنهم قد خدعوا ونهبت أموالهم ، وحاول أحد الضحايا أن يغتال البابا ، وقال البابا لأقاربه الذين جاءوه يطلبون أن يعينهم فى مناصب دينية ذات مرتبات مرغدة لا يقابلها عمل يقومون به — قال لهم ارجعوا واكسبوا العيش بالعمل الشريف ، وقطع دابر الرشا ومنح المناصب للأقارب ، وتعقب ما فى الحكومة البابوية من فساد ، وفرض

عقوبات صارمة على الرشوة واختلاس الأموال العامة ، وعاقب الكرادلة المذنبين بنفس العقوبات التي كان يوقعها على أصغر رجال الدين . وأمر الأساقفة والكرادلة أن يعودوا إلى مقر مناصبهم ، وألقى عليهم دروساً في الأخلاق التي يريد منهم أن يتصفوا بها ، وكان مما قاله لهم إن سمعة رومة السيئة أضحت تلوكها الألسنة في جميع أنحاء أوربا . ولم يشأ أن يتهم الكرادلة أنفسهم بالرذيلة ، ولكنه اتهمهم بأنهم يتركون الرذيلة تتفشى في قصورهم دون أن تلقى عقاباً . وطالبهم بأن يضعوا حداً لترفهم ، وأن يقنعوا بإيراد أقصاه ٦٠٠٠ دوقة (٧٥,٠٠٠ دولار) في العام . وكتب سفير البندقية في الفاتيكان وقتئذ يقول : « إن جميع رجال الكنيسة في رومة قد ذهبت عقولهم من شدة الرعب ، حين رأوا ما استطاع البابا أن يفعله في خلال ثمانية أيام »(٢١) .

لكن الأيام الثمانية لم تكف لقطع دابر الفساد كما لم تكف لقطع دابره الثلاثة عشر شهراً من ولاية أدريان النشيطة . لقد أخفت الرذيلة رأسها إلى حين ، ولكنها لم يقض عليها القضاء المبرم ، ذلك أن الإصلاح قد ضايق العدد الجم من الموظفين ، ولقى مقاومة مكبوته ، وأثار أملا في أن يعجل الله منية أدريان . وأحزن البابا وأقض مضجعه عجز الإنسان عن أن يصلح الناس ؛ وكثيراً ما جهر بقوله : « ما أكثر ما تعتمد مقدرة الإنسان وكفايته على العصر الذي يقوم فيه بأعماله ! » — وقال لصديقه القديم هز Heeze وهو قلق مضطرب الخاطر : « ما أكبر الفرق بين هذه الحياة وما كنا ننعم به من هدوء في لوفان ! »(٢٢) .

وكان وهو في هذه المتاعب الداخلية يواجه بأقصى ما يستطيعه من شرف مشاكل السياسة الخارجية الخطيرة . فقد أعاد أربينو إلى فرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى . وترك ألفنسو في فيرارا لايزعجه شيء . ولما أن انتهز الطغاة المطرودون من بلادهم فرصة سياسة البابا السلمية فاستولوا على

زمام السلطة فى پيروچيا ، وريمينى وغيرهما من الولايات البابوية ، أهاب أدريان بالإمبراطور شارل وبالملك فرانسس أن يتصالحا أو فى القليل أن يتهادنا ، ويشتركا فى صد الأتراك الذين كانوا يستعدون لغزو رودس . ولكن شارل فضل أن يوقع مع هنرى الثامن ملك إنجلترا معاهدة وتزر Windsor (١٩ يونية سنة ١٥٢٢) التى تعهدا فيها بالاشتراك فى الهجوم على فرنسا ، وفى الحادى والعشرين من ديسمبر استولى الأتراك على رودس آخر معاقل المسيحية فى شرقى البحر المتوسط ، وترددت الإشاعات بأنهم يضعون الخطط للنزول بأپوليا والاستيلاء على إيطاليا المضطربة المختلة النظام . ولما اعتقل بعض الجواسيس الأتراك فى رومة بلغ الهلع بين السكان حداً أذكر الناس بالخوف الذى انتشر فيها حين توقعت أن يغزوها هنيبال بعد انتصاره فى كانى عام ٢١٦ ق . م . وكان مما أترع الكأس ألما لأدريان أن الكردنال فرانتشيسكو سُدِرينى كبير وزرائه وموضع ثقته ، ونائبة الأول فى المفاوضات التى كانت تهدف إلى عقد صلح أوربى ، أخذ يدبر فى السر مع فرانسس هجوماً فرنسياً على صقلية . ولما أن كشف أدريان المؤامرة ، وترامى إليه أن فرانسس يحشد الجند على حدود إيطاليا ، خرج عن الحياد وعقد حلفاً بين البابوية وشارل الخامس . وبعد أن تحطم جسمه وروحه على هذا النحو أصابه المرض ومات فى الرابع عشر من سبتمبر عام ١٦٢٣ . وأوصى بتوزيع أملاكه كلها على الفقراء ، وكان آخر ما أصدره من التعليمات أن تكون جنازته هادئة قليلة النفقة .

وحيت رومة موته ببهجة أعظم مما كانت تحيى بها المدينة نجاتها من الترك لو أنهم جاءوها فاتحين . وقال بعضهم إنه قد سُمَّ لمعاداته الفنون ، وألصق أحد الماجنين على باب طبيب البابا رقعة كتب عليها بالإيطالية Liberratiori Patriae تليها الحروف الآتية S P Q R يعبر بها عن شكر مجلس الشيوخ وشعب رومة « لمحرر الوطن » . وكتب عدد لا حصر له من عبارات الهجاء

لتسوئة سمعة الحبر المتوفى ، فاتهم بالنهم ، والسكر ، وأفظع أنواع الفساد الخلقى ، وبدل الحقد والسخرية كل عمل قام به فى حياته فأصبح شراً وخبثاً ، واحتفرت « صحافة » رومة بما كان باقياً لها من حرية بمقالاتها فى الطعن على البابا قبرها بنفسها : لقد كان مما يؤسف له أن أدريان لم يستطع أن يفهم النهضة على حقيقتها ، ولكن عجز النهضة عن أن تسمح بوجود بابا مسيحى فى عهدها كان أكثر من ذلك جرماً وأشد حماقة :

الفصل السادس

كلمنت السابع

الفترة الأولى من حياته

ظل المجمع المقدس الذى اجتمع فى أول اكتوبر سنة ١٥٢٢ سبعة أسابيع فى نزاع دائم حول اختيار من يخلف أدريان ، ثم انتهى أخيراً بترشيح رجل كان بإجماع الآراء خير من يصلح لهذا المنصب . كان جوبليو ده ميديتشى ابنا غير شرعى للرجل الظريف جوليانو الذى خر ضحية مؤامرة پاتسى من عشيقة له تدعى فيورنتا ما لبثت أن اختفت من صفحات التاريخ . وأخذ لورنسو الغلام إلى بيته بين أسرته ورباه مع أبنائه ؛ وكان منهم ليو الذى أعفى وهو بابا جوليو من العقبة القانونية القائمة فى سبيله ، وهى أنه ابن غير شرعى ، ثم عينه كبير الأساقفة فى فلورنس ، ثم رقاه كردنالا ، ثم كان المدير الحازم لمدينة رومة ، وكبير وزراء حكومته البابوية . ولما بلغ كلمنت الخامسة والأربعين كان طويل القامة ، وسيم الخلق ، عظيم الثراء غزير العلم ، حسن الآداب ، طيب السيرة ، يعجب بالآداب ، والعلوم ، والموسيقى ، والفن ، ويناصرها . ورحبت رومة بارتقائه الكرسى البابوى بالفرح والابتهاج ورأت فيه دعوة إلى عهد ليو الذهبى ، وتنبأ بمبو بأن كلمنت السابع سيكون خير من عرفتهم الكنيسة من حكامها وأعظمهم حكمة(٣٣) .

وبدأ عهده أحسن بداية ، فوزع على الكرادلة جميع المناصب الدينية التى كانت له ، والتى كانت تدر عليه دخلا سنوياً مقداره ٦٠٫٠٠٠ دوقة . وقد

جمع حوله قلوب العلماء والنساخين باجتذابهم إلى خدمته ، أو نفحهم بالهبات ، ووزع العدالة بين الناس بالقسطاس المستقيم ، واستمع إلى كل من له شكاية ، ومنح الصدقات بسخاء ، إذا كان أقل من سخاء ليو فإنه كان أكثر منه حكمة ، وسحر جميع القلوب بمجاملته كل إنسان وكل طبقة . وقصارى القول أن بابا من البابوات لم يبدأ حكمه بداية طيبة مثل بدايته ولم يختتمه بأسوأ من خاتمته .

وكان العمل الذى يواجه كلمنت وهو قيادة سفينة البابوية السياسية الطريق المأمون بين فرانسس وشارل فى حرب تكاد تكون حرب حياة أو موت ، فى الوقت الذى كان الأتراك يجتاحون فيه بلاد المجر ، وكانت الثورة تشتعل نارها فى ثلث أوربا ضد الكنيسة ، كان هذا العمل أكثر مما تستطيعه مقدرة كلمنت كما كان أكثر مما تستطيعه مقدرة ليو . وخليق بنا أن نقول إن الصفات التى تبرزها الصورة الفخمة التى رسمها سبستيانو دل پيومبو لكلمنت فى بداية حكمه صورة خادعة . ذلك أنه لم يظهر فى أعماله تلك العزيمة الماضية التى تبدو واضحة فى ملامح وجهه ، وحتى فى هذه الصورة يبدو شىء من الملل والضعف فى الجفون المتعبة المنسدلة فوق العينين الضجرتين . والحق أن كلمنت قد اتخذ ضعف العزيمة خطة له وسياسة مرسومة . وكان يسرف فى التفكير ويظنه خطأ بديلا من العمل ، بدل أن يكون هادياً له ومرشداً . ولقد كان فى وسعه أن يجد مائة سبب وسبب لاتخاذ قرار بإبرام أمر من الأمور ، ومائة سبب وسبب مثلها تبرر عدم إبرامه ، وكأنما كان أغبى المخلوقات طراً يجلس على عرش البابوية . وقد هجاه بيرنى فى أبيات مريرة تتنبأ بحكم الخلف عليه فقال :

بابوية تتألف من التحيات ،

والمناقشات ، والاعتبارات ، والمجاملات

ومن عبارات أكثر من هذا ، ومن ثم ، ونعم ، وحسن ، وربما ،

وقد يكون ، وما إليها من الألفاظ المتناقضة . . .

ومن قدمين ثقيلتين كالرصاص ، وحياد بارد خامل . . .

وإن شئت الحق الصريح ، فإنك ستعيش لترى .

البابا أدريان وقد نودى به قديساً بفضل هذه البابوية(٢٤) .

واتخذ له من المستشارين چيان ماتيو جبرتى Gianmatteo Giberti الذى كان يميل إلى فرنسا ، ونيقولوس فن اسكونبرج Nikolaus von Scgönberg الذى كان يميل إلى الإمبراطورية ، وترك عقله مشتتاً بين الرجلين ، ولما أن قرر الانحياز إلى فرنسا — قبل أسابيع قليلة من الكارثة التى حلت بها فى پافيا — استنزل على رأسه وعلى بلده كل ما يتصف به شارل من مكر ودهاء ، وكل ما له من قوة ، وكل ما يثور فى قلوب الجيش البروتستنتى من غضب دفين صبه على رومة .

وكانت الحجة التى يبرر بها كلمنت موقفه أنه يخشى قوة الإمبراطور وفى يده لمباردى ونابلى ؛ ويرجو بانحيازه إلى فرنسا أن يحصل على صوتها حين يعرض شارل فكرته التى تراوده وتقلق خاطره وهى تأليف مجلس عام يفصل فى أمور الكنيسة . ولما عبر فرانسس جبال الألب بجيش جديد قوامه ٢٦,٠٠٠ من الفرنسيين ، والإيطاليين ، والسويسريين ، والألمان ، واستولى على ميلان ، وحاصر پاڤيا ، وقع كلمنت سراً شروط حلف مع فرانسس (١٢ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى الوقت الذى كان يؤكد فيه لشارل وفاءه ومودته ؛ ثم ضم فلورنس والبندقية إلى هذا الحلف ، وأجاز لفرانسس المنتصر على كره منه أن يجمع الجند من الولايات البابوية ، وأن يرسل جيشاً ليحارب نابلى مخترقاً أراضى البابا . ولم يغفر له شارل قط هذه الخديعة ، وأقسم قائلا : « لأذهبن إلى إيطاليا ، وأثأر لنفسى ممن أساءوا إلى ، وعلى رأسهم البابا الجبان النذل . ولعل مارتن لوثر سيصبح رجلا ذا شأن فى يوم من الأيام »(٢٥) . وفكر بعض الناس وقتئذ فى اختيار لوثر

بابا ، وأشار عدد ممن يحيطون بالإمبراطور أن يطعن فى اختيار كلمنت بحجة أنه ابن غير شرعى[٢٦] .

وسير شارل جيشاً ألمانيا بقيادة چورج ڤن فرندسبرج Georg von Frundsberg وماركيز پيسكارا Marquis of Pescara ليهاجم الفرنسيين خارج پاڤيا . وعطلت الحركات العسكرية الضعيفة عمل المدفعية الفرنسية ، فى الوقت الذى كانت فيه نيران البنادق الأسپانية تهزأ برماح السويسريين ؛ وكاد الجيش الفرنسى أن يفنى عن آخره فى موقعة من أشد المواقع الحاسمة فى التاريخ (٢٤ — ٢٥ من فبراير سنة ١٥٢٥) . وسلك فرانسس فى هذه المحنة مسلك الشهامة والكرامة : فبينا كان جيشه يتقهقر إذا هو يقفز فى وسط صفوف العدو ويقتل بيده منهم مقتلة عظيمة ؛ ولما قتل جواده من تحته لم ينقطع عن القتال ، حتى إذا خارت قواه آخر الأمر ، ولم يعد يقوى على المقاومة ، وقع فى الأسر مع عدد من ضباطه . وكتب من خيمة بين المنتصرين إلى أمه رسالة كثيراً ما يقتبس نصف عباراتها المقتبسون ، قال فيها « لقد خسرنا كل شىء إلا الشرف — وإلا بدنى فهو سليم » . وأمر شارل وكان وقتئذ فى أسپانيا أن يرسل الملك ليسجن فى قلعة قرب مدريد .

وانحازت ميلان إلى الإمبراطور ، وشعرت إيطاليا كلها أنها أصبحت تحت رحمته ، ونفحته دولة إيطالية فى إثر دولة بالرشا المختلفة لكى يسمح لها بالبقاء . وخشى كلمنت أن يغزو جيش الإمبراطور بلاده ، وأن يثور الشعب فى فلورنس على آل ميديتشى ، فخرج من حلفه مع فرنسا وأمضى (فى أول أبريل سنة ١٥٢٥) معاهدة مع شارل ده لانوى Charles de Lannoy عامل شارل على ناپلى ، تعهد فيها البابا والإمبراطور بأن يتعاونا فيما بينهما ؛ فيحمى الإمبراطور آل ميديتشى فى فلورنس ويرضى أن يقيم فرانتشيسكو ماريا اسفورزا نائباً عنه فى ميلان ؛ على أن يدفع البابا لشارل مقابل إهاناته السابقة له ، وضماناً لخدمات الإمبراطور المستقبلة ، مائة ألف دوقة

(١,٢٥٠,٠٠٠ دولار)[٢٧] ، كانت الجيوش الإمبراطورية فى أشد الحاجة إليها . ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى أغض كلمنت البصر عن مؤامرة دبرها چيرولومو موورونى Girolomo Morone لتحرير ميلان من سيطرة الإمبراطور . وكشف مركيز پيسكارا سر هذه المؤامرة لشارل ، وزج موورونى فى السجن . وعامل شارل فرانسس الأسير بالمماطلة التى يعامل بها السنور الفأر الواقع فى قبضته ، ذلك أنه بعد أن خدر أعصابه بسجنه ومجاملته أحد عشر شهراً ، وافق على أن يطلق سراحه مشترطاً عليه ذلك الشرط المستحيل التنفيذ ، وهو أن يسلم الملك كل ما لفرنسا من الحقوق ، ثابتة كانت أو مزعومة ، على چنوى ، وميلان ، ونابلى ، وفلاندرز ، وآرتوا ، وتورناى ، وبرغندية ، ونبره (ناڤار) ؛ وأن يمد فرانسس شارل بما يحتاجه من السفن والرجال لتسيير حملة على رومة أو على الأتراك ، وأن يتزوج فرانسس إليانورا أخت شارل ، وأن يسلم الملك أكبر ابنيه وهما فرانسس البالغ من العمر عشر سنين ، وهنرى البالغ تسعاً إلى شارل ليكونا رهينتين عنده ضماناً للوفاء بهذه الشروط . ووافق فرانسس على هذه الشروط كلها بمقتضى معاهدة مدريد (١٤ يناير سنة ١٥٢٦) . وأكد هذه الموافقة بأغلظ الأيمان ، وإن كان ضميره يداجى ويوارب . وسمح له بعدئذ فى السابع عشر من مارس أن يعود إلى فرنسا تاركاً ولديه سجينين فى مكانه . فلما وصل إليها أعلن أنه لا ينوى الاستمساك بالوعود التى بذلها تحت الضغط والإرهاب ؛ وأعفاه كلمنت مستعيناً بالقانون الكنسى من التمسك بأيمانه ، وفى الثانى والعشرين من مايو وقع فرانسس ، وكلمنت ، والبندقية ، وفلورنس ، وفرانتشيسكو ماريا اسفوردسا حلف كنياك ، وتعهدوا فيه بإرجاع آستى ، وچنوى إلى فرنسا ، وإعطاء اسفوردسا ميلان إقطاعية فرنسية ، وأن ترد إلى كل ولاية إيطالية كل ما كان لها من أملاك قبل الحرب ، وأن يفتدى الأسرى الفرنسيون بمليونى كرون ، وأن تمنح نابلى

لأى أمير إيطالى يرضى أن يؤدى عنها إلى ملك فرنسا جزية سنوية مقدارها ٧٥,٠٠٠ دوقة . ووجهت دعوة رقيقة إلى الإمبراطور لتوقيع هذا الاتفاق . وقرر الحلف الجديد أنه إذا رفض الإمبراطور توقيع شروطه ، حاربه حتى يطرد هو وجميع قواته من إيطاليا(٢٨) .

ونددد شارل بالحلف وأعلن أنه يناقض الأيمان المقدسة التى أقسمها فرانسس ، كما يناقض شروط المعاهدة التى وقعها كلمنت مع لانوى . وإذ كان هو غير قادر على الذهاب إلى إيطاليا فى ذلك الوقت ، فقد كلف هوجو ده منكادا Hugo de Moncada بأن يجتذب كلمنت إلى صفه بالوسائل الدبلوماسية ، فإذا عجز أثار ثورة على البابا يقوم بها آل كولنا وسكان رومة . وقام منكادا بهذه المهمة أحسن قيام ، وأوثق صلات المودة بين كلمنت وآل كولنا ، وأقنع البابا بأن يسرح الجنود الذين يقومون بحراسته ، وسمح لآل كولنا بأن يمضوا فى تآمرهم للاستيلاء على رومة . وبينا كانت المسيحية ماضية فى الغدر والاقتتال على هذا النحو ، كان الأتراك بقيادة سليمان القانونى يضربون أهل المجر الضربة القاسية فى موهاكس Móhacs (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٦) ، ويستولون على بودابست (١٠ سبتمبر) . وارتاع كلمنت لخوفه من أن لا تصبح أوربا پروتستنتية فحسب ، بل مسلمة أيضاً ، فأعلن إلى الكرادلة أنه يفكر فى الذهاب إلى برشلونة بنفسه ليطلب إلى شارل أن يعقد الصلح مع فرانسس ، وأن يضم العاهلان قواتهما لمحاربة الأتراك . وكان شارل فى ذلك الوقت يجهز أسطولا ، يقصد به كما قيل فى رومة ، أن يغزو إيطاليا ويخلع البابا(٢٩) .

وفى العشرين من سبتمبر دخل آل كولنا رومة ومعهم خمسة آلاف جندى ، وتغلبوا على ما لقوا من مقاومة ضعيفة ، ونهبوا قصر الفاتيكان وكنيسة القديس بطرس ، وبورجو ڤتشيو القريبة منها ، وفر كلمنت إلى قلعة سانت أنجيلو . وجرد قصر البابا من كل ما فيه بما فى ذلك الصور

التى رسمها رفائيل على أقمشة الجدران وسرق تاج البابا نفسه ، والأوانى المقدسة ، والمخلفات المدخرة ، والملابس البابوية الثمينة ؛ وخرج جندى استخفه المرح فارتدى ثوب البابا الأبيض ، وقلنسوته الحمراء ، وأخذ يوزع البركات البابوية بوقار ساخر(٣٠) . وفى اليوم التالى رد منكادا لكلمنت التاج البابوى ، وأكد له أن الإمبراطور لايضمر للبابوية إلا الخير ، وأرغم البابا المرتاع أن يوقع هدنة مع الإمبراطورية تدوم أربعة أشهر ، وأن يعفو عن آل كولنا .

ولم يكد منكادا ينسحب إلى نابلى حتى حشد كلمنت قوة بابوية جديدة قوامها سبعة آلاف جندى ، أمرها فى آخر شهر اكتوبر بأن تزحف على حصون آل كولنا ، وطلب فى الوقت نفسه إلى فرانسس الأول وهنرى الثامن أن يمداه بالعون ؛ فأما فرانسس فقد بعث إليه يعتذر ويسوف ، وأما هنرى فقد كان منهمكا فى الواجب الثقيل واجب إنجاب ابن يخلفه ، ولهذا لم يرد بشىء . وكان ثمة جيش بابوى آخر فى الجنوب أعجزته عن العمل سياسة التسويف الغادرة فى ظاهرها التى جرى عليها فرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى دوق أربينو الذى لم ينس أن ليو العاشر أخرجه من دوقيته ، ولم يكن يرى فى سماح أدريان وكلمنت له بالعودة إليها والبقاء فيها فضلا لهما كبيراً يشكره لهما . وكان مع هذا الجيش قائد أعظم منه بسالة هو الشاب جيوفنى ده ميديتشى الوسيم الخلق ابن كتريتا اسفوردسا الذى ورث عنها روحها العالية والذى سمى جيوفنى دلى باندى نيرى — جيوفنى ذا الرباط الأسود — لأنه هو وجنوده قد لبسوا شرائط سوداً حزناً على موت ليو(٣١) . وكان جيوفنى هذا يتحرق شوقاً إلى قتال ميلان ، ولكن فرانتشيسكو ماريا تغلب عليه .

الفصل السابع

نهب رومة : ١٥٢٧

وكان شارل لايزال مقيما فى أسپانيا يحرك منها بيادقه التى يسيطر عليها سيطرة الساحر من بعيد . ومنها أمر عماله بأن يحشدوا جيشاً جديداً . فاتصل هؤلاء بجورج ڤن فرندنسبرج الزعيم التيرولى المغامر ، الذى كانت جنوده الألمانية المرتزقة قد ذاعت شهرتها فى الآفاق . ولم يكن فى وسع شارل أن يعرض على هذا الزعيم المغامر وجنوده إلا القليل من المال ، ولكن عماله منوهم بالنهب الكثير فى إيطاليا . وكان فرندسبرج لايزال كاثوليكيا بالاسم ، ولكنه كان شديد العطف على لوثر ، ويكره كلمنت لأنه فى رأيه عدو الإمبراطورية اللدود . ورهن هذا الزعيم المغامر قصره وسائر أملاكه ، وحتى حلى زوجته نظير مبلغ ٣٨,٠٠٠ جولدن(*) . واستطاع بهذا المال أن يجمع عشرة آلاف من الرجال الراغبين أشد الرغبة فى المغامرة والنهب ، ليس منهم من يتردد فى أن يحطم حربته فوق رأس البابا ؛ ويقال إن منهم من كان يحمل حبلا معقوداً ليشنقه به[٣٢] . وفى نوفمبر من عام ١٥٢٦ عبر هذا الجيش المرتجل الجبال وزحف على بريشيا ، وجازى ألفنسو دوق فيرارا البابوية على ما بذلته من جهود متكررة لخلعه ، بأن أرسل إلى فراندسبرج أربعة من أقوى مدافعه . وحدثت مع الغزاة مناوشة بالقرب من بريشيا أصيب فيها چيوفنى دلى باندى بالرصاص ؛ ومات فى مانتوا فى ٣٠ نوفمبر وهو فى السادسة والعشرين من عمره . ولم يبق بعد وفاته من يمنع دوق أربينو من أن يفعل أى شىء يريد .

(*) عملة ألمانية وهولندية قديمة تعادل الفلورين ، أى ما يقرب من نصف جنيه . (المترجم)

وعبر غوغاء فرندسبرج نهر البو كما فعل نجوفني ونهبوا حقول لمباردى الغنية نهباً بلغ من شدته أن السفراء الإنجليز وصفوا أرضه بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت بأنها « أشقى أرض وجدت فى العالم المسيحى فى وقت من الأوقات »(٣٣) . وكان قائد جيش الإمبراطور وقتئذ فى ميلان هو شارل دوق بوربون ، الذى عين وقتئذ قائداً أعلى للجيوش الفرنسية لما أظهره من البسالة فى مارنيانو . وكان شارل هذا قد خرج على فرانسس حين حرمته أم الملك ، حسب اعتقاده ، من أراضيه الخاصة ؛ فانحاز إلى الإمبراطور ، وكان له نصيب فى هزيمة فرانسس فى پاڤيا ، وعين دوقاً لميلان . وأراد وقتئذ أن يجند جيشاً لمساعدة شارل ويؤدى له مرتباته ، ففرض من الضرائب على أهل ميلان ما كاد يقتلهم قتلا ، وكتب إلى الإمبراطور يقول إنه استنزف دماء المدينة ؛ وكان جنوده الذين أسكنهم فى بيوت أهلها لا يفتأون يضايقونهم بالسرقة ، والمعاملة الوحشية ، وهتك الأعراض ، مما حمل كثيرين منهم على أن يشنقوا أنفسهم أو ينتحروا بإلقاء أنفسهم من الأماكن العالية فى الشوارع(٣٤) وفى أوائل شهر فبراير من عام ١٥٢٧ خرج بوربون على رأس جيشه من ميلان ، وضمه إلى جيش فرندسبرج بالقرب من پيانشندسا . واتجه هذا الجيش المختلط الذى بلغت عدته الآن ٢٢,٠٠٠ جهة الشرق متتبعاً طريق إيمليا ، متجنباً المدن الحصينة ، ولكنه ينهب كل ما يجده فى طريقه ويترك البلاد وراءه قاعاً صفصفا .

ولما تبين كلمنت أن ليس لديه من الجنود ما يكفى لصد الغزاة ، توسل إلى لانوى أن يعمل لعقد هدنة . وجاء هذا الحاكم من نابلى ووضع شروط هدنة مدتها ثمانية أشهر : وتتضمن أن يقف كلمنت وكولنا الحرب ويتبادلا ما فتحاه من الأرضين . ودفع البابا ستين ألف دوقة يرشو بها جيش فرندسبرج حتى يبقى خارج الولايات البابوية . ورأى كلمنت أنه أوشك على الإفلاس ، وظن أن فرندسبرج وبوربون سيراعيان شروط الاتفاق الذى

وقعه نائب الإمبراطور بشرف وأمانة ، فخفض جيش رومة إلى ثلثمائة جندى لا أكثر . غير أن جنود بوربون السارقين النهابين ثاروا غضابا حين سمعوا بشروط الهدنة . ذلك أنهم ظلوا أربعة أشهر يقاسون آلاف الصعاب وكل ما يأملونه هو نهب رومة ؛ وكانت كثرتهم الغالبة ترتدى الآن أسمالا بالية ، وتمشى حافية الأقدام ؛ وكانوا كلهم جياعاً ولم يتناول منهم أحد مرتبه . ولهذا أبوا أن يشتروا بمبلغ تافه لا يزيد على ستين ألف دوقة ، يعرفون أنه لن يصل إلى جيوبهم منه إلا جزء قليل . وإذ كانوا يخشون أن يوقع بوربون شروط الهدنة ، فقد حاصروا خيمته ، ورفعوا عقيرتهم قائلين : « الأجور ! الأجور ! » واختفى بوربون فى مكان آخر ، ونهب الجند خيمته ، وحاول فرندسبرج أن يهدئ ثورة غضبهم ، ولكنه أصابته نوبة تشنجية فى أثناء هذه المحاولة ، ولم يشترك بعدها فى الحملة حتى مات بعد عام واحد من ذلك الوقت . وتولى بوربون القيادة العليا على شرط أن يزحف على رومة . وفى التاسع والعشرين من مارس بعث برسله إلى لانوى وكلمنت يبلغهما أنه لا يستطيع كبح جماح جنوده ، ولهذا فهو مرغم على نقض الهدنة .

وأدركت رومة أخيراً أنها هى الفريسة الضعيفة المقصودة . وفى يوم خميس الصعود (٨ إبريل) بينا كان كلمنت يمنح بركته لجموع محتشدة تبلغ عشرة آلاف نفس أمام كنيسة القديس بطرس ، إذ صعد شخص متعصب متهور ، لا يلبس إلا ميدعة من الجلد ، فوق تمثال القديس بولص وصاح فى وجه البابا قائلا : « أيها النغل اللائط ! إن رومة ستدمر بسبب خطاياك ؛ فكفر عن ذنوبك وارجع عن غيك ! وإذا لم تصدقنى فسترى بعد أربعة أشهر ما يحل بها » . وفى مساء يوم عيد الفصح أخذ هذا الزاهد الناسك — بارتولميو كاروسى Bartolommeo Carosi الذى يطلق عليه اسم برنداتو Brandano — يطوف بالشوارع وهو يصيح : « رومة ، كفرى

عن ذنوبك ! إنهم سيعاملونك كما عامل الله سدوم وعمورة »(٣٥) .

وأرسل بوربون إلى كيمنت يطلب ٢٤٠,٠٠٠ دوقة ، ولعله كان يأمل أن يرضي جنوده بهذه الزيادة الكبيرة في ماله ؛ فرد عليه كلمنت بأنه عاجز كل العجز عن جمع هذه الفدية الضخمة . وزحف الجحفل اللجب إلى فلورنس ، ولكن جوتشيارديني دوق أربينو . ومركيز سالتسو كانا قد حشدا من الجنود ما يكفي للدفاع عن حصونها دفاعاً قوياً ؛ ولهذا ارتدت تلك الجحافل خاسرة ، واتخذت طريقها إلى رومة . ووجد كلمنت أن الهدنة غير كفيلة بنجاته ، فانضم إلى حلف كنياك المناوئ لشارل ، وطلب المعونة من فرنسا ، ودعا أغنياء رومة أن يسهموا في جمع المال اللازم للدفاع عنها ، فكانوا أشحاء في الاستجابة إلى رغبته ، واقترحوا عليه طريقة أجدى من هذه وهي بيع القلانس الحمر(*) . ولم يكن كلمنت قد باع المناصب بالمال إلى جماعة الكرادلة ، ولكنه أخذ بهذا الاقتراح حين وصل جيش بوربون إلى ڤيتربو التي لا تبعد عن رومة بأكثر من اثنين وأربعين ميلا ، وباع ستة من هذه المناصب . وقبل أن يؤدي المرشحون المال أبصر البابا من نوافذ الفاتيكان الجحافل الجياع تتقدم مجتازة حقول نيرون ، وكان لديه في ذلك الوقت أربعة آلاف جندي يدفعون عن رومة ضد عشرين ألفاً من المهاجمين .

وفي السادس من مايو اقتربت جموع بوربون من الأسوار مستترة بالضباب ، ولكنها صدت عنها بوابل من الرصاص ، وأصيب بوربون نفسه برصاصة قضت عليه لساعته تقريباً . ولكن هذا لم يمنع المهاجمين من أن يعاودوا الهجوم ، لأنهم لم يكن أمامهم غير واحدة من اثنتين ، فإما أن يستولوا على رومة وإما أن يموتوا جوعاً . واتفق أن عثروا على موقع ضعيف في خط الدفاع ، فاخترقوه عنوة ، وتدفقوا إلى داخل المدينة .

(*) قلانس الكرادلة — أي بيع مناصبهم بالمال . (المترجم)

وحارب حرس رومة ، والحرس السويسرى ببسالة ، ولكنهما أبيدا عن آخرهما . وفر كلمنت ؛ ومعظم الكرادلة المقيمين فى المدينة ومئات من الموظفين إلى قلعة سانت أنجيلو حيث حاول تشيليني وغيره أن يقفوا زحف الغزاة بنار المدفعية . ولكن الغزاة دخلوا المدينة من اتجاهات مختلفة أوقعت الارتباك فى صفوف المدافعين ، فمن المهاجمين من سترهم الضباب ، ومنهم من اختلطوا بالفارين اختلاطاً لم تستطع معه مدافع القلعة أن تضربهم من غير أن تقتل معهم الجماهير التى فقدت قوتها المعنوية ، وما لبثت المدينة أن أصبحت تحت رحمة الغزاة .

ولما اندفع هؤلاء فى شوارعها أخذوا يقتلون كل من واجهوه فى طريقهم دون أن يفرقوا بين الرجال ، والنساء ، والأطفال . واشتد تعطشهم إلى سفك الدماء ، فدخلوا مستشفى سانتو اسپيرتو (الروح القدس) وملجأ اليتامى فيه ، وذبحوا كل من فيهما من المرضى كلهم تقريباً . ثم اتجهوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وذبحوا من لجأوا إلى هذا الحرم المقدس ، ونهبوا بعدئذ كل ما استطاعوا أن يصلوا إليه من الكنائس والأديرة ، وحولوا بعضها إلى اسطبلات لخيولهم ، وقتلوا مئات من القساوسة ، والرهبان ، والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وجردت كنيسة القديس بطرس والفاتيكان من أعلاها إلى أسفلهما من كل ما فيهما ، وربطت الخيول فى حجرة رفائيل(٣٦) . ونهب كل بيت فى رومة وحرق الكثير منها عدا اثنين لا أكثر هما قصر الكانتشيلريا Cancelleria الذى كان يشغله الكردنال كولنا ، وقصر آل كولنا الذى لجأت إليه إزبلا دست ، ومعها بعض أغنياء التجار ، ونفح هؤلاء زعماء الغوغاء بخمسين ألف دوقة لينجوهم من الهجوم ، ثم سمحوا لألفين من اللاجئين أن يحتموا وراء الأسوار . وأدى كل قصر من القصور الفدية نظير حمايته ، ولكن هذه القصور نفسها هاجمتها جماعات أخرى واضطرت أن تفتدى نفسها من جديد . وقد حدث فى معظم البيوت أن

اضطر من فيها جميعاً إلى افتداء أنفسهم بمبلغ محدد ؛ فإذا لم يوفوا به كله تعرضوا لألوان من العذاب ، وقتل منهم آلاف ، وألقي بالأطفال من النوافذ العليا ، لكي يضطر آباؤهم إلى إخراج ما اكتنزوه من المال وأخفوه ، حتى غصت الشوارع بالقتلى . وشهد الثرى دومينيكو صاحب الملايين بعينيه أبناوه يقتلون ، وابنته يهتك عرضها ، وبيته يحرق ، ثم انتهى الأمر بقتله هو نفسه . ويقول بعض الواصفين : « ولم تكن فى المدينة كلها نفس فوق الثالثة من العمر لم تضطر إلى أن تبتاع سلامتها بالمال »(٣٧) .

وكان نصف الغوغاء المنتصرين من الألمان ، لم يكن يشك معظمهم فى أن البابوات والكرادلة لصوص ، وأن ثروة الكنيسة فى رومة سرقة ونهب من الأمم ، وفضيحة للعالم . وأرادوا هم أن يخففوا من هذه الفضيحة ، فاستولوا على جميع ما فى الكنائس من ثروة منقولة بما فيها من الأوانى المقدسة ، والتحف الفنية ، وخرجوا بها ليذيبوها أو يفتدوا بها أنفسهم ، أو يبيعوها . أما المخلفات المقدسة فقد تركوها مبعثرة على الأرض . وارتدى أحد الجنود الأثواب البابوية ، ولبس غيره قلانس الكرادلة ، وقبلوا قدميه ، ونادى جماعة من الغوغاء فى الفاتيكان بلوثر بابا . وكان أتباع مذهب لوثر من الغزاة يجدون لذة خاصة فى نهب أموال الكرادلة ، وتقاضى فديات عالية منهم نظير تركهم أحياء ، وتعليمهم مراسم دينية جديدة . ويقول جوتشياردينى إن بعض الكرادلة « أركبوا دواب قذرة حقيرة ، وأديرت وجوههم نحو ذيولها وعليهم ملابس مناصبهم وشاراتها ، وطاف الغوغاء ببعضهم فى شوارع المدينة معرضين لأقسى ضروب السخرية والاحتقار ؛ وعذب بعض من لم يستطيعوا جمع كل ما طلب إليهم من مال الفداء تعذيباً قضى على حياتهم فى التو والساعة أو بعد أيام قلائل »(٣٨) . وأنزل أحد الكرادلة فى قبر من القبور وهدد بأنه سيدفن فيه حياً إن لم يأت بالفدية فى زمن محدد ؛ وجاء هذا المال فى اللحظة الأخيرة(٣٩) . ولم يلق الكرادلة الألمان ، الذين ظنوا

أنفسهم بمنجاة من شر أبناء وطنهم ، خيرا مما لقيه غيرهم . وهتكت أعراض الراهبات والمحصنات من النساء فى بيوتهن أو فى الأديرة نفسها ، أو حملن ليشبع فيهن جماعات من الجند شهواتهم بوحشية فى أماكنهم(٤٠) . وهوجمت النساء على أعين أزواجهن أو آبائهن ؛ واستبد اليأس بكثيرات من الفتيات بعد هتك أعراضهن فأغرقن أنفسهن فى نهر التيبر(٤١) .

وكان الدمار الذى حاق بالكتب ، والمخطوطات ، ونفائس الفن يجل عن الوصف . واستطاع فليبرت Philibert ، أمير أورنج Prince of Orange الذى تولى وقتئذ قيادة هذه الحشود المختلة النظام ، أو ما يشبه قيادتها ، استطاع هذا الأمير أن ينقذ مكتبة الفاتيكان باتخاذها مقراً لقيادته ، ولكن كثيراً من مكتبات الأديرة والمكتبات الخاصة التهمتها النيران ، وضاعت بذلك كثير من المخطوطات القيمة . ونهبت كذلك جامعة رومة وبدد شمل موظفيها . وشهد العالم كولوتشى بيته يحترق عن آخره هو وما جمعه فيه من المخطوطات وروائع الفن . وأبصر الأستاذ بالدوسى تعليقاته الجديدة على كتاب پلنى تتخذ لإشعال نار فى معسكر الناهبين . وفقد الشاعر ماروني Marone قصائده ، ولكنه كان أسعد حظاً من غيره ؛ أما الشاعر پاولو بمباستى Paolo Bombasti فقد قتل ؛ وعذب العالم كرستوفور مارتشيلو Cristoforo Marcello بنزع أظافر يديه ظفراً بعد ظفر ، أما الفنانان پيرينو دل ڤاجا Perino del Vaga ، وماركنتوريو ريمندى Marcantorio Raimoudi وكثيرون غيرهما فقد عذبوا وجردوا من كل ما يمتلكون ، وتفرق شمل مدرسة رفائيل فلم يبق لها وجود .

وليس من المستطاع إحصاء عدد من قتلوا فى هذه الكارثة المدلهمة ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله أن ألفى جثة ألقيت فى نهر التيبر من شاطئه الذى تقع عليه الفاتيكان ؛ وأن ٩٫٨٠٠ من الموتى دفنوا ؛ وما من شك فى أن عدداً آخر كبيراً من الناس قد قتل . وتقدر قيمة المنهوبات تقديراً متواضعاً بأكثر من مليون دوقة ، وقيمة ما دفع من مال الفداء بثلاثة ملايين ، وقدر

كلمنت مجموع الخسائر بعشرة ملايين (٠٠٠ر٠٠٠ر١٢٥ دولار)[٤٣] .

ودام السلب والنهب ثمانية أيام ، كان كلمنت فى خلالها يشاهده بعينيه من أبراج سانت أنجيلو ؛ ويتوسل إلى الله كما توسل إليه أيوب المعذب : « فلماذا أخرجتنى من الرحم ، كنت قد أسلمت الروح ولم ترنى عين»[٤٤] ! وامتنع وقتئذ عن حلق لحيته ، فلم يحلقها بعد ذلك أبداً ، وظل سجيناً فى القلعة من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وهو يأمل أن تأتيه النجاة من جيش دوق أربينو ، أو من فرانسس ، أو هنرى الثامن . وسر شارل ، وكان لا يزال وقتئذ فى أسپانيا ، عند سماعه بسقوط رومة ، ولكنه روع حين ترامت إليه أنباء وحشية الناهبين ، وتنصل من تبعة هذه المنكرات ، ولكنه أفاد كل الإفادة من ضعف البابا وخذلانه . وفى السادس من شهر يونيه أرغم ممثلوه — وقد يكون ذلك على غير علم منه — كلمنت بأن يوقع شروط سلم مهينة ، وافق البابا بمقتضاها على أن يؤدى لهم وللجيش الإمبراطورى ٠٠٠ ر ٤٠٠ دوقة ، وأن يسلم إلى شارل مدائن بياتشنتسا ، وپارما ، ومودينا ، وقصور أستيا ، وتشفيتا فيتشيا ، وسانت أنجلو نفسها ؛ وأن يبقى سجيناً فى هذه القلعة الأخيرة حتى يسلم المائة والخمسين ألفا الأولى من هذا المبلغ ، ثم ينقل بعدئذ إلى جائيتا Gaeta أو ناپلى ، حتى يقرر شارل نفسه مصيره . وسمح لجميع من كانوا فى قلعة سانت أنجيلو بمغادرتها ما عدا كلمنت وثلاثة عشر من الكرادلة ، الذين صحبوه إليها ، وعهد إلى الجنود الأسبان والألمان بحراسة الحصن ، وأبقوا البابا على الدوام تقريباً محصوراً فى جناح ضيق منه ، وصفه جوتشياردينى فى ٢١ يونيه بقوله : « إنهم لم يتركوا له فيه من المتاع ما يساوى عشرة اسكودوات(*) . وأسلم كل ما كان قد أخذه معه فى فراره من الفضة والذهب إلى آسريه ليوفى بذلك مائة ألف دوقة من مال الفداء .

(*) عملة إيطالية كانت موجودة من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر فى إيطاليا وصقلية قيمتها أقل قليلا من الدولار الأمريكى . (المترجم)

وفى هذه الأثناء استولى ألفنسو صاحب فيرارا على رجيو ومودينا اللتين كان لفيرارا فيهما حقوق من أقدم الأزمنة ، كما استولت البندقية على رافنا . وطردت فلورنس آل ميديتشى للمرة الثالثة وأعلنت يسوع المسيح ملكا على الجمهورية الجديدة ، وبدا أن صرح البابوية كله مادياً وروحيا آخذ فى الانهيار ، وحركت مأساة هذا الخراب أسى الناس جميعاً حتى الذين كانوا يشعرون بأن خيانات كلمنت ، وآثام البابوية ، وشره حكومتها ، وترف رجال الدين ، ومظالم رومة ، كانت كلها خليقة ببعض العقاب . وسمع سادوليتو ، وهو آمن مطمئن فى كارپنتراس Carpentras بسقوط رومة فروعه النبأ ، وتحسر على مضى تلك الأوقات الحلوة الهادئة التى جعلها بمبو ، وكستجليونى ، وإزبلا ، ومائة من للعلماء ، والشعراء ، وأنصار العلم والفن ، موطناً لها حتى بلغا فيها ذروة مجدهما . وكتب إرازمس لسادوليتو يقول : « لم تكن رومة كعبة الدين المسيحى ، ومهد النفوس النبيلة ، وموطن الأداب والعلوم والفنون فحسب ، بل كانت أيضاً أم الأمم . وكم من الناس كانت أعز عليهم وأحلى لهم ، وأعظم قيمة لديهم ، من بلادهم نفسها !. . . ألا إن هذا الخراب لم يكن فى الحقيقة خراب بلدة واحدة ، بل كان خراب العالم أجمع »(٤٦) .

الفصل الثامن

شارل المنتصر : ١٥٢٧ — ١٥٣٠

فشا الطاعون فى رومة عام ١٥٢٢ وأنقص عدد سكانها إلى ٥٥٫٠٠٠ ، وما من شك فى أن حوادث القتل ، والانتحار ، والهرب فى أثناء الحرب قد أنقصتهم أيضاً إلى أقل من ٤٠٫٠٠٠ فى عام ١٥٢٧ . وفى شهر يوليه من هذا العام الأخير جاء الطاعون مرة أخرى فى أشد شهور العام قيظاً ، وانضم إلى القحط والجحافل المخربة فأصبحت رومة مدينة الرعب ، والفزع ، والخراب . وامتلأت الكنائس والشوارع مرة أخرى بجثث الموتى ، ترك الكثير منها يتعفن فى الشمس ، وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من الرمم والأقذار قوية إلى حد لم يطقه السجانون والمسجونون ففروا من أسوار القلعة إلى حجراتهم ، وحتى فى داخل الحصن مات الكثيرون من الوباء ، وكان من بينهم خدم البابا . ولم يفرق الطاعون بين الأهلين والغزاة . فمات من الألمان ٢٥٠٠ فى رومة فى ٢٢ يوليه سنة ١٥٢٧ ، وأهلك الزهرى ، والملاريا ، وسوء التغذية نصف عدد الجيش .

وشرع أعداء شارل يفكرون جدياً فى إنقاذ البابا . وكان هنرى الثامن يخشى ألا يمنحه الحبر السجين إذناً بتطليق كترين الأرغونية ، فأرسل الكردنال ولزى إلى فرنسا ليفاوض فرانسس فى الوسائل التى تتبع لإطلاق سراح كلمنت ، وفى أوائل شهر أغسطس عرض الملكان على شارل الصلح و٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دوقة على شرط أن يطلق سراح البابا والأمراء الفرنسيين ، وأن ترد الولايات البابوية إلى الكنيسة . فلما رفض شارل هذا العرض ، عقد فرنسس وهنرى معاهدة أمين (١٨ أغسطس) التى تعهدا فيها بمحاربة شارل ، وما لبثت البندقية وفلورنس أن انضمتا إلى الحلف الجديد ،

واستولت القوات الفرنسية على چنوى وباڤيا ونهبت المدينة الثانية نهباً يكاد يكون تاماً ، ولا يقل عما أوقعه الجيش الإمبراطورى بروما ؛ وخشيت مانتوا وفيرارا الفرنسيين القريبين منهما أكثر مما كانتا تخشيان شارل البعيد عنهما ، فانضمتا أيضاً إلى الحلف ؛ غير أن القائد الفرنسى اوترك Lautrec عجز عن دفع رواتب جنده ولم يجرؤ على الزحف بهم على رومة .

وأمل شارل فى أن يسترد مكانته فى العالم المسيحى الكاثوليكى ، وأن يهدئ من تحمس الحلف المطرد الزيادة ، فوافق على إطلاق سراح البابا مشترطاً ألا يقدم كلمنت أية مساعدة إلى الحلف ، وأن يدفع من فوره إلى الجيش الإمبراطورى فى رومة ١١٢,٠٠٠ دوقة ، وأن يقدم الرهائن ضماناً لحسن سلوكه . وجمع كلمنت المال اللازم ، ببيع مناصب الكرادلة ؛ ومنح الإمبراطور عشر إيراد الكنيسة فى مملكة ناپلى ، وفى السابع من ديسمبر ، غادر كلمنت سانت أنجيلو بعد أن قضى فى السجن سبعة أشهر وتخفى فى زى خادم ، واتخذ سبيله وهو ذليل خارج رومة إلى أرڤيتو ، لا يشك من يراه فى أنه رجل محطم .

وفى أرڤيتو أسكن قصراً مخرباً خر سقفه ، وتعرت جدرانه وتشققت ، تصفر الريح فى جوانبه . ولما قدم عليه السفراء الإنجليز ليحصلوا لهنرى على طلاق زوجته ، وجدوه مكوماً فى الفراش ، وقد اختفى نصف وجهه المتقع الضامر الناحل تحت لحية طويلة خشنة . وفى هذا القصر قضى البابا الشتاء ، ثم نقل بعده إلى ڤيتيربو . وفى السابع عشر من يناير جلا الجيش الإمبراطورى عن رومة بعد أن حصل من شارل على كل ما يستطيع الحصول عليه منه ، لأنه كان يخشى فتك الطاعون ، واتخذ هذا الجيش سبيله جنوباً إلى ناپلى . وزحف لوترك وقتئذ بجيشه جنوباً ، مؤملاً أن يحاصر ناپلى . ولكن الملاريا كانت قد أهلكت عدداً كبيراً من رجاله ، وقضى هو نحبه ، وتقهقرت جيوشه المختلة النظام نحو الشمال (٢٩ أغسطس

سنة ١٥٢٨) . وفقد كلمنت كل أمل فى معونة الحلف ، فعرض على شارل أن يستسلم له استسلاماً تاماً ؛ وفى السادس من شهر أكتوبر سمح له بالعودة إلى رومة . وروعه أن رأى أربعة أخماس بيوتها قد هجرها أصحابها ، وآلاف المبانى قد تخربت ؛ وذهل الناس إذ رأوا ما أحدثه الغزو الذى دام سبعة أشهر فى عاصمة العالم المسيحى .

ويبدو أن شارل فكر فى وقت ما فى خلع كلمنت ، وضم الولايات البابوية إلى مملكة نابلى ، واتخاذ رومة عاصمة لإمبراطوريته ، وأنزل البابا منزلته الأساسية وهى أن يكون أسقف رومة وخاضعاً للإمبراطور[٤٧] . ولكن هذا إذا حدث كان من شأنه أن يدفع شارل إلى أحضان اللوثريين فى ألمانيا ؛ ويوقد نار الحرب الأهلية فى أسبانيا ، ويثير فرنسا ، وإنجلترا ، وبولندا ، والمجر لمقاومته بجميع قواها المتحدة . ولهذا تخلى عن ذلك المشروع ، واتجه إلى جعل البابوية حليفته التى تعتمد عليه ، وعونه الروحى فى تقسيم إيطاليا بينهما . ولهذا عقد مع البابا معاهدة برشلونة (٢٩ يونيه سنة ١٥٢٩) التى نزل فيها البابا عن أشياء كثيرة هامة : منها أن يرد للكنيسة الإمارات التى انتزعت منها ، وأن يعيد بالسياسة أو بالقوة أقارب البابا الميديتشيين فى فلورنس ، وحتى فيرارا نفسها وعد أن يعيدها إلى البابا . ووافق البابا فى نظير هذا على أن يمنح شارل مُلك نابلى بصفة رسمية ، وأن يجيز للجيوش البابوية حرية المرور فى الولايات البابوية ، وأن يلتقى بالإمبراطور فى بولونيا فى العام التالى ليثبتا قواعد الصلح وينظما إيطاليا .

وبعد قليل من ذلك الوقت التقت مرجريت عمة شارل ونائبته فى حكم الأراضى الوطيئة بلويزة أميرة ساڤوى ، وأم فرانسس . واستعانتا بعدد من السفراء والمندوبين ، ووضعتا صيغة معاهدة كمبريه (٣ أغسطس سنة ١٥٢٩) بين الإمبراطور والملك . وبمقتضى هذه المعاهدة أطلق شارل الأمراء الفرنسيين نظير فدية مقدارها ١,٢٠٠,٠٠٠ دوقة ؛ وتخلى فرانسس باسم

فرنسا عن جميع مطالبه فى إيطاليا ، وفلاندرز ، وآرتوا ، وأراس ، وتورناى[٤٨] . وبهذا ترك حلفاء فرنسا فى إيطاليا تحت رحمة الإمبراطور .

ثم التقى شارل وكلمنت فى بولونيا فى الخامس من نوفمبر سنة ١٥٢٩ ، وكان كلاهما الآن مقتنعاً بأنه فى حاجة إلى الآخر . ومن أغرب الأشياء أن هذه كانت أول زيارة لإيطاليا يقوم بها شارل ؛ ذلك أنه فتح تلك البلاد قبل أن يراها . ولما ركع أمام البابا فى بولونيا ، وقبل قدم الرجل الذى مرغه فى الثرى ، كان ركوعه هذا هو المرة الأولى التى أبصر فيها كلا الرجلين صاحبه — الرجل الذى يمثل الكنيسة فى عهد اضمحلالها ، والرجل الذى يمثل الدولة الحديثة الناشئة المنتصرة — وفارق كلمنت جميع كبريائه ، وغفر جميع ما لحقه من إساءات ؛ ولم يكن من ذلك بد ؛ فلم يكن فى وسعه آنئذ أن يتطلع إلى عون فرنسا ؛ وكان لشارل جيش لا يقاوم فى جنوبى إيطاليا وشماليها ، ولم يكن يستطيع إعادة فلورنس لآل ميديتشى دون مساعدة الجيوش الإمبراطورية ؛ وكان فى حاجة إلى مساعدة الإمبراطور ضد لوثر فى ألمانيا ، وضد سليمان القانونى فى الشرق . ووقف شارل وقتئذ وقفة الرجل الكريم الحصيف : فقد استمسك بجوهر شروط اتفاق برشلونة الذى عقده حين لم تكن له هذه القوة التى لا تقاوم ، فأرغم البندقية على أن تعيد كل ما استولت عليه من أملاك الولايات البابوية ؛ وسمح لفرانتشيسكو ماريا اسفوردسا أن يحتفظ بميلان المخربة تحت رقابة الإمبراطور إذا أدى نظير ذلك غرامة حربية كبيرة ؛ وأقنع كلمنت بأن يسمح لفرانتشيسكو ماريا دلا روڤيرى الجبان أو الغادر بأن يحتفظ بأربينو . وغفر لألفنسو انضمامه القريب العهد إلى فرنسا ، وكافأه على ما قدم من معونة أثناء الزحف على رومة بأن سمح له بالاحتفاظ بدوقيته على أن تكون إقطاعية بابوية ، وأعطاه مودينا ورچيو إقطاعيتين من قبل الإمبراطورية ؛ وأدى ألفنسو للبابا فى نظير ذلك مائة ألف دوقة كان البابا فى أشد الحاجة إليها . وأراد شارل أن يوطد دعائم هذه التسويات

كلها فدعا جميع الإمارات إلى الانضمام إلى اتحاد من جميع أجزاء إيطاليا للدفاع المشترك عنها ضد الهجوم الخارجي - ما عدا هجوم شارل نفسه - وهي الوحدة التي سعى إليها دانتي عند الإمبراطور هنري السابع ، وبترارك عند الإمبراطور شارل الرابع ؛ وها هي ذي الآن تتحقق بالخضوع المشترك إلى دولة أجنبية . وبارك كلمنت هذا الاتفاق كله ، وتوج شارل إمبراطوراً بأن وضع على رأسه تاج لمباردى الحديدى ، وتاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة الإمبراطورى البابوى (٢٢ - ٢٤ فبراير سنة ١٥٣٠) .

وسجل حلف البابا والإمبراطور بدماء فلورنس . وتفصيل ذلك أن كلمنت اعتزم أن يعيد إلى أسرته ما كان لها من سلطان فدفع ٧٠٠٠٠ دوقة إلى فليبرت أمير أورنج (الذى أبقاه سجيناً) ، لينشئ بها جيشاً يجتاح به جمهورية الأثرياء التي أقيمت هناك في عام ١٥٢٧ . وسير فليبرت للقيام بهذه المهمة عشرين ألفاً من الجنود الألمان والأسبانيين ، الذين اشترك الكثيرون منهم في نهب رومة[٤٩] . واحتلت هذه القوة بستويا وبراتو Prato في شهر ديسمبر سنة ١٥٢٩ وضربت الحصار على فلورنس . وأراد أهل المدينة البواسل أن يعرضوا المهاجمين لنيران المدفعية الفلورنسية ، فدمروا كل بيت ، وحديقة ، وجدار ، في مسافة تمتد ميلا كاملا حول حصون المدينة ؛ وترك ميكل أنجيلو أعمال الحفر التي كان يقوم بها في قبور آل ميديتشى ليبني الحصون والأسوار أو يعيد بناء ما كان قد تهدم منها . ودام الحصار سبعة أشهر قاست فيها المدينة الأهوال ، فقد شح فيها الطعام حتى بيع الفأر أو القط بما يعادل اثنى عشر دولاراً ونصف دولار[٥٠] . وسلمت الكنائس آنيتها ، وسلم الأهلون صحافهم ، وتبرعت النساء بحليهن ، كي تحول كلها إلى نقود لابتياع المؤن أو الأسلحة . وأخذ الرهبان الملتهبون وطنية أمثال الراهب بنيديتو دا فويانا Benedetto Da Foiana يرفعون روح الأهلين المعنوية بعظاتهم الدينية . وفر رجل شجاع من أهل المدينة يدعى فرانتشيسكو فيروتشى

إلى خارجها ، ونظم قوة قوامها ثلاف آلاف رجل هاجم بهم المحاصرين - لكنه هزم وخسر من جنوده ألفي رجل ، وأسر هو نفسه ، وجيء به أمام فبريدسيو مارمليدى Fadrizio Marmalidi وهو قائد من أهل كلابريا كان على رأس الخيالة فى جيش الإمبراطور . وأمر مارمليدى أن يؤتى بفيروتشى Ferucci مقبوضاً عليه أمامه ، وأخذ يدفع الخنجر فى صدره حتى فارق الحياة[٥١] . وأخذ القائد الذى استأجرته فلورنس ليتولى قيادة المدافعين عنها ، وهو مالاتستا بجليونى ، يتفاوض لعقد اتفاق غادر مع المحاصرين ، فأدخلهم المدينة ، وصوب مدافعه نحو الفلورنسيين . واضطرت المدينة بتأثير الجوع واختلال النظام إلى التسليم (١٢ أغسطس سنة ١٥٣٠) .

وأصبح ألسندرو ده ميديتشى دوقاً على فلورنس وجلل أسرته العار بما ارتكبه من أعمال النهب وما أظهره من قسوة ، فعذب مئات من الذين حاربوا دفاعاً عن الجمهورية ، أو نفوا منها ، أو قتلوا تقتيلا . وأرسل الراهب بنيديتو إلى كلمنت ، فأمر هذا بسجنه فى قاعة سانت أنچيلوا ، وفيها سجن الراهب حتى هلك من الجوع كما تقول إحدى الروايات التى لا يوثق بصحتها[٥٢] . وحل مجلس السيادة الذى كان يتولى حكم المدينة ، وأطلق من ذلك الوقت اسم بالاتسو فيتشيو Palazzo Vecchio أى قصر ڤيتشيو) على بالاتسو دلا سنيوريا (Palazzo della Sagnoria أى قصر السيادة) ؛ وأنزل الناقوس الضخم العظيم الذى يزن أحد عشر طناً والمسمى بالبقرة La Vacco ، والذى ظل أجيالا طوالا يدعو الناس من البرج الجميل إلى الاجتماع — أنزل هذا الناقوس من موضعه ، وحطم تحطيما ؛ « حتى لا تستمع بعدئذ إلى صوت الحرية العذب » كما يقول أحد كتاب اليوميات المعاصرين[٥٣] .

الفصل التاسع

كلمنت التاسع والفنون

تؤكد الطريقة التي عامل بها البابا فلورنس تدهور أحوال آل ميديتشي ، أما ما بذله من الجهود لإعادة رومة إلى سابق عهدها فيكشف عن جذوة من العبقرية الإدارية وعن تقدير للجمال كانا من أسباب عظمة تلك الأسرة . وقد صوره وقتئذ سباستيانو دل پيومبو ، وكان قد صوره من قبل فى عهد نضوجه ، فى صورة شيخ طاعن فى السن ، حزين مكتئب ، غائر العينين ، أبيض شعر اللحية ، يوزع البركات . ويبدو أن الآلام طهرته وأنها قوته إلى حدما ، فقد أقدم على بذل جهود قوية لحماية إيطاليا من الأسطول التركى الذى كان وقتئذ يسيطر على شرقى البحر المتوسط ، فحصن أنكونا ، وأسكولى ، وفانو ، وحصل على نفقات هذا التحصين بأن حمل مجمع الكرادلة فى الحادى والعشرين من يونية سنة ١٥٣٢ على أن يفرض ضريبة قدرها خمسون فى المائة من جميع إيراد رجال الدين الإيطاليين ومنهم الكرادلة أنفسهم ، وذلك رغم معارضة الكرادلة(٥٤) . واستعان ببيع المناصب الدينية وبغيره من الوسائل فجمع المال اللازم لإعادة ما تخرب من الكنائس ، وجامعة رومة ، والعودة إلى مناصرة العلوم والفنون ، واتخذ الوسائل الكفيلة بضمان وصول الحبوب إلى المدينة على الرغم من غارات قراصنة البربر على السفن بالقرب من صقلية ، وبذلك لم يمض إلا قليل جداً من الوقت حتى عادت رومة إلى القيام بواجبها بوصفها عاصمة العالم الغربى .

وكانت المدينة لا تزال غنية بالفنانين ، فقد جاء إليها كرادسا Caradossa من ميلان ، وتشيليني من فلورنس ، لكى يرفعا فن الصياغة إلى الذروة

التى بلغها فى عهد النهضة ، وقد شغل هذان الفنانان وكثيرون غيرهما أوقاتهم فى عمل ورود ذهبية ، وسيوف شرف يهديها البابا فى المناسبات المختلفة ، وآنية لمذابح الكنائس ، وعصى من فضة لكبار رجال الكنيسة وللمواكب الدينية ، وأختام للكرادلة ، وتيجان وخواتم للبابوات . وصنع ڤالبريوبلى من أهل ڤيتشندسا Vicenza لكلمنت علبة فخمة من البلور الصخرى نقشت عليها مناظر من حياة المسيح ؛ وهى الآن من أثمن التحف المحفوظة فى قصر پتى ، وقد أهديت إلى فرانسس الأول بمناسبة زواج ابنه من كترين الميديتشية .

وبدئ العمل من جديد فى زخرفة حجرات الفاتيكان فى عام ١٥٢٦ . وكانت أعظم الرسوم التى تمت فى عهد ولاية كلمنت هى التى صورت فى قاعة قسطنطين ؛ ففيها رسم جيوليو رومانو *شبح الصليب* ، و*واقعة جسر ملفى* ؛ ورسم فرنتشيسكو پنى صورة *تعميد قسطنطين* كما رسم رفائلو دل كلى Rafaello del Colle صورة *رومة مهداة إلى البابا سلفستر من قسطنطين* .

وكان أعظم المصورين فى رومة بعد ميكل أنچيلو ، وبعد أن هاجر جيوليو رومانو إلى مانتوا هو سباستيانو لوتشيانو Sebsstiano Luciano الذى لقب دل پيومبو حين عين أمينا لأختام البابا ومصمماً لها (١٥٣١) . وكان مولده فى البندقية (حوالى عام ١٤٨٥) ، وكان من حسن حظه أن تتلمذ على چيان بلينى ، وچيورچيو ، وتشيا . وكانت من أوائل صوره وأجملها صورة *أعمار الإنسان الثلاثة* . وقد صور فيها شابا أنيقاً بين مؤلفين شهيرين كانا وقتئذ فى البندقية : يعقوب أبرخت Jacob Obrecht وڤلپى ڤيرديلوت Philippi Veredlot . ورسم لكنيسة سان چيوڤنى كرستومو San Giovanni Cristomo — أو أكمل لجيورچيونى — صورة

حية واضحة المعالم لذلك القديس وهو منهمك فى التأليف ؛ ثم حذا فى الوقت نفسه (١٥١٠) حذو طريقة چيورچونى الشهوانية فى صورة **فينوس وأدنيس** التى تبدو نساؤها الكريمات كأنهن من عصر ذهبى وجد قبل أن تولد الخطيئة . وربما . كان سباستيانو قد صور فى البندقية أيضاً صورته الذائعة الصيت المعروفة باسم **صورة سيدة** والتى ظلت زمناً طويلا تعزى إلى رفائيل وتسمى لافورنارينا La Fornarina .

وفى عام ١٥١١ دعا أجستينو تشيجى Agostino Chigi سباستيانو إلى رومة ليساعد فى زخرفة قصر تشيجى الريفى . وهناك قابل الفنان الشاب رفائيل ، وظل وقتاً ما يقلد طوازه فى الزخارف الوثنية ؛ ويعلم رفائيل فى نظير هــذا سر **الألوان الدفئة** (*) الذى اختصت به البندقية . وما لبث سباستيانو أن أصبح صديقاً حميما لميكل أنچيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين تلوين البندقية وتصميم طراز ميكل أنچيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين غرضه حين طلب إليه الكردنال چيوليو ده ميديتشى أن يرسم له صورة . واختار سباستيانو موضوعاً لتلك الصورة **بعث العازر** ينافس بها عن عمد صورة **التجلى** التى كان رفائيل يرسمها فى ذلك الوقت (١٥١٨) . ولم يجمع النقاد على معارضة حكمه هو بأنه كان فيها نداً لمحسوب ليو(**) .

وكان فى مقدوره أن يرقى إلى أكثر مما وصل إليه لو لم يقتنع اقتناعاً عاجلا بالحد الذى بلغه من الإتقان . غير أن رغبته الشديدة فى التمتع بالفراغ قد حالت بينه وبين النبوغ . ذلك أنه كان شخصاً مرحاً لايستطيع أن

(*) الألوان الدفئة هى التى تشعر الناظر إليها بالدفء ، وأهمها اللون القريب من الأحمر أو الأصفر ، وعكسها الألوان التى تشعر الإنسان بالبرودة ومنها اللون القريب من الأخضر أو الأزرق . (المترجم) .

(**) رفائيل نفسه . (المترجم)

يفهم لم ينهك الإنسان نفسه لينال فوق حاجته من الذهب والشهرة الخادعة الزائلة بعد الموت . ولهذا قصر معظم عمله بعد أن نال فى الفاتيكان من نصيره الذى أصبح بابا وظيفة مرغدة لا يقوم فيها بعمل كبير — قصر بعدئذ معظم عمله على رسم الصور التى قلما فاقه فيها غيره من المصورين .

ويختلف عنه بلدا سارى بيروتسى Baldassari Peruzzi . فقد كان شخصاً طموحاً رددت الأجيال اسمه الطنان الرنان وراء جبال الألب الإيطالية . وكان ابن نساج (والفنانون فى أغلب الأحيان من أصل وضيع : لأن الطبقات الوسطى يجرى أفرادها أولا وراء المنافع المادية ، يرجون أن يجدوا الفراغ الذى يمكنهم من الاستمتاع بالجمال إذا ما بلغوا سن الشيخوخة ؛ أما أبناء الطبقة العليا ، فهم وإن كانوا يغذون الفن ويناصرونه ، يؤثرون فن الحياة على حياة الفن . وكان مسقط رأسه فى سينا (١٤٨١) وأخذ فن الرسم عن سدوما وپنتو رتشيو ثم عجل بالذهاب إلى رومة ؛ ويلوح أنه هو الذى رسم الصور التى فى سقف حجرة إليودورو فى الفاتيكان ، والتى رآها رفائيل من الحسن بحيث ترك معظمها دون أن يدخل عليه شيئاً من التغيير . وفى هذه الأثناء وقع فى حب الآثار القديمة ، كما وقع فى حبها برامنتى ، وأخذ يقيس أرض الطبقات السفلى من الهياكل والقصور القديمة ، ويدرس أشكال الأعمدة وتيجانها ونظام وضعها ، حتى صار خبيراً إخصائيا فى تطبيق فن المنظور على العمارة .

ولما اعتزم أجوستينو تشيجى أن يشيد قصر تشيجى الريفى دعا پيروتسى لتصميمه (١٥٠٨) ؛ وسر الرجل المصرفى من التصميم — سر مما توجت به الواجهة التى على طراز النهضة من قوالب وشرفات ؛ ولما وجد أن پيروتسى لا يستطيع التصوير بالألوان ، ترك للفنان الشاب الحرية فى زخرفة عدد من الحجرات فى داخل القصر بالاشتراك مع سباستيانو دل پيومبو ورفائيل . ورسم بلداسارى فى الردهة التى فى مدخل القصر ، وفى الشرفة

المكشوفة صورة ڤينوس تمشط شعرها ؛ وليدا وبجمعتها ، وأوربا Europa وثورها ؛ ودانتى وشاشه الذهبي ، وجنيمدى ونسره ، وغيرها من المناظر التى تهدف إلى رفع روح ذلك المالى من عمل يومه الرتيب إلى شعر أحلامه . وأحاط پيروتسى مظلساته بخطوط تحددها وراعى حيل فن المنظور مراعاة لم يسع تيشيان معها إلا أن يظن أنها نحت حقيقى بارز فى الحجر(٥٥) . وفى ردهة الطابق الأعلى رسم بلداسارى مبانى خادعة بالفرشاة : شرفات مرفوعة على صور عمد ، وأطنافاً مستندة على صور عمد مربوعة ، وأشباه نوافذ مطلة على صور حقول . وجملة القول أن پيروتسى قد عشق فن العمارة ، واتخذ التصوير خادماً له ، يطيع جميع قواعد البنَّاء ، ولكنه يخلو من روحه . غير أننا نستثنى من هذا التعميم المناظر المأخوذة من الكتاب المقدس والتى رسمها فى شبه قبة لسانتا ماريا دلا باتشى Santa Maria della Pace (١٥١٧) ، التى صور فيها رفائيل سيبيلات قبل ذلك بثلاث سنين . ولم تكن صور بلداسارى تقل عن صور رفائيل روعة ، لأن هذه كانت أحسن ما صور بلدسارى ، أما صور رفائيل فلم تكن خير صوره .

وما من شك فى أن ليو العاشر قد تأثر بما شاهده من تعدد كفايات پيروتسى ، لأنه عينه خلفاً لرفائيل كبيراً لمهندسيه فى كنيسة القديس بطرس (١٥٢٠) ، ثم عهد إليه أن يرسم مناظر مسلاة لا كالندرا La Calandra) لبيبينا (١٥٢١) . غير أن كل ما بقى من أعمال پيروتسى فى سان پيترو هو رسم قاعدة البناء ، التى وصفها سيمندس Symonds بأنها « تفوق فى الجمال والطرافة ما رسم من مثلها لكنيسة القديس بطرس »(٥٦) . وكان موت ليو ، وجلوس بابا يبغض الفن على كرسى البابوية ، سببا فى عودة پيروتسى إلى سينا ، ومنها إلى بولونيا . وفى هذه المدينة الثانية صمم قصر أبرجانى Aebergati الجميل ، وعمل نموذجا لواجهة كنيسة سان پيترونيو التى لم تتم أبداً . لكنه عجل بالعودة إلى رومة حين أعاد كلمنت السابع فتح جنة

الفنون ، وواصل عمله فى كنيسة القديس بطرس ؛ وكان لا يزال فيها حين نهبت غوغاء الإمبراطور مدينة رومة . وقاسى محناً شديدة لأنه « كان وقوراً نبيلا فى مظهره ، حتى ظنه الغوغاء كبيرا من رجال الدين متخفياً » كما يقول ڤاسارى . واحتفظوا به حتى يفتدى بالمال الكثير ، فلما برهن على أصله الوضيع برسم صورة ملونة رائعة ، قنعوا بالاستيلاء على كل ما يملكه عدا القميص الذى على ظهره ، وأطلقوا سراحه . واتخذ سبيله إلى سينا فوصل إليها لا يكاد يستر جسمه شيء . وسر حكومة سينا أن تستحوذ من جديد على ابنها [الفاره المتلاف ، فعهدت إليه تصميم حصونها ، كما عهدت إليه كنيسة فنيتجيستا رسم صور جدارية أجمع النقاد على أنها أروع آياته الفنية — وكانت هذه الصورة الجدارية سيبيلة تعلن إلى أغسطس المرتاع نبأ مولد المسيح المرتقب .

ولكن أعظم ما نجح فيه پيروتسي هو تصميم قصر مسيمى دلى كولنى Palazzo Massimi delle Colonne الذى وضعه بعد عودته إلى رومة (١٥٣٠). وكان آل مسيمى يدعون الانتساب إلى فابيوس مكسيموس ويقولون إن اسمهم مشتق من اسمه . وفابيوس هذا هو الذى خلد اسمه بالتعطل وتضييع الوقت(*) . أما لقبه فشتق من المدخل ذى العمد Columned لمسكنهم السابق الذى ضرب أثناء نهب رومة . وكان من حسن حظ پيروتسي أن استدارة مكان القصر وعدم انتظامه حالا بينه وبين اتخاذه الشكل المستطيل الكئيب ؛ ولهذا اختار له الشكل البيضى ، كما اختار له واجهة على طراز مبانى النهضة ومدخلا على الطراز الدورى ، وكان البناء بسيطاً من

(*) إن فى وصفه بالتعطل وإضاعة الوقت بعض المغالاة لأن ما فعله هذا القائد هو أنه لم يلتحم مع هنيبال فى واقعة فاصلة حين هجم هذا على إيطاليا ؛ بل تركه يضعف على مهل ويفقد مؤنه ثم ينقض هو على من يتخلف وراءه من جنوده ، وكانت خطته هى التى أنقذت إيطاليا من القائد القرطاجى . (المترجم)

الخارج ، ولكنه أفاء على داخله من الزخرف والروعة ما جعله يضارع القصور الرومانية أيام الإمبراطورية مضافاً إليها ما يتسم به الفن اليونانى من رقة فى التناسب والزخرف .

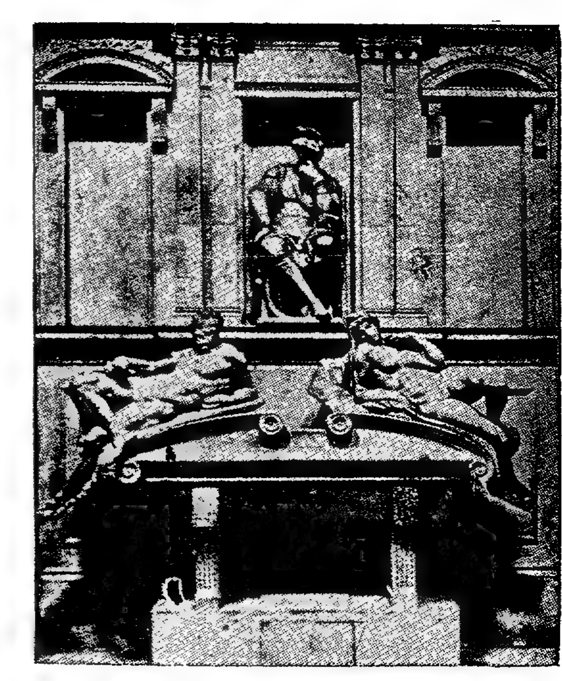
ومات پيروتسى فقيراً رغم ما كان له من كفايات متعددة ، لأنه لم تطاوعه نفسه على مساومة البابوات ، والكرادلة ، ورجال المال على أجور تتناسب مع حذقه . ولما سمع البابا بولس الثالث أنه يحتضر ، ظن أنه لم يبق من الفنانين الذين يستطيعون رفع كنيسة القديس بطرس من جدران إلى قبة إلا پيروتسى وميكل أنچيلو . ولهذا بعث إلى الفنان بمائة كرون (١٢٥٠ دولارا ؟) . فشكر له بلداسارى عمله ، ولكنه مات رغم ذلك فى سن الرابعة والخمسين (١٥٣٥) . ويقول ڤاسارى بعد أن يلمح بأن منافساً له قد سمه إن « المصورين ، والمثالين ، والمهندسين المعاريين فى رومة شيعوا جنازته إلى قبره » .

الفصل العاشر

ميكل أنچيلو وكلمنت السابع : ١٥٢٠ — ١٥٣٤

مما يذكر فى صحيفة الحسنات لكلمنت أنه ظل طوال أيام كوارثه يتحمل صابراً جميع نزوات ميكل أنچيلو وثوراته ، ويعهد إليه بالمهمة تلو المهمة ، ويمنحه من المزايا كل ما يليق بالعباقرة . ويقول فى هذا : « إذا جاء بونارتى أمسكت بيدى على الدوام مقعداً وأمرته بالجلوس ، لأنى لا أشك فى أنه سيجلس من تلقاء نفسه دون أن يستأذننى »(٥٧) . وحتى قبل أن يصبح بابا تقدم باقتراح تبين أنه أكبر عمل من أعمال النحت عهد به إلى ذلك الفنان ، وهو أن يضيف إلى كنيسة سان لورندسو بفلورنس « غرفة مقدسات جديدة » لتكون قبراً لأشهر أفراد آل ميديتشى ؛ وتصميم مقابر لهم ، وتزيينها بما يليق بها من الصور . وكان كلمنت واثقاً كل الثقة من كفايات هذا الفنان الجبار المتعددة ، ولهذا طلب إليه أن يضع عدداً من التصميمات الهندسية للمكتبة اللورنتية ، تبلغ من السعة والمتانة ما تستطيع أن تقى كل المجموعات الأدبية للأسرة الميديتشية . وتم إنشاء السلم الفخم والدهليز ذى العمد فى هذه المكتبة اللورنتية (١٥٢٦ — ١٥٢٧) ، بإشراف أنچيلو ، أما بقية البناء فقد أقامها فيما بعد ڤاسارى وغيره على أساس رسوم بونارتى .

أما بناء نوڤا سجرستيار Nuova Sagristia فلا يمكن أن يعد من روائع الفن المعمارى . فقد وضع تصميمها على أن تكون مربوعة الجوانب تقسمها عمد مربوعة وتعلوها قبة متواضعة ؛ وكان الغرض الأول من بنائها أن توضع التماثيل . . . . المتروكة فى الجدران . وقد تم بناء « معبد آل ميديتشى » هذا فى عام ١٥٢٤ ؛ وفى عام ١٥٢٥ بدأ أنچيلو العمل



(الصوره رقم ٢) مدفن لورندسو ده ميديتشي – من عمل
ميكل أنجيلو – غرفة المقدسات الجديدة . بان لورندسو بفلورنس



(الصورة رقم ٣) أريتينو – من عمل تيشيان ؛
بمعرض فرك بنيويورك . انظر ص ٢٤٠



فى القبور ، وقد كتب إليه كلمنت فى هذا العام الثانى خطاباً يستحثه فى رفق يقول :

« إنك تعرف أن البابوات قصار الأجل ، ونحن أشد ما نكون شوقاً إلى أن نرى المعبد وفيه قبور أقاربنا ، أو أن نسمع فى القليل أنه قد تم ، ولا يقل عن هذا شوقنا إلى إتمام المكتبة ولهذا نعهد بهما جميعاً إلى همتك ونشاطك . وسنتذرع فى هذه الأثناء (بناء على توصيتك) بالصبر الجميل ، داعين الله أن يعينك على أن تدفع المشروع كله إلى الأمام . ولا تخش قط أن سوف تعوزك الأعمال أو الجزاء ما دمنا على قيد الحياة . وداعاً على بركة الله وبركتنا — جيوليو »(٥٨) .

وكان المشروع يتضمن إنشاء ستة قبور : واحد لكل من لورندسو الأعظم ، وأخيه جيوليانو الذى اغتيل ، وليو العاشر ، وكلمنت السابع ، وجوليانو الأصغر الذى كان « أطيب من أن يستطيع حكم دولة » (والمتوفى عام ١٥١٦)، ولورندسو الأصغر دوق أربينو (المتوفى عام ١٥١٩) ؛ ولم يتم من هذه إلا قبرا الأخيرين ، ولكنهما مع ذلك أرقى ما وصل إليه فن النحت فى عهد النهضة ، كما أن معبد سستينى هو ذروة ما وصل إليه التصوير فى ذلك العهد . ويظهر القبران شكل من يحتويان من الموتى كما كانا فى عنفوان الشباب ، ولم يحاول المثال إظهار شكلهما الصحيح أو ملامحهما الحقيقية : فقد أظهر جيوليانو فى ثياب قائد رومانى ، ولورندسو فى صورة الرجل المفكر Il Penseroso . ولما أن لاحظ ملاحظ غير حذر هـذا البعد عن الواقعية ، رد عليه ميكل أنجيلو بألفاظ كشفت عن ثقته السامية الأكيدة بخلوده الفنى فقال : « منذا الذى يعنى بعد ألفى عام هل هذه ملامحهم وليست هى ؟ »(٥٩) . ويتكئ على تابوت جيوليانو شخصان عاريان : عن اليمين رجل يفترض فيه أنه يرمز إلى النهار ، وعن اليسار امرأة يفترض أنها ترمز إلى الليل . ومثلهما صورتا شخصين متكئين على قبر لورندسو

أطلق عليهما اسما الشفق والفجر . وهذه التسميات مجرد فروض ولعل للخيال فيها أكبر نصيب . وأغلب الظن أن هدف المثال هو أن ينحت مرة أخرى معبوده الخفى ، أعنى الجسم البشرى ، بكل ما فيه من روعة قوة الرجولة ، والمحيط الخارجى الجميل لجسم المرأة بأكمله . ولقد كان نجاحه فى تصوير جسم الرجل أعظم من نجاحه فى تصوير جسم المرأة كما هى العادة ، وإن صورة للشفق الناقصة التى تسلم اليوم النشيط المضنى إلى الليل على مهل ، لتضارع أنبل صور الآلهة فى البانثيون .

وقامت الحرب فعطلت أعمال الفن إلى حين . ولما سقطت رومة فى أيدى الجيوش الإمبراطورية (١٥٢٧) ، لم يعد فى وسع كلمنت أن يناصر الفنون ، وانقطع معاش ميكل أنجيلو الذى كان يتقاضاه من البابا ومقداره خمسون كروناً (٦٢٥ دولاراً) فى الشهر واستمتعت فلورنس فى هذه الأيام بعامين من الحرية فى ظل الحكم الجمهورى . ولما أن تصالح كلمنت مع شارل ، وأرسل جيش ألمانى — أسپانى للقضاء على الجمهورية وإعادة آل ميديتشى إلى الحكم ، عينت فلورنس أنجيلو (٦ إبريل سنة ١٥٢٩) عضواً فى لجنة العشرة للدفاع عن المدينة ، وبذلك أصبح فنان الميديتشيين بحكم الظروف مهندساً يعمل ضد الميديتشيين ، وشرع يشتغل كالمحموم فى تخطيط الحصون والأسوار وتشييدها .

وبينا كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق كان ميكل أنجيلو يزداد كل يوم اقتناعاً بأن المدينة لا يمكن الدفاع عنها دفاعاً ناجحاً . وهل تستطيع مدينة بمفردها منقسمة على نفسها فى روحها وفى ولائها ، أن تقاوم مدفعية الإمبراطورية والحرمان الدينى البابوى مجتمعين ؟ ومن أجل هذا حدث فى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، أثناء حالة عارضة من الذعر ، أن فر الفنان من المدينة ، وهو يأمل أن يهرب منها إلى فرنسا ويلجأ إلى مليكها الظريف الوديع . ولما وجد طريقه مسدوداً بأرض يحتلها الألمان

لجأ موقتاً إلى فيرارا وكانت يومئذ تابعة للبندقية ، ومنها بعث برسالة إلى صديقه باتستا دلا پلا Battista della Palla العامل الفنان لفرانسس فى فلورنس يسأله : هل ينضم إليه فى الهرب إلى فرنسا (٦٠) ؟ ورفض باتستا أن يتخلى عن المنصب الذى عهد إليه فى الدفاع عن المدينة ؛ وكتب إلى أنجيلو بدلا من ذلك يدعوه دعوة حارة إلى العودة لواجبه ، وينذره إذا لم يعد بأن الحكومة ستصادر أملاكه ، وتترك أقاربه المعدمين فى فقر مدقع . وبذلك عاد الفنان إلى عمله فى حصون فلورنس حوالى اليوم العشرين من نوفمبر .

ويقول ڤاسارى إنه حتى فى هذه الشهور المضطربة وجد متسعاً من الوقت ليواصل العمل سراً فى قبور آل ميديتشى ، وليرسم لألفنسو دوق فيرارا صورة لا تعتبر قط عن طبائعه وهى صورة ليدا والبجع ، وكانت فى الحق صورة عجيبة يرسمها رجل قليل الميول الجنسية ، ممتزمت إلى حد كبير . ولعلها كانت ثمرة اختلال موقت فى عقله . ويظهر فيها البجع يضاجع ليدا ، ويلوح أن ألفنسو لم يكن هو الذى اختار موضوعها وإن كان معروفاً بأنه كان رجلا شهوانياً فى الفترات التى بين الحروب . وأظهر الرسول الذى بعثه لإحضار الصورة الموعودة شدة امتعاضه منها حين رآها ، ولم يزد على أن قال « إن هذا عبث » ولم يحاول أخذها للدوق ، فما كان من أنجيلو إلا أن أعطى الصورة لخادمه أنطونيو مينى Antonio Mene الذى حملها إلى فرنسا حيث انتقلت إلى مجموعة فرانسس الأول النهم الذى لم يكن يفرق بين الطيب منها والخبيث . وبقيت تلك الصورة فى فنتينبلو إلى زمن لويس الثالث عشر حين أمر أحد كبار الموظفين بإتلافها لقبح موضوعها . ولسنا نعرف هل نفذ هذا الأمر أو لم ينفذ . وما هو تاريخ الصورة الأصلية بعد ذلك الوقت ؛ ولكننا نعرف أن نسخة منها باقية فى سراديب المعرض الأهلى بلندن (٦١) .

ولما أن سقطت فلورنس فى أيدى الميديتشيين العائدين إليها أعدم

باتستا دلا پالا وغيره من الزعماء الجمهوريين ، وأخفى ميكل أنچيلو نفسه مدة شهرين فى بيت صديق له ، كان فى كل لحظة منهما يتوقع أن يلاقى نفس المصير ، ولكن كلمنت كان يظن أنه وهو حى أعظم قيمة منه وهو ميت ، فكتب البابا إلى أقاربه الحاكمين فى فلورنس يأمرهم بالبحث عن الفنان ، ومعاملته بالحسنى ، وبأن يعرضوا عليه معاشه السابق إذا ما عاد إلى العمل فى القبور . ووافق ميكل على هذا العرض ؛ ولكن الصورة التى كانت فى عقل الحبر والفنان كانت أكبر مما تستطيع اليد تنفيذه ، كما حدث فى قبر يوليوس ؛ ولم تطل حياة البابا حتى يشهد تمام المشروع . فلما توفى كلمنت فى عام ١٥٣٤ خشى ميكل أنچيلو أن يصيبه ألسندرو ده ميديتشى بأذى بعد أن مات حاميه ونصيره ، فاغتنم أول فرصة للهرب إلى رومة .

وتبدو على القبور مسحة من الحزن المكتئب العميق كما تبدو على صورة **عذراء ده ميديتشى** التى نحتها أنچيلو لحجرة المخلفات المقدسة . ولقد افترض المؤرخون المولعون بالدمقراطية (والمغالون فيما كانت عليه من مدى فى فلورنس) أن الصور المضطجعة ترمز إلى مدينة تندب استسلامها للاستبداد والظلم على الرغم منها . ولكن أكبر الظن أن هذا التفسير وهم خيال : فقد صممت هذه الصورة بينما كان الميديتشيون يحكمون فلورنس حكماً صالحاً إلى حد معقول ؛ وقد نحتت لبابا من آل ميديتشى كان على الدوام رءوفاً بميكل أنچيلو ، ونحتها فنان مدين لآل ميديتشى منذ شبابه . ولسنا نعرف أنه كان يبغى الإساءة إلى الأسرة التى كان يعد لها قبورها ، وليس فى تصويره لجيوليانو ولورندسو ما يدل على تحقيره إياهما . والحق أن هذه الرسوم تعبر عن شىء أعمق من حب لأن تستمتع الأقلية الثرية بحرية حكم الطبقات الفقيرة ، دون أن تقف فى سبيلها أسرة ميديتشى التى كانت فى العادة محبوبة من الشعب عامة . إنها تعبر عن ملل ميكل أنچيلو من الحياة ، وعن التعب الذى حل برجل كله أعصاب وأحلام هائلة لا يستطاع تحقيقها ،

وجد نفسه يصطدم بمئات المحن ، ويعوق كل مشروع من مشروعاته تقريباً صلابة المادة التي يعمل بها وإباؤها عليه ، وكلال قوته وضيق وقته . ولم يكن أنجيلو قد استمتع إلا بالقليل من مباهج الحياة ، ولم يكن له أصدقاء لهم ما له من عقلية ، أما النساء فكن في رأيه أجساماً ناعمة تهدد السلام ، وحتى أعظم انتصاراته كانت نتيجة الكد المنهك والألم ، وائتلاف التفكير الحزن والهزيمة التي لا مفر منها .

ولما سقطت فلورنس في أيدى أسوأ المستبدين بها ، وساد الرعب حيث كان لورندسو يحكم حكماً موفقاً سعيداً ، أحس الفنان ، الذى كان قد نحت في رخام أضرحة آل ميديتشى نقداً للحياة لا مجرد نظرية في الحكم ، أن هذه الأشكال المكتئبة الحزينة تعبر ، فيما تعبر عنه ، عن المجد الغابر للمدينة التي كانت مهد النهضة . ولمـــا رفع الستار عن تمثال الليل كتب الشاعر چيان باتستا استروتسى رباعية تعرض موضوعه عرضاً أدبياً قال فيها ما معناه :

أن الليلة التي تراها هنا واقفة في رشاقة
يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، قد صاغها مَـلَـك
من الحجر الصلد ، وسنانة ، تسرى فيها الحياة ،
فأيقظها أيها المخلوق الذى لا تصدق ، فإنها ستتحدث إليك .

وقد غفر ميكل للكاتب ما في العبارة من تورية(*) هي في الوقت عينه تمجيد له ، ولكنه لم يرض عن تفسير الكاتب لخصائص التمثال ، وكتب هو تفسيراً لها في أربعة أسطر هي أكثر ما في شعره وضوحاً وإبانة عن مقصده قال :

ما أحَبَّ نومى ، ولكن يزيده محبة أن يكون مجرد حجر
ما دام الخراب والقدر سائدين .
إن أشد ما يؤلمنى ألا أرى شيئاً وألا أشعر بشىء ،
إذن فلا توقظنى ، وتحدث في همس(٦٢)

(*) يقصد بالتورية عجز اسم ميكل أنجيلو وكلمة Angel أى مَـلَـك .

الفصل الحادى عشر

خاتمة عصر : ١٥٢٨ — ١٥٣٤

لم يمت كلمنت إلا بعد أن بدل سياسته مرة أخرى ، وبعد أن تُوج ما أصابه من كوارث بخروج إنجلترا من قبضة الكنيسة (١٥٣١) . ذلك أن انتشار ثورة لوثر فى ألمانيا قد خلق لشارل الخامس متاعب وأخطاراً ، كان يرجو أن تخف وطأتها بعقد مجلس عام . وألح على البابا بعقد هذا المجلس ، وأغضبه ما كان ينتحله البابا المرة بعد المرة من أعذار وتسويف : كذلك ساء كلمنت أن الإمبراطور قد منح فيرارا مدينتى رچيو ومودينا ، فولى وجهه مرة أخرى شطر فرانسس ، وقبل عرضاً تقدم به فرانسس وهو أن تتزوج كترينا ده ميديتشى من هنرى ثانى أبناء الملك ، ووقع مع الملك مواد سرية ارتبط فيها بمساعدة فرانسس على استعادة ميلان وجنوى (١٥٣١)(٦٣) ؛ وعرض شارل مرة أخرى فى مؤتمر ثان عقد فى بولونيا (١٥٣٢) بين البابا والإمبراطور أن يجتمع مجلس عام يلتقى فيه الكاثوليك والبروتستنت لعلهم يجدون صيغة يوفقون بها بين المذهبين . ورفض هذا الاقتراح أيضاً . ثم عرض أن تتزوج كترين من فرانتشيسكو ماريا اسفوردسا نائب الإمبراطور فى ميلان ، لكنه تبين أن اقتراحه هذا جاء بعد فوات الوقت ؛ فقد كانت كترين قد بيعت من قبل لغيره . وفى الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٥٣٣ التقى كلمنت بفرانسس فى مرسيليا ، وزوّج ابنة أخيه من هنرى دوق أورليان . وكان من أكبر العيوب التى يتصف بها آل ميديتشى بوصفهم بابوات أنهم كانوا يرون أنفسهم أسرة مالكة ، وأنهم كانوا فى بعض الأحيان يضعون مجد أسرتهم فوق مصير إيطاليا أو الكنيسة .

وحاول كلمنت أن يقنع شارل بأن يصطلح مع فرانسس ؛ ولكن فرانسس رفض أن يجيبه إلى ما طلب ، وبلغ من الصفات أن طلب إلى البابا أن يوافق على عقد حلف موقت بين فرنسا ، والبروتستنت ، والترك ، ضد الإمبراطور[٦٤] . ولكن كلمنت ظن أن هذه خطوة جريئة لا يستطيع أن يخطوها .

« وفى هذه الظروف » ، كما يقول باستور Pastor ، « لا يسع الإنسان إلا أن يقول إن من حسن حظ الكنيسة أن كانت منيــة البابا قريبة »[٦٥] ، فقد بلغ الرجل أرذل العمر : لقد كان هنرى الثامن ، وقت تتويج البابا ، لا يزال حامى حمى الدين الصحيح ضد لوثر ؛ ولم تكن الثورة البروتستنتية قد اقترحت حتى ذلك الوقت تغييراً أساسياً فى العقائد ، بل كان كل ما طلبته هو إصلاحات فى شئون الكنيسة شرّعها مجلس ترنت Trent نفسه لها فى الجيل التالى : تلك هى الحال وقت تتويجه ، أما عند وفاته (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٣٤) ، فقد كانت إنجلترا ، والدنمرقة ، والسويد ، ونصف ألمانيا ، وجزء من سويسرا ، كانت هذه كلها قد انفصلت انفصالا تاما عن الكنيسة ، وكانت إيطاليا قد خضعت لسلطان أسپانيا خضوعاً شديد الخطر على التفكير الحر والحياة الحرة اللذين تمتاز بهما النهضة خيراً كانا أو شراً . وما من شك فى أن عهده كان شر العهود كلها فى تاريخ الكنيسة . لقد ابتهج كل إنسان حين جلس كلمنت على كرسى البابوية ، كما ابتهج كل إنسان عند موته ، وكم من مرة دنس غوغاء رومة قبره[٦٦] .



الكتاب السادس

الخاتمة

١٥٣٤ – ١٥٧٦



الباب الثانى والثلاثون

أفول نجم البندقية

الفصل الأول

بعث البندقية

من الأمور العجيبة التي لا نجد لها تفسيراً أن هذا العصر — عصر الاستعباد والاضمحلال لسائر إيطاليا ، كان عصراً ذهبياً بالنسبة للبندقية . لقد قاست هذه الدولة الأمرين من حروب حلف كمبريه ، واستولى الترك على كثير من أملاكها الشرقية ، وكم من مرة اضطربت تجاراتها مع بلاد شرق البحر المتوسط من جراء الحرب والقرصنة ، وكانت تجارتها مع الهند تنتقل من يدها إلى يد البرتغال . فكيف استطاعت إذن أن تعين فى تلك الفترة من الزمان مهندسين معماريين مثل سانسوفينو Sansovino وبلاديو Palladio ، وكتاباً مثل أريتينو ، ومصورين مثل تيشيان ، وتنتورتو ، وڤيرونيز ؟ وفى هذا العصر نفسه كان أندريا جبريلى Andrea Gabrieli يعزف على الأرغن ويرأس جوقة المرنمين فى كنيسة سان ماركو (القديس مرقص) ، ويكتب قصائد غزل يتردد صداها فى جميع أنحاء إيطاليا . وكانت الموسيقى مما يولع به الأغنياء والفقراء على السواء ؛ ولم يكن يضارع القصور القائمة على القناة العظمى فى ترفها وفنها من الداخل إلا قصور رجال المصارف والكرادلة فى رومة ؛ وكان مائة من الشعراء ينشدون أشعارهم فى الخيام ، والحانات ، والميادين العامة ؛ وعشر فرق تمثل المسالى ؛ وأنشئت دور التمثيل الدائمة ، وكانت ڤيتوريا

بيسينى Vittoria Püsseni « ساحرة الحب الجميلة la bella maga d'Amore » محبوبة المدينة فى التمثيل ، والغناء ، والرقص ، حين حلت النساء محل الغلمان فى تمثيل أدوار النساء ، وبدأ من ذلك الوقت عهد المهرجانات .

وسنحاول هنا تفسير هذه الظاهرة الخفية تفسيراً أعرج هو كل ما نستطيعه فى الوقت الحاضر . وأول ما نقوله فى ذلك أن البندقية نفسها لم تُغز قط وإن كانت قد أوذيت أشد الأذى من جراء الحرب . ولهذا بقيت منازلها وحوانيتها قائمة سليمة . وكانت البندقية قد استردت ما لها من أملاك فى شبه جزيرة إيطاليا ، وكانت تضم مدناً عامرة بالسكان أمثال پدوا ، وڤيتشندسا ، وڤيرونا ، بين روافدها التى تمدها بالعباقرة من رجال التعليم ، والاقتصاد ، والفنانين (أمثال كولمبو وكرنارو Cornaro فى پدوا ، وپلاديو فى ڤيتشندسا ، وڤيرونيز من ڤيرونا) . وكانت لا تزال تسيطر على مساحات واسعة للتجارة فى البحر الأدرياوى وبالقرب منه . ولا يزال عند أسرها الشهيرة كنوز لم تفن بعد من الثروة المكتسبة الموروثة ؛ وظلت التجارة القديمة مزدهرة ووجدت لها أسواقاً جديدة فى العالم المسيحى ؛ مثال ذلك أن زجاج البندقية قد وصل فى ذلك العصر إلى حد الكمال فى التبلور ؛ واحتفظت البندقية بما كان لها من زعامة فى منتجات الترف ، وكان هـذا العصر هو الذى اشتهرت فيه منتجاتها من المخرمات . وظلت البندقية ، رغم ما فرض عليها من الرقابة الدينية ، تأوى اللاجئين من السياسيين والمفكرين أمثال أريتينو الذى كان يتخلل فحشه وطربه من حين إلى حين كتابات أدبية تفيض تقى وصلاحاً .

وبرهنت البندقية فى أواخر هذه الفترة مرتين على ما لها من نشاط مدنى وقدرة على الانتعاش ، ففى عام ١٥٧١ قامت بدور رئيسى مع أسپانيا والبابوية فى تجهيز عمارة بحرية مؤلفة من مائتى سفينة حطمت أسطولا تركياً

مكوناً من ٢٢٤ مركباً بالقرب من ليبانتو Lepanto فى خليج كورنث، واحتفلت البندقية بهذ النصر الذى كان من شأنه أن يحتفظ بأوربا الغربية مسيحية احتفالا دام ثلاثة أيام بلغ فيها المرح حد الجنون : فقد علقت فى حى الجزيرة بالبندقية أعلام مرصعة بالفيروزج والذهب ؛ ورفعت فى النوافذ كلها أعلام أو طناقس ازدهت بها القناة الكبرى فى المدينة ، وأقيم قوس نصر فوق جسر الجزيرة ، وعرضت فى الشوارع صور من صنع بليني ، وچيورچونى ، وتيشيان ، وميكل أنچيلو . وكانت حفلات التنكر التى أعقبت هذا النصر أكثر الحفلات التي عرفتها البندقية صخباً وضجيجاً ، وكانت مثلا احتذته حفلات تنكرية كثيرة فيما بعد ، فقد تنكر كل امرئ فى المدينة وأطلق العنان لمرحه وعبثه ، واطرح إلى حين كل قوانين الأخلاق ، وانتقلت إلى أكثر من عشر لغات أسماء المهرجين أمثال پنتالونى Pantalone ودسانى Zonni (أى چوهانى Johanny)(*) .

ثم شبت حرائق مروعة فى قصر الدوق فى عامى ١٥٧٤ و ١٥٧٧ دمرت كثيراً من حجراته. وأتلفت كل فيها ، فاحترقت صور من أعمال چنتيلى دا فبرياتو Gentile da Fabriano، وأسرة بليني ، وأسرة ڤيڤاريني Vivarini وتيشيان ، وپردينونى ، وتنتورتو ، وڤيرونيزى ، واختفى فى يومين كل ما أخرجه الفن والجهد البشرى من روائع . وتجلت روح الجمهورية بأجلى مظاهرها فى السرعة والعزيمة اللتين أصلح بهما داخل القصر وأعيد إلى سابق عهده . فقد عهد إلى چيوڤنى دا بنتى Giovanni da Bonte أن يعيد بناء الغرف بالنظام الذى كانت عليه ، وصمم كرستوفورو سورتى Cristoforo Sorte سقف قاعة المجلس الكبير Sala del Magior Consiglio العجيب فى تسعة وتسعين قسما ، ورسم صور الجدران تنتورتو ، وڤيرونيزى ، وپالما

(*) أصبح هذان اللفظان اسمين عامين يسمى بهما كل مهرج أو ماجن وهما فى الأصل اسمان لشخصين بعينهما عاشا فى ذلك الوقت . (المترجم)

چيوڤني ، وفرانتشيسكو بسانو . وفى الحجرات الأخرى — كحجرة الاجتماع الخاصة بالدوج ومجلسه (Collegio) ، وحجرة الانتظار (Antecollegio) ، وقاعة اجتماع مجلس الشيوخ Sala de' Pregadi — صمم رسم السقف ، والأبواب ، والنوافذ أعظم مهندسى العمارة — ياقوبو سان سوڤينو Iacopo Sansovino ، وپلاديو ، وأنطونيو اسكارپانيتو Antonio Scarpagnino ، وألسندرو ڤتوريا .

وكان ياقوبو د أنطونيو دى ياقوبو تاتى Jacopo d' Antonio di Jacopo Tatti من مواليد فلورنس (١٤٨٦) . « وأرسل على كره منه شديد إلى المدرسة » كما يقول ڤاسارى ، ولكنه أولع بالرسم ، وشجعت أمه هذا الميل فيه ، وتغلبت على معارضة أبيه الذى كان يرجو أن يكون ابنه تاجراً . وهكذا ذهب ياقوبو ليتدرب على يد المثال أندريا كنتوتشى دى مونتى سان ساڤينو Andrea Contucci di monte San Savino الذى أحب الغلام حباً جماً ، وأخلص فى تعليمه إلى حد جعل ياقوبو ينظر إليه نظرته إلى أبيه واتخذ Sasovino وهو لقب أندريا لقباً له . وكان من حسن حظ الغلام فوق ذلك أن اتخذ صديقاً له أندريا دل سارتو Andrea del Sarto ، ولعله أخذ عنه أسرار التصميم الرشيق الملىء بالحياة . ونحت المثال الشاب وهو فى فلورنس تمثال باخوس الذى يوجد الآن فى معرض بارجيلو Bargello والذى اشتهر بتوازنه التام ، وبالمهارة التى أمكنته من أن يقطع من قطعة واحدة من الرخام ذراع التمثال ، ويده ، وإناء الزهر المتزن بخفة فوق أطراف الأصابع . وكان كل إنسان يعطف على أندريا (عدا ميكل أنچيلو) ، ويساعده على تسنم ذروة التفوق والامتياز . فأخذه جيوليانو دا سانجلو Giuliano da Sangallo إلى رومة ، وهيأ له مسكناً فيها ؛ وعهد إليه برامنتى أن يصنع صورة من الشمع للاوكون Laocoön ، فأجاد المثال صنعها إجادة جعلت الكردنال جريمانى Grimani يطلب أن يصب له التمثال من البرنز . ولعل تأثير برامنتى هو الذى

جعل أندريا يتحول من فن النحت إلى العمارة ، ولم يلبث أن عهدت إليه أعمال تدر عليه الكثير من المال .

وكان فى رومة حين نهبت المدينة ، وفقد فى أثناء النهب جميع ما يملك مثله فى ذلك كمثل جميع الفنانين . واستطاع أن يتخذ طريقه للبندقية يرجو أن يسافر منها إلى فرنسا ؛ ولكن الدوج أندريا جرتى Andrea Gritti رجاه أن يعدل عن هذا السفر وأن يعمل لتقوية عمد كنيسة القديس مرقص وقبابها ، وسر مجلس شيوخ المدينة من عمله سروراً جعله يعينه مهندس الدولة (١٥٢٩) ؛ وظل ست سنين يكدح فى تحسين ميدان سان ماركو ، فأزال حوانيت القصابين التى كانت تشوه منظر جوانبه ، وشق شوارع جديدة ، وعمل على جعل ميـــدان القديس مرقص ذلك المكان الرحب الذى نشاهده اليوم .

وفى عام ١٥٣٦ أنشأ دار الضرب (Zecca) ثم بدأ أشهر مبانيه كلها . وهو مبنى دار الكتب Libraria Vecchia المواجه لقصر الدوج . ووضع تصميما للواجهة جعل لها فيه رواقين ذوى عمد دورية وأيونية الطراز ، وشرفات وأطناف ، وزينها بالتماثيل . ويقول بعضهم إن هذه المكتبة القديمة « أجمل بناء غير دينى فى إيطاليا كلها »(١) ؛ غير أنها يؤخذ عليها الإسراف فى العمد ؛ هذا إلى أن بناءها نفسه لا يضارع بناء قصر الدوج . ومهما يكن من شىء فإن ولاة الأمور أحبوها ، ورفعوا من أجلها مرتب سان سوڤينو ، وأعفوه من الضرائب . وحدث فى عام ١٥٤٤ أن انهارت إحدى البواكى الرئيسية ، وخرت إحدى القباب ، فألقى سان سوڤينو فى السجن ، وفرضت عليه غرامة كبيرة ، ولكن أريتينو وتيشيان أقنعا ولاة الأمور بالعفو عنه ؛ ورممت الباكية والقبة ، وتم البناء بنجاح فى عام ١٥٥٣ . وكان سان سوفينو فى هذه الأثناء (١٥٤٠) قد وضع تصميم اللوجيتا Logetta الجميلة أو شرفة الشرطة القائمة على الجانب الشرقى من برج الأجراس وزينها بالتماثيل

المصنوعة من البرنز أو القرميد ؛ وصب فى كنيسة القديس مرقص أبواباً من البرنز لإحدى حجر الخلفات ، وانتهز هذه الفرصة فصور بين النقوش البارزة أريتينو وتيشيان ، ولم يكتف بهذا بل صور نفسه أيضاً .

وكان الرجال الثلاثة وقتئذ قد أصبحوا من أحب الأصدقاء ، تحسدهم الدوائر الفنية فى البندقية ، وتسميهم : « الحكومة الثلاثية "Triumvirate" » (*) . وكم من سهرة قضوها معاً يمضون الوقت فى الثرثرة أو يحتفلون بإحدى الحسان التى يستطيعون الاحتفال بها وقتاً ما . ولم يكن ياقوبو يقل عن أريتينو ائتلافاً مع أذواق النساء ، وقد عاش من العمر بقدر ما عاش تيشيان ، فقد ظل قوى الجسم ، سليم البدن ، يستمتع كما يؤكد عارفوه بقوة بصره كاملة حتى بلغ سن الرابعة والثمانين(٢) . وظل خمسين سنة لا يستشير طبيباً ، وكان فى فصل الصيف يعيش على الفاكهة لا يكاد يطعم سواها . ولما استدعاه البابا بولس الثالث ليخلف أنطونيو دا سنجالو فى منصب كبير المهندسين فى كنيسة القديس بطرس رفض هذه الدعوة وقال إنه لا يرضى أن يستبدل بحياته فى ظل الجمهورية العمل فى ظل حاكم مطلق(٣) . وعرض عليه كل من إركولى الثانى صاحب فرارا ، وكوزيمو دوق فلورنس ، مبالغ طائلة لكى يرضى بالإقامة فى بلاطيهما ، ولكنه رفض ما عرضاه عليه . ومات ميتة هادئة فى عام ١٥٧٠ بعد أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر .

وفى ذلك العام ظهر مؤلف فى العمارة كان بداية عهد جديد فى هذا الفن . واسم هذا الكتاب هو *أربعة كتب فى العمارة* ومؤلفه أندريا پلاديو الذى سمى باسمه طراز من البناء لا يزال باقياً فى أماكن متفرقة حتى يومنا هذا . وسافر أندريا إلى رومة كما سافر إليها كثيرون غيره من الفنانين ، وتأثرت مشاعره أشد التأثر بعظمة خرائب السوق العامة ، وشغف حبا بالعمد والتيجان المحطمة ، ورأى فيها أجمل الأفكار التى وصل إليها فن

(*) إشارة إلى الحكومة الثلاثية فى رومة القديمة . (المترجم)

العمارة ؛ وكان يحفظ رسالة ڤتروڤيوس عن ظهر قلب ، وقد حاول فى كتابه هو أن يرد إلى مبانى النهضة جميع تلك المبادئ التى قام عليها ، فى رأيه ، مجد رومة القديمة . وقد خيل إليه أن أجمل المبانى هى التى تبتعد عن جميع الزخارف التى لا تنبت بنفسها من طراز الإنشاء نفسه ، والتى تستمسك بأدق النسب والصلات ، وبتطابُق الأجزاء ومواءمتها بحيث يتكون منها كل عضوى يسمو عظما قوياً طاهراً طهارة العذراء العفيفة ، مهيباً كالإمبراطور العظيم .

وكان أول أعماله الكبيرة أحسنها على الإطلاق ، وهو من أبرز المنشآت غير الدينية فى إيطاليا . ذلك أنه أقام حول قاعة البلدية Palazzo della Ragione فى موطنه ڤيتشندسا Vicenza فى عام ١٥٤٩ وما بعدها أروقة مقنطرة فخمة قوية حول بها مركز البناء القوطى الذى لا يمتاز بشىء عما حوله إلى باسلقا بلاديانا لا تكاد تقل شأناً عن باسلقا لوليا التى كانت قائمة فى الزمن القديم فى السوق الرومانية : فهى مؤلفة من صف من الأقواس تعتمد على عمد دورية(*) اسطوانية ومربوعة ، وعارضات لها قوية ضخمة ، وسياج وشرفة منحوتة نحتاً رشيقاً ، ثم صف آخر من العقود فوق عمد أيونية الطراز ، وأطناف وسياج ، وفوق كل بندريل تمثال عال يطل على المدينة ويكسبها عظمة وفخامة . وقد كتب هو نفسه عنها فى كتابه بعد واحد وعشرين عاماً من بنائها يقول : « لا شك عندى فى أن هذا الصرح لا يقل جلالا عن الصروح القديمة ، وأنه يمكن أن يعد من أروع وأجمل ما شيد من العمائر منذ أيام الأقدمين »(٤) . ولو أنه قصر هذا التحدى على المبانى غير الدينية لما كان عليه فيه تثريب .

وأصبح پلاديو بعدئذ بطل ڤيتشندسا التى أحست بأنه قد تفوق على سانسو ڤينو ، وأن هذا الصرح أعظم من بناء دار الكتب . وألح عليه أثرياء

(*) أى من الطراز الدورى (Doric) . (المترجم)

المدينة يطلبون أن يقوم لهم ببناء القصور والبيوت الريفية ؛ كما ألح عليه رجال الدين لبشيد الكنائس ؛ وكانت نتيجة ذلك أنه كاد يجعل المدينة قبل وفاته عام ١٥٨٠ قطعة من رومة . وكان مما شاده فيها شرفة مكشوفة تدار منها شئون المدينة ، ومتحف جميل ، ودار تمثيل أطلق عليها اسم Teatro Olimpico . واستدعته البندقية وفيها خطط كنيستين من أجمل كنائسها هما كنيستا سان چيورجيو مجيورى ، وريدينتورى Redentore ، وأصبح حتى قبل وفاته ذا أثر قوى فى إيطاليا . ونقل إنيجو چونز Inigo Jones فى أوائل القرن السابع عشر الطراز الپلاديونى إلى إنجلترا ، وانتشر بعدئذ فى أوربا الغربية ثم انتقل إلى أمريكا .

وربما كان انتشار هذا الطراز من سوء حظ فن العمارة . ذلك أنه لم يبلغ قط ما بلغه فن العمارة الرومانية من روعة ومهابة ، فقد أرباك واجهات مبانيه بما ملأها به من العمد ، والتيجان ، والطنوف ، والصور ، والتماثيل ، فكانت هذه التفاصيل مما يزرى بما فى الصروح الرومانية الطراز من بساطة فى الخطوط ووضوح فى المنظر العام . ولقد نسى پلاديو وهو يعود متواضعاً إلى الطراز القديم أن الفن الحى يجب أن يعبر عن العصر الذى يعيش فيه ومزاجه ، لا عن عصر آخر ومزاج آخر . ومن أجل هذا فإننا حين نفكر فى عصر النهضة ، لا ترتسم فى عقولنا مبانيه ، بل ولا تماثيله نفسها ، وإنما ترتسم فيها صوره التى لا يتمثل فيها إلا القليل من تقاليد الإسكندرية ورومة ، التى حررت نفسها من القوالب البيزنطية المزدحمة الغير الطبيعية ، فكانت بذلك صوت ذلك العصر ولونه بحق .

الفصل الثانى

أريتينو : ١٤٩٢ — ١٥٥٦[٥]

وكأن الأقدار أرادت أن تخلد ذكرى عام ١٤٩٢ فقدرت أن يولد پيترو أريتينو ، المنكل بالأمراء ، وأمير المبتزين المغتصبين ، كما قدرت أن يخرج إلى العالم فى يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام . وكان والده حذاء فقيراً فى أرتسو لا نعرف من اسمه إلا لوكا Luca . وسمى پيترو فى الوقت المناسب ، كما كان يسمى كثيرون غيره من الإيطاليين ، باسم مسقط رأسه فصار أريتينو . وكان أعداؤه يصرون على أن أمه كانت عاهراً ؛ ولكنه كان ينكر ذلك ويقول إنها كانت فتاة حسناء تدعى تيتا Tita يتخذها المصورون نموذجاً لرسم صورة العذراء ، غير أنها فى ساعة من الاستهتار حملت بپيترو وهى فى أحضان عشيق عارض ولكنه نبيل يدعى لويجى باتشى Luigi Bacci . ولم يكن أريتينو يعبأ بأنه نغل ، لأن له زملاء ممتازين من هذا الصنف من الناس ، كذلك لم يكن أبناء لويجى الشرعيون يغضبهم أن يسميهم پيترو ، بعد أن ذاع صيته ، إخوته . لكن أباه كان هو لوكا .

ولما أتم الثانية عشرة من عمره شرع يعمل لكسب عيشه ، فاشتغل مساعد مجلد كتب فى پيروچيا ؛ وهناك درس الفن دراسة تكفى لأن تجعله فيما بعد نقاداً وخبيراً ممتازاً . ورسم هو بعض الصور الملونة . واتفق أن كانت فى أشهر ميادين پيروچيا صورة دينية يعزها أهل المدينة ويجلونها ، تمثل صورة مجدلين خاشعة عند قدمى المسيح . فما كان من أريتينو فى إحدى الليالى إلا أن رسم عوداً فى أحضان مجدلين فحول بذلك دعاءها إلى أغنية . ولما استشاطت المدينة غضباً من هذه الفعلة الطائشة ، تسلل پيرو من پيروچيا وأخذ يطوف فى إيطاليا ، فعمل خادماً فى رومة ، ومغنياً فى شوارع

فيتشندسا ، وصاحب نزل فى بولونيا . واشتغل فترة من الزمان فى مطبخ بعض السفن وعاملا مأجوراً فى دير ، لكنه طرد منه لاتهامه بالدعارة ، فعاد إلى رومة (١٥١٦) ، حيث عمل خادماً عند أجوستينو تشيجى . ولم يكن الرجل المصرفى يقسو فى معاملته ، ولكن أريتينو كان قد كشف عما امتاز به من عبقرية ، وتضايق من الاشتغال بالخدمة ؛ فكتب قطعة من الهجاء اللاذع يصف فيها حياة الخادم الحقير الذى يقضى وقته فى تنظيف المراحيض ، وتلميع المباول . . . وإشباع شهوات الطباخين ورؤساء الخدم ، ولايلبث أن يرى جسمه مرقطاً ومزداناً بالزهرى »[٦] . وعرض قصائده على بعض ضيوف تشيجى ، وترامت الأنباء بأن پيترو أحد الهجائين لساناً وأعظهم فكاهة . وبدأت قصائده تنتشر ، وسر منها البابا ليو ، وبعث فى طلب مؤلفها ، وضحك من فكاهته الخشنة الصريحة ، وضمه إلى الموظفين البابويين ليكون فى مركز وسط بين الشاعر والمهرج ، وظل پيترو ثلاث سنين فى خدمة البابا يستمتع بلذيذ المأكل والمشرب .

ثم مات ليو فجاءة ، وبدأ أريتينو حياة التجوال مرة أخرى . ولما أبطأ مجمع الكرادلة فى اختيار من يخلفه ، كتب عدة قصائد يهجو فيها الناخبين والمرشحين ، ولصقها على تمثال بسكوينو Pasquino وأخذ يكيل السخرية لكثيرين من الكبار حتى لم يكد يبقى له فى المدينة كلها صديق . ولما انتخب أدريان السادس ، وبدأ حملة للإصلاح تذمرت منه أهل المدينة ، فر پيترو إلى فلورنس ، ثم إلى مانتوا (١٥٢٣) ، حيث عينه فيديريجو شاعر بلاطه بمرتب غير كبير . ولما استجيب دعاء رومة ومات أدريان ، وجلس ثرى من آل ميديتشى مرة أخرى على عرش العروش ، بادر پيترو بالذهاب إلى العاصمة كما بادر بالذهاب إليها آلاف غيره من الشعراء ، والفنانين ، والأوغاد ، والرقعاء .

وما كان يصل إليها حتى قضى بنفسه على ما لقيه فيها من ترحيب ...

ذلك أن چيوليو رومانو كان قد رسم عشرين صورة ، تصف عدة مواقف غرامية مختلفة . ووضع مركانتونيو نقوشاً محفورة لهذه الصور ، « وكتب پيترو أريتينو » . كما يقول ڤاسارى« أغنية بلغت من الفحش درجة لا أستطيع معها أن أقول أيهما شر من الأخرى : الرسوم أو الألفاظ »(٧) . وتداول المفكرون الصور والأغانى حتى وصلت إلى جبيرتى Giberti وهو الموظف المنوط ببحث حالات موظفى الحكومة البابوية ولياقتهم لوظائفهم ، وكان هذا الموظف معروفاً بعدائه لأريتينو . وسمع بذلك پيترو فخرج من المدينة هائماً على وجهه مرة أخرى . ولما وصل إلى مانتوا افتتن به فرانسس الأول الذى أوشك أن يفقد كل شيء عدا الشرف . وفى ذلك الوقت بدل أريتينو موضوعه وانقلب من النقيض إلى النقيض ، ودهشت لذلك رومة وحبست أنفاسها من فرط الذهول ؛ فقد كتب ثلاثة قصائد فى المديح ، واحدة منها عن كلمنت ، وثانية عن جبيرتى ، وثالثة عن فيديريجو. وشفع له المركيز لدى البابا ، ورق له قلب جبيرتى ، وأرسل كلمنت فى طلب أريتينو وعينه فارساً فى رودس ورتب له معاشاً . وقد وصفه فرانتشيسكو بيرنى منافسه الوحيد بين الهجائين وقتئذ بقوله :

إنه يسير فى شوارع رومة فى زى الأدواق ، ويشترك فى جميع مغامرات الأشراف ، ويشق لنفسه الطريق بالإهانات المتخفية فى الألفاظ الماكرة الخادعة . وهو يجيد الحديث ، ويعرف كل قصة من قصص الطعن والتشهير فى المدينة . ويسير متأبطاً أذرع أفراد أسرة أوست وجندساجا ، ويستمع هؤلاء إلى ثرثرته : وهو يحترمهم ولكنه يشمخ بأنفه على كل واحد سواهم ، ويعيش من هباتهم . والناس يخشونه لما له من قدرة على الهجاء ، ويسره أن يستمع الناس يصفونه بأنه بياخر نمام وقح . وكل ما كان يحتاجه أن يظفر بمعاش ، وقد حصل عليه من البابا بعد أن وجه له قصيدة من الدرجة الثانية(٨) .

ولم يكن أريتينو يشك فى أنه سيحصل على هذا كله . وكأنما أراد أن يثبت هذا فطلب إلى سفير مانتوا أن يرجو فيديريجو أن يهبه « قميصين مطرزين بالذهب . . . وآخرين مشغولين بالحرير ، ومعها قلنسوتان من الذهب » . فلما أبطأت عليه هذه المطالب أنذر بأنه سوف يهجو المركيز هجوا يقضى عليه من فوره . وحذر السفير فيديريجو من هذا بقوله : « إن سموك لتعلم قوة لسانه ؛ ولن أقول لك شيئاً غير هذا » . وسرعان ما وصلت أربعة قمصان مطرزة بالذهب ، وأربعة مطرزة بالحرير ، وقلنسوتان من الذهب ، وقبعتان من الحرير ، وكتب السفير يقول : « إن أريتينو راض قانع » . وكان فى وسع پيترو أن يرتدى وقتئذ رداء الأدواق .

وقضى على فترة الرخاء الثانية فى رومة حادث روائى أدى إلى إصابته خفية بطعنات خنجر . وتفصيل ذلك أن أريتينو قال أبياتاً أهان بها فتاة تعمل فى مطبخ جيبرتى ، فهاجمه خادم آخر من خدم جيبرتى يدعى أتشيلى دلا ڤولتا Achille della Volta فى أحد شوارع المدينة فى الساعة الثانية صباحاً (١٥٢٥) ، وطعنه بخنجر فى صدره طعنتين ، كما طعنه طعنة شديدة فى يده اليمنى أدت إلى بتر إصبعين من أصابعها . ولم تكن الجراح مميتة ، وسرعان ما شفى منها أريتينو ، وطالب باعتقال أتشيلى ، ولكن كلمنت وجيبرتى لم يتدخلا فى الأمر . وظن پيترو أن جيبرتى يعمل لقتله ، فاستقر رأيه على أن الوقت قد آن للطواف مرة أخرى بإيطاليا ، فانتقل إلى مانتوا والتحق مرة أخرى بخدمة فيديريجو (١٥٢٥) . ولما سمع بعد عام من ذلك الوقت أن چيوڤنى دلى باندى نيرى يجهز جيشاً يقصد به غزو فرندسبرج ، ثارت فى نفسه ذرة خفية من النبل والكرامة ، فسافر راكباً نحو مائة ميل لينضم إلى چيوڤنى فى لودى Lodi . وغلى كل ما فى عروقه من الدم حين فكر فى أنه وهو الشاعر المسكين قد يصبح رجل جد وعمل ، وأنه قد يبلغ من أمره أن ينشئ لنفسه إمارة يتولى هو رياستها ، بدل أن يكون مجرد خادم مهين لأمير .

والحق أن القائد الشاب كان كريماً معه كرم دون كيشوت ، فوعده بأن يجعله مركيزاً إن لم يكن أعظم من مركيز . ولكن چيوفني الباسل قتل ، وخلع أريتينو الخوذة التي أعطيها وعاد إلى مانتوا وإلى قلمه .

وألف وقتئذ تقويماً هزلياً لعام ١٥٢٧ تنبأ فيه بنبوءات سخيفة أوسيئة لمن كان يبغضهم ، وضم إلى ضحايا قلمه البابا كلمنت لغضبه عليه بسبب ضعف المعونة التي قدمها إلى چيوفني دلي باندى نيرى وتردده في تقديمها . وأظهر كلمنت دهشته من أن يأوى فيديريجو مثل هذا العدو للبابوية الذى لا يظهر لها شيئاً من الإجلال ، فما كان من فيديريجو إلا أن نفح أريتينو بمائة كرون وأشار عليه بأن يبتعد عن متناول يد البابا . فرعليه پيترو يقوله : « سأذهب إلى البندقية ، ففي البندقية وحدها تمسك العدالة بكفتين متزنتين » . ووصل إليها فى شهر مارس عام ١٥٢٧ ، واتخذ له بيتاً على القناة الكبرى . وافتتن بالمناظر التي كان يراها من وراء الأمواه الضحلة ، وبحركة المرور التي كان يشاهدها فيما أسماه « أجمل طريق كبير في العالم كله » ؛ وكتب فى ذلك يقول : « لقد استقر رأيي على أن أعيش فى البندقية طول حياتى » . وبعث بخطاب يهدى فيه تحياته وثناءه العظيم إلى الدوج أندريا جبيرتى ، ويمتدح فيه جمال البندقية وجلالها وعدالة شرائعها ، وما يستمتع به أهلها من أمن وطمأنينة ، وإيواءها اللاجئين السياسيين والمفكرين ، وأضاف إلى ذلك فى عظمة وجلال : « أنا ، الذى قذفت الرعب فى قلوب الملوك . . . أسلم نفسى إليكم يا آباء شعبكم »[٩] . وقدره الدوج التقدير الذى قدر به نفسه ، وأكد له أنه سيبسط عليه حمايته ، ووظف له معاشاً ، وشفع له عند البابا ، وبقى أريتينو مقيما فى البندقية وفيًّا لها طوال السنين التسع والعشرين الباقية من حياته ؛ وإن كانت قد جاءته الرسائل تدعوه إلى الإقامة فى بلاط الكثيرين من رؤساء البلاد الأجنبية .

ويشهد ما جمعه فى بيته الجديد من أثاث وتحف فنية بما كان لقلمه من

قوة ، لأن هذا كله إنما صنع أو جمع نتيجة لكرم أنصاره أو خوفهم منه .
من ذلك أن تنورتو نفسه هو الذى نقش سقف حجرات پيترو الخاصة ،
وسرعان ما ازدانت جدرانها بصور من عمل تيشيان ، وسباستيانو دل پيومبو ،
وجيولبو رومانو ، وبرندسينو ، وڤاسارى ؛ وكان فى الدار تماثيل من صنع
ياقوبو سانسو ڤينو ، وألسندرو ڤتوريا . وكانت فيها علبة من خشب الأبنوس
تحوى الرسائل التى تلقاها أريتينو من الأمراء ، والأحبار ، وقواد الجيوش ،
والفنانين ، والشعراء ، والموسيقين ، وكرائم السيدات ؛ وقد نشر هذه
الرسائل فيما بعد فى مجلدين يحتويان على ٨٧٥ صفحة كثيرة السطور . وكان
فى الدار فوق ذلك صناديق وكراسى محفورة ، وسرير من خشب الجوز
يليق بجسم پيترو الذى كان قد تضخم . وكان أريتينو يعيش وسط هذا
الترف وهذه التحف الفنية ، يرتدى ثياب الأمراء ، ويوزع الصدقات على
الفقراء من الجيران ، ويولم الولائم لعدد لا يحصى من الأصدقاء وللعشيقات
اللاتى اتخذهن واحدة بعد واحدة .

ترى من أين جاء بالمال الذى يحيا به هذه الحياة المترفة ؟ لقد جاء
بعضه من بيع كتاباته للناشرين ، وبعضه من الهدايا والمرتبات التى كان
يبعث بها إليه من يخشى سخريته أو يلتمس مديحه من الرجال والنساء .
وكان أكثر الناس يقظة وشأناً فى إيطاليا يسارعون إلى ابتياع ما يخطه قلمه
من هجاء ، وقصائد ؛ ورسائل ، ومسرحيات ، وكلهم حريص على أن
يعرف ما يقوله عن الأشخاص والحوادث ، ويسر من هجائه على ما هو
منتشر فى تلك الأيام من فساد ، ونفاق ، وظلم ، وسوء خلق . وقد أضاف
أريستو إلى الطبعة التى أصدرها فى عام ١٥٣٢ من **أرلندو فيوزيوسو**
Orlando Furioso بيتين من الشعر أضافا لقبين إلى اسم پيترو إذ قال : «انظروا إلى
المنكل بالأمراء ، پيترو أريتينو القدسى » ؛ وسرعان ما أصبح الطراز المألوف
أن يتحدث الناس عن أكبر كاتب فظ بذىء فى ذلك الوقت بأنه « قدسى » .

وذاعت شهرته فى أنحاء القارة الأوربية ، وسرعان ما ترجم هجاؤه إلى اللغة الفرنسية ، وجمع أحد باعة الكتب فى شارع سان جاك فى باريس ثروة طائلة من بيعها مفردة(١١) ، ورحب بها سكان إنجلترا ، وبولندة ، والمجر ، وقال فى ذلك أحد معاصريه إن أريتينو ومكيڤلى هما دون غيرهما المؤلفان اللذان تقرأ مؤلفاتهما فى ألمانيا ، وفى رومة حيث يقيم ضحايا قلمه المحبوبون كانت كتاباته تنفد فى يوم نشرها ، وإذا جاز لنا أن نأخذ بتقديره هو فإن إيراده من مؤلفاته المختلفة بلغ ألف كرون (١٢,٥٠٠ دولار ؟) فى العام الواحد . وفضلا عن هذا فإن « كيمياء قلمى قد جاءت إلى بأكثر من ٢٥,٠٠٠ كرون ذهبى من أحشاء مختلف الأمراء » . وكان الملوك ، والأباطرة ، والأدواق ، والبابوات ، والكرادلة ، والسلاطين ، والقراصنة ، ممن يعطونه الجزية عن يد وهم صاغرون . وها هو ذا شارل الخامس يعطيه طوقاً يقدر بثلثمائة كرون ، وفليب الثانى يعطيه طوقاً آخر يقدر بأربعمائة ، وفرانسس الأول يهبه سلسلة أعظم منهما قيمة(١٢) . وكان فرانسس وشارل يتنافسان فى كسب مودته بما يعدانه به من معاش ضخم ، وقد وعده فرانسس بأكثر مما وهبه ، وقال عنه أريتينو : « لقد كنت أجلّه أعظم إجلال ، ولكن عجزى عن استثارة سخائه والحصول من هذه الاستثارة على المال ليكفى لأن يبرد أفران مورانو (الضاحية التى تتركز فيها صناعة الزجاج بالبندقية) »(١٣) . وعرض عليه لقب « فارس » من غير أن يصحب اللقب إيراد ما ، فرفضه وقال « إن الفروسية بلا دخل كالجدار الذى لا يحمل علامة « ممنوع » فعنده يرتكب كل إنسان ما يشاء من المضايقات »(١٤) . وهكذا سخر أريتينو قلمه للثناء على شارل وخدمه بإخلاص لم يألفه قط . ودعى مرة لمقابلة الإمبراطور فى پدوا ، فلما أقبل على المدينة خرجت جموع كبيرة تحييه كما تحيى أعظم العظماء المشهورين ، وآثر شارل أريتينو على جميع الحاضرين فاختاره للركوب إلى جانبه وهو يطوف بالمدينة ، وقال له :

« إن كل سميذع فى أسپانيا يعرف كتاباتك ، ويقرأ كل ما يصدر منها فور طبعه » . وجلس ابن الحذاء فى تلك الليلة عن يمين الإمبراطور ، الذى دعاه لزيارة أسپانيا ، فرفض پيترو بعد أن عرف ما هى البندقية . وكان أريتينو وهو جالس إلى جانب فاتح إيطاليا أول مثل لما أسماه الناس بعدئذ قوة القلم ، فما من نفوذ شبيه بنفوذه ظهر بعدئذ فى الأدب حتى جاء ڤلتير .

وقلما يسترعى هجاؤه انتباهنا فى هذه الأيام ، ذلك أن قوته تعتمد فى الغالب على الإشارات اللاذعة لحوادث محلية ، وثيقة الصلة بظروف ذلك الوقت إلى حد يحرمها من أن يكون لها أثر دائم . وكان سبب انتشار ذلك الهجاء وشهرته أنه يصعب على الإنسان ألا يستمتع بكشف عورات غيره من الناس ، ولأن قائله يعرض بالمساوئ الحقة ، ويهاجم بشجاعة العظماء والأقوياء ، ولأنه حشد جميع ما فى لغة الشوارع من قوة لخدمة الأدب وللتجريح الأدبى النافع . وقد استغل أريتينو اهتمام الناس الفطرى بالشئون الجنسية وبالخطايا ، فكتب فى ذلك أحاديث Ragionamente بين العاهرات عن أسرار الراهبات ، والزوجات ، والعشيقات وأعمالهن . وكانت الصفحة الأولى من الكتاب تعلن أنه محاورات نانا وأنطونيو ... ألفه أريتينو القدسى لقرده المدلل كپريتشيو Capricio ، ولإصلاح شأن طبقات النساء الثلاث . قدم للطابع فى هذا اليوم من شهر إبريل سنة ١٥٣٣ بمدينة البندقية الذائعة الصيت »[١٥] . وفى هذا الكتاب يستبق أريتينو ما تتسم به كتابات ربليه Rabelais من فحش ، وسخرية ، وولع بالأوصاف يصل إلى حد الجنون ، وهو يهيم حباً بالعبارات التى لا تزيد على أربعة أسطر ، ويؤلف منها أحياناً عبارات فذة مدهشة كقوله : (« أراهن بروحى نظير حبة فستق ») ، وأوصافاً رائعة كوصفه الزوجة الحسناء التى فى سن السابعة عشرة والتى هى « أجمل قطعة من اللحم أظن أنى لقيتها فى حياتى » — والتى تزوجت برجل فى سن الستين ، واعتادت المشى وهى نائمة تتخذه وسيلة لمقارعة حراب

الليل »(١٦) . والنتيجة التى تستخلص من المحاورات هى أن المومسات أجدر طبقات النساء الثلاث بالمديح ، لأن الزوجات والراهبات ينكثن بأيمانهن ، أما المومسات فيعشن كما تحتمه عليهن حرفتهن ، ويقضين الليلة فى أداء ما تناولن عنه أجرهن . ولم تروع أقواله إيطاليا ، بل تلقتها بالضحك والابتهاج .

وألف أريتينو فى ذلك الوقت نفسه أكثر مسرحياته كلها انتشاراً وهى مسرحية **المومس** . وقد سلك فيها النهج الذى سارت عليه معظم المسالى الإيطالية فى عهد النهضة ، فقد جرت على التقاليد البلوتينية ، التى تجعل الخدم يسخرون من أسيادهم ، ويحيكون لهم ما يريدون من الدسائس ، ويعملون لهم قوادين ، ويتولون عنهم التفكير . غير أن أريتينو أضاف إلى ذلك شيئاً خاصاً به : هو سخريته وفكاهته الفاجرة الفاحشة ، وعلاقته الوثيقة بالعاهرات ، وكراهيته لحاشية الملوك والأمراء ، — وخاصة حاشية البابا — ووصفه الصادق الطليق للحياة كما شاهدها فى المواخير وفى قصور رومة . وقد أزاح الستار عن حاجة رجل البلاط إلى النفاق ، والتذبذب ، والتذلل ، والملق ؛ وعرف النميمة فى سطر مشهور بأنها « قول الحق » ؛ وكان ذلك أقوى وأحكم دفاع عن حيانه وتبرير لها . وكتب أريتينو مسلاة أخرى هى **ألمنطا** جعل فيها الشخصية الهامة عاهراً أيضاً ، وجعل محور القصة ما تحتال به من الحيل على محبيها ، والطرق التى تبتز بها المال منهم بعد أن تهيجهم . وله مسرحية أخرى تدعى Ipocrita شبيهة كل الشبه بمسرخية **طرطوف** لمليير ، بل الحق أن مسالى مليير ليست إلا حلقات فرنسية من مسالى أريتينو أصلحت وطهرت من رائحتها الخبيثة .

وألف أريتينو فى نفس العام الذى أخرج فيه أناشيد المواخير طائفة كبيرة من المؤلفات الدينية منها **إنسانية المسيح** ، **ومزامير التوبة السبعة** ، **وحياة مريم العذراء** ، **وحياة كترين العذراء** ، **وحياة القديس توماس** ،

سيد أكويناً وغيرها . . ومعظم هذه المسرحيات قَصَص لا تاريخ ، وقد أقر بيترو بأنها « أكاذيب شعرية » ، ولكنها أكسبته ثناء الرجال الصالحين ، وحتى ثناء ڤتوريا كولنا الصالحة الفاضلة . وكانت بعض الجهات ترى أنه دعامة كبرى للكنيسة ، وراجت في وقت ما إشاعة بأنه سيغبن كردنالا .

وأكبر الظن أن رسائله هي التي أبقت على شهرته كما أبقت على ثروته وكانت الكثرة الغالبة منها مدائح بعث بها إلى الممدوحين أو إلى أشخاص متصلين بهم . وكان يقصد بها صراحة أن ينال رفدهم ، أو معاشاً منهم ، أو غير هذا وذاك من المساعدات ؛ وكان في بعض الأحيان يعين ما يريد أن يناله والوقت الذى يناله فيه . وكان أريتينو لا يكاد يكتب هذه الرسائل حتى يطبعها ، وكان هذا أمراً تستلزمه قوتها الإيحائية . وكانت إيطاليا تتخاطفها لأنها تتيح لها بطريق غير مباشر أن تكون وثيقة الصلة بالمشهورين من الرجال وبشهيرات النساء ، ولأنها كتبت بطريقة مبتكرة مليئة بالحياة ، والبهجة ، والقوة ، لا يسمو إليها أى كاتب آخر في ذلك الوقت . وكان أريتينو من ذوى الأسلوب الممتع وإن لم يسع هو إلى أن يكون له هذا الأسلوب . وكان يسخر من آل بمبو الذين كانوا يعملون لصقل كتاباتهم صقلا كاملا يفقدها الحياة كلها ، وقد قضى على عبادة الكتاب الإنسانيين للغة اللاتينية ، والدقة المتناهية في مراعاة قواعد اللغة ورشاقة اللفظ . وكان يتظاهر بأنه يجهل الأدب ، ولهذا كان يشعر بالتحرر من النماذج الموضوعة المعتمدة الملتبسة ، ولم يكن يتقيد في كتابته إلا بقاعدة واحدة تسيطر عليه دون غيرها وهى أن تكون كتابته تلقائية في لغة بسيطة خالية من اللف والدوران ، معبرة عن تجاربه في الحياة ونقده لها ، وعن حاجاتها البسيطة المألوفة من طعام وكساء . وفى وسعنا أن نجد بين أكداس السخافات التى تحتويها هذه الرسائل ماسات متلألئة : رسائل رقيقة لعاهر محبوبة فى مرضها ، وقصصاً مطربة من التاريخ المحلى ، ومغرب الشمس يصفه فى رسالة إلى

تيشيان لاتكاد تقل جمالا عن صورة من صنع تيشيان أو تيرنر Turner ؛ ورسالة لميكل أنجيلو يشير عليه فيها بوضع تصميم لصورة **العشاء الأخير** أليق بها من التصميم الذى وضعه الفنان .

وكان إدراك أريتينو للفن ، وتقديره إياه من بين الصفات الطيبة فى خلقه وكان أقرب أصدقائه الذكور إليه وأوثقهم صلة به تيشيان وسانسوفينو . وكثيراً ما اجتمعا فى ولائم تزدان فى العادة بصحبة النساء ، وكن من الساقطات ؛ فإذا ما دار الحديث فيها حول الفن لم يكن أريتينو تعوزه القدرة على مجاراة الفنان الكبير . وكان يتغنى فى رسائله بمديح تيشيان لعدد كبير ممن يتوسم فيهم مناصرة الفن ؛ وقد استطاع أن يحصل له على عدد من الأعمال ربما كان له هو نصيب فى إنجازها . وكان أريتينو هو الذى أقنع الدوج ، والإمبراطور ، والبابا ، بأن يجلسوا أمام تيشيان ليصورهم ، كذلك صور تيشيان أريتينو مرتين . وادعى سانسوفينو أنه ينحت صورة لأحد القديسين ، ووضع رأس الشهوانى العجوز فوق باب غرفة من غرف المقدسات فى كنيسة القديس مرقص ، وربما كان ميكل أنجيلو قد صوره هو على أنه القديس بارثولميو فى صورة **العشاء الأخير** .

وكان أحسن وأسوأ من الصورة التى رسمت له ؛ وقد اجتمعت فيه الرذائل كلها تقريباً ، وكان اللواط من التهم التى رمى بها . وكان نفاقه مما جعل صورة إيوكريتا (النفاق) تبدو صورة صادقة إذا قورنت بأخلاقه هو نفسه . وكان يستطيع إذا شاء أن يجعل لغته ستاراً لحمأة من الأقذار . وكان فى وسعه أن يكون وحشياً مجرداً من صفات الرجولة ، يشهد بذلك ما أظهره من الشماتة فى سقوط كلمنت ؛ ولكنه أوتى من الكرم ما جعله يكتب فيما بعد : « إنى لأستحى من أننى حين ذممته قد فعلت ذلك وهو فى أفدح الخطوب »[17] . وكان جباناً لا يستحى من جبنه ؛ ولكنه أوتى من الشجاعة ما يستطيع به أن يشنع على الأقوياء ، ويندد بالمساوئ التى يعتز بها بعضهم

أعظم اعتزاز . وكان السخاء أبرز فضائله . فقد كان يعطى أصدقاءه ويهب الفقراء جزءاً كبيراً مما يحصل عليه من المعاش ، والمكاسب ، والهدايا ، والرشا .

ونزل عن حقه فى أرباح رسائله حتى يستطاع بيعها رخيصة ، وحتى يذيع صيته ويعلو قدره . وكان يصل إلى حافة الإفلاس فى كل عام قرابة عيد الميلاد لكثرة ما يهبه من الأموال ، وفى ذلك يقول چيوڤنى دلى باندى نيرى لجوتشاردينى : « لست أقل سخاء من أحد من الناس إلا إذا قورنت بپيترو إن أوتى المال الذى يسخو به »(١٨) . وكان يساعد أصدقاءه على بيع رسومهم ، وعلى أن يطلق سراحهم من السجون (كما فعل مع سانسوڤينو) . وقد كتب مرة يقول : « ما من أحد إلا يأتى إلى كأنى خازن بيت مال الملوك ؛ فإذا اعتقلت بنت فقيرة ، وفى بيتى بما تطلبه من نفقات ، وإذا سجن إنسان ما تحملت أنا نفقة إخراجه ، والجنود الذين ينقصهم العتاد ، والغرباء الذين خانهم الحظ ، والفرسان الجائلون الذين لا يحصى لهم عد ، يأتون إلى بيتى ليجهزوا بما يحتاجون »(١٩) . وإذا كان قد آوى فى بيته فى وقت من الأوقات اثنتين وعشرين امرأة ، فإن هاته النسوة لم يكن كلهن حريمه ، فنهن من كن يربين أطفالا غير شرعيين ، وقد وجدن لهن ملجأ فى بيته ، ومما هو جدير بالملاحظة أن أسقفاً بعث بخادمين إلى إحدى هاته النسوة . وكانت كثيرات من النساء اللاتى يستخدمهن أو يعولهن يحببنه ويجللنه ، وقد تسمت ست من عشيقاته المحببات باسم أريتينى Aretine وكن يفتخرن بهذه التسمية .

وكان له ما يمكن أن تتضمنه الروح الحيوانية القوية من فضيلة ، فكان فى حياته الخاصة حيواناً طيب القلب لم يعرف قط للقانون الأخلاقى معنى . وكان يظن — وكان لظنه هذا بعض ما يبرره فى ذلك الوقت — أنه ما من رجل ذى مكانة يتقيد حقاً بالقانون الأخلاقى ، وقد قال مرة لڤاسارى إنه لم ير قط عذراء لا تنم معارفها عن مسحة شهوانية (٢٠) . وكانت شهوانيته

هو عارمة [فظيعة ، ولكنها لم تكن تبدو لأصدقائه أكثر من نشاط تلقائى للحياة ، وكان مئات من الناس يجدون فيه ما يدعو إلى حبه ؛ وكان الأمراء والقساوسة يسرون من حديثه ؛ ولم يؤت حظاً من التعليم ، ولكن يبدو أنه كان يعرف كل إنسان وكل شيء . وكان إنساناً فى حبه لجيوفنى دلى باندى نيرى ، ولكتّرينا والطفلين اللذين ولدتهما له ، ولپيرينا رتشيا Pierina Riccia الضعيفة ، المسلولة ، الرشيقة ، الخائنة .

وقصة رتشيا هذه أنها جاءت إلى بيته وهى زوجة لأمينه فى الرابعة عشرة من عمرها . وكانت هى وزوجها تعيشان معه ، وجعل نفسه أباً لها ، وسرعان ما شعر نحوها بحب أبوى عارم ملك عليه قلبه . فأصلح أخلاقه ولم يحتفظ فى داره من عشيقاته إلا بكترينا وابنهما أدريا Adria . ثم حدث فى الوقت الذى كان فيه يتطلع إلى أن يكون رجلا محترماً ، أن اتهمه نبيل من أهل البندقية ، كان قد خدع زوجته ، أمام المحكمة بالتجديف واللواط . فأنكر التهمتين ، ولكنه لم يجرؤ على أن يعرض نفسه للفضائح والمحاكمة ، لأن إدانته كان معناها الحكم عليه بالسجن مدة طويلة أو بالإعدام . ففر من بيته واختفى عدة أسابيع عند بعض أصدقائه . وأقنع هؤلاء المحكمة برفض الاتهام ، وعاد أريتينو إلى بيته منتصراً ، وحيته الجماهير المصطفة على جانبى القناة الكبرى . ولكن قلبه تحطم حين توسم فى عينى پيرينا أنها تظنه مذنباً . ثم هجر پيرينا زوجها . فلما جاءته تطلب إليه أن يواسيها اتخذها عشيقة له : وأصابها السل وظلت ثلاثة عشر شهراً بين الحياة والموت ، فعنى بتمريضها عناية الرجل الرحيم بها المشفق عليها ، القلق على حياتها ، حتى رد إليها الحياة . وبينا كان حبه وإخلاصه فى ذروتهما هجرته واتخذت لها عشيقاً أصغر منه سناً ، وحاول أن يقنع نفسه أن ذلك خير له ، ولكن روحه تحطمت من ذلك اليوم ، وأسرعت إليه الشيخوخة وغلبته على أمره .

وترهل جسمه ، ولكنه ما فتئ يزدهى بقواه الجنسية ؛ فكان يتردد على

المواخير ، وإن كان قد أخذ يزداد تديناً ؛ وهو الذى كان فى صباه يسخر من فكرة البعث ويصفها بأنها « هراء ، لا يحملها على محمل الجد غير الغوغاء »[٢١] . وسافر فى عام ١٥٥٤ إلى رومة يرجو أن يتوج رأسه بقلنسوة الكرادلة الحمراء ، ولكن يوليوس الثالث لم يزد على أن ضمه إلى فرسان القديس بطرس . وفى ذلك العام طرد من بيته (Casa Aretino) لعجزه عن الوفاء بديونه ، واتخذ له مسكناً أقل كلفة بعيداً عن القناة الكبرى ، ثم مات بالسكتة بعد عامين ، وهو فى الرابعة والستين من العمر . وكان قد اعترف بجزء قليل من خطيئاته ، وتلقى القربان المقدس والمسحة الأخيرة ، ودفن فى كنيسة سان لوكا كأنه لم يكن أكبر داعية للفجور ، وأكثر الناس اقترافاً له . وقد ألف أحد الظرفاء أبياتاً يصح أن تكتب على شاهد قبره فقال :

هنا يرقد الشاعر التسكانى أريتينو

الذى لم يترك أحداً لم يتحدث عنه بالسوء إلا الله ،

وقال معتذراً عن تركه إياه « إننى لم أعرفه قط » .

الفصل الثالث

تيشيان والملوك : ١٥٣٠ – ١٥٧٦

فى عام ١٥٣٠ وفى مدينة بولونيا عرّف أريتينو شارل الخامس بتيشيان ؛ وكان الإمبراطور وقتئذ منهمكاً فى إعادة تنظيم إيطاليا فجلس إلى تيشيان ليصوره وهو قلق نافد الصبر ، ودهش الفنان حين لم يعطه إلا دوقة واحدة (دولاراً ونصف دولار) . فما كان من فيديريجو دوق مانتوا إلا أن نفح الفنان من جيبه الخاص هبة سخية قدرها ١٥٠ دوقة تكملة لأجره . وما لبث الدوق أن أثر فى شارل فأقنعه برأيه هو فى تيشيان . ثم التقى الفنان والإمبراطور مرة أخرى فى عام ١٥٣٢ ، وفى خلال الأعوام الستة عشر التالية رسم تيشيان طائفة مدهشة من الصور للإمبراطور : رسم شارل فى عدته الحربية الكاملة (١٥٣٢ وقد ضاعت) ؛ ورسمه فى سترة موشاة بالقصب ، وصدارة مطرزة ، وسروال قصير أبيض ، وجورب وحذاء ، وقلنسوة سوداء ، تعلوها ريشة بيضاء غير ملائمة لها (١٥٣٣ ؟) ؛ ورسمه مع الإمبراطورة إزبلا (١٥٣٨) ؛ ورسمه فى حلة من الزرد براقة على جواد واثب ، فى واقعة موهلبرج Muhlberg (١٥٤٨) — بلغت الذروة فى جمال اللون والافتخار ؛ ورسمه فى ثياب سود ، جالساً جلسة المفكر فى إحدى الشرفات (١٥٤٨) . ومما يذكر بالفضل للمصور والمليك على السواء أن هذه الصور لا تحاول قط أن تجعل من موضوعها مثلا أعلى إلا من حيث الملبس ؛ فهى تكشف عن ملامح شارل غير الجذابة ، وعن إهابه غير الحسن ، وعن روحه المكتئبة ، وعن بعض المقدرة على القسوة ؛ ومع هذا فإنها تظهر الإمبراطور رجلا ثقيل الأعباء ، عظيم السلطان ، ذا عقل بارد جامد ، أخضع نصف أوربا لسلطانه . لكنه رغم ذلك يستطيع أن يكون رحيما ، وأن يكفر

بسخاء عن شحه الأول . من ذلك أنه بعث إلى تيشيان فى عام ١٥٣٣ ببراءة يعينه بها أميراً فى قصره ، وفارساً من طبقة المهماز الذهبى ، وأصبح تيشيان من ذلك الحين مصور البلاط الرسمى لأقوى مليك فى العالم المسيحى .

وكان تيشيان فى هذه الأثناء قد بدأ يراسل فرانشيسكو ماريا دلا روڤيرى دوق أربينو الذى تزوج اليونور جندسا ، أخت فدريجو وابنة إزبلا . وإذ كان فرانتشيسكو وقتئذ القائد الأعلى للجيوش البندقية ، فكثيراً ما كان هو والدوقة زوجته يأتيان إلى البندقية ؛ وفيها رسم تيشيان صورهما : رسم فرانتشيسكو رجلا تسعة أعشاره مغطاة بالزرد (لأن تيشيان كان يحب بريقه) ورسم الدوقة امرأة شاحبة اللون مستسلمة لقدرها بعد أن انتابتها الأمراض . ورسم لهما تيشيان على الخشب صورة **مجدلين** ليس فيها ما يجعلها جذابة إلا اختلاف الضوء واللون اللذين أضفاهما الفنان على شعرها الأسحم ؛ ثم رسم لهما صورة أخرى جميلة ، باللونين الأخضر والأسمر تعرف باسم « الجميلة » La Bella لا أكثر ، وتوجد الآن فى معرض پتى . ورسم تيشيان للدوق جويدوبلدو الثانى الذى خلف فيديريجو صورة من أعظم الصور العارية هى صورة **فينوس أربينو** (حوالى ١٥٣٨) . ويقال إن تيشيان كان له بعض اللمسات النهائية فى صورة **فينوس النائمة** لأربينو ؛ وها هو ذا يقلد هذه الآية الفنية فى كل شىء عدا ملامحها ومصاحباتها . وفيها ترى الوجه يعوزه الهدوء البرئ الذى نشاهده فى صورة چيورچونى ؛ ونشهد بدل المنظر الطبيعى الهادئ منظراً داخلياً من ستار أخضر ، وجوخ بنى ، وأريكة حمراء ، كما ترى فتاتين تبحثان عن رداءين يبلغان من العظمة درجة تليق بإهاب السيدة الذهبى .

وانتقل تيشيان من رسم الدوق والإمبراطور إلى رسم البابا . ولم يكن البابا پول الثالث يقل فى العظمة عن الإمبراطور : كان رجلا قوى الخلق ،

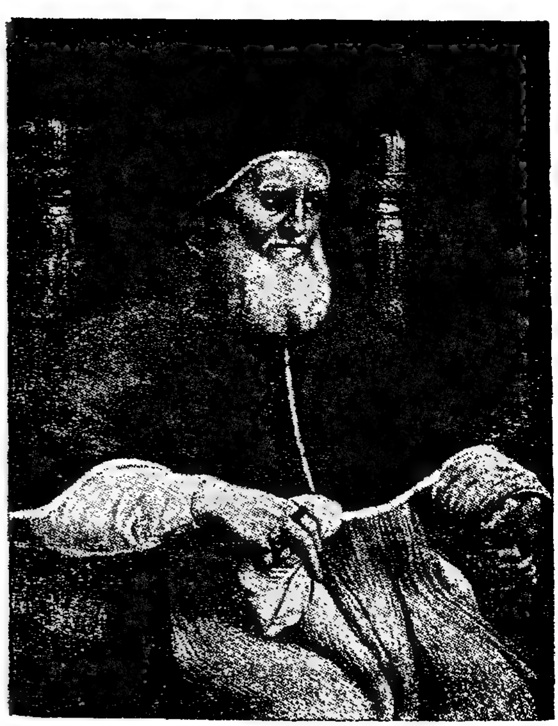
عظيم الدهاء ، ذا وجه طبع عليه جيلان من التاريخ . وقد وجد فيه تيشيان فرصة خيراً مما وجده فى ملامح الإمبراطور الخفية التى لا تفصح عن شيء من نفسيته . وواجه بولس فى بولونيا عام ١٥٣٥ فى شجاعة ما وجده فى صورة تيشيان له من واقعية . وكان البابا وقتئذ فى السابعة والستين من عمره ، متعباً ولكن الأحداث لم تنل من قواه . وقد جلس أمام المصور فى ثياب البابوية الفضفاضة ، وأحنى رأسه الطويل ، ولحيته العريضة ، فوق جسمه الذى كان من قبل قوياً ، وظهر خاتم السلطان واضحاً فى يده الأرستقراطية . وهذه الصورة وصورة يوليوس الثانى تتنازعان تلك الميزة الكبرى وهى : أيهما أجمل وأعمق صورة فى النهضة الإيطالية . وفى عام ١٥٤٥ دعا البابا تيشيان وكان وقتئذ فى الثامنة والستين من عمره إلى رومة . وهيئ للفنان مسكن فى بلفدير ، وقدمت له المدينة جميع مظاهر التكريم ؛ وعمل ڤاسارى مرشداً له فأطلعه على عجائب رومة فى عهدها القديم وفى عصر النهضة ؛ وحتى ميكل أنجيلو نفسه رحب به ، وأخفى عنه فى ساعة من ساعات المجاملة رأياً له عبر عنه لأصدقائه وهو أن تيشان كان يصبح مصوراً أعظم مما هو لو أنه تعلم الرسم[٢٢] . وهناك صور تيشيان البابا بولس مرة أخرى فأظهره أكبر سناً ، وأكثر انحناء ، وأشد قلقاً وضجراً مما كان قبل ، بين اثنين من أحفاده الخانعين لم يلبثا أن خرجا على البابا بعد قليل . وهذه الصورة أيضاً من أعمق الصور التى أخرجتها يد تيشيان . وقد رسم كذلك لأحد هذين الحفيدين وهو أتاڤيو فارنيزى Ottavio Farnese صورة داناٸى Danaë الشهوانية المحفوظة فى متحف نابلى . وأقام تيشيان ثمانية أشهر فى رومة سافر بعدها عائداً على مهل إلى البندقية عن طريق فلورنس (١٥٤٦) ؛ وهو يرجو أن يقضى فيها الأيام الباقية من حياته فى راحة وسلام .

ولكنه لم يكد يتم العام حتى أرسل إليه الإمبراطور دعوة عاجلة يطلب إليه فيها عبور جبال الألب إلى أوجزبرج Augsburg . وأقام فى هذه المدينة

تسعة أشهر رسم فيها للإمبراطور صورتين من الصور التى ذكرناها قبل ، وخلد فيهما عظماء الأسبان والتيوتون أبناء الجبال مثل المنتخب چوهان فريدريخ السكسونى Elector Johann Eriedrich والتقى تيشيان فى زيارة أخرى لأوجزبرج (١٥٥٠) بالأمير الذى أصبح فيما بعد فليب الثانى ملك أسبانيا ، ورسم له عدة صور ؛ منها واحدة فى البرادو Prado تعد من آيات التصوير فى عصر النهضة . وأجمل من هذه على جمالها الصورة التى مثل فيها الإمبراطورة وإزبلا زوجة شارل البرتغالية . وكانت هذه الزوجة قد توفيت فى عام ١٥٣٩ ، ولكن الإمبراطور أعطى تيشيان بعد أربع سنين من وفاتها صورة لها وهى نَصَف رسمها لها مصور مغمور ، وطلب إليه أن يحيلها تحفة فنية رائعة . وربما كانت الصورة النهائية غير شبيهة بالإمبراطورة ، ولكنها حتى إذا كانت **إزبلا البرتغالية** صورة خيالية فإنها يجب أن تكون فى أسمى مرتبة من مراتب صور تيشيان : فهى ذات وجه رقيق حزين ، وثياب ملكية فخمة ، وفى يدها كتاب صلوات يسرى عنها ما تتوقعه من موت قريب ، وفى الصورة منظر طبيعى بعيد يضيف إليها منظراً يجمع بين الخضرة ، والسمرة ، والزرقة .

وشعر تيشيان بعد عودته من أجزبرج (١٥٥٢) أنه قد نال كفايته من الأسفار . فقد كان وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره ، وما من شك فى أنه كان يظن أنه لم يبق له من الحياة الشىء الكثير . ولعل عمله كان من شأنه أن يطيل الحياة ، فقد أنساه انهماكه فى الصورة بعد الصورة أن يموت . وقد صور فى سلسلة طويلة من الصور الدينية (١٥٢٢ — ١٥٧٠) فكرته الواضحة الرائعة عن العقيدة المسيحية وقصة الخلق من آدم إلى المسيح(*) . وقد خلد فى صور قوية حياه الرسل والقديسين ، وأحسن هذه

(*) مثال ذلك : سقوط الإنسان (حوالى عام ١٥٧٠ موجودة فى برادو **Prado**) — وهى تأليه صريح للجسم البشرى ؛ والبشارة (حوالى ١٥٤٥ ، فى اسكولو دى سان ركو Scuolo di San Rocco ، بالبندقية) وأخرى مثلها فى سان سلفاتورى San Salvatore ، =



(الصورة رقم ٤) البابا بولس الثالث
من عمل تيشيان بمتحف نابلي



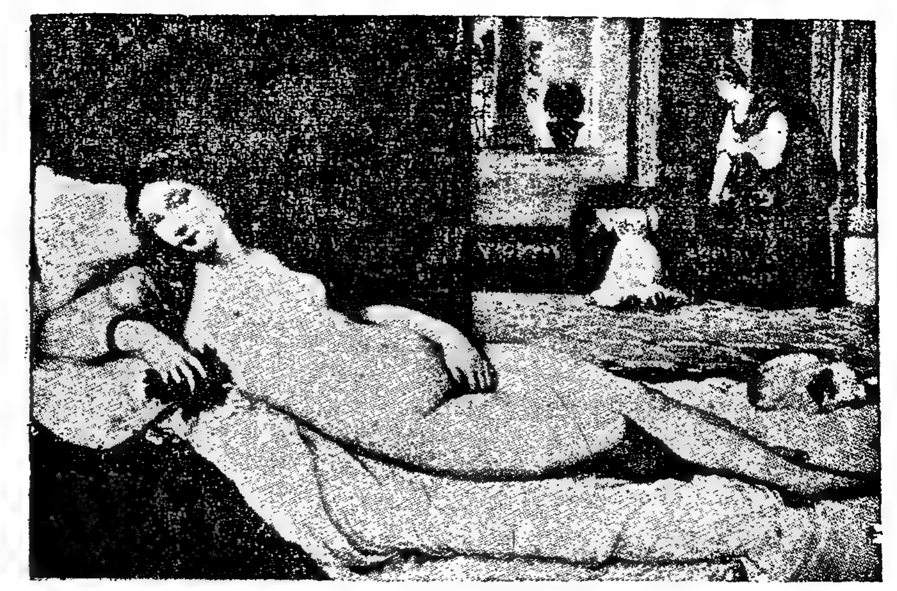
(الصورة رقم ٥) صورة شارل الخامس
من عمل تيشيان . مجموعة ألتى بينا كوثك بميونخ



= بالبندقية) ؛ والعذراء الغجرية (١٥١٠ فى ڤينا) ؛ الأم الحزينة mater Dolorosa (١٥٥٤ فى برادو) ؛ والترشيح لإحدى الوظائف الدينية — وهى منظر كامل كبير (طوله ٢٩ قدماً وعرضه إحدى عشرة قدماً ونصف قدم) يحتوى على مناظر جبال ، ومبان فخمة ، وأشخاص فى ألوان زاهية ، وصورة مريم العذراء تمثلها فتاة حية تصعد درجات سلم المعبد ، وفى أسفل السلم صورتان لامرأتين من أجمل ما صور تيشيان ، وإلى جوار الحائط امرأة عجوز أكثر واقعية من الحياة نفسها ، تبيع البيض . وهذه الصورة من أجمل صور تيشيان الدينية . وصور مريم مرة أخرى فى صورة « العذراء والأرنب » (حوالى ١٥٣٠ وهى الآن فى متحف اللوفر) . وصورة التجلى (حوالى ١٥٦٠ فى متحف سان سلفاتورى ، بالبندقية) وقد صورها وهو فى الثالثة والثمانين من عمره ، وهى فكرة قوية تمثل الحواريين فى شدة الدهشة ، وصورة متلألئة وضاءة للمسيح نفسه . ويرى كل شكل فى صورة « العشاء الأخير » (١٥٦٤ فى الإسكوريال) متقناً غاية الإتقان عدا صورة المسيح — التى عجز ليوناردو أيضاً عن إتقانها فى مثل هذه الصورة ؛ ويرى المسيح فى صورة « المسيح المتوج بالشوك » (١٥٤٢ فى متحف اللوفر) وكأنه مجالد فى حلبة لا قديس وتشبه صورته هنا الصورة التى رسمها له ميكل أنجيلو . وصوره اتشى هومو Ecce Homo المعروضة فى معرض التصوير بڤينا تجعل هى الأخرى المسيح إلها ضخماً قوى العضلات يعرضه بيلاطى النبطى (وهو صورة مضحكة لأريتينو نفسه) على جمع حاشد لا يتألف من غوغاء أورشليم بل من شخصيات ممتازة مثل شارل الخامس ، وسليمان القانونى ، ولاڤينيا Lavinis ابنة تيشيان ، وتيشيان نفسه . وفى أنكونا Ancona صورة للصلب (حوالى ١٥٦٠) يصغر فيها جسم المسيح المصلوب فيصبح ذا حجم يقبله العقل ؛ وفى الإسكوريال صورة أخرى (١٥٦٥) تصور الظلام فى الساعة الأخيرة تصويراً متقناً ، يلف التلال ، والجو ، والصليب ، والمشاهدين عند قدمه . وصور تيشيان دفن المسيح فى صورتين — إحداهما فى عام ١٥٢٩ (فى متحف اللوفر) والأخرى بعد ثلاثين عاماً (فى متحف پرادو) — وقد رسم نفسه فى الصورة الثانية ، ولعله فعل ذلك أيضاً فى الصورة الأولى فصور نفسه فيها بشكل چوزف « الذى من الرامة » . ورسم فى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق صورة « العشاق فى عموس » (متحف اللوفر) ، وهى صورة بديعة ولكنها مفرطة فى الرقة . وقد كان رمبرانت Rembrandt أكثر منه نجاحا فى إظهار مبلغ الروع الذى أحس به الحاضرون فى ساعة التعارف الذى لم يكن أحد يحلم به . ورسم تيشيان لشارل الخامس (١٥٥٤) صورة سميت تارة « الثالوث » وتارة أخرى « يوم الحساب » ، وتسمى فى متحف پرادو تسبيحة المجد : وهى خليط مهوش من الناموس ، والسيقان ، ثم يظهر فى سحابة الأقنوم الثانى من الثالوث ومعه الروح القدس يتخذ شكل النور الأول . وتبدو هذه الصورة سخيفة بعض السخف ، ولكن الإمبراطور حملها معه حين لجأ إلى أحد الأديرة فى عام ١٥٥٧ ، وأمر أن توضع فوق المذبح العالى بعد وفاته .

الصور وأكثر ما تعافه النفس منها صورة استشهاد القديس لورنس (١٥٥٨ وهي الصورة رقم ١ في متحف جزويتي Gesuiti ، بالبندقية) : وفيها يرى القديس يشويه على السفود جنود وعبيد رومان يزيدون آلامه بكيه بالحديد المحمي وجلده بالسياط . وهذه الصور الدينية لا تؤثر في النفس كما تؤثر فيها أمثالها من صور الفنانين الفلورنسيين . نعم إنها تسمو عليها من حيث التشريح ، ولكنها لا تشعر الإنسان بالتقى ، فنظرة واحدة إلى أجسام المسيح والحواريين الرياضية توحي بوضوح أن تيشيان لم يكن يهتم إلا بالفن ، وأنه كان يفكر في الأجسام الرائعة ، لا في أجسام القديسين النساك . ذلك أن المسيحية في الفترة الواقعة بين آل بليني وتيشيان ، فقد فقدت سيطرتها الروحية على فن البندقيـــة ، وإن كانت لا تزال توحي إلى الفنانين بالموضوعات[٢٣] .

وبقي العنصر الجنسي الذي هو من مستلزمات فن التصوير بالألوان أو بالمواد اللينة ، قوياً عند تيشيان مدة تكاد تصل إلى قرن من الزمان . وقد كرر صورة دانائي Danaë الفرنزية في عدة أشكال مختلفة ، ورسم عدة صور لڤينوس طلبها إليه حماة الدين . وكان فيلب الثاني ملك أسپانيا خير عميل له في ابتياع هذه « الأساطير » ؛ فقد زينت مساكن الملك في مدريد بصور لدانائي ، وڤينوس وأدونيس ، وبرسيوس وأندرمدا ، وچيسن وميديا Jassa & Medea ، وأكتائيون وديانا Actaeon & Diana ، واغتصاب أوربا The Rape of Europa ، وتاركون ولكريشيا Tarquin & Lucretia ، وچوپتر وأنتيوپي Jupiter & Antiope (وتعرف أيضاً بصورة ڤينوس الپاردوئية) Venus of Pardo . وكل هذه الصور عدا الأخيرة منها قد صورها تيشيان بعد عام ١٥٥٣ ، وهو في سن السادسة والسبعين أو بعدها . ومما يزيدنا تقديراً للفنان العظيم أن نرى خياله خلاقا مبدعا في سن الثمانين وما بعدها فيصور نساء عاريات لا تقل كمالا عن الصور التي رسمها في عنفوان شبابه ،



(الصورة رقم ٦) ڤينوس أربينو بقصر پتي بفلورنس

من عمل تيشيان . انظر ص ٢٤٨



فصور ديانا بشعرها الأصحم المرفوع إلى أعلى من الطراز الذى كان فيرونيز يصوره ، فهى ڤينوس الشقراء تكاد تكون أجمل من صور أفروديتى اليونانية . ولعل صورة **ڤينوس والمرآة** (حوالى ١٥٥٥ وتوجد الآن فى واشنجتن) وهى صورة لهذه السيدة نفسها بعد أن امتلأ جسمها ؛ وهى بعينها أيضاً ڤينوس التى تتعلق بأرنيس فى الصورة الموجودة فى پرادو ، والتى تحاول أن تتودد إليه وتبعده عن كلابه . ولسنا نجد مثل هذه الشهوانية الصريحة واضحة فى جسم أنثى حتى صور كرچيونى . وتوجد صور أخرى لڤينوس منتشرة فى معارض الصور فى أنحاء العالم ولكنها كانت فى يوم ما تحتل مكانها فى رأس تيشيان : منها صورة **ڤينوس أناديوميني** Venus Anadyomene (حوالى ١٥٢٠) الموجودة فى بردجووتر هوس Bridgewater House ، وتمثلها الصورة واقفة فى الحمام ومغطاة من تحت الركبتين فى حياء ؛ وصورة **ڤينوس وكيوبد** (حوالى ١٥٤٥) ، الموجودة فى معرض أفيزى — وهى ذات شقرة ألمانية ويدين ناصعتين ، وڤينوس المكتسية فى صورة **تعليم كيوبد** (حوالى ١٥٦٥) ، وفى معرض بورغيز ، **وڤينوس والعازف على الأرغن** (حوالى ١٥٤٥) المحفوظة فى پرادو والتى يظهر فيها العازف عاجزاً عن تركيز عقله على الموسيقى ؛ **وڤينوس والعازف على العود** (١٥٦٠) المحفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك . على أننا يجب أن نقول إن النساء فى هذه الصور لسن إلا جزءاً مما فيها من سحر وفتنة ، ذلك أن تيشيان يهتم بالطبيعة اهتمامه بالنساء ، ويصور فى عدد من هذه اللوحات مناظر طبيعية رائعة لا تقل جمالا فى بعض الأحيان عن الإلهة ڤينوس نفسها .

وأعظم من هذه الصور الأسطورية وأكثر عمقاً صور الآدميين ، فإذا كانت صور ڤينوس تكشف عن الإحساس بجمال الصورة ولا تفقد قط

روعتها ، فإن صور الآدميين تكشف فى تيشيان عن مقدرة على الإلمام بالأخلاق البشرية ونقلها بقوة فنية لاتضارعها فى معارضها جميعاً صور غيره من الفنانين مجتمعة . وهل ثمة ما هو أرق من صورة **الرجل ذى القفاز** (حوالى ١٥٢٠ والمحفوظة فى متحف اللوفر) وهى صورة لا يعرف شخصية من تمثله — وفيها ترى اليد اليسرى المقفزة ، والمخصل الأبيض الرقيق الملتف بالعنق يوائمان أحسن مواءمة الروح الحساسة التى تنم عليها العينان . وصورة **الكردنال إبوليتو ده ميديتشى** (١٥٣٣ فى متحف پتى) أقل من السابقة عمقاً ، ولكنا مع ذلك نرى فى الوجه ما يتسم به آل ميديتشى من دهاء ، وإحساس فنى ، وحب للسلطان . وصورة **فرانسس الأول** (حوالى ١٥٣٨ المحفوظة فى اللوفر) أذاعت شهرة ملامح ملك فرنسا ، فقد بعثت فى أنحاء العالم فى مائة ألف نسخة منقولة عنها القبعة المراشة ، ، والعينين المرحتين ، والأنف الأقنى ، واللحية الجميلة ، والقميص القرمزى يرتديه الرجل الذى خسر إيطاليا ولكنه كسب ليوناردو وتشليني ومائة امرأة . وقد تطاب منصب تيشيان الرسمى منه أن يرسم صوراً لعدد من أدواج البندقية ، ولكن هذه كلها تقريباً قد ضاعت . وبقيت ثلاث صور عظيمة لأشخاص حقيقيين : صورة **نقولو مارتشلو** Niccolo Marcello (الذى مات قبل أن يولد تيشيان) — وهى ذات وجه قبيح ورداء فخم — ؛ وصورة **أنطونيو جرمانى** (التى تظهر فى صورة **الإيمان** فى قصر الدوج) ، وصاحبها ذو وجه كوجه النساك وثوب فخم ؛ وصورة **أندريا جرتى** ، ويرتدى صاحبها ثوباً أقل من الثوبين السابقين فخامة ولكنه ذو وجه قوى يتركز فيه كل ما فى البندقية من جلال وصدق عزيمة . وتختلف عن هذه فى طرازها صورة **كلاريس استروتسى** الرقيقة التى أثنى عليها أريتينو ثناء جماً مستطاباً . وليست الصور التى تمثل أريتينو والمحفوظة فى معرض پتى بفلورنس وفى مجموعة فرك Frick فى

نيويورك إلا صراخاً مجرداً من الرحمة صادراً من وغد فاتن ساحر رسمه أعز أصدقائه . وأرق من هذه الصورة التي خلد بها تيشيان ذكرى بمبو محب الشعراء الذى صار وقتئذ كردنالا (١٥٤٢) . ومن أروع الصور التى يضمها معرض تيشيان صورة المشرع إيوليتو رِمنالدى (١٥٤٢) ، والتى كانت تعرف فى يوم من الأيام بأنها صورة دووق نورفوك وهى ذات شعر منفوش أغبش ، وجبهة عالية ، وشاربين ولحية قليلة الشعر ، وشفتين قويتين ، وأنف رقيق ، ونظرات نفاذة . وإنا لنبدأ فى أن نفهم إيطاليا والبندقية أحسن فهم حين نرى أنهما أنجبتا أمثال أولئك الرجال ، وهم رجال ليست أجسامهم وأثوابهم الجميلة إلا الصورة الظاهرة للإرادة القوية المتأهبة للقاء كل تحد ؛ وللعقل النافذ المتيقظ لكل صور التجارب والفن .

وأكثر ما يثير اهتمامنا من رسوم تيشيان الصور التى رسمها لنفسه . وهى كثيرة متنوعة آخرها صورة له فى التاسعة والثمانين من عمره . وإذا ما وقفنا أمام صوره الذاتية فى معرض برادو رأينا وجهاً قد غضنه مر الأيام التى لا تحصى ولكنه زاده صفاء ، ورأينا فوق جمجمته قلنسوة لا تغطى شعره الأبيض كله ، ولحية صهباء تكاد تغطى وجهه كله ، وأنفاً كبيراً ينفث القوة ، وعينين زرقاوين ، تغشاها كآبة قليلة ، تريان الموت أقرب إليه مما كان فى الواقع ، ويدا تمسك بفرشاة — لأن شغفه العظيم بالفن لم تكن ناره قد خبت بعد . لقد كان هذا الرجل — لا الأدواج ، ولا الشيوخ ، ولا التجار — هو سيد البندقية نصف قرن من الزمان ، يهب الخلود للأشراف والملوك العابرين القصار الآجال ، و يسمو بالبلد الذى اتخذه موطناً له ويضعه إلى جانب فلونس وروما فى تاريخ النهضة .

وكان فى الوقت الذى نتحدث عنه رجلا ثرياً ، وإن كانت ذكرى حاجته الأولى وعدم طمأنينته قد جعلته جماعاً للمال إلى آخر حياته . وقد أعفته مدينة البندقية من بعض الضرائب « تقديراً لموهبته الممتازة النادرة »[٣٤]

وكان يرتدى لباساً ظريفاً رشيقاً ، ويسكن بيتاً مريحاً ذا حديقة واسعة تطل على مياه البندقية الضحلة . وإنا لنتصوره ونحن نكتب هذه السطور يستضيف الشعراء والفنانين ، والأشراف أبناء الأسر العريقة ، والكرادلة ، والملوك . ولما ماتت فى عام ١٥٣٠ عشيقته التى تزوجها فى عام ١٥٢٥ بعد أن ولدت له ولدين قبل الزواج ؛ عاد إلى حريته التى كانت له وهو أعزب والتى استمتع بها ما يقرب من نصف قرن . وكانت ابنته لافينا مصدر بهجة وفخر له ؛ وقد رسم لها صوراً تدل على محبته لها حتى بعد أن كبرت وتزوجت . ولكنها هى أيضاً توفيت بعد سنين قلائل من زواجها . وأصبح أحد ولديه وهو پمپونيو Pomponio مهملا فاسداً ، أحزن قلب الرجل فى شيخوخته ورسم الثانى فى بعض الصور التى ضاعت ، وأكبر الظن أنه اشترك فى بعض الصور التى تعزى لأبيه فى سنيه الأخيرة . وربما ساعده فى ذلك الوقت أيضاً تلميذ آخر من تلاميذ تيشيان يدعى دومينيكو ثوتوكوپولوس Domenico Theotocopulos ، المسمى إلجريكو ElGreco (الإغريقى) ولكننا لانجد دليلا على هذه المساعدة فى صور أشخاص تيشيان المرحين ولا فى مناظره البهيجة .

وظل حتى بعد أن تقدمت به السن كثيراً لا يكاد ينقطع عن الرسم يوماً واحداً من أيامه ، وكان يجد فى الفن سعادته الباقية الوحيدة . ففيه كان يعرف أنه السيد الذى لا يبارى ، وأن العالم كله يثنى عليه ، وأن يداه لم تفقد قدرتها على الإبداع ، كما أن عينه لم تفقد حدتها ونفاذها ؛ وحتى عقله وخياله ظلا ، فيما يبدو ، يحتفظان بقوتهما إلى آخر أيامه . وقد شكا بعض من ابتاعوا صوره الأخيرة بأن هذه الصور أرسلت إليهم قبل أن تتم . وحتى إذا كان هذا صحيحاً فإنها كانت معجزات بحق . وأكبر الظن أنه ما من فنان غيره — إذا استثنينا رفائيل — كان له ما لتيشيان من يسر فى أصول فنه ، وسيطرة على اللون والتركيب ، والضوء الساحر المبرقش . أما أخطاؤه



(الصورة رقم ٧) صورة رجل إنجليزي — من عمل تيشيان
في قصر پلتي بفلورنسي . انظر ص ٢٥٤

(الصورة رقم ٨) صورة تيشيان — من عمله
في متحف پرادو بمدريد . انظر ص ٢٥٤



فهى الأخطاء الناتجة من السرعة فى التنفيذ ، ومن الإهمال فى الرسم أحياناً وقد كانت الكثرة الغالبة من رسومه التخطيطية الأولى تجريبية ؛ ولكنه كان إذا عنى بالتأنى والتؤدة ، يستطيع أن يخرج عجائب مثل صور بيدورو وأنجيلا التى رسمها بالقلم والمحفوظة فى متحف بنات Bonnat فى بايون Bayonne. أما فى الصور الملونة فقد كان لا بد له أن يعمل مسرعاً . ذلك بأن من يجلسون أمامه ليصورهم كانوا منهمكين فى العمل لا يصبرون على الجلسات الطويلة أو الكثيرة التى لا بد منها لإتقان الصور ؛ ومن أجل هذا كان يرسم رسماً تخطيطياً سريعاً ، ثم يرسم منه الصورة الملونة ، ولعله كان يضع فى رأس نموذجه ووجهه أكثر مما فيه حقيقة . أما فى الصور التى كان يرسمها لغير الأحياء فكان يبرز الملامح أكثر مما ينبغى ، وقلما كان يتعمق إلى الجوهر الروحى ؛ ولهذا فإنه لم يصل فى عمق النظرة النافذة ولا فى الشعور إلى مثل ما وصل إليه ليوناردو أو ميكل أنچيلو ، ولكن ما أصح وأسلم فنه إذا قورن بفنهما ! فلسنا نرى فيه انهماكاً فى التفكير الداخلى يفسده ، كما لا نرى فيه ثورة عارمة على طبيعة العالم والإنسان . لقد قبل تيشيان العالم بالصورة التى رآه عليها ، وأخذ الرجال كما وجدهم ، والنساء كما وجدهن ، واستمتع بكل أولئك . وكان وثنياً صريحاً ، يتأمل بابتهاج بناء جسم المرأة طوال سنيه التسعين ؛ وحتى عذاراه صحيحات الأجسام سعيدات صالحات للزواج ؛ وقلما كان لمـــا فى الحياة من فقر ، وحزن ، واضطراب مكان فى فن تيشيان ، بل كل ما فيه جمال وبهجة إذا استثنينا قليلا من صور الشهداء والمسيح المصلوب .

وتقدمت به السن وهو يواصل عمله فى الرسم ، وعاش ربع قرن بعد أجل الناس المعتاد ؛ وسافر إلى بريشيا وهو فى الثامنة والثمانين من عمره ، وقبل فيها مهمة شاقة هى نقش سقف قصر البلدية . ولما زاره ڤاسارى وهو فى سن التسعين وجده يعمل وفرشاته فى يده . ورسم وهو فى الواحدة والتسعين

من عمره صورة لياقوبو دا استرادا Iacopo da Strada (توجد الآن فى ڤينا) متلألئة الألوان قوية تكشف عن خلق الرجل . ولكن يده أخذت فى آخر الأمر ترتعش ، وضعفت عيناه ، وأحس أن قد آن أوان التقى والصلاح . ورضى فى عام ١٥٧٦ وهو فى التاسعة والتسعين من العمر أن يرسم صورة دفن المسيح لتوضع فى كنيسة فرارى Frari بدلا من مدفن فيها ، كانت له فيه صورتان من أعظم صوره . غير أنه لم يتم الصورة وتوفى وقد نقصت سنه سنة واحدة عن قرن كامل . وانتشر فى ذلك العام وباء الطاعون فى البندقية ، وكان يودى كل يوم بحياة مائتين من أهلها ، وهلك به ربع سكان المدينة ؛ ومات تيشيان نفسه فى أثناء الوباء ، وأكبر الظن أنه لم يمت به ، بل مات بضعف الشيخوخة (٢٦ أغسطس سنة ١٥٧٦) . وألغت الحكومة أوامرها التى تحرم الاجتماعات العامة لكى تكون له جنازة رسمية ، ودفن فى كنيسة سانتا ماريا جلوريوزا ده فرارى Santa Maria Gloriosa de' Frari تنفيذاً لرغبته . وكان موته خاتمة حياة عظيمة وعصر عجيب .

الفصل الرابع

تنتورتو : ١٥١٨ — ١٥٩٤

لا ، لم يكن موته خاتمة كل شيء ، لأن قوة وروحاً تكادان تقلان عظمة عن قوته وروحه قد عاشتا بعد موته ثمانية عشر عاماً ، ورسمتا صورة الجنة .

كان ياقوپو روبستی Jacopo Robusti ابن صباغ ، وهذا هو أصل هذا اللفظ المصغر الذى سماه به من قبيل السخرية الإيطاليون الهوائيون والذى انحدر إلينا من خلال أحقاب التاريخ . والحق أنه أصبح صانعا إذا فهمنا من هذا اللفظ أنه كان ملونا عظيما . غير أن اسم أسرته كان أليق به من غيره من الأسماء لأن روحه القوية(*) وحدها هى التى أمكنت ياقوبو من أن يخرج ظافراً من الكفاح الطويل الذى خاض غماره حتى اعترف الناس بفضله .

ويكاد يكون أول ما عرفناه عنه إنه أرسل ليتدرب عند تيشيان فى سن غير معروفة ، ثم فصل من العمل بعد أيام قليلة . وقد كتب ريدلفى Ridolfi بعد مائة عام من ذلك الوقت يصف الحادث كما ينظر إليه ابنا تنتورتو قال :

لما عاد تيشيان إلى بيته ودخل المكان الذى يعمل فيه تلاميذه رأى أوراقاً بارزة من أحد الأدراج ، وعليها بعض رسوم ، فسأل عمن رسمها ، فأجاب ياقوبو فى خوف إنها من صنع يده . وأدرك تيشيان من هذه

(*) robust الكاتب يشير إلى روبستى اسم أسرته . (المترجم)

البدءات أن هذا التلميذ سيصبح رجلا عظيما ، وأنه سيسبب له بعض المتاعب من ناحية الفن ، فلم يكد يصعد الدرج إلى حجرته ويخلع ميدعته حتى أمر كبير تلاميذه چيرولامو دانتى ، وهو نافد الصبر ، أن يمنع ياقوپو من دخول البيت من تلك اللحظة . وهكذا تحدث الغيرة ، مهما تكن ضئيلة ، أثرها فى القلوب البشرية(٢٥) .

ونحن نميل إلى تكذيب هذه القصة ، ولكن أريتينو صديق تيشيان الحميم ، يشير إلى هذه الحادثة فى رسالة له كتبها عام ١٥٤٩ . فأما فصل ياقوپو من عمله فحقيقة مؤكدة ، أما أسباب هذا الفصل فموضع للأخذ والرد ؛ ذلك أن من أصعب الأمور أن نعتقد أن تيشيان ، الذى كان وقتئذ مصوراً للملوك حين لم يكن ياقوپو إلا صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، يغار من هذا المنافس المفترض ، أو أنه يستطيع أن يرى مستقبل تنتورتو من اطلاعه على رسوم طالب قبل توا فى مدرسته . ولعل الرسوم قد أغضبت تيشيان لما بدا فيها من إهمال لا بما كانت عليه من الجودة والإتقان ، ولقد بقى الإهمال فى الرسم من عيوب تنتورتو كثيراً من السنين . وظل ياقوپو نفسه طوال حياته يعجب بتيشيان أشد الإعجاب ، ويعتز بصورة أهداها إليه تيشيان ، ويضع على جدار مرسمه ما يذكره على الدوام بما كان يطمح إلى أن يبلغه برسومه مبلغ « ميكل أنچيلو فى التصميم وتيشيان فى التلوين »(٢٦) .

ويقول تيشان ، وتقول الرواية المتواترة ، إن ياقوپو لم يتلق تعليما منظما بعد أن افترق عن تيشيان ، ولكنه علم نفسه بمداومته على التجربة والتقليد . وكان يشرح الأجسام ليتعلم التشريح ، ولا يكاد يفتر عن ملاحظة كل ما يعترض سبيله فى تجاربه بحرص يبلغ حد الشراهة والنهم ، ويصمم على ألا تفوته منه كبيرة أو صغيرة فى هذا الرسم من رسومه أو ذاك . وكان يصنع نماذج من الشمع ، أو الخشب ، أو الورق المقوى ، ويلبسها

الأثواب ، ويرسمها من كل زاوية كي يجد طريقة يستطيع بها أن يصور أبعاداً ثلاثة فى بعدين اثنين . وكانت تصنع له صور منقولة عن اللوحات الرخامية القديمة فى فلورنس وروما وعن تماثيل ميكل أنچيلو وترسل له حيث يقيم ؛ وكان يضع هذه النسخ فى مرسمه ، وينقل عنها صوراً ملونة ذات ظلال وأضواء مختلفة . وقد افتتن بما شاهد من الاختلاف الناشئ فى مظهر الأشياء نتيجة لتغير كمية الضوء ، وطبيعته ، وطريقة سقوطه ؛ ورسم مائة صورة وصورة فى ضوء المصابيح أو الشموع ؛ وأسرف فى حبه للخلفيات القاتمة ، والظلال الثقيلة ، وأصبح إخصائياً خبيراً فى تمثيل أثر الضوء والظل على اليدين ، والوجه ، والثياب ، والمبانى ، والمناظر الطبيعية ، والسحب ، ولم يترك وسيلة يستعين بها فى كفاحه للتفوق والامتياز إلا سلكها .

غير أنه مع ذلك كان متسرعاً فى عمله نافد الصبر ، ينقصه الصقل — ولعل هذا كان جزاء له على أنه علم نفسه بنفسه — وتلك عيوب أخرت اعتراف الجمهور بفنه . وقد ظل كثيراً من السنين ، بعد أن بلغ دور الرجولة ، يتحين الفرص ويسعى إليها . وكان يرسم الأثاث ، وينشئ المظلات فى واجهات البيوت ، ويرجو البنائين أن يحصلوا له على أعمال بأجور قليلة ، ويحاول أن يبيع صوره بعرضها فى ميدان القديس مرقص[٢٧] . لكن الناس كلهم كانوا يريدون تيشيان ؛ وكان تيشيان وأريتينو يعملان على ألا يعامل أى إنسان ذى مال يمكن الحصول عليه منه غير تيشيان ، فإذا كان هذا الفنان مشغولا فلن يلجأ واحد منهم إلى غير بنيفادسيو ڤيرونيرى Bonifazio Veronese . وما من شك فى أن ياقوپو قد ساءته طريقة أريتينو فى التصوير ؛ ولكن حدث أنه حين جاء الجلاد الكبير إلى ياقوپو ليصوره ، أخرج الفنان مسدساً رهيباً من جيبه ، وتظاهر بأنه يصوبه على كل جزء من جسم أريتينو الضخم ، وسر أيما سرور مما شاهده من مظاهر الخوف على

وجه ذلك المبتز لأموال الناس(٢٨) . ولم يسع أريتينو بعد هذه الحادثة إلا أن يراعى الأدب فيما يكتبه عن تنتورتو . ولما أن رأى ياقوبو الجدران الواسعة الطويلة التى يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً فى مرنمة كنيسة مادنا دل أورتو Madonna dell Orio ، عرض أن يغطيها كلها بالرسوم الجصية لنظير أجر إجمالى قدره مائة دوقة (١٢٥٠ ؟ دولاراً) ، فما كان من المصورين البنادقة إلا أن شكوا من أنه « قد أضر بالحرفة » إذ قدر الفن هذا التقدير الضئيل ؛ ولكن تنتورتو صمم على أن يقوم بالعمل .

وقد بلغ الثلاثين من العمر قبل أن يحرز أول نصر له . ذلك أن مدرسة القـــديس مرقص Scula di San Marco أجرت مباراة لرسم قديسها ينقذ عبداً من العذاب والقتل . وقد وردت هـــذه القصة فى كتاب **القصة الذهبية** لياقوبو ده ڤوراجينى Liacopo de Voragine : وخلاصتها أن خادماً من پروڤنسال قد نذر أن يحج إلى قبر القديس مرقص فى الإسكندرية ، ولكن سيده لم يأذن له بالسفر ، غير أنه سافر على الرغم من هـــذا التحريم ؛ فلما عاد أمر سيده يشمل عينيه ، ولكن أطراف الحديد انثنت فلم تنفذ فيها ؛ فما كان من سيده إلا أن أمر بتحطيم أطرافه ، ولكن القضبان الحديدية لم تحدث أى أثر فيها . وأدرك السيد ما للقديس مرقص من أثر فى هذا فعفا عن العبد . وروت صورة تنتورتو هذه القصة فى ألوان فخمة ، وواقعية مقنعة ، وقوة مسرحية عظيمة : صورت الرسول المبشر ممسكاً بالإنجيل ، هابطاً من السماء لينقذ الرجل المتعبد ، الذى يوشك أن يخر صريعاً بضربة يوجهها إليه مغربى ، ومن حوله نحو عشرين من مختلف الأشخاص ينظرون إليه وقد بلغ اهتياجهم غايته . وانتهز ياقوبو كل ما أتاحته له القصة من فرص : فصور رجالا أقوياء ونساء ظريفات رشيقات ، وحرص على دراسة أثر الضوء على المخملات والحرير والعمامات الشرقية ، وعمل على غمر المنظر بالألوان التى تعلمها من چيورچيونى

وتيشيان . وساور مديرو المدرسة بعض الخوف حين شاهدوا ما فى التصوير من واقعية مجسمة ، وأخذوا يتناقشون فى هل يليق بهم أن يعلقوا الصورة على جدرانهم ، فما كان من تنتورتو إلا أن اختطف الصورة من أيديهم فى عنف وكبرياء ، وأخذوها إلى منزله . فجاءوه وتوسلوا إليه أن يعيدها لهم ، فتركهم قليلا من الوقت تأديباً لهم ، ثم أعادها إليهم ، وبعث إليه أريتينو كلمة ثناء ، ومن ذلك الوقت تفتحت الأبواب أمام مواهبه .

وانهالت عليه الطلبات مجتمعة ، فطلبت إليه نحو ست كنائس ودعاه نحو اثنى عشر من الأعيان ، وستة من الأمراء ، ومثل هذا العدد من الدول للقيام بأعمال فنية . وقص هؤلاء مرة أخرى فى مائة من الصور الملحمة المسيحية الكبرى ملحمة خلق العالم ، والدين ، وفلسفة الموت والبعث والدار الآخرة ، من بدء الخليقة إلى يوم الحساب . . ولم يكن تنتورتو مسيحياً متديناً ، — وقلما كان من الفنانين فى هذا القرن السادس عشر فى البندقية من هو متدين — فقد أثرت فى نفوسهم وعقيدتهم المبادئ المنتشرة فى بلاد الشرق والإسلام . وكان دينه هو الفن ، يقرب له القرابين بالليل والنهار ، ولكن أى موضوعات يستطيع المصور أن يتخيلها أرق وأظرف من قصص آدم وحواء ، وقصة مريم وطفلها ، مأساة الصلب ، وتعذيب القديسين وأعمالهم العجيبة ، ثم تلك الغاية التاريخية الرهيبة وهى جمع الأحياء والأموات فى صعيد واحد أمام قضاء المسيح ؟(*) وخير ما فى هذه المجموعة كلها هى صورة

(*) وها هى ذى طائفة مختارة من صور تنتورتو الدينية ليس فيها صور اسكولا دى سان ركو (وجميع الكنائس المذكورة هنا فى مدينة البندقية) :

ا — مناظر من العهد القديم : خلق الحيوانات (البندقية) ؛ آدم وحواء (البندقية) — وتمثل منظراً طبيعياً يسقط عليه الضوء بطريقة فذة ؛ قابيل وهابيل (البندقية) ؛ تضحية إبراهيم (أفيدسى) ؛ يوسف وزوجة فوطيفار (برادو) ؛ العثور على موسى (الاسكوريال) ؛ العجل الذهبى (مادنا دل أورتو) ؛ جمع المن (سان چيورچيو مجيورى) — وهى مزيج بديع من المناظر الطبيعية ، والرجال ، والنساء ، والحيوان . =

التصليب (حوالى عام ١٥٥٦) ، التى رسمها تنتورتو لكنيسة مادنا دل أورتو : وفيها يرى هيكل بيت المقدس وقد صور فى بهائه القديم ؛ ومريم الضئيلة الجسم الواجفة يرحب بها القس الأكبر وهو مبسوط الذراعين ملح ؛

ب — صور العذراء : مولد العذراء (مانتوا) وهى لا تكاد تقل رشاقة عن صورة كريجيو ؛ البشارة (برلين) ؛ الزيارة (بولونيا) ؛ العذراء والطفل (كليفلند) ؛ العذراء والقديسون (فيرارا) — وهى صورة رائعة غير أن القديسين يبدون كأنهم مصارعون تجاوزوا سن الثمانين وقد صوروا على طريقة ميكل أنجيلو ؛ صعود العذراء (ا — جزويتى) ، وتبدو ضعيفة شاحبة اللون إذا قورنت بالصورة التى رسمها تيشيان الموجودة فى فيرارا والتى تعد آية من آيات الفن .

ج — من حياة المسيح : الختان (سانتا ماريا دل كارمينى ؛ التعميد (سان سلفيسترو ، وتوجد نسخة منها فى برادو) ؛ يسوع فى بيت مرثا (ميونخ) — وهى ذات جمال منقطع النظير ؛ الزواج فى قانا الجليل (مادنا دل سالوتى) ؛ المسيح فى بحر الجليل (واشنجتن) — وهى تكاد تكون دراسة انطباعية فى اللونين الأزرق والأخضر ؛ المرأة يقبض عليها وهى تزنى (رومة ، المعرض الأهلى Galleri Nazionale) — وتصور زانية جميلة فى صورة مسرفة فى مسرحيتها ؛ المسيح يغسل أقدام الرسل (الإسكوريال) ؛ بعث لعازر (ليبزج) ؛ معجزة الخبز والسمك (نيويورك) ؛ المسيح والمرأة السامرية (أفيدسى) ؛ العشاء الأخير (سان تروفازو ، والأخرى فى سان استيفانو ، وثالثة فى سان چيورچيو مجيورى ، ورسم بديع فى معرض أفيدسى) ؛ الصلب (سان كاسيانو) ، الخلع (البندقية ، وپارما ، وميلان ، ومعرض بتى) ؛ دفن المسيح (سان چيورچيو مجيورى) ؛ الهبوط إلى الأعراف (سان كاسيانو) ؛ البعث (مجموعة فارر) ؛ يوم الحساب (مادنا دل أورتو) — وهى محاولة مخفقة لزيادة ما أحدثه ميكل انجيلو من اضطراب وسخافات فى مظلمات معبد سستينى .

د — القديسون : القديس أوغسطين يشفى ضحايا الطاعون (نيويورك) ؛ معجزة القديس أجنيس (مادنا دل أورتو) ؛ القديس چورج والتنين (لندن) وهى دراسة فى الضوء والظل كأنها حرب فى ظلام الليل ؛ زواج القديسة كترين (قصر الدوق) ؛ استشهاد القديسة كترين (البندقية) — وفى كلتا الصورتين نرى امرأة جميلة لا يريد قتلها إلا ذو جنة ؛ نقل جسم القديس مرقص (البندقية) ، والعثور على جسم القديس مرقص (ميلان) ، والثانية آية من آيات فن المنظور تمثل نيفاً مظلماً فى كنيسة ، ورجلا من الأشراف راكعاً فى وجل وخشوع قدسى ، وصبيا وسيما فاتنا يمسك بركبتيه صبى يتظاهر بالهدف ، وصورة رائعة للقديس مرقص يقف منتصبا فوق جثته .



(الصورة رقم ٩) التنصيب فى كنيسة سانتا ماريا دل أورتو بالبندقية
من عمل تنتوريتو . انظر ص ٢٦٢



وامراة فخمة الصورة لا تقل فى ذلك عن فخامة صور فيدياس تعرف ابنتها بمريم ؛ وإلى جانبها صور نساء غيرها ومعهن أطفالهن واضحية واقعية ، ومتنبئ يلقى نبوءات غامضة ، ومتسولون ومقعدون نصف عرايا راقدون على درج المعبد . تلك صورة تضارع أحسن ما صوره تيشيان وهى من أعظم ما صور فى عهد النهضة .

وتأكد نجاح تنتورتو حين رشحته الاسكولا دى سانت ركو Scuola di San Rocco أو إخوة القديس رك لزخرفة قاعات اجتماعها (الألبرجو Albergo) : وتفصيل ذلك أن المشرفين على هذه الطائفة أرادوا أن يختاروا مصوراً لنقش سطح الجدران الواسع ، فدعوا الفنانين لتقديم رسوم لصورة تلتئم مع سقف بيضى الشكل تظهر القديس روك فى مجده ، فتقدم پاولو فيرونيز ، وأندريا شيافونى Andrea Shiavone وغيرهما برسوم تخطيطية ، أما تنتورتو فرسم صورة نهائية زاهية الألوان حية بالحركات والأعمال ، وعمل سراً على أن يلصق قماش الصورة فى مكانها المعين وأن يغطى . ولما أقبل اليوم الذى تقدم فيه الفنانون الآخرون برسومهم ، أمر بكشف هذه الصورة النهائية ، وروع القضاة والمتنافسون . وقد برر هو هذا التدبير غير السليم بقوله إنه يستطيع العمل بهذه الطريقة السريعة الحاسمة بدلا من طريقـــة الرسوم الأولية . ولكن الفنانين الآخرين نددوا بها ، وانسحب تنتورتو من المباراة ، ولكنه ترك الرسوم هدية إلى الجماعة ؛ فقبلته آخر الأمر ، وعينت تنتورتو عضواً بها ، وخصصت له مرتباً قدره مائة دوقة فى العام مدى الحياة ، وطلبت إليه فى نظير ذلك أن يرسم لها ثلاث صور كل سنة .

وبذلك استطاع أن يضع على حجرات قاعات الاجتماع ستة وخمسين منظرا فى السنين الثمان عشرة التالية (١٥٦٤ — ١٥٨١) . وكانت الحجرات التى يعمل فيها قليلة الضوء ، واضطر تنتورتو أن يشتغل فيما يشبه الظلام ، وكان

يعمل بسرعة ، ويضع الألوان فى غير إتقان كأنها تشاهد من تحتها بعشرين قدماً ، وكانت هذه الصور أشهر ما صوره رجل بمفرده فى تاريخ البندقية كله ، وجاء الفنانون فيما بعد ليدرسوها كما ذهب الطلاب إلى فلورنس ليدرسوا رسوم ماساتشيو . وأثر المطر والرطوبة فى الصور على مر السنين . ولكنها لا تزال تبعث فى النفس الروعة بحجمها وقوتها ؛ وقد كتب عنها رسكن قبل وقتنا هذا بمائة عام يقول : « وقد أنزلت هذه الصور منذ عشرين أو ثلاثين عاماً لإصلاحها وإعادتها إلى ما كانت عليه ، ولكن الرجل الذى عهد هذا العمل إليه مات لحسن الحظ ولم تتلف إلا واحدة منها »(٢٩) .

وقد روى تنتورتو فى هذا المتحف المدهش القصة المسيحية مرة أخرى ؛ ولكنها لم تكن قد رسمت من قبل بهذه الواقعية الجريئة التى انتزعت الحوادث من عالم العواطف المثالية ووضعتها فى هذه البيئة الطبيعية ، ولهذا بدا أن هذه القصة قد استحالت تاريخاً من أعظم التواريخ صدقاً وأبعدها عن الشك . وكان الشرر الذى أوقد النار فى قلب تنتورتو هو قدرته على النظر ، وأن يلاحظ كل دقائق المنظر ، وأن يحس بأن هذه الدقائق تهب الحياة ، وأن يبادر بوضعها على الجدار بضربة أو ضربتين من الفرشاة — كالماء الذى يراه الناظر من خلال جذور الغار فى صورة مجدلين . وخصص تنتورتو الطابق الأسفل من الحجرات لصور مريم العذراء : فصور فيها دهشتها الذليلة من **البشارة** ، ورشاقاتها المتواضعة عند **الزيارة** ، ورهبتها الساذجة عندما قدمت لها الهداية الشرقية فى **عبادة المجوس** ، وسيرها البطىء على ظهر حمار مجتازة منظراً هادئاً فى صور **الهروب إلى مصر** فراراً من « مذبحة البريئين » ، وهى أقوى صورة فى هذه المجموعة . وروى تنتورتو على جدران الحجرة العليا الكبرى حوادث فى تاريخ المسيح نفسه : تعميده بيد يوحنا ، ومحاولة الشيطان إغواءه ، والمعجزات والعشاء الأخير . وكانت هذه الصورة الأخيرة واقعية بعيدة كل البعد عن العرف المألوف إلى حد جعل رسكن يصفها بأنها « أسوأ

ما عرف عن تنتورتو »(٣٠) . وقد رسم المسيح فى الطرف البعيد ، والقديسين منهمكين فى الأكل أو الحديث ، والخدم رائحين بالطعام وغادين ، وكلباً يسأل متى يتناول هو أيضاً الطعام . ورسم تنتورتو فى حجرة داخلية فى الطابق الأعلى صورتين من أعظم صوره . إحداهما صورة **المسيح أمام بيلاطس** ويظهر فيها شخص لايمكن أن ينساه الإنسان قط يرتدى ثوباً أبيض كأنه كفن ، ويقف متعباً ، مستسلماً ، ولكنه يقف مهيباً كريماً أمام بيلاطس الذى يحاول التكفير عن خطيئة الخضوع إلى تعطش الغوغاء للدماء . وآخر ما نذكره من هذه الصور صورة يرى تنتورتو أنها خير صوره على الإطلاق — صورة **الصلب** ، التى تتحدى صورة **يوم الحساب** لميكل أنجيلو وتسمو عليها فى قوتها واتساع مدى تكوينها ، وتنفيذها الفنى ، فها هى ذى أربعون قدماً من الجدار تغطيها ثمانون صورة لأشخاص ، وخيول ، وجبال ، وأبراج ، وأشجار ، روعيت فيها الأمانة فى رسم التفاصيل ، مراعاة لايكاد يتصورها العقل ، ويرى فيها المسيح يمضه الألم الجثمانى والنفسانى ، ولص من اللصوص يلقى فوق صليب مطروح على الأرض ، وهو يقاوم إلى آخر لحظة ؛ ولص آخر جبار فى قوته وتهوره ، ثم يرفعه للقتل جنود غلاظ شداد يحول غضبهم من ثقله دون أن تأخذهم به رأفة ، وترى النساء وقد انكمشن جماعات من شدة الرعب ، والنظارة يتزاحمون فى حرصهم على أن يروا الرجال يعذبون ويموتون . ويرى من بعيد جو مكفهر لايستجيب إلى المأساة البشرية ، ولكن فيه رعداً وبرقاً ومطراً لاتبعاً بها . وفى هذه الصورة بلغ تنتورتو الذروة وضارع أحسن المصورين .

وأضاف تنتورتو إلى كل هذه الآيات الفنية التى رسمها فى قاعات الاجتماع ثمانى صور أخرى رسمها لكنيسة هذه الجماعة نفسها معظمها خاص بالقديس روك نفسه . وأظهر ما فى هذه المجموعة كلها صورة **بركة بيت حسدا** وذلك لما تبعثه فى النفس من رهبة إن لم يكن لشىء سواها .

ويستمد الفنان موضوعه من الأصحاح الخامس من الإنجيل الرابع : « فى هذه كان مضطجعاً جمهور كثير من مرضى ، وعمى ، وعسم(*) » ينتظرون أن تتاح لهم الفرصة للاستحمام فى بركة ذات الماء الشافى . وتنتورتو لا ينظر إلى معجزة شفاء المرضى ، بل يرى الجماهير المصابة بمختلف الأمراض ، ويصورها كما يراها وهو ساكن هادئ بأجسامها المشوهة وأسمالها البالية ، وأقذارها ، وآمالها ، ويأسها . إن هذا المنظر كأنه أخذ من منظر **الجحيم** لدانتى أو **الأثقال** لزولا .

وهذا الرجل الذى يستطيع أن يحدث بفنه هذه السورة العارمة ضد الشرور التى يتعرض لها الجسم الإنسانى بفطرته : هذا الرجل نفسه قد استجاب بحماسة بالغة لمباهج الجسم الإنسانى فى صحته وجماله ، وكاد يضارع تيشيان وكريچيو فى رسم العرايا . ونحن وإن كان يحق لنا أن نتوقع من روحه القلقة وفرشاته السريعة أن تعجزا عن نقل الإحساس القديم بالجمال أثناء راحته ؛ لنجد مع ذلك فى أماكن كثيرة فى أوربا أشكالا أنيقة أمثال صورة **دانائى** المحفوظة فى متحف ليون بفرنسا ، والمزدانة بالجواهر ، وصورة **ليدا والبجع** الموجودة فى معرض أفيدسى ؛ **وفينوس وفلكان** المحفوظة فى متحف ميونخ وصورة **إنقاذ أرسينوى**، المحفوظة فى متحف درسدن ، **وعطارد وربات الجمال وباخوس وأدريانى** المحفوظتين فى قصر الدوج بالبندقية . . . . ويظن سيمندس أن هذه الصورة الأخيرة هى أجمل صورة بالزيت موجودة فى هذه الأيام ، إن لم تكن أعظم الصور كلها »(٣١) . على أن أكمل منها صورة **أصل المجرة** الموجودة فى معرض لندن الفنى التى تعزو هذا الأصل إلى ضغط

(*) هذا هو نص الآية ، وقد ورد فى المحيط العَسَم محركة ، يبس فى مفصل الرسغ تعوج منه اليد والقدم . (المترجم)

كيوبد على ثديي Juno — وهو تفسير لا يقل فى صدقه عن أى تفسير آخر تقدم به العلماء . وفى متاحف اللوفر ، والپرادو وڤينا ، ومعرض واشنجتن الغنى أربع صور مختلفة من رسم تنتورتو تمثل سوزنا والكبراء . وفى معرض برادو حجرة ممتلئة بصور تمثل جمال النساء « منها صورة فتاة بندقية تزيح رداءها لتكشف عن صدرها ، وحتى فى صورة معركة الترك والمسيحيين نرى ثديين ناهدين يستلفتان الأنظار بين بريق الأسنة والرماح : وفى متحف ڤيرونا صورة تمثل جوقة مكونة من تسع نساء موسيقيات ثلاث منهن عاريات إلى أوساطهن — كأن الآذان تحسن السمع إذا كان فى وسع العيون أن ترى هذا القدر الكبير من الجمال . وليست هذه الصور أحسن ما أبدعه تنتورتو ، بل إن قدرته لتظهر أعظم ما تظهر فى تمثيل الرجولة فى الحياة ، والبطولة فى الموت على أوسع نطاق ؛ ولكن هذه الصور تدل هى الأخرى على أنه يستطيع كما يستطيع چيورچيونى وتيشيان أن يرسم الانحناءات الخطرة بيد ثابتة ؛ ولسنا نرى فيما رسمه من صور للنساء العاريات شيئاً من فساد الخلق ، بل نجد فيها المتعة الحسية السليمة . فهؤلاء الآلهة وهذه الإلاهات يرون العرى من طبيعة الأشياء ، وهم لا يشعرون به ؛ ويرون أن من صفاتهم الإلاهية أن يحيوا الشمس « وكل أجسامهم وجوه » ، يحيونها بأجسامهم كلها غير مضيق عليها بالأزرار ، والأشرطة والأربطة .

وظل تنتورتو ممتنعاً عن الزواج ما يقرب من أربعين عاماً تزوج بعدها فوستينا ده ڤيسكوڤى Faustina de Vescovi ، ولكنها وجدته مضطرباً مسكيناً إلى حد لم يسعها معه إلا أن تجد السعادة فى أن تكون له أماً . وولدت له ثمانية أبناء أصبح ثلاثة منهم مصورين لا بأس بأعمالهم . وكانوا يسكنون بيتاً متواضعاً غير بعيد من كنيسة مادنا دل أورتو (عذراء أورتو) ، وقلما كان الفنان الكبير يبتعد عما حول البيت إلا إذا ذهب ليصور فى كنيسة بالبندقية ، أو فى القصر ، أو فى مقر الإخوان . ولهذا فإنا لانستطيع تقدير

قوته وتنوع صوره إلا فى نطاق المدينة التى ولد فيها : وقد عرض عليه دوق مانتوا منصباً فى بلاطه ، ولكنه رفضه ؛ ذلك أنه لم يكن سعيداً إلا فى مرسمه ، حيث لم يكن ينقطع عن العمل لا ليلا ولا نهارا ، وكان زوجا وأبا طيبا ، ولكنه لم يكن يعنى أقل عناية بالمتع الاجتماعية . وكاد يبلغ فى عزلته ، واستقلاله ، ونكده ، واكتئابه ، وتوتر أعصابه ، وعنفه ، وكبريائه ، كاد يبلغ فى هذا كله مبلغ ميكل أنجيلو الذى ظل طول حياته يعبده ، ويحاول أن يتفوق عليه . ولسنا نجد عنده السلام لا فى روحه ولا فى أعماله ، وكان كميكل أنجيلو يعظم قوة الجسم ، والعقل ، والروح ، أكثر مما يعظم الجمال الظاهر ، ولهذا نرى صور العذراء التى رسمها منفرة كصورة عذراء دونى Doni . وقد ترك لنا صورة له (توجد الآن فى متحف اللوفر) ، رسمها وهو فى الثانية والعشرين من عمره . ولا نكاد نرى فيها فرقاً بين رأسه ووجهه وبين وجه أنجيلو ووجهه نفسه . — فالوجه قوى مكتئب ، عميق مندهش حائر ، ترتسم عليه علامات مائة عاصفة .

والصور التى رسمها لنفسه خير صوره جميعاً ، ولكنه رسم صوراً أخرى تشهد بعميق نظراته النافذة ووحدة فنه . ذلك أنه فى هذه الناحية أيضاً ظل واقعياً ، لا يجرؤ امرؤ على أن يجلس أمامه ليصوره إذا كان يرجو أن يخدع الخلف . وكم من عظيم من أهل البندقية قد انتقل إلينا من خلال القرون بفضل فرشاة تنتورتو : أدواج ، وأعضاء فى مجالس الشيوخ ، ووكلاء دعاو ؛ وثلاثة من مديرى دار سك النقود ، وستة من أصحاب بيت المال ؛ وخير من هؤلاء كلهم فى هذه المجموعة صورة ياقوبو سورانسو — وهى من أعظم الصور التى أخرجها فن البندقية . ومن هذه الصور أيضاً صورة سان سوفينو المهندس المعارى وكرنارو Cornaro المعمر . ولتنتورتو صور لا يفوقها إلا صورة السورانسو Soranzo ولا يعرف من تمثله وهى صورة الرجل لابس الزرد

(فى برادو) وصورة **الشيخ** (فى بريستشنسا) و **صورة رجل** (فى الخلوة : بلينينجراد) ؛ وصورة **مغربى** فى مكتبة مورجان بنيويورك . وحدث فى عام ١٥٧٤ أن تخفى تنتورتو فى ثياب خادم من خدم الدوج ألفيزى متشينيجو Doge Alvise Mocenigo واستطاع الوصول إلى البارجة بوتشنتور Bucentaurs بارجة أمير الأسطول ، ورسم خلسة بالبسطل(*) صورة تقريبية لهنرى الثالث ملك فرنسا . ثم استطاع فيما بعد أن يتخذ له مكاناً فى ركن حجرة كان هنرى مجتمعاً فيها مع أعيان البلاد ومن هذا المكان أتم الصورة . وبلغ من حب هنرى لها أن عرض على الفنان لقب فارس ، ولكنه رجاه أن يقبل اعتذاره .

وكانت معرفته بأعيان البندقية قد بدأت فى عام ١٥٥٦ حين عهد إليه هو وفيرونيزى أن يرسم صوراً على القماش فى قصر الدوق . رسم فى قاعة المجلس الكبير Sala del Maggior Consiglo صورتين هما **تتويج فردريك بربرسا وحرمان الإسكندر الثالث لبربرسا** . وفى القاعة المعرفة باسم صالا دل اسكروتنيو Saladel Scrutinio (قاعة البحث والتحقيق) غطى جداراً كاملا بصورة **يوم الحساب** . وسر مجلس الشيوخ من الصورتين سروراً حمله على أن يختاره فى عام ١٥٧٢ لتخليد ذكرى الانتصار العظيم فى ليبانتو ، غير أن هذه الصور الأربع قد دمرتها النار التى شبت فى عام ١٥٧٧ . وفى عام ١٥٧٤ عهد مجلس الشيوخ إلى تنتورتو أن يصور حجرة الانتظار (الانتيكاليچيو Anticollegio) . وهنا رسم للمشترعين الكبار صورة **عطارد وربات الجمال وأندريا ياغوس . وكيرفلكان ومنيرفا تطارد المريخ** . . وفى قاعة مجلس الشيوخ Sata de Predadi رسم تنتورتو (١٥٧٤

(*) Pastel معربة هو ضرب من أقلام الرصاص شائع الاستعمال بين أطفال المدارس . (المترجم)

— ١٥٨٥ طائفة من اللوحات الكبيرة يطرى بها أدواج أيامه ، فصورهم ومن خلفهم الميدان الفخم العظيم : كنيسة القديس مرقص بقبابها البراقة ، أو برج الساعة ، أو برج الأجراس ، أو الواجهة الفخمة لمكتبة ڤيتشيا ، أو بواكى قصر الدوبرج البراقة ، أو مناظر القناة الكبرى تحجبها الغيوم أو تسطع عليها أشعة الشمس . ثم توج هذه الرسوم بصور توائم ذوق الحكومة الفخورة المزهوة فرسم على السقف صورة رائعة فاقت كل ما عداها وهى صورة **البندقية ملكة البحار** ؛ ترتدى أثواباً ذات روعة وجلال تحيط بها دوائر من الأرباب المعجبين بها ، وتتلقى من آلهة البحر وحورياته هدايا الماء — المرجان والأصداف ، واللآلئ .

ولم يثن الحريق الكبير من عزم مجلس الشيوخ فطلب إلى تنتورتو أن يعوضه عن الخسارة بصور تمحو من ذاكرة الناس كل شىء عنها . فنقش فى « قاعة البحث » منظر معركة كبرى هى **الاستيلاء على زارا** ، وصور على جدار إحدى حجرات المجلس الكبير **الإمبراطور فردريك بربرسا يستقبل الوفود من عند البابا والدوج** ، كما رسم على السقف آية فنية رائعة هى **الدوج نقولو دا بنتى يتلقى خضوع المدن المغلوبة** .

ولما قرر مجلس الشيوخ (١٥٨٦) أن يغطى المظلم القديم الذى صوره جوارينتو Guariento على الجدار الشرقى من حجرة المجلس ، اعتقد أن تنتورتو ، وكان وقتئذ فى الثامنة والستين من عمره ؛ قد بلغ من الكبر حداً لا يستطيع معه أن يقوم بهذه المهمة . ولهذا قسم العمل كما قسم الجدار بين فاولو ڤيرونيزى ، وكان وقتئذ فى الثامنة والخمسين ، وفرانتشيسو بسانو ، البالغ وقتئذ سبعا وثلاثين سنة . لكن ڤيرونيزى توفى عام ١٥٨٨ قبل أن يبدأ العمل فعلا ، وعرض تنتورتو أن يحل محله ، وأن يغطى الجدار كله بصورة واحدة هى **مجد الجنة** ، ووافق مجلس الشيوخ على هذا العرض ،

ووضع الشيخ الطاعن فى السن ، بمساعدة ابنه دومينيكو وابنته ماريتا Marietta ، فى الاسكولا دلا ميزيريكورديا Scuola della Misericordia قطع القماش التى ستتألف منها الصورة الأخيرة . ورسمت كثير من الرسوم التخطيطية الأولية ؛ منها رسم ، يعد فى حد ذاته آية فنية ، يوجد الآن فى متحف اللوفر . ولما وضعت هذه الأجزاء كلها فى مكانها (١٥٩٠) ، وبعد أن لون دومينيكو مواضع الاتصال بين الأجزاء وأخفاها ، كانت الصورة أكبر صورة بالزيت وقعت عليها العين حتى ذلك الوقت — فقد كان طولها اثنتين وسبعين قدماً وارتفاعها ثلاثاً وعشرين . وأجمعت الجماهير التى احتشدت لرؤيتها على أنها أعظم أعمال التصوير التى تمت فى مدينة البندقية — وأنها « أعجب قطعة فى العالم كله من الصور الزيتية النقية ، السامية التى تمثل الرجولة الحقة »[٣٣] . وعرض مجلس الشيوخ على تنتورتو أجراً بلغ من الارتفاع حداً لم يسعه معه إلا أن يرد إليه جزءاً منه واستاء من ذلك زملاؤه الفنانون .

وعدا الزمان على هذه الجنة ، واليوم إذا ما دخل الإنسان قاعة المجلس الكبير ، والتفت إلى الجدار القائم خلف عرش الدوج ، لم يجد الصورة التى تركها تنتورتو هناك ، بل وجد صورة سودها الدخان والرطوبة اللذين تناوبا عليها مئات السنين ، حتى لا يستطيع أن يتبين من الأشكال الحسمائة التى كانت تملأها إلا أقلية صغرى واضحة للعين . أما فيما عدا هذا فدوائر داخل أدوائر تهتز وترتجف — وتتكون من السذج المباركين ، والعذارى ، والمؤمنين بالدين ، والشهداء ، والمبشرين بالإنجيل ، والحواريين ، والملائكة ، وكبار الملائكة — كلهم محتشدون حول مريم وابنها ، كأن هؤلاء جميعاً قد أصبحوا هم الآلهة الحقيقيين للعالم المسيحى اللاتينى ، وقد جاءوا يعترفون بجلال قدرة المرأة والرجل اعترافاً جديراً بهم . ويشعرنا تنتورتو بما وراء الأشكال المائة التى تستطيع أن تراها بالعين من مئات أخرى يخطئها الحصر .

والحق أنه حتى إذا لم يكن الذين يدخلون الجنة إلا قلة تختار من الذين يدعون إليها ، فإن من دخلوها فعلا فى ستة عشر قرناً من التاريخ المسيحى ليبلغون عدداً كبيراً من الجماهير السعيدة ، وقد أخذ تنتورتو على نفسه أن يصور لنا هذا العدد الكبير ، ويمثل لنا سعادتهم . وهو لم يمت الجنة فيصفها مكاناً مكتئباً كما وصفها دانتى ؛ بل تصورها مكاناً مليئاً بالمرح والطرب ، لا يقبل فيه إلا السعداء المبتهجون . وكأن هذا العمل كان هو الرقية التى أخرجت الفنان من سابق كراهيته للمجتمع .

لكن تلك الأيام من حياة الفنان لم تكن خالية من أسباب الحزن ؛ ففى السنة التى أزيح فيها الستار عن الصورة العظيمة ماتت ابنته المحبوبة ماريتا ، وكان حذقها التصوير والموسيقى من أكبر مباهجه وأسباب سلواه فى شيخوخته . فلما أن فارقته لاح كأنه لا يفكر إلا فى أن يراها تحيا حياة أخرى . فكان يتردد أكثر من ذى قبل على مادنا دل أورتو — سيدة الحديقة — حيث يقضى الساعات الطوال فى التفكير والدعاء بعد أن أصبح آخر الأمر رجلا ذليلا . وكان لا يزال يصور ، وأخرج فى هذه السنين الختامية طائفة من الصور تمثل القديسة كترين لتوضع فى الكنيسة المسماه باسمها . لكنه أصيب فى السابعة والسبعين من عمره بمرض فى معدته سبب له آلاما ممضة حرمت النوم على عينيه . فكتب وصيته ، وودع زوجته ، وأطفاله ، وأصدقاءه ؛ ومات فى الحادى والثلاثين من شهر مايو سنة ١٥٩٤ ، وأودعت جثته فى مادنا دل أورتو .

وإذا ما حاول الإنسان أن يتبين فن هذا المصور الكبير بعد أن يطوف بقاربه فى مياه البندقية الضحلة ويقف أمام كل صورة من فنانها الذى لا يقل قدراً عن ميكل أنجيلو ، إذا ما فعل هذا فإن أول ما ينطبع فى ذهنه هو طابع الكثرة والضخامة ، إذ يرى الجدران الكبيرة مغطاة بصور الآدميين والحيوانات على درجات متفاوتة من الجمال والقبح لا تقل عن



(الصورة رقم ١٠) صورة دانيلي د بارا — من عمل
پاولوڤيرونيزي فى قصر پتّي بفلورنس . انظر ص ٢٧٨



(الصورة رقم ١١) صورة پاولو ڤيرونيزي
من عمله — بمعرض أفيدسي بفلورنس . انظر ص ٢٨٠



الألف عدا ، تختلط فيها الأجسام وتضطرب اضطراباً لا نجد له ما يبرره إلا قولنا إنه هو الحياة ؛ ذلك أن هذا الرجل الذى كان يبتعد عن الجماهير ويبغضها ، يواجهها فى كل مكان ، ويصورها تصويراً صادقاً دقيقاً غاية فى الصرامة . ويبدو أنه كان قليل الاهتمام بالأفراد ؛ وإنه إذا رسم صوراً لهم فإنما كان يقصد بذلك كسب العيش صراحة . وكان يرى الإنسانية جملة ، ويفسر الحياة والتاريخ على أنهما كتل من الخلائق البشرية تكافح ، وتنافس ، وتحب ، وتستمتع ، وتعذب ، طابعها الرجولة والجمال ، مريضة ومعقدة ، ناجية أو معذبة . وكان يغطى بصوره قطعاً من قماش الرسم ذات حجم مروع فى كبره ، لأن هذه السعة وحدها هى التى كانت تفسح له المجال ليصور ما يشهده . ومع أنه لم يكن يتقن أصول فن التصوير ، كما يتقنها تيشيان ، فإنه قد استخلص لنفسه الطريقة التى رسم بها هذه الصور الضخمة ، وإليه يرجع أكبر الفضل فى روعة الحجرات التى فى قصر الأدواج ؛ لهذا لا ينبغى لنا أن نطلب إليه رقة الصقل أياً كان نوعها ، فهو فى فنه خشن ، فج ، سريع ، يخلق أحياناً منظراً بضربة واحدة من فرشاته ، على أن خطأه الحقيقى ليس هو خشونة السطح — لأن السطح الخشن ذاته قد ينير ما ينطوى عليه الرسم من معنى — ، أما هذا الخطأ فهو العنف المسرحى لما يختاره من الأحداث ، وثوران أهوائه ونزواته ثوراناً سقيماً ، والكآبة التى يغرق فيها الحياة كما يصورها ، وتكرار صور الجماهير تكراراً متعباً مملا ؛ لقد كان تنتورتو مفتتناً بكثرة العدد ، كما كان ميكل أنجيلو مفتتناً بالأشكال ، وروبنز Rubens ، مفتتناً بالأجسام . ولكن ما أكثر ما نجده فى هذه الكثرة نفسها من دقائق وتفاصيل عظيمة الدلالة ، وما أعظم ما نجده من دقة ونفاذ فى الملاحظة ، ومن تنوع وانفرادية فى الأجزاء لاينضب لها معين ، وواقعية جريئة حيث لم نكن نجد قبل إلا خيالا وعاطفة !

وآخر ما نشعر به ونحن نقف أمام هذه الصور هو الاستجابة لها

استجابة صريحة أكيدة قائلين : هذا هو الفن فى أعظم طراز له : لقد صور غيره من الفنانين الجمال كما فعل رفائيل ، أو القوة كما فعل ميكل أنجيلو ، أو عمق النفس كما فعل رمبرانت ؛ أما هنا فى هذه الرسوم العالمية — سواء كانت تمثل صخب مدينة ، أو جماهير صامتة تؤدى الصلاة ، أو دخائل ألف بيت وبيت وما تضمه من متاعب أو محبة وولاء — نقول أما هنا فإنا نجد الحياة الإنسانية نفسها . وقد نحس أحياناً ونحن وقوف صامتون أمام هذه الجدران الحائلة فى قصر أدواج البندقية ، أو فى حجرات إخوان القديس روك ، أن صور غير من الفنانين الأرقى منه درجة تنمحى من ذاكرتنا ، وأنه لو استطاع الصباغ الصغير(*) أن يصقل صوره صقل الجوهرى بعد أن فكر فيها تفكير الجبابرة ، لكان أعظم المصورين أجمعين .

(*) يريد تنتورتو وهذا هو المعنى الحرفى لاسمه . (المترجم)

الفصل الخامس

ڤيرونيزى : ١٥٢٨ — ١٥٨٨

ولسنا نحب أن يفوتنا ، قبل أن نطوى صحيفة هذا الباب ، أن نكرم بعض نجومه اللامعة وإن كانت من الطبقة الثانية بعد الفنانين السابقين ؛ فقد كان هؤلاء أيضاً ممن تلألأ ضياؤهم فى البندقية : من هؤلاء أندريا ميلولادا Andrea Méloida وهو من إقليم سلاڤونيا وسمى شيافونى Shiavone . وقد تلقى الفن مع تيشيان ، ورسم صورة من العاج لسيدة على صندوق فى قلعة ميلان . ثم حاول أن يرسم صورتين أكبر من هذه وهما **جوبتر وأنتيوبى** (المحفوظة فى لينينجراد) **وعطية العذراء** (البندقية) ، وكانتا صورتين بديعتى اللون . وأثنى عليه الفنانون ، وأعرض عنه المناصرون ؛ واضطر أندريا أن يسير بلحيته الوقورة فى أسمال بالية .

وكان باريس بوردونى Paris Bordone ابن سراج وحفيد حذاء ، ولكنه استطاع بفضل دمقراطية العبقرية ، التى تظهر فى جميع الطبقات أن يشق طريقه إلى الذروة فى مدينة البندقية الممتلئة بذوى المواهب والكفايات . وقد جاء بوردونى من تريفيزو ليلتقى أصول الفن على تيشيان ، ونضج نضوجاً بلغ من سرعته أن دعاه فرانس الأول إلى باريس وهو فى سن الثامنة والثلاثين . وفيها أخرج بعض الصور الدينية الممتازة مثل **الأسرة المقدسة** (ميلان) ، وبلغ أعلى مكانة له فى صورة **الصائد يهدى خاتم القديس مرقص إلى الدوج** (البندقية) ؛ ولكن الصورة التى خلدت اسمه على مر السنين هى صورة **ڤينوس وإيروس** (أفيدسى) وهى تمثل فتاة بضة

شقراء ترتدى ثوباً أبيض لتكشف به عن نهديها ، بينا يصيح كيوبد ليلفتها إليه(*) .

ونال ياقوبو دا پنتى Jacopo da Ponte ، المسمى البسانو Il Bassano نسبة إلى مسقط رأسه ، شهرة وسطى وثروة غير كبيرة حين اشترى تيشيان صورته **الحيوان ذاهبة إلى سفينة نوح** واستطاع أن يعيش حتى بلغ الثانية والثمانين دون أن يترك وراءه أية صورة لآدميين لا تغطيهم الأثواب من رءوسهم إلى أقدامهم .

وجاء من ڤيرونا إلى البندقية فى عام ١٥٥٣ شاب فى الخامسة والعشرين من العمر يدعى پاولو كاليارى Paolo Caliari ، وهو طراز من الشبان يختلف كثيراً عن طراز تنتورتو : فهو هادئ ، ودود محب للألفة ، ينتقد عيوب نفسه ، لا ينفعل إلا نادراً . وكان يحب الموسيقى ويمارسها ، مثله فى ذلك كمثل تنتورتو وجميع الإيطاليين المتعلمين تقريباً . وكان سخياً كريم الخلق ، لم يسئ قط إلى منافس له ، ولم يغضب نصيراً له أبداً . وسمته البندقية إل ڤيرونيزى Il Veronese وهو الاسم الذى يعرفه به العالم ، وإن كان قد أحب البندقية فيما أحب من المدن واتخذها موطناً له . وكان له فى ڤيرونا عدد من المعلمين ، منهم عمه أنطونيو باديلى Antonio Badile الذى زوجه فيما بعد بابنته ؛ وقد تأثر فيهـــا بچيوڤنى كاروتو Giovanni Caroto وبرساسورسى Brusasorc ؛ ولكن هذه العوامل التى كانت ذات أثر فى نشأة أسلوبه سرعان ما زالت فى لألاء فن البندقية وحياتها القويين . فقد كان تغير منظر السماء وألوانها فوق القناة الكبرى مصدر دهشته على الدوام ؛ وكان يعجب بقصور المدينة وانعكاس خيالها واهتزازه فى ماء البحر ؛ وكان يحسد عالم الأشراف على دخلهم الثابت ، وصداقتهم للفنانين ، وآدابهم

(*) كانت هذه إحدى الصور الكثيرة التى أخذها جورنج Goering من إيطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية ، والتى استردتها إيطاليا بعد انتصار الحلفاء .

العالية ، وأثوابهم المنسوجة من الحرير والمخمل التي تكاد تكون أكثر إغراء للمس من النساء الحسان اللائي يلبسنها . وكان يتمنى أن لو كان من أولئك الأشراف ؛ وكان فعلا يرتدى أثواباً شبيهة بأثوابهم محلاة بالمخرمات والفراء ، ويقلد مراسم التكريم التي كان يعزوها إلى الطبقات العليا من أهل البندقية. ولا نكاد نجد له صورة للفقراء من الناس ، أو للفقر ذاته ، أو للمآسى ، لأن الغرض الذى كان يسعى إليه هو أن يخلد بصوره هذا العالم المتلألئ المحظوظ من أهل البندقية ، وأن يجعله أرق وأجمل مما يستطيع أن يبلغه الثراء بغير الفن . ولهذا هرع إليه النبلاء والنبيلات ، والأساقفة ورؤساء الأديرة ، والأدواج وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأحبوه ، وسرعان ما كانت لديه أكثر من عشر مهام يقوم بأدائها .

وطلب إليه فى ذلك التاريخ المبكر من حياته أى فى عام ١٥٥٣ ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره أن ينقش سقف مجلس العشرة فى قصر الدوق :

وقد شبه فى هذا النقش المجلس بجوبتر **قصور جوبتر يقضى على الرذائل** ، وتوجد هذه الصورة الآن فى متحف اللوفر . ولم يكن نجاحه فى هذه الصورة نجاحاً يستلفت الأنظار ؛ ذلك أن الأشكال الثقيلة تقفز مزعزعة فى الهواء ، لأن پاولو لم يكن قد سرى فيه حتى ذلك الوقت روح البندقية . ثم لم يمض على ذلك الوقت إلا عامان حتى عرف قدر نفسه ، وصار غير بعيد من أساتذة الفن فى صورة **انتصار موردكاى** التي رسمها على سقف كنيسة سان سباستيانو . وقد أظهر فى هذه الصورة وجه البطل اليهودى وشكله واضحين قويين ، والخيل نفسها تبدو كأنها خيل بحق . وربما كان تيشيان نفسه قد تأثر بهذه الصورة ، وشاهد ذلك أنه لما عهد إليه القائمون على كنيسة القديس مرقص أن يزخرف مكتبة فينتشيا بصورة مدليات مصورة ، عهد إلى ڤيرونيز بثلاثة من هذه المدليات ، ولم يستبق لنفسه ولكل واحد آخر من الفنانين الذين اشتركوا معه فى العمل إلا واحدة . ووعد هؤلاء المشرفون

أن يمنحوا صاحب أحسن مدلاة سلسلة ذهبية ، فكان پاولو هو الذى نال هذه المكافأة نظير تمثيله الموسيقى فى صورة ثلاث فتيات — واحدة منهن تعزف على العود ، وواحدة تغنى ، وواحدة منكبة على الكمان الدجمى (*) — ومعهن كيوپد يضرب على معزف من نوع البيان ، وپان Pan(**) ينفخ فى مزاميره . وقد رسم ڤيرونيز نفسه بعدئذ يتحلى بهذه السلسلة الذهبية .

ولما أن أحرز پاولو هذه الشهرة العظيمة فى التصوير الزخرفى عهدت إليه أعمال درت عليه المال الوفير . من ذلك أن أسرة بربارو Barbaro الشريفة الغنية شادت فى عام ١٥٦٠ بيتاً ريفياً فى ماتشر Macer قرب أسولو Asolo حيث كانت تقيم كترينا كرنارو ملكة قبرص السابقة ، وحيث كان بمبو العاشق الأفلاطونى الواله . ولم يختر آل بربارى إلا كبار الفنانين ليجعلوا من هذا البيت : « أجمل بيت للنزهة شيد فى عصر النهضة »(٣٥) . فاختاروا أندريا بلاديو لتصميمه . وألسندرو فتوريا لزخرفته بالتماثيل الجصية ، وڤيرونيزى لعمل المظلات فى السقف والجدران ، والبندريلات والكوات ، مستمدة من مناظر من الأساطير الوثنية والمسيحية . فقد صور على السطح الداخلى من القبة الوسطى أولمپس — الآلهة الذين يستمتعون بجميع مباهج الحياة ولكنهم لا يهرمون ولا يموتون . ورسم صغار الفنانين وسط مناظر سماوية صورة صائد ، وقرد ، وكلب بلغ من دقة شكله ويقظته وحيويته ما يجعله خليقاً بأن يكون من كلاب السماء . ورُسم على أحد الجدران خادم يتطلع عن بعد إلى صورة عذراء ، وتتطلع هى الأخرى إليه ، ثم تمضى لحظة يطعمون هم أيضاً فيها طعام الآلهة ، وبهذا بلغ جمال القصر وبهجته درجة لا يمكن أن يعلو عليها إلا الفنانون الصينيون من مواطنى كوبلاى خان Kublai Khan

---

(*) آلة موسيقية من نوع الكمان .

(**) إله الرعاة والقطعان والغابات والحياة البرية ، وشفيع الرعاة ، والصائدين . . الخ (المترجم)



(الصورة رقم ١٢) اختطاف أوربا – من عمل پاولوڤيرونيزى
فى المتحف الفنى بنيويورك (انظر ص ٢٧٩)



(الصورة رقم ١٣) تمثال نصفى لميكل أنچيلو برنارتى – من عمل
دانيل داڤلتيرا – فى المتحف الدوى بفلورنس (انظر ص ٢٧٩)



ولم يكن بد من أن يطلب إلى پاولو أن يرسم صورة النساء العرايا فى وسط هذا الجمع الحاشد من مناظر الحب. على أن العرى لم يكن الميدان الذى يبرز فيه؛ فقد كان يفضل عليه الأثواب الثمينة الملساء الناعمة تغطى أجساماً شبيهة بالأجسام التى يصورها روبنز، تعلوها وجوه ذات جمال عادى يميزها عن غيرها من الوجوه، ويتوجها شعر ذهبى مسدل مسرح. ويرى الإنسان فى صورة **المريخ وفينوس** المحفوظة فى متحف متروبوليتان الفنى إلهة بدينة قبيحة المنظر، ذات ساق لاشكل لها مصابة بداء الاستسقاء. لكن فينوس تبدو جميلة فى صورة **فينوس وأدونيس** الموجودة فى برادو لايفوقها فى هذه الصورة إلا شكل الكلب الرابض عند قدميها. وأجمل ما فى صور ڤيرونيزى الأسطورية صورة **اختطاف أوربا**(*) الموجودة فى قصر الأدواج! وتمثل هذه الصورة منظراً ذا أشجار قائمة، والثور المجنح يلقى بالأكاليل وأوربا (الأميرة الفينيقية) جالسة وهى مبتهجة فوق ظهر الثور العاشق، الذى يلعق إحدى قدميها الجميلتين، وتستبين أنه هو بعينه چوپتر متخف زى جديد. وقد أظهر هذا الفنان الذى صور مناظر فى السماء ذوقاً لطيفاً فى تصوير مناظر الآلهة. ذلك أنه صور أوربا وعلى نصف جسمها ثياب ملكية، وقد أحرز ڤيرونيزى فى هذه الصور أتم نجاح فى رسم أجسام النساء، وبلغ بها حد الكمال فى هذا التركيب فجعلها خليقة بأن يترك زيوس من أجلها مقامه فى السماء. وترى خلفية الصورة البعيدة بقية القصة، فتظهر الثور يحمل أوربا فوق مياه البحر إلى كريت، ومن هنا أعطت اسمها للقارة الأوربية — كما تقول القصة اللطيفة.

وسار پاولو نفسه على مهل قبل أن يستسلم لتصوير النساء. فقد ظل

(*) أوربا فى الأساطير اليونانية أميرة فينيقية اختطفها زيوس بعد أن تخفى فى صورة ثور أبيض، وسبح بها فى البحر إلى جزيرة كريت حيث أضحت أم مينوس، وردها دامانثوس وسار پيدون. (المترجم)

يجمع النماذج حتى بلغ الثامنة والثلاثين من العمر ، ثم تزوج بعدئذ إيلينا باديلى Elena Badile ، فولدت له ولدين هما كارلو وجبريلى ، علمهما التصوير وتنبأ بنبوءة مبعثها الرغبة والأمل أكثر من بعد النظر ، فقال « سيفوقنى شارلى Carletto me vincera »(٣٦) . وفعل ڤيرونيزى ما فعله كريچيو فابتاع مزرعة فى سانت أنچيلو دى تريڤيزو حيث قضى معظم سنى زواجه ، يصرف شئونه المالية بحكمة واقتصاد ، وقلما كان يبتعد عن كرمته . ولما بلغ سن الأربعين كان أكثر من يسعى إليه الطالبون بين المصورين فى إيطاليا كلها ، بل إنه كان يتلقى دعوات من البلاد الأجنبية نفسها ؛ ولما أن طلب إليه فليپ الثانى زخرفة الإسكوريال ، قدر هذا التكريم حق قدره ولكنه قاوم هذا الإغراء الشديد .

ودعى كما دعى من سبقوه من الفنانين ليرسم القصة المقدسة للكنائس والعابدين(*) وإنا لنرى كل شىء جديداً جذاباً فى صورة عذراء أسرة

(*) الصور الآتية خليقة بالذكر وهى مما لم يرد ذكره فى النص :

ا — من كتاب العهد القديم : خلق حواء (تشكاجو) ؛ موسى ينجو من البحر (برادو) ، إحراق سدوم (اللوڤر) ؛ ملكة سبأ أمام سليمان (تورين) ؛ بتشبع (ليون) ؛ يوديت أمام هولوفرنيس (تور) ؛ سوزان والكبار (اللوڤر) وفيها يظهر الكبار أكثر إمتاعاً من سوزان ، وليس هذا شأن الصور المماثلة لها .

ب — صور العذراء : صعود العذراء (البندقية ؛ عبادة المجوس (ڤينا ، ودرسدن ، ولندن وكلها صور فخمة رائعة) ؛ الأسرة المقدسة (برنستن) ؛ الأسرة المقدسة ومعها القديسة كترين والقديس يوحنا (أفيدسى) — وهى من أعماله الكبرى ؛ والعذراء والطفل والقديسين — صورة فخمة (البندقية) ؛ الهبة (درسدن) ؛ صعود العذراء وتتويجها (البندقية) .

حـ — من صور يوحنا المعمدان : عظة القديس يوحنا (بورغيزى) .

د — من صور المسيح : التعميد (پتى ، وبربرا ، وواشنجتن) ، المسيح يجادل فى المعبد (پرادو) يسوع والمعمر (پرادو) ؛ المسيح يحيى ابنة بايروس (البندقية) ، العشاء الأخير (بربرا) ، خلع بيلاطس (ڤيرونا ولينينجراد) الماريات الثلاث عند القبر (پتى) .

كونشيلبو (الموجودة فى درسدن) بعـــد أن رسمت للعذراء ألف صورة وصورة ! نرى أصحاب الهبات الوسيمى الوجوه ذوى اللحى السوداء ، ونرى الأطفال السذج الحيارى ، ونرى شبح الغدر المتشح بلفاعة بيضاء — فى صورة امرأة ذات جمال رائع قلما يضارعه جمال آخر حتى فى فن البندقية نفسه .

وكانت صورة الزواج فى قانا (المحفوظة فى متحف اللوفر) هى ذات المنظر الذى يحب فيرونيزى أن يصوره : وقد جعل خلفية الصورة مبانى رومانية ، وجعل فى مقدمتها كلباً أو كلبين ، ومائة شخص فى نحو مائة موقف مختلف. وقد رسمهم كلهم كأنه يريد أن يجعل كل واحد منهم صورة كبرى قائمة بذاتها ، وكان من بينهم صور تيشيان ، وتنتورتو ، وبسانو ، وصورته هو نفسه . ومع كل منهم آلة موسيقية وترية يعزف عليها . وكان باولو يختلف عن تنتورتو فى أنه لم يكن يعنى أقل عناية بالواقعة ؛ فهو لم يجعل فى صورته المحتفلين رجالا ونساء ممن قد تحتويهم بلدة يهودية صغيرة ، بل جعل المضيف من أصحاب الملايين البنادقة ، وجعل له قصراً خليقاً بأن يكون قصر الإمبراطور أغسطس ، فيه الضيوف والكلاب المعروفة السلالة والنسب ، واحتوت الموائد ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وإذا جاز للإنسان أن يحكم على المسيح من صور فيرونيزى ، قال إنه قد استمتع بولائم كثيرة بين محنه ؛ فنحن نشاهده فى اللوفر يتغذى فى بيت سمعان الفريسى ، ومجدلين تغسل قدمه ، ومن حوله نساء حسان يتحركن بين العمد الكورنثية ؛ وفى توريز يتعشى فى بيت سمعان الأبرص ؛ وفى معرض البندقية يتغذى فى بيت لاوى . لكننا نرى المسيح فى معرض صور فيرونيزى يغشى عليه تحت ثقل الصليب (درسدن) ، ونراه يصلب فى جو مكفهر وأبراج أورشليم قائمة من تحته عن بعد (اللوفر) . ولا يفصح فيرونيز عن خاتمة المأساة : فنحن نرى فى أموس حجاجاً سذجاً يتعشون مع المسيح ومعهم أطفال ظراف يدللون كلباً يظهر دائماً فى صور الفنان .

وأعظم من هذه الصور الموضحة للعهد الجديد صور ڤيرونيزى المستمدة من حياة القديسين وأقاصيصهم : كصورة القديسة هيلينا يكسوها الجمال الرائع ، وهى تعتقد أنها ترى الملائكة ينقلون الصليب (لندن) ؛ والقديس أنطونيوس يعذبها شاب مفتول العضلات ، وامرأة ملكية (كاڤن) ؛ والقديس چيروم فى البرية ؛ تواسيه وتطرد عنه السآمة كتبه (تشكاجو) ؛ والقديس چورج يرحب فى وجد ونشوة بالاستشهاد (فى كنيسة سان چيوچيو بالبندقية) ؛ والقديس أنطونيوس فى بدوا ؛ والقديس فرانسس يتلقى الوسمات(*) (البندقية) ؛ القديس مناس تتلألأ عليه الدرع (مودينا) ويستشهد (برادو) ؛ القديسة كترين الإسكندرية تتزوج زواجاً باطنياً بالطفل المسيح (كنيسة القديسة كترينا بالبندقية) ؛ والقديس سباستيان يرفع علم الإيمان والأمل وهو يقاد إلى ساحة الاستشهاد (كنيسة سان سباستيانو فى البندقية) ؛ والقديسة چوستينا تواجه الاستشهاد وتتعرض للتهلكه المزدوجة فى معرض أفيدسى وفى كنيستها فى پدوا ؛ كل هذه صور لا يمكن موازنتها بأحسن ما صور تيشيان أو تنتورتو ، ولكنها مع ذلك خليقة بأن تعد من الآيات الفنية ، ولعل أجمل منها كلها صورة **أسرة دارا أمام الإسكندر** (لندن) وهى تمثل ملكة مكتئبة ، وأميرة حسناء ، راكعة أمام قدمى الفاتح الوسيم الكريم .

وقد سبق القول إن پاولو بدأ حياته فى البندقية بالتصوير فى قصر الدوق ، ونقول الآن إنه ختمه فى هذا القصر نفسه بصور جدارية عظيمة خليقة بأن تستثير شعور كل روح وطنية فى تلك المدينة . ذلك أن زخرفة داخل القصر بعد الحرائق التى شبت فيه فى عامى ١٥٧٤ و ١٥٧٧ عهد أكثرها إلى تنتورتو وڤيرونيزى ، وطلب إليهما أن يكون موضوع الزخرفة هو البندقية نفسها ،

(*) علامات تشبه الجراح ظهرت على جسم المسيح المصلوب يعتقد بعض الناس أنها ظهرت من تلقاء نفسها على أجسام بعض الأشخاص أمثال فرانسس . (المترجم)



(الصورة رقم ١٤) المريخ وڤينوس من عمل پاولو ڤيرونيزى
فى المتحف الفنى بنيويورك . انظر ص ٢٧٩



«التى لم ترهبها الحرائق والحروب ؛ ولا الأتراك والبرتغاليون . وقد رسم پاولو ومساعدوه فى قاعة الاجتماع Sala del Collegio على السقف المحفور المذهب إحدى عشرة صورة رمزية غاية فى الرشاقة — للوداعة وتحملها ؛ ؛ ؛ والجدل ينظر من خلال نسيج عنكبوت من صنعه . . . والبندقية فى صورة ملكة مرتدية فرو القاقوم الثمين ، وأسد القديس مرقص راقد فى هدوء عند قدميها يتلقى التكريم من العدالة والسلام . وفى إطار بيضى الشكل عظيم الشأن فى سقف قاعة المجلس الكبير Sala del Maggior Consiglio رسم صورة انتصار البندقية مثل فيها المدينة العظيمة التى لا تضارعها مدينة سواها بإلهة متربعة على عرشها بين الأرباب الوثنيين ، تتلقى تاج المجد يهبط عليها من السماء ؛ وعند قدميها كبار أعيان المدينة وكرائم سيداتها ، وبعض المغاربة يؤدون الجزية ؛ ومن تحت هؤلاء كلهم محاربون يقفزون استعداداً للدفاع عنها ، وخدم يمسكون بكلاب الصيد من مقودها . تلك أعظم صورة صورها ڤيرونيزى .

واختير فى عام ١٥٨٦ لينشئ بدل مظلمات جواريئتو Guariento الحائلة اللون صورة تتويج العذراء فى قاعة المجلس الكبير نفسها . وقدم الرسم التمهيدى وقبل ، وبينا هو يستعد لرسم الصورة على القماش إذ انتابته الحمى ؛ وروعت البندقية حين ترامى إليها النبأ بأن مصور مجدها الذى لا يزال فى عنفوان الشباب توفى فى أبريل من عام ١٥٨٨ . وطلب آباء كنيسة سان سباستيانو أن تدفق جثته فى كنيستهم ، وفعلا دفن پاولو فى هذه الكنيسة أسفل الصور التى جعلت منها موطناً لفنه الدينى .

ولقد قلب الدهر حكم معاصريه ووضعه فى المرتبة الثانية بعد معاصره القوى تنتورتو . ونحن إذا نظرنا إليه من حيث أصول الفن وجدناه يفوق تنتورتو ؛ فقد بلغ فى التنفيذ ، والتأليف ، والتلوين أعلى درجة بلغها فن البندقية . ولسنا نجد صوره المزدحمة مضطربة مهوشة ، بل نرى حوادثه ومناظره

واضحة ، وخلفيات صورة وضاءة ساطعة . على حين يبدو تنتورتو أمين الظلمة إذا وضع إلى جانب هذا العابد للضوء . كذلك كان ڤيرونيزى أعظم مصور زخرفى فى النهضة الإيطالية ، وكان على استعداد دائم لأن يبتكر بدعة سارة أو مدهشة فى اللون والشكل كصورة الرجل الذى يخرج فجأة من وراء ستار نصف مزاح ، مخترقاً مدخلا قديماً ، والتى نشاهدها فى بيت ماتشر الريفى . ولكنه كان ينهمك مسروراً فى تصوير السطوح المؤتلفة إلى حد يحول بينه وبين إدراك الدقائق الصغيرة ، والمتناقضات المفجعة ، والتناسق العميق وهى الخصائص التى بدونها لا يكون التصوير العظيم عظيما . لقد كان ضعيف النظر لا يرى كل شىء ، وكان حريصاً فى فنه على أن يصور كل ما يراه ، وأكثر مما كان يتخيله مجرد تخيل — كصورة الأتراك يشاهدون تعميد المسيح ، والتيوتون فى بيت لاوى ، والبنادقة عند إموس ، والكلاب فى كل مكان . وما من شك فى أنه كان يحب الكلاب ، وإلا لما صور كل هذا العدد الكبير منها . وكان يرغب فى تصوير أكثر نواحى الحياة بهجة ولألاء ، وحقق رغبته إلى حد لا يضارعه فيه غيره . وقد صور البندقية فى رونق شمسها الغاربة ومتعة الحياة الآخذة فى الزوال . ولسنا نجد فى عالمه الذى مثله فى صوره إلا نبلاء ذوى جمال ، وزوجات ذوات فخامة وعظمة ، وأميرات ساحرات ، وفتيات شقراوات شهوانيات ، وإنا لنجد بين كل صورتين من صوره واحدة تمثل احتفالا أو عيداً .

وإن عالم الفن كله ليعرف كيف استدعى رجال محكمة التفتيش فيرونيزى أمامهم (١٥٧٣) تنفيذاً لقرار صادر من مجلس ترنت، يحرم كل تعليم خاطئ فى الفن ، وطلبوا إليه أن يفصح لهم عن سبب إدخاله كثيراً من الأشياء التى لا تمت قط بصلة إلى الحقيقة فى صورة **الحفل المقام فى بيت لاوى** (البندقية) ، كالببغاوات ، والأقزام ، والألمان ، والمهرجين ، وحاملى فئوس الحرب . . . : ورد عليهم پاولو فى جرأة قائلا إن « مهمتى هى زخرفة

الصورة بما أراه أنا صالحاً ، وإنها كانت كبيرة تتسع لشخوص كثيرة . . ، وإذا ما وجدت فى صورة ما مكانا خاليا يحتاج إلى ما يملؤه ، وضعت فيه من الأشكال ما يوحى به خيالى » — ليتوازن به تأليف الصورة من جهة ، وتستمتع به عين المشاهد استمتاعاً لا ريب فيه من جهة أخرى . وأمرته محكمة التفتيش أن يصلح الصورة على نفقته الخاصة ، ففعل(٣٧) . وكانت هذه المحاكمة بداية انتقال فن البندقية من عهد النهضة إلى عهد حركة الإصلاح المضادة .

ولم يكن لفيرونيزى تلاميذ ممتازون ، ولكن تأثيره تخطى عدة أجيال ليسهم فى صياغه الفن فى إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا . تيپولو Tiepolo بميوله الزخرفية بعد فترة بينهما خلت من هذا التأثير . ودرسه روبنز بعناية ، وتعلم أسرار ألوانه ، وضخم نساء فيرونيزى البدن ليوائم بينهن وبين ما يتسم به الفلمنكيون من سعة ورحابة . كذلك وجد فيه نقولاس بوسّن Nicolas Poussin وكلود لورن Claude Lorrain من يرشدهما لاستخدام الزخارف المعمارية ، فى مناظرهم الطبيعية ، وسار شارل لبرون Charles Lebrun على سنن فيرونيزى فى تصميم الصور الجدارية الكبرى . وكان المصورون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر يستمدون الوحى من ڤيرونيزى وكريچيو فى أناشيد الرعاة أيام الأعياد الريفية ، وأناشيد العشاق الأشراف الذين يلعبون فى أركاديا . ومن هنا نشأ واتو Watteau وفراجونار Fragonard ؛ ومن هنا أيضاً نشأت العرايا ذوات اللون الوردى اللائى صورهن بوشيه Boucher ، والأطفال الظراف الذين تصورهم جريز Grueze ، والنساء الرشيقات اللائى أبدع تصويرهن . ولعل تيرنر Turner قد وجد هنا شيئاً من شروق الشمس الذى أضاء به لندن .

وهكذا اختتم العصر الذهبى للبندقية ملكة البحر الأدرياوى بما امتازت به صور ڤيرونيز من توهج الألوان . وكان سبب هذا الختام أن الفن كان

عسيراً عليه أن يظل سائراً إلى أبعد مما سار فى الاتجاه الذى تبعه من عهد چيورچيونى إلى عهد ڤيرونيزى . بعد أن وصل إلى حد الكمال فى أصوله ، وتسلق أعلى الدرج . ولهذا بدأ يهبط رويداً رويداً حتى جاء القرن الثامن عشر فحدثت فيه نوبة أخيرة من الإبداع والفخامة قبل موت الجمهورية ضارع فيها تيپولو Tiepolo ڤيرونيزى فى الرسم الزخرفى ، وكان جلدونى Goldoni هو أرستوفانيز البندقية .

الفصل السادس

نظرة شاملة

إذا ما ألقينا نظرة على فن البندقية إبان مجده ، وحاولنا فى حياء أن نقدر ما كان له من شأن فى تراثنا الفنى ، حق لنا أن نقول على الفور إن فن فلورنس وفن رومة هما وحدهما اللذان يضارعانه فى جودته ، وبهائه ، واتساع مجاله . ولسنا ننكر أن مصورى البندقية ، ومنهم تيشيان نفسه لم يتعمقوا كما تعمق الفنانون الفلورنسيون فى أسرار مشاعر الناس ، وأسباب بأسهم ، ومآسيهم ، وأنهم كثيراً ما أولعوا باللباس والجسد ولعاً حال بينهم وبين الوصول إلى الروح . ولقد كان رسكن على حق حين قال إن الدين الحق قد ذوى غصنه من أدب البندقية بعد بليني [٣٨] . ولم يكن البنادقة هم الملومين إذا ما أخفقت الحروب الصليبية ، وانتصر الإسلام وانتشر فى الآفاق ، وانحط شأن البابوية أثناء إقامتها فى أفنيون وفى أثناء الانقسام البابوى ، ثم استحالة البابوية إلى سلطة دنيوية فى عهد سكستس الرابع واسكندر السادس ، ثم انفصال ألمانيا وإنجلترا آخر الأمر عن الكنيسة الرومانية ، وإذا ما أدى هذا كله إلى إضعاف إيمان الخلق حتى المؤمنين أنفسهم ، فلم يبق لكثير من النفوس القوية فلسفة خير من فلسفة الأكل والشرب والزواج ثم الزوال . غير أننا والحق يقال لم نجد غير البندقية مكاناً عاش فيه الفن المسيحى والفن الوثنى متآلفين راضيين . فقد كانت الفرشاة التى صورت العذراء هى نفسها التى صورت بعدئذ ڤينوس ، ولم يشك من هذه أحد شكوى ذات بال . كذلك لم يكن هذا الفن فناً مخنثاً ولا فن ترف وراحة ؛ بل كان الفنانون ينهمكون فى العمل انهماكاً ، وكثيراً ما كان الذين يقوم هؤلاء الفنانون بتصويرهم رجالا يخوضون المعارك ويحكمون

الدول ، وكانت النساء اللائى يصورونهن نساء يحكمن أمثال هؤلاء الرجال .

وكان الفنانون البنادقة مولعين باللون ولعا حال بينهم وبين أن يضارعوا حذق الأساتذة الفلورنسيين ، ولكنهم كانوا رغم ذلك رسامين مجيدين ؛ وقد قال فى هذا المعنى يوماً ما أحد الفرنسيين « إن الصيف مُلَوِّن ، والشتاء مصمم L'éte c'est un coloriste l'liver c'est un dessinsteur (٣٩) » ؛ فالأشجار العارية من الأوراق تكشف عن الخطوط الواضحة فى هيكلها ، ولكن هذه الخطوط تظل موجودة لا تزول تحت خضرة الربيع ، وسمرة الصيف ، وذهب الخريف . وكذلك نشهد تحت مجد اللون فى چيورچيونى ، وتيشيان ، وتنتورتو خطوطاً ولكنها خطوط يمتصها اللون كما أن شكل السمفونية التركيبى يخفيه انسيابها .

وكان فن البنـــدقية وأدبها يتغنيان بمجدها حتى فى الوقت الذى اضمحلت فيه الحياة الاقتصادية وتحطمت فى حوض البحر المتوسط بعد أن سيطر الأتراك على طرف منه ، وهجرته من الطرف الآخر أوربا التى أخذت تبحث عن الذهب الأمريكى . ولعل الفنانين والشعراء كانوا على حق . فلم تكن تقلبات التجارة أو الحرب بقادرة على أن تطفئ جذوة الذكرى التى يعتز بها ذلك القرن العجيب ١٤٨٠ — ١٥٨٠ — الذى أقام فيه مونشينيجو Mocenigo وپريولى Priuli ولورندانى Lorendani البندقية الإمبراطورية وأنجوها من الدمار ، والذى زينها فيه آل لمباردى ، ولپوپاردى بالتماثيل والأنصاب ، وتوج سانسوڤينو وپلاديو مياهها بالكنائس والقصور ، ورفع فيه بلينى ، وچيورچيونى ، وتيشيان ، وتنتورتو ، وڤيرونيزى ، مقامها فجعلوها زعيمة الفن فى إيطاليا ؛ والذى غنى فيه بمبو أغانى منزهة عن العيوب ، وأخرج فيه مانوتيوس Manutius لكل من يعنيهم الأدب ، تراث اليونان ورومة الأدبى ، وجلس فيه الشيطان المنكل بالأمراء ، ذلك الشخص الذى لا يعوض ، ولا يقهر ، جلس على عرش القناة الكبرى يحكم العالم ويعتصره .

الباب الثالث والعشرون

انحطاط عهد النهضة

١٥٣٤ – ١٥٧٦

الفصل الأول

اضمحلال إيطاليا

لم تكن الحروب التى اندلع لهيبها لغزو إيطاليا قد خبت نارها بعد ولكنها لقد غيرت وجه إيطاليا وطبيعة أهلها ؛ فالأقاليم الشمالية قد خربت تخريباً جعل مبعوثى هنرى الثامن يشيرون عليه بأن يتركها لشارل عقاباً له على ما فعل بها ؛ ونهبت جنوى ، وفرضت على ميلان ضرائب فادحة قاتلة ، وأخضع حلف كمبريه مدينة البندقية ، كما أضعفها وأذلها فتح الطرق التجارية الجديدة ؛ وقاست رومة ، وپراتو ، وپافيا الأمرين من جراء السلب والنهب ؛ وانتشرت المجاعة فى فلورنس واستنزفت مواردها المالية ، وكادت پيزا تدمر نفسها فى كفاحها لنيل حريتها ، وأما سينا فقد أنهكتها الثورات ، كما أفقرت فيرارا نفسها فى نزاعها الطويل مع البابوات ، وأتت بما يغض من كرامتها بتحريضها على الغزو المستهين لرومة . وحل بمملكة ناپلى ما حل بلمباردى من سلب ونهب وتخريب على أيدى الجيوش الأجنبية ، وذوى غصنها الرطيب زمناً طويلا كانت فيه خاضعة للأسر الحاكمة الأجنبية ؛ وصقلية ، وما أدراك ما صقلية ؟ لقد أضحت معششاً لقطاع الطرق ، وكانت السلوى الوحيدة

لإيطاليا هي أن خضوعها لشارل الخامس قد أنجاها في أغلب الظن من اجتياح الأتراك لها وانتهابهم إياها .

وانتقلت السيطرة على إيطاليا إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقية بولونيا (١٥٣٠) عدا أمرين اثنين : أولهما أن البندقية الحذرة احتفظت باستقلالها ، وثانيهما أن البابوية ، بعد أن حد من سلطانها ، قد أيدت سيادتها على ولايات الكنيسة . فأما نابلي ، وصقلية ، وسردينية ، وميلان ، فقد أصبحت تابعة لأسبانيا يحكمها ولاة من قبلها . وأما سافوى ومانتوا ، وفيرارا وأربينو وهي التي كانت عادة تؤيد شارل أو تغضى عن فعله فقد سمح لها بأن تحتفظ بأدواقها المحليين على شريطة أن يسلكوا مسلكاً حسناً في علاقاتهم بالإمبراطور . واحتفظت جنوى وسينا بشكلهما الجمهورى ، ولكنهما خضعتا للحماية الإسبانية ؛ وأرغمت فلورنس على قبول فرع آخر من آل ميديتشي حكاماً لها ، استبقوا لأنهم تعاونوا مع أسبانيا .

وكان فوز شارل مرحلة أخرى من مراحل انتصار الدولة الحديثة على الكنيسة ، لأن ما بدأه فليب الرابع عام ١٣٠٣ في فرنسا ، قد أتمه شارل ولوثر في ألمانيا ، وفرنسس الأول في فرنسا ، وهنرى الثامن في إنجلترا ، وقد حدث هذا كله في عهد بابوية كلمنت . ذلك أن دول أوربا الشمالية لم تكتشف ضعف إيطاليا وحسب ، بل إنها فضلا عن ذلك قد زال عنها خوفها من البابوية ؛ فقد أضعف إذلال كلمنت ما كان يشعر به الناس فيما وراء الألب من احترام للبابوات ، وهيأ عقولهم للخروج على سلطان الكنيسة الكاثولية .

وكان سلطان الأسبان على إيطاليا نعمة عليها وبركة من بعض الوجوه . فقد قضى هذا السلطان إلى حين على الحروب التي كانت تقوم بين الدويلات الإيطالية بعضها وبعض . كما قضى من عام ١٥٥٩ حتى عام ١٧٩٦ على المعارك التي كانت تدور رحاها بين الدول الأجنبية فوق الأراضي الإيطالية ؛

وأتاح للأهلين نظاماً سياسياً متصلا بعض الاتصال ، وهدأ من حدة الإنفرادية العارمة التي أوجدت النهضة ثم قضت عليها آخر الأمر . فأما الذين كانوا يرجون النظام ويسعون إليه فقد ارتضوا هذا الخضوع الذى أنجاهم من الفوضى ؛ وأما الذين كانوا يعتزون بالحرية فقد حزنوا لما أصابها بهذا السلطان . ولكن أكلاف السلم مع الخضوع للأجنبي وما فرضته على الإيطاليين من عقوبات ، سرعان ما أضرت باقتصاد إيطاليا وحطمت روحها المعنوية ؛ ذلك أن الضرائب الفادحة التي فرضها الولاة للاحتفاظ بمظاهر الأبهة لأنفسهم ولأداء رواتب الجند ونفقاتهم ، وصرامة قوانين أولئك الولاة ، واحتكار الدولة للحبوب وغيرها من ضروريات الحياة ، كل هذا أضر بالصناعة والتجارة ، يضاف إلى هذا أن الأمراء الإيطاليين ساروا هم أيضاً على سنة الولاة الأجانب ففرضوا أفدح الضرائب وأشدها فتكاً بالنشاط الاقتصادى الذى كان يمدهم بحاجتهم من المال ، وذلك لكيلا لا يكونوا أقل من الولاة خيلاء وترفاً . واضمحلت شئون النقل البحرى إلى حد لم يعد فى وسع السفن الإيطالية الكبيرة أن تحمى نفسها من قراصنة البربر الذين كانوا يهاجمون السفن والسواحل ، ويأسرون الإيطاليين ويبيعونهم عبيداً لسراة المسلمين ؛ ولم يكن الجنود الأجانب الذين يقيمون فى بيوت الإيطاليين على الرغم من سكانها ، أقل إضراراً بالإيطاليين من القراصنة أنفسهم ؛ فقد كان هؤلاء يجهرون باحتقارهم لهذا الشعب الذى لم يكن له من قبل نظير وحضارته التي لم تبلغ شأوها حضارة أخرى سابقة ؛ وكان لهؤلاء حظ وافر فيما اتسم به ذلك العصر من انحلال فى الأخلاق الجنسية .

وحلت بإيطاليا كارثة أخرى ، كانت أشد وقعاً عليها من أضرار الحرب والخضوع إلى الأسبان . تلك هى أن الطواف برأس الرجاء الصالح (١٤٨٨) ، وافتتاح الطريق المائى الكامل إلى الهند (١٤٩٨) ، قد أنقصا نفقات النقل بين الأمم الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى وبلاد آسية الوسطى

والشرق الأقصى عنها في الطريق المتعب فوق جبال الألب إلى جنوى أو البندقية ، ومن ثم إلى الإسكندرية ، ثم بطريق البر إلى البحر الأحمر ، ثم بالبحر مرة أخرى إلى الهند . يضاف إلى هذا أن سيطرة الأتراك على هذا الطريق الثاني قد جعلته غير مأمون ، ومعرضاً لأن تفرض على من يتبعونه الضرائب والرسوم الفادحة ، كما كان معرضاً لهجمات القراصنة ، وللحروب ، وينطبق هذا بعينه وبدرجة أكبر على الطريق المار بالقسطنطينية والبحر الأسود . وكانت نتيجة هذا التحول أن اضمحلت تجارة البندقية وجنوى وحال فلورنس المالية بعد عام ١٤٩٨ ، ولم يحل عام ١٥٠٣ حتى كان البرتغاليون يبتاعون من فلفل الهند قدراً لم يجد معه التجار البنادقة والمصريون من هذه السلعة ما يستطيعون إصداره(١) . وكانت نتيجة ذلك أن صعد ثمن الفلفل بمقدار ثلث ثمنه الأصلي في سوق البندقية التجارية ، على حين أنه كان يباع في لشبونة بنصف الثمن الذي يطلبه التجار في البندقية ! ولهذا شرع التجار الألمان يهجرون متاجرهم على ضفة القناة الكبرى ، وينقلون مشترياتهم إلى البرتغال . وكاد الحكام البنادقة يحلون هذه المشكلة في عام ١٥٠٤ حين عرضوا على حكومة المماليك القائمة وقتئذ في مصر الاشتراك معها في مشروع يهدف إلى إعادة طريق القناة القديم بين دال النيل والبحر الأحمر ، ولكن استيلاء الأتراك على مصر في عام ١٥١٧ قضى على هذا المشروع .

وفي ذلك العام نفسه علق لوثر مقالاته الثورية على باب كنيسة وتنبرج ، وكان الإصلاح الديني سبباً ونتيجة من أسباب اضمحلال إيطاليا الاقتصادي ونتائجه . أما أنه سبب لهذا الاضمحلال فيرجع إلى قلة وفود الحجاج ونقص إيراد الكنيسة من الأمم الشمالية إلى رومة ؛ وأما أنه نتيجة فلأنه استبدل بطريق البحر المتوسط ومصر إلى الهند الطريق المائي كله ، ونشأت التجارة الأوربية مع أمريكا التي أغنت بلاد المحيط الأطلنطي وكانت من أسباب فقر إيطاليا . فقد أخذت التجارة الألمانية يزداد انتقالها في نهر الرين إلى مصبه في بحر الشمال ، ويقل

تنقلها فوق الجبال إلى إيطاليا ، وأضحت ألمانيا مستقلة تجاريا عن إيطاليا ، وهكذا كان اتجاه التجارة نحو الشمال والقوة الجاذبة نحو الشمال سبباً فى انتزاع ألمانيا من المحيط التجارى والدينى الإيطالى ، واكتسابها القوة والإرادة اللتين أمكنها بهما أن تقف على قدميها بمفردها .

وكان لكشف أمريكا آثار فى إيطاليا أطول مدى مما كان لطريق الهند الجديد . فقد أخذت أمم البحر المتوسط تضمحل بعد هذا الكشف وتترك راكدة فى سير الركب الآدمى وانتقال التجارة ؛ وبرزت أمم المحيط الأطلنطى إلى مكان الصدارة ، بعد أن اغتنت من تجارة أمريكا وذهبها . وأحدث هذا انقلاباً فى الطرق التجارية أعظم من أى انقلاب آخر سجله التاريخ منذ فتحت بلاد اليونان القديمة لسفنها طريق البحر الأسود إلى أواسط آسية بعد انتصارها على طروادة . ولم يضارع هذا الانقلاب ويفقه فيما بعد إلا ما حدث من انقلاب فى الطرق التجارية على أثر استخدام الطائرات فى النصف الثانى من القرن الحالى .

وكان العامل الأخير فى اضمحلال النهضة هو حركة الإصلاح المضادة . فقد أضافت هذه الحركة إلى اضطراب أحوال إيطاليا السياسية وانحلالها الخلقى ، وإلى خضوعها لسلطان الأمم الأجنبية وما حل بها من الخراب على أيدى هذه الأمم ، وإلى تحول التجارة منها إلى أمم المحيط الأطلنطى ، وإلى ما خسرته من الموارد بسبب حركة الإصلاح الدينى ، نقول إن هذه الحركة أضافت إلى هذا كله تبدلا قوياً . ولكنه تبدل طبيعى فى أحوال الكنيسة وفى مسلكها . ذلك أن حركة الإصلاح الدينى الألمانية ، وانفصال إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية ، وزعامة أسپانيا فى القارة الأوربية ، قد قضت على « اتفاق السادة المهذبين » الذى لم تصغ نصوصه أو تدون ، والذى لم يدركه فيما نظن العاملون به ، وهو اتفاق كانت الكنيسة بمقتضاه ، فى أثناء ثرائها واطمئنانها على سلطانها ، تسمح بقسط كبير من حرية التفكير للطبقات

المفكرة ، على شريطة ألا تحاول هذه الطبقات إضعاف إيمان الناس أو خلق الاضطراب فيه ، لأن هذا الإيمان هو الخيال الذى لا غنى عنه لحياتهم ، وهو مصدر نظامها وسلوتها . فلما شرع الناس أنفسهم ينبذون عقائد الكنيسة وسلطانها عليهم ، ولما كسب الإصلاح الدينى أنصاراً له معتنقين مبادئه فى إيطاليا نفسها ، أوشك صرح الكثلكة كله أن يتصدع من أساسه ؛ وأجابت الكنيسة على هذا — وكانت ترى نفسها دولة ، فسلكت كما تسلك كل دولة يتعرض كيانها للخطر ، فبدلت خطتها من التسامح والحرية إلى تحفظ الخائف المرتاع وفرضت قيوداً شديدة على التفكير ، والبحث ، والنشر ، والقول . وكانت السيطرة الأسپانية تفرض الآراء الدينية والسياسية مجتمعة ؛ وكان لها نصيب فى تحويل كثلكة عصر النهضة اللينة إلى تزمت الكنيسة الصارم الذى التزمته بعد مجلس ترنت (١٥٤٥ — ١٥٦٣) . وجرى البابوات الذين جاءوا بعد كلمنت السابع على السنة التى سار عليها الأسپان وهى توحيد الكنيسة والدولة واستخدام القوة الناشئة من هذا التوحيد فى السيطرة الصارمة على الحياة الدينية والعقلية .

وكما أن رجلا أسپانياً هو الذى كان سبباً فى إنشاء محكمة التفتيش حين هددت ثورة الألبجنسيين الدينية فى القرن السادس عشر سلطان الكنيسة فى جنوبى فرنسا ، وكان من نتائج هذا التهديد أن قامت طوائف دينية جديدة لخدمة الكنيسة وتجديد حماسة المسيحيين الدينية ؛ حدث أيضاً فى القرن السادس عشر أن جاءت إلى إيطاليا صرامة محكمة التفتيش الأسپانية ، وكان رجل أسپانى هو الذى أنشأ نظام اليسوعيين — الجزويت (١٥٣٤) — تلك الجمعية العجيبة ، التى لم تكتف بقبول الأيمان التقليدية القديمة ، إيمان الفقر ، والعفة ، والطاعة ، بل تجاوزت ذلك إلى الخروج إلى العالم لتنشر الدين الصحيح ، ولتكافح فى كل مكان من العالم المسيحى الإلحاد أو الخروج على الدين . وكانت حدة الجدل الدينى فى عهد الإصلاح ، وكان تزمت المبادئ الكلفنية

وعدم تسامحها ، واضطهاد المذهبين المتعادين أحدهما للآخر فى إنجلترا ، كان هذا كله مشجعاً على وجود تعسف مقابل له فى إيطاليا(٣) ، وحلت مبادئ إجناشيوس ليولا Ignatius Loyala وجهاده الدينى محل مبادئ إرزمس الحرة المتحضرة ؛ ذلك أن الحرية ترف لا يكون إلا مع الأمن والسلم .

واتسع نطاق الرقابة على المطبوعات التى بدأت أيام البابا سكستس الرابع فوضعت فى عام ١٥٥٩ قوائم بالكتب المحرمة لخطرها على الدين أو الأخلاق ، وأنشئ مجلس لوضع قوائم التحريم فى عام ١٥٧١ . ويسر استعمال الطباعة أعمال الرقابة ، ذلك أن مراقبة الطابعين العموميين كانت أيسر من مراقبة الأفراد النساخين . وحدث فى البندقية التى كانت تكرم وفادة اللاجئين المفكرين والسياسيين أن شعرت الدولة نفسها بما فى الانقسام الدينى من ضرر على الوحدة الاجتماعية والنظام ، ففرضت (١٥٢٧) رقابة على المطبوعات ، وانضمت إلى الكنيسة فى منع نشر المطبوعات البروتستنتية . وقاوم الإيطاليون هذه الخطط فى أماكن متفرقة ؛ وبلغ من حنقهم على واضعيها أن الجماهير من أهل رومة ألقت بتمثال البابا بولس الرابع بعد موته (١٥٥٩) فى نهر التيبر ، وأحرقت المقر الرئيسى لمحكمة التفتيش ، وظلت النار مشتعلة فيه حتى دمرته عن آخره(٤) . لكن هذه المقاومة لم تكن منظمة بل كانت مفردة منقطعة ، وغير ذات أثر فعال ، وبذلك انتصر الطغيان ، واستحوذت على روح الإيطاليين التى كانت من قبل مرحة ، مبتهجة ، متدفقة ، نزعة من الاكتئاب ، والتشاؤم ، والاستسلام ، حتى لقد صارت عادة لبس الثياب السود — القلنسوة السوداء ، والصدارة السوداء ، والجورب الأسود ، والحذاء الأسود — صارت هذه العادة طراز إيطاليا التى كانت فى سالف الأيام مولعة بالألوان الزاهية ، كأن الشعب قد اتشح بالسواد حداداً على المجد الذى زال والحرية التى ماتت(٥) .

وصحب هذا الارتكاس الذهنى بعض التقدم الخلقى . فقد تحسن سلوك

رجال الدين بعد أن بعثت فيهم المذاهب المتنافسة روح الحمية ، فقام البابوات ومجلس ترنت بإصلاح كثير من مساوئ الكنيسة . وليس من السهل أن نقول هل حدث تحسين مثل هذا فى أخلاق غير رجال الدين ؛ ويبدو أن من السهل جمع بعض الشواهد الدالة على الشذوذ الجنسى ، وعلى وجود أبناء غير شرعيين ، وعلى مضاجعة المحارم ، وعلى ظهور الآداب البذيئة ، والفساد السياسى ، والسرقة ، والجرائم الوحشية فى إيطاليا بين عامى ١٥٣٤ — ٧٦ كما كانت تحدث فيها من قبل(٦) . وتدل سيرة بينڤينوتو تشلينى Beyenuto Cellini الذاتية على أن الفسق ، والزنا ، والسطو ، والاغتيال كانت تمتزج بعقائد ذلك العصر . وبقى القانون الجنائى على ما كان من قسوة فى سابق العهد : فالتعذيب كثيراً ما كان من الوسائل التى يلجأ إليها فى استخلاص الشهادة من الشهود ضد البريئين ، كما كان يلجأ إليه لانتزاع الاعتراف من المتهمين ، وكان لحم القاتلين لا يزال ينتزع بالكلابات المحمية الحمراء قبل أن يشنقوا(٧) . وكانت عودة الاسترقاق بوصفه نظاماً من النظم الاقتصادية الكبرى من أعمال ذلك العهد ، وشاهد ذلك أن البابا بولس الثالث حين أعلن الحرب على إنجلترا فى عام ١٥٣٥ قرر فى هذا الإعلان أن أى جندى بريطانى يؤسر فى هذه الحرب يصح أن يتخذ رقيقاً بحكم القانون(٨) ، ونشأت حوالى عام ١٥٥٠ عادة استخدام العبيد والمذنبين لجر سفن التجارة والحرب .

على أن بابوات ذلك العهد كانوا مع ذلك رجالا ذوى أخلاق عالية نسبياً فى حياتهم الخاصة . وكان أعظمهم جميعاً بولس الثالث — وكان بولس هذا هو بعينه ألسندرو فارنيزى الذى نال منصب الكردنال لما كان لشعر أخته الذهبى من أثر فى نفس الإسكندر السادس . ولسنا ننكر أن بولس هذا كان له ابنان غير شرعيين(٩) ، ولكن هذه كانت عادة مقبولة فى أيام شبابه ، وكان فى وسع جوتشياردينى على الرغم منها أن يصفه بأن « رجل يزينه العلم والأخلاق الفاضلة المرأة من كل عيب »(١٠) . وكان پمپونيوس

ليتوس Pomponius Laetus قد نشـأه على أن يكون من الكتاب الإنسانيين ، ومن أجل ذلك كانت رسائله تضارع رسائل إرزمس فى ظرف لغتها اللاتينية الفصحى ، وكان محدثاً مهذباً يحيط نفسه برجال قادرين ممتازين . على أن السبب فى اختياره للكرسى البابوى لم يكن لمواهبه وفضائله بقدر ما كان لكبر سنه وضعفه ؛ فقد كان فى سن السادسة والستين ، وكان فى وسع الكرادلة أن يثقوا بأنه سيموت بعد قليل ، ويتيح لهم فرصة أخرى للمساومة ونيل المناصب الكنسية التى تدر عليهم المال الوفير[١١] ، ولكنه ظل يقاوم رغباتهم خمسة عشر عاماً كاملا .

أما من حيث رومة ، فقد كانت مدة توليته البابوية من أسعد الأيام فى تاريخها . ففى أيامه كلف لاتينو مانتى Latino Manetto المشرف على المبانى فى أيامه أن يجفف الأرض ، ويسويها ، ويوسع الشوارع ويشق كثيراً من الميادين العامة الجديدة ، وأن يستبدل بالأحياء القذرة مبانى فخمة جميلة ، وحسن بهذه الطريقة أحد الشوارع الكبرى — المعروف باسم شارع بولس Paul's Codso — حتى أصبح يضارع شامب إليزيه Champs Elysées فى باريس . وكان أعظم أعمال بولس الدبلوماسية أنه أقنع شارل الخامس وفرانسس الأول بأنه يعقدا هدنة تدوم عشر سنين (١٥٣٨) . وكاد يصل إلى غرض عظيم نبيل — هو التوفيق بين الكنيسة وبين البروتستنتية الألمانية — لولا أن جهوده قد جاءت بعد الأوان . وقد أوتى من الشجاعة — التى يعوزها كلمنت السابع — ما جعله يدعو إلى عقد مجلس عام للكنيسة . ونشر مجلس ترنت المنعقد تحت رياسته بموافقته العقيدة الدينية الصحيحة ، وأصلح كثيراً من مساوئ رجال الدين ، وأعاد النظام والأخلاق الفاضلة بين القسيسين ، واشترك مع اليسوعيين فى منع الأمم اللاتينية من الانشقاق على الكنيسة الرومانية .

وكانت نقطة الضعف المفجعة فى بولس هى تحيزه لأقاربه ، فقد وهب

كميرينو Comerino لحفيده أتافيو ، وحبا ابنه پيرلويجى Pierluigi بپياتشيندسا وپارما . فأما پيرلويجى فقد اغتاله الأهلون الحانقون ، وأما أتافيو فقد انضم إلى مؤامرة دبرت ضد جده . ومل بولس بعد ذلك الحياة ، ومات بعد عامين من ذلك الوقت بسكتة قلبية فى سن الثالثة والثمانين (١٥٤٩) .
وحزن الرومان على موته كما لم يحزنوا على موت بابا آخر منذ أيام پيوس الثانى الذى جلس على كرسى البابوية قبل مائة عام من ذلك الوقت .

الفصل الثاني

العلم والفلسفة

ظلت إيطاليا تتقدم فى العلوم غير ذات الأثر فى اللاهوت تقدماً معتدلا إلى الحد الذى يمكن أن تتقدمه أمة يغلب عليها الميل إلى الفن والأدب ، وتنفر من النزعة العقلية التى قطعت الصلة بالضمير . وتزدان تلك الفترة القصيرة بأسماء ڤارولى Varoli ، ويوستاتشيو Eustachio ، وفالوپيو Fallopio الذين برزوا فى علم التشريح الحديث . وكشف نقولو تارتاجليا Niccolo Tartaglia طريقة لحل معادلات الدرجة الثالثة ؛ وأسر بطريقته إلى چيروم كاردان Jerome Cardan (چيرومينو كاردانو Geromino Cordano) الذى نشرها على أنها طريقته هو (١٥٤٥) . وتحداه تارتاجليا أن يدخل معه فى مبارزة جبرية ، يعرض فيها كلاهما إحدى وثلاثين مسألة يحلها الآخر . وأخفق التلميذ ونجح تارتاجليا ، ولكن كاردان كتب سيرة لنفسه عجيبة فاتنة خلدت اسمه على مر الأيام .

وتبدأ السيرة بالصراحة العجيبة التى تسرى فيها من أولها إلى آخرها :

ولدت فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٠١ مع أن أدوية لإجهاض أمى قد جربت ولم تفلح كما سمعت . . . . ومع أن المشترى كان فى الأوج والزهراء كانت تسيطر على طالعى ، فإنى لم أصب بعاهة تمنعنى من العمل الدائم ، إلا فى أعضائى التناسلية ، ولهذا فإنى ظللت من سن الحادية والعشرين إلى الحادية والثلاثين عاجزاً عن مضاجعة النساء ، وكثيراً ما رثيت لمصيرى وحسدت كل من عداى على حسن حظه ؟!

ولم تكن هذه عاهته الوحيدة ؛ فقد كان يتهته فى كلامه ، وظل طول

حياته يشكو بحة الصوت والرشح فى الحلق ، وكثيراً ما كان يصاب بعسر الهضم ، وخفقان القلب ، والفتق ، والمغص ، وزحار البطن ، والبواسير ، والنقرس ، والحكة فى الجلد ، وسرطان فى حلمة الثدى اليسرى ، وأصيب بالطاعون ، والحمى الثلاثية ، وكانت تنتابه « فترة سنوية من الأرق تدوم نحو ثمانين يوماً » . « وفى عام ١٥٣٦ أصابنى انطلاق البول بدرجة مدهشة كبيرة ، ومع أنى قد مضى على نحو أربعين عاما أقاسى شر هـــذا الداء ، فأفرز من البول ما بين ستين ومائة أوقية فى اليوم ، فإنى أعيش سليما فيما عدا ذلك »(١٣) .

وإذ كان قد وهب كل هذه التجارب الطبية ، فقد صار طبيباً ناجحاً ، داوى نفسه من كل داء تقريباً إلا داء الغرور ، واشتهر بأنه أكثر من يُسعى إليه من الأطباء فى إيطاليا ، وكان يطلب من بلاد بعيدة مثل اسكتلندة ليداوى رئيس أساقفة عجز عن مداواته نطس الأطباء ، فشفاه هو من مرضه . وألقى وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره محاضرات عامة فى العلوم الرياضية بميلان ، كما ألقى محاضرات فى الطب وهو فى سن الخامسة والثلاثين . وفى عام ١٥٤٥ نشر كتاباً يدعى **الفنون الكبرى** **Ars Magna** استعار عنوانه من ريمند للى **Raymond Lully** ، أضاف فيه معلومات قيمة إلى علم الجبر الذى لا يزال يتحدث عن « قاعدة كاردان » لحل المعادلات التكعيبية . ويبدو أنه هو أول من قال إن معادلات الدرجة الثانية قد تكون لها جذور سالبة . وقد بحث هو مع تارتاجليا وقبل ديكارت بزمن طويل فى إمكان استخدام الجبر فى الهندسة(١٤) . وبحث فى كتابه De Subtilitate Rerum (١٥٥١) فى موضوع التصوير بالألوان ، ولخص فى De Rerum Varietate (١٥٥٧) المعلومات الطبيعية المعروفة فى أيامه ، وهو مدين فى هذين الكتابين بالشىء الكثير لمخطوطات ليوناردو التى لم تكن قد نشرت وقتئذ(١٥) . وقد ألف وسط أمراضه ، وأسفاره ، ومتاعبه الشديدة المرهقة ٢٣٠ كتاباً ، طبع منها

حتى الآن ١٣٨ كتاباً ، وقد أوتى من الشجاعة ما يكفى لإحراق بعضها .

وعلم الطب فى جامعتى پاڤيا وبولونيا ، ولكنه كان يخلط علمه بالمعلومات السحرية الخفية ، وبالزهو الصارخ الذى أفقده احترام زملائه . وقد خصص مجلداً كبيراً لبحث العلاقات القائمة بين الكواكب ووجه الإنسان ؛ وبلغ من الخبرة والسخف فى تفسير الأحلام ما بلغه فرويد Freud . كما بلغ من قوة الإيمان بالملائكة الحافظين ما بلغه الراهب أنچيلكو . ولكنه مع ذلك ذكر أسماء عشرة رجال قال إنهم أصحاب أكبر العقول فى التاريخ ولم تكن كثرتهم الغالبة من المسيحيين : أرخميدس ، وأرسطو ، وإقليدس ، وأبولونيوس البرجاوى ، وارشيتاس التارنتومى Archytas of Tarentum والخوارزمى ، والكندى ، وابن جبير ، ودنز اسكوتس ، ورتشرد اسوينزهد Richard Swineshead — وكلهم من العلماء ما عدا دنز اسكوتس . وخلق كاردان لنفسه مائة عدو ، وجلب على نفسه ألف تهمة مزورة ، وكان تعيساً غير موفق فى زواجه ، وحاول عبثاً أن ينقذ ابنه الأكبر من الإعدام لأنه سم زوجة خائنة . ثم انتقل إلى رومة فى عام ١٥٧٠ ، واعتقل فيها إما لأنه مدين ، وإما لأنه ملحد ، أو لكلتا التهمتين معاً ، ولكن جريجورى الثالث عشر أطلق سراحه ورتب له معاشاً سنوياً .

كتب وهو فى سن الرابعة والسبعين كتاب سر حياتى De vita propria liber — وهو إحدى ثلاث سير ذاتية ألفت فى تلك الفترة من الزمن فى إيطاليا . وقد حلل نفسه فى هذا الكتاب بثرثرة وأمانة قريبتين كل القرب من ثرثرة منتانى وأمانته — حلل جسمه ، وعقله وخلقه ، وعاداته ، وميوله ما يحب وما يكره ، فضائله ، ورذائله ، وأسباب شرفه وعدم شرفه ، وخطاءه ، ونبوءاته ، وأمراضه ، وتقلباته ، وأحلامه . هو يتهم نفسه بالعناد ، والحقد ، وعدم الألفة مع بنى جنسه ، والتسرع فى أحكامه والخصام ، والغش فى لعب الميسر ، والميل إلى الانتقام ، ويذكر : « تبدل

الحياة الفاجرة التي كنت أحياها فى العام الذى كنت فيـه مديراً لجامعة بدوا »[١٦] . ويذكر قوائم : « بالأشياء التي أشعر أنني أخفقت فيها » وخاصة حسن تربية أبنائه ، ولكنه أيضاً يورد أسماء ثلاثة وسبعين كتاباً ذكر فيها اسمه ، ويحدثنا عما كان له من كثير من ضروب العلاج الناجحة والتنبوءات الصادقة ، وعن مقدرته الفائقة فى المناقشات . وهو يأسف لما أصابه من ضروب الاضطهاد ، وللأخطار « التى أحاطت بى بسبب آرائى التى لا تتفق مع السنن المألوفة »[١٧] ، ويسأل نفسه ، « أى حيوان أراه أشد غدراً ، وخسة ، وخداعا من الإنسان ؟ » ثم لا يجيب عن هذا السؤال ، ولكنه يسجل أشياء كثيرة توفر له السعادة ، منها التغير ، والطعام ، والشراب ، وركوب البحر ، والموسيقى ، ومناظر الدمى المتحركة ، والقطط ، والعفة ، والنوم ، ويقول : « إذا نظرت إلى جميع الأغراض التى قد يبلغها الإنسان ، خيل إلى أن أعظم ما يسبب لى السرور منها هو الاعتراف بالحقيقة »[١٨] . وكان مطلبه المحبب إليه هو دراسة الطب ، الذي ابتكر فيه كثيراً من أنواع العلاج المدهشة .

ذلك أن الطب كان هو العلم الوحيد الذى تقدم تقدماً ملحوظاً فى هذه الفترة من فترات الاضمحلال فى إيطاليا . وقد قضى أعظم علماء ذلك العصر كثيراً من السنين فى إيطاليا يتعلمون ويعلمون — كوبرنيق من ١٤٩٦ إلى ١٥٠٦ ، وفيساليوس Vesalius من ١٥٣٧ إلى ١٥٤٦ ، ولكننا ليس من حقنا أن نختلسهما من بولندة وفلاندرز لنزيد بذلك من تكريم إيطاليا . وقد شرح ريالدو كولمبو Realdo Colombo الذى خلف فيساليوس فى منصب أستاذ التشريح فى جامعة بدوا دروة الدم فى الرئتين فى كتابه ده ره أناتمكا De re Anatomica (فى التشريح) ، وأكبر الظن أنه لم يكن يعلم أن سفيرتوس Severtus قد وضع هذه النظرية نفسها قبله باثنتى عشرة سنة . وكان كولمبو يشرح جثث الموتى من الآدميين فى بدوا وروما ، دون معارضة من رجال الدين

كما يلوح[١٩] . ويبدو كذلك أنه كان يشرح الكلاب . وكشف جبريلي فالپيو ، أحد تلاميذ فيساليوس القنوات النصف الدائرية والعصب السمعي للأذن ، والقناتين اللتين تسميان باسمه(*) واللتين تنقلان البيض من المبيض إلى الرحم . كذلك كشف بارتولميو أوستاكيو القناة الأوستاكية في الأذن والصمام الأوستاكي في القلب ، ونحن مدينون له أيضاً باكتشاف العصب المُبعِّد ، والأجسام الفوكلية (التي فوق الكليتين) ، والقناة النحرية . ودرس قسطنطسو ڤارولي Costanzo Varoli قنطرة ڤارولي — وهي كتلة من الأعصاب عند السطح السفلي للمخ .

وليس لدينا أرقام نعرف منها ما كان للكشوف الطبية من أثر في إطالة العمر في عصر النهضة . ولكنا نعرف أن ڤارولي توفي في الثانية والثلاثين من عمره ، وأن ڤالپيو مات في سن الأربعين ، وكولمبو في الثالثة والأربعين ، وأوستاكيو في سن الخمسين . ثم نعرف بعكس هذا أن ميكل أنچيلو عاش حتى بلغ التاسعة والثمانين ، وأن تيشيان عاش إلى التاسعة والتسعين ، ولويجي كرنازو كاد يبلغ مائة عام . وقد ولد لويجي هذا في البندقية عام ١٤٦٧ ، وكان يملك من المال ما يكفي لأن يجعله يستمتع بجميع أنواع الملاذ من طعام ، وشراب ، وحب . « وكان من نتائج هذا الإفراط أن وقع فريسة لعدة أمراض ، كآلام المعدة ، والآلام الكثيرة في الجنب ، وأعراض داء الرثية .. والحمى غير الشديدة التي لا تكاد تفارقني . . . والظمأ الذي لا يرتوي أبداً ؛ ولم تترك لي هذه الحال السيئة أملا أرتجيه إلا أن يقضي الموت على متاعبي » . ولما بلغ سن الأربعين ترك الأطباء جميع الأدوية وأشاروا عليه بأن أمله الوحيد في الشفاء هو « الاعتدال والحياة المنظمة . . . فلا أتناول من الطعام الصلب أو السائل إلا ما يصفونه للمرضى ، وحتى هذا يجب ألا أتناول منه إلا مقادير قليلة » . وكان يسمح له بتناول اللحم وشرب النبيذ ، على شرط أن يعتدل

(*) يقصد قناتي فلوب وهما قناتان في إناث الثدييات .   (المترجم)

فيهما ، وما لبث أن أنقص مقادير طعامه وشرابه إلى اثنتى عشرة أوقية من الطعام وأربع عشرة من النبيذ . ويقول لنا إنه لم تمض على ذلك سنة واحدة حتى « وجدت أنى قد شفيت شفاء تاماً من جميع أمراضى . . . وتحسنت صحتى تحسناً تاما ، وبقيت كذلك من ذلك الوقت إلى الآن »(٢٠) . أى إلى سن الثالثة والثمانين . وقد وجد كذلك أن هـذا النظام وذاك الاعتدال فى العادات الجسمية يخلقان نظائر لهما فى الصفات والصحة العقلية ، « فقد بقى مخه صافياً على الدوام ، . . . » وفارقته « الكآبة ، والكراهية ، وغيرهما من الانفعالات » . وحتى حاسة الجمال نفسها قد قويت لديه ، وبدت له جميع الأشياء الجميلة أبدع مما كانت فى أى وقت من الأوقات الماضية .

وقضى فى پدوا شيخوخة هادئة ناعمة ، قام فيها بأعمال عامة وأغدق عليها المال ، وكتب وهو فى سن الثالثة والثمانين سيرته الذاتية المسماه Discorsi della vita sobria . وقد صوره لنا تنتورتو فى صورة لطيفة : نراه فيها أصلع الرأس ولكنه متورد الوجه ، صافى العينين نفاذهما ، ذا تجاعيد فى وجهه تنم عن حب الخير ، ولحية بيضاء قلل من شعرها مر السنين ، ويدين لا تزالان تكشفان عن شباب أرستقراطى ، وإن كان قد قرب من الموت . وإن تجاوزه سن الثمانين ليبعث فينا الشجاعة حين تراه يسخر من الذين يظنون أن الحياة بعد السبعين ليست إلا تأجيلا للموت وأنها حياة سقم تافهة لا معنى لها :

ألا فليأتوا وينظروا ، إلى صحتى الجيدة ، ويعجبوا كيف أمتطى صهوة الجواد دون مساعدة ، وكيف أصعد الدرج مهرولا والتل مسرعاً ، وليروا ابتهاجى ، ومرحى ، ورضائى ، وتحررى من الهم والأفكار غير السارة ، إن الطمأنينة والبهجة لا تفارقنى أبداً . . . . وكل حواسى (بحمد الله !) على أحسن حال بما فيها حاسة الذوق ؛ ذلك أنى أستمتع بالطعام البسيط الذى أتناوله باعتدال أكثر من استمتاعى بشهى الطعام الذى كنت أطعمه فى

سنى حياتى المضطربة . . . . وإذا ما عدت إلى بيتى فإنى لا أرى أمامى حنيداً أو حفيدين بل أبصر أحد عشر من الأحفاد الصغار . . . . وأبتهج حين أسمعهم يغنون ويعزفون على آلات موسيقية مختلفة . وأنا نفسى أغنى وأدرك أن صوتى أحسن ، وأكثر صفاء ، وأعلى نغمة مما كان فى أى وقت مضى . . . . فحياتى إذن حية لا ميتة ، ولست أرغب فى أن أستبدل بشيخوختى شباب الذين يعيشون عبيداً لشهواتهم[٢١] .

وكتب فى السادسة والثمانين وهو « ممتلئ عافية وقوة » بحثاً ثانياً ، يعبر فيه عن سروره لأن عدداً من أصدقائه سلكوا سبيله فى الحياة ، وأخرج فى الحادية والتسعين من عمره بحثاً ثالثاً حدثنا فيه كيف « أكتب على الدوام ، وبيدى ، ثمانى ساعات فى اليوم ، . . . . وأنا فضلا عن هذا أرتاض ، وأغنى ساعات أخرى كثيرة . . . لأنى أحس حين أغادر المائدة أن لابد لى أن أغنى . . . . ألا ما أحلى ما صار إليه صوتى وما أقواه ! » . وألف وهو فى الثانية والتسعين نصيحة مبعثها الحب . . . إلى جميع بنى الإنسان يحضهم فيها على انتهاج سبيل الحياة المنتظمة المعتدلة »[٢٢] . وكان يتطلع إلى أن يتم مائة عام ، وأن يموت ميتة سهلة ، بعد أن تنقص فيها قوة حواسه ومشاعره ، ونشاطه الحيوى نقصاً تدريجياً . ومات ميتة هادئة فى عام ١٥٦٦ ، فى التاسعة والتسعين كما يقول البعض ، وفى الثالثة أو الرابعة بعد المائة كما يقول غيرهم . وعملت زوجته ، كما يقال بنصائحه ، وعاشت حتى كادت تبلغ المائة وماتت فى أتم ما يطلبه المرء من راحة الجسم وطمأنينة النفس »[٢٣] .

ولسنا نتوقع أن نجد فيلسوفا كبيراً فى هذا الحيز الصغير من المكان والزمان . لكننا نجد فيهما مع ذاك عدداً من الفلاسفة نذكر منهم ياقوبو أكنذسيو Jacopo Aconzio وهو بروتستنتى إيطالى كتب رسالة سماها De Methoda (١٥٥٨) مهد فيها بعض السبيل إلى ديكارت ، ثم كتب رسالة أخرى سماها De Stralagimatibus Satanae (١٥٦٥) أوتى فيها

من الجرأة ما جعله يسير إلى أن جميع المسيحيين يمكن أن يجمعوا على عدد قليل من العقائد يعتنقونها كلهم لا تدخل فيها فكرة التثليث[٢٤]. وشق ماريو نتسولى Mario Nizzoli الطريق إلى فرانسس بيكن يقدحه فى سيطرة أرسطو على الفلسفة ، وأخذ يطالب بالملاحظة المباشرة واطراح الاستدلال العقلى ، ويندد بعلم المنطق ويسميه الفن الذى يثبت أن الخطأ صواب[٢٥]. وانضم برناردينو تيليزيو Bernardino Telesio من أهل كوسيندسا Cosenza فى كتابه De rerum natura (١٥٦٥ — ١٥٨٦) إلى نتسولى Nizzoli وپيير لا راميه Piere la Rameé فى نشر الثورة على سلطان أرسطو ، والدعوة إلى العلوم التجريبية ، وقال إن الطبيعة يجب أن تفسر نفسها بنفسها عن طريق التجارب التى تتلقاها حواسنا . ويقول تيليزيو إن ما نراه هو المادة تعمل فيها قوتان ، الحراره الآتية من الجو ، والبرودة الخارجة من الأرض ؛ فالحرارة تنتج التمدد والحركة ، والبرودة تؤدى إلى الانكماش والسكون . وفى اصطراع هذين المبدأين يكمن الجوهر الداخلى لكل الظواهر الطبيعية وتسير هذه الظواهر وفق علل طبيعية ، وقوانين متأصلة فيها ، دون أن تتدخل فى ذلك قوة إلهية : على أن الطبيعة نفسها ليست راكدة هامدة ، بل إن للجمادات نفسا كما للإنسان . وقد استمد تومسو كمپانيلا Thomasso Campanes ، وجيوردانو برونو Giordano Bruno ، وفرانسس بيكن شيئا من هذه الأفكار فيما بعد . وما من شك فى أن قسطا من الحرية والتسامح قد بقى فى الكنيسة جعلها تسمح بأن يموت تيليزيو ميتة طبيعية (١٥٨٨) ، أما بعد موته باثنتى عشرة سنة فإن محكمة التفتيش قد أحرقت برونو فوق المحرقة .

الفصل الثالث

الأدب

انتهى فى ذلك الوقت عهد العلم ودراسته فى إيطاليا : وأمسكت فرنسا بشعلة العلوم حين هاجر يوليوس قيصر اسكاليجر من ڤيرونا إلى أجن Agen فى عام ١٥٢٦ . وخليق بنا ألا ننسى أثر الحرب فى تجارة الكتب ، وفى وسعنا أن نتبين هذا الأثر من الإحصاء التالى : نشرت فلورنس فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر ١٧٩ كتابا ، ونشرت ميلان ٢٢٨ ، ونشرت رومة ٤٦٠ ، والبندقية ١٤٩١ . أما فى العقد الأول من القرن السادس عشر فقد نشرت فلورنس ٤٧ كتابا ، وميلان ٩٩ ، وروما ٤١ ، والبندقية ٥٣٦[٢٦] . وقضى فى ذلك العهد على المجامع العلمية التى أنشئت للدراسات القديمة — المجمع الأفلاطونى فى فلورنس ، والمجمع الرومانى الذى أنشأه پمپونيوس ليتوس ، والمجمع الجديد فى البندقية ، ومجمع ناپلى الذى أنشأه بنتانوس Pontanus . وأضحت دراسة الفلسفة الوثنية مغضوباً عليها إذا استثنينا دراسة فلسفة أرسطو بعد أن استحالت فلسفة كلامية (مدرسية) ؛ وحلت اللغة الإيطالية محل اللاتينية بوصفها لغة الأدب . ونشأت فى ذلك الوقت مجامع علمية جديدة ، وأكثر ما تخصصت فيه النقد الأدبى واللغوى ، وكانت مراكز لتبادل المستمعين إلى شعراء المدينة : ففى فلورنس وجد مجمع دلا كرسكا Della Crusca (١٥٧٢) وأوميدى Umidi ، وفى البندقية أنشئ مجمع پيليجرينى Pellegrini ، وفى پدوا وجد مجمع إيريتى Eretei ، واتخذ كل مجمع لنفسه اسما أكثر من هذه سخفا . وكانت هذه المجامع تشجع الفراهة وتخنق العبقرية ، فقد كان الشعراء يبذلون غاية جهدهم لإطاعة القواعد التى يضعها الذين يهتمون بانتقاء الألفاظ ، ولهذا فر الإلهام إلى ملاجئ أرحب

وأكثر حرية : ولم يكن ميكل أنچيلو من المنتمين إلى أى مجمع أدبى ، ومع أنه كان يفعل ما يفعله غيره فيطلق لخياله العنان فى الإتيان بالرث البالى من الأفكار ، وحشر لهيب حماسته فى قوالب من الأدب فاترة شبيهة بقوالب پترارك الأدبية ، فإن أغنياته الفجة الخشنة فى شكلها القوية فى شعورها وتفكيرها هى خير ما كتب من الأدب الإيطالى فى ذلك العهد . وفر لويچى ألامانى Luigi Alamami من فلورنس إلى فرنسا ، وأنشأ قصيدة فى الزارعة — La Coltivazione (*) — لا تنقص كثيراً عن قصائد ڤرچيل المعروفة بالزواعيات Georgics فى جمعها بين الحرث والشعر . وكرر برناردو تسّو فى ذكره لمآسى حياته ما حل من محن بولده الشهيد توركواتو Torquato ، وإن أغانيه الشعرية لمن أكثر الأغانى تكلفاً فى ذلك العصر . وقد كتب ملحمة تدعى أماديچى Amadigi روى فيها بالشعر الثقيل الممل قصة الفروسية المسماة أماديس الغالى Amadis de Gaul . لكن الجمهور الإيطالى لم يجد فيها ما يجده فى ملحمة أريستو من فكاهة عالية منعشة للنفس فتركها تموت موتاً هادئاً .

أما القصة القصيرة novella فقد بقيت واسعة الانتشار محببة للشعب منذ وهبتها قصص ديكمرون صورتها التى كانت لها عند اليونان والرومان الأقدمين . وكانت تكتب فى لغة سهلة ، وتصف عادة أحداثاً مسرحية أو مناظر داخلية فى الحياة الإيطالية . وكانت جميع طبقات الشعب ترحب بهذه القصص ، وكثيراً ما كانت تقرأ بصوت عال للمستمعين المتلهفين على سماعها ، وكان أكثرهم لهفة على الاستماع لها هم العامة الجهال ، ولهذا كان المستمعون لها هم جميع الإيطاليين . ولا يسعنا فى هذه الأيام إلا أن نعجب من تسامح النساء فى عصر النهضة اللاتى كن يستمعن إلى هذه القصص

(*) شارك ألامانى ترسينو Trissino وچيوڤنى رتشيلاى Rucellai فيما امتازا به من أنهما من أوائل من كتبوا بالشعر (المرسل) فى إيطاليا .

دون أن تعروهن فيما نعرف حمرة الخجل . فقد كان الحب ، وإغواء النساء ، والاغتصاب ، والمغامرات ، والفكاهة ، والعاطفة ، ووصـــف المناظر الطبيعة — كانت هذه هى مادة القصص ، وكانت كل طبقة من طبقات المجتمع تمدها بالشخصيات وأنماط الحياة .

وكادت كل مدينة تحتوى على كاتب ماهر فى الصورة التى يختارها لقصصه . فنى سالرنو نشر توماسو ده جواردانى Tomasso de Guardati المعروف باسم ماسوتشيو Masuccio فى عام ١٤٧٦ خمسين قصة من هذا النوع سماها Novellino ، يشيد فيها بكرم الأمراء ، وتبذل النساء ، ورذائل الرهبان ، ونفاق جميع بنى الإنسان . وهى أقل صقلا من قصص بوكاتشيو القصيرة ، ولكنها كثيراً ما تفوقها إخلاصاً ، وقوة ، وفصاحة . وفى سينا اتخذت القصة القصيرة صيغة شهوانية ، فامتلأت صفحاتها بقصص وثنية عن الحب المبتذل . وأنجبت فلورنس أربعة من كتاب القصص الذائعى الصيت Novellieri ، هم فرانكو ساكتى Franco Sacchetti صديق بوكاتشيو ومقلده ، الذى فاقه بأن كتب ثلثمائة قصة قصيرة ، كان انحطاطها وبذاءتها سبباً فى أن يقرأها كل إنســان تقريباً . وخصص أنجولو فيرندسولو Angolo Firenzulo كثيراً من قصصه للتنديد بآثام رجال الدين ، فوصف فيها ما يحدث فى أحد الأديرة ذات السمعة السيئة ؛ وفضح الأساليب التى يلجأ إليها من يتلقون الاعتراف فيغرون الصالحات من النساء بأن يوصين بمالهن إلى الأديرة ، وانخرط هو بعدئذ فى ســلك الرهبان من طائفة ڤلمبروز Vallombrosan order . وبرع أنطون فرانتشيسكو جراتسينى Anton Francesco Grazzini ، المعروف فى إيطاليا باسم ال لاسكا Il Lasca أى الروش(*) Roach ، فى كتابة القصص الفكاهية ، ويشبه فى هذا الماجن پيلوكا Pilucca ولكنه يستطيع أيضاً أن يضيف إلى فكاهاته الأمور

(*) سمك أوربى يعيش فى الماء العذب فضى اللون . (المترجم)

الجنسية وسفك الدماء . فقد روى مثلا قصة زوج فاجأ زوجته وهى تزنى مع ولده ، فقطع أيديهما وأقدامهما ، وسمل أعينهما ، وقطع لسانهما وترك الدم ينزف منهما حتى ماتا على فراش الحب . وطرد أنطون فرانتشيسكو دونى Anton Francesco Doni وهو راهب وقس سرفيني من دير البشارة (١٥٤٠) متهما ، فيما يبـــدو باللواط ؛ وانضم فى پياتشنسا إلى ناد من الفجار عبدة الشهوات ، ثم قدم إلى البندقية وكان فيها عـــدو أريتينو الألد ، وكتب فى الطعن عليه كتيبا سمى بذلك الاسم المنذر بسوء عقباه ، وهو « زلزال دونى الفلورنسى ، وتدمير الصنم الكبير عدو المسيح الوحشى فى عصرنا » ؛ وكان فى هذه الأثناء يكتب قصصا تشتهر بفكاهتها اللاذعة وأسلوبها القوى .

وكان أحسن كتاب القصص فى ذلك الوقت هو ماتيو بانديلو Matteo Bandello الذى طاف فى حياته بنصف قارة وعاش نصف قرن (١٤٨٠ — ١٥٦٢) ؛ وكان مولده بالقرب من تورتونا Totona ؛ ولهذا لم يلبث أن انضم إلى طائفة الرهبان الدمنيك الذين كان عمه زعيمهم . ونشأ فى دير سانتا ماريا دلى جرادسى بميلان ؛ ويبدو أنه كان فى ذلك الدير حين رسم ليوناردو صورة العشاء الأخير فى مطعمه ، وحين دفنت بيتريس دست فى الكنيسة المجاورة له . وقضى فى مانتوا ست سنين من حياته مربيا لأبناء الأسرة المالكة ، وغازل فيها لكريدسيا جندساجا ، وأبصر إزبلا وهى تقاوم بكل ما كان لديها من فنون أثر الشيخوخة . ولما عاد إلى ميلان عاون الفرنسيين معاونة جدية ضد القوات الألمانية — الأسبانية فى إيطاليا ؛ ولما حلت الكارثة بالفرنسيين فى پاڤيا حرق بيته ، ودمرت مكتبته تدميرا لايكاد يبقى لها آثرا ، وكان من بين ما فيها معجم لاتينى أوشك أن يتمه . وفر وقتئذ إلى فرنسا ، والتحق بخدمة سيزارى فريجوسو Cesare Fregoso ، زعيم طائفة الرهبان الدمنيك ، وأخلص له ، وعين أسقف آجن (١٤٥٠) ؟

وقد جمع فى ساعات فراغه ٢١٤ قصة كتبها فى حياته السابقة ، وصقلها الصقل الأدبى الأخير وغشى ما فيها من فحش قليل بالمغفرة التى نالها من الأساقفة ، ثم طبعها فى لوكا فى ثلاثة مجلدات (١٥٥٤) ، اتبعها بمجلد رابع فى ليون ١٥٧٣) .

وتدور حبكة القصص عند بانديلو فى الأعم الأغلب ، كما تدور عند غيره من كتاب القصة على الحب أو العنف ، أو على أخلاق طوائف الإخوان والرهبان ، والقسيسين . ففيها فتاة حلوة تثأر لنفسها من محب خائن فتمزقه إرباً بكماشات ؛ وزوج يرغم زوجته الزانية على أن تخنق عاشقها بيديها ؛ وفيها دير ترك للدعارة يوصف بفكاهة حلوة لا يمجها الذوق : واستمدت من قصص بانديلو مادة للمسرحيات المثيرة ؛ من ذلك أن وبستر Webster استمد من واحدة منها حبكة مسرحية **دوقة مالفى** .

ويروى بانديلو بشعور فياض وحذق عظيم قصة روميو منتيشيو Romeo Montecchio ، وجيوليتا كاپيليتى Giulietta Capeletti ، وينقل فى وضـــوح قوة حبهما . وها نحن أولاء نقتطف مثلا من خير ماكتبه فى الحب :

ولم يجد روميو فى نفسه من الشجاعة ما يستطيع به أن يسأل من هى الفتاة ، فأخذ يمتع عينيه بمنظرها الجميل ، ويتأمل بدقة حركاتها وسكناتها ، وتجرع سم الحب الحلو الشهى ، وأخذ يثنى ثناء عجيباً على كل جزء من أجزاء جسمها ، وكل حركة من حركاتها . وكان يجلس فى ركن مر فيه من أمامه جميع من فى الحفل حين اقترب موعد الرقص . وكانت چيوليتا (وهذا هو اسم الفتاة) ابنة رب الدار الذى أقام الحفل . وسرت هى أيضاً أيما سرور بمنظر روميو ، وإن لم تكن تعرفه ، ولكنها رأته مع ذلك أجمل الشبان وأكثرهم مرحاً فى الخلق كلهم ؛ وقفت لحظة قصيرة تختلس إليه النظرات الرقيقة من طرف عينيها ، وأحست فى قلبها بحلاوة أفاضت

عليها من البهجة ما لاحد له . وتمنت وقتئذ أن يشترك فى الرقص ، كى تستطيع أن تراه وتستمع إلى حديثه خيراً من ذى قبل ، فقد خيل إليها أن كلامه يستفيض منه البهجة ، التى تتلقاها من عينيه وهى تنظر إليه ؛ ولكنه كان وقتئذ يجلس وحيداً لا يبدو عليه أى ميل للرقص ؛ وكل ما كان يفعله هو أن يغازل الفتاة الحسناء وكل ما كانت تفكر فيه هى أن تتطلع إليه . وهكذا أخـذ كلاهما ينظر إلى الآخر نظرات تلتقى خلالها أعينهما وتمتزج أشعة نظراتهما بعضها ببعض ، أدركا معها فى خفة أن الحب قد سرى فى روحيهما ، وكلما التقت أعينهما ، امتلأ الهواء بزفير حبهما ، وخيل إليهما أن كل ما يرغبان فيه وقتئذ هو أن يكشف كلاهما للآخر عما دب فى قلبه من لهيب(٢٧) .

وخاتمة القصة عند بنديلو أدق منها عند شيكسبير . فرميو عنده لا يموت قبل أن تقوم جوليت من سباتها ، وهى تستيقظ قبل أن يشعر روميو بأثر السم الذى شربه حين استولى عليه اليأس بعد أن رآها ميتة فى الظاهر . ويبلغ منه السرور من شفائها مبلغاً ينسى معه السم ، ويستمتع العاشقان بلحظات من الحب العارم . وحين يفعل السم فعله القوى ، ويموت روميو ، تقتل جوليت نفسها بطعنة من سيفه(*) .

(*) أخذ شيكسپير القصة من التاريخ المفجع لروميوس وجوليت Tragical History of Romeus and Juliet تأليف أرثر بروك Arthur Broke (١٥٦٢) ، ولكن بروك نقلها عن ماسوتشيو أو بنديلو . كذلك عرف شيكسپير القصة من « قصر الفرحة » Palace of Pleasure لوليم پينتر William Painter (١٥٦٦) ، الذى أخذها من بنديلو .

الفصل الرابع

صحوة السحر فى فلورنس : ١٥٣٤-١٥٧٤

إن حكم الدولة فى أثناء اضمحلالها أسهل من حكمها فى إبان شبابها ، ذلك أن نقص الحيوية يكاد يجعل أهلها يرحبون بالخضوع . ومصداقاً لذلك نرى فلورنس بعد أن أخضعها آل ميديتشى مرة أخرى لسلطانهم (١٥٣٠) تخضع منهوكة القوى لسيطرة كلمنت السابع ؛ نعم إنها ابتهجت حين قُتِل ألسندرو ده ميديتشى بيد لورندسينو Loreuzino أحد أقاربه البعيدين (١٥٣٧) ؛ ولكنها لم تنتهز هذه الفرصة لإعادة الجمهورية ، بل قبلت حاكماً آخر من آل ده ميديتشى راجية أن يظهر مثل ما أظهره أول رجال الأسرة من حكمة وحسن سياسة . وبجلوس هذا الحاكم انتهى من الوجهة القانونية فرع الحكام المنحدرين مباشرة من كوزيمو **أبى الوطن** ، لأن الحاكم الجديد من أبناء أخ لكوزيمو هذا أكبر منه يسمى أيضاً لورندسو (١٣٩٣ — ١٤٤٠) . وكان جوتشياردينى هو الذى رفع هذا الحاكم الجديد إلى العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره راجياً أن يكون هو القوة المحركة من خلفه . غير أنه نسى أن الميديتشى الشاب هو ابن چيوڤنى دل باندى نيرى وحفيد كترينا اسفوردسا ، وأن دماء جيلين على الأقل من ذوى البأس الشديد تجرى فى عروقه وأمسك كوزيمو بيديه أزمة الأمور وظل قابضاً عليها بقوة سبعة وعشرين عاماً .

وكان فى خلقه كما كان فى حكمه يجمع بين الشر والخير . فكان صارماً قاسياً إلى الحد الذى تمليه عليه السياسة غير العاطفية ؛ فلم يكن يشغل نفسه كما كان غيره من آل ميديتشى الأولين يشغلون أنفسهم بالمحافظة على مظاهر

الحكم الجمهوري وأشكاله ؛ وقد وضع نظاماً للتجسس تغلغل في داخل كل أسرة ، واتخذ من قساوسة الأبرشيات أنفسهم عيوناً له[٢٩] ؛ وأرغم الناس على الجهر بعقائد دينية واحدة . وتعاون مع محكمة التفتيش ؛ وكان شرها في طلب الثروة والسلطان . ، استغل احتكار الدولة للحبوب ، وفرض على رعاياه أفدح الضرائب ، وقضى على حكومة سينا شبه الجمهورية ، لكي يجعل هذه المدينة جزءاً من أملاكه كما كانت أرتسو وبيزا جزءاً منها ، وأقنع البابا پيوس الخامس بأن يمنحه لقب كبير أدواق تسكانيا (١٥٦٩) .

وعوض البلاد بعض التعويض عن استبداده وانفراده بالحكم بأن نظم لها إدارة حكومية حازمة صالحة ، وجعل لها جيشاً وشرطة تعتمد عليهما ، ونظاماً قضائياً قديراً لا يتطرق إليه الفساد . وكان بسيطاً في معيشته ، يتجنب الاحتفالات والمظاهر الكثيرة النفقة ، وراعى في إدارته المالية الاقتصاد بل الشح ، وترك لابنه من بعده خزانة عامرة بالأموال . وكان النظام والأمن السائدان في الشوارع والطرق العامة سبباً في انتعاش التجارة والصناعة بعد أن أصابتهما الضربات القاصمة من جراء الثورات المتتابعة . وأدخل كوزيمو صناعات جديدة ، كصناعتي المرجان والزجاج ، واستقدم اليهود من البرتغال وبسط عليهم حمايته لينشط بذلك نمو البلاد الصناعي ، ووسع رقعة ليغورنو (Leghorn) وجعل منها ثغراً نشيطاً دائم الحركة . وجفف مستنقعات مارما Maremma ليطهر هذا الإقليم ومدينة سينا المجاورة له من الملاريا . واستمتعت سينا ، كما استمتعت فلورنس ، أثناء حكمه الاستبدادي الصالح بالرخاء أكثر من ذي قبل . واستعان بجزء من الأموال التي جمعها على مناصرة الأدب والفن في غير إسراف ، وكان يميز في ذلك بين الغث والثمين ؛ ورفع الأكاديميا دجلي أوميدي Accademia degli Umdi إلى مكانة رسمية فجعلها مجمع فلورنس العلمي ، وعهد إليها أن تضع القواعد التي تجب مراعاتها في اللغة التسكانية الفصيحة . واتخذ ڤاساري وتشليني صديقين له .

وبذل جهداً كبيراً ليقنع ميكل أنچيلو بالعودة إلى فلورنس ، وأنشأ مجمعاً للتخطيط Arte del Designo كان هو رئيس شرف له . وأقام فى پيزا (١٥٤٤) مدرسة لعلم النبات لا يفوقها فى قدم عهدها وفى مكانتها إلا مدرسة پدوا . وما من شك فى أن فى وسع كوزيمو أن يقول إنه لم يكن يستطيع فعل هذا الخير كله لو لم يبدأ بقليل من الشر ولم يقبض على الحكم بيد من حديد .

ولم يبلغ هذا الدوق صاحب اليد الحديدية الرابعة والخمسين من عمره حتى كان عبء السلطة والمآسى العائلية قد أنهكه وهد قواه ، فأما المآسى العائلية فنذكر منها أن زوجته واثنين من أبنائه ماتوا فى خلال بضعة أشهر فى عام ١٥٦٢ ، وكان سبب موتهم حمى الملاريا التى أصيبوا بها أثناء اشتغاله بتجفيف مناقع مارما . ثم ماتت ابنة له بعد عام من ذلك الوقت . وفى عام ١٥٦٤ عهد بحكم البلاد الفعلى إلى ابنه فرانتشيسكو ، وحاول أن يواسى نفسه بالحب والغرام ، ولكنه وجد فى التنقل بين العشيقات من الملل أكثر مما وجد منه فى الزواج . ومات فى عام ١٥٧٤ فى الخامسة والخمسين من عمره ، وقد جمع من الصفات أحسن ما كان لأسلافه وشر ما كان لهم .

ولسنا ننكر أن فلورنس لم تنتج فى ذلك الوقت رجالا من طراز ليوناردو أو ميكل أنچيلو ، ولم يكن فيها فى ذلك العهد فنانون يضارعون تيشيان الرجل المتحضر العالمى الصيت أو تنيتورتو الثائر أو ڤيرونيز الفرح الطروب ؛ ولكنها مع ذلك قد حدثت فيها فى عهد كوزيمو الثانى نهضة بلغت من القوة الحد الذى يمكن أن يتوقعه الإنسان من جيـل نشأ بين الثورات المخفقة ، والهزائم العسكرية . لكن تشيلينى رغم هذا يحكم على الفنانين الذين استخدمهم كوزيمو بأنهم « عصبة لا يوجد لها الآن مثيل فى العالم كله »[٣٠] . وذلك تعبير جرى عليه الفلورنسيون فى بخس فن البندقية . وكان بينيڤنوتو يرى أن الدوق نصير للفن تذوقه له أكبر من سخائه عليه ؛ ولكن لعل هذا الحاكم القدير كان يرى أن التعمير الاقتصادى والتنظيم السياسى أكثر أهمية

من الزخرفة الفنية فى بلاطه . ويصف فاسارى كوزيمو بأنه « يحب جميع الفنانين ويقربهم ، بل أنه فى واقع الأمر يحب ويقرب جميع العباقرة » . وكان كوزيمو هو الذى قدم المال اللازم لأعمال الحفر فى كيوزى Chuisi وأرتسو وغيرهما والتى كشفت عن حضارة تسكانية رائعة ، وأظهرت التماثيل التسكانية الذائعة الصيت تماثيل **الخيميرا** (*) ، **والخطيب** ، **ومنيرفا** . وقد ابتاع كل ما استطاع أن يعثر عليه من الكنوز الفنية التى نهبت من قصر آل ميديتشى فى عامى ١٤٩٤ ، ١٥٢٧ ؛ وأضاف مجموعاته الخاصة إلى ما ابتاعه ، ووضع كل ما جمعه فى القصر الحصين الذى بدأ لوكا پتى بتشييده قبل ذلك الوقت بمائة عام . وقد كلف كوزيمو المهندس بارتولميو أماناتى بتوسيع هذا الصرح الرهيب واتخذه مسكنه الرسمى (١٥٥٣) .

وكان أماناتى وفسارى فى فلورنس زعيمى فن العمارة فى ذلك العصر . وكان أماناتى هو الذى وضع لكوزيمو تصميم حدائق بوبولى Boboli خلف قصر پتى ، وأقام فوق نهر الآرنو جسر سانتاترينيتا (الثالوث المقدس) الجميل (١٥٦٧ — ١٥٧٠) — الذى دمر أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان إلى ذلك مصورا ومثالا جليل القدر ؛ فاز فى مسابقة للنحت على تشيلينى وچيوڤنى دابولونيا ونحت تمثال **يونو** الذى يزدان به بهوبارجلو . وقد اعتذر فى شيخوخته عن كثرة ما نحت من الأشكال الوثنية : ذلك أن النهضة الوثنية كانت قد وصلت الآن إلى آخر الشوط ، وأخذت المسيحية تستعيد سيطرتها على عقول الإيطاليين .

واتخذ كوزيمو باتشى باندينيلى Bacci Bandinelli مثاله الأثير لديه ، وأغضب بذلك تشيلينى أشد الغضب . وكان من ضروب التسلية التى يستمتع بها كوزيمو أن يستمع إلى تشيلينى وهو ينتهر باندينيلى : وكان باتشيو معجباً

(*) الخيميرا Chimera كائن خرافى فى الأساطير اليونانية يقذف من باطنه باللهب ، له رأس أسد وجسم ماعز ، وذنب أفعى . (المترجم)

بنفسه . وقد أعلن عن عزمه على أن يتفوق على ميكل أنچيلو ، وبلغ من قسوته فى نقد غيره من الفنانين أن واحداً من أشدهم ظرفاً حاول أن يقتله . وكان كل إنسان تقريباً يبغضه ، ولكن كثرة ما عهد إليه من الأعمال فى فلورنس وروما توحى بأن مواهبه كانت خيراً من أخلاقه . ولما أن أراد ليو العاشر أن يحصل على صورة أخرى من مجموعة اللوقون التى فى قصر بلقدير يهديها إلى فرانسس الأول ، طلب الكردنال بيبيئا إلى بنديليلى أن يقوم بهذه المهمة ، فما كان من باتشيو إلا أن وعد بأن يعمل صورة تفوق الأصل ، وروّع الناسُ جميعاً أنه كاد ينجز ما وعد . وسر كلمنت السابع من نتيجة عمله سروراً حمله على أن يرسل بعض الأصول القديمة الأصيلة إلى فرانسس ويحتفظ هو بالنسخة التى نقلها عنها باتشيو ليضعها فى قصر آل ميديتشى بفلورنس ، ومن هذا القصر انتقلت إلى معرض أفيتسى . ونحت باندينيلى لكلمنت وألسندرو ده ميديتشى مجموعة ضخمة هى مجموعة **هرقول وكاكوس** التى وضعت فوق مدخل قصر فتشيو إلى جوار تمثال داود لميكل أنچليو . ولم يحز هذا التمثال رضاء تشيلينى ، وقال لبنديليلى فى حضرة كوزيمو : « لو أن هرقول فى مجموعتك قد قُص شعره لما كان له من الجمجمة ما يتسع لمخه ... وإن كتفيه الثقيلتين لتذكران الإنسان بالسلتين الموضوعتين على برذعة حمار . وصدره وعضلاته ليست منقولة عن الطبيعة بل هى منقولة عن كيس من البشمام التالف[٣١] . أما كلمنت نفسه فكان يرى أن تمثال **هرقول** من أروع الآيات الفنية ، وأجاز عليه المثال بقدر كبير من المال فضلا عن الأجر الذى وعده ؛ ورد باتشيو على هذه التحية بأن أطلق اسم كلمنت على ابن غير شرعى رزقه بعد موت البابا بزمن قليل . وكان آخر ما قام به من الأعمال قبر أعده هو لنفسه ولأبيه . وما كاد يتم حتى شغله (١٥٦٠) . وأكبر الظن أنه كان ينال اليوم أكثر مما ناله من انتشار الصيت لو أنه لم يتعرض للتشنيع من فنانين يستطيعان أن يكتبا وأن يصورا معاً هما

ڤاساری وتشیلینی ؛ فقد شنعا علیه تشنیعاً لم یمحه مر القرون ؛

وكان چيوڤني ده بولونيا منافسا لبندنيلي . ولكنه كان أظرف منه وألطف خلقا . وقد ولد فى دويه Doui ولكنه انتقل وهو شاب إلى رومة (١٥٦١) ، معتزما أن يكون مثالا . وبعد أن قضى فيها عاما فى الدراسة قدم نموذجاً لعمله من الصلصال إلى ميكل أنچليو وكان وقتئذ شيخا طاعنا فى السن ؛ فأمسك به المثال الشيخ وضغط عليه بأصابعه : بإبهامى يديه وسبابتيهما فى مواضع متفرقة منه ، ولم تمض إلا بضع لحظات حتى سواه أحسن مما كان ؛ ولم ينس چيوڤني قط هذه الزيارة ، وظل طوال الأعوام الأربعة والثمانين الباقية من حياته يعمل لكى يبلغ ما بلغه الفنان العظيم . ثم غادر رومة عائداً إلى فلاندرز ، ولكن شريفا من أهل فلورنس أشار عليه بأن يدرس التحف الفنية المجموعة فى فلورنس ، واستبقاه فى قصره لهذا الغرض ثلاث سنين . وكان فى المدينة أو فيما حولها كثيرون من الفنانين الإيطاليين النابهين ؛ ولذلك لم يستطيع الفنان الفلمنكى أن يستلفت الأنظار لعمله إلا بعد خمس سنين حين ابتاع فرانتشيسكو ابن الدوق كوزيمو صورة له تمثل ڤينوس . ثم اشترك فى مباراة لتصميم فسقية لقصر السيادة Piazza delln Signoria ؛ ورأى كوزيمو أنه أصغر سنا من أن يقوم بهذه المهمة ، ولكن كثيرين حكموا بأن النموذج الذى صنعه هو كان خير النماذج كلها ؛ وأكبر الظن أنه هو الذى دعى بسببه إلى أن يقيم فسقية أكبر منها فى بولونيا . واستدعى چيوڤني بعدئذ مرة أخرى إلى فلورنس ليكون المثال الرسمى لآل ميديتشى ، وتوالت عليه المهام من ذلك الحين فلم ينقطع عن العمل فى يوم من الأيام ؛ ولما عاد مرة ثانية إلى رومة ، قدمه فاسارى إلى البابا على أنه « أمير المثالين فى فلورنس »[٣٢] . وهنا وضع نموذجاً لمجموعة من التماثيل توجد الآن فى شرفة لاندسى Loggia dei Lanzi ، وسميت فيما بعد اغتصاب السابينيين وتتكون من بطل قوى مفتول العضلات يمسك

بيده امرأة بارعة الجمال ضغطت يده وهو يرفعها على جسمها اللين ، ويعد ظهرها أجمل ما صور من البرنز فى عصر النهضة كله .

وكان المثالون متفوقين على المصورين فى الحشد المتألق الذى يحف بكوزيمو وفى تقدير كوزيمو نفسه . ولقد حاول ريدلفو جرلندايو Ridolfo Ghirlandaio أن يحتفظ بالمستوى الرفيع الممتاز الذى بلغه والده ، ولكنه عجز عن الاحتفاظ به ؛ وفى وسعنا أن نقدره بالنظر إلى صورته التى رسمها للكريدسيا سماريا Lucrezia Summaria والموجودة الآن فى واشنجتن . وكان فرانتشيسكو أوبرتينى Francesco Ubertini ، الملقب سخرية البكيكا il Bachiacca ، يحب أن يرسم المناظر التاريخية وأن يدخل فيها كثيراً من الدقائق وفى حجم صغير . وتجمعت فى ياقوبو كاروتشى Jacopo Carrucci ، المسمى بنتورمو نسبة إلى مسقط رأسه ، كل الميزات وبدأ حياته بداية طيبة . وأخذ الفن على أيدى ليوناردو ، وپيرو دى كوزيمو ، وأندريا دل سارتو ، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره (١٥١٣) هز مشاعر عالم الفن بصورة ضاعت الآن استثارت إعجاب ميكل أنچيلو ، ووصفها ڤاسارى بأنها « أجمل مظلم شوهد حتى ذلك الوقت[٣٣] ». ولكن بنتورمو Pontormo لم يلبث أن عشق نقوش دورر Dürer ، فتخلى عما فى الطراز الإيطالى من نعومة فى الخطوط وتآلف فى التأليف ، مما أثار عليه ثائرة الإيطاليين ، وفضل عليهما الأساليب الجرمانية الفجة الثقيلة ، وصور رجالا ونساء فى أوضاع من الاضطراب الجسمى أو العقلى ، وصور بنتورمو فى مظلمات فى تشيرتوزا بهذا الطراز التيوتونى مناظر مستمدة من آلام المسيح . ولم يرض ڤاسارى عن هذا التقليد وقال فيه : « ألم يعلم بنتورمو أن الفلمنكيين والألمان يأتون ليأخذوا عنا الطراز الإيطالى الذى يبذل ما يبذل من الجهد للتخلى عنه كأنه طراز غث لا قيمة له ؟ » . ولكن ڤاسارى رغم غضبه هذا يقر بروعة هذه المظلمات . وزاد

بنتورمو فنه تعقيدا على تعقيده حين أصيب بداء الخوف ، فلم يكن يسمح بأن يذكر الموت فى مجلسه ، وأخذ يتجنب الحفلات والزحام ، خشية أن يحشر فيها فيقضى عليه ؛ وكان يرتاب فى جميع الناس عدا تلميذه المحبوب برندسينو Bronzino ، وإن كان هو نفسه شفيقا دمث الأخلاق ؛ وأخذ ينشد الوحدة ويزداد حباً لها على مر الأيام ، واعتاد أن ينام فى حجرة فى طابق علوى لا يمكن الوصول إليها إلا بسلم يرفعه من ورائه بعد أن يصعد إليها . وظل يعمل وحيدا أحد عشر عاما فى آخر مهمة كلف بها — وهى رسم مظلمات فى معبد سان لورندسو ؛ فكان يأتى إلى المعبد ولا يسمح لأحد غيره بدخوله ؛ ومات (١٥٥٦) قبل أن يتم العمل فيه ؛ ولما أن أزيح الستار عن الصور تبين أنها غير محكمة النسب ، وأن الوجوه ثائرة أو محزونة . وخير لنا أن نذكره بعمل من الأعمال التى قام بها وهو ناضج سليم العقل ، وهو صورة جميلة لإجولينو مارتيلى Ugolino Martelli توجد الآن فى واشنجتن — ويرتدى صاحبها قبعة لينة مراشة ، وله عينان ساهمتان مفكرتان ، وأثواب براقة ، ويدان نقيتان .

وارتفع شأن أنيولو دى كوزيمو دى ماريانو Agnolo di Cosimo di Mariano ، الملقب برندسينو Bronzino بعد أن رسم طائفة من الصور معظمها يمثل آل ميديتشى . ويحتوى قصر هذه الأسرة على عدد كبير منها تبدأ من كوزيمو الأكبر أبى الوطن وتنتهى بالدوق كوزيمو ، وإذا جاز لنا أن نحكم عليها من وجه ليو العاشر المنتفخ قلنا إنها فى كثير من الأحيان صور صادقة . وخيرها كلها صـــورة جيوفنى دلى باندى نيرى (المحفوظة فى أفيدسى) — وكأنها صورة لنابليون نفسه قبل أن يكون بونابرت — ويظهر فيها وسيم الخلق ، متكبرا ، ينفث النار .

وأكبر الظن أن أحب الفنانين للدوق كوزيمو هو الرجل الذى يدين له هذا السفر — كما يدين له كل كتاب عن النهضة الإيطالية — بنصف

حياته ؛ ونعني به چيورچيو ڤاساري ، وقد نبغ قبله من بين أبناء الأسرة التي ينتمي إليها في أرتسو عدد من الفنانين ؛ وكان يمت بصلة بعيدة إلى لوكا سنيورلى Luca Signorelli ، ولقد حدثنا هو أن المصور الشيخ حين رأى رسوم چيورچيو وهو لا يزال بعد غلاما شجعه على أن يدرس الرسم . وحدثت في لحظة من لحظات النبل والشهامة التي لا يحصى عديدها ، والتي لا يصح أن نغفل عنها حين نحكم على أخلاق النهضة ، نقول إنه حدث في لحظة من تلك اللحظات أن أخذ الكردنال پسيريني Passerini ؛ وكان قد عين وصيا على إپوليتو وألسندرو ده ميديتشي ، چيورچيو إلى فلورنس ، حيث اشترك الشاب البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة مع الفنيين وريثي الثراء والسلطان ، وأصبح من تلاميذ أندريا دل سارتو وميكل أنچيلو ، وظل إلى آخر أيام حياته يجل بونارتي ويعبده عبادة رغم أنفه المحطم .

وعاد چيورچيو إلى أرتسو بعد أن طرد الميديتشيون من فلورنس عام ١٥٢٧ . ومات والده بالطاعون ولما يتجاوز هو الثامنة عشرة من العمر ، فألفى نفسه العائل الأكبر لأخواته الثلاث ولأخويه الصغيرين . ووجد مرة أخرى من يرحمه وينقذه من ورطته : ذلك أن زميله القديم في التلمذة إپوليتو ده ميديتشي دعاه إلى رومة ، حيث أكب ڤاساري على دراسة الفن القديم وفن النهضة ؛ فلما كان عام ١٥٣٠ دعاه ألسندرو صاحب فلورنس ، بعد أن عادت الأسرة إلى حكمها مرة أخرى ، إلى الإقامة في قصر آل ميديتشي ونقشه . وفيه رسم صورا لهذه الأسرة من بينها صورة للورنسو الأفخم ، نراه فيها قانطا مكتئبا ، وأخرى لكترينا الشابة المرحة — واقفة في نزوة من نزوات الخيال ، كأنها كانت تدرك في ذلك الوقت أنها ستكون ملكة فرنسا . ولما اغتيل ألسندرو قضى ڤاساري بعض الوقت يجول حائراً بلا نصير . ويقسو النقاد على صوره ، ولكن

الذى لاشك فيه أنه نال بسببها بعض الشهرة ، لأنا نجد چيوليو رومانو يأويه فى داره فى مانتوا كما نجد أريتينو البذىء فى البندقية يصاحبه ويحميه . وكان أينما ذهب يدرس فن البيئة التى يقيم فيها ، ويتحدث إلى الفنانين أو إلى أبنائهم وأحفادهم ، ويجمع الرسوم ويدون المذكرات . ولما عاد إلى رومة رسم لبندو التوڤيتى Bindo Altoviti صورة **الخلع من الصليب** ، وهى الصورة التى يقول عنها إنه « كان من حسن حظها أنها لم تغضب أعظم مثال ، ومصور ، ومهندس عاش فى أيامنا » .

وكان ميكل أنچيلو نفسه هو الذى عرفه بالكردنال ألسندرو فرنيزى الثانى ، وهذا الحبر المثقف هو الذى أشار على ڤاسارى فى عام ١٥٤٦ بأن يؤلف لهداية الخلف كتاباً فى سيرة الفنانين الذين رفعوا اسم إيطاليا فى القرنين السالفين . وبينا كان ڤاسارى يعمل بجد فى التصوير وهندسة العمارة فى رومة ، وريمينى ، وراڤنا ، وأرتسو ، وفلورنس ، كان يقتطع جزءاً من وقته لذلك العمل المجهد الذى لا ينال من ورائه جزاء يذكر وهو كتابه **السير** « مدفوعاً إلى ذلك بحب فنانينا هؤلاء » . وفى عام ١٥٥٠ نشر الطبعة الأولى من **حياة كبار المصورين ، والمثالين ، والمهندسين الإيطاليين الممتازين** ومعه إهداء بليغ للدوق كوزيمو .

وكان فيما بين عامى ١٥٥٥ و ١٥٧٢ أكبر الفنانين عند كوزيمو . فأعاد تنظيم قصر ڤيتشيو من الداخل ، ونقش كثيراً من جدرانه بصور تنزع إلى الضخامة أكثر مما تنزع إلى الفخامة ؛ وشاد مبنى الإدارة الرحب المعروف باسم الأفيتسى لوجود المكاتب الحكومية به ، والذى أصبح الآن من أكبر المعارض الفنية فى العالم . وكان هو المشرف على إتمام بناء المكتبه اللورنثية ، والذى شاد الدهليز المغطى الذى استطاع كوزيمو بفضله أن يمر سراً من قصر ڤيتشيو ومن الأفيتسى إلى جسر ڤيتشيو ثم إلى مسكن الأدواق الجديد فى قصر پتى . وفى عام ١٥٦٧ قضى عدة أشهر فى الترحال والبحث ،

ثم أخرج بعد عام من ذلك الوقت طبعة جديدة من السير أكبر كثيراً من الطبعة الأولى . ومات فى فلورنس فى عام ١٥٧٤ ودفن مع أسلافه فى أرتسو.

وبعد فإن ڤاسارى لم يكن فناناً عظيما ، ولكنه كان رجلا عظيما ، وباحثاً مجداً ، وناقداً كريماً ذكياً (إذا استثنينا بعض لمزات قليلة وجهها لبنديتلى). وقد ألف لنا كتاباً من أمتع ما كتب فى جميع العصور استمدت منه آلاف مؤلفة من الكتب ، وكتبه باللغة التسكانية السهلة الأصلية التى تكاد تكون عامية ، وتبلغ أحياناً من الوضوح ما تبلغه لغة القصص . والكتاب غنى بالأخطاء التى تدل على عدم الدقة ، وبالمتناقضات فى الأزمنة التاريخية ، ولكنه أغنى من ذلك بالمعلومات الفاتنة الساحرة ، وبالشروح الحكيمة الصادقة . وقد فعل للفنانين الإيطاليين فى عهد النهضة ما فعله أفلوطرخس لأبطال اليونان والرومان العسكريين والمدنيين ، وسيظل قرونا طوالا فى المستقبل من أكبر الذخائر فى عالم الأدب .

الفصل الخامس

بينفينوتو تشيليني : ١٥٠٠ — ١٥٧١

كان يعيش فى بلاط كوزيمو فى ذلك الوقت رجل يجمع فى أخلاقه بين العنف ورقة الشعور ، وبين كل المطالب الجنونية للجمال فى الحياة والفن ، وبين البهجة التى تبعثها صحة الجسم ، والحذق ، والسلطان ، التى امتاز بها عهد النهضة . وكان إلى هذا كله مالكاً لتلك الموهبة التلقائية التى تمكنه من أن يعبر عن أفكاره ومشاعره ، وتقلبات حظه ، ومزاياه فى سيرته الذاتية التى تعد من أكثر السير متعة وأبقاها على الأيام . ولم يكن بينفينيوتو المثل الكامل لعبقرية النهضة — وفى الحق إنا لا نستطيع أن نجد رجلا واحداً يمثل تلك العبقرية أكمل تمثيل ؛ ذلك أنه ينقصه تقوى أنجيلكو ، ودهاء مكيفلى ، وتواضع كستجليونى ، وجذل رفائيل ودماثة خلقه ؛ وما من شك فى أن الفنانين الإيطاليين فى ذلك العهد لم يتحكموا كلهم فى القانون كما يشاءون وكما كان بينفينوتو يتحكم فيه : ولكننا حين نقرأ قصته المضطربة القلقة ، نحس بأن كتابه يرجع بنا إلى ما وراء مظاهر النهضة ، إلى قلبها نفسه ، أكثر مما يرجع بنا أى كتاب سواه .

وهو يبدأ كتابه بهذه العبارة التى تجرد القارئ من كل سلاح يريد أن يوجهه إليه :

« يجب على جميع الرجال ، أيا كانت صفتهم ، إذا كانوا قد قاموا بعمل ممتاز ، أو شبيه شبهاً حقاً بالعمل الممتاز ، وإذا كانوا ممن يتصفون بالصدق والأمانة ، يجب على هؤلاء جميعاً أن يكتبوا حياتهم بأيديهم ، ولكن عليهم ألا يبدءوا هذه المغامرة الظريفة الجميلة حتى يصلوا إلى ما بعد سن الأربعين . وقد خطر لى أنا نفسى أن أقوم بهذا الواجب ، بعد أن جاوزت سن

الثامنة والخمسين ، وبعد أن جئت لأقيم فى فلورنس مسقط رأسى :

ويفخر بأنه « ولد وضيعاً » ، وأنه أذاع شهرة أسرته ، ويؤكد لنا فى الوقت نفسه أنه من نسل ضابط من ضباط يوليوس قيصر ، ويحذرنا بقوله « إنه لا بد أن يوجد فى عمل كهذا ما يدعو بطبيعة الحال إلى التفاخر الذى هو من طبيعة الإنسان »[٣٥] . وقد سمى بينفينوتو — مرحباً — لأن أبويه كانا ينتظران أن تولد لهما بنت ، فلما جاءهما ولد دهشا دهشة الفرح . وقد عمر جـــده مائة عام (وأكبر الظن أنه خالف حكم كرنارو بأجمعها) وورث تشيليني حيويته ، وأتى فى إحدى وسبعين سنة قدر ما أتاه هذا الجد فى مائة السنين . وكان والده مهندساً ، وحافراً للعاج ، ومولعاً بالناى ؛ وكان أمله المرتجى أن يكون بينفينوتو نافخاً فى الناى محترفاً فى فرقة موسيقية ببلاط آل ميديتشى . ويبدو أنه قد وجد فى سنيه الأخيرة من السرور حين سمع أن ابنه قد أصبح نافخاً فى الناى فى فرقة البابا كلمنت الخاصة ، أكثر مما وجد فى الصياغة التى كان الشاب يكسب منها المال والشهرة .

ولكن بينفينوتو كان مولعاً بالأشكال الجميلة أكثر من ولعه بالأصوات المتناغمة . وقد رأى بعض أعمال ميكل أنچيلو ، واستثار الفن كامن شعوره ؛ ودرس الرسوم التمهيدية لصورة **واقعة بيزا** ، وبلغ من تأثره بها أن بدا له سقف معبد سستينى نفسه أقل روعة منها . وذهب ليتمرن عند صانع مخالفاً فى ذلك إلحاح أبيه ، ولكنه أراد أن يسترضى أباه فواصل المران على الناى البغيض ؛ وعثر فى بيت فليپنولى على كتاب ذى صور تمثل آثار رومة الفنية القديمة . وكان يتحرق شوقاً لىرى بعينى رأسه تلك النماذج الذائعة الصيت ، وكثيراً ما تحدث إلى أصدقائه عن رغبته فى الذهاب إلى العاصمة . وبينا كان هو وشاب آخر ممن يحرقون الخشب يدعى جيامباتستا تاسو Ciambattista Tasso يسيران إلى غير مكان مقصود ويتحدثان بعواطف ثائرة ، إذ وجدا نفسيهما عند باب سان پيرو جتولينى San Piero Gatolini ؛ وقال بينفينوتو إنه يحس

بأنه قد قطع نصف المسافة من فلورنس إلى رومة . وازداد الصديقان جرأة فظلا سائرين ، ميلا بعد ميل ، حتى بلغا سينا التى تبعد عن فلورنس ثلاثة وثلاثين ميلا . وهنا آلمت جيان قدماه وعجز عن مواصلة السير من فرط الألم . وكان مع تشيليني من المال ما يكفى لاستئجار حصان ، ركبه الشابان « وقطعنا الطريق كله إلى رومة ونحن نغنى ونضحك . وكنت وقتئذ فى التاسعة عشرة من عمرى . وكانت هـــذه هى السنين التى انقضت من ذلك القرن »(٣٦) .

ووجد فى رومة عملا فى الصياغة ، ودرس الآثار القديمة ، وكسب من المال ما يكفى لأن يرسل منه إلى أبيه مبالغ واسعة خففت عنه آلام الفرقة . ولكن الأب الشيخ الواله ألح عليه بالعودة إلحاحا لم يسغ بينفينوتو معه إلا أن يعود إلى فلورنس ؛ ولم يكد يستقر فيها حتى طعن شابا فى أثناء شجار ؛ وظن أنه قتل الشاب ، ففر مرة أخرى إلى رومة (١٥٢١) ، وانكب على دراسة صور ميكل أنجيلو فى معبد سستينى ، وصور رفائيل فى بيت آل تشيجى الريفى والفاتيكان ، ولاحظ جميع الأشكال والخطوط الطريفة فى الرجال والنساء ، والمعادن ، وأوراق الشجر ، وسرعان ما أصبح أبرع الصائغين فى رومة . وأعجب كلمنت ببراعته فى النفخ فى الناى ، ثم كشف قدرته الممتازة على التصوير . وصنع له تشيلينى قطعا من النقود بلغت من الجمال درجة لم يسع البابا معها إلا أن يعينه « رئيس الدمغ فى دار السكّ » ، أى مصمم النقد للولايات البابوية . وكان لكل كردنال فى ذلك الوقت خاتم ، قد يصل حجمه فى بعض الأحيان « إلى حجم رأس طفل فى الثانية عشرة من عمره » ، يستعمله فى بصم الشمع الذى يختم به رسائله ؛ وكانت قيمة بعض هذه الأختام تبلغ مائة كرون (١٢٥٠ ؟ دولاراً) . وأخذ تشيلينى يحفر الأختام وقطع النقود ، ويقطع الجواهر ويركبها ، ويضع نماذج للمدليات ، وينقش الأحجار الكريمة ، ويصنع مئات التحف من الفضة والذهب ،

وكتب فى ذلك يقول إن هذه « النواحى الفنية المختلفة يختلف بعضها عن بعض أتم اختلاف ، ولهذا فإن الذى يبرع فى واحدة منها ، إذا انتقل إلى أخرى ، يصعب عليه أن يبلغ فى الثانية ما بلغه من النجاح فى الأولى ؛ ولذلك بذلت كل ما أوتيت من جهد لكى أتقنها جميعاً ؛ وسأثبت فى المكان المناسب أننى أصبت هدفى »(٣٧) .

ولا تكاد تخلو صحيفة من صحف بينفينوتو من فخر وزهو ، ولكن فى زهوه من الحماسة والإصرار ما يحملنا آخر الأمر على تصديقه . وهو يحدثنا عن « جمال وجهه ، وتناسب أجزاء جسمه » ، ولا نستطيع أن ننكر عليه هذا الحديث ، ويقول : « لقد وهبتنى الطبيعة مزاجاً سعيداً ، ومعارف ممتازة ، استعطت بفضلها أن أتقن كل ما شئت أن أتولاه من الأعمال » . وكان من بين من اتصلت بهم « فتاة بارعة الجمال ، غاية فى الرشاقة ، اعتدت أن أتخذها نموذجاً لى . . . وكثيراً ما قضيت الليل معها . . . وإنى لأستغرق أحياناً فى النوم العميق بعد الاستمتاع باللذة الجنسية »(٣٨) . وقد استيقظ مرة من نوم كهذا ليجد نفسه مصاباً « بالمرض الفرنسى » . لكنه شفى منه بعد خمسين يوماً واتخذ لنفسه عشيقة أخرى .

وفى وسعنا أن نلمح ما كانت عليه حياة المدن فى القرن السادس عشر من خروج على القوانين الأخلاقية والمدنية حين ندرك السهولة التى كان تشيلينى يعصى بها أوامر الكنيسة والدولة دون حياء ولا وخز ضمير . ويبدو أن روما لم يكن فيها وقتئذ شرطة قوية تعمل باستمرار ، فكان فى وسع الرجل ذى الغرائز أن يكون هو قانون نفسه ، بل إنه كان يضطر إلى ذلك اضطرارا فى بعض الأحيان . وكان بينفينوتو إذا استثير « يحس بحمى لو أنه كتمها فى نفسه لقضت عليه لا محالة »(٣٩) ، وإذا أساء إلى إنسان « ظننت أن من واجبى أن أعمل ، وأن ألحن آلامى »(٤٠) . وقد تورط فى مئات من المشاحنات ، ويؤكد لنا أنه كان على حق فيها جميعاً عدا واحدة منها . وقد

طعن رجلا أساء إليه بخنجر فى عنقه وكانت الطعنة فى دقة طعنات المصارعين فى ميادين الجلاد قضت على حياة غريمة من فوره[٤١] . وفى مرة أخرى « طعنت رجلا تحت أذنه بالضبط ، ولم أوجه إليه أكثر من ضربتين لأنه خر ميتاً لساعته . على أننى لم أكن أقصد قتله ، ولكن الضربات لاتكال للغريم بقدر ، كما يقول المثل »[٤٢] .

وكان مستقلا فى أمور دينه كما كان مستقلا فى أخلاقه . وإذ كان دائماً على حق — إلا فى مرة واحدة — فقد كان يحس أن الله لا شك فى جانبه ، يقوى ذراعه ، وكأن يد الله تعينه على من يقتل من أعـــدائه ، ويحمده حمداً كثيراً على نجاحه . على أنه لما لم يستجب الله لدعائه ، ولم يعنه على أن يجد حبيته المفقودة أنجيلكا Angelica ، اتجه نحو الشياطين يستمد منها ما ينقصه من معونة . فقد أخذه ساحر صقلى أثناء الليل إلى الكلوسيوم المهجورة ، ورسم على الأرض دائرة سحرية ، وأشعل النار ، وألقى بعض البخور على اللهب ، وتلا عدة رقى عبرية ، ويونانية ، ولاتينية ، استدعى بها الجن واعتقد بينفينوتو بحق أن مئات الأشباح ظهرت أمامه ، وتنبأت له بقرب اجتماعه بأنجليكا ، فعاد إلى بيته ، وقضى بقية الليل يرى الشياطين[٤٣] .

ولما أن نهب جيش الإمبراطور رومة فر تشيلينى إلى قلعة سانت أنچيلو ، وانخرط فى سلك جنود المدفعية . ويعترف بأن إحدى طلقاته هى التى قتلت دوق بوربون ، وأن دقة رمايته هى التى أبقت المحاصرين على مبعدة من القلعة ، فكان هذا سبباً فى نجاة البابا ، والكرادلة وبنيفينوتو نفسه . ولسنا نعرف ما فى هذا القول من صدق ، ولكنه هو نفسه يحدثنا أيضاً بأنه لما عاد كلمنت إلى رومة ، عين تشيلينى حامل صوبلجانه ورتب له مائتى كرون فى الشهر (٢٥٠٠ ؟ دولار) وقال : « لو أننى كنت إمبراطوراً غنياً لوهبت بنيفينوتو من الأرض بقدر ما تستطيع عيناى أن تقعا عليه ؛ أما وأنا الآن

مفلس محتاج ، فلا أقل من أن أهبه من الخبز « ما يفي بحاجته »[٤٤] .

واستمر بولس الثالث يرعى كلمنت ؛ وينقل لنا تشيليني عن بولس : ولعله يبالغ في هذا النقل مبالغة يدخل بها السرور على قلبه ، أنه قال لشخص يلومه على لينه مع الفنان وعدم أخذه بالشدة « اعلم إذن أن أمثال بينفينوتو من الرجال الأفذاذ في عملهم أناس فوق القانون ، فما بالك إذن بشخص استثير إلى الحد الذي سمعت به »[٤٥] . ولكن پيرلويجي Pierluigi بن لول ، وهو رجل لا يقل سفالة أو استهتاراً عن بنيفينوتو نفسه ، أوغر صدر البابا على الفنان ؛ ولم تكف فنون تشيليني نفسها للتغلب على نفوذ پيرلويجي هذا ، فما كان من الفنان إلا أن غادر مرسمة في رومة وولى وجهة نحو فرنسا . لكن بمبو اعترضه في طريقه عند پدوا وأكرمه ، فرسم له صورة صغيرة أجازه عليها بثلاثة جياد له ولزميلين كانا معه ، فامتطيا صهوتها ، ونزلا من فوق الجريزون Grison واجتازا زيورخ ، ولوزان ، وجنيڤا . وليون حتى وصلا باريس . وفيها أيضاً وجد بنيفينوتو له أعداء . ذلك أن چيوڤني ده رسي ، أحد الرسامين الفلورنسيين ، لم يكن يريد أن يزيد عدد من ينافسونه في الحصول على رفد الملك ، فأثار الصعاب في وجه القادم الجديد ؛ ولما أن اتصل بتشيليني آخر الأمر وجده قد تورط في حرب يصعب عليه الخلاص منها . وانتابه المرض واشتد به الحنين إلى بلده ، فتسلق جبال الألب مرة أخرى . وحج إلى لوريتو Loreto ، وعبر جبال الأپنين إلى رومة . وما كان أشد غضبه حين وجد أن پيرلويجي يتهمه بسرقة جواهر البابا ، فألقى به في نفس الحصن الذي ساعد هو على إنقاذه ، وعاني فيه مرارة السجن عدة أشهر . ثم استطاع الفرار منه ، ولكن ساقه كسرت في أثناء هذه المحاولة ، فقبض عليه ، وألقي في جب تحت الأرض قضى فيه عامين ، ثم أطلق سراحه بناء على طلب فرانسس ؛ وألح عليه الملك بأن يسافر إلى فرنسا ليقوم فيها ببعض المهام ، فتسلق جبال الألب مرة أخرى (١٥٤٠) .

ووجد الملك والحاشية فى فنتانا بيليو Fontana Belio أى فنتين بلو Fontainebleau ، ورحب به فيها أعظم ترحيب ، وخصص له قصر حصين فى باريس يسكنه ويتعبد فيه ؛ ولما أبى من فيه أن يغادروه طردهم منه قوة واقتداراً . ولم يرتح الفرنسيون لآدابه أو لغته ، وأغضب ما دام ديتامپ Mme d'Etampes عشيقة الملك بقلة مجاملته لحضرتها العلية . ولما سمعت بأنه ألقى من نافذة القصر أثاث السكان الذين أخرجهم منه حذرته منه بقولها إن « ذلك الشيطان سينهب باريس يوماً من الأيام »(٤٦) . وسر الملك المرح من القصـــة ، وعفا عن عنف تشيلينى إكراماً لفنه ، وخصص له مرتباً سنوياً قدره ٧٠٠ كرون (٨٧٥٠ ؟ دولاراً) . ووهبه ٥٠٠ كرون أخرى نفقة رحلته من رومة ، ووعده بمبلغ إضافى عن كل عمل فنى يقوم له به ، ولشد ما ازدهى بنيڤينوتو حين علم أن هذه هى نفس العروض التى قدمت لليوناردو قبل ذلك بعشرين عاماً(٤٧) .

وتقدم أحد السكان الذين طردوا من القصر إلى القضاء يتهمه بسرقة بعض ممتلكاته ، وأدانت المحكمة تشيلينى ، ولكنه قلب الحكم بطريقته المدهشة وفى ذلك يقول :

فلما رأيت أنى خسرت القضية ظلما وعدوانا ، لجأت فى الدفاع عن نفسى إلى خنجر كبير كنت أحمله معى ، لأنى كنت على الدوام أجد لذة فى حمل الأسلحة اللطيفة . وكان أول شخص هاجمته به هو المدعى الذى قاضانى ، وجرحته ذات ليلة فى ساقيه جراحا شديدة ، وحرصت مع ذلك على ألا أقتله ، ولكننى حرمته من استخدام ساقيه كلتيهما .

ويلوح أن المدعى لم يسر فى القضية إلى أكثر من هذا ، واستطاع تشيلينى أن يوجه جهوده إلى نواح أخرى . وكان معه فى مرسمه بباريس « فتاة فقيرة تدعى كترينا ، وكان أهم غرض أستبقيها لدى من أجله هو الفن ، لأنى لا أستطيع الاستغناء عن نموذج ؛ ولكننى وأنا أيضا رجل

كنت أستخدمها فى لذتى »⁽⁴⁹⁾ . على أن كترينا كانت أيضاً خاضعة متسامحة تضاجع مساعده باجولو متشيرى Pagolo Micceri . فلما عرف بنيڤينوتو هذا أخذ يضربها حتى خارت قواه ؛ ولامه خادمه روبرتا Roberta على قسوته الشديدة فى عقاب الفتاة على هذا الحادث العادى . وقال له : « ألا تعرف أنه ليس فى فرنسا زوج واحد بلا قرنين ؟ » وفى اليوم التالى اتخذ كترينا مرة أخرى نموذجا له « وحدثت فى هذه الأثناء بعض المتع الجنسية ؛ وضايقتنى فى آخر الأمر كما ضايقتنى من قبل إلى حد لم أجد معه مناصا من ضربها . ودامت الحال على هـــذا المنوال عدة أيام . . . وأتممت فى أثنائها عملى بطريقة عادت على بأعظم الفضل »⁽⁵⁰⁾ وكانت لديه فتاة أخرى تدعى چين Jeanne كان يتخذها أيضاً نموذجاً له ، وولدت له بنتا ، فخص الوالدة بمبلغ من المال « ولم تعد لى بها علاقة فيما بعد »⁽⁵¹⁾ . ثم قتلت المربية الطفلة بكتم أنفاسها .

وصبر فرانسس على هذه الأفعال الخارجة على القانون صبر الكرام ؛ ولكن بنيڤينوتو خلق له آخر الأمر أعداء فى باريس بلغوا من الكثرة درجة لم يسعه معها إلا أن يرجو الملك أن يأذن له بزيارة إيطاليا . ولما لم يجبه الملك إلى طلبه سافر بغير إذن ، وبعد أن لقى أكبر المشاق فى الطريق وجد نفسه فى بلدته فلورنس (١٥٤٥) . وهناك استقام أمره وأمد أخته وبناته الست بمعونة طيبة ، ووجد كوزيمو أقل سخاء من فرانسس ، وخلق لنفسه أعداء كما فعل من قبل ، ولكنه صب للدوق تمثالا نصفيا . (يوجد الآن فى بارجلو) ، وأخرج له أعظم أعماله شهرة ، نعنى بذلك تمثال بيرسيوس الذى لايزال قائما فى شرفه لاندسى Loggia dei Lanzi ، ويروى لنا هو نفسه قصة رائعة عن صب هذا التمثال فيقول إن ما انتابه من القلق ، وما عاناه من المشقة فى العمل ، وتعرضه للحر والبرد ، أصابه فى آخر الأمر بحمى شديدة أرغمته على ملازمة الفراش فى الوقت الذى

كان فيه الفرن الذى أعده لهذا العمل خاصة يذيب المعدن . وقد تبين أنه لا يكفى لملء القالب ، وأوشك التلف أن يحل بما ظل يكدح فيه الشهور الطوال . . فما كان من تشيلينى إلا أن نهض من فراشه ، وألقى فى الفرن كتلة من القصدير ومائتى إناء من كلس القصدير . وكان فيها الكفاية ، ونجح صب التمثال أتم نجاح ؛ ولما عرض على الجماهير (١٥٥٤) ، لقى من الثناء بقدر ما لقى أى تمثال أقيم فى فلورنس منذ صب ميكل أنچيلو تمثال داود ، وحتى بنديتلى نفسه لم يسعه إلا أن يقول كلمة طيبة فيه .

ثم تبدأ القصة تنحدر من هذه الذروة فتستحيل إلى صفحات من المساومة مع الدوق على أجر تمثال بيرسيوس . وطال انتظار بنيڤينوتو ، ولكن كوزيمو كان ينقصه المال . وتنتهى القصة نهاية مفاجئة فى عام ١٥٦٢ ، ولسنا نجد فيها ذكراً لتلك الحقيقة التى يكاد يؤيدها الدليل القاطع . وهى أن بنيڤينوتو سجن مرتين فى عام ١٥٥٦ ، متهما فيما يبدو بجرائم أخلاقية[٥٢]. وألف تشيلينى فى هذه السنين الأخيرة رسالة فى فن الصياغة . . . Trattato dell Orificeria وبعد أن ظل يعربد نصف قرن من الزمان تزوج فى عام ١٥٦٤ ، وكان له ولدان شرعيان بالإضافة إلى طفل غير شرعى ولد له فى فرنسا ، وخمسة فى فلورنس ولدوا له بعد عودته إليها .

ولسنا نستطيع أن نعثر إلا على عدد قليل من أعماله ونتأكد أنها له ، وذلك لأنها كانت فى العادة تحفا فنية صغيرة يسهل نقلها من مكان إلى مكان . ففى كنوز كنيسة القديس بطرس ثرية قضية مزخرفة تعزى إلى تشيلينى ، وفى برجلو تمثالان له هما تمثال نارسس وتمثال جانيميدى ، وكلاهما تمثال ممتاز من الرخام . وفى پتى صينية وإبريق من الفضة ؛ وفى اللوفر مدلاة عليها صورة بمبو ؛ ونقش من البرنز بارز جميل يسمى حورية فنتينبلو . وفى ڤينا — كما تدعى تلك المدينة — المملحة التى صنعها لفرانسس الأول . وتضم

بمجموعة جاردنر فى بسطن بأمريكا تمثاله النصفى لألتوفيتى Altoviti ، وتمثاله الكبير لصلب المسيح يوجد فى الإسكوريال . على أن هذه النماذج المتفرقة من التحف لا تمدنا بما تقوم عليه شهرته الواسعة . وحتى تمثال **برسيوس** تبـــدو عليه مظاهر العنف والإفراط فى الزخرف ، وأقرب إلى أن يكون صورة مشوهة لصاحبه . ولكن كلمنت السابع (كما يقول بنيفينوتو نفسه) كان يعده « أعظم من ولد من الرجال فى فنه الخاص »(٥٣) ، وإنا لنجد فى رسالة باقية حتى الآن وجهها ميكل أنجيلو إلى تشيليني قوله : « لقد عرفتك كل هذه السنين الطوال فوجدتك أعظم صائغ سمع به العالم »(٥٤) . وفى وسعنا أن نختم هذا الفصل بقولنا إن تشيليني كان رجلا عبقريا ، منحط الأخلاق ، صانعا مجيداً ، سفاحا ، سيرته الذاتية المرحة أكثر بهجة من ذهبه ، وفضته ، ونقوشه على الأحجار الكريمة ، وترضينا عن المبادئ الأخلاقية السائدة فى ذلك العصر .

الفصل السادس

أضواء صغرى

كان عهد الاضمحلال فى إيطاليا عهد البعث فى سافوى . وليس ببعيد أن يكون عمانويل فليبيرت Emmanual Philibert وهو صبى فى الثامنة من عمره قد رأى الفرنسيين يستولون على الدوقية (١٥٣٦) ، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ورث تاجها وإن لم يرث أرضها وديارها ؛ وفى التاسعة والعشرين اضطلع بدور رئيسى فى انتصار الأسبان والإنجليز على الفرنسيين فى سان كنتن St. Quentin (١٥٥٧) ، ولم يمض على هذا النصر إلا عامان حتى سلمت له فرنسا بلاده الخربة وعرشه المفلس . وكان بعث سافوى وپيدمنت على يديه من أعظم الأعمال التى قام بها رجال الحكم والسياسة فى التاريخ . ذلك أن منحدرات جبال الألب فى دوقيته كانت معششا لهراطقة الڤودوا Vaudois الذين أخذوا يحيلون الكنائس الكاثوليكية إلى مجامع للعبادة الكلفنية . وعرض عليه البابا پيوس الرابع إيراد الكنائس فى عام كامل ليستعين به على قمع هذه الشيعة . واتخذ عمانويل لهذا الغرض إجراءات شديدة حاسمة ، فلما أن أدت هذه الإجراءات إلى هجرة أفرادها جملة لجأ إلى خطة التسامح والمسالمة ، وكبح جماح محكمة التفتيش ، وآوى فى بلاده اللاجئين من الهيوجينوت . ثم أنشأ جامعة جديدة فى تورين وتبرع بالمال اللازم لتأليف دائرة معارف عامة فى جميع العلوم . وكان على الدوام مجاملا لطيف المعشر ، كما تكررت خيانته لزوجته مرجريت أميرة ڤالوا Margaret of Valois التى كانت تمده بالنصح السديد والمعونة الدبلوماسية ، والتى كانت واسطة العقد فى الحياة الاجتماعية والذهنية الساطعة

فى تورين . ولما مات عمانويل (١٥٨٠) ، كانت دوقيته من أحسن بلاد أوربا حكما . ومن نسله كان ملوك إيطاليا الموحدة فى القرن التاسع عشر .

وفى ذلك الوقت كان أندريا دوريا ، الذى غدر بالفرنسيين فى أنسب الأوقات فانتقل من صفوفهم إلى صفوف الأسبان ، كان أندريا هذا يحتفظ بزعامته فى جنوى . وكان رجال المصارف فى تلك المدينة قد قدموا المال اللازم لحروب شارل الخامس ، فكافأهم شارل على ذلك بأن أبقى لهم سيادتهم على المدينة لم يمسسها بسوء . ولم تنكب جنوى بقدر ما نكبت البندقية بسبب تحول التجارة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطى ، فعادت مرة أخرى ثغراً عظيما وحصناً ذا موقع حربى عزيز المنال . وشاد فيها جاليتسو أليسى البيروجى Galeazzo Alessi of Perugia ، تلميذ ميكل أنچيلو ، كنائس فخمة وقصوراً شاهقة ، ووصف ڤاسارى طريق بالبى Via Balbi بأنه أفخم شوارع إيطاليا بأجمعها(*) .

حسبنا هذا عن جنوى . أما ميلان فقد عين شارل الخامس فيها نائباً عنه ليحكمها بعد أن توفى فرانتشيسكو ماريا اسفوردسا آخر حكامها من هذه الأسرة فى عام ١٥٣٥ . وكان خضوعها لشارل إيذاناً بعودة السلم إلى ربوعها ، فازدهرت المدينة وعمها الرخاء من جديد . وشاد أليسى فيها قصر مارينو Marino الجميل ؛ وكان ليونى ليونى Leone Leoni الحفار فى دار السك بميلان ينافس تشيلينى فى فنون النقش الصغرى على اللدائن ، ولكنه لم يجد رجلا مثل تشيلينى ينشر له روائع فنه . وكان أعظم من امتاز من أهل ميلان فى ذلك الوقت هو سان كارلو بوروميو San Carlo Borromeo الذى قام فى أواخر عصر النهضـــة بمثل ما قام به القديس أمبروز أيام الاضمحلال فى العصر القديم . وكان ينتمى إلى أسرة شريفة غنية ؛ وقد عينه عمه پيوس الرابع كردنالا وهو فى سن الحادية والعشرين ، وكبيراً لأساقفة ميلان فى الثانية والعشرين (١٥٦٠) ، وأكبر الظن أنه كان وقتئذ

(*) لقد دمر هذا الشارع فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

أغنى رجال الدين فى العالم المسيحى كله . لكنه تخلى عن جميع إيراد مناصبه الدينية عدا منصب كبير الأساقفة ، وتبرع بما تدره من المال للأعمال الخيرية ، وانقطع لخدمة الكنيسة وأجهد نفسه فى هذه الخدمة إجهادا كاد يقضى على حياته . وهو الذى أنشأ طائفة « ناذرى القديس أمبروز » Oblates of St. Ambrose ، واستقدم اليسوعيين إلى ميلان ، وأيد بقوة جميع الحركات التى تهدف إلى إصلاح الكنيسة ، التى ظلت على ولائها للمذهب الكاثوليكى . وإذ كان قد اعتاد الثراء والسلطان ، فقد أصر على الاحتفاظ بكل ما كان لمحكمة أسقفيته فى العصور الوسطى من اختصاصات ، وتولى بنفسه المحافظة على القانون والنظام ، وملأ سجون الأسقفية بالمجرمين والملحدين ، وظل أربعة وعشرين عاما الحاكم الحقيقى للمدينة . وضعف شأن الأدب والفن بسبب حرصه الشديد على الوحدة الدينية والخلق القويم ؛ ولكن بليجرينو تيبلدى Peliegrino Tibaldi المهندس المعمارى والمصور علا نجمه بفضل رعايته ، وكان هو الذى وضع تصميم المرتمة الفخمة فى الكندرائية الكبرى ، وقد غفر أهل المدينة للكردنال قسوته حين ظل فى أثناء وباء الطاعون الذى انتشر فى المدينة عام ١٥٧٦ يؤدى واجبات منصبه ، ويواسى المرضى والثاكلين بزياراته التى لا تعرف الملل ، ويقظته الشديدة وصلواته مع أن كثيرين من الأعيان قد فروا من المدينة .

وشاد الكردنال تولوميو جاليو Tolomeo Gallio فى تشرنوبيو Cernobio على بحيرة كومو قصر دست الريفى (١٥٦٥) ؛ ولعله لم يكن واثقاً من أن ثمة جنة غيره . وفى بريسنشيا رسم جيامبتستا مورنى Giambattista Moroni ، تلميذ مورتو Moretto صوراً خليقة بأن توضع إلى جانب معظم صور تيشيان(*) . وواصل ڤنتشيندسو كامبى Vincenzo Campi فى كريمونا

(*) أهمها « صورة سيد طاعن فى السن » (فى برجامو) و « أنطونيو نافاچيرو » (ميلان) وبارتوليوبنجا (نيويورك) ، وشيخ وغلام (بسطن) ، ومعلم تيشيان (واشنجتن) ، ..دوڤيكو مادرانسو (تشكاجو) .

تقاليد أسرته فى رسم صور تقرب من أن تكون خالدة . وفى فيرارا سوى إركولى الثانى Ercole II نزاع دولته الطويل مع البابوية بأن أدى إلى بولس الثالث ١٨٠،٠٠٠ دوقة ووعده بأداء سبعة آلاف أخرى جزية سنوية . ووهب الفنسو الثانى المدينة فترة أخرى من الرخاء (١٥٥٨ — ١٥٩٧) أثمرت صـــورة **أورشليم المحررة** لأنوناسو وصورة **الراعى الأمين** لجيوفنى جوارينى Giovanni Guarini . وأخذ جيرولامو دا كاربى Girolamo da Carpi فن التصوير عن جاروفولو Garofolo ، ولكنه ، كما يقول ڤاسارى ، أضاع كثيراً من وقته فى الحب والعزف على العود ، وعجل بالزواج ، فلم يتسع وقته للاهتمام بمطالب العبقرية .

وازدهرت پياتشندسا وپارما وقويت فيهما الحركة الفنية فى ذلك العهد . وكان البابا بولس الثالث يطالب بالمدينتين على أنهما من أملاكه الإقطاعية وخلعهما على ابنه پيير لويجى فارنيزى فى عام ١٥٤٥ وإن كانتا قد ظلتا عدة قرون من أملاك ميلان ، وكانت هذه الدوقية نفسها وقتئذ تابعة لشارل الخامس . وقبل أن يمضى عامان بعد ذلك الوقت اغتيل الدوق الجديد فى پياتشندسا على أثر فتنة قام بها أشراف المدينة ، الذين رضوا عن فسقه وفجوره ولكنهم لم يرضوا عن احتكاره المال والسلطان . وقال بولس بحق إن ناسج برد المؤامرة لحمته وسداه هو فيرانتى جندساجا ، الذى كان وقتئذ يحكم ميلان من قبل الإمبراطور شارل ، ولاحظ أن جيوش الإمبراطور ، وكانت معدة من قبل بالقرب من المدينة ، استولت من فورها على پياتشندسا وأضحت من أملاك الإمبراطور (١٥٤٧) . ولم يمض على وفاة بولس إلا قليل من الوقت حتى عين يوليوس الثالث أتاڤيو ابن پيير لويجى دوقاً على پارما ؛ وبما أن أتاڤيو هذا كان فضلا عن ذلك زوجاً لابنة شارل ، فقد سمح له أن يحكم پارما إلى يوم وفاته (١٥٨٦) .

ولم تظهر أعراض الاضمحلال على بولونيا . وفيها وضع ڤنيولا Vignola

تصميم باب بانكى Porto de' Banchi إجابة لطلب جماعة من التجار ، وأضاف أنطونيو موروندى إلى جامعة المدينة ملعباً ذائع الصيت ضم إلى فنانها العظيم ؛ وكتب سباستيانو سرليو sebastiano serlio رسالة فى العمارة تضارع رسالة بلاديو فيما كان لها من تأثير . وفى عام ١٥٦٣ عهد البابا پيوس الرابع إلى توماسو لوريتى Tommasso Laureti من أهل بالرم أن ينشئ نافورة فى ميدان سان پترونيو Piazza di san Petronio . وعهد أعمال النحت فى هذا المشروع إلى فنان فلمنكى شاب جاء وقتئذ من فلورنس ، ولعل اسمه قد اشتق من اسم المدينة التى قام فيها بأعظم عمل له . ووضع چيوڤنى دا بولونيا أوچيان بولونيا نماذج لتسعة تماثيل تقام حول فسقية نپتون الضخمة Fontana di Nettuna . وأقام على قمة هذه المجموعة تمثالا ضخماً لرب البحار عارى الجسم قوى البنية . وصب من البرنز فى أركان الفسقية تماثيل لأربعة أطفال سعداء يلعبون مع دلفين يقفز فى الماء ؛ ثم وضع بين قدمى نپتون أربع عذارى رشيقات القوام يعصرن الماء من أثدائهن . وأعادت بولونيا چيان إلى فلورنس مثقلا بالمال والثناء ، ولم تأسف على السبعين ألف فلورين (٨٧٥٠٠٠ ؟ دولار) التى أنفقتها على النافورة الفخمة ، ذلك أن روح الفن المدنى كانت لا تزال حية فى إيطاليا .

وإنا لتدهشنا ، ونحن نلقى نظرة الوداع على رومة فى عصر النهضة ، سرعة إفاقتها من كبوتها بعد ما حل بها من الدمار عام ١٥٢٧ . لقد أظهر كلمنت السابع من المهارة فى مداواة العلة أكثر مما أظهره فى منعها . لقد أنقذ الولايات البابوية من الدمار باستسلامه إلى شارل ، واستمدت البابوية من مواردها ما تحتاجه من المال لإعادة النظام إلى الكنيسة وتعمير بعض ما تخرب من رومة . ولم تكن خزائن البابا قد أحست بعد بنقص الموارد من جراء حركة الإصلاح الدينى ؛ ولاح فى عهد بولس الثالث أن روح النهضة وروعتها قد عادت إليهما الحياة إلى وقت ما .

لقد كان بعض الفنون يحتضر وبعضها الآخر يولد أو يبدل صورته . ويكاد چيوليو كليوڤيو Giulio Clovio ، وهو رجل كرواتى يقيم فى منزل الكردنال فارنيزى ، يكون آخر المزخرفين للمخطوطات . لكن حدث فى عام ١٥٧٦ أن ولد كلوديو منتى ڤيردى Cloudio Monteverdi فى كريمونا ، وسرعان ما أضيفت المسرحيات الغنائية والموشحات الدينية إلى الفنون الجميلة ، وأخذت أناشـــيد القداس المتعددة الألحان فى پاليسترينا تترنم بعودة القوة والحياة إلى الكنيسة ، وكان عصر التصوير الإيطالى العظيم يؤذن بالزوال ، غير أن پيرينو دل فاجا Perino del Vaga وچيوڤنى دا يودينى Giovanni da Udine اللذين جاءا بعد رفائيل ، قد وجها هذا الفن إلى ناحية الزخرفة ، أما النحت فكان يستحيل إلى أشكال مشوهة ، فقد أخذ رفائلو دا منتى لوپو Rafaello de Montelupo وچيوڤنى دا منترسولى Giovanni da Montorsoli يبالغان فيما بالغ فيه أستاذهما ميكل أنچيلو ، فأخرجا تماثيل ملتوية الأطراف التواء يؤدى إلى مواقف مبتكرة ولكنها غريبة قبيحة منفرة .

وكانت العمارة وقتئذ أعظم الفنون ازدهاراً ، فقد أصلح ميكل أنچيلو قصر فانيزى وحدائقه المقام على تل بلاتين (١٥٤٧) ، وأتم هذا الإصلاح چيوڤنى دلا بورتا (١٥٨٠) . ووضع أنطونيو دا سنجالو Antonio da Sangallo الأصغر معبد القديس بولس فى قصر الفاتيكان (١٥٤٠) . وفى القاعة الملكية المؤدية من معبد بولس ومعابد سستينى أمر البابا بولس الثالث أن يضع سنجالو هذا تصميم الأرضية الرخامية واللوحات الزخرفية ، وأن يقوم فاسارى وابنا زكارى Zuccari بعمل مظلمات الجدران ؛ وأن يقوم دانيلى ڤلتيرا Daniele da Volterra ومعه پيرينو دل ڤاجا بحفر النقوش فى الجص . وازدانت حجرات البابا فى سانت أنچيلو بمظلمات من صنع بيرينو ، وچيوليو رومانو ، وچيوڤنى دا يودينى وحفرهم . وشاد

الكردنال إپوليتو دست الثانى بالقرب من تريڤولى (١٥٤٩) أول قصرين ريفيين لأسرة دست ؛ وأعد بروپيجوريو Pirro Ligorio الرسوم اللازمة للملهى وزخرفه أبناء زكارى ، ولا تزال الحدائق المدرجة تشهد بما كان لكرادلة النهضة من ذوق رقيق ينفقونه دون مبالاة .

وكان أحب المعاريين إلى الشعب فى رومة أو حولها فى ذلك العهد هو جياكومو باروتسى دا ڤنيولا Giacomo Barozzi da Vignola . وقد جاء هذا المهندس من بولونيا لدراسة الخرائب الرومانية القديمة ، وكون طرازه الخاص بالجمع بين بانثيون أجرپا وباسلقا يوليوس قيصر ، وسعى لأن يجمع بين السقف المقبب والعقود ، والعمد والقواصر ، وكتب كما كتب بالاديو كتابا لنشر مبادئ فنه ؛ وأحرز أول نصر له فى كبرارالو Caprarola التربية من ڤيتربو حين صمم للكردنال فارنيزى قصراً لآل فارنيزى غير قصرهم الأول واسعاً مترفا (١٥٤٧ — ١٥٤٩) ، ثم شاد بعد عشر سنين من إتمامه قصراً ثالثاً لهم فى پياتشندسا . ولكن أعظم أعماله أثراً هى التى أقامها فى رومة وهى بيت البابا چيوليو الريفى الذى أقامه للبابا يوليوس الثالث وپورتا دل پوپولو Porta del Popolo ، وكنيسة چيسو Gesu (١٥٦٨ — ١٥٧٥) . وفى هذا الصرح الذائع الصيت الذى بناه لطائفة الجزويت الناهضة خطط ڤنيولا نيفا ذا عرض وارتفاع عظيمين وحول أجنحة الكنيسة إلى معابد ، وكان المهندسون الذين جاءوا من بعده يرون أن هذه الكنيسة أعظم مظهر للطراز المُشَوَّه — ففيها أشكال كثيرة منحنية أو ملتوية بالزخرف ، وخلف ڤنيولا عام ١٥٦٤ ميكل أنچيلو فى منصب كبير المهندسين لكنيسة القديس بطرس ، وكان له نصيب من الشرف فى رفع القبة الكبرى التى صممها أنچيلو من قبل .

الفصل السابع

ميكل أنچيلو : آخرة المطاف

١٥٣٤ — ١٥٦٤

وعاش ميكل أنچيلو طوال تلك السنين كأنه شبح مشاكس قدم من عصر غير العصر الذى كان فيه ، وكان فى التاسعة والخمسين من عمره حين مات كلمنت ، ولكن يبدو أن أحداً لم يكن يظن أن من حقه أن يستريح . فهاهو ذا پول الثالث وفرنتشيسكو ماريا دوق أربينو يتنازعان جسمه الحى . فأما الدوق ، بوصفه منفذاً لأعمال يوليوس الثانى ، فقد أخذ يطالب بإتمام قبر عمه ، معتمداً على عقد وقعه أنچيلو من زمن بعيد . ولكن البابا المتغطرس لم يعر هذا الطالب التفاتا ، وأخذ يقول لبوناروتى : « لقد ظللت ثلاثين عاما ألح فى أن تدخل فى خدمتى ، والآن وقد جلست على كرسى البابوية هل يليق بك ألا تلبى ندائى ؟ أما هذا العقد فسيمزق ، وستعمل أنت لى ، وليكن بعد ذلك ما يكون »(٥٥) . واحتج البابا على هذا ، ولكنه ارتضى أخيراً أن يقام ضريح أصغر كثيراً من الذى كان يحلم به يوليوس . وكان علم الفنان الجبار بأن الضريح بناء ناقص مشوه سببا فى نكد عيشه فى سنيه الأخيرة .

وفى عام ١٥٣٥ كتب البابا المنتصر خطابا يعين به ميكل أنچيلو كبير المهندسين ، والمثالين ، والمصورين فى الفاتيكان ، ويشيد بتفوقه فى كل ميدان من هذه الميادين . وجعل الفنان فوق ذلك عضواً فى بيت البابا وخصص له معاشا قدره ١٢٠٠ كرون (١٥٫٠٠٠ ؟ دولار) كل عام مدى الحياة . وكان كلمنت السابع قد طلب إليه قبل وفاته بزمن قليل

أن يرسم مظلماً يصور عليه **يوم الحساب** خلف مذبح معبد سستينى .
واقترح پولس وقتئذ أن يقوم الفنان بهذا العمل . وتردد ميكل لأنه يريد أن يواصل أعمال النحت لا أعمال التصوير ؛ فقد كان أسعد حالا وهو يعمل بالمطرقة والمنحت مما يكون وهو يعمل بفرشاة الرسم . وكانت سعة الجدار الذى يراد تصويره — ٦٦ قدما فى ٣٦ — خليقة بأن تبرر هذا التردد ، غير أنه بدأ هذه الصورة التى هى أعظم صوره كلها فى شهر سبتمبر من عام ١٥٣٥ وكان وقتئذ فى سن الستين .

ولعل ما لاقاه المرة بعد المرة من العنت فى حياته — كضريح يوليوس الأبتر ، وتدمير التمثال الذى أقامه لهذا البابا فى بولونيا ، وعدم إتمامه واجهة سان لورندسو وقبور آل ميديتشى — قد جمعت فى صدره حقداً دفينا فاض حتى صبه غضبا فى هذه الصورة القدسية . ولعله قد عادت إليه من خلال أربعين عاما ذكريات سفونرولا — منها تلك النبوءات المفجعة المنذرة بسوء المنقلب ، وذلك التشنيع الشديد على خبث بنى الإنسان ولؤمه ، وفساد رجال الدين ، واستبداد آل ميديتشى ، والغطرسة العقلية ، والمباهج الوثنية ، ولهيب نار الجحيم التى تشوى روح فلورنس . وكأنما كان الشهيد الميت يتحدث إليه مرة أخرى ، من مذبح العالم المسيحى الوثيق الصلة به .

وهكذا شرع الفنان المكتئب الذى لقبه دانتى بالعالم يغوص من جديد فى أجاج **الجحيم** ويصور أهوالها على الجدار لكى تظل تلك الأحكام الإلهية التى لا مفر منها ماثلة فى المستقبل أمام البابوات أجيالا بعد أجيال وهم يقرءون القداس . وفى هذا الحصن الحصين الحامى للدى ، الذى كان إلى عهد غير بعيد يزدرى بالجسم الآدمى ويصب عليه اللعنات ، يشرع هذا الفنان بفرشاته فيصور — وكأنما هو مثال ينحت تماثيل مجسمة لا مصور يرسم صوراً ملونة — ذلك الجسم فى مائة من الحالات والمواقف ، تارة يتلوى ويتجهم من شدة الألم ، وتارة فى غفوة ، ثم فى نشوة حين يبعث

الموتى أحياء ، أو يصور الملائكة وقد انتفخت أجسامهم وهم ينفخون النفخة المشهورة فى الصور ، أو المسيح يكشف عن جراحه ؛ وقد أوتى مع ذلك منكبين عريضين وذراعين قويتين يستطيع بهما أن يقذف فى الجحيم من كانوا يظنون أنهم أكبر من أن يطيعوا أوامر الله .

غير أن ما فيه من ميل إلى النحت قد أفسد عليه قدرته على التصوير ؛ ذلك أن هذا التزمت المتشدد أخذ يزداد كل يوم استمساكا بدينه ، ويصر على أن يمثل باللون أجساما متخمة قوية ذات عضلات مفتولة ، حتى أصبح الملائكة الذين يمثلهم الفن والشعر أطفالا سعداء ، أو شبابا ظرفاء ، أو فتيات رشيقات ، أصبح هؤلاء فى يديه خلائق ذوى أجسام رياضية يتسابقون فى الفضاء ، ويستحقون النجاة ، سواء كانوا أخياراً أو شراراً لأنهم خلقوا فى صورة الله أو فيما يشبه صورة الله إن لم يكن لغير هذا من الأسباب . وحتى المسيح نفسه ، فى جلال غضبه ، أصبح صورة لآدم المرسوم على سقف بستينى ، أى إلها فى صورة إنسان أو فيما يشبه صورة الإنسان . إن فى الصورة لحما أكثر مما يجب أن يكون ، وفيها أذرعاً ، وسيقاناً ، وعضلات فى الأجسام وفى باطن السيقان أكثر مما يلزم منها لأن يسمو بالروح إلى التفكير فى عقاب الذنوب . وحتى أريتينو الفاجر المستهتر كان يرى أن هذه الأجسام العارية الكثيرة العدد قد وضعت فى غير المكان اللائق بها . وما من أحد يجهل أن بياچيو دا تشيزينا Biagio de Cesena رئيس التشريفات عند بولس الثالث قد شكا من أن هذه الحفاوة الزائدة بالجسم البشرى أليق بأن تزين مشربا للخمور منها بمصلى للبابوات ، وأن ميكل أنچيلو قد ثأر لنفسه منه بأن صوره بين الملعونين المعذبين ، وأن بولس نفسه حين طلب إليه بياچو أن يمحو الصورة رد عليه ردا فيه ما فيه من الفكاهة القوية والتقى العظيم ، فقال إن البابا نفسه لا يستطيع أن ينجى الروح من نار الجحيم[٥٦] . واستجاب بولس

الرابع لاحتجاج رجال من طراز بياچيو فأمر دانييلى دا ڤلتيرا Daniele de Voterra بأن يصور سراويل للأجزاء التى لا يليق ظهورها من الصور ، فما كان من رومة إلا أن لقبت الفنان المسكين « بخياط السرويل » il Braghettone . على أن أجل صورة فى هذا المنظر الشامل القاتم ترتدى أثواباً سابغة تغطى كل جسمها . تلك هى صورة مريم العذراء التى تعد أثوابها آخر انتصار أحرزه الفنانون فى تصوير الثياب . والحق أننا لا نجد فى هذه الصورة التى تمجد الوحشية الآدمية عنصراً ينقذها من هذه الوهدة، إلا نظرة الارتياح والشفقة البادية على وجه العذراء .

وأزيح الستار عن هذه الصورة يوم الاحتفال بعيد الميلاد فى عام ١٥٤١ بعد كدح دام ست سنين . وكانت رومة وقتئذ توشك أن تدخل فى عهد من الرجعية الدينية ضد أساليب النهضة ، فارتضت صورة **يوم الحساب** على أنها مما يتفق مع الدين ومع الفن العظيم . ووصفها ڤاسارى بأنها أروع الصور كلها على الإطلاق ، وأعجب الفنانون بما فيها من دقة التشريح ، ولم يروا عيباً فى المغالاة فى حجم العضلات ، ولا فى المواقف الغريبة الشاذة ، ولا فى كثرة الأجسام البشرية ؛ بل حدث نقيض هذا فأخذ كثيرون من المصورين يقلدون أساليب هذا الفنان المعلم وشذوذه ، وأوجدوا المدرسة النمطية التى بدأ بها اضمحلال الفن الإيطالى . وحتى غير الفنانين قد أدهشتهم المراعاة والتناسب فى الأحجام مما أظهر بعض أجزاء الصورة وكأنها نقش بارز ، كما أدهشتهم المراعاة الدقيقة لفن المنظور التى جعلت طول الأجسام السفلى مترين ، والوسطى ثلاثة أمتار ، والعليا أربعة . وإذا نظرنا إلى هذا المظلم اليوم فإنا لا نستطيع أن نحكم عليه حكما عادلا صحيحاً . فلقد أضر به دانيلى حين ألبسه السراويل ، كما أضرت به الأثواب التى ألبستها بعض أشكاله بعدئذ فى عام ١٧٦٢ ، وآذاه التراب والدخان ، وما علاه من قتام مدى أربعة قرون .

وبعد أن استراح ميكل أنجيلو أربعة أشهر بدأ (١٥٤٢) يعمل فى مظلمين فى المعبد الذى بناه أنطونيو دا سنجلو لبولس الثالث فى قصر الفاتيكان ، وكان واحد منهما يمثل استشهاد القديس بطرس ، والثانى تنصر القديس بولس . وهنا أيضاً أطلق الفنان العجوز لنفسه العنان فى المغالاة فى تصوير الأجسام البشرية . ولما أتم الصورتين كان قد بلغ الخامسة والسبعين من العمر ، وقال لفاسارى إنه صورهما رغم أنفه ، وإنه بذل فى تصويرهما جهداً شديداً ولاقى عناء كبيراً(٥٧) .

غير أنه لم يحس بأنه قد بلغ من العمر ما يحول بينه وبين الاشتغال بالنحت ، بل إنه كان يقول إن المطرقة والنحت يساعدانه على الاحتفاظ بصحته . ولقد كان ، وهو يرسم صورة العشاء الأخير يجد من حين إلى حين ملجأ وسلوى فى الرخام الذى فى مرسمه . فى عام ١٥٣٩ نحت تمثال بروتس الصارم القوى (المحفوظ فى بارجلو) الخليق بأن يضم إلى أعظم التماثيل الرومانية الملونة . ولعله قد نحته ليؤيد به ما حدث منذ قليل من قتل الطاغية أليسندرو ده ميديتشى فى فلورنس ، وليكون نذيراً للطغاة فى المستقبل . وبعد أحد عشر عاماً من ذلك الوقت نحت وهو فى فترة من المزاج الرقيق تمثال العذراء تبكى أمام المسيح الميت ، والذى يقوم الآن خلف مذبح كتدرائية فلورنس . وكان يرجو أن يوضع هذا التمثال فوق ضريحه ، ولذلك أخذ يعمل فيه كالمحموم ، وكثيراً ما كان يواصل العمل ليلا فى ضوء شمعة مثبتة فى قلنسوته . ولكن ضربة شديدة من مطرقته أضرت بالتمثال ضرراً لم يسعه إلا أن يتركه معتقداً أنه قد حاق به من الأذى ما لا يمكن إصلاحه . غير أن خادمه أنطونيو ميني استهداه إياه ، وأخذه ، وباعه إلى رجل من فلورنس . والتمثال ثمرة مدهشة لجهود رجل فى السابعة والخمسين من العمر . فجسم المسيح الميت ممثل دون مبالغة ، وتمثال مريم الذى لم يتم هو الرقة بعينها ممثلة فى الحجر ، ووجه نيقوديموس Nicodemos المقنع الرائع يمكن أن يمثل ،

كما يظن البعض ، وجه ميكل أنجيلو نفسه ، وكثيرا ما كان الفنان فى تلك المرحلة من العمر يفكر فى آلام المسيح .

وكان دينه فى جوهره هو دين أهل العصور الوسطى ، يخلع عليه التصوف كثيرا من الكآبة والقتام ، والتنبؤ بالمستقبل ، والتفكير فى الموت وعذاب النار . ولم يكن يشارك ليوناردو فى تشككه ، أو رفائيل المرح فى استهتاره وعدم مبالاته . وكانت أحب الكتب إليه الكتاب المقدس وكتاب دانتى ، وقد أخذ شعره فى أخريات حياته يدور أكثر فأكثر حول الأمور الدينية :

الآن وصلت حياتى مختارة بحرا عاصفاً
كأنها زورق هش ضعيف ، إلى المرفأ الواسع
الذى يؤمر الناس جميعاً بالدخول فيه قبل أن يحل يوم الحساب الأخير
فيحاسب الناس على ما كسبت أيديهم من خير وشر ويجزون عليه الجزاء الأوفى .
ولقد عرفت الآن حق المعرفة أن ذلك الوهم
الذى استحوذ على قلبى وجعلنى عبدا خاشعاً للفن الأرضى
إنما هو لهو وعبث باطل . ألا ما أشد إثم
ذلك الشىء الذى يطلبه الناس جميعاً ويتلهفون عليه !
وأفكار الحب التى صورت فى ثياب لاتكاد تستر الجسم
ما قيمها حين يقترب منا الموت المزدوج
فهو موتان موت أعلمه عن يقين وآخر أرهبه .
فلا التصوير ولا النحت بقادر الآن على أن يريح نفسى
التى تتوجه إلى حبه العظيم فى عليائه
ذلك الذى يبسط ذراعيه على الصليب ليضمنا إليه(٥٨).

وأخذ الشاعر الشيخ يلوم نفسه على ما كتب فى السنين الخوالى من أغان فى العشق . ولكن يلوح أن هذه الأغانى لم تكن تنفيساً عن شهوة جسمية

بل كانت رياضة شعرية . وأعظم أغانى ميكل أنچيليو إخلاصاً فى مجموعته المعروفة باسم « القوافى » هى التى يوجهها إلى نبيل رومانى كان يدرس التصوير . وقد جاء هذا الشاب إلى أنچيلو (فى عام ١٥٣٢ على ما نظن) ليأخذ عليه الفن ، وسحر أستاذه بجمال وجهه واعتدال قامته ، وحسن هيئته وأدبه الجم . وأحبه ميكل وكتب فيه أغانى ملؤها الإعجاب الصريح به حتى لقد وضعه الناس مع ليوناردو بين المشهورين من ذوى الشذوذ الجنسى فى التاريخ(١٨٥) . غير أن هذه التعبيرات الغرامية بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة كانت شائعة فى عهد النهضة حتى بين الرجال الذين يعشقون النساء والنساء اللاتى يعشقن الرجال ؛ وكانت عباراتها القوية المتطرفة جزءاً من الأساليب الشعرية وكتابات الرسائل فى ذلك العهد ؛ ولذلك فإنا لا نستطيع أن نستخلص منها أحكاماً معينة . لكننا نلاحظ مع ذلك أن ميكل أنچيلو — إذا صرفنا النظر عن شعره — ظل فيما يلوح لايعبأ بالنساء حتى التقى بڤتوريا كولنا .

وبدأت صداقته معها حوالى عام ١٥٤٢ حين كانت فى سن الخمسين وكان هو فى السابعة والستين . وإنه ليسهل على امرأة فى سن الخمسين أن تثير لواهج الحب فى قلب ابن الستين ؛ ولكن ڤتوريا لم تكن تريد ذلك أو تفكر فيه ، فقد كانت تحس بأنها لا تزال مرتبطة بمركيز بيسكارا الذى مات منذ سبعة عشر عاماً ؛ ولهذا كتبت إلى ميكل أنچيلو تقول : « إن صداقتنا صداقة ثابتة ، وحبنا قوى أكيد ؛ تربطه عقدة مسيحية وثيقة »(٥٧) وبعثت إليه بأغان بلغ عددها ١٤٣ أغنية كلها طيبـة ولكن الإهمال باد فيها ؛ ورد عليها بأغان تفيض إعجاباً وإخلاصاً ولكن الغرور الأدبى يفسدها ويشوهها . وكانا إذا التقيا يتحدثان عن الفن والدين ، ولعلها كانت تعترف له بعطفها على الرجال الذين كانوا يحاولون إصلاح الكنيسة . وكان تأثيرها فيه قوياً عميقاً ، فقد بدا له أن أجمل ما فى الحياة من عناصر روحية قد اجتمعت كلها فى تقواها ، وحنانها ، وإخلاصها . وكان بعض

ما يتصف به من تشاؤم يزول عنه إذا مشت معه وتحدثت إليه ، وكان يدعو الله ألا يعود مرة أخرى الرجل الذى كانه قبل أن يلتقى بها . وكان إلى جانبها حين حضرتها الوفاة (١٥٤٧) ؛ وظل بعد وفاتها زمنا طويلا محطم القلب حزيناً كأن بعقله خبالا » ، يلوم نفسه لأنه لم يقبل وجهها كما قبل يدها فى تلك اللحظات الأخيرة(٦٠) ، وأقدم بعد وفاتها بقليل على أعظم أعماله الفنية وأكبرها تبعة ؛ ذلك أنه لما مات أنطونيو سنجالو (١٥٤٦) ، طلب بولس الثالث إلى ميكل أنجيلو أن يتم كنيسة القديس بطرس . واحتج الفنان المتعب مرة أخرى بأنه مثال لا مهندس . ولعله لم يكن قد نسى بعد عجزه عن إتمام واجهة سان لورندسو . ولكن البابا أصر ، وامتثل ميكل أنجيلو لأمره « وهو آسف كل الأسف » ؛ وأضاف ، كما يقول ڤاسارى إلى هذا قوله : « إنى لأعتقد أن البابا قد أوحى إليه بذلك من عند الله » . وأبى الفنان أن يتقاضى عن ذلك العمل ، وهو آخر أعمال حياته ، مكافأة إضافية . وإن كان البابا قد ألح عليه فى هذا المرة تلو المرة . وبدأ العمل بجد لا يتوقعه الإنسان من رجل فى الثانية والسبعين من العمر .

وكأنما كان العمل فى كنيسة القديس بطرس لا يكفيه ؛ فقد تعهد فى ذلك العام نفسه بالقيام بمشروعين كبيرين : أولهما أنه أضاف إلى قصر فارنيزى طابقاً ثالثاً ، وشرفة يمتدح كل من رآها جمالها البارع ، كما أضاف طابقين علويين إلى بهو يرى ڤاسارى أنه أجمل أبهاء أوربا بأجمعها ؛ ووضع تصميما لمجموعتين من الدرج يرقى بهما إلى تل الكپتول ، وأقام فوق قمته تمثال ماركس أورليوس القديم الممتطى صهوة جواد . ثم شرع بعدئذ وهو فى الثامنة والثمانين من عمره يشيد فوق الطرف الثانى من الهضبة قصر مجلس الشيوخ بسلمه المزدوج العالى الفخم ؛ ووضع خططاً لقصر المعهد الموسيقى على أحد جانبى قاعة مجلس الشيوخ ومتحف الكپتول على

الجانب الآخر منها : على أنه حتى هو نفسه ، لم يمتد به أجله حتى ينفذ هذه المشروعات كلها ، ولكن الأبنية تمت كلها وفقاً لتصميمه على أيدى توماسو كفاليرى ، وفنيولا ، وجياكومو دلا پورتا .

ولما توفى بولس الثالث (١٥٤٩) لم يعرف الناس هل يحتفظ خلفه يوليوس الثالث بميكل أنچيلو كبيراً للمهندسين فى كنيسة القديس بطرس . وكان ميكل قد رفض التصميم الذى وضعه أنطونيو دا سنجالو لأن يجعل الكنيسة مظلمة إلى حد يخشى منه على الآداب العامة[٦١] ، ولكن أصدقاء المتوفى أقنعوا اثنين من الكرادلة بأن يحذرا البابا بأن بونارتى يعمل على إفساد الصرح . وأيد يوليوس أنچيلو ، ولكن لما جلس البابا بولس الرابع على كرسى البابوية (وقد كان البابوات يتعاقبون تعاقباً سريعاً فى أيام ميكل أنچيلو) عاد حزب أنچيلو إلى الهجوم وادعى أن الفنان الذى كان وقتئذ فى الحادية والثمانين من عمره ، قد بلغ من العمر أرذله وكان فى عهد طفولته الثانية ، وأنه كان يهدم أكثر مما يبنى ، وأنه يضع فى سان پيترو تصميمات مستحيلة التنفيذ . وكثيراً ما فكر ميكل فى الاستقالة من عمله وقبول الدعوات المتكررة التى كان يبعث بها إليه الدوق كوزيمو كى يعود إلى الإقامة فى فلورنس ؛ ولكنه كان قد وضع خطة القبة ، ولم يشأ أن يتخلى عن منصبه حتى يرى فكرته فى طريق التحقيق ، وقضى عدة سنين يفكر فى هذه المشكلة ، حتى إذا كان عام ١٥٥٧ عمل من الصلصال نموذجاً صغيراً للقبة الضخمة التى كان عرضها وثقلها أكثر ما فى المشروع خطورة . وقضى عاماً آخر فى صنع نموذج من الخشب أكبر من النموذج السابق ووضع الخطط اللازمة للبناء والمساند . وكان المشروع يقضى بأن يكون قطر القبة ١٣٨ قدما ، وارتفاعها هى نفسها ١٥١ ، وأن تكون قمتها على ارتفاع ٣٣٤ قدما فوق سطح الأرض ، وأن ترتكز على قاعدة ذات أطناف تعتمد على عقود ضخمة فى الإيوان الذى يخترق الكنيسة . وكان المشروع يقضى أيضا

بأن يشاد « فانوس » (أى قبة صغرى ذات واجهة مفتوحة) يعلو تسعة وستين قدماً فوق القبة الرئيسية وأن ينشأ فوقها صليب يعلو عن هذا الفانوس اثنتين وثلاثين قدماً يكون ذروة ذلك الصرح الفخم العظيم الذى يصل بأجمعه إلى ارتفاع ٤٣٥ قدماً . ذلك هو مشروع القبة . أما القبة التى يمكن أن نقارنها بها والتى شادها برونيسكو فوق كنيسة فلورنس الكبرى ، والتى وصف ميكل أنچيلو جمالها بأنه جمال لا يفوقه سواه ، فقد كانت تبلغ ١٣٨ قدماً ونصف قدم فى العرض و١٣٣ قدماً فى ارتفاعها هى نفسها و٣٠٠ قدم من سطح الأرض إلى قمة البناء و٣٥١ قدماً بما فيها الفانوس . وكانت هاتان القبتان أعظم ما شيد من الصروح جرأة فى تاريخ عمارة النهضة .

وجاء بيوس الرابع فى عام ١٥٦٩ بعد بولس الرابع ، وسعى أعداء الفنان الجبار مرة أخرى لكى يحلوا محله . وكان قد أنهكه النزاع وتبادل التهم ، فقدم استقالته من منصبه (١٥٦٠) ، ولكن البابا رفض قبولها ، وظل ميكل أنچيلو كبير المهندسين فى كنيسة القديس بطرس إلى يوم وفاته . وتبين بعدئذ أن ناقديه لم يكونوا مخطئين فى كل ما وجهوه إليه من نقد . ذلك أنه فى فن العمارة قلما كان يعنى بوضع خططه على الورق ، وقلما كان يفضى بها إلى أصدقائه ، بل كل ما كان يفعله أن يضع تصميم كل جزء من أجزاء البناء كلما قرب وقت إقامته . وكان شأنه فى هذا شأنه فيما كان يقوم به من أعمال النحت . فكثيراً ما كان يهاجم كتلة الرخام دون أى استعداد سابق أكثر من وجود فكرة فى رأسه . ولما مات لم يخلف وراءه خططاً أو نماذج محددة لأى جزء من البناء غير القبة وحدها ، ولهذا كان من خلفوه أحراراً فى اتباع أفكارهم هم أنفسهم ، فبدلوا فكرته وفكرة برامنتى الأساسية — فكرة الصليب اليونانى — وأحلوا محلها فكرة الصليب اللاتينى بأن زادوا فى طول جناح الكنيسة الشرقى وأقاموا واجهة عالية أمامه حجبت السقف المقبب عن الأنظار

من هذه الناحية إلا إذا نظر إليها من بعد ربع ميل . وكان جزء البناء الوحيد الذى اتبعت فيه خطة أنچيلو هو هذا السقف المقبب نفسه ، فقد نفذه جياكومو دلا پورتا عام ١٥٨٨ كما وضعه أنچيلو دون تغيير هام . وما من شك فى أن هذا البناء أفخم الأبنية فى رومة وأبهاها منظراً . فهو يعلو فى منحنيات رائعة من أسفل قاعدته على التل إلى الفانوس القائم أعلاه ، ويتوج فى جلال الربعة التى فى أسفله ، ويضفى على العمد ذات الطراز القديم ، والعمد المربوعة ، وطيلات العمد ، والقواصر وحدة شاملة تضارع فى بهائها أى صرح معروف فى العالم القديم . وفيها أيضا حاولت المسيحية أن توفق بينها وبين العالم القديم . فقد وضع بيت عبادة المسيح قبة البانثيون (التى يبلغ اتساعها ١٤٢ قدماً وارتفاعها بأكمله ١٤٢) فوق باسلقا قسطنطين كما أقسم برامنتى أن يفعل ، ولم يجبن عن أن يعلو بالعمد القديمة ذلك العلو الشامخ الذى لا نظير له فى سجلات التاريخ القديم .

ولم ينقطع ميكل أنچيلو عن العمل حتى بلغ التاسعة والثمانين من عمره ؛ من ذلك أنه حول جزءا من حمامات دقلديانوس فى عام ١٥٦٣ إلى كنيسة سانتا ماريا دجلى أنچيلى وديرها استجابة اطلب پيوس الرابع ، ثم وضع تصميم بورتا بيا Porta pia أحد أبواب المدينة . ووضع للفلورنسيين المقيمين فى رومة نموذجاً لكنيسة ، قال عنه ڤاسارى ، ولعله كان مدفوعاً فى ذلك بتحمسه الشديد إلى أستاذه وصديقه الشيخ ، إنه « أجمل ما وقعت عليه عين إنسان »[٦٢]. لكن أموال الفلورنسيين فى رومة نفذت فلم يقم البناء .

وخارت قوة الفنان الجبار فى آخر الأمر ، وكانت قوة لا يكاد يصدق الإنسان وجودها فيه . وكان وهو فى الثالثة والسبعين من عمره قد بدأ يشكو من داء الحصوة ، ويلوح أنه قد وجد ما يخفف علته فى بعض الأدوية أو المياه المعدنية ، ولكنه قال : « إنى أؤمن بالصلاة والدعاء أكثر مما أؤمن بالدواء » ، وكتب بعد اثنى عشر عاماً إلى ابن أخ له يقول : « أما إذا سألتنى

عن حالى فإنى أعانى جميع الأمراض التى تصيب الطاعنين فى السن ، فالحصوة تمنعنى من التبول ، وحقوى وظهرى متصلبان تصلباً يمنعنى فى كثير من الأحيان عن صعود الدرج »[٦٣]، ومع ذلك فقد ظلّ حتى سن التسعين يخرج إلى الخلاء مهما تكن حالة الجو .

وكان يترقب منيته باستسلام المؤمن وانشراح الفيلسوف . وقد قال لفاسارى يوماً ما : « لقد بلغت من الكبر درجة يخيل إلى معها أن الموت يجذبنى من ردائى ويدعونى إلى السير معه »[٦٤] . ويمثله نقش برنزى بارز ذائع الصيت من صنع دانييلى دا فلتيرا ذا وجه مغضن من فرط الألم ، شاحب من كبر السن . وأخذ فى شهر فبراير من عام ١٥٦٤ يزداد ضعفاً يوماً بعد يوم ، ويقضى معظم وقته نائماً فى كرسيه الساند . ولم يترك وصية بل كل ما فعله أنه « أسلم روحه لله ، وجسمه للأرض ، ومتاعه لأقرب أقربائه »[٦٥]. وأسلم الروح فى ١٨ فبرايرمن عام ١٥٦٤ وهو فى التاسعة والثمانين من العمر ، ونقلت جثته إلى فلورنس ، حيث دفن فى كنيسة سانتا كروس (الصليب المقدس) باحتفالات دامت عدة أيام . ووضع فاسارى له تصميم قبر فخم أظهر فيه منتهى التقى والورع .

وقد حكم معاصروه ، وأيد حكمهم مر العصور ، على أنه أعظم من ظهر على وجه الأرض من الفنانين ، رغم ما يتصف به من عيوب لا حصر لها . وهو ينطبق عليه أتم انطباق تعريف « أعظم الفنانين » الذى وضعه رسكن ، لأنه « أظهر فى مجموعة أعماله أكبر عدد مستطاع من أعظم الأفكار » — أى الأفكار « التى تحرك أعظم مواهب العقل وتسمو بها »[٦٦] . فقد كان أولا رساماً ممتازاً ، كانت رسومه من الكنوز التى يعتز بها أصدقاؤه الذين أهداها إليهم أو اختلسوها منه . وفى وسعنا أن نرى هذه الرسوم اليوم فى كاسا بورنارتى Casa Buonartti بفلورنس ، أو فى خزانة الرسوم بمتحف اللوفر . وهى تضم رسوماً تخطيطية لواجهة كنيسة سان لورندسو ، ورسوم

يوم الحساب ودراسة جميلة لسيبيله ، وصورة تخطيطية للقديسة آن ، لا تكاد تقل فى دقة فكرتها عن صورة ليوناردو نفسه ، والصورة الغريبة التى رسمها لڤتوريا كولنا الميتة ، وهى ذات وجه لا تستبان معارفه وثديين ذابلين . وقد رجع فى حديث له نقله عنه فرانتشيسكو ده هولندا Francisco de Hollanda بجميع الفنون إلى فن التصميم فقال :

إن فن التصميم أو الرسم الدقيق . . . هو أساس فنون التصوير الملون ، والحفر ، والعمارة ، وكل شكل من أشكال التمثيل وجوهرها ، كما هو الأساس والجوهر للعلوم بأجمعها . ومن استطاع أن يتقن هذا الفن ويبرع فيه حصل على كنز عظيم . . . ذلك أن جميع أعمال العقل البشرى واليد البشرية إما أن تكون هى التصميم نفسه وإما أن تكون فرعاً من ذلك الفن(٦٧) .

وظل وهو يصور بالألوان رساماً أقل اهتماما باللون منه بالخطوط ، يسعى قبل كل شىء لرسم صورة معبرة مفصحة ، أو التعبير بالفن عن موقف آدمى ، أو نقل فلسفة للحياة عن طريق الرسم والتخطيط . وكانت يده هى يد فيدياس أو أپليز ، وصوته صوت أرميا أو دانتى . ولسنا نشك فى أنه فى أحد تنقلاته بين فلورنس وروما قد وقف عند أرڤيتو ودرس صور العرايا التى رسمها سنيوريلى فى تلك البلدة . وقد أوحت إليه هذه الصور مضافة إلى مظلمات چيتو ومساتشيو بطراز لا يماثله مع ذلك طراز آخر احتفظ به التاريخ . وقد أدخل فى فنه ، وأظهر فيه من النبل أكثر مما أدخله فى الفن وأظهره فيه غيره من الفنانين لا نستثنى منهم ليوناردو ، أو رفائيل ، أو تيشيان ؛ ولم يكن يلهو بالزخرف أو السفاسف ؛ ولم يعبأ بالصغائر ، أو بالمناظر الطبيعية ، أو بالخلفيات المعمارية لصوره أو بالنقوش العربية الطراز ؛ بل كان يترك موضوعه يقف وحده غير مزدان ولا مزخرف . ذلك أن عقله قد استحوذت عليه رؤى سامية ، خلع عليها شكلا بقدر ما تستطيع اليد أن تخلع على الرؤى أشكالا ، تصورها عرافات ،

ومتنبئين وقديسين ، وأبطالا ، وأربابا . وقد استخدم فنه الجسم الآدمى وسيلة له وواسطة ، ولكن هذه الأشكال البشرية ، كانت عنده هى التجسيم المعذب لآماله ، ومخاوفه ، وفلسفته المضطربة ، وعقيدته الدينية التى خبا لهيبها .

وكان النحت فنه الخاص المحبب المميز له عن غيره من الفنانين ، لأنه هو أعظم الفنون التشكيلية . ولم يلون تماثيله فى يوم من الأيام لأنه كان يشعر بأن شكلها كفايتها ، بل إن البرنز نفسه كان فيه من اللون أكثر مما يطيق ، ولهذا قصر نحته على الرخام(٦٨) ، وكانت كل صوره ومبانيه وثيقة الارتباط بالنحت حتى قبة كنيسة القديس بطرس نفسها . وقد أخفق فى أن يكون مهندس عمارة (إذا استثنينا من قولنا هـذا تلك القبة الفخمة) ، لأنه كان يصعب عليه أن يتصور بناء إذا لم يكن فى صورة الجسم الآدمى ونسبه ، ولم يكن يطيق أن يراه إلا من حيث هو مستودع للتماثيل ؛ وكان يريد أن يغطى بتماثيله السطوح كلها بدل أن يجعل السطوح عنصراً من عناصر الشكل . وكان النحت أشبه بحمى تنتابه ولا تفارقه ، وكان الرخام فى ظنه يخفى فى طياته سراً يصر على كتمانه ، ويعتزم هو أن ينتزعه منه ، غير أن هذا السر كامن فى نفسه هو ، وهو أدق من أن يكشف عنه جملة وتفصيلا . وقد ساعده دوناتلو بعض المساعدة على إعطاء الرؤى الباطنية صورة ظاهرة ، وقدم له دلاكورشيا معونة أكثر من دوناتلو فى هذه الناحية ، أما اليونان فكانت معونتهم له أقل من الاثنين . وقد حذا حذو اليونان فى تكريس معظم فنه للجسم الآدمى ، وترك تماثيله أكثر تعمما تكاد تتبع كلها نمطاً خاصاً ، كما يتبين لنا ذلك فى تماثيل النساء القائمة على قبور آل ميديتشى . ولكنه لم يستطع قط تمثيل الطمأنينة المجردة من الانفعال التى نراها بادية على وجوه التماثيل اليونانية قبل العصر الهلنستى ، لأن مزاجه لم يكن يجيز له أن يعنى بتمثيلها ، ولأنه لم يكن يجد فائدة فى تصوير شكل لا يعبر عن شعور ما ، وكانت تعوزه القدرة

على الكبح والاحتجاز التى كانت عند اليونان والرومان الأقدمين ، كما كان يعوزه الشعور بتناسب الأجزاء ؛ فقد جعل الكتفين أعرض مما يوائم الرأس ، وجعل الجذع أقوى مما يناسب الأطراف ، كما جعل الأطراف نفسها معقدة بالعضلات ، كأن الآدميين والأرباب جميعاً مصارعون متوترة عضلاتهم من شدة الكفاح ، ولا يسعنا إلا أن نعترف أن فن الأسلوبيين أو النمطيين(*) وتشويه الرسوم قد بدءا بهذه المغالاة المسرحية فى الجهود العضلية والانفعالات النفسية .

ولم يوجد ميكل أنجيلو مدرسة خاصة كما أوجد رفائيل ؛ ولكنه درب طائفة من الفنانين الممتازين ، وكان له عليهم نفوذ قوى شامل ، وكان من تلاميذه ججليلمو دلا پورتا Guglelmo della Porta الذى صمم لبولس الثالث فى كنيسة القديس بطرس تابوتاً لا يكاد يقل روعة عن مقابر آل ميديتشى . غير أن من خلفوا أنجيلو من رجال النحت والتصوير قلدوه فى مغالاته دون أن يعوضوا هذا العيب بعمق التفكير والشعور ، وبالتفوق فى أصول الصنعة . والحق أن الفنان العظيم هو فى العادة الذروة العليا لتقليد ، وأسلوب ، ونمط ، ومزاج تاريخى ؛ وتفوقه نفسه تنتهى به سلسلة من التطورات لا يبقى بعده شىء منها ؛ ولهذا تأتى من بعده لا محالة فترة من المحاكاة الضعيفة والاضمحلال ، ثم يبدأ مزاج جديد وتقليد جديد فى النماء ، ونرى فكرة جديدة ، ومثلا أعلى جديداً ، أو أصولا للفن جديدة تكافح مستعينة بمائة من التجارب الغريبة كى تصل إلى نظام جديد ، وإلى شكل أصيل يتكشف عن طراز جديد .

وعلينا أن نقول كلمة أخرى تتسم من جانبنا بالخضوع والتواضع . تلك هى أن الأوساط منا نحن الآدميين ، حتى فى الوقت الذى يضعون فيه أنفسهم موضع الحكام على الصفوة الممتازين ، يجب ألا تعوزهم فضيلة

(*) التمسك بأسلوب معين أو السير على نمط بعينه . (المترجم)

الاعتراف بفضل أولئك الصفوة الأخيار وعبقريتهم . ويجب ألا نستحى من عبادة الأبطال ، إذا لم نتخل فى خارج أضرحتهم عن إحساسنا بالتمييز بين مزاياهم وعيوبهم . ونحن نجل ميكل أنجيلو لأنه ظل طوال حياته الطويلة المعذبة يخلق وينتج آية فنية رائعة فى كل ميدان من ميادين الفن الرئيسية . وإنا لنرى هذه الروائع تنتزع من لحمه ودمه ، ومن عقله وقلبه ، إذا صح هذا التعبير ، حتى تتركه إلى وقت ما ضعيفاً من كثرة ما أبدع وخلق ، ونرى هذه الروائع تتشكل بمائة ألف ضربة من مطرقته ومنحتته ؛ وقلمه وفرشاته ؛ نراها تتشكل واحدة فى إثر واحدة ، كأنها مخلوقات خالدة تأخذ مكانها بين أشكال الجمال أو المعانى الباقية أبد الدهر . إن عقولنا لأضعف من أن تعلم حقيقة الله سبحانه ، وهى عاجزة عن فهم الكون الذى اختلط فيه ما هو فى الظاهر خير وشر ، وعذاب وجمال ، ودمار وسمو ؛ ولكننا إذا كنا فى حضرة أم تحنو على طفلها ، أو عبقرى يخلق من الفوضى نظاماً ، ويكسب المادة معنى ، والصورة أو الفكرة نبلا وعظمة ، أحسسنا بأننا أقرب ما نستطيع أن نكون إلى الحياة ، والعقل ، والقانون ، التى يتكون منها عقل العالم الذى لا يمكن أن تدركه العقول .

حاشيـــة

لقد كان من التجارب الطيبة العميقة التى نحمد الله عليها أن درسنا هذا العدد الجم من الدراسات والشخصيات التى صادفتنا فى تلك القرون الغنية المضطربة . ألا ما أعظم ثراء النهضة الذى لا حد له ، وحسبك أنها استطاعت حتى فى عهد اضمحلالها أن تنجب رجالا من أمثال تنتورتو وڤيرونيزى ، وأريتينو ڤاسارى ، وبولس الثالث وياليسترينا ، وسان سوڤينو وپلاديو ، والدوق كوزيمو وتشيليني ؛ وأنها أثمرت فى الفن أمثال قاعات قصر الأدواق ، وقبة القديس بطرس ! وما أعظم هذه الحيوية المروعة التى كانت تكمن بلا ريب فى أولئك الإيطاليين من رجال النهضة الذين يحيط بهم من كل جانب العنف والغواية ؛ والخرافات ، والحروب ، ولكنهم مع ذلك كانوا يحسون أقوى إحساس بكل صورة من صور الجمال وبكل آية من آيات الفن ، وينفثون حمم عواطفهم وانفعالاتهم وفنهم ، وعمارتهم ، واغتيالاتهم ، وآيات نحتهم ، وصلاتهم الجنسية غير المشروعة ، وصورهم وسطورهم ، وعذاراهم الجميلة وصورهم المشوهة ، وأناشيدهم وأشعارهم المتصنعة ، وبذاءتهم وتقواهم ، وفجورهم وصلواتهم كأن إيطاليا كلها كانت بركاناً ثائراً يخرج منه هذا كله ! ترى هل وجد فى أى مكان آخر على ظهر الأرض مثل هذا العمق وهذه القوة فى الاستجابة إلى الحياة ! إننا لا نزال إلى هذا اليوم نشعر بقوة هذا الوحى ، وإن متاحفنا لتفيض بما لا تتسع له من روائع هذا العصر الملهم المحسوس .

وإنا ليصعب علينا أن نصدر عليه حكماً هادئاً ؛ وإذا ما أعدنا على القارئ ما وجه إليه من التهم فإنا نفعل ذلك كارهين . وأول هذه التهم أن النهضة (ونحن نقصر هذا اللفظ على النهضة فى إيطاليا) قامت من الناحية المادية على الاستغلال الاقتصادى للكثرة الساذجة على أيدى القلة البارعة .

ذلك أن ثروة رومة البابوية قد جاءت من النقود الصغيرة التي تبعث بها آلاف الآلاف من بيوت الصالحين الأتقياء في أوربا ؛ وإن بهاء فلورنس كان مصدره عرق الدهماء المغمورين الذين كانوا يكدحون الساعات الطوال ، وليس لهم حقوق سياسية ، ولم يكونوا يمتازون عن رقيق الأرض في العصور الوسطى إلا باشتراكهم في زهو وخيلاء في مجد الفن المدني ولألائه ، وفي حياة المدنية الثائرة وما فيها من دوافع ومغريات . وكانت النهضة من الناحية السياسية هي إحلال الألجاركيات التجارية ، والدكتاتوريات العسكرية محل حكومات المدن الجمهورية المستقلة ، كما كانت من الناحية الأخلاقية انتقاضاً وثنياً قوض الدعامة الدينية للقانون الأخلاقي ، وأطلق العنان للغرائز البشرية ، وترك لها حرية فظة لا يتورع أصحابها عن استخدام الثروة الجديدة التي آلت إليهم عن طريق التجارة والصناعة كما يحلو لهم دون وازع من ضمير أو دين . أما الدولة ، بعد أن خرجت من رقابة الكنيسة ، التي أضحت هي نفسها سلطة زمنية وعسكرية ، فقد نادت بأنها فوق القوانين الأخلاقية في الحكم ، والدبلوماسية ، والحرب .

وكان فن النهضة (ونحن نواصل سرد التهم) جميلا ، ولكنه قلما كان سامياً رفيعاً . فقد كان يفوق الفن القوطي في تفاصيله ، ولكنه ينقص عنه في العظمة ، والوحدة ، والأثر الكلي فيمن يشاهده ؛ وقلما كان يصل إلى كمال الفن اليوناني أو جلال الفن الروماني ؛ وكان هو صوت أرستقراطية ذات ثروة ، فرقت بين الفنان والصانع الماهر ، وانتزعته من الشعب انتزاعاً ، وجعلته يعتمد على الأمراء وأصحاب الثراء المحدثين . وفقد هذا الفن روحه حين استسلم لعهد ميت قديم ، وأذل العمارة والفن وأخضعهما لأشكال قديمة أجنبية عنهما . وهل ثمة ما هو أكثر سخفاً من وضع واجهات يونانية — رومانية للكنائس القوطية كما فعل ألبرتي في فلورنس وريميني ! وربما كان إحياء الفن القديم من أوله إلى آخره من الأخطاء المفجعة . ذلك أن الطراز إذا مات لا يمكن أن تبعث فيه الحياة بحق إذا عادت الحضارة التي يعبر عنها

إلى الحياة ، لأن قوة الطراز وسلامته تكمنان فى ائتلافه مع حياة زمانه وثقافته . ولقد كان فى العصر العظيم الذى ترعرع فيه الفن اليونانى والرومانى قيوداً رواقية رفعها التفكير اليونانى إلى مقام المثل الأعلى ، وكثيراً ما تحققت فى أخلاق الرومان ، ولكن هذه القيود لم تكن تتفق بحال مع ما كان يتسم به عهد النهضة من حرية ، وانفعال ، واضطراب ، وإفراط . وأى شىء يتعارض ومزاج الإيطاليين فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر أكثر مما يتعارض معه السقف المستوى ، والواجهة الرباعية المنتظمة ، والصفوف الكئيبة من النوافذ التى لا تختلف واحدة منها عن الأخرى ، والتى كانت وصمة فى جبين قصور عصر النهضة ؟ ولما أن ملت العمارة الإيطالية هذا التكرار المسئم ، وتلك العودة المتكلفة إلى الطراز القديم ، انطلقت انطلاق التاجر البندقى الذى تغتصب أمواله لتعطى إلى تيشيان ، تفرط فى الزخرف والبهاء ، وانحدرت من الطراز القديم إلى الطراز المشوه الجديد .

كذلك لم يستطع فن النحت القديم أن يعبر عن روح النهضة . ذلك أن القيود لا بد منها للنحت ، وهذه الوسيلة الباقية على الأيام لا يمكن أن تحسن التعبير عن تلوٍّ أو ألم هو بطبيعته قصير الأجل . إن النحت حركة مخلدة ، وانفعال انصرف أو سيطر عليه صاحبه ، وجمال أو شكل احتفظ به من أثر الأيام فى المعدن المتجمد أو فى الحجر الذى يقاوم فعل الزمن . ولعل هذا هو السبب فى أن أعظم ما خلفه حجر النهضة من ثمار النحت هو المقابر أو تماثيل العذراء الباكية التى استطاع بها الإنسان القلق أن ينال الهدوء والطمأنينة فى آخر الأمر . ولقد ظل دوناتلو ، رغم ما بذل من الجهود ليقلد المثالين الأقدمين ، قوطياً يكافح كى يصل إلى هذه الغاية ويأمل فى الوصول إليها . وكان ميكل أنچيلو يضع لنفسه قوانينه ، فكان كأنه مارد جبار سجين فى مزاجه ، يكافح عن طريق تصوير **العبيد والأسرى** كى يصل إلى ساحة السلام والجمال . ولكن إسرافه فى الانفعال وعدم التقيد بالقوانين حرمه

الراحة ؛ ولقد كان التراث اليونانى بعد عودته عبثاً باهظاً كما كان نعمة وبركة .. فقد أغنى النفس الحديثة بما أبرزه من المثل النبيلة ، ولكنه كاد يخنق تلك الروح الفتية — التى كانت ترعرعت توا ونهضت — تحت عبء عدد لا يحصى من العمد ، والتيجان ، والطيلات والقواصر . ولعل هذه العودة إلى القديم ، وهذه العبادة للنسب (حتى فى الحدائق) ، قد حالت دون نماء فن إيطالى موائم لبيئته ؛ كما عاق بعث اللغة اليونانية على أيدى الكتاب الإنسانيين نمو الأدب باللغة القومية .

وقد أفلح التصوير فى عهد النهضة فى التعبير عن لون ذلك العهد وانفعالاته . ووصل بالفن إلى درجة من الرقة لم يعل عليها قط فى وقت من الأوقات . لكنه هو أيضاً لم يخل من أخطاء وعيوب . فقد كان أكبر ما يهتم به هو الجمال الشهوانى الماثل فى الأثواب الفخمة والأجسام الموردة . وحتى صوره الدينية نفسها . كانت تنم عن عواطف شهوانية تهتم بالأشكال الجسمانية أكبر مما تهتم بالمعانى الروحية ، وإن كثيراً من صور الصلب فى العصور الوسطى لتصل فى النفس إلى أعماق أبعد مما تصل إليها صور العذراء المتحاشمة فى فن النهضة . ولقد جرأ الفنانون الهولنديون والفلمنكيون على تصوير وجوه غير جذابة وأثواب عارية غير ذات جمال ، وعلى أن يبحثوا وراء هذه الظاهرة البسيطة عن أسرار أخلاق الناس وعن عناصر الحياة ؛ وما أكثر ما تبدو صور البندقية العارية — حتى عذارى رفائيل نفسها — بجانب صـــورة **الافتتان بالحمل** لڤان إيك Van Eyck ! وليس ثمة صورة تفوق صورة **يوليوس الثانى** لرفائيل . ولكن هل فى مائة الصور الذاتية التى أخرجها الفنانون الإيطاليون ما يضارع تصوير رمبراندت الصادق لنفسه أو انتشار فن التصوير فى القرن السادس عشر ليدل على قيام طبقة الأثرياء المحدثين . وعلى شغفهم بأن يبصروا

بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ذيوع شهرتهم ؟ ولقد كان عصر النهضة عصراً براقاً لماعاً ، ولكن مظاهره كلها يسرى فيها شيء من التظاهر وعدم الإخلاص ، وازدهاء بالثياب الفاخرة الغالية ، وبناء أجوف من السلطان المزعزع يعتمد على قوة من داخله ويريد أن ينقض ويصبح كومة من الخرائب إذا ما مسته أيدى جماعة من الغوغاء قاسية القلب ، أو هزته صرخة من راهب غاضب لا مقام له .

ترى ماذا نقول فى هذا الاتهام الشديد لعصر أحببناه بكل ما فى صدور الشباب من حماسة ؟ لن نحاول دحض هذا الاتهام ؛ فكثير منه صحيح وإن كان مثقلا بمقارنات ظالمة . ودحض التهم قلما ينفيها نفيا قاطعا ، ومعارضة نصف حقيقة بنصف حقيقة مضادة لها عبث لا طائل من ورائه ما لم يكن فى الإمكان مزج النصفين لتتكون منهما نظرة أوسع وأعدل . وليس من ينكر أن ثقافة النهضة كانت ثقافة أرستقراطية قامت على ظهور الفقراء الكادحين ، ولكن أية ثقافة لم يكن هذا شأنها مع الأسف الشديد ؟ وما من شك فى أن كثيرا من الأدب والفن قلما كان ينشأ دون تركيز الثروة بعض التركيز ؛ وحتى الكتاب العدول أنفسهم لا بد لهم من كادحين غير منظورين ، يستخرجون كنوز الأرض ، ويزرعون الطعام ، وينسجون الثياب ، ويصنعون المداد . ولسنا نريد أن ندافع عن الطغاة المستبدين ، فإن منهم كآل بورجيا من يستحق الخنق ؛ ومنهم من بدد فى مظاهر الترف الكاذب الأموال المأخوذة من عرق الشعب ودمائه ؛ ولكنا نعتذر بشيء على فعال كوزيمو وحفيده لورندسو اللذين فضلهما أهل فلورنس بلا ريب على حكم ذوى المال الذى شاعت فيه الفوضى . أما عن الانحلال الأخلاقى ، فقد كان هو ثمن التحرر العقلى ؛ ومهما كان هذا الثمن غاليا ، فإن التحرر هو الحق الطبيعى الذى ورثه العالم الحر ، وهو نسيم الحياة الذى تستنشقه أرواحنا فى هذه الأيام .

وكانت الدراسات العميقة المخلصة التى أحيت الآداب والفلسفة القديمة من عمل إيطاليا . وفيها نشأت الآداب الحديثة الأولى ، وكان منشؤها هو هذا الإحياء وذاك التحرر ؛ ولسنا ننكر أنا لا نجد بين الكتاب الإيطاليين فى ذلك العهد من يضارع إرزمس وشيكسبير ، ولكن إرزمس نفسه كان شديد الحنين إلى هواء إيطالية النهضة الصافى الحر ، كما إن إنجلترا فى عصر الملكة إلزبث كانت مدينة إلى إيطاليا — إلى « الإنجليز المصطبغين بالطبقة الإيطالية » — ببذور ازدهارها ، فقد كان أريستو Arisoto وسنادسارو Sannazaro النموذجين اللذين نسج اسپنسر وسدنى على منوالهما كما كانا أبوين لهذين الكاتبين الإنجليزيين ؛ وكان لمكيڤلى وكستجليونى أثر عظيم فى إنجلترا فى عهد إلزبث واليعقوبيين . ولسنا واثقين من أن بيكن وديكارت كانا يستطيعان القيام بعملهما إذا لم يكن پمپوناتسى ومكيڤلى ، وتيليزيو Telesio وبرونوا قد مهدوا لهم الطريق بعرقهم ودمائهم .

وما من أحد ينكر أن عمارة النهضة عمارة أفقية تمتد فى السعة أكثر مما تعلو فى السماء ، وأنها لهذا تبعث فى النفس الغم والاكتئاب ، ونستثنى من هذا على الدوام القباب الفخمة التى تعلو فى سماء فلورنس وروما . أما الطراز القوطى الذى يرتفع عمودياً ويبعث فى النفس النشوة فإنه مظهر لدين يصور حياتنا على هذه الأرض فى أنها منفى للروح ، ويعقد آمال الإنسان على السماء مسكن الأرباب . وأما العمارة اليونانية — الرومانية القديمة فإنها تعبر عن دين يُسكن أربابه فى الأشجار ومجارى المياه ، وفى الأرض ، وقلما يجعل مقارها فى أماكن أعلى من جبل فى تساليا ؛ ولم تكن تتطلع إلى أعلى لتجد الأرباب . ولم يكن فى مقدور هذا الطراز القديم البارد الهادئ أن يعبر عن روح النهضة الشكسة المضطربة ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن يسمح له بالغناء ؛ بل حفظ التنافس الكريم العادل آثار هذا الفن ونقل مثله العليا وأنماطه الرئيسية لتكون جزءاً — وشريكاً لا مسيطراً — من فننا المعمارى فى هذه الأيام . نعم إن

إيطاليا لم تبلغ فى العمارة ما بلغته العمارة اليونانية أو القوطية ؛ ولم يصل فن النحت فيها ما وصل إليه فى بلاد اليونان القديمة ؛ ولعلها لم تسم فى هذا الفن إلى ما سمت إليه آيات الفن القوطى فى تشارتر وريمس ؛ ولكنها استطاعت أن تنجب فناناً نحت لآل ميديتشى مقابر لا تقل روعة عن أعمال فيدياس وتماثيل باكية للعذراء خليقة ببراكستلز Praxiteles .

فإذا انتقلنا إلى فن التصوير فى عهد النهضة لم نجد حاجة إلى أن نقول فيه كلمة اعتذار . فهو لا يزال الذروة التى وصل إليها هذا الفن فى التاريخ كله . لقد اقتربت أسبانيا من هذه الذروة فى أيام الهدوء على أيدى فيلاسكويز Velàsquez ، وموريلو Murillo ؛ وريبرا Ribera ، وزربران Zurdaràn وألجريكو Il Greco ؛ واقتربت منها كذلك بدرجة أقل فلاندرز وهولندة على أيدى روبنز ورمبراندت . أما المصورون الصينيون واليابانيون فقد سموا إلى ذرى خاصة بهم ، وتبدو لنا صورهم أحيانا كأنها ذات عمق خاص شديد ، إن لم يكن لشىء فلأنها تنظر إلى الإنسان نظرة الإكبار . لكن فلسفة هاتين الأمتين الأخيرتينَ العميقة التفكير ، وما تتسم به زخارفهما من رشاقة وظرف يعلو عليها كلها ما فى فن المصورين الفلورنسيين رفائيل وكريجيو ، والمصورين البنادقة من قوة وتعقيد واسعى المدى ، وما فى الألوان من حيوية وحماسة . نعم إن فن التصوير فى عصر النهضة كان فناً جسدياً شهوانياً ، وإن كان قد أخرج بعض روائع الصور الدينية التى تعد من أرقى ما أخرجه هذا الفن ، كما أخرج طائفة من الصور التى تصل إلى السماك الأعلى فى روحانيتها ونبلها — كالتى نشاهدها فى سقف معبد سستينى . غير أن هذه الشهوانية لم تكن أكثر من رد فعل طبيعى سليم ، ذلك أن الجسم البشرى طالما حقر وندد به ، كما أن النساء قد قاسين طوال القرون الظالمة كثيراً من ضروب التشنيع يُوجهها إليهن التنسك الشديد القاسى ، وكان من الخير أن تؤكد الحياة ، وأن يرفع الفن من جديد ، شأن جمال الأجسام البشرية الصحيحة السليمة . لقد ملت النهضة

تريد ذكر خطيئة الإنسان الأولى ، ودق الصدور حزناً وندما ، وما سوف يلقاه الإنسان بعد الموت من أهوال خرافية ؛ ولهذا أدار ظهره نحو الموت ، وولى وجهه نحو الحياة ؛ وغنى قبل شلر Schiller وبيتهوفن Beethoven بزمن طويل للبهجة والمرح نشيد الطرب الذى ليس له نظير .

وقضى عصر النهضة حين أحيا الثقافة اليونانية — الرومانية القديمة ، على سيطرة العقلية الشرقية على أوروبا ، وهى السيطرة التى دامت ألف عام كاملة . وانتقلت أنباء التحرر العظيم من إيطاليا مجتازة مائة من المسالك تتسلق الجبال وتخترق البحار إلى فرنسا ، وألمانيا ، وفلاندرز ، وهولندة ، وإنجلترا ؛ فقد نقل العلماء أمثال الييندرو Aleandro وأسكالجير Scaliger ، والفنانون أمثال ليوناردو ، ودل سارتو ، وبريماتشيو ، وتشيليني ، وباردونى ، نقل هؤلاء النهضة إلى فرنسا ؛ ونقلها المصورون ، والمثالون ، والمهندسون إلى بست Pesth ، وكراكاو ، ووارسو ، وميتشيلزو Michelozzo إلى قبرص ، وغامر بليني الكافر فسافر بها إلى اسطنبول . وعاد بها كولت Colet ولينا كر Linacre من إيطاليا إلى إنجلترا ، كما عاد بها أجريكولا Agricola ورتشلين Reuchlin إلى ألمانيا . وظل تيار الأفكار ، والأخلاق ، والفنون نحو مائة عام يتدفق من إيطاليا نحو الشمال ، فكانت أوربا الغربية كلها من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٦٠٠ تعترف بأن هذه البلاد أم الحضارة الجديدة فى العلم ، والفن ، والآداب « الإنسانية » ، التى حنت عليها وأرضعتها لبانها ، ونشأتها . وحتى فكرة الرجل الكامل السميدع ، والفكرة الأرستقراطية عن الحياة والحكم ، قد جاءتا من الجنوب لتصوغا آداب الناس وأشكال الدول فى الشمال . وهكذا كان القرن السادس عشر ، الذى اضمحلت فيه النهضة فى إيطاليا ، عصر نماء ووفرة فى فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفلاندرز ، وأسبانيا .

وطغت على أثر النهضة إلى حين شـــدة النزاع بين حركتى الإصلاح والإصلاح المعارض ، والجدل القائم بين المذاهب والحروب الدينية ؛ وظل

الناس قرناً من الزمان يحتربون ويسفكون الدماء لكي يكونوا أحراراً يعتقدون ما يشاءون ويعبدون كما يحبون ، أو كما يشاء ويحب لهم ملوكهم ؛ وبدا أن صوت العقل قد خفت تحت أسنة الجهاد الديني . لكن هذا الصوت لم يسكن كل السكون ، فإن رجالا من أمثال إرزمس ، وبيكن ، وديكارت ظلوا في خلال هذا الدمار المفجع يرددون هذا الصوت في شجاعة ، ويرفعون به عقيرتهم من جديد وفي قوة متزايدة ؛ وصاغه اسپنوزا صياغة جديدة فخمة رائعة ، فلما أقبل القرن الثامن عشر ولدت روح النهضة الإيطالية مرة أخرى في عصر الاستنارة الفرنسي . وظل هذا اللحن يتردد من ڤلتير وجبن Gibbon إلى جوته وهين Heine ، إلى هوجو وفلوبير ، إلى تين وأناطول فرانس خلال الثورات والثورات المضادة ، والتقدم والرجعية ، يبقى بعد الحرب بطريقة ما ، ويرفع في أناة من مكانة السلم وشأنها . وإنا لنجد اليوم في كل مكان في أوربا والأمريكتين ، أرواحاً متحضرة قوية — متزاملة متآلفة في بلد العقل — تتغذى وتعيش على ذلك التراث ، تراث حرية العقل ، والإحساس بالجمال ، والتفاهم المتسم بالتواد والتعاطف ، أرواحاً تعفو عن مآسي الحياة ، وتستمتع بمباهج الحواس ، والعقل والروح ، ويستمعون بقلوبهم على الدوام أغاني النهضة العذبة وسط أناشيد الحقد ، وأعلى من جلجلة المدافع .

شكراً لك أيها القارئ الصديق

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى جزء ١٨ ، والأرقام الرومانية الصغيرة: إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى الكتاب المقدس .

CHAPTER XIX

1. Poggio, *Facetiae*, in Burckhardt 521.
2. Machiavelli, *Discourses*, i, 56.
3. Burckhardt, 519.
4. Ibid., 520.
5. Thorndike, Lynn. *History of Magic and Experimental Science*, IV, 562.
6. Jusserand. J. J., *English Wayfaring Life in the M. A.*, 377.
7. Ibid.,
8. Aretino, *Ragionomenti del Zoppino*, in Burckhardt, 529; Sismondi, 744.
9. Ibid.
10. Pastor, V, 349.
11. Ibid., 349; Exodus, xxii, 18.
12. Pastor, V, 349.
13. Lea, H. C. *History of the Inquistiou in the M. A.*, III, 540.
14. Simondi, 745; Burckhardt, 528.
15. Lea, op cit., 547.
16. Ibid.
16a. Ibid., 548
16b. Burckhardt, 508.
16c. Thorndike, IV, 761.
16d. Ibid., 435.
16e. Guliccìardini, *Ricordi 57*, in Burckhardt, 518.
16f. Robertson, J.M., *Short History of Freetbought*, I, 369.
16g. Roscoe, *Leo* X, II, 253.
16h. Lacroix, Paul, *Science and Literature in the Middle Ages*, 290.
16i. Burckhardt, 211.
16j. Boccaccio, *Decameron*, viii, 9.
17. In Castiglioni, *History of Medicine* 899.
18. Walsh. J. J., *The Popes and Science*, 75.
19. Ibid., 115.
19a. Cornaro, L., *Art of Livig Long*, 43f.
20. Castiglioni 368.
20a. Cornaro, 92, 103.
20b. Ibid., Introd., 31.
20c. Ibid.
21. Lanciani, *Golden Days*, 87.
22. Molmenti, Part II, Vol. I, 159f.
23. Lanciani, 86.
24. Thorndike, *Science and Thought in the Fiteenth Century*, 221.
24. Sarton, IIIb, 1658.
25. Garrison, 187.
27. Molmenti, Part I Vol. II, 54.
28. Pastor, V, 61.
29. Luther, *TableTalk*, in Pastor, V, 65.
30. Garrison, 191.
31. Ibid.
32. Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, II, 1119.
33. Castiglioni, 454.
34. Lanciani, *Golden Doys* 84.
35. Sudhoff in Garrison, 191.
36. Castiglioni, 453.
37. Sarton, IIIa, 274.
38. Castiglioni, 465.

39. Ibid., 459, Lacroix, *Prostitution*, II, 951.
40. Molmenti, Part I, Vol. II, 262.
41. Robertson, *Freethought*, I, 369.
42. Ibid.
43. Owen, *Skeptics*, 215.
44. *Cambridge Modern History*, II, 703.
45. Pastor, V, 157.
46. Owen, 208.
47. Ibid.
48. 209.
49. *De incantatione*, ch. iii, in Symonds, *Italian Literature*, II, 476.
50. Ibid., ch. xii, in Symonds, op. cit., 477.
51. Owen, 201.
52. *De immortalitate animae*, ch. xiv.
52a. Ibid.
53. In Owen, 204.
54. Ibid.
55. *De fato*, iii, 7.
56. In *Cambridge Modern History*, II, 703.
57. Pastor, V, 157.
58. Molmenti, Part 1, Vol, II, 1.
59. Burckardt, 453.
60. Ranke, *History of the Popes*, I, 56.
61. Pastor, I, 27.
62. Pastor, X, 422.
63. *Encyclopadia Britannica*, 11th. ed., XXIII, 85a.
64. Symonds, *Ilatian Lit.*, 479.
65. Ibid.
66. Lea, *Inquisitiou in the M. A.*, III, 576.
67. Erasmus, Epistle xxvi, 34, in Robertson, J. M., *Freethoughl*, I, 370.
68. Guicciardini, I, 4.
69. Mather, F. J., *Western European Painting of Renaissance*, 150.
70. In Villari, *Machiavelli*, I, 417.
71. Guicciardini, i, Introd. vvi.
72. Guicciardiui, *Ricordi*, xxviii, in Burckhardt, 464, Pastor, VIII, 178, and Villari, *Machiavelli*, II, 86.
73. *Ricrdi* civ and ccixvii, in Villari, *Machiavelli*, II, 86.
74. *Opere inedite*, ii, 51, in Sismondi, 389.
75. *Ricordi*, ccclvi, in Villari, II, 85; Guicciardini, *History*, III, 104.
76. Villari, II, 158-9.
77. Ibid., 325.
78. In Roeder, 206.
79. Cf. the letters in Villari, I, 469 and II, 48.
80. In Pastor, V, 160.
81. Machiavelli, *Discourses*, ii, 10.
82. Ibid., 18.
83. In Villari, 344.
84. *Discourses*, iii, 43.
85. Ibid., proem to book ii.
86. Machiavelli, *History*, v, I.
87. Machiavelli, *The Prince*, ch. xxv.
88. *Discourses*, i, 3; *Prince*, iii.
89. Robertson, I, 374.
90. *Discourses*, i, 11.
91. I, 12,
92. I, 11-12.
93. I, 10.
94. II, 2; iii, I.
95. I, 12
96. III, 1.
97. III, 41.
98. I, 9.
99. *History*, v, 2.
100. In Villari, II, 143.
101. *Discoures*, i, 9.
102. *Prince*, i.
103. *Discourses*, i, I, 12.
104. In Villari, II, 151.
105. *Prince*, xi-vii; *History*, vi, I.
106. In Pastor, V, 164.
107. *Prince*, xv.
108. *Prince*, xviii.
109. Ibid., xvii.
110. *Discourses*, iii, 19.
111. Ibid., i, 10.

112. *Prince*, xxi.
113. Ibid., viii.
114. XVIII.
115. Ibid.,
116. VII, xvii.
117. XXVI.
118. Villari, II, 193 ; Treitschke, H. von, *Lectures on Politics*, 29.
119. Bacon, F., *De augmentis scientianum*, vii, 2.
120. Hegel, *Philosophy of History*, in Symonds, *Despots*, 867.

CHAPTER XX

1. Burckhardt, 485.
2. Coulton, *Medieval Panorama*, 192.
3. Plantina, *Vitae*, in Burckhardt, 501.
4. Sismondi, 468.
5. Pastor, V, 84.
6. *Decameron*, i, 2 and 7.
7. Symonds, *Despots*, 458 n.
8. In Roeder, 512.
9. Pastor, I, 31.
10. Molmenti, Part I, Vol. II, 282.
11. Aretino, *Dialogues*, p. 82.
12. Guicciardini, *Considerayione* on Machiavelli's *Dialogues*, p. 82.
12. Guicciardini, *Considerazione* on Machiavelli's *Discourses* (I, 12), in Villari, II, 151.
13. St. Catherine of Siena in Coulton, *Five Centuries of Religion*, II, 399.
14. Pastor, P., 171-3.
16. Robertson, I, 369.
17. Burckhardt, 502.
18. Robertson, 1, 369.
19. Pastor, VI, 443.
20. Postor, X, 457-76.
21. Bandello, *Novels*, Vol. I, Story I ; Maulde' 178.
22. Ibid.
23. Pastor. V, 113.
24. Lea, *Auricular Coufession*, III, 417.
25. Pastor, V, Tymonds, *Despots*, 477.
26. Pastor, V., 132.
27. Aretino, *La eontigiana*, Act. iii, p. 319 of *Works*.
28. Chubb, T. C., *Aretino*, 216.
29. Pastor, I, 26.
30. Molmenti, Part II, Vol. II, 239.
31. Ibid., 238.
32. Castiglion, 464 ; Burckhardt, 400, who considers the estimate exaggeretad.
33. Castiglioni, 464.
34. Molmenti, 260 n.
35. Pastor, VIII, 121.
36. Gregorovius, *Lucpezia*, 96.
37. Symouds, *Italinn* Lit., II, 225.
38. Maulde, 361.
39. Gregorovius, VIIIs, 306.
40. Lacirni, *Goldin Days*, 67.
41. Ibid., 64.
42. Maulee, 390, 164.
43. Ibid., 27. 98.
44. Villari, I, 315.
45. Pastor, V, 105, 127.
46. Burckhardt, 416.
47. An example in Cartwright, *Isabella*, II, 288.
48. Maulde, 48.
49. Burckhardt, 456.
50. Maulde, 353 ; Sismondi, 747.
51. Ibid., 459.
52. Coulton, *From St. Francis to Daute*, 41.
53. In Symonds ; *Italian Lit*, II, 86.
54. Barckhardt, 846.
55. Molmeti, II, II, 92.
56. Burckhardt, 374.
57. Molmenti, 94 ; Taylor, *Leonardo*, 484.
58. Ibid.,
59. Sismondi, 452.
60. Addison, Julia, *Development of Arts and Crafts in the Middle Ages*, 192.
61. Cagnolo in Noyes, Milan, 138.
62. Cartwright, *Isabella*, II, 115.
63. Maulde, 131.
64. Ibid., 70-1.

65. Cartwrioght, *Beatrice*, 177.
66. Pastor, V, 17-9.
67. Symonds, *Despots*, 24 of.
68. In Burckharpt, 404.
69. Ibid.
70 Pastor, VIII, 124.
71. Pastor, V, 107.
72. Ashley, W.J., *Introd. to English Economic History*, 447.
73. Pastor, V, 106.
74. *Combridge Modern History*, I, 250 ; Symonds, *Despots*, 474.
75. Taine · *Rome and Naples*, 172.
76. Chubb, 23.
77. Guicciardini, III, 59.
78. Ibid., V I, 69 ; Machiavelli, *History*, vi. 4.
79. Pastor, V, 184.
80. Sismondi, 456.
81. James *Bologna* 138.
82. Schevill, *Siena*, 223.
83. Robinson and Rolf, 123.
84. Cartwright. *Isabella*, II, 59.
85. Lanciani, 99.
86. Brinton, *The Gonzaga Lords*, 88.
87. Fattorusgo. 247.
88. Thorndike.*Science and T ought in the Fifteenth Century* 53 ; Burckhardt, 374.
89. Friedländer, II, 176.
90. Wright, T., *Homes of Other Days*, 462.
91. Molmenti, II, II 162.
92. *Decameron*, i. 1.
93. Molmenti, 231.
94. Villari, *Savenàrola*, 246.
95. Gibbon, VI, 562.
96 Symonds, *Italian Lit.*, I, 397-8.
97. Vasari, II, 178-9, *Piero di Cosimo*.
98. Pastor, V, 48.
99. In Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 299.
100. Celliei, I, 82.
101. Lang, 302.
102. Castiglione, B., *The Courtier*, p. 76.
103. Ibid., *Oxford History of Music*, Introd. Volvme, 215 ; Lang, 300.
104. *Oxford History*, Introd , 188.
105. In Einstein, Alfred, *The Italian Madrigal*, I, 89.
106. Symonds *Ital. Lit.*, I, 217.
107. Einstein, 7.
108. Tr. Symonds, *Sketches*, II, 332.
109. Rabelias. *Pantagruel*, bk. iv, Prologue.
109. a Grove, *Dictionary of Music*, IV, 809.
110. Einstein, 6, 8.
111. Luther, in Gregorovins, VIIIa, 249.
112. Ascham, *The Schoolmaster*, 87.
113. Machiavelli, *Discourses*, i, 12.
114. Guicciardini, VIII, 354.
155. Pastor, V, 181.

CHAPTER XXI

1. The phrase is from Michelet, *Histoire de France*, VIII i, 2. p. 5.
2. Lacroix, Paul. *Arts of the M.A.*, 99.
3. Guicciardini, I, 147.
4. Guizot, *History of France*, II, 554.
5. *Cambridge Modern History*, I, 240.
6. Rosco, *Leo* X, I, 200-1.
7. Prescott, II, 307.
8. Guizot, II. 511 ; Sismondi, 676.
9. Lacroix, *Prostitution*, II, 1180.
10. Pastor, VII, 105.
11. Ibid., 141 ; Roscoe, *Leo* X, II, 39 ; Gui ciardini, VI, 382, however, thought that Leo agreed.
12. De Grasis in Rolcoe, *Leo* X II, 40.
13. Pastor, VII, 189.

14. Beuf, 222.
15. Guicciardini, VII, 266.
16. Pastor, IX, 27.
17. Chubb, 76.
18. Symonds, *Despots*, 440.
19. Pastor, IX, 73.
20. Burckhardt. 162.
21. Pastor, IX, 91-118.
22. Ibid., 125.
23. Cartwright, *Isabella*, II, 282.
24. Tr.Symonds, *Ital, Lit*, II, 368.
25. Pastor, IX, 266.
26. Ibid., 271.
27. Guicciardini, VIII, 23 of.
28. Pastor, IX, 304.
29. Ibid , 328.
30. 331.
31. Simondi, 687.
32. Young, 330.
33 In Cartwright, II, 272.
34. Guicciardini, IX, 98, 113.
35. Pastor, IX, 362.
36. Ibid., 390-405; Cartwright, II, 260.
37. Pastor, IX, 400, 413.
38. Cuicciardini, IX, 305; Lanciani, 108.
39. Ibid., 107.
40. Cuicciardini, IX, 307.
41. Pastor, IX, 400.
42. Symonds, *Revival*, 444-5.
43. Guicciardini, IX, 308; Pastor; IX, 413.
44. Symonds, *Despots*, 444, Job, x, 18.
45. Guicciardini, IX, 320-2; Pastor, IX, 424.
46. In Cartwright, *Isabella*, II, 270.
47. Burckhardt, 123; Symonds, *Despots*, 445.
48. In Cuicciardini, X, 139.
49. Sismondi, 729; Symonds, *Despots*, 446.
50. Fattorusso, *Florence*, 192.
51. Sismondi. 731.
51. Sismondi. 731.
52. Symonds, *Michelangelo*, 279.
53. Young, 351.
54. Pastor, X, 199.
55. Vasari, II, 295, *Peruzzi*.
56. Symonds, *Michelagelo*, 441.
57. Ibid., 372.
58. 255.
59. Vasari. IV, 119n.
60. Ibid., 202.
61. Ibid., 202.
62. 324.
63. *Combridge Modern History*, II, 67.
64. Pastor. X, 235.
65. Ibid., 322.
66. Letter. of Gregorio da Casale, Oct., 1534, in Young, 358.

CHAPTER XXII

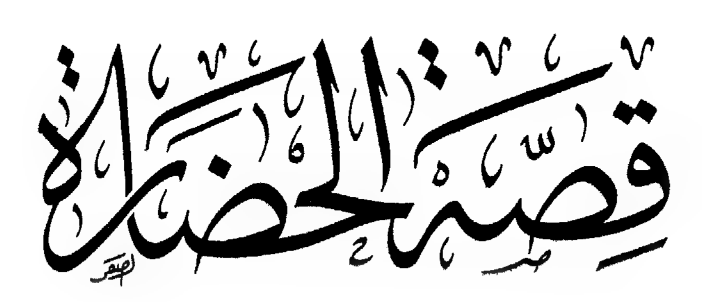
1. Burckhardt, *Cicerone*, in Vasari, IV, 32on.
2. Vasari, IV, 327.
3. Ibid., 329.
4. In. Anderson, *Architecture of the Renaissance in Italy*, 145.
5. This section is especially judebted to Thomae Caldecott Chubb's *Aretino*.
6. Chubb, 46.
7. Vasari, III, 77, *Marcantonio Bolognese*.
8. In Chubb. 117.
9. Symonds, *Ital. Lit.*, II, 395.
10. Ariosto, *Orlando furioso*, xive, 14.
11. Maulde, 391.
12. Symonds, *Lit.*, II, 399-400.
13. Ibid., 404.
14. Chubb, 205.
15. Aretino, *Dialogues*, p. 55.
16. Artino, 108, 83.
17. Roeder, 498.
18. Ibid., 441.
19. Taine *Italy*: *Florence and Venice*, 289.
20. In Gronau, *Titian*, 46.
21. Chubb, 487.
22. Vasari, IV, 286.
23. Ruskin, *Stones of Venice*, I, 10.

24. Vasari, IV, 298.
25. In Mather, *Venetian Painters*, 340.
26. Soulier, G., *Le Tintoret*, 12.
27. Ibid., 19 ; Mather, 342.
28. Soulier, 115.
29. Ruskin, *Stones*, III, 285.
30. Ibid., 395.
31. Symonds, *Fine Arts*, 377.
32. Soulier, 75-6.
33. Ruskin, *Stoues*, II, 248.
34. Siviero, R., *Catalogue of the Second National Exbibition of the Works of Art Recoveured in Germany*, 15.
85. Nather *Venetian Painters*, 396.
36. Ibid., 168.
37. 416 ; Venturi and Skira-Venturi. *Italian Painting : The Creators of the Renaissance*, 164.
38. Rnskin, *Stones*, II, 10.
39. Quoted by E.Herriot in a lecture at Cannes, Jan., 1951.

CHAPTER XXIII

1. Thompson, J. W., 376.
2. Adams, Brooks, *The New Empire*, 90.
8. Barmes, H.E., *History of Western Civilization*, 1, 867.
4. Robertson; J. M., I, 469.
5. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 33.
6. Ibid., 38, 234.334 ; Sismondi, 763.
7. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 273.
8. Coulton, *Medieval Panorama*, 679.
9. Ranke, *History o he Popes*, I, 181.
10. Guicciardini, X, 257.
11. Ibid., 258.
12. Cardan, Jerome, *Book of M Life*, ch. ii.
13. Ibid., ch. vi.
14. Hallam, H., *Literature of Europe*, I, 451-2.
15. Duhem, *Leonardo*, I, 229f ; Wolf, A., *History of Science, Theology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeeuth Centuries*, 537.
16. Cardan, ch. xiii.
17. Ch. xiv.
18. Prologue.
19. Walsh, *The Popes and Science*, 116.
20. Cornaro, 43-7.
21. Ibid. 66-72.
22. Ibid., 79, 92, 103.
23. Ibid. Introd., 31. Addison, in No. 195 of *The Spectator* III, 828, makes good use of Cornaro's treatise.
24. Hallam, II, 88.
27. Bandello, III, 128.
28. Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 243.
29. *Cambridge Modern History*, III, 400-4.
80. Cellini, ii, 99.
31. James, *Bologna*, 817.
83. Vasari, III, 237, *Pontormo*.
34. Ibid., 245.
35. Cellini, i, 2.
36. Ibid., i, 14.
37. I., 26.
38. I, 52.
39. II, 38.
40. II, 50.
41. I, 61.
42. I, 73.
43. I, 64.
44. I, 55.
45. I, 74.
46. I, 26.
47. II, 12.
48. II, 28.
49. Ibid.
50. II, 34-5.
1. II, 57.
52. Notes by Symons, p. 415.
53. I, 58.
54. Symonds, *Michelangelo*, 484.

55. IV, 134, *Micyelangelo.*
56. Ibid., 140.
57. 148.
58. Symonds, *Michelangelo*, 501.
58a. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex,* Vol. II, *Sexual Invesion*, 19.
59. Maulde, 182.
60. Symonds, 377; Taine. *Italy : Rome and Nadles*, 188.
61. Symonds, 442.
62. Vasari, IV, 198.
63. Symonds, 490.
64. Vasari, IV, 219.
65. Ibid., 203.
66. Ruskin, *Modern Painters*, Part I, ch. ii, eud.
67. Symonds, 372.
68. Balcarres, Lord, *Evolution to, Italian Sculpure*, 271; Spengler O., *Decline of the West*, I, 276.



ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

وهو يروي تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا
من وكليف إلى لوثر ١٣٠٠ - ١٥١٧

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الأول من المجلد السادس






تونس
بيروت

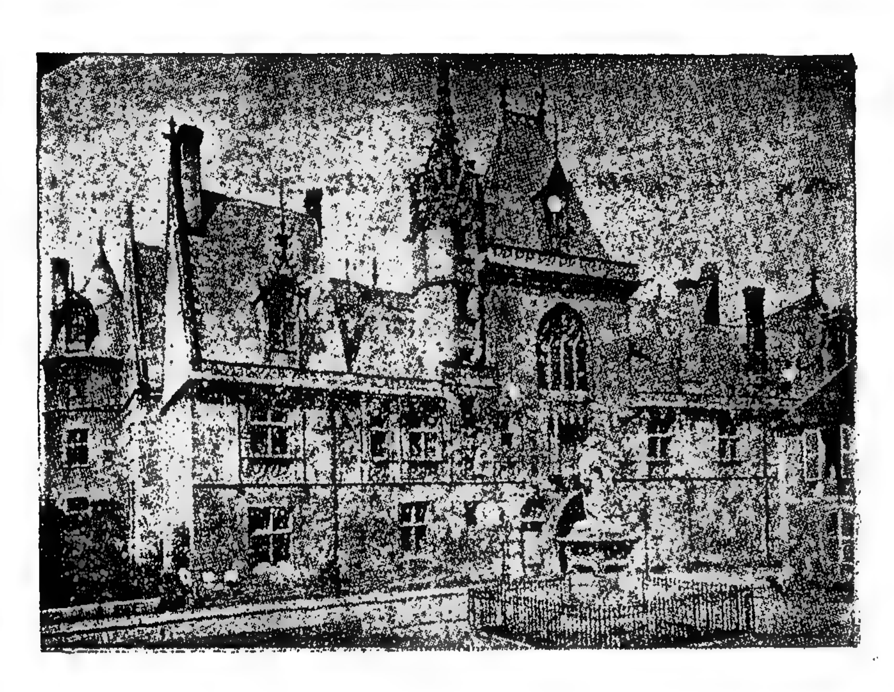


الكتاب الأول

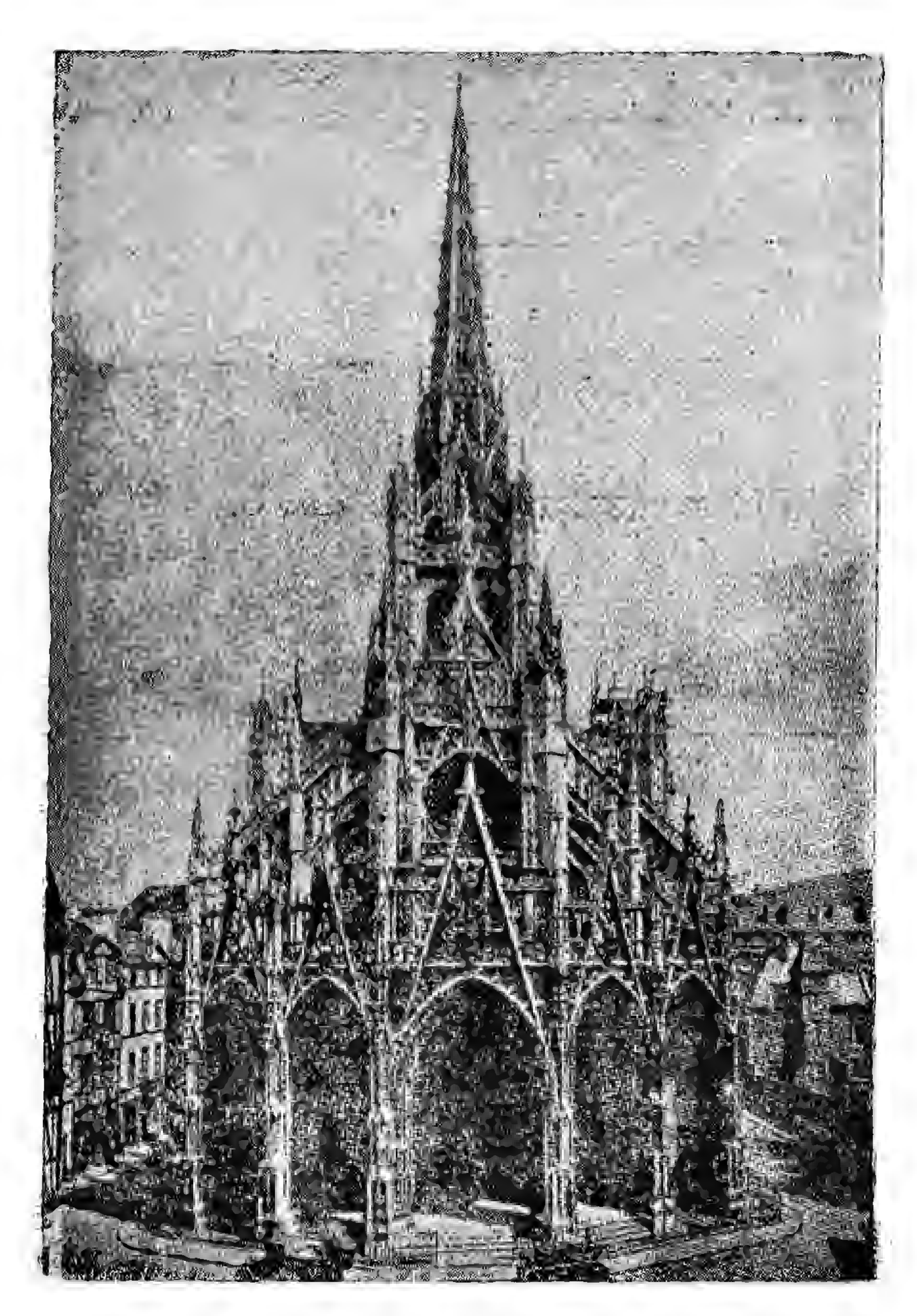
من ويكلف إلى لوثر

١٣٠٠ - ١٥١٧

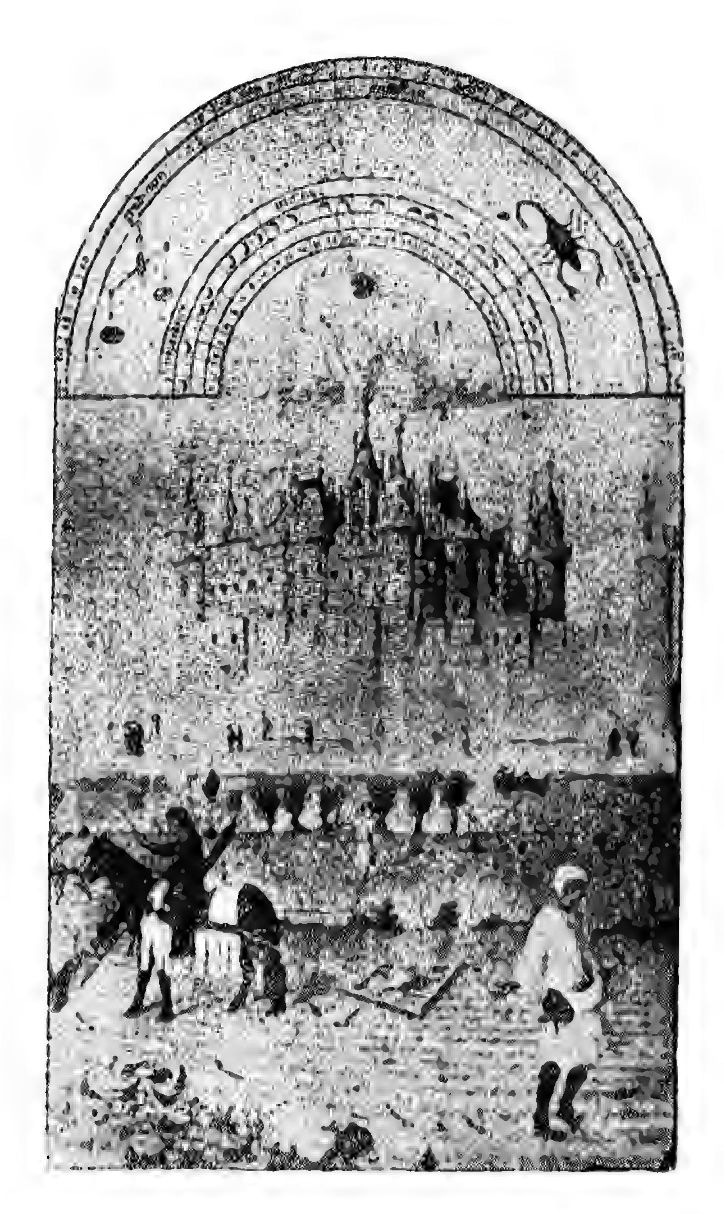




(شكل ١)
بيت جاك كير – بورج
(ص ١٤٦)



(شكل ٢)
كنيسة سان ماكلو – روين
(ص ١٤٦)



(شكل ٣)
بول دى ليمبورج : شهر أكتوبر – منمنمة من « الساعات الخصيبة
لدوق دى برى » – متحف كرنديه . شانتيل
(ص ١٥٠)



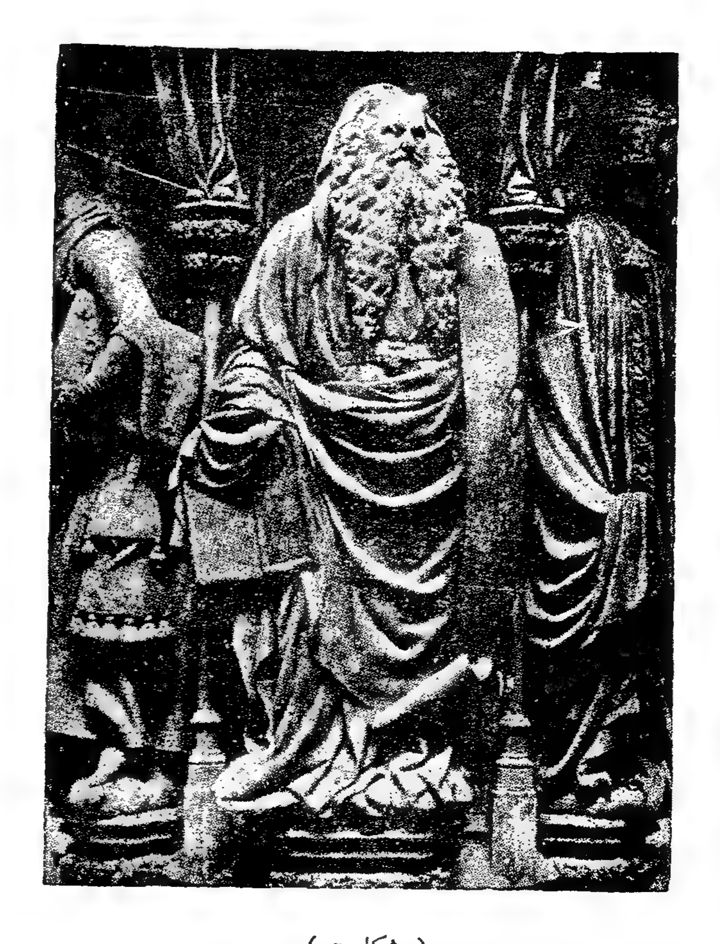
(شكل ٤)
ميشل كولومب
سان جورج والتنين
متحف اللوفر – باريس
(ص ١٨٠)



(شكل ٥)

كنيسة كنجز كوليج (من الداخل) كامبريدج

(ص ٢١١)



(شكل ٦)

كلاوس سلوتر (موسى) متحف ديجون



(شكل ٧)

هيوبرت وجان ڤان أيك

العذراء . تفصيل من « عبادة الحمل »

كنيسة سان بافون ـ غنيت



(شكل ٨)

هيوبرت وجان فان أيك – « عبادة الحمل »

كنيسة سان بافون – غنت

(ص ٢٣٥)



(شكل ٩)

روجيه ڤان در ڤيدن

صورة شخصية لسيدة

(متحف الفن القومى واشنطون)

ص (مجموعة ميلون)

(ص ٤٣٨)

إلى القارئ

من حق القارئ المرتقب أن ننبهه إلى أن لفظ الإصلاح الديني ليس عنواناً صادقاً كل الصدق لهذا المجلد ولعل العنوان الأدق منه هو «تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٥٦٤ أو حوالها بما فى ذلك تاريخ الدين فى إيطاليا مع نظرة عارضة إلى الحضارتين الإسلامية واليهودية فى أوربا وأفريقية وآسية الغربية» . وقد يسأل القارئ عن سبب هذا التحديد المتعرج لمنهج البحث فنقول : إن المجلد الرابع المسمى عصر الإيمان من مجلدات هذه السلسلة «قصة الحضارة» قد وقف بتاريخ أوربا عند عام ١٣٠٠ ، وان المجلد الخامس «عصر النهضة» قد اقتصر على البحث فى أحوال إيطاليا بين عامى ١٣٠٤ و١٥٧٦ مرجئاً أضداء الإصلاح الدينى فى بلاد إيطاليا . ومن أجل هذا يجب أن يبدأ هذا المجلد السادس بعام ١٣٠٠ . وهو يفترض أن القارئ سيجد مسلاة فى أن لوثر لا يظهر على مسرح الحوادث إلا بعد أن ننتهى من ثلث هذه القصة . ولكن علينا أن نتفق منذ البداية على أن الإصلاح الدينى قد بدأ فى الواقع بجون ويكلف ولويس البافارى من رجال القرن الرابع عشر ثم واصل سيره إلى جون هوس فى القرن الخامس عشر حتى انتهى فى القرن السادس عشر بالرجة العنيفة التى أحدثها راهب وتنبرج. وفى وسع من لا يهتم من القراء بغير الثورة الدينية أن يغفل قراءة الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس . ثم الفصلين التاسع والعاشر دون أن يخسر بذلك خسارة لا تعوض .

فالإصلاح الدينى إذن هو الموضوع الرئيسى : وإن لم يكن الموضوع الوحيد فى هذا المجلد . وسنبدأه بالتحدث عن الدين بوجه عام ، وبما له من أثر فى نفس الفرد وفى الجماعة ، ثم نتحدث بعدئذ عن أحوال الكنيسة الكاثوليكية فى القرنين السابقين على أيام لوثر . ثم نلقى نظرة على أحوال

إنجلترا بين عامى ١٣٧٦ و١٣٨٢ وأحوال ألمانيا بين ١٣٢٠ و١٣٤٧ ، وبوهيميا بين ١٤٠٢ و١٤٨٥ ونفصل القول فى مبادئ إصلاحات لوثر الدينية وما قام على أثر ذلك من نزاع . وسنلاحظ ونحن نمضى قدماً فى البحث كيف كانت الثورة الاجتماعية وما تتضمنه من آمال شعبية تسيران مع الثورة الدينية جنباً إلى جنب : وسنردد فى غير قوة صدى الفصل الذى ورد فى كتاب جبن Gippon عن سقوط القسطنطينية ، وندرك كيف مكن زحف الأتراك إلى أبواب فينا رجلا بمفرده من أن يتحدى البابا والإمبراطور فى وقت واحد . وسننظر بروح العطف إلى ما بذله أرزمس من جهود لحمل الكنيسة على أن تصلح نفسها فى سلام وسندرس أحوال ألمانيا قبيل أيام لوثر لعلنا نستطيع بهذا الدرس أن نفهم أن مجيئه حين جاء كان أمراً محتوماً لامندوحة عنه . وسنسلط الأضواء فى الكتاب الثانى على الإصلاح الدينى نفسه وعلى رجاله لوثر وملنكثون فى ألمانيا ، وزفنجلى وكلفن فى سويسرا ، وهنرى الثامن فى انجلترا ، ونكس فى اسكتلندة ، وجستافس فازا فى السويد ، ثم نلقى نظرة عابرة على النزاع الطويل الذى شب بين فرانسس الأول وشارل الخامس ، لكننا سنؤجل غير هذا من أحوال الحياة الأوروبية فى هذا النصف قرن المضطرب الملىء بالأحداث (١٥١٧ — ١٥٦٤) ، وذلك لكى نترك المجال للمسرحية الدينية لتكشف لنا دون أن يحدث فيها شىء من الاضطراب والارتباك بسبب إرجاء الحديث عنها من حين إلى حين . أما الكتاب الثالث من هذا المجلد فسيطل على « الغرباء الواقفين بالباب » . على روسيا وأمراء موسكو والكنيسة الأرثوذكسية ، وعلى الإسلام وما جاء به من عقيدة ، وثقافة ، وقوة يتحدى بها غيره من الأديان ، وكفاح اليهودية للعثور على مسيحيين فى العـالم المسيحى . وسيذهب الكتاب الرابع إلى ما وراء أحداث المسرحية ليدرس شرائع أوربا وأحوالها الاقتصادية ، وأخلاقها ، وعاداتها ، وفنها ،

وموسيقاها ، وآدابها ، وعلومها ، وفلسفتها فى أيام لوثر . وسنحاول فى الكتاب الخامس أن نضع أنفسنا فى موضع الكنيسة فننظر إلى الإصلاح الدينى كما تنظر إليه — هى — وقدحاق بها الخطر ، فلا نجدمناصاً من الإعجاب بالطريقة التى اجتازت بها العاصفة المحيطة بها فى جرأة وهدوء . ثم نختتم الكتاب بخاتمة موجزة نحاول فيها أن ننظر إلى النهضة والإصلاح الدينى ، والمذهب الكاثوليكي ، والاستنارة نظرة شاملة فى ضوء التاريخ الحديث والأفكار الحديثة .

ذلك موضوع ممتع رائع ولكنه موضوع شائك ؛ لأننا لا نكاد نكتب فيه كلمة لا تثير الجدل أو الامتعاض . ولقد حاولت أن أقف موقف الكاتب غير المتحيز ، وإن كنت لا أنكر أن ماضى الشخص يلون آراءه على الدوام ، وان لا شيء يضايق الإنسان أكثر من عدم تحيزه . ومن واجبى أن أنبه القارئ من بداية الأمر أنى قد نشأت نشأة الكاثوليكى المتحمس لمذهبه ، وأنى لا أزال أحتفظ بذكريات طيبة خليقة بالحمد لرجال الدين المخلصين وللبسوعيين العالمين ، وللراهبات المشفقات اللائى تحملننى كثيراً فى طيش الشباب ، ولكن على القارئ أيضاً أن يذكر أننى حصلت على جزء كبير من تعليمى خلال محاضراتى التى ألقيتها مدى ثلاثة عشر عاماً فى كنيسة مشيخية Presbyterion church تحت رعاية رجال من البروتستنت الخلص المتسامحين مثال يوناتان داى ، وولين ادامزبراون ، وهنرى سلون كفن ، وادمن تشافى ، وان كثيرين من الرجال المخلصين الذين كانوا يستمعون إلى محاضراتى فى تلك الكنيسة المشيخية كانوا يهوداً أوتوا من التعطش للعلم والفهم ما جعلنى أنظر إلى بنى ملتهم نظرة نافذة جديدة . ولهذا فإنه إذا كان بين الناس من يجدون مبرراً للتحيز فى أحكامهم ، فإنى أنا أقلهم عذراً من هذه الناحية ، وانى لأشعر نحو جميع الأديان بذلك العطف الصادق الذى يمتلىء به قلب من عرف أن الإيمان بالعقل نفسه إنما هو إيمان مزعزع ،

وأننا جميعاً كسف من الظلام الحالك نتحسس الطريق لنور الشمس ، وإنى لا أعرف عما وراء هذه الحياة أكثر مما يعرف أقل طفل فى الطرقات .

وانى لأشكر للدكتور أرثر ابهام بوب مؤسس معهد اسية لتصحيحه بعض ماكان فى الفصول الخاصة بالإسلام من أخطاء ، وللدكتور جيرسن كوهين عضو حلقة الدراسات الدينية اليهودية الأمريكية مراجعته الصفحات الخاصة باليهود ، ولصديقى هنرى كوفمان من رجال لوس انجليز قراءته الجزء الخاص بالموسيقى ولزوجتى عظيم مساعدتها الدائمة العظيمة وملاحظاتها القيمة عن كل صفحة طوال كدحنا متعاونين فى تأليف هذا الكتاب .

وإذا ما تجمل القارئ بالصبر فسنخرج له مجلداً آخر نختم به هذه السلسلة وهو المجلد السابع الذى سنسميه عصر العقل ، وسيظهر هذا المجلد بعد نحو خمس سنوات من هذا الوقت ، وسيواصل الحديث عن قصة الحضارة إلى أيام نابليون . فإذا فرغنا من هذا العمل ودعناه وانسحبنا من الميدان شاكرين كل الشكر من حملوا بأيديهم عبء هذه المجلدات وتغاضوا عما لا يحصى من الأغلاط فى هذه المحاولة التى نبغى بها تحليل الحاضر إلى عناصره التى ينطوى عليها الماضى . ذلك ان الحاضر ليس إلا الماضى مطوياً ينتظ من يبسطه للعمل كما أن الماضى هو الحاضر مبسوطاً لمن يريد أن يفهم .

لوس انجليز فى ١٢ مايو سنة ١٩٥٧ ول ديورانت .

كيفية استعمال هذا الكتاب

١ – حذفنا من النص تواريخ مولد الأشخاص ووفاتهم .

٢ – الفقرات التى كتبت للقارئ المتعمق لا للقارئ العادى قد كتبت بالخط الصغير

٣ – قد لخصنا فى الباب الأول من هذا المجلد بعض الفقرات الواردة فى المجلد الخامس الخاص بالنهضة فى إيطاليا والتى تبحث فى تاريخ الكنيسة قبل الإصلاح

٤ – ستقدر فى هذا المجلد قيمة الكرون والليرة والفلورين والدوقية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر بخمسة وعشرين دولارا من نقود الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٤ وستقدر قيمة الفرنك والشلن بخمسة دولارات والأيكو بخمسة عشر دولارا والمارك بـ ٦٦,٦٧ دولاراً والجنيه الاسترلينى بمائة دولار على أن هذه القيم كلها تقريبية تقوم على الحدس والتخمين كما أن ما حدث لهذه النقود من تخفيض مراراً عدة يزيد من جعل هذه القيم معرضة للتفاوت الكثير ونلاحظ هنا أن : الطالب فى عام ١٣٩٠ كان يستطيع أن يعيش فى اكسفورد على : شلنين فى الأسبوع ، وأن جواد جان دارك كان يساوى فى عام ١٤٢٤ ستة عشر فرنكاً ، وأن أجر خادمة عند والد ليوناردو دافنشى فى عام ١٤٦٠ لم يكن يزيد على ثمانية فلورينات فى العام .

مؤلف الكتاب

ولد ول ديورانت مؤلف هذا الكتاب فى تورث ادمز بولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٨٥ وتلقى تعليمه الأول فى مدارس الابروشية الكاثوليكية فى تلك الولاية فى كرنى بولاية النيوجرس ثم انتقل بعدئذ إلى كلية القديس بطرس الجزويتية فى مدينة جرسى ثم إلى جامعة كولومبيا بنيويورك واشتغل أثناء صيف عام ١٩٠٧ مراسلا لجريدة ولكنه وجد العمل مثيراً لأعصابه فقنع بتدريس اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية هى وموضوعات أخرى فى كلية سيتون هول بمقاطعة ثوث أورنج بولاية نيوجرس (١٩٠٧ — ١٩١١) حيث التحق بحلقة الدراسات فى عام ١٩٠٩ ولكنه غادرها فى عام ١٩١١ لأسباب ذكرها فى كتابه « الانتقال » . ثم انتقل من حلقة الدراسات إلى دوائر الرديكالية فى نيويورك وعمل مدرسا فى مدرسة فرو (١٩١١ — ١٩١٣) وكانت هذه تجربة فى التفكير الحر فى عالم التربية . وفى عام ١٩١٢ طاف بأوربا على نفقة الدن فريمان وهو صديق له أخذ على عاتقه أن يساعده على توسيع آفاق تفكيره . وفى عام ١٩١٣ عاد إلى الدراسة فى جامعة كولومبيا وتخصص فى عالم الأحياء يتلقاه على مرجان وكالكنز . وفى الفلسفة على يد دود بريدج وديوى .

ونال درجة دكتور فى الفلسفة من هذه الجامعة فى عام ١٩١٧ ومكث يعلم الفلسفة فى تلك الجامعة وفى عام ١٩١٤ بدأ يلقى فى إحدى الكنائس المشيخية فى الشارع رقم ١٤ والشارع الثانى فى نيويورك محاضرات فى تاريخ الفلسفة والأدب مهدت له السبيل لكتابة « قصة الفلسفة وقصة الحضارة » . ذلك أن معظم مستمعيه كانوا من العمال والنساء الذين يتطلبون أن تكون المادة التاريخية الخليقة بالدراسة واضحة كل الوضوح ذات أثر فى العصر الذى يعيشون فيه وفى عام ١٩٢١ أنشأ مدرسة لبير تمبل التى

أصبحت من أكثر التجارب نجاحاً فى تعليم الكبار ولكنه غادرها فى سنة ١٩٢٧ ليتفرغ لكتابة قصة الحضارة فطاف بأوربا مرة أخرى فى عام ١٩٢٧ وسافر حول العالم لدراسة أحوال مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان فى عام ١٩٣٠ طاف حول العالم مرة ثالثة فى عام ١٩٣٢ زار فى خلالها بلاد اليابان ومنشوريا وسيبريا والروسيا . وأثمرت هذه الأسفار المجلد الأول من قصة الحضارة وهو تراث الشرق وقضى ديورانت قبل أن يبدأ فى تأليف المجلد الثانى من قصة الحضارة وهو حياة اليونان صيفاً طويلا فى بلاد اليونان نفسها زار فى خلاله أشهر مراكز الحضارة الهيلينية ودرس آثارها وكان طوافه ببلاد البحر المتوسط عوناً له على كتابة المجلد الثالث « قيصر والمسيح » فى عام ١٩٤٤ وقضى ستة أشهر من عام ١٩٤٨ فى تركيا والعراق وإيران ومصر وأوربا الغربية ليستعد فيها لكتابة المجلد الرابع . عصر الإيمان (١٩٥٠) ثم عاد إلى إيطاليا فى علم ١٩٥١ ليعد العدة للمجلد الخامس من قصة الحضارة وهو عصر النهضة (١٩٥٣) وسافر بعدئذ إلى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وانجلترا فى عام ١٩٥٤ لكى يدرس الأماكن المتصلة بالإصلاح الدينى وما فيها من آثار استعداداً لكتابة هذا المجلد السادس . ويرجو الدكتور ديورانت أن يفرغ من تاريخ الحضارة فى عام ١٩٦٢ بعد إصدار المجلد السابع من هذه السلسلة وهو عصر العقل الذى يروى قصة الحضارة إلى أيام نابليون وإلى عام ١٨٠٠ وسيبلغ عندئذ السابعة والسبعين من عمره ويكون من حقه بعدئذ أن يستريح .



الباب الاول

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

١٣٠٠ - ١٥١٧

الفصل الأول

فضل المسيحية

الدين آخر ما تبدأ الأذهان بفهمه . ولربما كنا فى أيام شبابنا قد برمنا فى تعال وكبرياء بما فيه من أمور محببة وان لم تقبلها العقول ، وفى السنين التى نكون فيها أقل ثقة بما نتلقاه من تعاليمها يأخذنا العجب من بقاء هذا الدين مزدهراً فى عصر ينصرف الناس فيه إلى العلم وإلى شئون الدنيا ويدهشنا بعثه من جديد بعد أن تلقى الضربات القاتلة على أيدى أبيقور أو لوكر يشيوس أو لوشيان أو ماكيافلى أوهيوم أو فولتير . ترى ما هو السر الذى من وراء هذه المرونة التى تبعث فيه الحياة من آن إلى آن ؟

ان أعقل الناس ليتطلب أن تمتد حياته مائة مرة لكى يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية . ولربما كان أول ما يفعل هو أن يدرك بأن ثمة ظواهر لا يحصيها عدا حتى فى الأيام التى يبلغ فيها العلم ذروة مجده يخيل إليه أنها تعز على الفهم ولايستطيع تعليلها بالعلل الطبيعية أو يقيسها أويعرف نتائجها المحتومة . فأسرار العقل مثلا لاتزال تخفى على قوانين علم النفس وفى علم الطبيعة نجد أن نظام الكون المدهش العجيب الذى يجعل العلم ميسراً مستطاعاً قد يعمل هو نفسه على توكيد الإيمان الدينى القائل بوجود عقل كونى مدبر لهذا العالم . وان معارفنا لأشبه بسراب بقيعة كلما اقتربنا منه زاد

بعداً عنا . وقل من الناس من إذا سئل عن أمر قال لا أدرى ، فإذا واجهته ظاهرة له لا يعرف من قبل حقيقة أمرها عزاها إلى أسباب طبيعية أو خارقة للطبيعة وتصرف بما يتفق مع تعليله هذا أو ذاك ، ولست تجد إلا قلة ضئيلة من العقول تستطيع أن تتريث فى حكمها إذا وقفت أمام الشواهد المتناقضة ، أما الكثرة الغالبة من بنى الإنسان فتحس بأن لابد لها أن تعزو ما ترى من الموجودات أو الحادثات إلى كائنات علوية لا تتقيد بالقوانين الطبيعية ، ولقد كانت الأديان (الأولى) هى عبادة خوارق الطبيعة من الكائنات — باسترضائها ، والتوسل إليها ، أو تمجيدها . وما أكثر من يضجرون من الحياة ويألمون منها ، فيطلبون العون من الكائنات الخارقة للطبيعة إذا لم يجدوا هذا العون فى القوى الطبيعية ، فتراهم يعتنقون وهم شاكرون مغتبطون أدياناً تبعث فى حياتهم الكرامة والأمل ، وتضفى على العالم نظاماً ومعنى لا وجود لها بغير هذه الأديان ، وإن من الصعب على نفوسهم أن تغض الطرف صابرة عما فى الطبيعة من قسوة ووحشية تصيب الناس خبط عشواء ، وما يحدث فى تاريخ العالم من منازعات ومن إراقة للدماء ، وما يصيبهم هم أنفسهم من محن وبلايا وحرمان إذا لم يؤمنوا بأن هذه كلها جزء من خطة إلهية مرسومة يعز عليهم فهمها وإدراك سرها . ان العالم إذا لم يكن له سبب أو مصير يعرف حقاً أشبه بسجن للعقول ، فنحن نتوق إلى الاعتقاد بأن للمسرحية الكبرى منشئاً عادلا وغاية سامية .

هذا إلى أننا نحرص على البقاء ، ويصعب علينا أن نعتقد أن الطبيعة قد كدت وأجهدت نفسها حتى أوجدت الإنسان ، والعقل ، والحب والإخلاص لا لشىء إلا لتلقى بها ظهرياً متى نضجت وكمل نماؤها . والعلم يهب الإنسان فى كل يوم مزيداً من القدرة ، ولكنه ينقص من شأنه على مر الأيام ، فهو يرقى بآلاته وأدواته ولكنه لا يعنى بأهدافه وأغراضه ، ولا يكشف له عن الأصول والقيم والأهداف النهائية ، ولا يضفى على الحياة

والتاريخ معنى أو قيمة لا يقضى عليها الموت أو الزمن المهلك المبيد لكل شيء . ومن أجل هذا يؤثر الناس العقيدة غير القائمة على العقل والبحث الصحيح على الإحجام والتوكل العقلي، ذلك أنهم يملون التفكير المحير ، والحكم غير القاطع ، فيرحبون بقيادة دين ذى سلطان على نفوسهم ، وبأن يتطهروا من الخطايا بالاعتراف بذنوبهم ، وبالإيمان بدين ثابت قديم . وهم حين يستحون من الاخفاق ، ويثكلون من يحبون ، وتظلم نفوسهم لما اقترفوا من ذنوب ، ويرهبون الموت يحسون بأنهم إذا لقوا العون من الله تطهروا من الذنب والجريمة ، وفارقهم الرعب ، واطمأنوا وامتلأت قلوبهم بالأمل ، وسموا إلى أسمى المنازل وكان مآلهم الخلود .

والدين فى أثناء هذا يهب المجتمع والدولة هبات مستورة تسرى فى جميع أجزائهما ، فطقوسه تهدئ النفس وتوثق الرابطة بين الأجيال ، فالكنيسة الابرشية تصبح بمثابة بيت عام تؤلف من الأفراد جماعة ، وترفع الكتدرائية رأسها تعلن فى فخر وازدهاء أنها من عمل البلدة موحدة ، وتزدان الحياة بالفنون المقدسة وتصب الموسيقى الدينية نغماتها المهدئة فى نفس الفرد والجماعة. ويعرض الدين رضاءه وتأييده السماوى للقانون الأخلاقى الذى تنفر منه فطرتنا ولكنه مع ذلك لا غنى عنه للحضارة . ويفرض على عقول البشر ربا سميعاً بصيراً ويهددهم بالعقاب السرمدى ويعدهم بالنعيم الدائم ويصدر إليهم أوامر ليست من سلطة بشرية مزعزعة بل صادرة عن قوة الهية لا سبيل إلى عصيانها وإذا كانت غرائزنا قد تكونت خلال ألف قرن من الزمان وكان الأمن فيها مزعزعاً مضطرباً يطارد فيها الإنسان الحيوان ويطارده، فإنها قد جعلتنا صائدين أشداء وديدننا العنف وطبيعتنا تعدد الأزواج بدل أن تجعلنا مواطنين مسالمين . وإذا كان ذلك العنف القديم الذى استلزمته حياتنا الأولى يزيد على ما تحتاجه حياتنا الاجتماعية الحاضرة فإن غرائزنا يجب أن تفرض عليها مئات من القيود كل يوم على علم منا أو غير علم

حتى يمكن قيام المجتمع والحضارة . لهذا استعانت الأسر والدول قبل التاريخ بأجيال طوال بقوة الدين لكى تخفف من غرائز الإنسان الهمجية ووجد الآباء فى الدين عوناً لهم على كبح جماح أبنائهم المعاندين وإبعادهم عن الشطط وتعويدهم ضبط النفس ، واستعان المربون بالدين فكان لهم وسيلة ذات أثر عظيم فى تهذيب الشباب وتعويده النظام والرقة واتخذته الحكومات من أقدم الأزمنة عوناً لها على إقامة صرح النظام الاجتماعى وتخليصه من الأنانية المقطعة لأوصال المجتمع مما طبع عليه الناس من فوضى . ولو أن الدين لم يوجد لابتدعه كبار المشترعين أمثال حمورابى وموسى وليقورج ونوما بمبليوس. لكنهم لم يكونوا فى حاجة إلى ابتداعه لأنه ينشأ من تلقاء نفسه ويتجدد للوفاء بحاجات الناس وآمالهم .

وقد ظل الدين المسيحى خلال ألف عام من عهد قسطنطين إلى عهد دانتى يهب الأفراد والدول ما ينطوى عليه من مزايا ويقدمها لهم هبة خالصة ، وكان هو نفسه فى هذه الأعوام ينمو ويتكون ، فجعل من صورة المسيح الفضائل مجسمة يغرى بها الهمجية على اصطناع الحضارة وأوجد عقيدة جعلت حياة كل إنسان جزءاً من مسرحية عالمية سامية وان تكن متواضعة ، وأنشأت علاقة قوية ذات خطة بين الإنسان وبين الإله خالقه الذى تحدث إليه فى كتبه المنزلة ووضع له فيها قانوناً أخلاقياً وجعل الكنيسة مستقرا لتعاليمه وممثلة لسلطانه على هذه الأرض . وأخذت هذه المسرحية الفخمة تنمو عاماً بعد عام ، وأخذ القديسون والشهداء يضحون بحياتهم فى سبيل عقيدتهم ويضربون بذلك الأمثال لمن يأتى بعدهم من المؤمنين ويورثونهم فضائلهم ، وأنشأ الفنانون مئات الصور ومئات الآلاف من التحف الفنية يفسرون بها هذه المسرحية ويظهرونها بوضوح لعقول الناس حتى الساذجة منها غير المتعلمة فأضحت مريم العذراء أم المسيح « أينع زهرة فى الشعر كله » وكانت هى نموذج الرقة النسوية التى تنسج النساء على منوالها وحنان

الأمومة توجه إليها أرق الترانيم وأعظمها خشوعاً وإخلاصاً ، وهى التى أوحت بالصروح الفخمة والتماثيل الرائعة والصور الجميلة والشعر العذب والموسيقى الحلوة وهى التى بعثت المراكب ذات الروعة التى تقوم كل يوم حول ملايين من مذابح الكنائس ومن أجلها يقوم القداس بطقوسه الغامضة الرهيبة التى تسمو بالنفس وترفعها إلى السموات العلى . والاعتراف والتوبة يطهران نفس المذنب التائب الخاشع والصلاة تطمئنه وتقويه والعشاء الربانى تقربه من المسيح قرباناً يبعث فى نفسه الرهبة والقداس الأخير يطهره ويعده لدخول الجنة وقلما أخرج دين فى رسالته للانسانية مثل هذه الروعة الفنيـــة .

ولقد كانت الكنيسة فى أجمل صورها حين حلت بعقائدها المواسية وطقوسها الساحرة ومبادئ اتباعها الخلقية النبيلة وشجاعة أساقفتها وغيرتهم واستقامتهم ، وعدالة محاكم أسقفياتها وطهارتها ، حين حلت بهذه كلها فى المكان الذى تخلت عنه ، حكومة الامبراطورية فكانت هى الحارس الأكبر للعالم المسيحى للنظام والسلم فى العصور المظلمة (حوالى ٥٢٤ — ١٠٧٩ م) . وأوربا مدينة ببعث الحضارة فى الغرب بعد أن أغار البرابرة على إيطاليا وغالة وبريطانيا وأسبانيا إلى الكنيسة أكثر مما هى مدينة بها إلى أية هيئة أخرى مهما كان شأنها . فقد كان رهبانها هم الذين أصلحوا الأرض البور وكانت الأديرة هى التى تقدم الطعام للفقراء والتعليم للصبيان والمأوى للمسافرين ، وكانت مستشفياتها هى التى تعنى بالمرضى والمعوزين . وكانت أديرة النساء هى التى تلجأ إليها الأرامل ومن لا أزواج لهن فتوجه فيهن عواطف الأمومة إلى أغراض اجتماعية سامية ولقد ظلت الراهبات عدة قرون يتعهدن وحدهن بتربية البنات . وإذا كانت الثقافة القديمة لم يطغ عليها ويمح معالمها تيار الجهل والأمية ، فما ذلك إلا لأن الرهبان قد نسخوا آلاف المخطوطات واحتفظوا بها وحافظوا على حياة اللغتين

اليونانية واللاتينية اللتين كتبت بهما وإن كانوا قد تركوا كثيراً من المخطوطات الوثنية تبيد على مر الزمان فقد كانت دور الكتب الكنسية فى سانت جول ، وفولدا ومونتى كسينووغيرها هى التى وجد فيها الكتاب الانسانيون فى عصر النهضة الآثار القيمة الثمينة للحضارة الرائعة التى لم تسمع قط باسم المسيح . ولقد ظلت الكنيسة ألف عام من أيام امبروز إلى ولزى تدرب فى غرب أوربا المعلمين والعلماء والقضاة ورجال السياسة ووزراء الدولة ، وكانت الكنيسة فى العصور الوسطى هى عماد الدولة وسندها . ولما انقضى عهد العصور المظلمة — ولنفترض أن ذلك كان عند مولد ابلار — كانت الكنيسة هى التى أنشأت الجامعات وشيدت الكتدرائيات القوطية فأوجدت بذلك بيوتاً لعقول الناس وتقواهم ، وبفضل حمايتها ورعايتها جدد الفلاسفة المدرسون ماحاولوه قديماً من تفسير غوامض الحياة البشرية ومآل العقل الإنسانى . ولقد ظل الفن الأوربى كله تقريباً طوال تسعة قرون يتلقى الإلهام والمال من الكنيسة ، وحتى عندما تلون الفن باللون الوثنى ظل بابوات النهضة يناصرونه ويولونه الرعاية فكانت الموسيقى فى أسمى صورها ابنة الكنيسة .

وأكثر من هذا كله أن الكنيسة فى عنفوان مجدها هى التى أمدت دول أوربا بالقانون الأخلاقى العام الذى كان متبعاً فيها كلها كما أمدتها بنظام حكمها . وكما أن اللغة اللاتينية التى تعلمها الكنيسة فى الكنائس كانت هى الأداة التى وحدت أساليب التعليم والأدب والعلم والفلسفة فى الأمم المختلفة ، وكما أن طقوس المذهب الكاثوليكى — أى العالمى — وعقيدته هى التى وهبت أوربا الوحدة الدينية قبل أن تنقسم إلى قوميات مستقلة ذات سيادة ، فإن الكنيسة الرومانية التى تعزو نشأتها وزعامتها الروحية إلى الله سبحانه وتعالى قد طلبت أن تكون هى محكمة دولية تحاسب جميع الحكام والدول من الناحية الأخلاقية . وقد صاغ البابا جريجورى السابع مبدأ الجمهورية المسيحية الأوروبية هذا الصياغة القانونية واعترف به الامبراطور هنرى الرابع حين

خضع لجريجورى فى كانوسا (سنة ١٠٧٧) ، وبعد قرن من ذلك الوقت أذل امبراطور أعظم منه قوة هو فردريك بربروسيا نفسه أمام بابا أضعف من جريجورى هو اسكندر الثالث بعد عناد طويل ومقاومة لم تجده نفعاً ، وفى عام ١٠٩٨ رفع البابا إنوسنت الثالث سلطان البابوية ومقامها إلى درجة بدا معها أن المثل الأعلى الذى كان يطمح فيه جريجورى وهو أن تكون الكنيسة صاحبة السلطان الأعلى على الدول من الناحية الخلقية — بدا أن هذا المثل قد تحقق إلى حين ؛

لكن هذا الحلم اللذيذ قد تحطم على صخرة الطبيعة البشرية . ذلك أن المشرفين على السلطة القضائية البابوية قد أثبتوا أنهم من طينة البشر وأنهم متحيزون جشعون بل نهمون يبتزون الأموال ، وأن الملوك والشعوب كانوا أيضاً بشراً مثلهم يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أمتهم . وبعثت ثورة فرنسا المضطردة النماء فى قلوب بنيها الكبرياء والحرص على السيادة القومية ، فقام فليب الرابع يتحدى سلطان البابا بونى فاس الثامن على أملاك الكنيسة وكلل هذا التحدى بالنجاح ، وزج مندوبو الملك بالبابا الكبير السن فى السجن فى اتبان حيث قضى ثلاثة أيام لم يلبث بعدها أن وافته المنية (١٣٠٣) . وهنا وفى تلك الساعة بدأ الإصلاح الدينى من إحدى نواحيه الأساسية — وهى خروج الحكام المدنيين على سلطان البابوات .

الفصل الثانى

الكنيسة فى الحضيض

١٣٠٧ : ١٤١٧

كانت الكنيسة فى القرن الرابع عشر تعانى الذل السياسى والانهيار الخلقى . لقد بدأت أول عهدها يحدوها الإخلاص العميق والولاء الذى اتصف به بطرس وبولس ثم نمت فأصبحت نظاماً جليلا يعمل على تهذيب الأسرة والمدرسة والمجتمع والعالم بأسره وينشر حسن النظام وكريم الأخلاق . أما الآن فقد أخذت تنحط حتى لم يعد لها هم إلا المحافظة على مصالحها المكتسبة وكل ما تعنى به هو المحافظة على بقائها وأموالها . وقد استطاع فليب الرابع أن يعمل على اختيار رجل فرنسى للبابوية ، وأقنعه بأن ينقل الكرسى البابوى إلى مدينة افنيون على نهر الرون . وظل البابوات بعدئذ ثمانية وستين عاماً بيادق وسجناء فى أيدى فرنسا وسرعان ماأخذ الاحترام الذى كانوا يلقونه من تلك الأمم ينقص تدريجاً ، كما أخذت مواردهم ينضب معينها . وشرع البابوات من ضيقهم يملأون خزانتهم بالمال يحصلون عليه بفرض الضرائب التى لا عداد لها على رجال الدين وعلى الأديرة والأبرشيات . وكانوا يطلبون إلى كل رجل يعينونه فى مناصب الكنيسة الإدارية نصف ما يحصل عليه من منصبه فى العام الأول ثم عشر ما يحصل عليه منه فى الأعوام التالية . وكان على كل كبير أساقفة أن يؤدى إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال نظير الطيلسان وهو شريط من الصوف الأبيض يلبسه كبير الأساقفة ويعد رمزاً لسلطانه وتوكيداً له . وإذا مات كردنال أو كبير أساقفة أو أسقف أورئيس دير عادت أملاكه إلى البابوية ، وفى خلال الفترة الواقعة بين موت أحد رجال الدين وتعيين خلفه كان البابوات يستولون على إيراد منصبه ، وكانوا

يهتمون بإطالة هذه الفترة عامدين حتى ينالوا من المال أكثر ما يستطيعون . وكان كل حكم يصدره مكتب البابوية الإدارى (الكيوريا) أو كل نفع يسديه ينتظر أن يؤدى إليه عطية قيمة اعترافاً من صاحبه بما نال من نفع ، وكان الحكم فى بعض الأحيان يتوقف على قيمة العطية .

على أن كثيراً من هذه الضرائب البابوية لم يكن إلا وسيلة مشروعة تحصل بها على المال ، الإدارة المركزية للكنيسة التى كان لها على المجتمع الأوربى سلطان أدبى أخذ يتناقص على مدى الأيام . غير أن بعض هذا المال كان يذهب ليتخم بطون رجال الدين ، بل إن منه ماكان يذهب إلى جيوب الحظايا اللاتى كانت تزدحم بهن حجرات بيوت البابوات فى افنيون . وليس أدل على ذلك من هذه الرسالة التى قدمها وليام ديوراند أسقف مند إلى مجلس فينا (١٣١١) وقد جاء فيها :

يستطاع إصلاح الكنيسة كلها إذا ما بدأت كنيسة روما بالإقلاع عن المثل السيئة التى تضربها بنفسها لغيرها من الكنائس . وهى التى تسىء إلى سمعة الناس وتكون بمثابة الوباء الذى تسرى عدواه إلى جميع الناس ... ذلك أن كنيسة روما قد ساءت سمعتها فى جميع الأقطار حتى أصبح الناس يعلنون فى خارج روما أن جميع من تضمهم من الرجال من أكبرهم مقاماً إلى أصغرهم شأناً قد امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع . . . وأن رجال الدين يضربون لجميع الشعب المسيحى أسوأ المثل فى النهم ، وهذا واضح لا خفاء فيه معروف فى جميع الأقطار لأن رجال الدين أكثر انغماساً فى الترف ... من الأمراء والملوك .

وقد رفع الأسقف الاسبانى الفارو بلايو عقيرته بقوله : « إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى » . وقد ذكر إدوارد الثالث ملك انجلترا ، وهو الخبير المتفنن فى فرض الضرائب ، كلمنت السادس بأن « خليفة الحواريين قد وكل بأن يقود غنم الرب إلى المرعى لا بأن يجز

صوفها » . وفى ألمانيا كان جباة الضرائب البابوية يطاردون ، ويسجنون ، وتقطع أطرافهم ، ويخنقون . وفى عام ١٣٧٢ أقسم رجال الدين فى كولونى وبون ، واكسانتن ومانز ألا يدفعوا مال الصدقات الذى فرضه عليهم جريجورى الحادى عشر .

على أن البابوات ظلوا رغم هذا التمرد والعصيان يؤكدون سلطانهم الاستبدادى على ملوك الأرض ، وحدث حوالى عام ١٣٢٤ أن كتب اجستينو ترينفو المشمول برعاية يوحنا الثانى بعد العشرين رسالة فى الدفاع عن رجال الدين رداً على الهجمات التى وجهها إلى البابوية مرسليوس من أهل بدوا ووليم أوكهام . ويقول اجرستينو فى هذه الرسالة إن سلطان البابا من سلطان الله وهو نائبه فى الأرض ، وإن طاعته واجبة وإن أثم أشد الإثم ، ومن حق مجلس الكنيسة العام أن ينزله عن عرشه إذا ثبت كفره وإلحاده ، فإذا لم يرتكب هذا فهما يكن ذنبه فإن سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض . ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء وإن عارض فى ذلك رعاياهم أو منتخبوهم ، ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين وأن لا يعبأ بدساتير الدول . وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليها . والبابا أعلى مقاماً من الملائكة وهو خليق بأن يعظم كما تعظم العذراء ويعظم القديسون . وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا لأنه فى رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقده الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله ، وعمل بهذا المبدأ بإصرار لا يتحول عنه أبداً .

على أن فرار البابوات من رومة وخضوعهم لفرنسا قد قوض سلطانهم وحط منزلتهم ، وكأنما أراد بابوات افنيون أن يعلنوا على الملأ خضوعهم لسلطان فرنسا فاختاروا من بين ١٢٤ كردنالا ١١٣ فرنسياً .

واستشاطت الحكومة الإنجليزية غضباً من كثرة القروض التى منحها

البابوات ملوك فرنسا أثناء حرب مائة العام ، ومن أجل ذلك تغاضت عن مطاعن ويكلف على البابوية ؟ ورفض المنتخبون الألمان الذين كانوا يختارون الإمبراطور أى تدخل من جانب البابوات فى المستقبل فى اختيار الملوك والأباطرة . وفى عام ١٣٧٢ اتفق رؤساء الأديرة فى كومونى وأعلنوا على الملأ أن « الكرسى الرسولى قد انحط إلى درجة من الاحتقار تجعل المذهب الكاثوليكى يبدو معرضاً لأشد الأخطار » . وفى إيطاليا استولى على الولايات البابوية — لا يتوم رامبريا ، وولايات الحدود ، ورومانيا — رؤساء جند مغامرون يظهرون الطاعة بالاسم للبابوات ولكنهم يحتفظون لأنفسهم بإيراد هذه الولايات كله . ولما بعث اريان الخامس مندوبين من قبله إلى ميلان ليعلنوا الفيسكنتى العاصى بقرار الحرمان ، اضطرهمابرنابو أن يأكلا هذا القرار — بما فيه من ورق وخيوط من الحرير وأختام من الرصاص (١٣٦٢). وعمدت فلورنس فى عام ١٣٧٦ حين قام النزاع بينها وبين البابا جريجورى الحادى عشر إلى مصادرة كل ما للكنيسة من أملاك فى أراضيها ، وأغفلت محاكم الابروشيات وهدمت أبنية محاكم التفتيش وزجت من قاومها من القساوسة فى السجن أوقتلتهم شنقاً ، وأهابت بإيطاليا أن تضع حداً لكل سلطان الكنيسة الزمنى .

واتضح من ذلك الوقت أن بابوات افنيون أخذوا يخسرون أوربا كلها مقابل خضوعهم لفرنسا وإخلاصهم لها . فلما كان عام ١٣٧٧ أعاد جريجورى الحادى عشر البابوية إلى روما .

ولما مات جريجورى فى عام ١٣٧٨ اختار مجمع الكرادلة وكانت أغلبيته الساحقة من الفرنسيين ولكنه كان يخشى غضبة عامة روما — اختار بابا إيطاليا هو اربان السادس وتبين أن اربان اسم على غير مسمى[1] ؟ فقد كان حاد الطبع عنيفاً فى تصرفاته مصراً على الإصلاحات التى لا يرتضيها

(١) معنى كلمة اربان هو المتحضر أو المهذب .

رجال الكنيسة ، وبلغ هذا الإصرار حداً أعلن معه الكرادلة الذين عادوا إلى الاجتماع أن اختياره لكرسى البابوية لم يكن قانونياً لأنه تم تحت الضغط والإرهاب ، ونادوا بربرت من أهل جنيف بابا . وتولى ربرت منصب البابوية وتسمى باسم كلمنت السابع واتخذ افنيون مقراً له ولكن اربان أصر من جهته على أنه هو البابا وجعل مقره مدينة روما . وكان الذى مهد السبيل إلى الانقسام البابوى (من ١٣٧٨ — ١٤١٧) الذى بدأ على هذا النحو ، والذى مهد السبيل لكثير من القوى التى هيأت العقول للإصلاح الدينى هو قيام الدول القومية ، فقد كان هذا الانقسام فى واقع الأمر محاولة تبغى بها فرنسا أن تحتفظ بالمعونة الأدبية والمالية التى تمدها بها البابوية فى حربها ضد انجلترا . وحذا حذو فرنسا فى هذا نابلى وأسبانيا واسكتلندة . ولكن انجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وبولندا ، وبوهيميا ، وبلاد المجر ، وإيطاليا ، والبرتغال اعترفت باربان ، وأضحت الكنيسة المنقسمة على نفسها سلاحاً فى أيدى المعسكرين المتنازعين وضحية لها . ونادى نصف العالم المسيحى بأن النصف الآخر ملحد كافر مجدف فى حق الله ، محروم من حظيرة الدين . وادعى كل جانب أن المراسم الدينية التى يقوم بها قساوسة الجانب الآخر المعارض له لا نفع فيها ولا قيمة لها ، وان الأطفال الذين يعمدهم هذا الجانب أو ذاك ، والتوبة التى تتم على أيديهم ، والموتى الذين يفضون إليهم باعترافاتهم ، كل هؤلاء يبقون مذنبين اثمين ، مآلهم الجحيم — أو المطهر على أقل تقدير . وكان الإسلام الآخذ وقتئذ فى الانتشار يسر من هذا الانحلال الذى يدب فى جسم العالم المسيحى .

ولم يخف هذا العداء بموت اربان (١٣٨٩) . ذلك أن الكرادلة الأربعة عشر الذين يؤلفون معسكره اختاروا بنيفاس التاسع خلفاً له ثم اختاروا من بعده انوسنت السابع ثم جريجورى الثانى عشر ، وأطالت الأمم المنقسمة انقسام البابوية . ولما توفى كلمنت السابع (١٣٩٤)

رشح كرادلة افنيون أحد الأساقفة الأسبان لكرسى البابوية فجلس عليه باسم بندكت الثالث عشر . وعرض هذا البابا أن يستقيل من منصبه إذا حذا جريجورى حذوه ، ولكن أقارب جريجورى الذين حلوا فى مناصبهم الدينية ، أصموا آذانهم عن هذا الطلب . وتخلى بعض كرادلة جريجورى عنه ودعوا إلى انعقاد مجلس عام من رجال الدين . وألح ملك فرنسا على بندكت أن ينسحب ، ولكن بندكت أبى أن يصغى إلى الحاحه ، فما كان من فرنسا إلا أن أعلنت خروجها عن طاعته ووقفت من النزاع موقف الحياد . فلما فر بندكت إلى أسبانيا انضم كرادلته إلى زملائهم الذين تخلوا من قبل عن جريجورى ، وأصدروا مجتمعين دعوة إلى مجلس يجتمع فى بيزا ليختار بابا يرتضيه الجميع .

وكان الفلاسفة المتمردون قبل ذلك الوقت بقرن أو نحوه قد وضعوا الأسس النظرية « لحركة المجالس » . فقد كان وليم أوكهام يعارض الفكرة القائلة أن الكنيسة هى رجال الدين ، ويقول أن الكنيسة هى جماعة المؤمنين ، وأن الكل هو صاحب السلطان الأعلى على كل جزء من أجزائه ، وأن من حق هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس أعلى مؤلف من جميع أساقفة الكنيسة ورؤساء أديرتها ، وأن من حق المجلس المؤلف على هذا النحو أن يختار البابا ويزجره ، ويعاقبه ، ويخلعه . كذلك قال مرسليوس من أهل بدو أن المجلس العام يمثل حكمة العالم المسيحى مجتمعاً فكيف يحق إذن لرجل واحد أياً كان شأنه أن يضع عقله فى منزلة أعلى من عقل العالم المسيحى كله ؟ وكان يرى أن هذا المجلس يجب ألا يؤلف من رجال الدين وحدهم بل يجب أن ينضم إليهم من غير رجال الدين من يختارهم الشعب . وطبق هينريخ فن لانجنشتاين أحد رجال اللاهوت الألمانى جامعة باريس ، (١٣٨١) هذه الأفكار على الانقسام البابوى وقال أنه مهما يكن ما يدعيه البابوات لأنفسهم من سلطان أعلى ، فقد حدثت فى الموقف أزمة لا يجد المنطق

وسيلة إلى الخروج منها سوى سبيل واحد . ولايستطيع إنقاذ الكنيسة من الفوضى التى تقوض دعائمها إلا سلطة خارجة عن البابوية تفوق سلطة الكرادلة ، ولا يمكن أن تكون هذه السلطة إلا سلطة مجلس عام .

واجتمع مجلس بيزا فى ٢٥ مارس ١٤٠٩ ، ودعى بندكت وجريجورى إلى المثول أمامه فلما تجاهلا هذه الدعوة أعلن خلعهما واختار بابا جديداً هو إسكندر الخامس وأمره أن يدعو مجلساً آخر إلى الانعقاد قبل أن يحل شهر مايو سنة ١٤١٢ ثم أجل جلساته . وبذلك وجد ثلاثة بابوات بعد أن لم يكن منهما إلا اثنان . ولم يخفف موت الإسكندر (١٤١٠) من حدة النزاع ، لأن كرادلته اختاروا خليفة له يوحنا الثالث والعشرين . لم يكن فى البابوات بعد سميه الثانى والعشرين من هو أكثر منه عناداً وصلابة رأى . وكان هذا الزعيم المغامر وهو يحكم بولونيا نائباً عن البابا باسم بلد سارى كوسا حكم زعماء العصابات المغامرين يفرض الضرائب على كل شىء فى الولاية ويجيز لغيره من رجال الحكم فرضها . كان يفرضها على العاهرات والمغامرين والمرابين ، ويقول أمين سره أنه أغوى مائتى عذراء ، وزوجة ، وأرملة وراهبة .

ولكنه كان ذا مال وكان له جيش ، ولعله كان يستطيع انتزاع الولايات البابوية من يدى جريجورى فيضطره بذلك إلى النزول عن عرشه بعد إفلاسه .

وأرجأ يوحنا الثالث والعشرون دعوة المجلس الذى أمر بانعقاده مجلس بيزا أطول ما يستطيع ، ولما افتتحه فى مدينة كنستانس فى الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ لم يحضره إلا عدد قليل ممن دعوا إليه من البطارقة الثلاثة ، والكرادلة التسع والعشرين ، ورؤساء الأساقفة الثلاث والثلاثين ، والأساقفة الخمسين ، وعلماء اللاهوت الثلثمائة ومندوبى الجامعات الأربعين ، والأمراء الست والعشرين ، والنبلاء المائة والأربعين والقساوسة الأربعة الآلاف . ولو أن هؤلاء جميعاً قد حضروا لكان هذا المجلس أكبر مجلس فى تاريخ

المسيحية وأهم ما عقد من مجالسها منذ مجلس نيقية (٣٢٥) الذى أقر عقيدة التثليث فى الدين المسيحى ، وأصدر المجتمعون فى السادس من أبريل عام ١٤١٥ قراراً ثورياً يدل على الزهو والكبرياء جاء فيه :

إن هذا المجمع المقدس المنعقد فى كنستانس ، بوصفه مجلساً عاماً ، مجتمعاً اجتماعاً قانونياً يرفرف عليه الروح القدس كى يحمد الله ويقضى على الانقسام القائم فى الكنيسة ويعمل على جمع شملها وإصلاح شأنها فى رؤسائها وأعضائها . . يأمر ، ويعلن ، ويقرر ما يأتى : أولا : يعلن أن هذا المجمع المقدس . . يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد سلطانه من المسيح مباشرة ، ومن ثم يجب على كل إنسان مهما كانت مرتبته ومنزلته بما فى ذلك البابا نفسه أن يطيع هذا المجلس فى كلّ ما له مساس بالدين كى يقضى على هذا الانقسام القائم وتصلح الكنيسة إصلاحاً عاماً فى رأسها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن كل إنسان . . . بما فى ذلك البابا أيضاً يأبى أن يطيع أوامر هذا المجلس المقدس وقوانينه وقراراته . . . . التى تهدف إلى القضاء على الانقسام أو إلى إصلاح الكنيسة ، يعرض نفسه لطائلة العقاب الذى يتناسب مع جرمه . . . وسيلجأ المجلس ، إذا لزم الأمر إلى غير ذلك من أساليب العدالة[١١] .

وطالب المجلس بخلع جريجورى الثانى عشر وبندكت الثالث عشر ويوحنا الثالث والعشرين . ولم يتلق من يوحنا جواباً على طلبه فقبل ما عرض عليه من التهم الأربع والخمسين التى تتهم يوحنا هذا بأنه كافر مستبد ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الدينية ، خائن ، شهوانى ، لص ، وامتنع المجلس عن قبول ست عشرة تهمة أخرى رآها أقسى مما يليق[١٢] فلما كان اليوم التاسع بعد العشرين من شهر مايو سنة ١٤١٥ قرر خلعه — أما جريجورى فكان أكثر منه مرونة ودهاء ، فقد وافق على أن يعتزل منصبه لكنه اشترط لذلك أن يسمح له بأن يدعو أولا المجلس إلى الانعقاد

التالى بما له من حق فى هذه الدعوة . فلما عاد المجلس إلى الانعقاد على هذا النحو قبل استقالته (٤ يولية) . وأراد أن يثبت تمسكه بالدين وبسلطانه الشرعى فأمر بإحراق المصلح البوهيمى جون هوس (٦ يولية) . وفى اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر أعلن خلع بندكت الثالث عشر ؛ فذهب هذا البابا المخلوع إلى بلنسية حيث توفى فى سن التسعين وهو لا يزال يدعى أنه هو البابا — وفى السابع عشر من نوفمبر عام ١٤١٧ اختارت لجنة الناخبين الكردنال اتونى كولنا بابا وتسمى باسم مارتن الخامس . واعترفت المسيحية كلها بهذا البابا الجديد وبذلك انتهى الصدع البابوى .

غير أن انتصار المجلس فى هذه الناحية قد أعجزه عن تحقيق غرضه الآخر ونعنى به إصلاح الكنيسة . ذلك أن مارتن الخامس لم يكد يجلس على الكرسى البابوى حتى استحوذ من فوره على جميع ماكان للبابوية من حقوق وسلطات مختلفة ، فأخذ يغرى كل جماعة من المندوبين من كل دولة بغيرها من الجماعات وأقنعها بقبول أقل قدر من الإصلاح الغامض القليل الأذى وخضع المجلس له لأنه كان قد سئم ومل العمل فلما كان اليوم الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٤١٨ أعلن انفضاض جلساته .

البابوية المنتصرة

١٤١٧ — ١٥١٣

نظم مارتن الإدارة البابوية تنظيما يمكنها من أداء عملها خير أداء ، ولكنه لم يجد سبيلا للحصول على حاجتها من المال إلا باتباع أساليب الحكومات الدنيوية القائمة فى ذلك العهد وببيع المناصب والخدمات . وإذا كان فى وسع الكنيسة أن تبقى مائة عام من غير إصلاح ، وإن كان يصعب عليها أن تبقى أسبوعاً واحداً من غير مال ، فقد استقر رأيه على أنها أشد حاجة إلى المال منها إلى الإصلاح . وكانت نتيجة هذا ان بعث مندوب ألمانى فى روما

فى عام ١٤٣٠ أى قبل موت مارتن بعام واحد ، إلى أميره رسالة تكاد تضرب على نغمة الإصلاح الدينى وتندر به قال :

إن الشره يسود دوائر الحكومة فى روما ، وهى تبتدع فى كل يوم أساليب جديدة . . لابتزاز المال من ألمانيا ... وهذا هو منشأ ما نراه من الضجيج والأحقاد الكثيرة . . ومن أجل هذا ستثار أسئلة كثيرة عن أحوال البابوية ، والافسينبذ الناس آخر الأمر طاعتها لكى ينجوا من هذا الابتزاز المرهق الذى يعمد إليه الإيطاليون ، وانا أرى أن هذا المسلك الأخير هو الذى سترتضيه معظم البلدان .

وخلف مارتن على كرسى البابوية راهب فرانشسكانى صالح تقى غير أهل لتصريف الأمور فوجد أمامه المشاكل التى تجمعت حول الكرسى الرسولى . لقد كان على البابوية أن تحكم ولايات دنيوية وان تحكم الكنيسة الدينية ، وكان على البابوات أن يكونوا رجال سياسة ملمين بشئون الدنيا ولم يكونوا قديسين فحسب . ولسنا ننكر أن يوجينوس الرابع كان يستطيع أن يكون قديساً لو أن متاعبه لم تملأ قلبه حقداً . فقد حدث فى السنة الأولى من ولايته أن عاد مجلس بازل فأكد من جديد سيادة المجالس العامة على البابوات واستحوذ على ماكان للبابوية من وظائف تمارسها من عهد طويل فنقلها إليه واحدة بعد واحدة . من ذلك أنه أخذ يصدر صكوك الغفران ويعين من يشغلون المناصب العامة ويطلب أن ترسل بواكير المرتبات الدينية إلى المجلس لا إلى البابا . فما كان من يوجينوس إلا أن أمر المجلس بالانفضاض ، فرد عليه المجلس بأن خلعه وعين أماديوس الثامن دوق سافوى بابا معارضاً باسم فلكس الخامس (١٤٣٩) .وهكذا تجدد الانقسام البابوى .

وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم ما خيل إليه أنه هزيمة للبابوية فدعا إلى الانعقاد جمعية مؤلفة من الأساقفة الفرنسيين والنبلاء والمحامين

أعلنت أن للمجالس العامة السلطة العليا وأصدرت قرار بورج التنظيمى (١٤٣٨) الذى ينص على أن الوظائف الدينية ستشغل من ذلك الوقت بمن يختاره لها رجال الدين المحليون ، على أنه يجوز للملك أن « يوصى » فى ذلك بما يراه ، وأن يحرم رفع الاستئناف إلى المحكمة البابويه إلا إذا استنفذت جميع الطرق القضائية فى فرنسا نفسها ، ولا ترسل بعدئذ بواكير مرتبات الوظائف الدينية إلى البابا . وكان معنى هذا فى الواقع أن القرار التنظيمى قد أنشأ كنيسة فرنسية مستقلة وجعل ملك فرنسا رئيس هذه الكنيسة . وبعد عام من ذلك الوقت اتخذت جميعة منيز قرارات تهدف إلى إقامة كنيسة قومية فى ألمانيا شبيهة بالكنيسة الفرنسية . وكانت بوهيميا قد انفصلت من قبل عن البابوية ولاح أن الكنيسة الرومانية توشك أن تنهار .

وأنقذ الأتراك يوجينيوس من هذا الموقف الحرج . ذلك أنه لما قرب العثمانيون من القسطنطينية قررت الحكومة البيزنطية أن عاصمة الدولة خليقة بقداس رومانى ، وأن عودة المذهبين اليونانى واللاتينى إلى الاتحاد ضرورة لا بد منها للحصول على المعونة العسكرية أو المالية من أوربا الغربية . ولهذا جاء الأساقفة والنبلاء اليونان فى مواكب فخمة إلى فيرارا ثم انتقلوا إلى فلورنس ليلتقوا برجال الكنيسة الرومانية الذين استدعاهم البابا لهذا الغرض (١٤٣٨) . وقضى الطرفان فى الأخذ والرد عاماً كاملا وصلا بعده إلى اتفاق اعترفت فيه بسلطة الرئيس الدينى فى روما على جميع العالم المسيحى ، ولما حل اليوم السادس من شهر يوليو عام ١٤٣٩ ركع جميع أعضاء المؤتمر وعلى رأسهم إمبراطور الروم نفسه أمام يوجينيوس الذى خيل إلى العالم منذ وقت قريب أنه الرجل الذى نبذته المسيحية واحتقرته أشد الاحتقار ، على أن هذا الاتفاق لم يطل عهده لأن رجال الدين اليونان وغير رجال الدين فى تلك البلاد نكثوا عهدهم ، لكنه مع هذا أعاد إلى البابوية مكانتها وساعد على القضاء على الانقسام البابوى الجديد وعلى مجلس بازل :

وتلا ذلك قيام طائفة من البابوات الأقوياء خلف بعضهم بعضاً أغنتهم ورفعت من مقامهم النهضة الإيطالية ، فرفعوا البابوية إلى درجة من الفخامة لم تشهد مثلهامن قبل حتى فى أيام أنوسنت الثالث ذلك البابا الفخور . ونال نقولاس الخامس إعجاب الكتاب الإنسانيين بأن وجه إيراد الكنيسة إلى مناصرة العلم والفن ، وبدأ كلكستس الثالث تلك العادة الظريفة عادة منح الوظائف الدينية للأقارب ، وهى التى كانت مصدراً خصباً للفساد فى الكنيسة . وكافح بيوس الثانى ، الذى كان مؤلفاً نابهاً وبابا عظيما ، لإصلاح الإدارة البابوية والأديرة ، وألف لجنة من كبار رجال الدين المشهود لهم بالاستقامة والتقوى لدراسة معايب الكنيسة واعترف لهذه اللجنة فى صراحة بأن :

أمرين هما أقرب الأمور إلى قلبه ، حرب الترك وإصلاح البلاط الرومانى ، وأن إصلاح الأمور الكنسية كلها ، وهو ما اعتزم المضى فيه ، ليتوقف كله على إصلاح أحوال البلاط البابوى الذى أريد أن يكون مثلا يحتذى . وفى عزمى أن ابدأ بإصلاح أخلاق رجال الدين فى هذا البلد وان أقضى على كل ما فيه من بيع الوظائف الدينية وغير ذلك من المساوئ[1] .

وأصدرت اللجنة توصيات تحمد عليها وصاغ بيوس هذه التوصيات فى مرسوم بابوى . لكن روما لم يكن فيها إلا القليل ممن يريدون الإصلاح لأن نصف من كان فيها من الموظفين والكبراء كان يستفيد من هذا العيب أو ذاك ، ولهذا أحبط الحقد وأحبطت المقاومة السلبية أعمال بيوس بينما كانت الحرب الصليبية العقيم التى شنها على الأتراك ثمة تشغل باله وتستنفذ قواه وماله . وقد وجه قبيل آخر ولايته نداء أخيراً إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس أننا نسعى فى حياتنا وراء اللذة ونكدس الثروة ، ونتصف بالكبرياء والغطرسة ، ونمتطى صهوة البغال الثمينة والجياد المطهمة . . ، ونربى الكلاب للصيد ، وننفق المال الكثير على الممثلين والطفيليين ،ولاننفق

شيئاً منه للدفاع عن الدين . وإن فيما يقولون لبعض الحق ، ذلك أن كثيرين من الكرادلة وغيرهم من الموظفين فى بلاطنا يعيشون هذه المعيشة أو نحوها : وإذا أردتم الحق فإن ما فى بلاطنا من ترف وتباه ليزيد على الحد الواجب . ومن أجل هذا ترى الناس يبغضوننا ويحقدون علينا فيمنعهم ذلك من الاستماع إلينا وان قلنا ما هو عدل يرتضيه العقل . فماذا ترون أن نفعل فى هذه الأمور التى تجللنا بالعار ؟ . . ان علينا أن نبحث عن الوسائل التى اتبعها أسلافنا فنالوا للكنيسة السلطة — والاحترام وعلينا بعدئذ أن نحتفظ بهذه السلطة بتلك الوسائل نفسها . وما من شك فى أن الذى رفع من شأن الكنيسة الرومانية وجعل لها السيادة على العالم أجمع إنما هو الاعتداد ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين . . واحتقار الدنيا ، والرغبة فى الاستشهاد(١٥).

وأخذت رذائل البلاط البابوى تزداد كلما قرب القرن الخامس عشر من نهايته على الرغم من الجهود التى بذلها بابوات من أمثال نقولاس الخامس وبيوس الثانى وما بذله الصالحون من رجال الدين أمثال الكردنالين جوليانو سيزاريتى ونقولاس الكوزانى(١٦) فكان بولس الثانى يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصر عظيم ، وجعل سكتس الرابع ابن أخيه من أصحاب الملايين ، وأقحم نفسه فى ميدان السياسة ، وبارك المدفع الذى يحارب به وقائعه ، وحصل على المال اللازم لحروبه ببيع المناصب الدينية إلى من يؤدى فيها أكبر الأثمان ، واحتفل أنوسنت الثامن بزواج أبنائه فى قصر الفاتيكان . وكان اسكندر السادس يرى أن بقاء رجال الدين بلا زواج خطأ يجب الإقلاع عنه كما كان يراه لوثر وكلفن ، وكان له خمسة أبناء أو أكثر قبل أن يلتزم العفة وهو بابا ، ولم ير رجال عصره فيما كان يتصف به من مرح وعدم استعفاف ما يؤخذ عليه كما قد يظن الناس ، ذلك بأن الناس لم يكونوا يرون فيما يلجأ إليه رجال الدين سراً من علاقات غرامية أمراً غير مألوف ، وكان كل ما تأخذه أوربا على إسكندر السادس هو سياسته الخارجية التى

لا يرعى فيها إلا ولاذمة وما تأخذه على سيزارى بورجيا هو قسوته فى حروبه وأنه استرد للبابوية ولايتها وزاد الكرسى الرسولى قوة وأمده بالكثير من المال الذى يحتاجه . وقد اتبع آل بورجيا فى هذه الخطط السياسية والمعارك الحربية جميع الخطط الحربية وأساليب الغدر وسفك الدماء التى صاغها مكيافلى بعد قليل من ذلك الوقت فى كتاب الأمير (١٥١٣) وقال أنها لا غنى عنها لتأسيس دولة قوية أو لتوحيد إيطاليا . وفاق البابا يوليوس الثانى سيزارى بورجيا فيما شنه من الحروب على البندقية النهمة الجشعة وعلى الفرنسيين الغزاة ، وكان يفر كلما استطاع من سجن الفاتيكان ، ويقود جيشه بنفسه ويحب الحياة الصعبة والحديث الخشن فى المعسكرات الحربية . وهال أوربا أن ترى أن البابوية لا تكتفى بأن تصبح سلطة زمنية فحسب ، بل ان تصبح فوق ذلك قوة عسكرية ، غير أنها مع ذلك لم يكن يسعها إلا أن تعجب بعض الإعجاب بقوة ذلك المحارب الذى أخطأت المقادير فجعلته بابا ، وترامت الأنباء وراء جبال الألب عما كان يقدمه يوليوس من معونة للفن ومناصرة للممتازين من الفنانين أمثال رفائيل وميكل انجلو وكان يوليوس هو الذى بدأ بناء كنيسة القديس بطرس الجديدة ، وأول من منح صكوك الغفران للذين أسهموا فى نفقات بنائها . وفى أيام ولايته قدم لوثر إلى رومة وأبصر بعينيه المظالم . ذلك الاسم الذى أطلقه لورنزو ده ميدتيشى على عاصمة العالم المسيحى . لم يعد فى أوربا حاكم يرى أن البابوية حكومة أخلاقية فوق الحكومات كلها تؤلف من الأمم كلها دولة مسيحية واحدة ، وذلك لأن البابوية نفسها بعد أن صارت دولة دنيوية قد اصطبغت بالصبغة القومية . وتقطعت أوصال أوربا ، كما تتطلب ذلك العقيدة الجديدة إلى أقسام صغيرة قومية لا تعترف بقانون أخلاقى منزل أودولى وتردت فى الحروب بين مختلف أقسام المسيحية ودامت خمسة قرون .

وإذا أردنا أن نصدر حكماً عادلا على بابوات النهضة هؤلاء فإن علينا

أن ننظر إليهم فى ضوء الظروف المحيطة بهم فى أيامهم ، لقد كان فى وسع شمالى أوربا أن تحس بأخطائهم لأنها كانت تمدهم بالمال ولكن الذين عرفوا ماكانت تفيض به إيطاليا بين عهدى نقولاس الخامس (١٤٤٧— ١٤٥٥)— ولو العاشر (١٥١٣) (١٥٢١) هم وحدهم الذين كانوا ينظرون إليها بعين التسامح ذلك أن أكثرهم قد ارتضوا عقيدة النهضة القائلة ان العالم وان كان مسرحاً للدموع والمغويات الشيطانية يمكن أن يكون أيضاً منظراً ذا جمال وحياة قوية عارمة وسعادة سريعة الزوال عابرة وان كان بعضهم صالحين أتقياء . ولم يكونوا يرون عيباً فى أن يستمتعوا بنعيم الحياة والبابوية مجتمعين .

ولم تكن تنقصهم الفضائل . فقد بذلوا جهدهم كى يخلصوا رومة من القبح والأقذار التى تردت إليها أثناء غياب البابوات فى أفنيون . لقد جففوا المستنقعات (لا بأيديهم هم بل بأيدى غيرهم وهم مستريحون) ورصفوا الشوارع ، وأعادوا بناء الجسور ومهدوا الطرق ، وأصلحوا موارد مياه الشرب وأنشأوا مكتبة الفاتيكان ومتحف الكابيتول ، ووسعوا المستشفيات ، ووزعوا الصدقات وبنوا الكنائس أورمموها ، وجملوا المدينة بالقصور والحدائق ، وأعادوا تنظيم جامعة رومة ، وأعانوا الكتاب الإنسانيين على إحياء الآداب والفلسفة والفنون الوثنية القديمة وهيأ وا الأعمال للمصورين والمثالين والمهندسين المعماريين الذين خلفوا وراءهم من الأعمال ما هو تراث خالد ثمين لجميع بنى الإنسان . وإذا كانوا قد بددوا الملايين ، فإنهم قد أنفقوا ملايين مثلها فى أعمال البناء والتعمير . ولسنا ننكر أنهم انفقوا فى بناء كنيسة القديس بطرس الجديدة أكثر مما كانت تطيقه موارد البلاد ولكن ما أنفقوه عليها ليس أكثر نسبياً مما أنفقه ملوك فرنسا فيما بعد على قصور فونتيه بلووفرساى واللوار ، ولعلهم كانوا يظنون وقتئذ أنهم لا يفعلون

أكثر من تحويل فئات الأموال السريعة الزوال إلى مجد خالد للشعوب ولربهم. وكان معظم أولئك البابوات فى حياتهم الخاصة يعيشون عيشة البساطة ومنهم مثل (الإسكندر السادس) من كان يعيش زاهداً متقشفاً ولايظهر بمظهر الترف والضخامة إلا لأن ذلك يتطلبه ذوق الشعب وعاداته وبذلك رفعوا البابوية إلى ذروة الجلال والسلطان بعد أن أضحت معدمة معرضة للسخرية والازدراء؟

الفصل الرابع

البيئة المتغيرة

وبينما كانت الكنيسة يبدو عليها أنها آخذة فى استعادة مجدها وسلطانها ، كان يحدث فى أوربا تغيير اقتصادى وسياسى وعقلى يعمل بالتدريج على تقويض صرح المسيحية اللاتينية .

ذلك أن الدين يزدهر عادة فى ظل النظام الزراعى على حين أن العلم يزدهر فى ظل الاقتصاد الصناعي فكل حصاد معجزة من المعجزات فى الأرض ونزوة من نزوات الجو ، والفلاح الحقير الخاضع لسلطان الجو والذى ينهكه الكدح ، يرى من حوله قوات خارقة للعادة فى كل مكان ، ويوجه الدعوات والصلوات إلى السماء يسترضيها ويستميلها إليه ، ويرتضى الخضوع لنظام دينى إقطاعى يتدرج ولاؤه فيه من السيد المالك إلى الملك إلى الله . أما الصانع فى المدينة والتاجر وصاحب المصنع وذو المال فيعيشون فى عالم من الأرقام يحسبون فيه العمليات والكميات والأسباب المادية والنتائج المرتقية العادية .وتهيىء الآلة ومنضدة العد والحساب عقولهم لأن يروا حكم (القانون الطبيعى) يبسط سلطانه على أرجاء آخذة فى الاتساع . وكان نمو الصناعة والتجارة وتكدس الأموال أثناء القرن الخامس عشر وانتقال العمال من الريف إلى المدن وقيام طبقة التجار واتساع دائرة الاقتصاد من البيئة الصنفية المحلية حتى أصبح اقتصاداً قومياً ثم دولياً — كل هذا كان نذير شؤم للدين الذى كان يوائم أشد المواءمة نظام الاقطاع وما يطرأ على الحقول من تقلبات تبعث فى النفس الكآبة والقنوط . وأخذ رجال الأعمال يحطمون القيود التى يفرضها عليهم رجال الدين كما نبذوا من قبل الضرائب التى يفرضها

سادة الإقطاع ، وكان لابد للكنيسة أن ترضى بشىء من الشعوذة اللاهوتية المكشوفة إلى ما تحتمه ضرورة الأيام من فرض فوائدعلى القروض إذا كان لابد لرؤوس الأموال أن تستخدم فى توسيع دائرة الصناعة والمشروعات المالية ، وما وافى عام ١٥٠٠ حتى أصبح الناس يتجاهلون أوامر الكنيسة القاضية بتحريم «الربا» . ثم حل المحامون ورجال الأعمال شيئاً فشيئاً محل رجال الدين والأعمال فى إدارة أعمال الحكومة ، وأخذ القانون نفسه ، بعد أن ظفر باسترداد تقاليده ومكانته اللتين كانتا له فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، يسبق النظم الأخرى فى الانتقال من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ويعتدى يوماً بعد يوم على نظم الحياة الكنسية التى كانت تخضع من قبل للقوانين الدينية وزادت سلطة المحاكم الزمنية واضمحلت سلطة محاكم الابرشيات .

وأخذت الدول الملكية الناشئة بعد أن بلغت طور الشباب وازداد ثراؤها بفضل ما تجمع لها من المال من التجارة والصناعة ، أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من سيطرة الكنيسة وأخذ الملوك يعارضون فى وجود المندوب البابوى أو القاصد الرسولى فى بلادهم لأنه لم يكن يعترف بسلطان غير سلطان البابا وبذلك جعل كنيسة كل أمة دولة داخل دولة . من أجل ذلك ضيقت القوانين التى صدرت فى انجلترا عام ١٣٥١ و١٣٥٣ أشد التضييق سلطات رجال الدين فى شئون الاقتصاد والقضاء . وفى فرنسا احتفظ الملوك بعد إلغاء قرار بورج التنظيمى من الوجهة النظرية فى عام ١٥١٦ بحقه فى ترشيح كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار رهبانها[١٧] وأصرت دولة البندقية على أن تعين هى من يشغلون المناصب الكنسية العالية فى الأقاليم التابعة لها . وغلب فرديناند وإيزابيلا البابوات على أمرهم فانتزعوا منهم حق تعيين من يشغلون كثيراً من المناصب الدينية الشاغرة فى أسبانيا وفى الإمبراطورية الرومانية المقدسة حيث استمسك جريجورى السابع بحق البابوات فى تعيين رجال الدين رغم معارضة هنرى الرابع ، سلم سكستس

الرابع إلى الأباطرة بحقهم فى تعيين ثلاثمائة ممن يشغلون المناصب الدينية وتعيين سبعة أساقفة وكثيراً ماكان الملوك يسيئون استخدام هذه السلطات.

فكانوا يعينون فى مناصب الكنيسة من يميلون إليهم من رجال السياسة وكان هؤلاء يستحوذون على إيراد الأديرة وأملاك الكنيسة ولكنهم كانوا يتجاهلون ما عليهم من التبعات(١٨) وإن كثيراً من المفاسد الكنسية ليعزى أصلها إلى من كانوا يشغلون هذه المناصب الكنسية من غير رجال الدين .

وكانت البيئة العقلية فى الكنيسة نفسها فى هذه الأثناء آخذة فى التغير تغيراً ينذرها بأشد الأخطار . نعم إنها كانت لاتزال تخرج علماء مجدين ذوى ضمائر حية ، ولكن المدارس والجامعات التى أنشأتها هى من قبل كانت قد أخرجت أقلية من الرجال المتعلمين لم تكن آراؤهم مما يرضى على الدوام القديسين . فها هو ذا القديس برناردينو يقول حوالى عام ١٤٢٠ :

إن كثيراً من الناس إذا ما نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات وغير هؤلاء من رجال الدين لتشمئز نفوسهم ، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم ، فلا يؤمنون بشيء أعلى من أسقف منازلهم ولا يرون أن ما ورد فى الكتب عن الدين صادق صحيح بل يعتقدون أنه من اختراع الآدميين وليس وحياً من عند الله . . فهم يحتقرون القربان المقدس ولا يؤمنون بوجود الروح ولا يخشون عذاب النار ولايرغبون فى نعيم الجنة ، بل إن أهم ما تتعلق به قلوبهم هو الأشياء الزائلة ويعملون على أن يكون هذا العالم الأرضى هو جنتهم(١٩)

وأكبر الظن أن طبقة رجال الأعمال كانت أقل الطبقات صلاحاً واستمساكاً بالدين ، ذلك أن الدين يضمحل على الدوام كلما زاد الثراء . فجوور (١٣٢٥ — ١٤٠٨) يقول ان تجار انجلترا قلما يعنون بالحياة الآخرة ويقولون إن من يستطيع الحصول على نعم هذه الحياة ثم يتركها تفلت من يده فهو إنسان أبله فما من أحد يعرف أين يذهب بعد الموت أومن أى طريق

نذهب[٢٠] ، يضاف إلى هذا أن إخفاق الحروب الصليبية قد خلف فى النفوس دهشة أخذت تتناقص على مهل يقول أصحابها كيف سمح رب المسيحية بأن ينتصر الإسلام وكان استيلاء الأتراك على القسطنطينية مما قوى هذه الشكوك ، وكانت كتابات نقولاس الكوزانى ١٤٣٢ ولورند سوفلا ١٤٣٩ التى قالا فيها إن « هبة قسطنطين » زيف وزور ، مما حط من مكانة الكنيسة وأضعف ما تدعيه لنفسها من سلطان زمنى . وفوق هذا كله فإن اكتشاف الكتب اليونانية والرومانية القديمة ونشرها كان سبباً فى تقوية الشكوك لأنه كشف عن عالم من العلوم والفنون ازدهرت قبل مولد الكنيسة المسيحية وهى التى أنكرت فى مجلس لاتيران الخامس ١٥١٢ — ١٥١٧ إن النجاة غير مستطاعة خارج حظيرتها[٢١] كذلك أزاح كشف أمريكا وارتياد بلاد الشرق ارتياداً آخذاً فى الاتساع ، أزاح هذا وذاك الستار عن مائة أمة كانت ترفض الإيمان بالمسيح أو تتجاهله وكانت لها أديان أخرى لا تقل عن المسيحية إيجابية أو تأثيراً من الناحية الخلقية وجاء الرحالة العائدون من بلاد « الكفرة » ببعض العقائد والطقوس التى أخذت تنازع العبادات والعقائد المسيحية فأخذت هذه العقائد المتنافسة تصطرع فى الأسواق وفى الثغور.

ثم إن الفلسفة نفسها التى كانت فى القرن السادس عشر خاضعة لسلطان الدين وخادمة طيعة له همها كله أن تجد أسباباً يقبلها العقل لمبادئ الدين القويم ، قد حررت نفسها فى القرن الرابع عشر على أيدى وليام الأوكهامى ومرسليوس من أهل بدوا وأصبحت فى القرن السادس عشر فلسفة زمنية جريئة تجهر بتشككها بقيادة بمبومنشى ومكيافلى وجوتشياردين . وقد أذاع مكيافلى قبل أن يكتب لوثر رسالته بأربع سنين نبوءة فزع منها القوم قال :

لو أن الدين المسيحى قد احتفظ به كما صدر عن مؤسسه لكانت دول العالم المسيحى أكثر اتحاداً وأعظم سعادة مما هى الآن وليس أدل على ضعفه

من أن أقرب الناس إلى الكنيسة الرومانية التى هى صاحبة السلطة العليا فى هذا الدين هم أقل الناس تديناً . وان من ينعم النظر فى المبادئ التى يقوم عليها هذا الدين ويرى ما بين هذه المبادئ وبين شعائرها الحاضرة وعباداتها من فرق كبير ليحكم من فوره بأن انهيارها أويوم القصاص منها لآت عن قريب » .

الفصل الخامس

ما يؤخذ على الكنيسة

هل لنا أن نعيد هنا ذكرى التهم التي يوجهها الكاثوليك المخلصون إلى الكنيسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؟ إن أول هذه التهم وأشدها هي أنها كانت تحب المال وأنه كان لها منه أكثر مما يليق بها إذا أرادت لنفسها(*) الخير وقد وجه مجلس نورنبرج في عام ١٥٢٢ مائة تهمة منها أنها تمتلك نصف ثروة ألمانيا(٢٣) وقد قدر مؤرخ كاثوليكي نصيب الكنيسة بثلث أموال ألمانيا وخمس أموال فرنسا(٢٤) ولكن مدعياً عمومياً في برلمان فرنسا قدر ثروة الكنيسة في عام ١٥٠٢ بثلاثة أرباع أموال فرنسا كلها(٢٥) على أننا ليس لدينا من الإحصاءات ما نرجع إليـــه في هذه التقديرات أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة بطبيعة الحال كان ملكاً للكنيسة ونعني به الولايات البابوية ، هذا فضلا عما كان لها من الأملاك القيمة في غير تلك الولايات(**) .

وكان لتجمع الثروة في يد الكنيسة ستة أسباب . أولها أن معظم من كانوا يوصون بأموالهم عند وفاتهم كانوا يتركون لها بعض المال وقاية لهم من نار جهنم ، وإذا كانت الكنيسة هي التي تشرف على عمل الوصايا وإثباتها فإن

(*) يقول باستور في كتابه تاريخ البابوات الجزء السابع ص ٢٩٣ ما يأتي : ان من أسباب سقوط الكنيسة الألمانية ثراءها الفاحش الذي كانت زيادته غير المشروعة مما أثار حسد غير رجال الدين وبغضهم كما كان له أسوأ الأثر في رجال الكنيسة أنفسهم .

(**) ان معظم الكفايات في أي مجتمع تنحصر في عدد قليل من الرجال ولهذا فإن معظم الطيبات والامتيازات والسلطات تستحوذ عليها ان عاجلا أو آجلا أقلية من الرجال . ولقد تجمعت الثروة في يد الكنيسة في العصور الوسطى لأنها كانت تقوم بأعمال خطيرة وكان يقوم على خدمتها أقدر الرجال . وكان الإصلاح الديني من بعض نواحيه عبارة عن إعادة توزيع هذه الثروة التي تركزت بطبيعة الحال وذلك باستيلاء غير رجال الدين على ثروة الكنيسة وإيراداتها .

رجالها كانوا فى وضع يمكنهم من تشجيع أمثال هذه الوصايا . وثانيها ان أملاك الكنيسة كانت أكثر أماناً من كل ما عداها من انتهاب اللصوص والجنود والحكومات ، ولهذا فإن بعض الناس كانوا ينزلون عن أراضيهم للكنيسة ليأمنوا عليها من ذلك النهب ثم يتملكونها هم منها بوصفهم عمالا للكنيسة عليها على أن يؤول كل ما لهم من حقوق إلى الكنيسة بعد موتهم . ومنهم من كان يوصى ببعض أمواله أو بها كلها للكنيسة مشترطين ان تمدهم بما يلزمهم فى حالتى المرض والشيخوخة فكانت الكنيسة بذلك تضمن لهم أماناً من الفقر فى حالة العجز عن الكسب . وثالث هذه الأسباب أن الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية قد باعوا إلى الهيئات الدينية أرضهم أو رهنوها لها أو نزلوا لها عنها كى يحصلوا على ما يلزمهم من المال فى مغامرتهم . ورابع هذه الأسباب ان مئات الآلاف من الأفدنة قد آلت إلى الكنيسة لأن طوائف الرهبان هى التى أصلحتها . وخامسها ان ما تمتلكه الكنيسة من الأرض لا يمكن ان ينتقل إلى غيرها — فلا يمكن أن يبيعه أو ينزل عنه أحد من رجالها إلا بوسائل غاية فى التعقيد تجعل هذا فى حكم المستحيل . وآخر هذه الأسباب ان أملاك الكنيسة كانت فى العادة معفاة من الضرائب التى تفرضها الدولة على سائر الأملاك وإن كان بعض الملوك يرغمون رجال الدين على أداء بعض الأتاوات أو يجدون ذرائع قانونية لمصادرة أجزاء من ثروة الكنيسة غير مبالين بما يصبه عليهم رجال الدين من اللعنات ؛ ولو أن أملاك الكنيسة أو الإيراد الناتج منها أو التبرعات التى لا حصر لها والتى كانت ترد إليها من المؤمنين برسالتها قد بقيت داخل حدود البلاد التى ينتمى إليها المتبرعون أو التى توجد فيها هذه الأملاك لكان تذمر الحكام فى أوربا الشمالية أقل شدة مما شاهدناه ؛ أما وان هذه الثروة لم تبق داخل تلك الحدود فإن منظر الذهب الذى كان ينساب بآلاف الطرق من أوربا الشمالية إلى رومة كان مما يثير حنق هؤلاء الحكام .

أما الكنيسة فقد كانت تحسب أنها العامل الأكبر فى المحافظة على الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والتربية والأدب ، والعلم ، والفن ، وكانت الدولة تعتمد عليها فى القيام بهذه المهام ، وكان القيام بها يتطلب نظاماً واسعاً كثير النفقة ، وكان لابد لها فى الحصول على هذا المال من أن تفرض الضرائب وتجبى الرسوم ، ذلك أن الكنيسة هى الأخرى لا يمكن أن تحكم بالصلوات والأدعية . وكان كثير من الأساقفة حكاماً مدنيين وكنسيين فى أقاليمهم ، وكانت السلطات غير الدينية هى التى تعين معظم أولئك الأساقفة تختارهم من بين أعيان البلاد الذين اعتادوا معيشة الترف والتحرر من قيود الأخلاق ، فكانوا يفرضون الضرائب وينفقون مواردها كما يفعل الأمراء وكانوا أحياناً يجللون بالعار ذكرى القديسين بارتداء الدروع وقيادة الجند فى الحروب . وقلما كان الكرادلة يختارون لتدينهم وتقواهم بل كانوا يختارون عادة لثروتهم أو لصلاتهم السياسية أو لكفايتهم الإدارية ، ولم يكونوا يرون أنفسهم رهباناً مقيدين بأيمان أقسموها وإنما كانوا يرون أنفسهم شيوخاً ورجال سياسة فى دولة غنية قوية ، ولم يكونوا فى كثير من الأحيان قساوسة ، ولم يكونوا يسمحون لقلانسهم الحمراء أن تحول بينهم وبين الاستمتاع بمباهج الحياة[٢٦] وقصارى القول أن الكنيسة قد أنستها حاجات السلطة وما يلزمها من المال ما كان عليه الرسل الأولون من زهد وفقر.

وإذا كان خدم الكنيسة رجال دنيا لا رجال دين فإنهم لم يكونوا فى كثير من الأحيان يقلون جشعاً عن موظفى الحكومات فى أيامهم . فقد كان الفساد قانون ذلك العصر وطبيعة أهله ، وكانت المحاكم المدنية تشترى بالمال ولسنا نجد فى انتخاب البابوات كلهم ما يضارع فى الرشوة ما حدث فى انتخاب شارل الخامس امبراطوراً . وإذا ما استثنينا هذا الانتخاب وحده فإن أضخم الرشاوى فى أوربا هى التى كانت تقدم إلى محاكم رومة[٢٧] لقد كانت رسوم معقولة محددة تفرض نظير الخدمات التى تقوم بها المحكمة

البابوية العليا ، ولكن جشع موظفيها رفع هذه الرسوم إلى أكثر من قيمتها القانونية عشرين ضعفاً[٢٨] وكان من المستطاع التحلل من الأوامر الدينية كلها تقريباً وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن غفرانها إذا كان الثمن الذى يؤدى لذلك مغرياً . وليس أدل على ذلك من أن اينياس سلفيوس كتب قبل أن يجلس على كرسى البابوية يقول إن كل شىء فى رومة يباع بالمال وان لا شىء فيها يمكن الحصول عليه بغير المال [٢٩] وأشد من هذا ما قاله سفنرولا بعد جيل من ذلك الوقت بشىء من المبالغة التى تصحب الغضب على الدوام ، وهو وصف كنيسة رومة بأنها عاهر تبيع نفسها بالمال [٣٠] ومثل هذا ما قاله ارزمس بعد جيل آخر وهو « ان العار الذى يجلل المحكمة البابوية العليا قد وصل إلى ذروته[٣١] » . ثم انظر إلى ما كتبه بستور ، إن الفساد المتأصل قد استحوذ على جميع موظفى الإدارة البابوية كلهم تقريباً... فالهبات التى لا يحصى عددها واغتصاب الأموال بمختلف الأساليب قد فاق كل ما يتصوره العقل يضاف إلى هذا أن الموظفين أنفسهم كانوا يزورون العقود ويتبادلونها . فلا عجب والحالة هذه إذا علت الشكوى من جميع أجزاء العالم المسيحى مما كان يرتكبه الموظفون البابويون من رشوة وفساد واغتصاب للأموال[٣٢] .

ولم يكن مألوفاً أن يرقى ذوو الكفايات المعدمون فى مناصب الكنيسة فى القرن الخامس عشر ، فقد كان كل منصب تقريباً يتطلب رشوة الموظفين الأعلين فيها رشاوى تختلف بين المبالغ الصغيرة لنيل منصب القساوسة ، والرشاوى الضخمة التى يؤديها كثير من الكرادلة لكى يرقوا إلى هذا المنصب لما يتطلب التملق الخفى للأعلياء . وكان من الأساليب المحببة للبابوات لجمع المال بيعهم مناصب الكنيسة ، وكان هذا فى عرف البابوات هو تعيين أشخاص يرجى أن يسهموا بالكثير من المال فيما تحتاجه الكنيسة من نفقات بمنحهم ألقاب شرف فخرية قد تصل إلى لقب الكردنال نفسه : من ذلك

ان اسكندر السادس أنشأ ثمانين منصباً جديداً وقبض ٧٦٠ دوقة (١٩٠٠٠ دولار) من كل شخص عين فى منصب من هذه المناصب . وأنشأ يوليوس الثانى « مجمعاً » أو مكتباً مؤلفاً من ١٠١ أمين أدوا له مجتمعين ٢٤٠٠٠ دوقة ثمناً لهذه المناصب ، ورشح ليو العاشر ٦٠ من الحجاب و١٤١ من الأتباع فى القصر البابوى واستحوذ منهم على ٢٠٢٠٠٠ (٣٣) دوقة وكان معطى هذا المال وآخذه يرون أن الأموال التى تبتاع بها هذه المناصب ليست إلا أقساطاً ثانوية فى عقود تأمين ، أما لوثر فلم يكن يرى فيها إلا أنها بيع من أدنأ البيوع للمناصب الكنسية .

وكان صاحب المنصب فى آلاف من الأحوال يعيش بعيداً عن مقر منصبه — الابرشية أو الدير أو الأسقفية — التى كان إيرادها ثمناً لكدحه أووسيلة لترفه وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يكون شخص واحد هو القائم بالعمل فى كثير من هذه المناصب . من ذلك مثلا ان الكردنال روريجو بورجيا النشيط (الذى صارفيا بعد اسكندر السادس) قد وهب عدة مناصب مختلفة كانت تدر عليه ٧٠٠٠٠ دوقة (١,٧٥٠,٠٠٠ دولار) فى العام وأن عدوه الألد الكردنال دلاروفيرى (الذى صار فيا بعد يوليوس الثانى) قد كان فى وقت واحد كبير أساقفة افنيون واسقفا لبولونيا ولوزان وكوتانس ، وقفير ، ومندى واستيا ونيليتورى ورئيساً لديرى نونانتولا وجبروتا فراتا(٣٤) . كان فى وسع الكنيسة بالجمع بين هذه المناصب أن تؤدى مرتبات كبار موظفيها التنفيذيين وان تنفح بالهبات السخية فى كثير من الأحيان الشعراء والعلماء وطلاب العلم . وها هو ذا بترارك الناقد الشديد لبابوات افنيون كان يعيش من مرتبات المناصب الهينة المجزية التى منحه إياها أولئك البابوات ، وها هو ذا ارازمس الذى سخر من مئات السخافات الكنسية وهجاها الهجو اللاذع كان يقبض معاشاً منتظما من الكنيسة ، وكوبر نيكاس الذى أصاب كنيسة العصور الوسطى بأعظم الأضرار قد ظل سنين

طوالا يعيش من أموال الكنيسة التى لم تكن تتطلب منه إلا القليل من الأعمال التى تحول بينه وبين أعماله العلمية[٣٥] .

ولم يكن هذا التعدد فى المناصب أخطر التهم التى وجهت للكنيسة بل كان أخطر منه ما اتهم به رجال الدين من فساد فى الأخلاق . وها هو ذا واحد منهم هو أسقف تورشيلو (١٤٥٨) يقول : ان أخلاق رجال الدين فاسدة يشمئز منها العلمانيون[٣٦] . وأصبح المنتمون إلى طوائف الرهبان الأربع التى أسست فى القرن الثالث عشر — وهى طوائف الفرانشيسكان والدمنيك ورهبان الكرمل ، والاوغسطينيين أصبح المنتمون إلى هذه الطوائف كلها ما عدا الأخيرة منها مستهترين فى أخلاقهم شديدى الاستخفاف بما يتطلبه مركزهم من تقى وحسن نظام » . وقد تبين أن قواعد الأديرة التى وضعها منشئوها الأولون المتحمسون أشد مما تطيقه الطبيعة البشرية التى أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من مخاوف ما وراء الطبيعة . وإذ كان آلاف الرهبان والإخوان قد استغنوا عن العمل اليدوى بفضل ما تجمع لهم من المال الكثير ، فقد أهمل هؤلاء الخدمات الدينية وخرجوا من صوامعهم يجوسون خلال الديار ، ويتعاطون الخمور فى الحانات ويتخذون لهم عشيقات. وها هو ذا راهب من الدمنيك يدعى جون بروميارد من رهبان القرن الرابع عشر يقول عن إخوانه الرهبان :

إن أولئك الذين من واجبهم أن يكونوا آباء للفقراء . . . يشتهون ألذ الطعام ، ويستمتعون بنوم الضحى . . . ويمنون على الناس بحضورهم صلاة الصباح أو القداس . . . وتراهم منهمكين فى الطعام والشراب إذا لم نقل فى الدنس والأقذار ، حتى لقد أصبحت مجامع رجال الدين مواخير للفجار ومجتمعات من مهرجين[٣٧] .

وكرر أرازمس تلك التهمة نفسها بعد مائة عام من ذلك الوقت فقال : « ان كثيراً من أديرة الرجال والنساء قلما تختلف عن المواخير العامة[٣٩] » .

ولسنا ننكر أن بترارك قد رسم صورة طيبة لما كان يسود دير الكرثوذيين الذى كان أخوه يعيش فيه من حسن نظام وتقى وأن كثيرا من الأديرة فى هولندا وغربى ألمانيا قد احتفظت بروح الدرس والصلاح التى تألفت على أساسها « طائفة إخوان الحياة العامة » وصدر منها كتاب التشبه بالمسيح ، ولكن نيوهانز تريتميوس ، ينس وايرسنهايم (حوالى ١٤٩٠) قد ندد برهبان هذا الجزء من ألمانيا المحيط بنهر الراين تنديداً عنيفاً أشد العنف فقال :

إن هؤلاء الرجال لا يبالون بالأيمان الدينية التى أقسموها . . فإنهم لم يعدوا قط بأن يبروا بها . . . فهم يقضون النهار كله فى الحديث القذر ويقضون وقتهم كله فى اللعب والتهام الطعام . . وإذا كانوا يمتلكون ثروة خاصة طائلة . . فإن كل واحد منهم يعيش فى مسكن خاص به . . وليس فيهم من يهاب الله قط أو يحبه . ولا يفكرون قط فى الحياة الآخرة ويؤثرون شهواتهم البدنية على مطالب الروح . . ويحتقرون ما أقسموا عليه من التزام الفقر ويجهلون يمين العفة وينقضون يمين الطاعة . . وإن رائحة أقذارهم لتحيط بهم من كل الجوانب(٤١) »

ولما أرسل جاى جوينو من قبل البابا لإصلاح أديرة البندكتيين فى فرنسا كتب بعد عودته تقريراً يبعث الغم والاكتئاب فى النفوس (١٥٠٣) قال فيه إن كثيراً من الرهبان يلعبون الميسر ويكثرون من السباب ، ويترددون على الحانات ، ويتسلحون بالسيوف ، ويجمعون الأموال « ويحيون حياة السكيرين » ، وهم أكثر تعلقاً بالدنيا من رجال الدنيا أنفسهم . . ولو أننى أردت أن أقص كل ما وقعت عليه عيناى لملأت بذلك صحفاً طوالا(٤٢) . وقد كانت نتيجة الفوضى المضطردة النماء فى الأديرة أن أهمل الكثير أعمال الصدقات والخدمة فى المستشفيات والقيام بشئون التعليم وهى الأعمال العظيمة الخليقة بالإعجاب التى استحقوا من أجلها ثقة الناس وتأييدهم(٤٣) . ويقول البابا ليو العاشر (١٥١٦) « لقد وصل اضطراب الأمور فى أديرة

فرنسا وحياة الاستهتار التى يحياها الرهبان إلى حد لم يبق لهم معه أى احترام عند الملوك أوالأمراء أو المتدينين من الناس[٤٤] ؛ وقد أجمل مؤرخ كاثوليكى وصف هذه المفاسد كلها كما رآها فى عام ١٤٩٠ ، ولعله كان مبالغاً بعض الشيء فى قسوته فقال :

اقرأ ما يفيض به ذلك العهد من أدلة وشواهد — طرائف تاريخية وتعنيف ينطق به رجال الأخلاق ، وهجاء يكتبه العلماء والشعراء ، ومراسيم بابوية ومجامع دينية مقدسة — ماذا تجد فى هذه كلها ؟ انك لتجد فيها نفس الحقائق ونفس الشكاوى . . التحرر من حياة الأديرة ومن النظام والأخلاق الكريمة وما أكثر ما تجد فى الأديرة من لصوص وفسقة ، وإذا شئت أن تدرك ما فى هذه الأديرة من فوضى فعليك أن تقرأ ما كشفت عنه البحوث القضائية من تفاصيل الحالة الداخلية للكثرة الغالبة من الأديرة الكبيرة . . . ولقد بلغت المساوئ المنتشرة فى أديرة الكرثوذيين درجة أصبحت معها هذه الأديرة مضرب المثل فى سوء السمعة فى كل مكان تقريباً . . أما أديرة الراهبات فقد اختفت فيها حياة الرهبنة عن آخرها . . . فاستحالت دور العبادة بسبب هذه المساوئ كلها بؤراً للفساد وسوء النظام[٤٥] .

أما رجال الدين غير المنتمين إلى طوائف الرهبان ، فكانوا خيراً من الرهبان والإخوان ، إذا تساهلنا فى عادة التسرى التى كانت شائعة بينهم ، وكانت أكبر آثام قسيس الابرشية هى جهله[٤٦] ولكنه لم يكن يتقاضى إلا القليل الذى لا غناء فيه من الأجر وكان يرهق بالعمل ومن أجل هذا لم يكن يجد من الوقت أوالمال ما يعينه على الدرس ، وتدل التقوى الشائعة بين عامة الشعب على أنه كثيراً ما كان محبوباً مبجلا . وكثيراً ما كان هؤلاء القساوسة يحنثون بقسمهم الكهنوتى على أن يلتزموا العفة والطهارة . ففى نورفولك بانجلترا مثلا نظرت المحاكم فى ثلاث وسبعين تهمة خاصة بعدم العفة فى عام ١٤٩٩ ، وكان منها خمس عشرة تهمة موجهة إلى رجال الدين ،

وفى ريبون كانت أربع وعشرون تهمة من ١٢٦ موجهة إلى رجال الدين ، وفى لامبث كانت تسع تهم من ثمان وخمسين موجهة إلى رجال الدين ، ومعنى هذا ان ثلاثاً وعشرين فى المائة من مجموع هذه التهم موجهة إليهم مع أن رجال الدين كلهم كانوا فى أغلب الظن أقل من اثنين فى المائة من مجموع السكان(٤٧) . ومن رجال الدين من كانت لهم صلات جنسية بالتائبات من النساء(٤٨) . وكان للآلاف من القساوسة حظايا ، وفى ألمانيا كان لهم كلهم تقريباً(٤٩) وفى رومة كان هذا هو الأمر المتبع المألوف ، وتقدر بعض التقارير عدد العاهرات فيها بسبعة آلاف من بين السكان الذين لم يكونوا يزيدون على مائة ألف(٥٠) . وها هو ذا مؤرخ كاثوليكي يقول :

لا غرابة وتلك حال أعلى طبقات رجال الدين أن تنتشر الرذيلة وينتشر الشذوذ باختلاف أنواعه بين طوائف الرهبان المنتظمة وبين القساوسة من غير الرهبان وان يزداد هذا الانتشار يوماً بعد يوم . قصارى القول أن الفضيلة قد فقدت معناها على وجه الأرض . . ولكن من الخطأ أن نظن أن فساد رجال الدين كان أسوأ فى رومة منه فى غيرها من المدن ، ذلك أن لدينا أدلة تثبتها الوثائق على فساد أخلاق القساوسة فى كل بلد تقريباً من بلدان شبه الجزيرة الإيطالية . . فلا عجب ، كما يقول كاتب معاصر والحزن يملأ قلبه إذا كان نفوذ رجال الدين قد أخذ ينقص تدريجاً وإذا كان الناس لا يكادون يظهرون أى احترام مهما قل لرجال الدين فى كثير من الأقطار ذلك ان الفساد قد انتشر بينهم إلى حد أصبحنا نسمع معه اقتراحات يبديها البعض بالسماح للقساوسة بالزواج(١٥) .

ويجدر بنا أن نقول انصافا لهؤلاء القساوسة غير المتعففين أن التسرى الشائع بينهم لم يكن يعد دعارة بل إنه يكاد يكون تمرداً عاماً على قانون العزوبة التى فرضها البابا جريجورى السابع (١٠٧٤) على رجال الدين وأرغمهم عليها إرغاماً . ولقد أخذ كهنة الكنيسة الرومانية يطالبون بأن

يسمح للقساوسة بالزواج شأنهم فى ذلك شأن أمثالهم من كهنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية فقد ظلت هذه الكنيسة تسمح لقساوستها بالزواج بعد الانشقاق الذى حدث فى عام ١٠٥٤ ، وإذ كان قانون الكنيسة الكاثوليكية لم يسمح لهم بهذا فقد لجأوا إلى عادة التسرى . وها هو ذا هاردون أسقف انجبر يقول فى تقرير له (١٤٢٨) ان رجال الدين فى ابرشيته لم يكونوا يرون فى اتخاذ الحظايا إثماً . وأنهم لم يحاولوا قط أن يخفوا ذلك عن أعين الناس [٥٢] . وكان فى بومرانزا ١٥٠٠ حالة من هذا النوع يعترف الأهلون بأنها لا غبار عليها ، بل كانوا يشجعونها ، لأنهم يرونها وقاية لبناتهم وزوجاتهم ، وكان المألوف المتواضع عليه فى الاحتفالات العامة أن يعطى مكان الشرف للقساوسة وحظاياهم [٥٣] ، وحدث فى شلزويج ان طرد أسقف من كرسيه لأنه حاول أن يحرم هذه العادة [٥٤] (١٤٩٩) . ولما عقد مجلس كنستانس اقترح الكردنال زيرلا ان تعود الكنيسة فتسمح لرجال الدين بالزواج إذا لم يكن مستطاعاً منعهم من اتخاذ الحظايا ، وقال الإمبراطور سجسمند فى رسالة له إلى مجلس بازل (١٤٣١) ان زواج رجال الدين سيصلح من أخلاق الناس بوجه عام [٥٥] ، ونقل المؤرخ بلاتينا أمين مكتبة الفاتيكان عن اينياس سلفيوس قوله ان هناك أسباباً قوية فى صالح بقاء رجال الدين عزاباً ، ولكن هنا أسباباً أقوى منها فى صالح زواجهم [٥٦] ، وجملة القول ان السجل الأخلاقى لرجال الدين قبل الإصلاح الدينى يبدو خيراً مما هو إذا نظرنا إلى عادة اتخاذ الحظايا على أنها تمرد يغتفر لهم ، على سنة مرهقة لا تطيقها الطبيعة البشرية ، ولم تكن عند الحواريين الأولين ، ولا تجرى عليها الكنيسة الشرقية .

أما الشكوى التى أشعلت نار الإصلاح الدينى فى آخر الأمر فقد كانت هى بيع صكوك الغفران . وتفصيلها ان من حق رجال الدين ، السلطات التى خولها المسيح فيما يبدو لبطرس (انجيل متى ١٦ ، ١٩) والتى انحدرت

من بطرس إلى رجال الدين بمقتضى هذه السلطات أن يغفروا للتائب المعترف بذنوب خطاياه وما يترتب عليها من عقاب فى نار جهنم ، ولكنهم لا يعفون أولئك المذنبين من التكفير عن خطاياهم أثناء حياتهم على ظهر الأرض . على أن الذين يستطيعون أن يثقوا بأنهم يموتون بعد أن يكفروا التكفير الواجب عن ذنوبهم كلها ليسوا إلا قلة صغيرة من الناس مهما اعترفوا بذنوبهم وطهرهم هذا الاعتراف ، إن الذين يستطيعون أن يثقوا بذلك هم قلة صغيرة من الناس ، أما الباقون فلابد أن يكفروا عما بقى من ذنوبهم بأن يقدموا عدداً من السنين فى المطهر ، الذى أوجده الإله الرحيم ليكون جحيما موقتاً لهؤلاء المذنبين . لكن ثمة طائفة كبيرة من الأولياء الصالحين قد كسبوا بفضل خشوعهم وتقواهم واستشهادهم فى سبيل الدين من الفضائل ما نرى فى أكبر الظن زيادته على ماكفروا به عن ذنوبهم . وقد خلف المسيح وراءه بموته قدراً لا يحصى من الفضائل ، وهذه الفضائل كما تقول الكنيسة ، يمكن أن تعد بمثابة كنز يستمد منه البابا ما يشاء ليمحو جزءا من الآثام التى ارتكبها الناس فى الدنيا . ولم يكفروا عنها كل التكفير. وكانت الكفارة التى تضعها الكنيسة تتخذ فى العادة صورة تكرار بعض الأدعية أو إخراج الصدقات أو الحج إلى بعض الأضرحة المقدسة ، أو الاشتراك فى حرب صليبية ضد الأتراك أوغيرهم من« الكفرة » . أو التبرع بالمال أو العمل لبعض المشروعات الاجتماعية كتجفيف مستنقع ، أو إنشاء طريق ، أوبناء قنطرة ، أو مستشفى ، أوكنيسة . وكان استبدال غرامة مالية (فدية) بالعقاب البدنى سنة مألوفة من عهد بعيد فى المحاكم المدنية ، ومن ثم فإن تطبيق هذه الفكرة على صكوك الغفران لم يغضب الناس فى بادئ الأمر . وكان التائب المعترف ، إذا أدى هذه الفدية أى إذا خرج عن بعض المال — لنفقات الكنيسة تسلم صك غفران جزئى أوكلى ، ولم يكن هذا الصك ليجيز له أن يرتكب ذنوباً جديدة ، بل يمكنه من أن ينجو ... ماً ،

أو شهراً ، أوعاماً من عذاب المطهر ، أو أن يعفى من جميع المدة التى كان لابد له أن يقضيها فى عذاب المطهر عقاباً له على ذنوبه لولا هذا الصك ، ولم يكن الصك ليعفى من جريمة الإثم ، أما هذه الجريمة فقد كانت تعفى حين يغفر القس ذنب التائب النادم أثناء الاعتراف قبل الموت . فصك الغفران ، والحالة هذه ، معناه أن تمحو الكنيسة بعض العقوبات الدنيوية (أى غير الأبدية) التى يتعرض لها صاحب الخطايا التى غفر أثمها أثناء عملية الكفارة .

وسرعان ما تبدل شأن هذه النظرية البارعة المعقدة بفضل سذاجة الناس أو شراهة الغافرين الذين عهد إليهم توزيع صكوك الغفران أو ادعوا لأنفسهم حق توزيعها . وإذ كان يسمح لهؤلاء الموزعين أن يحتفظوا لأنفسهم بجزء مما تدره من المال ، فقد أغفل بعضهم الإصرار على توبة من يبتاعون الصكوك ، أو اعترافهم بذنوبهم ، أوصلواتهم ، وتركوا لهم حريتهم الكاملة فى أن يفسروا الصكوك بأنها تعفيهم من التوبة ، ومن الاعتراف ، ومن الغفران على يد القساوسة ، وبأنهم يستطيعون الاعتماد كل الاعتماد تقريباً على ما يقدمون من المال . وقد وصل الأمر حدا جعل تومس جسكونى مدير جامعة اكسفورد يجأر بالشكوى ويقول :

يقول المذنبون فى هذه الأيام : « لست أبالى كم ارتكب من الذنوب أمام الله لأن من السهل على أن أتخلص من كل ذنوبى ومما يترتب عليها من العقاب بالمغفرة وصكوك الغفران يمنحنى إياها البابا الذى ابتاعهامنه مستورة نظير أربع بنسات أو ست كانى اكسبها فى لعبة تنس مع من فى مقدرته أن يمنح هذا الغفران » . ذلك أن بائعى هذه الصكوك يطوفون بالبلاد ويفرقون خطابات بالمغفرة نظير بنسين تارة ونظير جرعة من الخمر أو الجعة تارة أخرى . . . بل إنهم يعطونها نظير استئجار عاهر أو نظير الحب الدنس(٧٥) ولقد ندد البابوات ـ بونيفاس التاسع فى عام ١٣٩٢ ،

ومارتن الخامس فى عام ١٤٢٠ وسكستس الرابع فى عام ١٤٧٨ — أكثر من مرة بهذه المساوئ وهذا الخطأ فى التفكير ولكن حاجتهم إلى المال كانت أشد من أن يستطيعوا معها السيطرة المجدية على هذه العادات السيئة . وكثيراً ما أصدروا القرارات لأسباب عدة يتحير الفكر فيها مع إيمان رجال العلم بهذه النظرية واتهموا الكنيسة بأنها تستغل سذاجة الناس وآمالهم استغلالا يجللها بالعار[٥٨] وكانت اللغة الرسمية فى بعض هذه الحالات كالصكوك التى عرضها يوليوس الثانى فى عام ١٥١٠ أوليو العاشر فى عام (١٥١٣) تحمل من المعانى ما يمكن تفسيره تفسيراً مالياً خالصاً[٥٩] . وقد وصف أحد الرهبان الفرنسيس من ذوى المراتب العليا وهو غاضب أشد الغضب كيف كانت الصناديق توضع فى كنائس ألمانيا كلها لتتلقى الأموال من الذين لم تمكنهم ظروفهم من الذهاب إلى رومة ليشهدوا الاحتفال الذى أقيم فيها عام ١٤٥٠ فاستطاعوا الآن أن تغفر لهم جميع ذنوبهم بالمال يلقونه فى الصناديق ثم حذر الألمان قبل أن يحذرهم لوثر بنصف قرن فقال لهم ان صكوك الغفران وغيرها من الوسائل تستنزف مواردهم وتنقلها إلى رومة[٦٠] وحتى رجال الدين أنفسهم كانوا يشكون من أن صكوك الغفران كانت تقتنص الأموال إلى خزائن البابوات وكان خليقاً بهذه الأموال أن تستخدم فى الأغراض الكنسية المحلية[٦١] ويلخص مؤرخ كاثوليكى هذا الموضوع كله بصراحة خليقة بالإعجاب فيقول :

ان المساوئ ذات الصلة بصكوك الغفران تنشأ كلها تقريباً من سبب واحد وهو أن المؤمنين بعد أن يشهدوا مراسم التكفير وهى الشرط المقرر المعترف به لنيل المغفرة ، يطلب إليهم أن يقدموا من المال ما يتناسب مع ثرائهم وبذلك أصبح المال الذى يؤدى للأعمال الخيرية وهو الذى يجب أن يكون من الأعمال النافلة التى لا يلزم بها إنسان ، أصبح هذا المال فى بعض الحالات هو الشرط الأساسى لغفران الذنوب . . وكثيراً ما أصبح

المال لا العمل الصالح هو الغاية المقصودة من الغفران ولسنا ننكر أن العبارات التى صيغت فيها قرارات البابوية يخيل إلى الإنسان معها أنها لا تحيد مطلقاً عن عقائد الكنيسة وان الاعتراف والندم والأعمال الصالحة المنصوص عليها فى هذه العقائد هى الشرط الأساسى لنيل المغفرة ، إلا أن الجانب المالى كان يبدو واضحاً فى جميع الأحوال وكان للهبات المالية المقام الأول فى هذا الأمر كله مما يسربل الكنيسة بالعار ويجعلها مضغة فى الأفواه . اتخذت صكوك الغفران شيئاً فشيئاً صورة الصفقات المالية ، وأدى هذا إلى كثير من النزاع بين السلطات الزمنية التى كانت تتطلب على الدوام حظها من هذه الموارد[٦٢]

ولايقل عن بيع صكوك الغفران دلالة على حب الكنيسة للمال قبولها أو طلبها المال أوالهبات أو الوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التى يقولون إنها تقصر المدة التى تقضيها روح الميت فى المطهر لتعاقب عن ذنوبها وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءاً كبيراً لهذا الغرض لتنجو به روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقصروا المدة هم أنفسهم فى المطهر بعد موتهم أويلغوها إلغاء تاماً . ولهذا أخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياع صكوك الغفران يجعل الأغنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات ، ولقد كان كوليس حصيفاً حين امتدح المال لأن « من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة » كما قال[٦٣] .

وازدادت الشكاوى من الكنيسة فبلغت ألفاً أو تزيد فقد غضب غير رجال الدين من إعفاء الكهنوت من الخضوع لقوانين الدولة ومن معاملة المحاكم الكنسية للمذنبين من رجال الدين باللين الذى يعرض الدولة لأشد الأخطار . وها هو ذا مجلس نورنبرج يعلن فى عام ١٥٢٢ أن المدعى من غير رجال الدين لا يمكن أن ينال العدالة إذا كان المدعى عليه من رجال

الكنيسة وكان التقاضى أمام محكمة كنسية وقال منذراً إنه إذا لم يخضع رجال الدين للمحاكم الزمنية فسيثور الناس على الكنيسة فى ألمانيا ثورة عاصفة(٦٤) ، وجدير بنا أن نقول إن هذه الثورة كانت قد قامت بالفعل قبل ذلك الوقت. وكان من الشكاوى الأخرى ابتعاد الدين عن الأخلاق الكريمة وتوكيد العقيدة والإيمان بدلا من توكيد المسلك الطيب ، (وان كان المصلحون من هذه الناحية أشد إثماً من الكنيسة نفسها) وجعل الدين مقصوراً على المراسم والطقوس ، والتعطل العديم النفع والعقم المظنون بين الرهبان ، واستغلال سذاجة الشعب بعرض المخلفات الزائفة والمعجزات الكاذبة وسوء استخدام الحرمان الدينى واللعنة الدينية والرقابة التى يفرضها الكهنة على المطبوعات والتجاء محكمة التفتيش إلى أشد ضروب القسوة والتجسس على الناس وسوء استخدام الأموال التى جمعت لإعداد الحملات الصليبية على الأتراك وتوجيهها إلى أغراض أخرى ، ومطالبة الكهنة المنحطين إلى هذا الدرك الأسفل بأن يكون لهم وحدهم حق القيام بجميع المراسم الدينية وتقديم القرابين ما عدا عملية التعميد.

وقد تجمعت كل هذه العوامل السالفة الذكر فكانت سبباً فى ابتعاد أوربا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى بداية القرن السادس. ويقول باستور فى ذلك « ان احتقار غير رجال الدين وكراهيتهم للكهنة الفاسدين كان من أقوى العوامل فى مروق الكثيرين من الدين(٦٥) » وشكا أحد أساقفة لندن فى عام ١٥١٥ من أن الناس يميلون إلى الإلحاد ميلا بلغ من سوء العاقبة والانحطاط حداً جعلهم .. يندددون بكل رجل من رجال الدين وان لم يكن يقل طهراً وبراءة عن هابيل »(٦٦) وها هو ذا ارازمس نفسه يقول ان لقب قس أو كاهن أو راهب أصبح يعد من أشد الإهانات(٧٦) وفى مدينة فيينا أصبح منصب القس فى العشرين سنة السابقة على الإصلاح لا يجد من يشغله مع أنه كان قبل ذلك الوقت خير ما يرغب فيه الأهلون(٦٨) .

ولهذا كله رفع الناس عقيرتهم في جميع أنحاء العالم المسيحى اللاتيني، مطالبين بإصلاح « الكنيسة إصلاحاً يشمل رأسها وأعضاءها جميعاً » . وكان الإيطاليون المتحمسون الثائرون أمثال ارنلد البريشيانى ويواقيم الفلورى ، وسفنرولا الفلورنسى قد هاجموا مساوئ الكنيسة دون أن يخرجوا على المذهب الكاثوليكي ولكن اثنين منهم مع ذلك قد حرقوا وهم على قيد الحياة ، غير أن الكاثوليك الصالحين ظلوا يأملون أن يتم الإصلاح على يد أبناء الكنيسة المخلصين الموالين لها وكان الكتاب الإنسانيون أمثال أرازمس ، وكوليت ، ومور ، وبوديه يخشون ما يحدثه الهجوم العلنى على الكنيسة من اضطراب أمورها واختلال نظامها ، فقد كفاها ضعفاً أن ظلت الكنيسة اليونانية بعيدة عن الكنيسة الرومانية مصممة على هذا البعد كل التصميم ، وكان كل تمزق في « ثوب المسيح الذى لا درز فيه يهدد كيان العالم المسيحى نفسه بالفناء وكم من مرة حاولت الكنيسة مخلصة في معظم الأحوال أن تطهر صفوفها ومحاكمها وأن تسلك في شئونها المالية مسلكاً يتفق مع الخلق الطيب ويسمو على أخلاق غير رجال الدين في تلك الأيام . ولطالما حاولت الأديرة أن تعود إلى قواعد نسكها القديم ولكن طبيعة الإنسان كانت تنقض كل ما يوضع من الدساتير وحاولت المجالس إصلاح الكنيسة ولكن البابوات عارضوها فأخفقت في أغراضها ، وحاول البابوات أنفسهم أن يقوموا بذلك الإصلاح ولكن الكرادلة ورجال الإدارة البابوية هزموا أولئك البابوات ولقد شكا ليو العاشر نفسه في عام ١٥١٦ والحسرة تملأ قلبه من إخفاق هذه المحاولات ولسنا ننكر أن بعض المستنيرين من رجال الكنيسة أمثال نقولاس الكوزانى قد حققوا بعض الإصلاحات المحلية ، ولكن هذه الإصلاحات نفسها كانت قصيرة الأجل . وأثار التنديد بمعايب الكنيسة والتشنيع عليها من أعدائها ومحبيها على السواء ، ثائرة المدارس واضطربت له المنابروفاضت به كتب

الأدب ، وأخذ يزداد يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام ويستقر فى ذاكرة الناس ويستثير غضبهم حتى قضى على ما كان للكنيسة فى قلوب الناس من احترام وما كان باقياً من تقاليد واكتسحت أوربا ثورة دينية عارمة كانت أوسع مدى وأعمل أثراً من جميع الانقلابات السياسية التى حدثت فى أيامنا الحاضرة .

الباب الثانى

انجلترا : ويكلف ، وتشوسر ، والعصيان الكبير

١٣٠٨ - ١٤٠٠

الفصل الأول

الحكومة

أقسم ادوارد الثانى الملك السادس من آل بلانتجت فى الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٨ أثناء تتويجه الرائع أمام رجال الدين والنبلاء المجتمعين فى دير وست منستر ، القسم الذى تطلبه انجلترا فى كبرياء من جميع ملوكها .

كبير أساقفة كنتربرى : سيدى هل تمنح أهل انجلترا وتحتفظ لهم وتؤكد لهم بقسمك القوانين والعادات التى منحها إياهم ملوك انجلترا الأقدمون أسلافك الصالحون المتدينون وخاصة القوانين والعادات والامتيازات التى منحها لرجال الدين وللشعب سلفك الملك العظيم القديس ادوارد ؟

الملك : إنى أمنحهم إياها وأعدهم بها .

كبير الأساقفة : سيدى هل تؤيد أمام الله وأمام الكنيسة المقدسة لرجال الدين وللشعب السلم والوئام فى سبيل الله بكل مالك من قوة .

الملك : نعم سأؤيدها .

كبير الأساقفة : سيدى هل تعمل على أن تكون جميع أحكامك متصفة بالعدالة الحقة والمساواة والحزم والرحمة والصدق وتسعى لها بجميع قواك .

الملك : سأفعل ذلك .

كبير الأساقفة : هل تعد بأن تستمسك بالقوانين والعادات الصالحة

التى قد تختارها بلادك وأن تحافظ عليها وهل تدافع عنها وتقويها تكريماً لله وتعظيماً له بأقصى ما لديك من قوة ؟ .

الملك : أوافق على ذلك وأعدبه[1] .

وبعد أن أقسم الملك على ذلك ومسح بالزيت المقدس وكرس حسب الأصول المرعية عهد بالحكم إلى موظفين مرتشين عاجزين وصرف حياته فى اللهو مع بيرزجافستون الغلام الذى كان يعشقه . لهذا ثار عليه أعيان البلاد وقبضوا على جافستون وذبحوه (١٣١٢) وأخضعوا إدوارد وانجلترا لحكم الأقلية الثرية والإقطاعية . ولما عاد ادوارد يجلله الخزى والعار بعد أن هزم على أيدى الاسكتلنديين فى بنوكبيرن (١٣١٤) أخذ يواسى نفسه بحب جديد هو حب هيو المبذر الثالث . وتآمرت زوجته ازابلا الأميرة الفرنسية التى أهملها مع عشيقها روجردى مورتمر على خلعه عن العرش (١٣٢٦). ثم اغتاله أحد رجال مورتمر فى قلعه بركلى (١٣٢٧) ، وتوج ابنه إدوارد الثالث ملكاً على انجلترا وهو فى الخامسة عشرة من عمره .

وكانت أهم الحوادث فى تاريخ انجلترا فى ذلك العهد وأعلاها قدراً هو أن تقررت فى عام ١٣٢٢ سابقة تحتم موافقة جمعية وطنية على كل قانون تسنه الحكومة كى يصبح نافذاً مشروعاً . فقد جرت سنة الملوك الإنجليز منذ زمن طويل إذا ألزمتهم الحاجة أن يدعوا للاجتماع « مجلس الملك » المؤلف من كبار الأعيان ورجال الدين . فلما كان عام ١٢٩٥ كان ادوارد الأول يحارب فرنسا واستكلنده ويلز فاشتدت حاجته إلى المال والرجال فأمر « كل مدينة » وكل بلدة كبيرة أن تبعث باثنين من مواطنيها الأحرار وكل إقليم أومقاطعة بأن ترسل فارسين (أقل درجة من النبلاء) إلى جمعية وطنية يتألف منها هى ومجلس الملك أول برلمان إنجليزى . وكان الباعث على هذه الدعوة أن المدن على اختلاف أنواعها كان لديها المال وقد يكون مستطاعاً أن يوافق مندوبوها على إعطائه للملك ، أما المقاطعات والأقاليم

فكان فيها الملاك المزارعون الذين يصبحون رماة بالسهام والحراب أقوياء ، وكان الوقت قد حان لإنشاء هاتين القوتين وجعلهما جزءاً من هيكل الحكومة البريطانية . ولم يكن يدعي للديمقراطية الكاملة . ذلك أن المدن كانت — أو أنها ستكون قبل عام ١٤٠٠ — قد رفعت عن كاهلها سيادة رجال الاقطاع ، فقد قصر حق الاقتراع فيها على أقلية صغرى من الملاك الذكور . ومعنى هذا أن الأشراف ورجال الدين ظلوا كما كانوا حكام انجلترا ، فقد كانوا يملكون معظم الأرض الزراعية ويستخدمون فيها الكثرة الغالبة من السكان إما مستأجرين لها أو أرقاء أرض فيها ، وكانوا هم الذين ينظمون قوى البلاد المسلحة ويوجهونها .

واجتمع البرلمان (وهو الاسم الذى سمى به أيام ادوارد الثالث) فى القصر الملكى بوست منستر المقابل للدير التاريخى المسمى بهذا الاسم . وجلس فيه عن يمين الملك كبير أساقفة كنتربرى ويورك ، والأساقفة الثمانية عشر ، ورؤساء الأديرة الكبيرة ، وجلس عن يساره مائة ممن يحملون ألقاب دوق ، ومركيز ، وايرل ، وفيكونت ، وبارون ، وتجمع ولى العهد ومجلس الملك قرب العرش ، وجلس قضاة المملكة على أكياس من الصوف يذكرهم بأهمية تجارة الصوف لإنجلترا ، وقد جاءوا ليدلوا برأيهم فى النقط القانونية . ولما افتتحت الجلسة وقف نواب المدن والفرسان — الذين عرفوا فيما بعد بالعموم — عراة الرؤوس أمام حاجز يفصلهم عن رجال الدين والأعيان ، وأصبحت الجمعية الوطنية وقتئذ (١٢٩٥) لأول مرة مكونة من مجلس أعلى ومجلس أسفل . واستمع القسمان مجتمعين إلى الملك أونائبه وهو يلقى خطاباً (سمى فيما بعد خطبة العرش) يشرح فيه الموضوعات التى سيدور فيها البحث والقرارات التى يراد إصدارها . ثم انسحب رجال « العموم » ليجتمعوا فى قاعة أخرى — كانت هى عادة قاعة اجتماع القساوسة فى ديروست منستر . وهناك تناقشوا فى اقتراحات الملك المعروضة عليهم :

فلما انتهت مناقشاتهم انتدبوا «متكلما» ليبلغ المجلس الأعلى ما وصلوا إليه من نتائج ، وليعرضوا ملتمساتهم على الملك . ولما انتهت دورة الانعقاد اجتمع المجلسان مرة أخرى ليستمعا إلى رد الملك وليعلنا انفضاض الدورة وكان للملك وحده حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع وفض دورة اجتماعاته .

وكان كلا المجلسين يطالب لنفسه بحرية المناقشة ويستمتع بها فى الأحوال العادية . وكانا فى كثير من الأحوال يرفعان إلى الحاكم ما يستقر عليه رأيهما بعبارات قوية منطوقة أومكتوبة ، غير أن الحاكم فى كثير من الأحوال كان يأمر بسجن من يشتط فى نقده . وكانت سلطات البرلمان تشمل من الوجهة النظرية شئون التشريع ، أما من الوجهة العملية فكان وزراء الملك هم الذين يعرضون على البرلمان مشروعات القوانين التى يقرها ، غير أن المجلسين كثيراً ماكانا يقدمان توصيات وشكاوى ويؤخرون الاقتراع على الأموال المطلوبة حتى تستجاب رغباتهم كلها أوبعضها . وكانت «قوة المال» هذه هى كل ما فى أيدى «العموم» من سلاح ، ولكن سلطتهم هذه زاد شأنها حين زادت نفقات الإدارة وثروة المدن . فلم تكن الملكية والحالة هذه ملكية مطلقة أو دستورية فالملك مثلا لم يكن يستطيع تغيير سنة البرلمان أو سن قانون جديد بنفسه علناً وبطريقة مباشرة ، ولكنه كان خلال معظم العام يحكم دون أن يقيده البرلمان ويصدر قرارات تنفيذية لها أثرها فى كل ناحية من نواحى الحياة الإنجليزية . ولم يكن يرقى العرش عن طريق الانتخاب بل عن طريق الوراثة . وكانت ذاته تعد ذاتاً مقدسة ترعاها الحرمات الدينية، وكانت جميع قوى الدين والعادات والقانون والتربية واليمين التى تتلى عند تتويجه تبث فى النفوس طاعته والولاء له . فإذا لم يكف هذا كان قانون الخيانة العظمى ينص على أن يقبض عليه متهماً بعصيان الدولة يجر فى الشوارع إلى المشنقة وتنتزع أحشاؤه وتحرق أمام عينيه ثم يشنق بعدئذ[٢] .

ولما بلغ ادوارد الثالث الثامنة عشرة من عمره فى عام ١٣٣٠ تولى

شئون الحكم بنفسه وبدأ عهداً من أكثر العهود حادثات فى تاريخ انجلترا . وقد كتب مؤرخ معاصر له يقول « كان وسيم الخلق ، وكان وجهه كأنه وجه إله[٣] » ، وقد ظل حتى أضعفه الإسراف فى المسائل الجنسية ملكاً فى سمته وفى كل جارحة من جوارحه وكاد يهمل شئون السياسة المحلية لأنه كان محارباً لا حاكماً ، وقد أسلم السلطات إلى البرلمان وهو راض مغتبط مادام البرلمان يمده بما تحتاجه حروبه من المال . وقد ظل طوال حكمه الطويل يستنزف دماء فرنسا فيما كان يبذله من محاولات لضمها إلى تاجه ؛ لكنه كان مع ذلك رجلا ذا مروءة ، وكثيراً ما كان شهماً مقداماً ، وقد عامل الملك جون الفرنسى حين أسر معاملة يشرف بها بلاط الملك ارثر لو أنها كانت فى أيامه . ولما تم بناء البرج المستدير فى وندسور بعد أن سخر فى بنائه ٧٢٢ رجلا عقد فيه اجتماعاً حول مائدة مستديرة مع المقربين إليه من الفرسان وأقام حفل مثاقفة رأسه بنفسه . ويرى فرواسار قصة لا نستطيع تحقيقها يقول فيها أن ادوارد حاول أن يغوى كونتيسة سلزبورى الحسناء ، فلما صدته فى أدب ومجاملة أقام حفل ألعاب فروسية لكى يستمتع خلالها بمشاهدة جمالها[٤] ، وتروى قصة أخرى طريفة ان الكونتيسة ألقت على الأرض بربطة ساق، حين كانت ترقص أثناء حفل فى البلاط ، فاختطفها الملك من فوق الأرض وقال « فليجلل العار من تخامره فيه فكرة سوء » .

وأصبحت هذه العبارة من ذلك الوقت شعار نوط ربطة الساق الذى أنشأه ادوارد فى عام ١٣٤٩ .

وأثبتت اليس برز أنها أيسر منالا من الكونتيسة ذلك أنها وإن كانت متزوجة قد استسلمت للمليك النهم ، ونالت فى نظير ذلك الاستسلام هبات واسعة من الأرض ، وكان لها عليه من النفوذ العظيم ما جعل البرلمان يسجل احتجاجه على هذا النفوذ . وصبرت الملكة فيليا (كما يقول فروسار تابعها المغرم بها) على هذا كله صبر الكرام ، وسامحته ؛ ولم تطلب إليه وهى

على فراش الموت ألا أن يوفى بما قطعه على نفسه من عهود خاصة بالصدقات وألا تختار لنفسك ، حين يريد الله أن تفارق هذا العالم قبراً غير أن ترقد إلى جوارى» . ووعدها بذلك «والدمع يترقرق فى عينيه» ثم عاد إلى إليس وأعطاها جواهر الملكة .

وخاض غمار حروبه بجد وشجاعة ومهارة ، وكانت الحروب تعد وقتئذ أسمى أعمال الملوك وأنبلها ، وكان من يتقاعدون عن الحروب من الملوك يحقرون ، وقد خلع من ملوك انجلترا ثلاثة يتصفون بهذه الصفة ، وكان الموت الطبيعى عاراً لايستطيع معه إنسان ما ان يبقى حياً ، إذا جاز لنا أن نتجاوز بعض الشيء عما فى هذا القول من مفارقة تاريخية ، وكان كل فرد من أبناء الأسر الأوروبية الشريفة يدرب على الحرب ، ولم يكن يستطيع أن ينال السلطان أو الأملاك إلا بالشجاعة فى الحروب والحذق فى استعمال السلاح . وكان الأهلون يقاسون الأهوال من جراء الحروب ، ولكنهم قلما كانوا هم أنفسهم يخوضون غمارها حتى اعتلى هذا الملك العرش ، ونسى أبناؤهم ذكرى آلامها ، وأخذوا يستمعون إلى قصص الفروسية القديمة التى تروى أمجاد الفرسان ، ويتوجون بأحسن الأكاليل رؤوس ملوكهم الذين يريقون من دماء الأجانب أكثر قدر مستطاع .

ولما عرض ادوارد أن يفتح فرنسا لم يكد يجرؤ أحد من مستشاريه على أن يشير عليه بالتراخى والصلح ، ولم ترتفع صيحة السلام من ضمائر الأمة إلا بعد أن استمرت الحرب جيلا من الزمان ، وأثقلت كاهل الأهلين حتى الأغنياء منهم بالضرائب الفادحة . وكاد استياء الشعب يبلغ حد الثورة حين تبدلت حملات ادوارد من نصر إلى هزيمة وهددت الاقتصاد القومى بالخراب . وكان ادوارد هذا قد ظل حتى عام ١٣٧٠ يفيد فى الحرب والسياسة من حكمة السير جون تشاندوس وولائه وإخلاصه فى خدمته . فلما توفى هذا البطل حل محله فى مجلس الملك دوق لانكستر ابن الملك وهو الذى كان

يطلق عليه اسم جون جونت وهو الاسم المشتق من غانت أوغنت التى ولد فيها . وأسلم جون بإهماله حكم البلاد إلى القراصنة السياسيين الذين أثروا على حساب الشعب ، ورفع البرلمان عقيرته يطلب الإصلاح ، وأخذ الصالحون من الرجال يدعون الله أن يرد على الأمة سعادتها بالتعجيل بموت الملك ، وكان فى مقدور ابن آخر من أبنائه يسمى الامير الأسود — ولعل هذا الاسم مأخوذ من لون درعه — ان يبعث روح القوة والنشاط فى الحكومة ، ولكنه فارق هذا العالم فى عام ١١٧٦ على حين ان حياة الملك قد طالت بعد وفاته .

وأصدر « البرلمان الصالح » فى ذلك العام قرارات ببعض الإصلاحات ، وزج فى السجن باثنين من المجرمين وأمر بطرد أليس بروز من البلاط ، وأخذ على الأساقفة عهداً بأن يحرموها من حظيرة الدين إذا عادت إلى البلاط مرة أخرى . ولما انتهت الدورة البرلمانية أغفل ادوارد قراراته ، وأعاد جون جونت إلى سابق سلطانه وأليس برز إلى فراش الملك ، ولم يجرؤ أحد من الأساقفة على أن يوجه إليها التأنيب أو اللوم . ثم رضى الملك العنيد آخر الأمر أن يموت (١٣٧٧) ، وخلفه على العرش ابن للأمير الأسود وتسمى باسم ريشارد الثانى ، وكان غلاماً فى الحادية عشرة من عمره ؛ وكانت البلاد حين تولى الحكم تضطرب فيها عوامل الفوضى الاقتصادية والسياسية وتختمر فيها أسباب الثورة الدينية .

الفصل الثانى

جون ويكلف

١٣٢٠ – ١٣٨٤

ترى ما هى الظروف التى جعلت انجلترا تستجيب لنداء الإصلاح الدينى فى خلال القرن الرابع عشر ؟

أكبر الظن أن أخلاق رجال الدين لم يكن لها إلا دور ثانوى فى هذه المسرحية . فقد رضى كبارهم وقتئذ بحياة العزوبة ، نعم أننا نسمع أن أسقفاً يدعى بيرنل كان له خمسة أبناء ذكور ، ولكن حالته كانت فى أغلب الظن حالة شاذة . ويتفق ويكلف ولانجلاند ، وجوور ، وتشوسر فيما لاحظوه من ميل بعض الرهبان والإخوان إلى الطعام الشهى والنساء الفاسدات ، ولكن البريطانيين ما كانوا ليستولى عليهم الغيظ وينتشر بين أمتهم بسبب خروج هؤلاء على هذا الصراط الذى كان الزمن قد مهده لهم من قبل ، بسبب الراهبات اللائى كن يأتين إلى الصلاة وفى أيديهن مقاود كلابهن وعلى أذرعهن طيورهن المدللة ، أو بسبب الرهبان الذين كانوا يسرعون فى صلواتهم المتقطعة غير المتماسكة (وقد خص الإنجليز الفكهون الشيطان بمعاون خاص يجمع له جميع المقاطع التى « تتساقط من أفواه القابضين ، والقافزين ، والمسرعين ، والمتمتمين والسابقين فى الوثب والجرى » وهم يقومون بصلواتهم المرخمة ، ثم كان الشيطان يختص هؤلاء الآثمين بعام فى الجحيم جزاء لهم على هذه المقاطع التى يغفلونها أو يطئونها بأقدامهم) .

أما الذى كان يقض مضاجع غير رجال الدين ويفت فى عضدهم هم ورجال الحكم على السواء فهو الزيادة المطردة فى ثروة الكنيسة الإنجليزية وتداولها بين أيدى رجال الدين . نعم ان رجال الدين كانوا يسهمون بأداء

عشر إيرادهم للدولة ، ولكنهم كانوا يصرون على ألا تفرض عليهم ضريبة إلا بموافقة مجامعهم الدينية . ذلك أنهم كانوا يجتمعون بأشخاصهم أو بمن يختارونهم للنيابة عنهم ، في مجامع يرأسها كبير أساقفة كنتربرى ويورك ، وذلك فضلا عن أنهم كان لهم ممثلون في مجلس اللوردات هم أساقفتهم ورؤساء الأديرة ، وكان رجال الدين يقررون في هذه المجالس كل الأمور ذات الصلة بالدين أوبرجاله وقد جرت العادة على أن يختار الملك أكبر موظفى الدولة من بين رجال الدين بوصفهم أعظم الطبقات علما في انجلترا . وكانت القضايا التى يقيمها العلمانيون على رجال الدين ، والتى تمس أملاك الكنيسة ، ترفع إلى محاكم الملك ، ولكن محاكم الأساقفة كانت هى المختصة بالنظر في الجرائم التى يرتكبها رجال الدين . وكانت الكنيسة في كثير من المدن تؤجر أملاكها للأفراد ، وتطالب أن يكون لها السلطة القضائية الكاملة على هؤلاء المستأجرين ، حتى إذا ارتكبوا جرائم عادية . وكانت هذه كلها أمور تضايق الأهلين ، ولكن أكثر ماكان يضايقهم هو انتقال الثروة من الكنيسة الإنجليزية إلى البابوات ، أى انتقالها في القرن الرابع عشر إلى افنيون أى إلى فرنسا نفسها . وقد قدرت الثروة الإنجليزية التى حصل عليها البابا بأكثر من التى حصلت عليها الدولة أو الملك .

وتألف في بلاط الملك حزب مناهض لرجال الدين ، وسنت شرائع تجعل القسط الذى تسهم به الكنيسة في نفقات الدولة أكبر وأعظم ثباتاً مما كان . ولما كان عام ١٣٣٣ أبى ادوارد الثالث أن يستمر في أداء الجزية التى تعهد جون ملك انجلترا عام ٢١٣ بأدائها للبابوات ، وفى عام ١٣٥١ حاول البرلمان في « قانون الشروط » أن يضع حداً لسلطان البابوات على موظفى الكنيسة الإنجليزية وايراد ممتلكاتها . ونص « قانون السجن والمصادرة » (١٣٥٣) على أن يحرم من حماية القانون كل إنجليزى يتقاضى في المحاكم الأجنبية (البابوية) في جميع المسائل التى يرى الملك أنها في دائرة اختصاص

السلطة الدنيوية . وفى عام ١٣٧٦ شكا مجلس العموم رسمياً من أن جباة البابوية فى انجلترا يبعثون إلى البابا بمبالغ طائلة من المال ، وأن الكرادلة الفرنسيين غير المقيمين فى انجلترا يحصلون على إيرادات كبيرة من الكراسى الأسقفية الإنجليزية .

وكان زعيم الحزب المناهض لرجال الدين فى بلاط الملك هو جون جونت . وكانت الحماية التى بسطها جون هذا على ويكلف هى التى جعلته يموت ميتة طبيعية .

وكان مولد أول المصلحين البريطانيين فى هبسول القريبة من قرية ويكلف ، من أعمال مقاطعة يوركشير فى حوالى عام ١٣٢٠ ودرس فى جامعة اكسفورد ، وصار فيها أستاذاً للاهوت ، وقضى عاماً (١٣٦٠) بعد ذلك رئيساً لكلية بالبول . ورسم قسيساً ، وتلقى من البابوات عدداً من المناصب أو المرتبات من كنائس الابروشيات ، ولكنه ظل خلال ذلك يدرس فى الجامعة . وكان نشاطه الأدبى كبيراً إلى حد روع معاصريه ،فقد كتب رسائل فى الفلسفة المدرسية عما وراء الطبيعة ، وعن اللاهوت ، والمنطق ، وكتب مجلدين فى فن الجدل ، وأربعة مجلدات فى المواعظ ، ورسائل كثيرة متنوعة قصيرة ولكنها عظيمة التأثير منها رسالة فى السلطة المدنية . وكان معظم ماكتب بلغة لاتينية خالية من الرشاقة عسيرة الفهم من شأنها أن تجعلها قليلة الضرر إلا لعلماء النحو . ولكنه كان يخفى فى ثنايا هذا الغموض أفكاراً جد خطيرة ، كانت تفصل بريطانيا عن الكنيسة الرومانية قبل أن يفصلها هنرى الثامن بمائة وخمسة وخمسين عاماً ، وتقذف ببيوهيميا فى أتون الحرب الأهلية وتسبق جميع أفكار الإصلاح التى نادى بها جون هوس ومارتن لوثر إلا القليل منها .

وبدأ ويكلف عمله بداية سيئة ، فاستسلم لمنطق أوغسطين وفصاحته ،

وبنى عقيدته على مبدأ الجبرية الخطير ، وهو المبدأ الذى قدر له أن يبقى حتى يومنا هذا أشبه بالمغناطيس الذى يجذب إليه المذهب البروتستنتى اللاهوتى وينجى القائلين به من العقاب . وفى ذلك يقول ويكلف إن الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء ، وقد كتب على كل إنسان مصيره المحتوم فى الأزل قبل مولده كتب عليه الخسران أو النجاة إلى الأبد . وليست الأعمال الصالحة هى التى تنجى صاحبها ، بل إنها تدل على أن من يعملها قد تلقى رحمة الله ونعمته وأنه ممن اختارهم وخصهم بهذه النعمة وتلك الرحمة ونحن نصدر فى أعمالنا حسبما قسمه الله لنا ، ومصيرنا هو خلقنا وليس خلقنا هو مصيرنا كما قال هرقليطس . وكان آدم وحواء وحدهما هما اللذين استمتعا بحرية الإرادة ، ثم خسرا وأبناؤهما من بعدهما هذه الحرية بمعصيتهما .

والله سيدنا ذو السلطان الكامل علينا ، وولاؤنا له ولاء مباشر أشبه ما يكون باليمين التى يقسمها كل إنجليزى أمام الملك ، وليس هو ولاء غير مباشر عن طريق ولاء لسيد تابع كما هى الحال فى فرنسا الإقطاعية . ومن ثم كانت العلاقة القائمة بين الإنسان والله علاقة مباشرة لا تحتاج إلى وسيط ، ولذلك يجب أن يرفض كل ما تدعيه الكنيسة أويدعيه أى قس من أن تكون هى أويكون هو واسطة لابد منها . وبهذا المعنى يكون كل مسيحى قسيساً وليس فى حاجة إلى أن يرسم كذلك والله مالك الأرض وما عليها ، وليس فى مقدور الآدمى أن يمتلك شيئاً منه بحق إلا بوصفه تابعاً له طائعاً لأمره . وكل من يحمل وزرا — ويكون بذلك عاصياً للملك القدوس — يفقد بذلك كل حق له فيما يملك لأن الامتلاك الحق يتطلب أن يكون المالك متمتعاً بنعمة الله . وواضح مما جاء فى الكتاب المقدس أن المسيح قد قصد ألا يكون للحواريين ولمن خلفهم ، ولمن رسموا بعدهم مندوبين عنهم ألا يكون لهؤلاء جميعاً أملاك ما وأذن فكل كنيسة ، وكل قس يمتلكان شيئاً يعصيان أوامر الله ، وهما لذلك آثمان ، ومن ثم فهما لا يستطيعان تقديم العشاء الربانى . ومن ثم

فإن أعظم ما تحتاجه الكنيسة ويحتاجه رجال الدين من إصلاح هو أن تتخلص ويتخلص رجالها من الأملاك الدنيوية .

وكأن هذا لم يكن يثير من المتاعب ما فيه الكفاية ، فاستنتج ويكلف من مذهبه الديني مذهباً آخر من مذاهب الشيوعية النظرية والفوضى النظرية ، فقال إن كل شخص تحل عليه نعمة الله وبركته يشارك الله فى امتلاك الطيبات ، أى أن كل شيء من الوجهة النظرية يتملكه جميع الصالحين مجتمعين . أما الملك الخاص والحكومة فهما أثر من آثار خطيئة آدم وخطيئة الإنسان التى ورثها عنه أى أنهما متأصلان فى الطبيعة البشرية) كما كان ينادى بذلك بعض الفلاسفة المدرسيين . والمجتمع الذى تعمه الفضيلة لا يكون فيه ملك فردى ، ولاقانون يضعه الإنسان وتسنه الكنيسة أو الدولة . وخشي ويكلف أن يفسر ذلك المتطرفون الذين كانوا يفكرون وقتئذ فى الخروج على الحكومة فى انجلترا تفسيراً حرفياً ، فقام يفسر هو شيوعيته على أنها يجب أن تؤخذ بمعناها المثالى ، وأن السلطات التى تقوم بمقتضاها هى التى نادى بها القديس بولس والتى أمر بها الله ومن ثم كانت واجبة الطاعة . وقد كرر لوثر فى عام ١٥٢٥ تكراراً يكاد يكون دقيقاً كل الدقة ما لمح به ويكلف فى أقواله عن الثورة .

ورأى الحزب المناهض للكنيسة شيئاً من المعنى فى تنديد ويكلف بثروة الكنيسة ، ان لم يره فى شيوعية ويكلف . ولما رفض البرلمان مرة أخرى ان يؤدى الخراج الذى تعهد الملك جون ان يؤديه للبابا (١٣٦٦) عين ويكلف قساً فى خدمة الملك ليعد دفاعاً عن هذا العمل ، وعينه ادوارد الثالث فى عام ١٣٧٤ رئيساً لكنيسة ابرشية لوثر وورث ويبدو أنه قصد بذلك أن يكون إيرادها أجراً له يحتفظ به لنفسه . ثم عين ويكلف فى عام ١٣٧٦ عضواً فى اللجنة المكلفة التى أرسلت إلى بروج لتبحث مع عمال البابا ما تصر عليه انجلترا من رفض أداء الخراج ، ولما ان اقترح جون جونت أن تصادر الحكومة بعض أملاك الكنيسة ، دعا ويكلف إلى الدفاع عن هذا الاقتراح

فى سلسلة من الخطب الدينية يلقيها فى لندن .ولبى ويكلف الدعوة (فى سبتمبر من عام ١٣٧٦) ، وكان جزاؤه ان وسمه الحزب المناصر لرجال الدين بأنه آلة فى يد جونت . وقرر كورتناى أسقف لندن أن يشن هجوماً غير مباشر على جونت ، فاتهم ويكلف بأنه رجل مارق خارج على الدين . واستدعى الواعظ للمثول أمام مجلس من الأحبار فى كنيسة القديس بولس فى شهر فبراير من عام ١٣٧٧ . وأطاع الأمر ، ولكنه جاء ومعه جون جونت تتبعهما حاشية مسلحة . وشجر نزاع بين الجنود وبعض النظارة ، قامت على أثره ضوضاء ، فرأى الأسقف أن من الحكمة تأجيل المحاكمة ، وعاد ويكلف إلى اكسفورد دون أن يمسسه سوء . وبعث كورتناى إلى رومة اتماماً مفصلا نقل فيه اثنتين وخمسين عبارة من كتب ويكلف ، فلما كان شهر مايو أصدر جريجورى الحادى عشر مراسيم بابوية يطعن فيها على ثمانية عشر من أقوال ويكلف ، معظمها من رسالته « عن الحكم المدنى » ، وأمر سدبرى كبير الأساقفة والأسقف كورتناى أن يبحثا الأمر ليعرفا هل لا يزال ويكلف معتنقاً لهذه الآراء ، فإذا تبينا أنه لا يزال يعتنقها فعليهما أن يلقيا القبض عليه ويحتفظا به فى الأغلال حتى تصدر إليهما تعليمات أخرى .

وكان ويكلف فى هذه الأثناء قد كسب تأييد طائفة كبيرة من الرأى العام فضلا عن تأييد جون جونت ولوردبيرسى لورد نورثمبرلند. وكان البرلمان الذى اجتمع فى شهر أكتوبر مناهضاً للكنيسة أشد المناهضة .وكانت حجة القائلين بمصادرة أموال الكنيسة تستهوى كثيرين من الأعضاء ، فقد كان هؤلاء يحسبون أنه إذا ما استولى الملك على الثروة التى يستحوذ عليها الأساقفة ، ورؤساء الأديرة والرهبان ، فإن فى وسعه أن يقيم بها خمسة عشر نبيلا يحملون لقب ايرل ، وألفا وخمسمائة فارس ، وستة آلاف ومائتين من أتباع الفرسان ، وأن يتبقى له بعد ذلك عشرون ألف جنيه . وكانت فرنسا

وقتئذ تستعد لغزو انجلترا ، وكانت الخزانة الإنجليزية تكاد تكون خاوية ، وبدا أن من الحمق أن يسمح لوكلاء البابا بأن يجمعوا الأموال من الابرشيات الإنجليزية لبابا فرنسي ولمجلس من الكرادلة كثرته الغالبة من الفرنسيين . وسأل مستشارو الملك ويكلف « هل يحق لمملكة انجلترا شرعاً ، إذا كانت الضرورة تحتم عليها أن تعمل لصد ما يتهددها من الغزو الفرنسى ، ان تمنع أموال الدولة من الوصول إلى البلاد الأجنبية ، وإن طلبها البابا وهدد من يمنعها بالعقاب معتمداً فى ذلك على وجوب طاعة أوامره ؟ » وأجاب ويكلف عن هذا الاستفتاء بمنشور كان فى الواقع دعوة لفصل الكنيسة الإنجليزية عن البابوية وقد جاء فى هذا المنشور : « ان البابا لايستطيع أن يطلب هذا المال إلا على سبيل الصدقة . . ولما كانت أهل البلاد أولى من غيرهم بهذه الصدقات ، فإن توجيه صدقات الدولة إلى البلاد الخارجية إذا كانت البلاد نفسها فى حاجة إليها ، يخرج بها عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة . ورد ويكلف على الدعوة القائلة بأن الكنيسة الإنجليزية جزء من الكنيسة العالمية الكاثوليكية وان من واجب الكنيسة الإنجليزية لهذا السبب ان تطيعها وتخضع لأوامرها ، رد ويكلف على هذه الدعوى بأن أوصى باستقلال انجلترا الكنسى وقال : « ان الدولة الإنجليزية ، بنص الكتاب المقدس يجب أن تكون هيئة واحدة ، وان يكون رجال الدين ، واللوردات ، والسكان العاديون أعضاء فى هذه الهيئة » . وقد بلغت هذه الدعوى ، التى استبق بها هنرى الثامن من الجرأة حداً جعل مستشارى الملك يطلبون إلى ويكلف أن يمتنع عن الإدلاء بآراء جديدة فى هذا الموضوع .

وأجل البرلمان جلساته فى يوم ٨ نوفمبر . وفى الثامن عشر من ديسمبر نشر الأساقفة — وكانوا قد أعدوا العدة للقتال — قرارات التنفيذ التى أصدرها البابا ، وأمروا مدير جامعة اكسفورد أن ينفذ أمر البابا القاضى باعتقال ويكلف . وكانت الجامعة وقتئذ فى ذروة استقلالها العقلى ، وكانت

فى عام ١٣٢٢ قد اتخذت لنفسها حق خلع أى مدير لها لا ترضى عنه دون أن تأخذ فى ذلك رأى أسقف لنكولن رئيسها الرسمى الأعلى ، وكانت فى عام ١٣٦٧ قد نبذت كل ماكان للأساقفة من إشراف عليها . وأيد نصف كليات الجامعة حق ويكلف فى أن يجهر برأيه على الأقل وأبى مدير الجامعة أن يطيع الأساقفة ، وأنكر كل حق حبر من الأحبار على الجامعة فى المسائل الخاصة بالعقائد ، ولكنه أوصى ويكلف فى الوقت نفسه بأن يبقى إلى حين فى عزلة متواضعاً ، غير أنه قلما يوجد بين المصلحين من يستطيع الصمت ، ظهر ويكلف فى شهر مارس من عام ١٣٧٨ أمام مجلس الأساقفة فى لامث ليدافع عن آرائه . ولما أوشك النقاش أن يبدأ تلقى كبير الأساقفة رسالة من والدة الملك ادوارد الثانى تستنكر فيه أى قرار نهائى بإدانة ويكلف ، وبينما كانت إجراءات المحاكمة تجرى فى مجراها شق جمهور من الأهلين طريقه من الشارع إلى قاعة الاجتماع ، وأعلن أن الشعب الإنجليزى لايسمح بقيام أية محكمة للتفتيش فى انجلترا . وخضع الأساقفة لرأى الشعب المتفق مع رأى الحكومة وتأجل اتخاذ قرار وعاد ويكلف مرة أخرى إلى داره دون أن يصيبه أذى ، بل إنه فى الحق عاد ظافراً منتصراً . وتوفى جريجورى الحادى عشر فى السابع والعشرين من شهر مارس وحدث الانشقاق البابوى الذى قسم البابوية وأضعف سلطانها كما أضعف سلطان الكنيسة بوجه عام . وعاد ويكلف إلى الهجوم ، وأخذ يصدر المنشور تلو المنشور ، وكان الكثير منها باللغة الإنجليزية ، وكلها تزيد فى مخالفته للكنيسة وثورته عليها .

والصورة التى يصور لنا بها فى تلك السنين هى صورة الرجل الذى أبهظ الجدل كاهله ، وجعله كبير السن متزمتاً فى آرائه الدينية . ولم يكن بالرجل المتصوف ، بل كان إنساناً محارباً ومنظما ، ولعله قد ذهب بمنطقه إلى أبعد حدود التطرف ، وأخذ وقتئذ يطلق العنان للقدح والطعن بلا حساب ، يطعن على الإخوان الرهبان بسبب دعوتهم إلى التمسك بالتقى ، فى حين أنهم

يجمعون المال ويكدسونه ، وكان يرى أن بعض الأديرة ان هى إلا مأوى للصوص ، وعششاً للأفاعى ، وبيوتاً للأحياء من الشياطين » ، وعارض النظرية القائلة بأن فضائل القديسين يمكن أن يستعان بها على إنقاذ الأرواح من المطهر ، وقال إن المسيح والقديسين لم يأتوا إلى الناس بشىء من صكوك الغفران ، « إن الأحبار يخدعون الناس بصكوك الغفران الزائفة أووثائق المغفرة . وينهبون بذلك أموالهم لعنة الله عليهم . . وما أشد حماقة من يبتاعون هذه الصكوك بهذه الأثمان الغالية ؟ وإذا كان فى مقدور البابا أن ينتزع الأرواح من المطهر ، فلم لم ينتزعها منه على الفور عملا بروح الإحسان المسيحية ؟ وذهب ويكلف إلى أبعد من هذا فى عنفه فقال إن « كثيرين من رجال الدين يدنسون أعراض الزوجات ، والعذارى ، والأرامل ، والراهبات ، بكل ضروب الفسق والفجور » ، وطالب بأن يحاكم رجال الدين على جرائمهم أمام المحاكم المدنية غير الدينية ، وهاجم الكهنة الذين يتملقون الأغنياء ، ويزدرون الفقراء ، والذين لايترددون فى أن يغفروا ذنوب الأثرياء ، ولكنهم يحرمون الفقراء المدقعين من حظيرة الدين لأنهم لايؤدون العشور للكنيسة ، والذين يقضون أوقاتهم فى صيد الحيوان والطير ولعب الميسر ، ويقصون على الناس أنباء المعجزات الكاذبة . أما أحبار انجلترا فقد اتهمهم بأنهم « ينتزعون من الفقراء أرزاقهم ، ولكنهم لا يقاومون الظلم » وبأنهم « يقدرون البنس العطن أكثر مما يقدرون دم المسيح الثمين» . ولا يصلون إلا تظاهراً وادعاء ويأخذون الأجر عن كل صلاة دينية يقومون بها ويحيون حياة الترف ، فيمتطون الجياد الثمينة ، ذات السروج المصنوعة من الفضة والذهب » ، وهم نهابون . . . خبثاء ، ثعالب ماكرة ، . . . وذئاب ناهشة . . نهمون شرهون . . شياطين . . قردة » . وهو بهذه الأقوال يستبق لوثر فى لغته « والاتجار بالمقدسات منتشر فى جميع أقسام الكنيسة . . وأكثر ما ينتجه هذا الاتجار من الضرر اتجار كنيسة رومة لأنه أوسع ضروب الاتجار انتشاراً ، تحت ستار ادعاء من القداسة ، ولأنه يحرم

بلادنا من الرجال والمال أكثر مما يحرمها غيره » . وان ما هو قائم بين البابوات « فى أنقسامهم » من تنازع شائن ، وتبادلهم الحرمان من حظيرة الدين ، واقتتالهم على السلطان اقتتالا يجللهم العار» يجب أن يدفع الناس إلى ألا يؤمنوا بالبابوات إلا بقدر ما يتبع هؤلاء تعاليم المسيح » ، ان مقام البابا والقسيس فى مقام اللورد بل قل فى مقام الملك » ، فى الشئون الروحية ، ولكنه إذا ما جمع لنفسه الأملاك الدنيوية ، أو السلطة السياسية ، أصبح غير خليق بمنصبه ، ان المسيح لم يكن له مكان يريح فيه رأسه أما هذا البابا فيقول عنه الناس إنه يمتلك نصف الإمبراطورية . . . وكان المسيح وديعاً ... أما البابا فيجلس على عرشه ، ويجعل الأعيان يقبلون قدميه » . ثم يشير ويكلف إشارة رقيقة فيقول ان البابا هو عدو المسيح الذى تنبات به الرسالة الأولى من رسائل الرسول يوحنا ، وأنه الوحش الوارد ذكره فى سفر الرؤيا ، والذى ينبىء بعودة المسيح .

ويقول ويكلف ان هذه المشكلة لا تحل إلا بتجريد الكنيسة من كل الأملاك والسلطات المادية ، ويقول ان المسيح وحوارييه قد عاشوا فقراء وان من واجب القسيسين ان يعيشوا هم أيضاً فقراء ، أما الرهبان والإخوان فيجب أن يعودوا إلى ما كانت تحتمه عليهم قوانين طوائفهم ، فيبتعدوا عن كل ملك وترف . والقساوسة « يجب أن يبتهجوا حين تنتزع منهم كل أسباب السيادة الزمنية » ، ويجب أن يقنعوا بالطعام والكساء ، وان يعيشوا على الصدقات التى يقدمها الناس إليهم طائعين مختارين . وإذا لم يتخل رجال الدين عن ثروتهم ويعودوا باختيارهم إلى الفقر الذى أمرتهم به الشريعة المسيحية ، وجب أن تتدخل الدولة فتصادر أملاكهم « ألا ليصلح السادة والملوك من شأن رجال الدين ، ويرغموا القساوسة على الاستمساك بالفقر الذى أمرهم به المسيح » . ومن واجب الملك حين يفعل هذا ألا يخشى ما يصبه عليه البابا من اللعنات ، لأن « اللعنة الصادرة من الآدمى أيا كان

ليست لها قوة ، إلا إذا كانت اللعنة صادرة من الله نفسه» . والملوك مسئولون أمام الله وحده ، وهم يستمدون سلطانهم منه . ويقول ويكلف فى هذا إن الدولة يجب أن تعد نفسها ذات السلطان الأعلى فى جميع الشئون الزمنية ، وأن عليها أن تستحوذ على جميع أملاك الكنيسة . بدل أن تقبل المبدأ الذى يقول به جريجورى السابع وبونيفاس الثامن وهو أن سلطة الحكومات الدنيوية يجب أن تخضع هى نفسها للكنيسة ، وعلى هذا يجب أن يكون الملك هو الذى يرسم القساوسة .

وكانت سلطة القس تعتمد على حقه فى أن يقدم العشاء الربانى ، ولهذا ولى ويكلف وجهه نحو هذا القربان مستبقا فى ذلك ما قام به لوثر وكلفن استباقاً فيه كل معانيه ، وأنكر ضرورة الاعتراف الجهرى أمام القس ، ونادى بالعودة إلى الاعتراف الاختيارى العام الذى كان يفضله المسيحيون الأولون ، ومن أقواله فى هذا المعنى : « لاحاجة إلى الاعتراف السرى أمام القساوسة . . فذلك اعتراف أدخله الشيطان أخيراً فى الدين . . ذلك أن المسيح لم يكن يعمل به ، كما لم يعمل به أحد من الحواريين من بعده . وبه استحال الناس الآن عبيداً لرجال الدين ، وهو يستخدم الآن أسوأ استخدام للأغراض الاقتصادية والسياسية » و« بهذا الاعتراف السرى يستطيع الراهب والراهبة أن يرتكبا الخطيئة معاً » وقد يكون فى وسع الصالحين من غير رجال الدين ان يغفروا ذنوب الإثم خيراً مما يستطيع أن يغفرها له القساوسة الأشرار ، ولكن الحق الذى لاريب فيه ان الله وحده هو الذى يغفر الذنوب . ومن واجبنا أن نرتاب بوجه عام فى صحة العشاء الربانى الذى يقدمه القس الآثم أو الخارج على الدين ، كما ان القس ، صالحاً كان ، أوطالحاً ، لا يستطيع أن يحيل الخبز المقدس إلى جسم المسيح ودمه . ولم يكن شىء يبدو أبشع فى نظر ويكلف من تفكيره فى أن بعض من يعرفهم من القساوسة يستطيعون أن يأتوا بهذه المعجزة التى هى من صنع الله وحده :

وكان ويكلف ينكر فكرة التجسد كما ينكرها لوثر ، ولكنه لم يكن ينكر حضور المسيح بحق ويقول ان المسيح كان يحضر حضوراً روحياً ، حقيقياً ، صادقاً ، قوى الأثر ، ولكن حضوره هذا كان مع الخبز والنبيذ اللذين لم ينعدم وجودهما كما تدعى الكنيسة . أما كيف يكون ذلك فهو سر غامض لم يحاول كلا الرجلين أن يفسره .

ولم يكن ويكلف يعترف بأن فى هذه الأفكار خروجاً على الدين ، ولكن فكرة « اتحاد الجوهر » روعت بعض أنصاره ، فأسرع جون جونت إلى اكسفورد ، وألح على صديقه ألا يذكر شيئاً آخر عن العشاء الربانى (١٣٨١) ، ورفض ويكلف نصيحته ، وعاد فأكد آراءه فى اعتراف له أصدره بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٣٨١ . واندلعت نيران ثورة اجتماعية فى انجلترا بعد شهر من ذلك التاريخ ، ارتاع لها كل ذوى الأملاك ، وجعلتهم يقاومون كل مذهب فيه خطر على الملكية أيا كان شكلها ، كنيسة كانت أو علمانية . وخسر ويكلف إذ ذاك معظم ما كانت تنفحه به الحكومة من تأييد ، وكان اغتيال سدبرى كبير الأساقفة سبباً فى ارتقاء الأسقف كورتناى ألد أعدائه إلى منصب كبير أساقفة انجلترا بدلا منه . وظن كورتناى أنه إذا ما سمح لفكرة العشاء الربانى التى يقول بها ويكلف أن تنتشر ، فإن انتشارها سيقضى على منزلة رجال الدين ، أى القضاء على أساس سلطة الكنيسة الأدبية والأخلاقية . ولهذا دعا فى شهر مايو من عام ١٣٨١ مجلساً من رجال الدين ينعقد فى دير بلاكفرايز فى لندن . وأقنع كبير الأساقفة هذه الجمعية بأن تستنكر أربعة وعشرين من آراء ويكلف قرأها هو من مؤلفاته ، ثم بعث بأمر عاجل إلى مدير جامعة اكسفورد ليمنع مؤلف هذه الكتب من الاستمرار فى التعليم أو الوعظ إلا بعد أن يثبت استمساكه بأصول الدين القويم . وأضاف الملك رتشارد الثانى إلى هذا أمراً أصدره إلى مدير الجامعة بأن يطرد منها ويكلف وجميع مؤيديه ، وكان ذلك جزءاً من الخطة

التى انتهجها لمقاومة الفتنة التى كادت تطوح به عن عرشه . فما كان من ويكلف إلا أن انسحب إلى أملاكه فى لتر وورث ، وكان لا يزال وهو فيها تحت حماية جون جونت على ما يبدو .

وارتبك ويكلف وتحير بما أبداه من إعجاب به القس جون بول زعيم الثورة ، فأصدر عنه منشورات يتنحى فيها عن العصاة ، ويتبرأ فيها من كل آراء اشتراكية ، ويحث أتباعه على الخضوع لسادتهم من غير رجال الدين ، وأن يصبروا ويصابروا وهم أقوى ما يكونون إيماناً بأنهم سينالون خير الجزاء بعد الموت . لكنه مع ذلك ظل يصدر المنشور تلو المنشور ضد الكنيسة ، وأنشأ طائفة من « القساوسة الوعاظ الفقراء » لينشروا إصلاحاته بين الشعب . وكان من هؤلاء « الأتباع » من لم يتلقوا من العلم إلا أقله ، كما كان منهم رجال من جامعة اكسفورد ، وكانوا جميعاً يرتدون أثواباً من الصوف الأسود ويمشون حفاة ، كما كان يفعل « الإخوان » الأقدمون ، كما كانوا كلهم تعمر قلوبهم حماسة الرجال الذين تكشفت لهم من جديد حقيقة المسيح . وكانت عقيدتهم المتأصلة فى نفوسهم هى ان الكتاب المقدس لا يأتيه الباطل بخلاف تقاليد الكنيسة وعقائدها المعرضة للخطأ ، وكانوا يصرون على أن يعظوا الناس بلغتهم القومية لا بالطقوس الغامضة التى تتلى عليهم بلغة أجنبية . وكتب ويكلف إلى هؤلاء القساوسة العلمانيين وإلى من يستمعون إليهم من المتعلمين بلغة إنجليزية سهلة قوية خالية من التنميق ثلثمائة موعظة ، وكثيراً من المقالات الدينية . وإذ كان يحث الناس إلى العودة إلى المسيحية كما جاءت فى كتاب العهد الجديد ، فقد شرع هو ومساعدوه يترجمون الكتاب المقدس ليكون هو المرشد الوحيد المنزه عن الخطأ إلى الدين الحق ولم يكن قد ترجم حتى ذلك الوقت (١٣٨١) إلا جزء قليل من الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية ، وان كانت ترجمة فرنسية منه كانت معروفة إلى الطبقات المتعلمة ، وترجمة من اللغة الإنجليسكسونية ، لا تفهمها انجلترا

فى أيام ويكلف ، قد وصلت إليها من عهد الملك الفرد . ووجدت الكنيسة ان الخارجين على الدين أمثال طائفة الولدرسيين يفيدون كثيراً من الكتاب المقدس ، فأخذوا يثبطون من عزيمتهم على قراءة التراجم غير المعترف بها ، وأخذت تندد بما تتوقعه من فوضى فى العقائد الدينية حين تعمد كل شيعة إلى ترجمة الكتاب المقدس لنفسها ، وتلون تلك الترجمة بآرائها ، وحين يكون كل قارئ حراً فى أن يفسر نصوص الكتاب المقدس كما يشاء . لكن ويكلف كان صادق العزيمة فى أن يكون الكتاب المقدس فى متناول كل انجليزى يستطيع القراءة . ويلوح أنه هو نفسه قد ترجم أسفار العهد الجديد ، وترك ترجمة العهد القديم لنقولاس هيرفور وجوبيرفى وقد تمت هذه التراجم كلها بعد عشر سنين من موت ويكلف . وكان الأصل الذى ترجم الكتابان عنه هو ترجمة جيروم اللاتينية . لا الترجمة العبرية للعهد القديم أو اليونانية للعهد الجديد . ولم تكن الترجمة نموذجاً يحتذى فى النثر الإنجليزى ، لكنها كانت حدثاً خطيراً فى التاريخ الإنجليزى .

ولما كان عام ١٣٨٤ دعا البابا أربان السادس ويكلف للمثول بين يديه فى رومة . لكن دعوة أخرى كانت ذات سلطان أكبر من سلطان دعوة أربان . ذلك أن المصلح المريض أصيب فى الثامن والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٣٨٤ بضربة شلل وقت أن كان يقوم بالقداس ثم وافته المنية بعد ثلاثة أيام من تلك الإصابة . ودفن فى لترورث ، لكن عظامه قد أخرجت من قبره بناء على قرار من مجلس كنستانس (٤ مايو سنة ١٤١٥) وألقيت فى مجرى ماء قريب من هذا القبر . ودار البحث عن كتاباته وأبيد كل ما عثر عليه منها :

وكانت آراء ويكلف تحوى كل عناصر الإصلاح الكبيرة ، تحوى انهماك رجال الدين فى متاع الدنيا ، والدعوة إلى اتباع قانون أخلاق شديد صارم ، والعودة من الكنيسة إلى ما جاء فى الكتاب المقدس ، ومن

توما الاكوينى إلى أوغسطين ، ومن حرية الإرادة إلى الجبرية ، ومن النجاة عن طريق العمل الصالح إلى النجاة باختيار الرحمة الالهية . وكانت هذه الآراء تحوى كذلك رفض صكوك الغفران ، والاعتراف السرى للقسيس ، وعقيدة التجسد ، وان القس واسطة بين الله والعبد ، وتحتج على إرسال الثروة القومية إلى رومة ، ودعوة الدولة إلى نبذ طاعة البابوية ، والهجوم على أملاك رجال الدين (وبذلك مهد الطريق لهنرى الثامن) . ولو لم تقض الثورة الكبرى على حمايته الحكومة لجهود ويكلف ، لتأصل الإصلاح الدينى وعلت قواعده فى انجلترا قبل أن تشب ثورة الإصلاح فى ألمانيا بمائة وثلاثين عاماً .

الفصل الثالث

الثورة الكبرى

١٣٨١

كان عدد سكان انجلترا وويلز فى عام ١٣٠٧ يقدر تقديراً غير موثوق به بثلاثة ملايين من الأهلين ، أى أنه قد ارتفع ارتفاعاً بطيئاً من ٢,٥٠٠,٠٠٠ وهو ماكان يظن أنه عدد السكان سنة ١٠٦٦ وهذان الرقمان يوحيان بأنه قد حدث تقدم بطىء أيضاً فى الفنون الزراعية والصناعية — وتحديد قوى لعدد السكان بسبب القحط ، والمرض والحروب — فى جزيرة زراعية ضيقة الرقعة ، لا ينتظر منها بمواردها الخاصة أن تعول عدداً كبيراً من الأهلين. وأكبر الظن أن ثلاثة أرباع السكان كانوا من الزراع ، وأن نصف هؤلاء السكان كانوا من أرقاء الأرض ، وكانت إنجلترا من هذه الناحية متأخرة عن فرنسا بقرن من الزمان .

وكانت الفروق بين الطبقات أشد منها فى أرض القارة الأوربية وبدا ان الحياة كانت ترتكز على نقطتين الأعيان الطيبين الراحمين أو المتغطرسين من جهة ، والخدمات يؤديها الزراع يغلى فى صدورهم الغضب أو يحدوهم الرجاء من جهة أخرى . وكان الأعيان سادة كل ما هو لهم والكثير مما يتجاوزه ، إذا استثنينا من ذلك ما عليهم للملك من واجبات محددة المعالم وكان لأدواق لانكستر ، ونورفوك ، وبكنجهام ضياع تنافى ضياع التاج ، ولم يكن آل نيفيل وبيرسى قد فقدوا من ثروتهم إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وكان السيد الاقطاعى يحتم على الفرسان الذين يدينون له بالولاء وعلى اتباع هؤلاء أن يخدموه ويدافعوا عنه ، ويلبسوا ثياب زينته الخاصة » . غير أنه كان فى وسع الإنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة ، وكان فى مقدور

ابنة تاجر ثرى أن تحظى بزوج نبيل ولقب من ألقاب الشرف ، ولو أن نشوس قد عاد إلى الحياة بعد موته لدهش إذ رأى أن حفيدته قد أصبحت دوقة وتصنعت الطبقات الوسطى ما استطاعت أن تتصنعه من عادات الأشراف ، فبدأ أفرادها يخاطب بعضهم بعضاً فى انجلترا بلفظ سيد وفى فرنسا بلفظ Monsieur ، وسرعان ما أصبح كل رجل فى كلا البلدين سيداً كما أصبحت كل امرأة سيدة(*) .

وكان تقدم الصناعة أسرع من تقدم الزراعة ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كادت جميع مناجم الفحم فى انجلترا تستغل ، وحتى كان الحديد ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير يستخرج من باطن الأرض ، وحتى كان تصدير المعادن من أهم الصادرات إلى البلدان الأجنبية ، وكان من الأقوال التى تجرى على الألسنة ان « قيمة المملكة فى باطن الأرض أعظم منها فى ظاهرها » . وبدأت صناعة الصوف فى ذلك القرن تزيد من ثراء انجلترا فأخذ كبار الملاك ينتزعون الأرض شيئاً فشيئاً من المستأجرين وأرقاء الأرض الذين كانوا يستخدمونها فى الزراعة ويحيلون أجزاء واسعة منها إلى مراع لتربية الضأن إلا إن بيع الصوف كان يدر عليهم من المال أكثر مما يدره حرث الأرض ، وأتى على تجار الصوف حين من الدهر كانوا فيه أغنى التجار فى انجلترا ، وكان فى مقدورهم أن يقدموا للملك ادوارد الثالث أموالا طائلة فى صورة ضرائب وقروض ، ومع ذلك فقد عمل الملك على خرابهم : ذلك أن ادوارد الثالث قد ساءه أن يرى الصوف الغفل يخرج من انجلترا ليغذى صناعة النسيج فى فلاندرز ، فأغرى النساجين بالمجىء إلى بريطانيا

(*) إن هذا اللفظ ترجمة للفظ الإنجليزى . وهو مشتق من اللفظ الإنجليزى الفرنسى « ليفريه » أى التسليم ، أو المنحة من طعام أوثياب يعطيها السيد لمواليه . واتخذت الثياب على مر الزمن صورة حلة رسمية يلبسها أتباع السيد العظيم تفاخرا وأبهة . واتخذت نقابات الحرف هذه العادة ، فكان أعضاؤها يلبسون الحلل المميزة لهم أثناء اجتماعاتهم واستعراضهم . وكانت هذه العادة من أسباب الزينة والمرح فى « انجلترا الطروب »

(١٣١١ وما بعدها) ، وعمل الإنجليز بناء على إرشادهم على إقامة صناعة النسيج فيها ، ثم حرم تصدير الصوف واستيراد معظم الأقمشة الأجنبية ، ولم ينته القرن الرابع عشر حتى أصبحت صناعة النسيج لا تجارة الصوف أهم مصادر الثروة السائلة فى انجلترا وحتى وصلت إلى مرحلة قريبة من الصناعات الرأسمالية .

وكانت الصناعة الجديدة تتطلب التعاون التام بين عدة حرف — النسيج ، والتقصير ، والتمشيط ، والصباغة ، والصقل ، ولم يكن فى وسع نقابات الحرف القديمة أن تنظم ما يحتاج إليه الإنتاج الاقتصادى من تعاون ، فعمل أصحاب المشروعات الكبرى على جمع الاخصائيين المختلفين من العمال فى منظمة واحدة ، يشرفون عليها ويمدونها بالمال . على أنه لم يقم فى هذه البلاد نظام للمصانع كالذى كان قائماً فى فلورنس وفلاندرز ، بل ظل معظم العمل يتم فى حوانيت صغيرة على يد معلم كبير ، وصبيانه ، وعدد قليل من البائعين المتجولين ، أو يتم فى مصانع ريفية صغيرة تدار بقوة الماء ، أو فى بيوت ريفية حيث كانت الأصابع الدائبة الكادحة تدير الأنوال إذا أتاحت لها أعمالها المنزلية الرتيبة فسحة من الوقت . وقاومت نقابات الحرف النظام الجديد بالإضراب ولكن تفوقه فى الإنتاج تغلب على كل ضروب المقاومة ، وأصبح العمال الذين ينافسون الصناعات الجديدة فى بيع نتائج كدحهم وحذقهم تحت رحمة الذين يمدون هذه الصناعات برءوس الأموال وبالمدربين ، وازدادت سيطرتها عليهم شيئاً فشيئاً وأصبح الكادحون فى المدن « لايدخرون شيئاً لغدهم . . ملابسهم رثة ، وبيوتهم قذرة . . يجدون كفايتهم من العيش فى أوقات الرخاء ، ولكنهم لايجدون ما يقيم أودهم فى أيام الشدة » .

وكان جميع الذكور من سكان المدن فى انجلترا معرضين لأن يجندوا للعمل فى الأعمال العامة ، ولكن كان فى وسع الأغنياء منهم أن يشتروا أنفسهم بالمال . وكان الأهلون بوجه عام يعيشون فى فقر مدقع ، وإن لم يبلغ

فقرهم فى أغلب الظن من الشدة ما كان عليه فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان المتسولون فى البلاد كثيرين ، وقد نظموا أنفسهم تنظيما يقصد به حماية مهنتهم وحكمها ، وكانت الكنائس ، والأديرة ، ونقابات الحرف تقدم قليلا من الصدقات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وفاجأ البلاد — وهذه حالها — الوباء المعروف بالموت الأسود ، ولم يكن هذا الوباء كارثة حلت بها فحسب ، بل كاد يكون ثورة اقتصادية . ذلك أن سكان انجلترا كانوا يعيشون فى جو يصلح للزراعة والإنبات ولكنه يضر بالصحة فقد كانت الحقول خضراء طوال أيام السنة ، ولكن الأهلين كانوا يقاسون آلام النقرس ، والروماتزم ، والربو ، وعرق النسا ، وذات الرئة ، والاستسقاء ، وأمراض العين والجلد . وكانت الطبقات كلها تتخم معدتها بالطعام (إن وجدته) وتدفئ أجسامها بالمشروبات الكحولية ، وقد وصفهم رتشارد رول فى عام ١٣٤٠ بقوله : « وقلما يصل الآن أحد منهم إلى سن الأربعين ، وأقل من تلك القلة من يصل إلى سن الخمسين » ، وكانت النظم الصحية العامة بدائية ، فكانت روائح المدابغ العامة ، وحظائر الخنازير ، والمراحيض تفسد الهواء ، وكان الأثرياء وحدهم هم الذين يحصلون على الماء الجارى من أنابيب تمتد إلى بيوتهم ، أما كثرة السكان فكانوا ينقلونه من القنوات المغطاة أو من الآبار ، وكان أثمن من أن يضيعوه فى الاستحمام كل أسبوع . ولهذا كله كانت الطبقات الدنيا ضحايا سهلة للأوبئة التى كانت تفتك بالأهلين من حين إلى حين من ذلك أن الطاعون الدملى انتقل فى عام ١٣٤٩ من نورماندى إلى انجلترا وويلز ثم انتقل بعد عام من ذلك الوقت إلى اسكتلندة وايرلندة ، ثم عاد إلى إنجلترا فى أعوام ١٣٦١ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٥ ، ١٣٨٢ ، ١٣٩٠ ، ١٤٣٨ ، ١٤٦٤ ، وقضى فى هذه السنين كلها على ثلث سكان البلاد ، وهلك فيه ما يقرب من نصف رجال الدين ، ولعل بعض المساوئ التى شكت منها الكنيسة

الإنجليزية فيما بعد ترجع إلى اضطرارها إلى حشد رجال فى خدمتها حشداً سريعاً ، وكانت تنقصهم الكفايات التى ينتجها التدريب والخلق القويم ، وكان لهذه الظروف أسوأ الأثر فى الفن ، وتوقف بناء الكنائس أوكاد نحو جيل من الزمان ، وفسدت الأخلاق ، وانحلت روابط الأسر ، وطغت العلاقات الجنسية على القيود التى حاول نظام الزواج أن يقيدها بها مراعاة لمصلحة النظام الاجتماعى ، ولم تجد القوانين مشرفين ينفذونها ، وكثيراً ما يتجاهلونها .

وتعاون الطاعون مع الحرب للتعجيل باضمحلال النظام الإقطاعى ، فقد هجر كثيرون من الزراع الأراضى التى كانوا يستأجرونها ونزحوا إلى المدن بعد أن فقدوا أبناءهم وغيرهم ممن كانوا يساعدونهم فى فلاحتها ، واضطر الملاك إلى أن يستأجروا عمالا أحراراً ، يؤدون لهم ضعفى ماكانوا يؤدونه قبل من الأجور ، وان يغروا بالعمل عندهم مستأجرين بشروط خير من الشروط السابقة ، وان يستبدلوا بالمال الخدمات الإقطاعية . وإذ كان الملاك أنفسهم قد اضطروا إلى ابتياع كل ما يشترونه بأثمان عالية ، فقد اضطروا إلى أن يطلبوا إلى الحكومة أن تتدخل لتثبيت موازنة الأجور. واستجاب المجلس الملكى إلى هذا الطلب بأمر أهم ما جاء فيه :

لما كان قسم كبير من أفراد الشعب وبخاصة طبقة العمال والخدم قد ماتوا أخيراً بسبب الوباء . . . ولما كان الكثيرون يرفضون العمل إلا فى نظير أجور باهظة ، بل إن بعضهم يفضلون التوسل والتعطل على العمل لكسب أقواتهم ، فقد نظرنا نحن فيما قد يحدث فيما بعد من اضطراب محزن من نقص فى الأيدى العاملة وبخاصة بين العمال والفلاحين ، وبعد مناقشة هذه المسائل ، اتفقنا مع كبار رجال الدين وأعيان البلاد ، ورجال العلم واستعنا فى ذلك بهم وتبادلنا وإياهم المشورة أمرنا بما هو آت :

١ — كل شخص صحيح الجسم تقل سنه عن ستين عاماً ، وليست له

(وسيلة) للعيش ، إذا طلب إليه (شخص آخر أن يعمل) يجب عليه أن يقوم بخدمة من يطلب ذلك إليه ، وإلا زج به فى السجن حتى يقدم من يضمن قيامه بالعمل؛

٢ — إذا غادر الخدمة عامل أوخادم قبل الوقت المتفق عليه ، حكم عليه بالسجن .

٣ — لا يعطى الخدم إلا الأجور القديمة لا أكثر منها .

٤ — إذا تقاضى صانع أوعامل أجراً يزيد على ماكان يتقاضاه عادة زج به فى السجن .

٥ — يجب أن تباع مواد الطعام بأسعار معقولة .

٦ — ليس لإنسان أن يعطى شيئاً لمتسول يستطيع العمل؛

لكن العمال وأصحاب الأعمال أهملوا هذا القرار إهمالا واسعاً اضطر معه البرلمان أن يصدر (فى التاسع من فبراير سنة ١٣٥١ («قانون العمال» الذى ينص على ألا تزيد الأجور على ماكانت عليه فى عام ١٣٤٦ ، والذى حدد أثمان عدد كبير من السلع والخدمات وقرر وجوب استخدام الآلات . ثم صدر قانون آخر فى عام ١٣٦٠ ينص على جواز ارغام الزراع الذين يتركون الأرض التى تعاقدوا على زراعتها أو استئجارها قبل انتهاء الموعد المحدد للعقود أو الإيجار على العودة إليها ، كما ينص على أن لقضاة الصلح إذا شاءوا أن يسموا هؤلاء المخالفين على جباههم . واتخذت فيما بين عامى ١٣٧٧ ، ١٣٨١ إجراءات أخرى مختلفة فى قسوتها ، ولكن الأجور ارتفعت على الرغم من هذه القوانين والقرارات ، غير أن الأحقاد التى ولدتها هذه الأعمال فى صدور العمال ورجال الحكم أثارت النزاع بين الطبقات وكانت سلاحاً جديداً فى أيدى دعاة الفتنة؛

وكان للثورة التى تأجج لهيبها على أثر هذه الحوادث أكثر من عشرة مصادر ، فقد أخذ الزراع الذين كانوا لا يزالون من أرقاء الأرض يطالبون

بحريتهم ، وطالب المستأجرون بأن يحددوا إيجار الأرض بأربعة بنسات (١,٦٧دولار) للفدان الواحد فى السنة . وكانت بعض البلدان لا تزال خاضعة للسادة الإقطاعيين ، وكانت هذه تتوق إلى أن تتمتع بالحكم الذاتى ، وكان العمال فى البيئات المحررة يكرهون الأقلية الغنية من التجار ، كما كان التجار المتنقلون يتذمرون من فقرهم وعدم اطمئنانهم على مصادررزقهم . وكان الزراع فى الريف ، والعمال فى المدن ، بل كان قساوسة الابرشيات أنفسهم — كانوا هؤلاء جميعاً يندِّدون بسوء الحكم فى السنين الأخيرة من عهد ادوارد الثالث ، والسنين الأولى من عهد رتشارد الثانى ، ويتساءلون لم توالت الهزائم على الجيوش الإنجليزية بعد عام ١٣٦٩ ، ولم تجن الضرائب الفادحة لتمويل هذه الهزائم نفسها . وكان أشد حقدهم ينصب على سدبرى كبير الأساقفة وعلى روبرت هالز وهما كبيرا وزراء الملك الشاب وجون جونت ويتهمونهم بأنهم أنصار الفساد والعجز فى دوائر الحكومة وأجدر من يجب أن توجه إليهم التهم .

ولم يكن لوعاظ اللولارد (أتباع ويكلف) إلا أقل صلة بهذه الحركة ، ولكن نصيبهم فيها كان هو تهيئة الأذهان للثورة ، فقد كان جون بول زعيمها الفعلى يكرر أقوال ويكلف ويحبذها ، وكان وات تيلر يطالب كما كان يطالب ويكلف بالاستيلاء على أملاك الكنيسة . وكان بول ، «قس كنت المجنون» (كما كان يلقبه فرواسار) ، يعلم الشيوعية لجماعة المصلين معه ، وقد صدر قرار بحرمانه من حظيرة الدين فى عام ١٣٦٦ . فأصبح بعدئذ واعظاً جائلا يندد بالمال الحرام الذى جمعه الأحبار والأعيان ، ويطالب بعودة رجال الدين إلى الفقر الذى يدعو إليه الإنجيل ويسخر من البابوات المتنافسين الذين كانوا بانشقاقهم يقتسمون ثياب المسيح . وتعزو إليه الرواية المتواترة ذلك البيت المشهور :

حيث كان آدم يحفر وكانت حواء تقيس

من كان وقتئذ السيد العظيم

أى حيث كان آدم يحفر الأرض وحواء تعمل على النول ، هل كان فى الجنة أقوام مقسمون طبقات ، وكان فرواسار ينقل الآراء المعزوة إلى بول فى طول يدل على شدة عطفه عليها ، وان كان فى الوقت نفسه محباً لطبقة الأشراف البريطانيين :

أصدقائى الأعزاء إن الأمور لاتستطيع أن تسير فى انجلترا سيراً حسناً حتى يصبح كل شىء مشاعاً ، وحتى لا يكون فى البلاد سادة ولا أتباع ، وحتى لا يكون الملاك سادة إلا بقدر ما نكون نحن ، ألا ما أسوأ ما يعاملوننا به . ولأى سبب يتحكمون فينا ويسترقوننا هذا الاسترقاق ؟ ألسنا جميعاً أبناء آدم وحواء ؟ وأى شىء يستطيعون أن يظهروه لنا ليسودوا به علينا ؟... إنهم ليسموننا عبيداً ، وإذا لم نقم بخدمتهم ضربونا بالسياط .. فلنذهب إلى الملك ونحتج إليه ، فهو شاب وفى مقدورنا أن نحصل منه على جواب فيه الخير لنا ، فإذا لم نحصل عليه فلنعمل بأنفسنا لإصلاح أمورنا(*) .

وقبض على « بول » ثلاث مرات وكان فى السجن عندما اندلعت الثورة . وبلغ السخط مداه بضريبة الرؤوس التى فرضت عام ١٣٨٠ ؛ وأشرفت الحكومة على الإفلاس ، وكادت تخسر جواهر الملك المرهونة ، وألحت الحرب فى فرنسا مطالبة بأموال جديدة . ففرضت على الشعب ضريبة مقدارها ١٠٠,٠٠٠ جنيه تجبى من كل نفس تناهز الخامسة عشرة من العمر . واتحدت عناصر الثورة المفرقة بهذه الضريبة الجديدة . وتنكب آلاف من الناس طريق الحياة ، وكانت حصيلة الضريبة أقل من المطلوب بكثير .. وأرسلت الحكومة مندوبين آخرين للكشف عن الممتنعين عن دفع الضريبة فجمع العامة قواهم متحدين إياهم ، ورجموا عملاء الملك إلى خارج مدينة برنتود عام (١٣٨١) ، وحدث مثل ذلك فى مدن فوبنج

(*) إلى هنا انتهت ترجمة المرحوم الأستاذ محمد بدران .

دكورنجهام وسنت اليتز . وعقدت اجتماعات شعبية للاحتجاج على الضريبة فى لندن ، وأرسل المجتمعون إلى الثائرين فى الريف يشجعونهم ويدعونهم أن ينضموا إلى الثائرين فى العاصمة وبذلك يرغمون الملك على ألا يكون هناك رقيق أرض فى انجلترا .

ولقى فريق من الجباة عند دخولهم مدينة كنت مقاومة غارمة . وفى السادس من يونية سنة ١٣٨١ ، حطم جماعة من الغوغاء غياهب السجون فى دوشستر ، وأطلقوا سراح المسجونين ، ونهبوا القلعة . وانتخب الثوار فى اليوم التالى وات تيلر قائداً لهم . ولا يعرف شىء عن ماضيه قبل ذلك ، ومن الواضح أنه كان جندياً مسرحاً ، لأنه نظم الجمع المشتت للقيام بعمل موحد ، واكتسب طاعته السريعة لأوامره .

وفى الثامن من يونية هاجم الجمع الهائج دور المبغضين إليه من الإقطاعيين والمحامين وموظفى الحكومة ، وقد تسلح بالقسى والسهام والهراوات والفؤوس والسيوف ، وتلقى مدداً من المتطوعين من جميع قرى كنت تقريباً. وفى اليوم العاشر من هذا الشهر دخل هذا الجمع مدينة كانتربرى فرحب به أهلها ونهب قصر سدبرى كبير الأساقفة ، وفتح أبواب السجن ، وانتهب دور الأغنياء . وهكذا انضم سكان الجانب الشرقى من كنت بأسره إلى الثورة ، وأخذت المدن تنضوى تحت لواء الثورة ، واحدة بعد أخرى ، وبادر الموظفون المحليون إلى الفرار من وجه العاصفة . . ولجأ الأغنياء إلى مناطق أخرى من انجلترا ، أو اختبأوا فى أماكن بعيدة عن طريق الثائرين ، أو تجنبوا الأخطار الأخرى بتقديم المساعدة بصورة ما إلى الثورة .

وفى اليوم التالى وجه تيلر جيشه إلى لندن . فلما بلغ مدلستون أفرج عن « جون بول » فانضم إلى فريق الفرسان وأخذ يقدم إليه عظاته كل يوم وقال الآن يبدأ حكم الديمقراطية الذى طالما حلم به ودافع عنه ، وتزول جميع الفوارق الاجتماعية ، ولن يكون هناك بعد الآن أغنياء وفقراء ، إقطاعيون وعبيد ، بل يكون كل إنسان ملكاً فى ذاته(٦١) .

ونشبت فى الوقت نفسه ثورات مماثلة فى نورفولك وسفولك وبيفرلى وبرد جوتر وكمبردج واسكس ويدلسكس وستسكس وهرتفورد وسومرست وجز الشعب فى يورى سانت ادموند رأس كبير الرهبان وهو الذى حافظ بصلابته على حقول الدير الإقطاعية على المدينة . وقتل المتمردون فى كلشستر عدداً من التجار الفلورنسيين ، ظناً منهم أنهم يقطعون الطريق على التجارة البريطانية . وأتلفوا ما وقع تحت أيديهم من الأضابير والعقود أو الوثائق التى تسجل الملكية الاقطاعية أو العبودية ، وهكذا أحرق الأهالى فى كمبردج وثائق الجامعة ، وألقوا فى مدينة ولدام كل وثيقة فى محفوظات الدير طعمة للنيران .

وفى الحادى عشر من يونية أشرف جيش الثوار الذى نصفه من اسكس وهرتفورد على الضواحى الشمالية لمدينة لندن ، وفى الثانى عشر بلغ ثوار كنت مدينة سوزوارك ، على الشاطئ الثانى من التيمز مباشرة . ولم يبدأ أنصار الملك مقاومة منظمة واختبأ رتشارد الثانى وسدبرى وهيلز فى الحصن . وبعث تيلر إلى الملك يطلب مقابلته ورفض طلبه . وأغلق وليام ولورث عمدة لندن أبواب المدينة ، ولكن الثوار فى داخلها أعادوا فتحها . وفى الثالث عشر رحب الشعب بقوات كنت التى دخلت العاصمة فانضم إليها آلاف العمال . وأمسك تيلر بزمام جموعه فى حزم ، ولكنه هدأ من ثورتها بأن سمح لها أن تحاصر قصر جون اف جونت . فلم يسرق منه شىء ، وقتلت الجماهير شخصاً من المتمردين حاول أن يسرق كأساً من الفضة . بيد ان كل شىء قد دمر ، وألقى بالأثاث الفاخر من النوافذ ، ومزقت الستائر النفيسة خرقاً ، وسحقت الجواهر سحقاً ، وأتت النيران على القصر كله ، وتناست الجموع بعض المتمردين الذين استبد بهم الطرب وسكروا حتى غابوا عن الوعى فى أقبية الخمر فذهبوا طعمة للنيران . ثم تحول الجيش بعد ذلك إلى تمبل ، وهى قلعة رجال القانون فى انجلترا ، وتذكر الفلاحون أن هؤلاء

الفقهاء هم الذين صاغوا صكوك عبوديتهم ، أوصادروا ممتلكاتهم فى مقابل الضرائب ، فوضعوا هنالك أيضاً محرقة تلتهم الوثائق ، وأشعلوا النيران فى المبانى حتى أتت عليها . وقوض السجن فى نيوجيت كما دمر الأسطول . وانضم المسجونون السعداء إلى الغوغاء ، وألح التعب على الجموع من الجهود المضنية التى بذلتها لتجمع انتقام قرن كامل فى يوم واحد فرقدت فى ظاهر المدينة ونامت .

وفى هذا المساء رأى مجلس الملك أن يسمح له بالحديث مع تيلر وهو خير من الرفض على كل حال . وأرسل دعوة إلى تيلر وأتباعه لمقابلة رتشارد فى الصباح التالى فى ضاحية شمالية تعرف بـ « مايل اند » . وبعد بزوغ الفجر من اليوم الرابع عشر من يونية ، ركب الملك ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، إنقاذاً لحياته ، فخرج من القلعة يصحبه جميع مستشاريه ماعدا سدبرى وهيلز اللذين خافا أن تتعرض حياتهما للخطر . وشقت الجماعة الصغيرة طريقها وسط الجماهير المعادية إلى مايل اند ، حيث تجمع الثائرون من اسكس ، وتبعهم فريق من جيش كنت على رأسه تيلر الذى أدهشه استعداد رتشارد للاستجابة لجميع المطالب . وهى أن تلغى العبودية فى كل أنحاء انجلترا ، وتزول جميع الأعباء والخدمات الاقطاعية ، وتحدد قيمة إيجار العقار كما طلب المؤجرون ، ويعلن عفو عن جميع الذين اشتركوا فى الثورة . وبادر ثلاثون من الكتاب صياغة مواثيق الحرية والعفو لجميع المناطق التى ثار أهلوها . بيد أن الملك رفض مطلباً واحداً ،وهو أن يسلم للشعب وزراءه وغيرهم من الخونة . وأجاب رتشارد بأن جميع الأشخاص المتهمين باساءة استعمال السلطة سيحاكمون طبقاً للإجراءات التى ينظمها القانون ، ويعاقبون إذا ثبت أدانتهم .

ولما لم يقنع تيلر بهذه الإجابة ، ركب فى فرقة مختارة من رجاله واتجهوا مسرعين إلى القلعة فوجدوا سدبرى يرتل القداس فى الكنيسة . فسحبوه

إلى الفناء وبسطوه على الأرض ورقبته على كتلة من الخشب . ولم يكن جلاده حاذقاً ، ففصل رأسه عن جسده بثمانى ضربات من الفأس . ثم جز المتمردون رأس هيلز واثنين آخرين . وثبتوا على رأس كبير الأساقفة تاجه بمسمار نفذ من الجمجمة ، ووضعوا الرءوس على أسنة الرماح ، وساروا بها فى أنحاء المدينة ، ثم علقوها على باب جسر لندن وانقضى ما بقى من ذلك النهار فى سفك الدماء . وطالب تجار لندن ، الذين أبو المنافسة الفلمنكية الجماهير أن تقتل كل فلمنكى تجده فى العاصمة . وكان يقدم إلى المشكوك فى جنسيته الخبز والجبن ، ويطلب إليه أن يسميهما ، فإن نطق اسميهما بلهجة فلمنكية دفع حياته ثمناً لذلك . وقتل فى ذلك اليوم نيف ومائة وخمسون من التجار وأصحاب المصارف الغرباء فى مدينة لندن وسقط كثير من رجال القانون الإنجليز ، وجباة الضرائب وأنصار جون أف جونت بضربات الفؤوس فى ثورة انتقامية لا تميز بين مذنب وبرىء . وقتل الصبيان فى مختلف المهن والصناعات معلميهم والمدينون دائنيهم. وحتى إذا جاء منتصف الليل انسحب المنتصرون لينعموا بالراحة مرة أخرى بعد أن أشبعوا نهمهم .

وأبلغ الملك بهذه الأحداث فعاد أدراجه من مايل اند ، ولم يتجه إلى البرج ، بل إلى جناح والدته بالقرب من كنيسة سانت بول وقفل فى الوقت نفسه عدد كبير من فرق اسكس وهرتفورد راجعين إلى ديارهم ، ابتهاجاً بالمواثيق التى سجلت حريتهم . وفى الخامس عشر من يونية بعث الملك رسالة مهذبة ، إلى فلول الثوار ، يطلب إليهم لقاءه فى ظاهر شمثفيلد خارج الدرجيت . ووافق تيلر على ذلك ولما كان رتشارد يخاف على حياته فقد قام بالاعتراف وتناول الأسرار المقدسة قبل الموعد المضروب ، ثم ركب فى حاشية تتألف من مائتى رجل أخفوا سيوفهم تحت أرديتهم غير العسكرية ؛ وتوجه تيلر إلى شمثفيلد ولم يكن معه غير رفيق واحد يحرسه . وتقدم بمطالب جديدة غير معروفة على التحقيق ويبدو أنها كانت تتضمن مصادرة أملاك

الكنيسة وتوزيع دخلها على الشعب . وأعقب ذلك نزاع ، فقد وصف أحد حاشية الملك ، تيلر بأنه لص فأمر تيلر مساعده ، بقتله فوقف العمدة ولورث فى الطريق فما كان من تيلر إلا أن طعن ولورث الذى أنقذه الدرع المستور تحت عباءته وطعن ولورث بخنجره تيلر وأنفذ أحد سراة رتشارد سيفه فى تيلر مرتين فعاد تيلر إلى رجاله صائحاً الخيانة ، وسقط ميتاً عند أقدامهم فذهلوا من هذه الخيانة المفضوحة وأعدوا سهامهم وتأهبوا لإطلاقها . ومع أن عددهم كان قد أخذ فى النقصان إلا أنهم ظلوا قوة لا يستهان بها وقد أحصاهم فروسافرت بعشرين ألف رجل من المحتمل أنهم كانوا يستطيعون الإحداق بحاشية الملك . ولكن رتشارد خرج إليهم فى شجاعة وهو يصيح « أيها السادة ، اتقتلون مليككم ؟ سأكون رئيسكم وقائدكم ، وستنالون منى ما تطلبون . وليس عليكم إلا أن تتبعونى إلى الحقول بعيداً » ومضى غير واثق أوعوا كلامه ؟ أيتركونه حياً ؟ وتردد الثوار . ثم اتبعوه واختلط معظم الحرس الملكى بهم .

أما ولورث فقد ركض بفرسه عائداً إلى المدينة ، وأصدر أوامره إلى شيوخ النواحى الأربع والعشرين أن ينضموا إليه بكل القوات المسلحة التى يستطيعون حشدها . وكان كثيرون من المواطنين الذين عطفوا على الثورة أول الأمر قد أخذوا يحسون القلق من جراء أعمال القتل والتخريب ،وشعر كل امرئ ، يملك عقاراً أن أملاكه وحياته فى خطر ، وهكذا وجد العمدة لفوره جيشاً تحت امرته يتألف من سبعة آلاف رجل كأنما انشقت عنهم الأرض . فعاد بهم إلى شمثفيلد ، وهناك لحق بالملك وأحاط به ، وعرض عليه أن يعمل السيف فى الثائرين . فأبى رتشارد ، فهم الذين وهبوا له الحياة عندما كان تحت رحمتهم ، وهو لايريد أن يبدو أقل منهم كرماً وقد أعلن إليهم أنهم أصبحوا أحراراً يستطيعون أن يرحلوا بسلام . وسرعان ما انقشع الذين بقوا من ثوار اسكس وهرتفورد ، واختفى عصاة لندن

فى ديارهم ، ولم تبق إلا ثلة كنت فاعترض رجال ولورث المسلحون ، طريقهم إلى داخل المدينة ولكن رتشارد أمر أن لا يمسهم أحد بسوء ، فتركوا المدينة آمنين ، ثم اضطرب نظامهم ثانية على طول طريق كنت القديم . وعاد الملك إلى والدته ، التى رحبت به ودموع الفرحة بسلامته فى عينيها . وقالت : « اه ، يا بنى الصحيح ، كم تحملت من الألم والعذاب من أجلك اليوم . « فأجاب الصبى » : حقاً يا سيدتى أننى أحس ذلك جيداً ، ولكن عليك الآن أن تبتهجى وتحمدى الله ، لأننى اليوم استعدت ميراثى وكان مفقوداً ، واستعدت ملك انجلترا أيضاً (٦٣) .

وأصدر رتشارد فى اليوم نفسه وهو الخامس عشر من يونية — وربما كان ذلك بتأثير العمدة الذى أنقذه — قراراً ، ينفى من لندن ، كل امرئ لم يقض فيها السنة الماضية بأسرها وإلا تعرض للموت صبراً . وأخذ ولورث وجنوده يفتشون فى الطرقات والمساكن عن الغرباء ، وقبضوا على كثيرين وقتلوا البعض . . وكان بينهم رجل يدعى جاك سترو ، اعترف ، تحت وطأة التعذيب من غير شك ، ان رجال كنت رسموا خطتهم لينصبوا تيلر ملكاً . وجاء فى الوقت نفسه وفد من ثواراسكس إلى ولتام وطلبوا من الملك تصديقاً رسمياً للوعود التى قطعها على نفسه فى الرابع عشر من يونية . فأجاب رتشارد بأن هذه الوعود قد صدرت بالإكراه ، وليس فى نيته أن يبقى عليها ، وأخبرهم بنقيض ما توقعوا « لا تزالون أوغادا ، وستظلون أوغاداً » ، وتوعد بالانتقام الرهيب من كل رجل يظل على عصيانه المسلح (٦٤) . ودعا المندوبون الناخبون أتباعهم أن يبعثوا الثورة من جديد ، فاستجاب البعض بيد أن رجال ولورث أبادوهم فى مذبحة هائلة فى الثامن والعشرين من يونية .

وألغى الملك المغيظ الحانق فى الثانى من يولية جميع المواثيق وعهود الأمان التى أصدرها إبان الثورة ، ومهد الطريق إلى تحقيق قضائى عن هوية

زعماء الفتنة وأعمالهم : فقبض على المئات ، وحوكموا ، وقتل مائة وعشرة أو أكثر . واعتقل جون بول فى كفنترى ، فاعترف جريئاً بدوره القيادى فى الثورة ، ورفض أن يطلب العفو من الملك . فشنق ، وسحل ، وقطعت جثته أربعة ، ووضعت رأسه مع رأس تيلر وجاك سترو فى مكان رأسى مديرى وهيلز لتزين جسر لندن . وفى الثالث عشر من نوفمبر عرض رتشارد على البرلمان تقريراً عن أعماله ، وقال ، إذا كان المجتمعون من الأساقفة والأعيان والعامة يرغبون فى تحرير رقيق الأرض ، فإنه يرغب فى ذلك أيضاً . ولكن الأعضاء كان جلهم من أصحاب الأراضى ، الذين لا يستطيعون أن يقبلوا حق الملك فى تجريدهم من أملاكهم ، وكانت نتيجة التصويت وجوب الإبقاء على جميع العلاقات الإقطاعية »(٦٥) وعاد الفلاحون المنهزمون إلى محاريثهم ، والعمال المنحوسون إلى مغازلهم .

٤ ــ الأدب الجديد

كادت اللغة الإنجليزية تصبح ، بعد أن مرت بمراحل بطيئة ، وسيلة ملائمة للأدب . فقد أوقف الغزو النورمندى عام ١٠٦٦ ، تطور اللغة الانجلوساكسونية إلى الإنجليزية ، وظلت الفرنسية هى اللغة الرسمية للمملكة فترة من الزمان . ونشأت بالتدريج مفردات ولهجة جديدة ، أساسها ألمانى ، يخالطها وتزينها كلمات وصيغ غالية . ولعل الحرب الطويلة مع فرنسا قد حفزت الأمة إلى أن تتمرد على السيطرة اللغوية لعدوها . فأعلن عام ١٣٦١ ان الإنجليزية هى لغة القانون والمحاكم ، واستحدث حامل أختام الملك سابقة دستورية عام ١٣٦٣ بافتتاحه البرلمان بخطبة إنجليزية . وظل العلماء والمؤرخون والفلاسفة (إلى عهد فرنسيس بيكون) يكتبون باللغة اللاتينية لتصل كتاباتهم إلى قراء من دول مختلفة ، بيد أن الشعراء ومؤلفى المسرحيات أنشأوا منذ ذلك بلغة انجلترا :

وأقدم مسرحية باقية بالإنجليزية « من مسرحيات الخوارق » — وهى عرض درامى لقصة دينية — أخرجت فى مدلاندز . حوالى عام ١٣٥٠ بعنوان القضاء على الجحيم ، وقد مثلت مفاخرة بين الشيطان والمسيح عند مدخل الجحيم وأصبح مألوفاً فى القرن الرابع عشر بين نقابات كل مدينة أن تعرض حلقة من مسرحيات الخوارق ، بأن تعد النقابة مشهداً ، من الكتاب المقدس عادة ، وتنقل الممثلين والمعدات فى سفينة ، وتؤدى المشاهد على مسارح مؤقتة تشيد فى الساحات الشعبية للمدينة ، وتعرض نقابات أخرى فى الأيام التالية ما يليها من المشاهد من قصص الكتاب المقدس نفسه . وأقدم ما يعرف الآن من هذه الحلقات هى خوارق شستر ، التى مثلت عام ١٣٢٨ ، حتى إذا جاء عام ١٤٠٠ عرضت حلقات مشابهة فى يورك وبيفولى وكمبردج وكفنترى وريكفيلد ولندن ولقد أثمرت الخوارق اللاتينية ، فى فترة مبكرة ترجع إلى عام ١١٨٢ ، نوعاً جديداً أطلق عليه « المعجزة » التى تدور حول كرامات بعض القديسين وآلامهم وظهر حوالى عام ١٣٧٨ نوع آخر — هو المسرحية الأخلاقية — يبرز مغزى أخلاقياً ، بتمثيل إحدى الحكايات ، لا بما بلغ هذا القالب ذاته فى مسرحية « كل إنسان » (١٤٨٠) . ونحن نسمع فى فترة مبكرة من القرن الخامس عشر عن قالب مسرحى آخر ، أقدم عهداً بلا شك وهو « الفاصل » ولم يكن تمثيلية بين تمثيليات ، ولكنه كان عرضاً يقوم به ممثلان أو أكثر ولاينحصر موضوعه فى الدين أو الأخلاق ، وربما كان دنيوياً مرحاً مسفاً مفحشاً . ومثلت فرق من المنشدين الجوالين هذه الفواصل فى أبهاء قصور الأمراء أو دور النقابات ، وساحات المدن والقرى ، أوفناء إحدى الحانات . وأنشأت اكستر عام ١٣٤٨ أول دار إنجليزية معروفة للتمثيل ، وهى أول مبنى أوربى وقف على العرض المسرحى وخصص له منذ المنشآت الرومانية الكلاسية ولعل الكوميديات قد نشأت عن هذه الفواصل ، أما تراجيديات المسرح الاليزابيثى الخصب فلعلها نشأت عن الخوارق والأخلاقات :

وأول قصيدة عظيمة — وهى من أعجب وأقوى القصائد — فى اللغة الإنجليزية هى الموسومة بعنوان « رؤيا وليام المتعلقة ببترز الحراث » . ولا يعرف عن مؤلفها شيء إلا ما يستشف من قصيدته ، ونحن إذا افترضنا أنها سيرة ذاتية ، فإننا نستطيع أن نسميه وليام لانجلاند ونجعل مولده من عام ١٣٣٢ . ولعله شغل مراتب كنسية دنيا ، ولم يصبح قط قسيساً ، وأخذ يجوب الأنحاء حتى بلغ لندن ، وحصل على الكفاف ، بترتيل المزامير فى القداس من أجل الموتى وعاش ماجناً يتأثم بـ « جشع النظرة وشهوانية الجسد » ، وكانت له ابنة ولعله تزوج أمها ، وعاش معها فى خص متواضع فى كونهيل . ويصف نفسه بأنه طويل ، نحيل ، يرتدى إزارا قاتماً يناسب حطام آماله الغبراء وشغف بقصيدته التى أصدرها ثلاث مرات (١٣٦٢ ، ١٣٧٧ ، ١٣٩٤) ، وكان يطيل فى نسجها كل مرة مثله مثل الشعراء الانجلوسكسونيين ، لا يستعمل القافية ، وإنما يصطنع النظم الذى يجانس أوائل الكلمات مع اضطراب الوزن .

وبدأ بتصوير نفسه وقد غلبه النوم على أحد تلال مالفرن ، فرأى فيما يرى النائم « حقلا يعج بالناس » جماهير من الأغنياء والفقراء ومن الأخيار والأشرار ، ومن الصغار والكبار بينهم سيدة جميلة نبيلة يرمز بها إلى الكنيسة المقدسة . وهو يركع أمامها ويسألها « لا أن تمنحينى كنزاً من الكنوز ، ولكن خبرينى كيف أنقذ روحى » فتجيب :

إذا امتحنت جميع الكنوز ، فالصدق أحسنها . . ومن يصدق بلسانه ، ولايقول غير الصدق ، ولايسيء إلى أحد بعمله ، ولاينوى له الشر بقلبه ، فإنه حرى فى نظر الإنجيل أن يكون إلهاً . وفى منزلة مولانا[٦٧] .

ورأى فى منام آخر ، الكبائر السبع ، واتهم الإنسان فى كل واحدة منها باللوم فى سخرية لاذعة : وغلب عليه فى فترة من الزمن ، تشاؤم ساخر جعله يتوقع نهاية قريبة للعالم . وإذا ببترز (بطرس) الحراث يظهر فى

القصيدة . وهو فلاح نموذجى أمين ودود كريم يثق به الجميع كادح يخلص لزوجته وأطفاله وهو ابن بار للكنيسة دائماً . ورأى وليام فى أحلام تالية نفس الرجل يبرز ،على أنه المسيح المتجسد فى صورة البشر ، فى صورة بطرس الرسول ، فى صورة بابا ، ثم يختفى بانشقاق الكنيسة ومجئ المسيخ الدجال . ويقول الشاعر ، ان رجال الدين ، لم يعودوا الخلف القادر على إنقاذ الأرواح ، فقد فسد معظمهم ، إذ يخدعون البسطاء ، ويغفرون للأغنياء ويتقاضون ثمن غفرانهم ويتجرون فى المقدسات ، ويبيعون الجنة نفسها فى مقابل فلس واحد . وما الذى يستطيع المسيحى أن يفعله فى هذه المنحة العامة ؟ يقول وليام ، عليه أن يعود مرة أخرى ، ويتسامى على كل الجماعات الحية المتداخلة على ضروب الفساد ، ويبحث عن المسيح نفسه .

وفى قصيدة بترز الحراث نصيب من الهذو ، أما مجازاتها الغامضة ففيها إملال ، لكل قارئ يدرك أن الوضوح ، مسئولية معنوية ، يجب أن ينهض بها المؤلفون . وهى على ذلك قصيدة صادقة تنكل بالأشرار فى غير تعصب ، وتصور المشهد الأنسانى تصويراً حقاً ، وترتفع بلسان العاطفة والجمال إلى ذروة لاتضارعها سوى حكايات كانتربرى فى الأدب الإنجليزى إبان القرن الرابع عشر ، وكان تأثيرها عظيما ، حتى لقد أصبح بترز بالنسبة إلى ثوار انجلترا ، رمزاً للفلاح الجرىء المستقيم ، ولقد امتدحه جون بول لثوار اسكس عام ١٣٨١ ، وبعث اسمه ، بعد ذلك بكثير فى عصر الإصلاح عند نقد النظام الدينى القديم والمطالبة بنظام جديد (٦٩) . وختم الشاعر أحلامه بأن تحول من بترز الذى يمثل البابا ، إلى بترز الفلاح مرة أخرى وهو يقول فى الختام ، إذا كنا جميعاً مثل بترز فلاحين بسطاء ، نتبع المسيحية فذلك أعظم الثورات وآخرها ، ولن يحتاج العالم إلى غيرها أبداً .

أما جون جور ، فشاعر أقل من لانجلند العجيب ، خيالا وأضعف شخصية ، ذلك أنه كان من أصحاب الأراضى الأغنياء فى كنت . فامتلأ

ذهنه بالكثير من عناصر التحذلق والعلم ، وكان بليد القريحة . فبما أنشأ بثلاث لغات . وهاجم أيضاً أخطاء رجال الدين ، ولكنه كان يرتعد فرقاً من هرطقة المصلحين الإنجليز الأوائل اللولارد وتعجب من وقاحة الفلاحين الذين قنعوا يوماً بالقمح والجعة ، وإذا بهم يطالبون اليوم باللحم واللبن والجبن . ويقول جور ثلاثة أشياء لاترحم ، إذا لم يكبح جماحها : الماء ، والنار ، والغوغاء . ألح الضيق بجوير المثالى من هذا العالم فانشغل بالآخرة ، واعتزل فى شيخوخته بصومعة . وانفق السنة الأخيرة من حياته فى الصلاة وكف البصر . ولقد أعجب معاصروه بأخلاقياته ، وأسفوا على سلوكه وأسلوبه ، وتخاصوا منه إلى تشوسر .

٥ - جيوفرى تشوسر

١٣٤٠ - ١٤٠٠

كان رجلا يتدفق فيه دم انجلترا المبتهجة وخمرها ، رجلا قادراً على أن يطوى فى قلبه متاعب الحياة الطبيعية ، وأن يرسم وخزها فى مرح متسامح ، ويصور جميع مراحل المجتمع الإنجليزى ، بريشة جد عريضة كريشة هوميروس ، وروح شهوانية كروح رابليه .

وكان اسمه ، كأكثر مفردات لغته ، فرنسى الأصل ، ومعناه الإسكاف ، وربما كان ينطق شوساير ، وللوراثة مداعباتها لأسمائنا ، وهى إنما تذكرنا بأن نصوغ أنفسنا طبقاً لهواها . . فهو ابن جون تشوسر ، خمار لندنى . لقد نال حظاً طيباً من العلم بفضل الكتب والحياة معاً ، وينضح شعره بمعرفة الرجال والنساء من ناحية والأدب والتاريخ من ناحية أخرى . ولقد سجل اسم « جيوفرى تشوسر » رسمياً عام ١٣٥٧ ، ليكون فى حاشية دوق كلارنس المقبل . وبعد ذلك بعامين رحل ليحارب فى فرنسا ، وأسر ، ثم افتداه ادوارد الثالث : ونحن نجده عام ١٣٦٧ أحد الأعيان فى مجلس

الملك ، بمعاش مقداره عشرون مارك سنوياً . وكان ادوارد كثير الرحلة مع حاشيته وأغلب الظن أن تشوسر كان يصحبه مستمتعا بجمال انجلترا وتزوج عام ١٣٦٦ فيليبا ، إحدى وصيفات الملكة ، وظل على خلاف معها حتى ماتت واستمر ريتشارد الثانى يجرى عليه معاشاً ، أضاف إليه جون أمير جونت ، عشرة جنيهات كل سنة كما حصل على هبات أخرى من الطبقة العليا وهذا يفسر السبب الذى من أجله لم ينتبه تشوسر إلى الثورة الكبرى مع أنه كان خبيراً بالحياة .

وفى التقاليد الحسنة فى تلك الأيام التى كلف الناس فيها بالشعر والفصاحة ، أن يوفد الأدباء فى مهام سياسية فى الخارج . فانتدب تشوسر مع آخرين للمفاوضة على عقد اتفاقية تجارية فى جنوة عام ١٣٧٢ ، كما ذهب عام ١٣٧٨ ، صحبته سير ادوارد بيركلى ، إلى ميلان . ومن يدرى لعله لقى هناك بوكاشيو العليل ، أو بترارك الطاعن فى السن ؟ ومهما يكن من شىء فقد كانت إيطاليا نقطة تحول فى إلهامه . ذلك أنه رأى فيها الثقافة أكثر صقلا وعلما وبراعة من انجلترا ، وتعلم أن يحتفى بالآداب الكلاسية ، وباللاتينية منها على وجه خاص ، وتحول عن التأثير الفرنسى الذى صاغ قصائده الأولى ، إلى الإيطالى فى الأفكار ، وقوالب النظم والموضوعات . حتى إذا عاد إلى موطنه ، وإلى مشاهده وشخصياته ، كان قد أصبح فناناً بارعاً ، ومفكراً ناضجاً .

وما من امرئ فى انجلترا وقت ذاك استطاع أن يكسب عيشه من القريض ، ونحن نعتقد أن معاش تشوسر قد يسر له السكن والغذاء والكساء ، ذلك أن مجموع ما حصل عليه بعد عام ١٣٧٨ ، كان قريباً من عشرة آلاف دولار بالحساب النقدى فى أيامنا ، يضاف إلى ذلك المعاش الذى كانت تحصل عليه زوجته من جون اوف جونت ومن الملك . ومهما يكن من شىء فقد أحس تشوسر الحاجة إلى استكمال دخله بالتعين فى مناصب حكومية

مختلفة . فعمل اثنتى عشرة سنه (من عام ١٣٧٤ — ١٣٨٦) « مراقباً للجمارك والمكوس » واتخذ له فى هذه الفترة مسكناً فى قلعة « الدجيت » ودفع فى عام ١٣٨٠ ، مبلغاً لم يذكر مقداره إلى سيسيليا تشومبين لتتنازل عن ادعائها بأنه اغتصبها . وعين بعد ذلك بخمسة أعوام قاضى الصلح لمقاطعة كنت ، وفى عام ١٣٨٦ سعى حتى انتخب فى البرلمان . وكان يقرض شعره فى فترات الراحة من العمل . ووصف نفسه فى قصيدته « دار الشهرة » بأنه يعود متعجلا إلى بيته « بعد أن يسدد ما عليه ، وينسى نفسه فى كتبه ، ويجلس جامداً كالصخر ، ويعيش كالناسك فى كل شىء إلا الفقر والعفة والطاعة ، ويقف ملكاته على تقفية كتبه وأغانيه وأناشيده » . ويخبرنا بأنه نظم فى شبابه «كثيراً من الأغانى وقصائد التشبيب » . ولقد ترجم كتاب فينوس « عزاء الفلسفة » . فى نثر جيد ، وجزءاً من قصيدة جويوم دولوريس « قصة الورد » فى نظم بارع . وبدأ فيما يمكن أن يسمى المقطعات الشعرية الهامة « دار الشهرة » ، «كتاب الدوقة » ، « برلمان الدجاج » ، « اسطورة النساء الطيبات » ، ولقد سبق وأوضح لنا أنه لم يكن قادراً على إتمامها . وهذه القصائد جهود تنبئ عن طموح وان كانت تقليداً صريحاً للأصول الأوربية فى الموضوع والشكل جميعاً .

ودأب تشوسر على التقليد بل الترجمة فى أحسن قصائده المفردة وهى ترويلوس وكريسيد ، فاستعار من « الفلستراتو » لبوكاشيو ٢٧٣٠ بيتاً وأضاف ٥٦٩٦ بيتاً من مصدر آخر أوصاغها بنفسه . ولم يبذل محاولة ما ليخدع القارى عن هذه الحقيقة ، فهو يذكر مصدره مراراً ويعتذر عن عدم ترجمته بأسره . ويعد هذا التحول من أدب إلى آخر مقبولا ومفيداً فإن الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم لم يكونوا يستطيعون وقت ذاك أن يفهموا غير لهجتهم الخاصة . فموضوع القصة حق مشاع كما اعتقد مؤلفو التمثيليات من الإغريق والإنجليز فى عهد إليزابيث ، والفن إنما يتركز فى الشكل .

وتعد ترويلوس التى نظمها تشوسر على الرغم من جميع هذه النقائص ، أول قصيدة قصصية عظيمة فى اللغة الإنجليزية . ولقد وصفها سكوت بأنها « طويلة مملة » وأنها كذلك وقال روزيتى « لعلها أجمل قصيدة قصصية على شىء من الطول فى اللغة الإنجليزية » ، وهذا أيضاً صحيح . ذلك لأن القصائد الطويلة كلها مملة مهما كان جمالها ، فالعاطفة من مقومات الشعر فإذا استغرقت ٨٣٨٦ بيتاً ، فإنها تصبح نثراً بسرعة انطفاء الرغبة . ولن تحتاج أى سيدة إلى مثل هذه الأبيات الكثيرة لكى تنام ، وقلما تردد الحب وتأمل وماطل وأذعن بهذه البلاغة الفاخرة ، والأخيلة المطربة ، والقافية السهلة السلسة .. ولايضارع هذا النهر العظيم الفياض من النظم سوى ريتشارد سون فى نثره المتدفق كنهر المسيسبي فى تصوير الحب ، بأناة ، تصويراً نفسياً . ومع ذلك فإن الخطابية المجنحة فى سرف وصياغة الكلمات التى لاتحد وسعة المعرفة المعترضة لم تستطع أن تفسد القصيدة . فهى فوق هذا كله حكاية فلسفية تصور كيف خلقت المرأة للحب ، وسرعان ماتحب شخصاً ثانياً إذا طالت غيبة الأول عنها . وفيها شخصية واحدة رسمت وكأنها حية تسعى : بندارس الذى كان فى الألياذة قائد جيش ليشيا فى طرواده ولكنه يصبح هنا شخصية مفرطة داهية ديوثا جريئاً يقود العاشقين إلى الخطيئة وحسبنا هذه الكلمة تعليقاً عليه . أما ترويلوس فهو محارب مشغول بمدافعة اليونان ويحتقر الرجال الذين يتلكأون على الصدور اللينة ويصبحون عبيد الشهوة ، وهو يجن بكريسيد حباً من أول نظرة . ولم يفكر بعد ذلك إلا فى جمالها ودلالها ورقتها . وبعد أن انتظرت كريسيد فى شوق ، مدى ستة آلاف بيت من الشعر ، من هذا الجندى الحيى أن يصرح بحبه ، تقع بين ذراعيه ، وقد تنفست الصعداء آخر الأمر ، وسرعان ما ينسى ترويلوس عالمين فى وقت واحـــد .

مرت منه جميع الهموم الأخرى .

هموم الحصار وهموم خلاص الروح .

وما ان أجهد تشوسر نفسه فى الحصول على هذا الوجد ، حتى يتخطى مسرعاً نعيم العاشقين إلى المأساة التى تنقذ القصيدة من الإملال . فقد هجر والد كريسيد قومه إلى اليونان ، فأرسل الطرواديون وقد لاح عليهم الغضب كريسيد إلى هناك فى مقابل الأسير انتينور . وافترق العاشقان البائسان بعد أن قطعا على نفسيهما العهود بالوفاء إلى الأبد . ولما وصلت كريسيد إلى اليونان منحت إلى دياميدس ، الذى أوقع أسيرته فى شراكه برجولته ووسامته — فاستسلمت فى صحيفة واحدة من القصيدة وهو ماكان قد حشد قبل ذلك فى كتاب . وفطن ترويلوس إلى ذلك ، فبادر إلى الحر ب باحثاً عن دياميدس وإذا به يلقى مصرعه برمح اخيل . وختم تشوسر ملحمته الغرامية بابتهال إلى الثالوث المقدس ، بعث بها وقد أنبه ضميره « إلى جوور الأخلاقى لتصححها بسماحتك » .

وربما يكون قد بدأ « حكايات كانتبرى » عام ١٣٨٧ وكان مشروعاً رائعاً ، أن ينضم إلى جمع مختلف من البريطانيين فى حانة تابرد فى سوث وارك ، حيث تعاطى شوسر أقداحاً كثيرة من الجعة — ثم يركب معهم فى عطلة الحج إلى ضريح بكت فى كانتربرى ، ويضع على أفواههم الحكايات والأفكار التى جمعها الشاعر من رحلاته طوال نصف قرن . ولقد استعملت هذه الوسائل لجمع القصص بعضها إلى بعض ، قبل ذلك مراراً ، ولكن هذه الوسيلة أحسنها جميعاً .ولقد حشد بوكاشيو فى مجموعته « ديكاميرون » طبقة واحدة فقط من الرجال والنساء ، ولم يظهرهم شخصيات مختلفة ، أما تشوسر فخلق حانة زاخرة بالشخصيات ، بلغت حداً من الواقعية فى عدم التجانس ، حتى بدت أقرب إلى الحياة الإنجليزية من الأعلام التاريخية الجامدة ، إنهم يعيشون ويتحركون كما يتحرك الأحياء بالضبط ، إنهم يحبون ويكرهون ، ويضحكون ويبكون ، ونحن لا نسمع منهم وهم

يجوسون خلال الطريق الحكايات التى يقصونها فقط ، ولكننا نسمع متاعبهم ومشاجراتهم وفلسفاتهم .

ومن الذى يعترض على ذكر هذه الأبيات المخضلة بنضارة الربيع مرة أخرى ؟

عندما يحل ابريل بشآبيبه
تكون رياح مارس قد نفذت إلى الجذور ،
وغسلت كل كرم برحيق أغصانها ،
وتكون الزهرة هى الفضيلة التى أثمرت ،
وعندما ألهمت الريح القرية بأنفاسها الحلوة.
فى كل حقل وفى كل مرج ، أيضاً
النباتات الندية ، تكون الشمس الفتية
قد سارت نصف مدارها فى برج الحمل ،
فترسل بغاث الطير أنغامها ،
وهى التى أنفقت الليل بطوله مفتوحة الأعين ،..
ثم يذهب الناس المشوقون إلى الحج . . .
إلى الأضرحة البعيدة ، المعروفة فى بقاع شتى . .
وفى سوثورك فى تاباد حيث أقطن
أسعد لأقوم بالحج
إلى كانتربرى بعزم خالص كامل ،
وجاء إلى المنزل فى الليل .
تسعة وعشرون صحبة واحدة ،
من أناس مختلفين ، التقوا بالصدفة
وألفوا زمراً ، وهم جميعاً حجاج ،
يتجهون راكبين إلى كانتربرى

ثم يقدمهم تشوسر الواحد بعد الآخر فى رسومه الطريفة من استهلاله الذى لايضارع ،

وكان بينهم فارس ، وهو رجل محترم ،

وهو فى ذلك الزمان أول من بدأ

الخروج راكباً ، فقد كان يحب الفروسية ،

والصدق ، والشرف ، والحرية والتهذيب . .

وقد خاض المعارك الدامية ،

وحارب من أجل عقيدتنا فى ترامسين . . .

ومع أنه كان جديراً بالاحترام ، إلا أنه كان حكيما ، يشبه فى هيئته العذراء .

ولم يصدر عنه الخبث ولم يقله

فى كل حياته ، ولم يعرف عنه خلق فظ ؟

فلقد كان فارساً كاملا دقيقاً .

وابن الفارس :

. . . سيد شاب ،

عاشق ، وأعزب شهوانى . .

وقد توله فى عشقه ، حتى أنه فى كثير من الليالى .

لا ينام أكثر مما ينام العندليب .

وحارس يخدم الفارس والسيد ، وراهبة بارعة الجمال :

وكانت هناك أيضاً راهبة ، رئيسة راهبات ،

وفى بسمتها البساطة والخفر ،

وقسمها الأعظم هو بالقديس لويس ،

وكانت تدعى مدام اجلنتين .

تحسن ترتيل الصلاة ،

مفعمة بالغنى الكامل . . .
وكانت جد محسنة رحيمة
تجهش بالبكاء ، إذا رأت فأراً
وقع فى مصيدة ، فمات أو جرح
ولها جراء صغار ، تطعمها
باللحم المقلى أو اللبن وفتات الخبز ،
وتبكى بحرارة إن مات أحدها . .
وتلف معصمها بسوار من المرجان الصغير
وخرزتين مذهبتين ومزخرفتين باللون الأخضر .
ويتلألأ على صدرها دبوس من الذهب ،
منقوش على أوله حرف « ا » متوجا ،
وبعده عبارة « الحب ينتصر على الجميع » .
يضاف إلى هؤلاء راهبة أخرى ، وثلاثة قسس . وناسك مرح « يحب الصيد » ، وراهب لا يضارع فى إخراج الاكتتابات من حوافظ المتقين ،
ومع أنه كان أرملا لا ينتعل حذاءاً ،
إلا أنه كان رضياً فى مبادئه . يستطيع أن يحصل على فلس ، قبل أن يمضى
ويكلف تشوسر بطالب الفلسفة الشاب أكثر من غيره :
وكان بينهم أيضاً كاتب من اكسفورد ،
قطع فى دراسة المنطق مرحلة طويلة .
وجواده ضامر مثل الكلب الأعجف ،
لقد رأيته غير بدين .
يبدو نحيلا ، غاية فى التعقل .
تلفه سترة من الخيط ،

فلم يكن يحصل على صدقة من الكنيسة ،
ولم يكن خبيراً بشئون الدنيا ليحصل على وظيفة :
فوضع لنفسه على رأس السرير .
عشرين كتاباً مجلدة بالأسود أو الأحمر ،
عن أرسططاليس وفلسفته .
وهي عنده أفضل من الثياب النفيسة أو القيثارة الطروب . .
وبذل في دراسته فائق عنايته وغاية انتباهه . ولا يلفظ بكلمة لغو .
ولم يكن يسمع إلا متحدثاً عن الفضيلة الأخلاقية . وكان يسره أن يتعلم ،
وأن يعلم :

وهناك أيضاً « زوجة باث » وسنتحدث عنها بعد قليل ، وراعي كنيسة فقير « وهو غني بأفكاره وأعماله الدينية » وفلاح ، وطحان ، على أطراف أنفه . . . . . . وتقف دونها خصلة من شعر أحمر كالشعر الخشن على أذني خنزير ، وأحد زبائن حانة أوزميل ، أو ناظر ضيعة ، أو محضر محكمة :

كان وغدا رقيقاً حنوناً ،
ولا يجد الناس خيراً منه .
وهو يجاهد للحصول على ربع نبيذ ،
وقرينة حسنة تصبح له حظية
اثني عشر شهراً ، ثم تخليه وهي حامل
. . . ويركب معه بائع غفران طيب . .
وجعبته أمامه على حجره ،

تمتلئ إلى حافتها بصكوك غفران لا تزال كلها دافئة من روما ، وكان هناك تاجر ، ورجل قانون ، وصاحب أعمال ، ونجار ونساج ، وصباغ ، ومنجد وطباخ وبحار ، وكان هناك جيوفري تشوسر نفسه ، يقف جانباً في خجل ، بديناً من العسير احتضانه « ويفحص الأرض بنظراته كأنما

يفتش عن أرنب » ولم يكن مضيفنا أقلهم شأناً ، وهو صاحب حانة تابارد ، الذى يقسم أنه لم يرفه عن جماعة كبيرة العدد كهذه ، والواقع أنه عرض عليهم أن يذهب معهم وأن يكون دليلهم ، واقترح لكى يقضوا الرحلة الستة والخمسين ميلا ، أن يروى كل حاج قصتين فى الذهاب وأخريين فى الإياب ، وأن من يروى أحسن قصة ، سيتناول العشاء على حساب الجميع ، عندما يعودون إلى الحانة . اتفق الكل على ذلك ، واكتمل المشهد المتحرك لهذه الملهاة الإنسانية ، وبدأ الحج ، وروى الفارس المهذب الحكاية الأولى — كيف أن صديقين حميمين بلاجون وارسيت ، رأيا فتاة تجمع الأزهار فى بستان فوقع كلاهما فى حبها ، واختصما من أجلها فى مبارزة دامية . . . لتكون المكافأة السنية لمن ينتصر منهما .

ومن ذا يصدق أن قلبا رومانسياً كهذا ، يستطيع أن يتحول فى بيت واحد ، من إطناب الفروسية إلى الإفحاش فى قصة الطحان ؟ ولكن الطحان كان يحتسى الخمر وتوقع أن عقله ولسانه قد ينفلتان فى شراكهم المنصوب . ويعتذر تشوسر عنه وعن نفسه — فيجب عليه أن يسجل كل شىء بإخلاص — ويدعو القارئ المتعفف أن يتجاوزها إلى قصة أخرى « فإن هذا يخدش الحياء . . والأخلاق والدين » . وتبدأ حكاية رئيسة الراهبات بنبرة دينية حلوة ، ثم تردد الأسطورة الفاجعة التى تتحدث عن غلام مسيحى ، يقال أن يهودياً ذبحه ، وكيف أن محافظ المدينة قام بواجبه وقبض على يهودها وعذب عدداً منهم حتى ماتوا . وينتقل تشوسر من هذا الورع الدينى فى الاستهلاك ، إلى حكاية تاجر صكوك الغفران . . إلى سخرية لاذعة بباعة متجولين لصكوك الغفران ، وأصبح عمر هذا الموضوع قرناً من الزمان ، عندما أذاعه لوثر فى العالم ، ثم تحول فى الاستهلاك إلى حكاية زوجة باث ، وبلغ شاعرنا الحضيض فى أخلاقياته والذروة فى قوته . إنه احتجاج معربد على العذرية والعزوبة ، أجرى على لسان فاجر مدرب على شئون الزواج ،

لسان امرأة حصلت على خمسة أزواج ، مذ كانت فى الثانية عشرة من عمرها ، ودفنت أربعة منهم ، وتبحث عن السادس ليخفف من سورة شبابها .

لقد دعانا الله إلى أن ننمو ونتكاثر . .

ولم يذكر العدد الذى نبلغه ،

الزواج من اثنين أو ثمانية ،

فلماذا يتحدث المرء عنه بسوء ؟

يا عجبا . . هذا هو الملك الحكيم سيدنا سليمان ،

أحسب أنه اتخذ أكثر من زوجة ،

كما ترك الله الأمر لى

أن أجدد حياتى كالرجل أكثر من مرة . . .

وا أسفا وا أسفا أن يعد الحب خطيئة !

ولن نورد هنا اعترافاتها الفسيولوجية ، ولا ما يناظرها من اعتراف مذكور فى حكاية سمنور ، حيث يعكف تشوسر على دراسة تشريح البطن المنتفخ . ويصبح الجو مهيأ عندما نصل إلى جريزلدا المطيعة أبدا ، فى حكاية اكسفورد الكهنوتية ، ولم يستطع بوكاشيو أو بترارك أن يرويا هذه الخرافة التى حلم بها رجل ألح الضيق عليه بنفس الجودة التى رواها بها تشوسر .

ولم يعطنا تشوسر غير ثلاث وعشرين من الحكايات الثمانية والخمسين التى وعدنا بها فى المقدمة ، ولعله شعر مع القارى أن الخمسمائة صحيفة تكفى ، وأن نبع ابتكاره قد جف . بل إننا نجد فى هذا التيار المتدفق فقرات كدرة . تتجاوزها العين الناقدة . ومهما يكن من شىء فإن التيار البطىء العميق ، يحملنا على صفحته وينشر جواً من النضارة ، كان الشاعر قد عاش على طوال الشواطئ الخضراء ، لا عند بوابة لندن — ومع ذلك فليس نهر التاميز بعيداً عن العين . وتعد بعض الأناشيد من ناحية الجمال الخارجى تمرينات أدبية جامدة ، ومع ذلك فإن الصورة المتحركة تأتى حية بشعور وحديث

طبيعيين مباشرين ، وقلما توجد مثل هذه الملاحظة الكاشفة السريعة للناس والأخلاق بين دفتي كتاب واحد ، ولن يزودنا غير شكسبير بعد ذلك بمثل هذا الحشد من الصور والتشبيهات والمجازات (ويعتلى بائع صكوك الغفران المنبر ويومئ يميناً وشمالا بين الجمهور كحمامة على سقف مخزن للحبوب) ولقد أصبحت لهجة شرق مدلاند التى استعملها تشوسر ، لغة انجلترا الأدبية ، وكانت مفرداتها قد كثرت إلى الحد الذى يتيح لها التعبير عن جمال الفكر ومناهجه وهكذا صارت لغة الحديث عند الإنجليز للمرة الأولى وسيلة الفن الأدبى العظيم .

وكانت مادة أدبه ، كما هو الحال عند شكسبير ، مطروقة من قبل . ذلك أن تشوسر استعار قصصه من كل مكان . حكاية الليل من تيسيد لبوكاشيو ، وجريزلدا من مجموعة « ديكاميرون » ، وأكثر من عشر حكايات من الخرافات الفرنسية . ويفسر المعنى الأخير ما اتسم به تشوسر من فحش ، ومع ذلك ، فإن أنكر قصصه لا يعرف له مصدر غير شخصه . وليس من شك فى أنه كان يشارك كتاب المسرح فى عهد اليزابث ، فى الاعتقاد بأن الأشخاص الذين تدور القصة عليهم يجب أن يعطوا جرعة فاجرة بين حين وآخر لكى يظلوا أيقاظاً ، ولقد جعل تشوسر رجاله ونساءه يتكلمون كأنما يناظرون طبقتهم الاجتماعية وأسلوبهم فى الحياة ، وهو يكرر ، أنهم أكثروا من احتساء الجعة الرخيصة . ومرحه فى الغالب غير مريض من القلب ، تحفزه الشهوة ، لابد أن تكون ممتلئة حسنة الغذاء لقوم من الإنجليز قبل تزمت الطهريين ، ولقد مزج هذا المرح مزجاً بارعاً بكل مافى البديهة الإنجليزية الحديثة من حيلة ودهاء .

وكان تشوسر على علم بأخطاء البشر وذنوبهم ، وجرائمهم وحماقاتهم وغرورهم ، ولكنه أحب الحياة على الرغم من هذا كله ، وصبر على كل امرئ لا يسرف فى التبجح وقلما يفضح ، وحسبه أن يصف . وأن

يسخر من نساء الطبقة الوسطى الدنيا فى حكاية زوجة باث ، ولكنه أعجب بقوتها الحيوية العارمة . وكان قاسياً غير مهذب مع المرأة ، قد تكشف كلماته وانتقاداته اللاذعة عن الزوج الجريح المنتقم بقلمه عن حياء لسانه عن التعبير بالليل . وهو على الرغم من ذلك يتلطف فى الحديث عن الحب ، ولا يعرف نعمة أعظم منه ، ويملأ معرضاً كاملا بصور النساء الطيبات . ولايعترف بالفضل الذى يرتكز على الوراثة ، ويرى « ان الفاضل إنما هو الذى يقوم بعمل فاضل » بيد أنه لا يثق فى تردد العامة ، والمغفل عنده هو كل من يربط حظه بالشهرة أو يندمج مع الغوغاء .

وكان متحرراً إلى حد كبير من خرافات عصره . فعرض بأدعياء الكيماويين ، ومع أن الذين سردوا حكاياته ذكروا التنجيم ، إلا أن تشوسر نفسه قد استنكره . وكتب إلى ابنه رسالة عن الاسطرلاب ، أظهر فيها دراية حسنة بالمعارف الفلكية الشائعة . ولم يكن عالماً متبحراً ، وان كان شغوفاً بإظهار علمه ، فحشا صفحاته بفقرات من « بيوشيوس » بل إنه جعل زوجة باث تستشهد « بسينكا » . ويورد مشكلات فى الفلسفة وعلوم الدين ، ولكنه يهز كتفيه أمامها عجزاً ولعله شعر ، بما يشعر به الرجل العملى ، بأن الفيلسوف الفطن لايتوسل فى حياته اليومية بمعارفه عما وراء الطبيعة .

أكان مسيحياً مؤمناً ؟ لايوجد شيء يضارع غلظته وفظاظته فى هجائه للرهبان ، فى الاستهلال وفى تضاعيف حكاية « سومنور » ، ولكم صوب نفر من المؤمنين المحافظين للإخوان مثل هذه الطعنات . وهو يثير الريب هنا وهناك ، حول بعض العقائد الدينية الجامدة ، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من لوثر فى التوفيق بين العلم الإلهى السابق وبين إرادة الإنسان الحرة ، وهو يجعل ترويلوس يشرح النظرية الجبرية ، ولكنه يرفضها فى الاستهلال له . وهو يؤكد اعتقاده فى الجنة والنار ، ولكنه يعلق على ذلك فى شيء من الطول ، بأنهما غايتان لا يعود منهما مسافر يشهد على صدق وجودهما .

وكانت الشرور تقلق باله وبخاصة تلك التى لا تنسجم مع القدرة المطلقة على الخير . ويجعل « اركسيت » يتساءل عن العدل الإلهى بعبارات جريئة كعبارات عمر الخيام :

اوه أيتها الربة القاسية ، يا من تحكمين
هذه الدنيا برباط من كلمتك الخالدة ،
وكتبت فى لوح قد من صخر
كلامك وعظمتك الخالدة ،
وماذا تكون البشرية فى تقديرك
أكثر من خراف تزدحم فى حقل ؟
لأن الإنسان يحق عليه الذبح كغيره من الأنعام .
وهو يعيش أيضاً بين السجن والاعتقال ،
ويلم به المرض وتنزل عليه المصائب الكبار .
ولم يقترف ذنباً فى كثير من الأحيان ، يؤاخذ عليه .
وأى حكم فى العلم السابق ،
بأن الذنب يعذب البراءة ؟ . .
وعندما يموت الحيوان فإنه لا يحس بألم ،
ولكن الإنسان بعد أن يموت عليه أن يبكى ويشكو . . وأنا أترك الجواب عن هذا كله للآلهة .

وحاول تشوسر فى سنواته الأخيرة ، أن يعوض التقوى التى أفلتت منه فى شبابه . وألحق بحكايات كانتربرى ، التى لم تتم «صلاة تشوسر» ، يطلب فيها العفو من الله والناس عن مجونه وانشغاله بغرور الدنيا ، وأوصى « عندما تحين منيتى انتحبوا على ذنوبى ، واعملوا على انقاذ روحى » .

وتحول فى هذه السنوات الأخيرة من الاستمتاع بالحياة إلى كآبة امرئ ، يسترجع ، وقد اضمحلت صحته وحواسه ، ذكريات شهواته الطائشة

فى صباه . وفى عام ١٣٨١ عينه رتشارد الثانى « مسجلا لأعمالنا فى قصرنا بوستمنستر » وغيره من القصور الملكية . ويبدو أن صحته قد ساءت بعد ذلك بعشرة أعوام ، مع أنه كان قد تجاوز الخمسين بقليل ، ومهما يكن من شىء ، فقد أثبتت الأعباء التى نيطت به أنها فوق طاقته ، فصرف عن منصبه . ولم نجده بعد ذلك يشغل وظيفة ما . ونضبت موارده المالية . وهان قدره حتى طلب إلى الملك ستة شلنات وثمانى بنسات[٧٩] . وفى عام ١٣٩٤ منحه رتشارد الثانى معاشاً مقداره عشرون جنيهاً فى السنة مدى الحياة . ولم يكن هذا المعاش يكفيه ، فطلب إلى الملك أن يمنحه برميلا كبيراً من الخمور كل سنة ، فأجيب إلى سؤاله عام ١٣٨٩ . ولما حكم عليه بأن يسدد ديناً قدره أربعة عشر جنيهاً عجز عن الدفع [٨٠] . ومات فى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٤٠٠ ، ودفن فى وستمنستر أبى ، وهو أول وأعظم الشعراء الكثيرين الذين نهضوا بعد ذلك بنظم الكلام الموزون[*] .

٦ — رتشارد الثانى

« أقسم عليك بالله أن تدعنا نفترش الأرض ونروى القصص الفاجعة عن وفيات الملوك [٨١] .

يقول هولنشد « كان رتشارد الثانى حسن الهيئة والطوية والفطرة ، إذا لم يؤثر فيها لؤم الذين حوله وخبث سيرتهم . . كان متلافاً ، طموحاً ، مستسلما للذات الجسمية . ولقد أحب الكتب ، وأعان تشوسر وفرواسارت . وأبدى شجاعة وحضور بديهة ، وقام بأعمال حكيمة فى الثورة الكبيرة ، ولكنه بعد تلك الأزمة المنهكة ، تورط فى ترف منهك ، وترك دفة الحكم إلى وزراء مبددين ، فقامت فى وجه هولاء الرجال معارضة قوية ، يتزعمها توماس دوق جلوسستر ، ورتشارد ايرل اروندل وهنرى بولنجبروك ،

(*) قد لا يعود دفنه هناك ، إلى شعره ولكنه كان عند وفاته من مستأجرى عقار أبى .

حفيد ادوارد الثالث . وسيطر هذا الفريق على « برلمان لا يرحم » برلمان عام ١٣٨٨ ، الذى حكم بخيانة عشرة من رجال رتشارد وأعدمهم ، فجمع الملك عام ١٣٩٠ ، وكان لايزال شاباً فى الثالثة والعشرين ، أزمة الأمور فى يديه ، وحكم البلاد حكماً دستورياً مدى سبع سنوات — أو بعبارة أخرى ، حكم متمشياً مع القوانين ، والتقاليد ، ومنسجما مع نواب مختارين من الأمة .

وحرم بموت زوجته الملكة آن البوهيمية الموطن (١٣٩٤) ناصحاً معتدلا رشيداً وتزوج عام ١٣٩٦ إيزابل ، ابنة شارل السادس ، آملا أن يوطد من وراء ذلك السلام مع فرنسا ، وكانت لا تزال صبية فى السابعة من عمرها ، فأنفق الملك موارده على الحظايا والمقربين من الرجال والنساء وأحضرت الملكة الجديدة معها إلى لندن حاشية فرنسية . وجلب هؤلاء معهم أنماطاً فرنسية من الأخلاق وربما جلبوا أيضاً نظريات فرنسية عن الملكية المطلقة . ولما أرسل برلمان عام ١٣٩٧ إلى رتشارد قراراً بالشكوى من تبذير بلاطه ، أجاب متعاظما أن الحكم فى مثل هذه الأمور ليس من اختصاص البرلمان . وطلب اسم العضو الذى اقترح الشكوى ، فأذعن البرلمان وحكم على صاحب الاقتراح بالإعدام ، ولكن رتشارد عفى عنه .

وسرعان ما ترك جلوسستر واروندل لندن وظن الملك أنهما يتآمران على خلعه ، فأمر باعتقالها وشنق اروندل ، وقتل جلوسستر خنقاً (١٣٩٧) .

ومات جون أوف جونت عام ١٣٩٩ ، فخلف إقطاعاً عامراً ، فصادر رتشارد أملاكه لحاجته إلى تمويل حملة يوفدها إلى ايرلندا ، فذعرت الطبقة الأرستقراطية من هذا الصنيع . وانتهز ابن دوق جنت ، المنفى المجرد من ميراثه ، فرصة انشغال الملك بإعادة الأمن إلى نصابه فى ايرلنده ، ونزل إلى البر فى يورك على رأس جيش صغير ، سرعان ما زاد عدده ، بانضمام النبلاء الأقوياء له . ووجد رتشارد عند عودته إلى انجلترا قواته قد نقصت

إلى أقصى حد ، وأصدقاءه يفرون منه خائفين ، فسلم شخصه وملكه إلى بولنجبروك ، الذى توج على عرش انجلترا باسم هنرى الرابع (١٣٩٩) وهكذا انتهت الأسرة البلانتاجينية التى بدأت بالملك هنرى الثانى عام ١١ ، وبدأت الأسرة اللانكسترية التى تنتهى بالملك هنرى السادس عام ١٤٦١. ومات رتشارد الثانى سجيناً فى بونيتفراكت (١٤٠٠) ، بالغاً من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة ، وربما كان السبب فى موته أنه أصيب ، كما يذهب إلى ذلك هولنشد وشكسبير ، بنزلة برد فى سجنه ، ولعله قتل غيلة على يد أعوان الملك الجديد .

الفصل الرابع

فرنسا تحاضر

١٣٠٠ – ١٤٦١

١ – المشهد الفرنسى

لم تكن فرنسا عام ١٣٠٠ المملكة العظيمة التى تصل حدودها اليوم من القناة الإنجليزية إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن الفوج والألب إلى المحيط الأطلسى . كانت تصل شرقاً إلى نهر الرون فقط . ولقد ضمت فى الجنوب الغربى ، مساحة كبيرة – جوين وجا سكونيا – إلى التاج الإنجليزى بزواج هنرى الثانى من اليانور من أسرة اكويتين (١١٥٢) ، وفى الشمال أخذت انجلترا إقليم بونثيو ، ومعه ابيفيل ، ومع أن الملوك الإنجليز استولوا على هذه الأراضى باعتبارها إقطاعات ، تابعة للملوك الفرنسيين إلا أنهم فرضوا عليها سيادتهم الكاملة . أما بروفانس والدوفينية والكونتية الحرة فقد كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أباطرتها من الألمان فى العادة . ولقد حكم الملوك الفرنسيون حكماً غير مباشر ، عن طريق أقربائهم الإمارات ، فالوا وأنجو وبوربون وأنجوليم . وحكموا حكماً مباشراً الربوع الآتية باعتبارها التزاماً ملكياً ، وهى نورمانديا وبيكاردى وشامبانى ، وبواتو وأوفرن ومعظم لانجويدوك ، وجزيرة فرنسا – وهى « الجزيرة » التى على الجانب الشمالى من وسط فرنسا وتتركز حول باريس . وكانت أرتوا وبلوا ونيفير وليموج ، وأرمانياك ووفالنتينوا يحكمها سادة إقطاعيون يخضعون للملوك فرنسا خضوعاً اسمياً حيناً ويحاربونهم حيناً آخر . وكانت بريتانى وبرجنديا وفلاندرز إقطاعات فرنسية ، ولكنها كانت كما أسماها شكسبير « أقرب إلى الدوقيات الملكية » ، تتصرف كأنها دول مستقلة فى الواقع . ولم تكن فرنسا قد أصبحت فرنسا بعد .

وكانت أهم الإقطاعات الفرنسية وأكثرها تقلباً ، فى مستهل القرن الرابع عشر ، كونتية فلاندرز . ولم تنافس إيطاليا فى تقدمها الاقتصادى فى أوربا بأسرها شمالى جبال الألب ، سوى فلاندرز . وكانت حدودها تتذبذب فى غير انتظام فى الزمان وفى المكان ، وحسبنا أن نشير إليها ، بأنها الإقليم الذى يضم بروج وجنت وبيرز وكورتراى . وتوجد شرقى شيلد ، دوقية برابانت ، التى كانت تضم وقتذاك انتورب وميشلين (مالين) وبروكسل وتورناى ولوفين . وتقع جنوبى فلاندرز الأسقفيتان المستقلتان : لييجوكامبراى ، وكونتية هانو حول فالنسين . وتضم فلاندرز ومع التوسع برابانت ولييج وكامبراى وهانو . وتقع إلى الشمال سبع مقاطعات صغيرة ، تؤلف تقريباً هولندا كما نعرفها اليوم . ولم تستطع هذه الأقاليم الهولندية أن تبلغ أوجها حتى القرن السابع عشر ، عندما اتسعت إمبراطوريتها ، إذا صح التعبير ، من رمبرانت إلى بتافيا . وكانت فلاندر وبرابانت عام ١٣٠٠ قد خنقتهما الصناعة والتجارة وحرب الطبقات ووصلت قناة ، طولها اثناعشر ميلا بروجيس ببحر الشمال ، تمخرها مائة سفينة كل يوم ، تأتى بالتجارة من مائة ميناء فى ثلاث قارات ، ويعد اينياس سيلفيوس ، مدينة بروجيس ، واحدة من أجمل المدن الثلاث فى العالم . وألف صاغة بروجيس ، فرقة كاملة من حرس المدينة ، ونساجو جنت ، سبعة وعشرين فرقة من قواتها العسكرية ، التى بلغ مجموعها ١٨٩,٠٠٠ رجل .

وكانت المنظمة النقابية فى القرون الوسطى ، وهى التى منحت الصانع كرامة الحرية ، والاعتزاز بالحذق ، تفسح الطريق فى صناعات النسيج والمعادن فى فلاندرز وبرابانت لنظام رأسمالى(*) يمد فيه الممول رأس المال .

(*) نستطيع أن نعرف رأس المال على أنه السلع أو الأموال التى تستخدم فى إنتاج السلع للاستهلاك ونعرف الرأسمالى على أنه الذى يوظف رأس المال أو يقدمه ، والرأسمالية على أنها نظام اقتصادى أو علمية اقتصادية يسيطر عليها الرأسماليون .

والمواد والآلات إلى عمال المصانع الذين يأخذون أجرهم بالقطعة ، ولم تعد النقابة تحميهم وأصبح الالتحاق بالنقابة باهظاً ، وأصبح آلاف العمال رجال تراحيل — عمال اليومية — يتنقلون من بلد إلى آخر ، ومن مصنع إلى مصنع ، ولايجدون إلا عملا مؤقتاً ويحصلون على أجور تفرض عليهم العيش فى مساكن قذرة . ولاتسمح لهم إلا بالقليل من المتاع لايتجاوز الملابس التى يرتدونها . وظهرت أفكار شيوعية بين العمال والفلاحين ، وتساءل الفقراء ، لماذا فرض عليهم أن يعيشوا جائعين وصوامع النبلاء ورجال الدين تطفح بالغلال ؟ وحكم على جميع الذين لا يعملون بأيديهم بأنهم من الطفيليين . وشكا أصحاب الأعمال بدورهم ، من الخطر الذى يتهدد أموالهم ، ومن عدم الاستقرار فى الحصول على مواد الصناعة وموسميتها ، ومن تعرض شحناتهم للغرق ، وتذبذب الأسعار فى السوق ، ومن الحيل التى يلجأ إليها المتنافسون ، والإضراب المتكرر الذى يرفع الأجور والأسعار ، واضطربت العملة ، فقلت أرباح رجال الأعمال ، إلى حد العجز عن الوفاء بالديون . وناصر لويس دى نيفير أمير فلاندرز ، أصحاب الأعمال . فثار العامة فى بروجز وبيرز يؤيدهم الفلاحون المجاورون ، وخلعوا لويس ، ونهبوا الكنائس ، وذبحوا نفراً من أصحاب الملايين . فما كان من الكنيسة إلا أن أصدرت قراراً بحرمان المناطق الثائرة ، ومع ذلك فقد أرغم الثائرون القساوسة على ترتيل القداس ، وانتحل أحد الزعماء نشيداً يسبق ديدورو بأربعمائة وخمسين سنة ، يقسم بأنه لن يقنع حتى يشنق آخر قسيس . . واستغاث لويس بمولاه ، ملك فرنسا ، فجاء فيليب السادس ، وهزم القوات الثائرة فى كاسل (١٣٢٨) ، وشنق عمدة بروجز ، وأعاد المقاطعة ، وجعل فلاندرز تابعة لفرنسا .

وكانت فرنسا على وجه العموم أقل تصنيعاً بكثير من فلاندرز ، وبقيت أغلب صناعاتها فى مرحلة العمل اليدوى ، ولكن ليل ودوراى وكمبراى وأمين اقتبست صناعة النسيج من المدن الفلمنكية القريبة . وعوقت الطرق

السيئة والمكوث الإقطاعية التجارة الداخلية ، بيد أنها أفادت من القنوات والأنهار التي ألفت شبكة من الطرق الطبيعية الكبيرة عبر فرنسا . وكانت طبقة رجال الأعمال النامية ، المتحالفة مع الملوك ، قد وصلت عام ١٣٠٠ إلى مكانة رفيعة فى الدولة ، وإلى درجة من الثراء أذهلت الإقطاعيين ، والنبلاء الفقراء جميعاً . وحكمت قلة من التجار المدن ، وسيطرت على النقابات ، وأمضت فى تقييد الإنتاج والتجارة . وحدثت هنا ، كما حدث فى فلاندرز ، ثورة كادحين فى المدن .

فقد انتفض عام ١٣٠٠ فلاحون فقراء ، عرفوا فى التاريخ بالرعاة ، واصطخبوا فى المدن ، لما حدث عام ١٢٥١ ، وأخذوا يجمعون فى انتفاضتهم العمال الكادحين المتمردين . وساروا جنوباً ، يتزعمهم راهب ثائر ، وأغلبهم حفاة عزل من السلاح ، معلنين أن القدس غايتهم . ودفعهم الجوع إلى انتهاب الدكاكين والحقول ، ولما تعرضوا للمقاومة ، استطاعوا أن يحصلوا على الأسلحة ، ويؤلفوا جيشاً . حتى إذا بلغوا باريس حطموا أبواب السجن ، وهزموا قوات الملك . فحبس فيليب الرابع نفسه فى اللوفر ، وانسحب النبلاء إلى معاقلهم ، وجبن التجار فى دورهم . وواصل الحشد سيره ، وزاد عدد أفراده بانضمام المعدمين فى العاصمة إليهم ، حتى بلغوا أربعين ألفاً من الرجال والنساء ومن الأوباش والأتقياء . وذبحوا فى فردن وأوخ وتولوز جميع من وقع فى أيديهم من اليهود . ولما تجمعوا فى ايجوز مورت ، على البحر الأبيض المتوسط ، أحدق بهم عمدة كاركاسون بقواته ، وقطع عنهم المؤن ، ولبث كذلك حتى مات جميع الثوار من الجوع أو الوباء ، وبشنق القليلين الذين بقوا منهم :

وأى نوع من الحكومة ذلك الذى يترك فرنسا ، تحت رحمة الثروة الجشعة ، والفقر الذى لا يعبأ بقانون ؟ ولقد كانت حكومة فرنسا أقدر حكومة فى أوربا من نواح كثيرة : فإن ملوك القرن الثالث عشر الأقوياء ،

أخضعوا أمراء الإقطاع للدولة . وأنشأوا محكمة وإدارة قويتين ، بموظفين مدنيين مدربين ، واستدعوا للاجتماع فى مناسبات مجالس مقاطعات أو مجالس عامة وكانت فى الأصل تجمعاً عاماً لأصحاب المقاطعات ، ثم أصبحت مجلسا استشارياً يتألف من مندوبين عن النبلاء ورجال الدين ، والطبقة الوسطى . وأعجبت أوربا كلها بالبلاط الفرنسى ، حيث اختلط الأمراء والنبلاء والفرسان الأقوياء بالنساء ذوات الأردية الحريرية ، فى الحفلات الطريفة ، والمجون الرشيق ، والمبارزات الصاخبة فى برجاس لامع ، ببريق الفروسية ، ولقد وصف جون ملك بوهيميا باريس بأنها « أعظم مقر للفروسية فى العالم » وجاهر بأنه لا يستطيع أن يعيش خارجها . أما بترارك الذى زارها عام ١٣٣١ فكان وصفه إياها أقل خيالا : قال : « إن باريس مدينة عظيمة من غير شك ولو أنها دائماً أقل من شهرتها ، وتدين كثيراً لأكاذيب أهلها عنها ، والحق أننى لم أشهد مكاناً أقذر منها سوى افينيون . وتضم فى الوقت نفسه أعام الرجال ، وهى كالسلة العظيمة تجمع فيها ، أندر الثمرات فى العالم . ولقد مر على الفرنسيين حين من الدهر ، وصفوا فيه بأنهم برابرة لشراستهم . أما الآن ، فقد تغير الحال تماماً . فإنهم يمتازون بمزاج مرح ، وحب للمجتمعات ، وسهولة وتلاعب فى الحديث . . وهم ينتهزون كل فرصة لإظهار امتيازهم ، وشن الحرب على جميع الأعباء بالتندر والضحك ، والغناء والأكل والشراب » .

وخلف ، فيليب الرابع ، لابنه عام ١٣١٤ خزانة خاوية أوتكاد على الرغم من مصادرته التى تشبه القرصنة لأموال الداوية واليهود ، ومات لويس العاشر بعد حكم قصير (١٣١٦) ولم يخلف وريثاً للعرش ، وإنما خلف زوجة حاملا . وما هى إلا فترة حتى توج أخوه باسم فيليب الخامس . وظهر فريق منافس يطالب بالعرش لابنته لويس جان ، البالغة من العمر أربع سنوات ، ولكن مجلساً من النبلاء ورجال الدين أصدر عام ١٣١٦

قراره المشهور الخاص بتوارث العرش وهو « أن القوانين والعادات المرعية بين الفرنج تستبعد البنات من وراثة العرش » . ومات فيليب (١٣٢٢) بلا ولد يخلفه ، فطبقت القاعدة مرة أخرى لتحول بين ابنته وبين ولاية الملك ، ونودى بأخيه ملكاً باسم شارل الرابع . والراجح أن القرار استهدف أيضاً أن يستبعد عن وراثة العرش ايزابل شقيقة فيليب الرابع ، وهى التى تزوجت من إدوارد الثانى ملك انجلترا ، وأنجبت إدوارد الثالث عام ٣١٢ ، لأن الفرنسيين صمموا على ألا يحكم فرنسا ملك إنجليزى .

ومات شارل الرابع بلا خلف من الذكور (١٣٢٨) فانتهت بموته دولة الملوك من أسرة كابيتان وعرض إدوارد الثالث ، الذى اعتلى عرش انجلترا قبل ذلك بعام ،على مجلس النبلاء فى فرنسا، مطالبته بالعرش الفرنسى ، باعتباره حفيداً لفيليب الرابع ، وأقرب الأعقاب الأحياء لهيوكابت ، فرفض المجلس ، على أساس ان أم إدوارد لا تستطيع أن تنقل إليه تاجاً استبعدت هى نفسها عنه بقرار التوريث الذى صدر عامى ١٣١٦ ، ١٣٢٢ . وفضل البارونات عليه ابن أخ لفيليب الرابع ، وهو الكونت فالوا ،وبذلك يكون فيليب الرابع هو الذى بدأ أسرة فالو المالكة ، التى حكمت فرنسا ، إلى أن استهل هنرى الرابع أسرة البربون عام ١٥٨٩ . واعترض على هذا الاختيار ادوارد ، ولكنه جاء إلى « أمين » عام ١٣٢٩ ، وأعلن خضوعه وأقسم يمين الولاء لفيليب الرابع باعتباره مولاه الإقطاعى على جاسكونيا وجويين وبونثيو . ولما أنضجت إدوارد السنون ، وزاد دهاؤه ، ندم على خضوعه وحلم مرة أخرى بالجلوس على عرشين فى وقت واحد . وأكد له مستشاروه ، بأن فيليب الجديد مستضعف ، يدبر وشيكا للخروج فى حملة صليبية إلى الأراضى المقدسة . وظهر أن الوقت مناسب للبدء فى حرب المائة عام .

٢ — الطريق إلى كريسى

١٣٣٧ — ١٣٤٧

وطالب إدوارد عام ١٣٣٧ رسمياً من جديد بالعرش وكان رفض طلبه السبب المباشر للحرب . وأصبحت نورمانديا ، بعد فتحها انجلترا تابعة

للملوك الإنجليز ، مائة وثمانية وثلاثين عاماً ، وأعاد فيليب الثانى فتحها باسم فرنسا (١٢٠٤) ورأى كثير من النبلاء الإنجليز ، الذين انحدروا من أصل نورماندى ، فى الحرب المقبلة محاولة لاستعادة موطنهم الأصلى واقتطع فيليب الرابع وشارل الرابع جزءاً من مقاطعة جوين الإنجليزية التى كانت عامرة بالكروم ، وكانت تجارة النبيذ فى بوردو مورداً ثميناً لانجلترا حتى مات فى الدفاع عنها إلى حين عشرة آلاف إنجليزى . أما اسكتلندا فكانت شوكة فى جنب انجلترا ، وتحالف الفرنسيون مراراً معها فى حروبها مع انجلترا . وكان بحر الشمال عامراً بالسمك ، فادعى الأسطول الإنجليزى السيادة على هذه المياه فى القناة وخليج بسكاى واستولى على السفن الفرنسية التى سولت لنفسها أن تسخر من هذا الادعاء الأول بالسيادة الإنجليزية على البحار . وكانت فلاندرز منفذاً حيوياً للصوف البريطانى ، وأنف النبلاء الإنجليز الذين يجز الصوف من أغنامهم والتجار الذين يصدرون هذا الصوف ، أن تعتمد سوقهم الأساسية على النية الطيبة لملك فرنسا .

وأمر كونت فلاندرز عام ١٣٣٦ بحبس جميع البريطانيين هناك ، ويبدو أن فيليب السادس أيد هذا العمل وقاية من الدسائس الإنجليزية . فرد إدوارد الثالث على ذلك بأن أمر بالقبض على جميع الفلمنكيين فى انجلترا . وتحريم تصدير الصوف إلى فلاندرز وما هو إلا أسبوع حتى توقفت المغازل الفلمنكية لافتقارها إلى المادة الخام ، وتزاحم العمال فى الطرقات مطالبين بالعمل . واتحد العمال اليدويون والآليون فى جنت معلنين خروجهم عن طاعة الكونت ، وانتخبوا متآمرا دعيا هو جاكوب فان ارتفليد حاكماً على المدينة ، وأيدوا سياسته التى تنشد صداقة إنجلترا وصوفها (١٣٣٧) فألغى إدوارد الحظر ، وفر الكونت إلى باريس ، وأقر أهل فلاندرز جميعاً ديكتاتورية أرتفيلد ووافقوا على الانضمام إلى إنجلترا فى حربها مع فرنسا . وفى أول نوفمبر عام ١٣٣٧ سار إدوارد الثالث على تقاليد الفروسية

وأرسل إلى فيليب السادس إعلاناً رسمياً بأن انجلترا ستشرع فى الحرب بعد ثلاثة أيام .

وكان أول لقاء له أهميته فى حرب المائة سنة ، معركة بحرية فى سلويز بعيداً عن الساحل الفلمنكى (١٣٤٠) ، حطم فيها الأسطول الإنجليزى مائة واثنتين وأربعين سفينة من المائة والاثنتين والسبعين التى تؤلف الأسطول الفرنسى ثم تركت فى العام نفسه جان أميرة فالوا أخت فيليب وحماة إدوارد، ديرها فى فونتنل ، وألحت على الملك الفرنسى أن يوفدها رسول سلام . فتعرضت فى طريقها إلى معسكر القادة الإنجليزى لأخطار كثيرة، فوافقوها على عقد مؤتمر وأقنع توسطها البطولى الملكين بأن يعقدا هدنة لمدة تسعة أشهر. وساد السلام بفضل الجهود التى بذلها البابا كليمنت السادس إلى عام ١٣٤٦ .

ولكن حرب الطبقات احتلت المسرح فى فترة الصفاء هذه . وكان النساجون المنظمون فى جنت يؤلفون أرستقراطية العمل فى الأراضى الواطئة . ورفضوا الخضوع لأرتفيلد باعتباره طاغية قاسياً ، ومبدداً للأموال العامة ، وأداة طيعة فى يد إنجلترا والبورجوازية . واقترح أرتفيلد أن تنادى فلاندرز بأمير ويلز حاكماً عليها فجاء ادوارد الثالث إلى سلويز تأكيداً للاتفاق . حتى إذا رجع أرتفيلد من سلويز إلى جنت وجد داره محاطة بجمهور ساخط ودافع عن حياته مؤكداً أنه وطنى فلمنكى أصيل ، ولكنه سحل وضرب إلى أن فاضت روحه (١٣٤٥) . وأنشأ النساجون ديكتاتورية عمالية فى جنت ، وبعثوا مندوبين عنهم فى أنحاء فلاندرز يدعون العمال للثورة . فاشتبك القصارون مع النساجين وأجلوهم عن الحكم وقتل كثير منهم ، وضاق الشعب بالحكومة الجديدة وبسط لويس دى ميل ، وكان قد أصبح كونت فلاندرز ، سلطانه على جميع مدنها .

وما أن انتهت الهدنة ، حتى غزا إدوارد الثالث نورمانديا واجتاحها . وفى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٣٤٦ ، التقى الجيشان : الإنجليزى

والفرنسى ، وتأهبا للمعركة الفاصلة . واستمع القادة والرجال من الجانبين إلى القداس ، وأكلوا جسم المسيح(*) وشربوا دمه وطلبوا معونة فى إجهاز أحدهما على الآخر . ثم تحاربا فى شجاعة ووحشية بلا هوادة . واكتسب إدوارد ، الأمير الأسود ، فى ذلك اليوم ثناء والده المنتصر ، وصمد فليب السادس فى حومة الوغى ، حتى لم يبق من رجاله إلا ستة جنود . وهلك فى تلك المعركة الواحدة ، ثلاثون ألف رجل ، كما ذهب إلى ذلك فرواسار فى تقديره غير الدقيق . وأشرف الإقطاع على الموت هناك أيضاً : فوقف فرسان فرنسا الراكبون ، المسلحون فى رشاقة بالحراب القصار ، بلا حول ولاقوة ، أمام حائط من الرماح الإنجليزية الطوال المصوبة إلى صدور أفراسهم ، بينما نشر حملة القسى من الإنجليز عند الجناحين ، الموت بين الفرسان الفرنسيين . وكادت شمس الفروسية تأفل فى يوم الحصاد الطويل الذى تنفس فجره قبل ذلك فى ادريانوبل بتسعمائة وثمانى وستين سنة ،وجاءت المشاة إلى المقدمة ، وضعفت سيادة العسكرية الأرستقراطية . واستعملت المدفعية فى كرسى على نطاق ضيق ، وجعلتها صعوبة النقل وحاجتها إلى إعادة التعمير أكثر مشقة وأقل جدوى ،ولذلك قصر فلانى فائدتها على صخبها(**).

وقاد ادوارد جيشه من كريسى إلى حصار كاليه ، واستخدم المدفع فى تحطيم الأسوار (١٣٤٧) . وصمدت المدينة عاماً كاملا ، حتى ألحت المجاعة عليها ، فأذعنت لشرط ادوارد ، وهو أن يخرج الباقون على قيد الحياة بسلام ، إذا توجه ستة من أعيان المدينة إليه ، والحبال حول أعناقهم ، وفى أيديهم مفاتيح المدينة . وتطوع ستة منهم بالفعل ولما مثلوا أمام الملك ، أمر بشنقهم . فجثت ملكة انجلترا أمامه ، تتوسل الإبقاء على حياتهم ، فاستجاب لها ، وأرسلت الرجال مخفورين إلى دورهم بسلام . وللنساء

(*) كناية عن القربان .

(**) كانت المدفعية قد بلغت قرناً من الزمان ، ذلك لأن المدافعين البربر استعملوا المدافع فى سجلماسة عام ١٣٤٧

فى التاريخ فضل أعظم من الملوك وهن يخضن بشجاعة معركة يائسة لتحويل الرجال من جفوة التوحش إلى صقل الحضارة .

وهكذا أصبحت كاليه ، جزءاً من إنجلترا ، ولبثت إلى عام ١٥٥٨ ، منفذاً استراتيجياً لبضائعها وجيوشها على القارة . وثارت عام ١٣٤٨ ، فحاصرها ادوارد مرة أخرى وحارب بنفسه متنكراً فى المعمعة . واستطاع فارس فرنسى ، اسمه أوستاس دى ريبومونت ، أن يطعن إدوارد مرتين ، ولكنه غلب على أمره وأسر ، ولما استعاد إدوارد المدينة دعا أسراه النبلاء إلى الغذاء ، ووقف اللوردات الإنجليز وأمير ويلز على خدمتهم ، وقال ادوارد للفارس الذى طعنه ريبومونت « ياسير أوستاس ، إنك أشجع فارس رأيته فى العالم المسيحى يهاجم عدوه . . ولذلك فأنا أمنحك تقدير الشجاعة وأجعلك فوق جميع رجال بلاطى » . ونزع الملك الإنجليزى عن رأسه إكليلا نفيساً ووضعه على رأس الفارس الفرنسى ، قائلا :

« أيها السيد أوستاس ، إنى أهديك هذا الإكليل . . وأرجوك أن تضعه على رأسك هذا العام فى محبتى . وإنى لأعلم أنك مقبل على الحياة ، نزاع إلى الغزل ، مغرم بصحبة السيدات والآنسات ، ولذلك قل ، أينما ذهبت ، إنى أعطيتك إياه . وأنا أمنحك حريتك أيضاً بلا فدية ، ولك أن تذهب حيث شئت » .

وعاشت الفروسية هنا وهناك ، بين الجشع والقتل ، واقتربت وكادت أساطير أرثر تشبه التاريخ الحى على صفحات فرواسارت .

٣ — الموت الأسود وغيره

١٣٤٨ — ١٣٤٩

لقد كان الطاعون العظيم محايداً حين دهم إنجلترا العامرة بالغنائم الفرنسية وفرنسا التى أصابتها الهزيمة بالخراب . ووباء الطاعون حدث مألوف فى تاريخ العصور الوسطى ، فلقد أزعج أوربا اثنتين وثلاثين سنة من القرن

الرابع عشر ، وإحدى وأربعون سنة من الخامس عشر ، وثلاثين سنة من السادس عشر ، وهكذا تعاونت الطبيعة وجهل الإنسان ، هذان وهما عاملان ثابتان متوسيان من ناحية ، مع الحرب والمجاعة من ناحية أخرى ، على الحد منْ استغراق الإنسان فى النسل . وكان الموت الأسود شر هذه النوازل ، ولعله أنوح ملمة طبيعية تعرض لها الإنسان فى عصور التاريخ . ولقد وفد على برفانس وفرنسا من إيطاليا ، ولعله جاء مُباشرة من الشرق الأدنى بوساطة الجرذان الشرقية التى ترسى على مارسيليا . وذهبت رواية ، غير محققة فى ناربون ، إلى أن ثلاثين ألف شخص ماتوا فى هذا الوباء ، وفى باريس خمسين ألفاً وفى أوربا خمسة وعشرين مليوناً ، وربما كان المجموع « ربع سكان العالم المتحضر » وعجزت مهنة الطب أمامه ، فلم تكن تعلم سبب المرض (ولقد اكتشف كيتا زاتو ، برسن ، باسيليات الطاعون الدملى عام ١٨٩٤) ، وكل ما كانت توصى به هو ، المعضدات ، ومطهرات الجوف ، والمنعشات ، ونظافة المسكن والجسم ، والتبخير ببخار الخل(٧) . ورفض عدد قليل من الأطباء والقساوسة علاج المرضى ، خوفاً من العدوى ، ولكن أكثرهم واجهوا المحنة برجولة ، وضحى آلاف من الأطباء ورجال الدين بحياتهم . وكان على قيد الحياة ثمانية وعشرون كاردينالا عام ١٣٤٨ توفى منهم تسعة بعد ذلك بعام واحد ، ومن الثمانية والأربعين رئيساً للأساقفة ، مات خمسة وعشرون ، ومن الخمسة والسبعين والثلثمائة أسقف مات سبعة ومائتان .

وكان للوباء آثاره على جميع نواحى الحياة وطبيعى أن يموت الفقراء ، بنسبة أكبر من الأغنياء ، فأدى ذلك إلى نقص فى العمال ، وهجرت آلاف الأفدنة بلا فلاحة ، ونفقت ملايين الأنعام . واكتسب العمال قدرة جديدة على المساومة إلى حين ، فرفعوا أجورهم ، ونفضـــوا عن كواهلهم كثيراً

من الأعباء الإقطاعية ، وقاموا بثورات جعلت النبلاء ، لايستطيعون النيل منهم مدى نصف قرن ، بل أضرب القسس أنفسهم ، من أجل زيادة رواتبهم . وهجر عبيد الأرض ، المزارع إلى المدن ، واتسعت الصناعة ، وحصلت طبقة رجال الأعمال على مغانم جديدة من الأرستقراطية التي تملك الأرض . ونالت الصحة العامة قسطاً من الإصلاح المعتدل . وأضعفت شدة الألم والمأساة عقول الكثيرين ، فأدت إلى أمراض عصبية معدية ، ويبدو أن جماعات بأسرها قد جُنَّت مثل « الفلاجلان » الذين ساروا عام ١٣٤٩ ، كما فعلوا فى القرن الثالث عشر ، فى طرقات المدينة عراة أو يكادون ، يضربون أنفسهم فى ندم ، ويعظون بيوم الحساب ، والمدن الفاضلة ، ويدعون إلى ذبح اليهود . واستمع الناس بانتباه أكثر من المألوف إلى قراء الأفكار ، ومفسرى الأحلام ، والعرافين ، والدجالين وغيرهم من المشعوذين . وضعفت العقيدة الصحيحة وانتشرت الخرافة . وأرجع حدوث الطاعون إلى أسباب عجيبة . فنسبه بعضهم إلى اتصال فى غير أوانه بين زحل والمشترى والمريخ ، وآخرون إلى تسميم المجذومين أو اليهود للآبار . فقتل اليهود فى حوالى خمسين مدينة ، تمتد من بروكسل إلى برسلو بين عامى ١٣٤٨ — ١٣٤٩ ، وكاد يقضى على النظام الاجتماعى ، بموت آلاف من رجال الشرطة ، والقضاة وموظفى الحكومة ، والأساقفة والقسس . بل إن صناعة الحرب قد تعرضت للاضمحلال ، وتلكأت حرب المائة عام ، بين حصار كاليه ومعركة بواتييه (١٣٥٦) فى هدنة متراخية ، بينما عوض النقص الهائل فى صفوف المشاة ، برجال بلغ منهم الفقر مبلغاً ، جعلهم يرون الحياة تفضل الموت ببضعة شلنات !

وتأسى فيليب السادس ، عن الطاعون والهزيمة ، بالزواج ، وهو فى السادسة والخمسين ، من بلانش أميرة نافار ، البالغة من العمر ثمانى عشرة سنة ، وهى التى كان ينوى خطبتها لابنه . وتوفى بعد ذلك بسبعة

أشهر فقط . وكان هذا الابن ، جون الثانى « الطيب » (١٣٥٠ — ١٣٦٤) ، طيباً حتماً مع النبلاء ، أعفاهم من الضرائب ، ومنحهم الأموال ليصدوا الإنجليز عن أرضهم ، وأبقى على أشكال الفروسية ومزاياها جميعاً وخفض سعر العملة ، كوسيلة قديمة ، للوفاء بديون الحرب ، وزاد الضرائب مراراً ، على الطبقتين الدنيا والوسطى ، وسار فى أبهة ليلتقى بالإنجليز عند بواتييه . وهناك أبيد رجاله الخمسة عشر ألفاً من الفرسان والاسكتلنديين ، والحشم وذبحوا وأسروا ، على يد سبعة آلاف من رجال الأمير الأسود ، بل إن الملك جون نفسه ، الذى حارب بعنف ، وقاد جيشه بحماقة ، كان بين الأسرى هو وابنه فيليب ، وسبعة عشر ايرل ، وعدد لا يحصى من البارونات ، والفرسان ، والأعيان . وسمح لمعظمهم أن يفتدوا أنفسهم على الفور ، وأطلق سراح كثيرين ، بعد أن وعدوا بإحضار الفدية إلى بوردو فى عيد الميلاد وعامل الأمير الأسود الملك بما يليق بمقامه من إجلال ، واصطحبه على أكف الراحة إلى إنجلترا .

٤ — الثورة والتجديد
١٣٥٧ — ١٣٨٠

أصيبت فرنسا كلها بالفوضى بعد محنة بواتييه . وكان من نتائج عدم النزاهة والكفاءة فى الحكومة ، ونقص سعر العملة إلى حد كبير ، والمبالغ الباهظة التى دفعت فدية للملك والفرسان ، والخراب الذى جره الحرب والطاعون ، والضرائب غير المشجعة التى فرضت على الزراعة والصناعة والتجارة ، أن قامت الأمة بثورة يائسة . ودعا ولى العهد دوفان(*) وهو

(*) يبدو أنه كان فى أول الأمر اسم علم ، دلفينوس (دلفان) ، ولما تكرر فى أسماء الأسرة المالكة غالباً فى فينا وأوفرن أصبح (١٢٥٠) من ألقاب التشريف ، وخلع رسمياً عام ١٢٨٥ ، على الابن الأكبر لكونت فينا ، ومن ثم استعمل دلفيناتوس أودوفينيه للدلالة على الكونتيته التى تتخذ جرينوبل الآن مقراً أساسياً وفى عام ١٣٤٩ باع الكونت همبولت الثانى صاحب فينوا ، الدوفينية بلقبها دوفان إلى شارل صاحب فالوا ، ابن الملك جون الثانى . ولما أصبح شارل ملكاً عام ١٣٦٤ ، نقل اللقب إلى ابنه الأكبر ، وعرف منذ ذلك الابن الأكبر للملك الفرنسى بدوفان فينوا .

شارل صاحب فالوا البالغ من العمر تسع عشرة سنة ، مجلس الطبقات للولايات الشمالية إلى الانعقاد فى باريس . وذلك ليفرض ضرائب جديدة ، فأخذ على عاتقه أن ينشئ حكومة برلمانية فى فرنسا . وكان لباريس وغيرها من المدن برلمانات منذ عهد طويل ، ولكنها كانت جماعات صغيرة معينة ، معظمها من رجال القضاء عادة ، ومهمتها محصورة فى الاستشارة القانونية للحاكم المحلى أوالملك ، وتسجيل مراسيمه باعتبارها جزءاً من القانون الفرنسى . واستجوب هذا المجلس ، الذى سيطر عليه تحالف موقت بين رجال الدين والبورجوازية ، مجلس البلاط ، لماذا أدت المبالغ الكبيرة التى جمعت للحروب ، إلى وجود فرق غير منظمة وهزيمة منكرة ، وأمر باعتقال اثنين وعشرين من عملاء الحكومة ، كما أمر مديرى الخزانة أن يعيدوا المبالغ التى اتهموا باختلاسها . وفرض قيوداً على امتيازات التاج ، بل إنه فكر فى خلع جون الطيب ، وإبعاد أبنائه عن ولاية العهد ، وإسناد عرش فرنسا لى الملك شارل السيئ صاحب نافار ، وهو من أعقاب هيوكابت . بيد أن المجلس تأثر من خضوع ولى العهد وحكمته ، ونادى به نائباً للملك ، وأجمعوا رأيهم على إعطائه نفقات ، ثلاثين ألف رجل مدججين بالسلاح ، ولكن المجلس طالبه فى الوقت نفسه أن يطرد الموظفين الفاسدين أو الجهلاء ، وحذره من العبث بسعر العملة ، وعين لجنة من ستة وثلاثين رجلا للرقابة على أعمال الحكومة ونفقاتها . وأدان القضاة لإسرافهم على حاشيتهم ، وتراخيهم فى العمل ، فقد كان تقويمهم القضائى متأخراً عشرين سنة ، وفرض عليهم أن يفتتحوا جلساتهم عند شروق الشمس ، فى نفس الوقت الذى يبادر فيه المواطنون الأمناء بالذهاب إلى محال أعمالهم ، أو حقولهم . وهذا « القانون العظيم » الذى صدر عام ١٣٥٧ ، حرم على النبلاء أيضاً مغادرة فرنسا ، أوشن حرب خاصة بهم ، ووجه تعليماته إلى السلطات المحلية للمدن ، أن تعتقل كل نبيل ، يخرج على هذا المرسوم . وتصبح

الأرستقراطية بتنفيذه خاضعة للعامة ، والنبلاء لطبقة رجال الأعمال وعلى الملك والأمير والبارون أن يطيعوا المندوبين الذين اختارهم الشعب . وكأنه قد قدر لفرنسا أن تحصل على حكومة دستورية ، قبل الثورة بأربعة قرون .

ووقع ولى العهد هـــذا القانون فى شهر مارس ولكنه بدأ يتملص منه فى أبريل . وطالب الإنجليز بفدية عن أبيه ، يؤدى الوفاء بها إلى الخراب ، وتوعدوا بالتقدم إلى باريس . وتباطأ الناس فى دفع الضرائب ، متذرعين بالقاعدة الجديدة التى تقول أنه لا يفرضها غير مجلس الطبقات . وألحت الحاجة الماسة إلى المبادرة بالدفع ، ودعا شارل هذا المجلس إلى الاجتماع ثانية فى أول فبراير عام ١٣٥٨ ، وأنقص فى الوقت نفسه سعر العملة ليزيد مورده . وكان لاتين مارسل ، التاجر الغنى ، شأن عظيم فى الثانى من فبراير إذ أسهم بنصيب كبير ، باعتباره رئيساً لنقابة التجار فى صياغة « القانون العظيم » وأتيح له أن يحكم باريس لمدة سنة ، فقاد فرقة مسلحة من المواطنين — يرتدون جميعاً قبعات بلونى المدينة الرسميين ، الأزرق والأحمر — إلى القصر الملكى وأنب شارل على عدم طاعته لأوامر « القانون العظيم » ولما لم يعلن الأمير طاعته ، دفع مارسيل رجاله ، فقتلوا اثنين من الحجاب اللذين كانا يحرسان ولى العهد ، حتى انتثرت دماؤهما على الرداء الملكى .

وأخذ مجلس الطبقات يثير الفزع بهذا العنف الجرىء ، ومهما يكن من شىء فقد سبق الثورة الفرنسية بأن سن قانوناً (مايو عام ١٣٥٨) يحصر مهمة التشريع لفرنسا فى هذا المجلس ، ويفرض على الملك ألا يتصرف فى الأمور الهامة إلا بموافقة الولايات ، ففر عدد كبير من النبلاء ورجال الدين من فرنسا ، وترك كثيرون من الموظفين الإداريين مناصبهم خوفاً على حياتهم . فما كان من مارسيل إلا أن عين مكانهم جماعة من الأهالى ؛ وحاول تجار باريس أن يحكموا فرنسا فترة من الزمان . والتجأ ولى العهد مع النبلاء إلى بيكاردى ، وألف جيشاً ، ونادى أهل باريس ، أن يسلموا

إليه زعماء الثورة ، وأعد مارسيل العاصمة للدفاع ، وأحاطها بأسوار جديدة ، واحتل اللوفر ، وكان وقتذاك مقر الملك ورمزه .

وفى الوقت الذى احتلت فيه الثورة مدينة باريس ، رأى الفلاحون فى الريف ، أن الفرصة مواتية ، للثأر من سادتهم . وكان معظمهم عبيد أرض ، تفرض عليهم الضرائب لينعم سادتهم بأسباب الترف ولدفع الفدية عنهم ، وينتهبهم الجند وقطاع الطريق ، ويعذبون ليكشفوا عن مدخراتهم . ولما أهلك الطاعون عدداً عظيما منهم ، وعرضتهم الحروب للمجاعة ، ثاروا فى عنف لا حد له ، وشقوا طريقهم فى قلاع الإقطاع ، ودقوا أعناق النبلاء التى وصلت إليها خناجرهم ، ووجدوا الخلاص من جوعهم وظمئهم فى مخازنهم وأقبيتهم . وكان النبلاء يطلقون على مثال الفلاح الطيب اللقب التقليدى « جاك المغفل » ، ونفذ صبر آلاف من هؤلاء ، فاندفعوا فى أعمال وحشية ، وذبحوا سادتهم ، واغتصبوا السيدات ، وقتلوا الذرارى ، وألبسوا زوجاتهم حلى اللائى توفين .

وأرسل مارسيل ثمانمائة من رجاله لمعاونة الفلاحين أملا أن تصرف هذه الثورة الريفية ولى العهد عن مهاجمة باريس . واشتد ساعدهم ، وساروا إلى ميوكس التى التجأ إليها أميرات أورليان ونورمانديا ، وكثيرات من سيدات الطبقة الراقية ، فشاهدن حشداً من عبيد الأرض والمستأجرين يتدفق على المدينة ، واستسلمن ، معتقدات أنهن فقدن الشرف والحياة . وإذا بفرقة من الفرسان كأنها المعجزة فى بعض أساطير أرثر ، تدخل ميوكس عائدة من الحروب الصليبية وتباغت الفلاحين ، وتحصد آلافاً منهم ، وتلقى بهم أكواماً فى الجداول المجاورة فخرج النبلاء من مخابئهم ، وفرضوا الغرامات على القرى عقاباً لها . وساروا فى أنحاء الريف ، وأعملوا القتل فى عشرين ألف فلاح ، ولم يفرقوا بين ثائر وبرىء (يونيه ١٣٥٨) .

واقتربت قوات ولى العهد من باريس ، وقطعت عنها المؤن ، ويئس

مارسيل من المقاومة بجميع الوسائل ، فأهدى التاج إلى شارل السيئ ، ومهد لرجاله دخول المدينة وأنكر جان ما يلادن ، صديق مارسيل ويده اليمنى ، هذا الصنيع وعده خيانة ، فعقد اتفاقاً سرياً مع ولى العهد ، وفى الواحد والثلاثين من شهر يولية قتل جان وآخرون مارسيل بضربة فأس . فدخل ولى العهد باريس على رأس النبلاء المسلحين . وكان معقولا حذراً فى تصرفه وعكف على افتداء أبيه ، واستعادة الروح المعنوية ، والحياة الاقتصادية لفرنسا ، وانسحب الرجال الذين حاولوا أن يخلقوا سيادة برلمانية ، فى صمت وغموض . والتف النبلاء المعترفون بالجميل حول العرش ، وأصبح مجلس الطبقات أداة طيعة فى يد ملكية زادت شوكتها .

وفى نوفمبر عام ١٣٥٩ نزل إدوارد الثالث إلى البر بجيش جديد فى كاليه . وتنكب باريس ، مقدراً الأسوار الجديدة التى شيدها مارسيل ، ولكنه أخضع الريف المحيط بها من ريمز إلى شارترز بإبادة المحاصيل ، حتى اجتاحت المجاعة باريس مرة أخرى . وطلب شارل الصلح بشروط مهينة . فعلى فرنسا أن تسلم جاسكونيا وجوين إلى انجلترا بريئة من كل التزام إقطاعى عليها لملك فرنسا ، وأن تتنازل أيضاً عن بواتو وبريجور وكويرسى وسانتونج وورورج وكاليه وبونثيو وأونيس وإنجوموا وأجنوا وليموزين وبيجور وأن تدفع ، ثلاثة مليون كراون ، ليعود مليكها . وفى مقابل ذلك يتنازل ادوارد ، وجميع أعقابه ، عن كل ادعاء فى عرش فرنسا ، ووقعت معاهدة بريتانى هذه فى الثامن من مايو عام ١٣٦٠ ، وهكذا ابتلى ثلث فرنسا بالحكم البريطانى ، واستشاط منه غضبا . وأرسل اثنان من أبناء الملك جون وهما — دوق انجو و دوق برى — إلى انجلترا ، رهينتين على إخلاص فرنسا للمعاهدة . وعاد جون إلى باريس ، وسط قرع الأجراس ، وابتهاج النبلاء والدهماء ؛ ولما خرج الدوق انجو على كلمة الشرف ، وفر للحاق بزوجته ، عاد الملك جون إلى إنجلترا بنفسه ، ليكون رهينة فى مكان ابنه ، مناشداً الدخول

فى مفاوضات من أجل صلح أخف وطأة . فاستقبله ادوارد على أنه ضيف لا أسير ، وكرمه كل يوم على أنه زهرة من زهرات الفروسية . ومات جون فى لندن عام ١٣٦٤ ، ودفن فى كنيسة سانت بول ، أسيراً فى موته . وأصبح ولى العهد البالغ من العمر ستة وعشرين سنة ملكاً على فرنسا باسم شارل الخامس .

واستحق لقلب « الحكيم » ، الذى أسبغه شعبه عليه ، لهذا السبب وحده ، وهو أنه عرف كيف ينتصر فى المعارك ، دون أن يحرك يداً . فلقد كانت يده اليمنى ، متضخمة دائماً ، وذراعه مترهلة ، ولم يكن يستطيع أن يرفع حربة ، وقيل أن شارل السيئ دس له السم . وإذا كان قد فرض عليه أن يعيش مقيداً ، فقد أحاط نفسه بمستشارين حكماء . فأعاد تنظيم كل إدارة ، وأصلح الجهاز القضائى ، وأعاد تكوين الجيش ، وشجع الصناعة ، وثبت سعر العملة ، وأيد الأدب والفن ، وجمع فى اللوفر المكتبة الملكية ، التى زودت النهضة الفرنسية بالنصوص القديمة والترجمات ، وكانت نواة المكتبة القومية . وسلم للنبلاء الحق فى استعادة المكوس الاقطاعية ، ولكنه تخطاهم وعين — قائداً عاماً للجيوش الفرنسية — رجلا بريتانيا اسمه برتراند دى جويسكلين . وهو رجل أسمر ، أفطس الأنف ، غليظ العنق ، ضخم الرأس . ولقد ساعد الاعتقاد ، فى تفوق هذا « النسر البريتانى » على جميع القادة الإنجليز ، على تصميم الملك ، استرداد فرنسا من الحكم الإنجليزى . فأرسل عام ١٣٦٩ ، إلى ادوارد الثالث إعلاناً رسمياً بالحرب .

وكان رد الأمير الأسود ، أن أخضع ليموج ، وأعمل السيف فى ثلاثة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، وهذا هو مذهبه فى التربية السياسية : وثبت أنه لم يكن موفقاً فقد تحصنت كل مدينة فى طريقه ، وتزودت بالجند ، واختزنت المؤن للمقاومة الناجحة ، واضطر الأمير إلى أن يقنع ، بتخريب الريف ، وإحراق المحاصيل ، واقتلاع منازل الفلاحين الخاوية ،

ولم يشأ دى جويسكلان أن يخوض معركة ، ولكنه ناوش مؤخرة الأمير ، وأسر العلافين ، وانتظر أن تشرف القوات الإنجليزية على الموت جوعاً . وحدث ما توقعه فانسحبت ، وتقدم دى جويسكلان ، وأخذت الولايات تعلن تخلصها الواحدة بعد الأخرى من التبعية ، وبعد عامين من القيادة الممتازة ، والولاء المشترك بين القائد والملك ، طرد الإنجليز من فرنسا بأسرها باستثناء بوردو وبرست وشربر ، وكاليه ، وبلغت فرنسا لأول مرة جبال البرانس . ومات الملك وقائده فى العام نفسه (١٣٨٠) فى ذروة النصر .

٥ - الملك المجنون

١٣٨٠ - ١٤٢٢

الملكية الوراثية تشبه لعبة الميسر ، تضع المغفل المحبوب ، فى مكان الحاكم القدير ، فلقد كان شارل السادس فى الثانية عشرة من عمره عندما توفى أبوه ، فعمل أعمامه أوصياء على الملك حتى بلغ العشرين ، وسمحوا له أن ينغمس فى مجون لا يعرف المسئولية ، فى الوقت الذى سار فيه نصف أوربا ، إلى حافة الثورة . وكان صناع بروجس وعلى رؤوسهم قبعات زرقاء ، قد اقتلعوا عام ١٣٥٩ دار البلدية التاريخية فى ثورة جامحة . وفى عام ١٣٦٦ ثارت الطبقات الدنيا فى بيرس ، معلنة الحرب المقدسة على الأغنياء . وفى عام ١٣٧٨ أنشأ الكيومبى فى فلورنسا ، ديكتاتورية الكادحين . وفى عام ١٣٧٩ بدأ الفلاحون الجائعون فى لانجدوك - جنوبى فرنسا - حرب عصابات ، استمرت ست سنوات ، ضد النبلاء ورجال الدين ، تحت لواء قائد أمرهم قائلا « اقتلوا جميع أصحاب الأيدى الناعمة » وثار العمال فى ستراسبورج عام ١٣٨٠ ، وفى لندن عام ١٣٨١ ، وفى كلونيا عام ١٣٩٦ . وقامت فى جنت ، حكومة ثورية من عام ١٣٧٩ إلى عام ١٣٨٢ . وتوجت ثورة من عمال مدينة روين ، بزازا قوياً وقتل الشعب فى باريس ، جباة الضرائب التابعين للملك بمطارق من الرصاص (١٣٨٢) :

وأمسك شارل السادس بأزمة الحكم فى يديه عام ١٣٨٨ ، وحكم أربع سنوات ، حكماً صالحاً ، فاستحق بذلك لقب « المحبوب» ولكنه جن فى عام ١٣٩٢ . فلم يعد يعرف زوجته ، وطلب إلى المرأة الغريبة عنه . أن تمسك عن توسلاتها . وسرعان ما انفض جميع الناس من حوله ولم يكترث به سوى أحط الخدم . ولبث خمسة أشهر لا يبدل ثيابه ، ولما رؤى أخيراً أن يغتسل احتاج الأمر إلى اثنى عشر رجلا للتغلب على مقاومته ، ولبس تاج فرنسا ثلاثين سنة ، أبله يرثى له ، بينما تأهب ملك إنجليزى شاب شهم لغزو فرنسا من جديد .

ولقد أبحر هنرى الخامس من إنجلترا فى الحادى من أغسطس عام ١٤١٥ ، فى ألف وثلاثمائة سفينة ، وإحدى عشر ألف رجل . فوضعوا مراسيهم فى الرابع عشر بالقرب من هارفلير ، عند مصب نهر السين . وقاومت هارفلير ببسالة ، ولكن بلا جدوى . وسار الإنجليز ، تغمرهم العزة النصر ، ويسرع بهم داء الزرب إلى كاليه. والتقى بهم فرسان فرنسا فى اجنكورت ، بجوار كريسى (٢٥ أكتوبر) . وكأنما لم يتعلم الفرنسيون شيئاً من معركتى كريسى ، وبواتييه ، إذ ظلوا يعتمدون على الفرسان . ولم تستطع أكثر أفراسهم الحركة بسبب الأوحال ، أما الذين استطاعوا التقدم ، فقد واجهوا الأوتاد المسننة ، التى غرسها الإنجليز ، على زاوية من الأرض ، حول حملة القسى . فارتدت الخيل المتحيرة ، وحملت على جيشها ، ونزل الإنجليز على هذا الحشد المضطرب ، بالقضبان والفؤوس ، والسيوف ، وقادهم مليكهم هال ، ببسالة ، وتوترشديد من الخوف ، وكان انتصارهم مذهلا . ويقدر المؤرخون الفرنسيون ، خسائر الإنجليز بألف وستمائة رجل ، وخسائر الفرنسيين بعشرة آلاف رجل .

وعاد هنرى إلى فرنسا عام ١٤١٧ ، وحاصر روين . وأكل المواطنون ما ادخروه من طعام ، ثم التهموا جيادهم ، وكلابهم وقططهم . وألقى بالنساء

والأطفال والطاعنين فى السن ، خارج أسوار المدينة ، توفيراً للطعام ، فبحثوا عن معبر فى خطوط الإنجليز ، فلم يسمح لهم بالمرور ، وظلوا كذلك بلا طعام ولا مأوى بين أقربائهم وأعدائهم ، فهلكوا جوعاً ، ومات خمسون ألف فرنسى من الجوع ، فى هذا الحصار الذى لم يرحم . ولما استسلمت المدينة ، كبح هنرى جماح جيشه من تقتيل الذين بقوا على قيد الحياة ، ولكنه فرض عليهم غرامة مقدارها ثلثمائة ألف كراون ، ووضعهم فى السجن حتى يتسلم حصيلة المبلغ وفى عام ١٤١٩ ، تقدم نحو باريس التى لم يبق فيها سوى ، الفساد ، والانحلال ، والتوحش ، وحرب الطبقات . وتجاوز الإذلال ما حدث عام ١٣٦٠ فقد سلمت فرنسا ، بمقتضى معاهدة ترويس (١٤٢٠) ، كل شىء حتى الشرف . وقدم شارل السادس ابنته كاترين ، زوجة لهنرى الخامس ، وتعهد بأن يورثه العرش الفرنسى ، ونقل إليه قيادة فرنسا ، ولإزالة كل التباس لم يقر ببنوة ولى العهد . ولم تدافع الملكة ايزابيل عن هذا الاتهام بالفسق فى مقابل أربعة وعشرين ألف فرنك كل سنة ، والواقع أنه لم يكن من السهل على المرأة فى البلاط الملكى ، لذلك الزمان ، أن تعرف من هو والد ابنها على التحقيق . وأنكر ولى العهد المعاهدة ، وكان يبسط نفوذه على جنوب فرنسا ، ونظم فرق جاسكونيا وأرمانياك لمواصلة الحرب. بيد أن ملك انجلترا أخذ بحكم من الاوفر .

وبعد سنتين مات هنرى الخامس بداء الزرب (الدوسنطاريا) ، فإن الميكروبات لم توقع المعاهدة ، ولما لحق به شارل السادس (١٤٢٢) توج هنرى السادس ملك انجلترا على فرنسا ، وكان دون السنة الأولى من عمره ، فحكم دوق بدفورد وصياً عليه . وكان قاسياً فى حكمه ، ولكنه عادل مثل كل إنجليزى ، يقدر له أن يحكم فرنسا . فأمن السفر بأن شنق عشرة آلاف رجل من قطاع الطريق فى سنة واحدة ، وأخذ يراقب منذ ذاك أحوال البلاد . وعاث الجنود المسرحون فى الطرق الرئيسية فسادا ، وأفزعوا حتى

المدن الكبيرة مثل باريس ، وديجون . واكتسحت الحرب ، نورمانديا بالخراب ، من الأمام ومن الخلف، كتيار قاتل خبيث ، بل هلك ثلث سكان لا نجدوك ، وهى تعد أحسن حظاً ، وهرب الفلاحون إلى المدن ، واعتصموا بالكهوف ، أو تحصنوا فى الكنائس، كلما اقتربت الجيوش أو أحزاب الإقطاع أو عصابات اللصوص . ولم يعد الكثيرون من الفلاحين إلى ممتلكاتهم المضطربة وإنما عاشوا بالتكفف والسرقة ، أو هلكوا من الجوع أو الطاعون . وأقفرت الكنائس ، والمزارع ومدن بأسرها وتركت للبلى . وقد كان فى باريس وحدها عام ١٤٢٢ ، أربعة وعشرون ألف بيت مقفر ؛ وثمانون ألف متسول من مجموع السكان الذين يبلغ عددهم ثلثمائة ألف نسمة . وأكل الناس لحم الكلاب وامعاءها . وملأت الطرقات صيحات الأطفال المشرفين على الموت جوعاً .

٦ — الحياة بين الأطلال

كانت الأخلاق ، كما يتوقع المرء فى كل إقليم يصاب بالشلل الطويل المحزن فى الاقتصاد والحكومة .ولقد ألف جيوفرى دىلاتور لاندرى ، حوالى عام ١٣٧٢ ، كتابين يرشد بهما أطفاله فى هذه الفوضى ،ولم يبق منهما غير ما وجهه إلى بناته . وهو مجلد رقيق لطيف عامر بالحب الأبوى، مشوب بالهم على عفة غير آمنة وبخاصة ، فى زمن اقترفت فيه نساء كثيرات ، الخطايا بلا جزع مما أوقعهن فى فضائح مزرية . ورأى الفارس الطيب أن يقاوم هذه المغريات ، وذهب إلى أن خير وقاية هى الإكثار من الصلاة . ويعرض الكتاب لعصر ، لم يزل متشبثاً بالمشاعر المصقولة ، والحس الأخلاقى . ونحن نلتقى بعد ذلك بسبعين سنة بشخصية منكرة ، هى شخصية المارشال دى ريز أورتز ، وهو رجل غنى عظيم وسيد بريتانى . واعتاد أن يدعو الأطفال إلى قلعته . بحجة تدريبهم على الترتيل الكنسى ، ثم يقتلهم الواحد بعد الآخر ويقدمهم قرباناً للشياطين ، التى كان ينشد عندها القوى السحرية .

ولكنه قتل من أجل المتعة أيضاً و (لقد أنبئنا) أنه كان يضحك على صياح مرتليه المعذبين أو المحتضرين . واتبع هذا النهج أربع عشرة سنة ، حتى اجترأ ، والد أحد ضحاياه ، باتهامه ، فاعترف بهذه التفاصيل كلها ، وشنق عام ١٤٤٠ ولولا أنه أساء إلى دوق بريتانى ، لما اقتص منه ، ذلك لأن الرجال من طبقته قلما كانوا يقدمون إلى ساحة القضاء ، مهما كانت جرائمهم ومع ذلك ، فإن الأرستقراطية التى ينتسب إليها ، كثيراً ما أخرجت الأبطال أمثال الملك جون صاحب بوهيميا ، أوجاستون فيوبس دى فوا ، الذى أحبه فرواسارت وأثنى عليه . وفى هذه الأوحال تفتحت الأزهار الأخيرة للفروسية .

وأسهمت أخلاق الشعب فى هذا الانحلال . فأصبحت القسوة والخيانة والفساد أمراضاً متوطنة . وكان السوقى والحاكم سواء فى قبول الرشوة . وانتشر المجون ، و شكا الوزير جرسون من أن أقدس الأعياد تنفق فى لعب الورق(*) والميسر والتجديف فى الرين . وكان المحتالون والمزيفون واللصوص والصعاليك والشحاذون يسدون الطرقات بالنهار ، ويجتمعون بالليل ليستمتعوا بحصادهم ، فى باريس ، فى ساحة المعجزات ، التى سميت كذلك لأن المتسولين الذين يبدون فى مظهر المقعدين ، يظهرون هناك فجأة وكل عضو من أعضاء جسمهم فى صحة مذهلة .

وفشا اللواط ، وشاعت الدعارة ، وكاد المجون يصبح عاماً . ودعت فرقة « الآدميين » فى القرن الرابع عشر ، إلى مذهب العرى ، وظلت تمارسه علناً إلى أن منعته محاكم التفتيش . وكانت الصور الفاحشة المخلة بالآداب ، رائجة كما هى الآن ، ويروى جرسون ، أنها كانت تباع حتى فى الكنائس وأيام الأعياد الدينية . ونظم شعراء مثل ديشان قصائد غرامية

(*) ربما دخل لعب الورق إلى أوربا فى القرن الرابع عشر ، وأول رواية محققة عنه كانت عام ١٣٧٩ . ويبدو أنها جاءت عن طريق المسلمين عبر أفريقيا وأسبانيا والصليبيين . ويزعم الصينيون أنهم مارسوه مبكراً عام ١١٢٠ .

للسيدات النبيلات . ووصف نيقولا دى كليمانج كبير شماسة بايبه ، دير منطقته بأنه معبد مخصص للقيام بشعائر فينوس . وكان من المألوف أن يتخذ الملوك والأمراء ، خليلات لهم ، وكان الكثير من الزيجات الملكية — وزيجات النبلاء ينطوى على أغراض سياسية ، ولذلك لم تكن هذه الزيجات جديرة بالحب . واستمرت السيدات ، ذوات الحسب والنسب ، فى مناظرات رسمية ، حول جواز العلاقات الجنسية ، وأنشأ فيليب الجسور ، صاحب برجنديا ، فى باريس محكمة حب عام ١٤٠١ . ولقد وجدت وسط هذا الخضم من الاستهتار أو فى كنفه سيدات فضليات ، ورجال شرفاء ، ونحن نجد لمحة عابرة عن هؤلاء ، فى كتاب عجيب ألفه حوالى عام ١٣٩٣ ، رجل مجهول الاسم فى الستين من عمره ، عرف بأنه مدير باريس : « أعتقد أنه عندما يزف اثنان شريفان طيبان ، أحدهما إلى الآخر . فإن كل حب يزول . . إلا حب كل منهما للآخر . وأرى أنهما عندما يصطحبان ، يهتم كل منهما بالآخر ، أكثر من اهتمامه بغيره ، ويربط كل منهما على الآخر ويمسك به ، ولا رغبة لهما فى الحديث أو الإشارة إلا لبعضهما . . وكل متعتهما الخاصة ورغبتهما الكبرى وسرورهما الكامل ، إنما هو أن يمتع أحدهما الآخر ويطيعه » .

وأضيف إلى صور هذا العصر اضطهادات اليهود (١٣٠٦ ، ١٣٨٤ ، ١٣٩٦) والمجذومين (١٣٢١) ، ومحاكمة الحيوانات وإعدامها ، لإيذاء الناس وتسافدها معهم ، والشنق علناً ، الذى يدعو إلى حشد متطلع . وكانت تنبش القبور فى جبانة الأبرياء فى باريس ، كلما سقط لحم الميت عن عظمه ، لإفساح المجال لأموات جدد ، وتجمع العظام فى غير نظام ، فى مدافن خاصة بها ، على طول الأروقة ، التى كانت مع ذلك ، أماكن مألوفة ، للقاء العاشقين ، فأنشئت هناك الدكاكين ، ودعت البغايا الزبائن . ورسم أحد الفنانين ، مدة شهور على حائط الدير ، صورة لرقصة الموت

عام ١٤٢٤ ، تبدو الشياطين فيها وهى تدور حول نفسها مع الرجال والنساء والأطفال المسوقين فى خطوات مرحة متعاقبة إلى الجحيم . وأصبحت هذه الصورة مضموناً رمزياً لعصر يائس ، ومثلته إحدى المسرحيات فى بروجس عام ١٤٤٩ ، وصوره ديرر ، وهلبين ، وبوش فى آثارهم الفنية . وغلب التشاؤم على نصف شعر هذا العصر . وهجا ديشان الحياة فى كل جوانبها تقريباً ، وبدت الدنيا له ، كشيخ واهن جشع ، مضطرب منحل ولقد ختم كلامه بقوله « إن كل شىء سيئ السيرة » . ووافقه جرسن قائلا : « إننا نعيش فى شيخوخة الدنيا » ، وإن يوم القيامة لقريب . واعتقدت امرأة عجوز ، أن كل وخزة ألم فى أصابع قدميها ، تعلن ذهاب إحدى الأرواح إلى الجحيم ، وكان تقديرها معتدلا ، فإن الاعتقاد الشائع وقتذاك أنه لم يدخل الجنة أحد من الناس فى الثلاثين سنة الماضية .

وماذا عسى أن يصنع الدين ، فى تصدع أمة مغلوبة على أمرها ؟ لقد كان البابوات الحبيسون فى افنيون يتلقون حماية الملوك الفرنسيين ، وأوامرهم فى السنوات الأربعين الأول من حرب المائة عام ، وكانت معظم الموارد ، التى يجمعها أولئك البابوات من أوربا ، تذهب إلى هؤلاء الملوك ، تمويلا لحرب الحياه أو الموت مع بريطانيا ، واستطاعت الكنيسة أن تجمع للملكية فى إحدى عشرة سنة (١٣٤٥ — ١٣٥٥) مبلغ ٣,٣٩٢,٠٠٠ فلورن (٨٤,٨٠٠,٠٠٠دولار؟) وحاول البابوات مراراً أن يضعوا حداً للحرب ولكنهم فشلوا . وعانت الكنيسة مشقة مضنية ، من جراء الخراب الطويل الذى منيت به فرنسا قرناً من الزمان ، فأقفرت مئات الكنائس والأديرة أو خربت ، وشاركت الطبقة الدنيا من رجال الدين فيما اتسم به العصر من انحلال الأخلاق . وتجاهل الفرسان والمشاة الدين لايذكرونه إلا عند المعركة أو الوفاء ، ولابد أنهم ارتابوا ، فى العقيدة بسبب عدم اكتراث السماء ، الذى يدعو إلى الجنون . واعتصم الناس فى عصيانهم أوامر الدين

بالكنيسة والعقيدة مفزعين ، وحملوا أموالهم وهمومهم إلى مزارات العذراء تسكيناً لروعهم ، وكانوا يصابون فى القداس ، بوجد دينى ، عندما يستمعون إلى العظات المخلصة للراهب رتشارد أو القديس فنسانت فرر . وابتدعت فى بعض البيوت ، تماثيل صغيرة للعذراء تفتح بطونها بلمسة من اليد ، فينكشف الثالوث .

وكان معظم قادة الفكر للكنيسة ، فى هذا العصر ، من الفرنسيين . ولم يكن بيير دايلى واحدا من العلماء ، أصحاب الرأى فحسب ، وإنما كان من أقدر زعماء الكنيسة وأبعدهم عن الفساد ، وأحد السياسيين من رجال ، الاكليروس ، الذين عالجوا فى مجمع كنستانس ، الفرقة فى البابوية . وكان بين تلاميذه ، وهو مدير كلية نافار فى باريس ، شاب ، أصبح فيما بعد ، أعلم علماء الدين فى جيله . وزار جان دى جرسون الأراضى الواطئة ، فأعجب كثيراً من تصوف ريوزبرويك ، والورع الجديد عند « اخوة الحياة العادية » . فلما أصبح مديراً لجامعة باريس (١٣٩٥) ، فكر فى إدخال هذا النوع من التقوى إلى فرنسا على الرغم من نقده أنانية المذهب الصوفى وما فيه من القول بوحدة الوجود واقتنع أخواته الست بقدوته وحججه ، ولقد أنبئنا أنهن ظللن عذارى إلى نهاية حياتهن . وذم جوسن ، خرافات الدهماء ، ودجل التنجيم والسحر والطب ،ولكنه اعترف بأن الرقى ، ربما يكون لها تأثير بالتسلط على المخيلة (٧٤) . ورأى أن معرفتنا بالنجوم ، ممعنة فى النقص ، حتى إننا لا نستطيع ، أن نصور تنبوءات محددة ، بل إننا لا نستطيع أن نعين بالضبط مدى سنة شمسية ، ولا يمكننا أن نخبر عن الموضع الحقيقى للنجوم ، لأن أضواءها تتكسر ، فى سيرها إلينا ، عبر أوساط متعددة . ودعا جوسون إلى ديمقراطية مقيدة ، وإلى سيادة المجامع ، فى الكنيسة ، بيد أنه حبذ ملكية قوية فى فرنسا ، ولعل الأحوال السائدة فى بلاده تبرر تناقضه ، وهى التى كانت أحوج إلى النظام منها إلى الحرية .

وكان رجلا عظيما فى طرازه وجيله ، وكانت فضائله خاصة به ، أما أوهامه فمن عدوى عصره ، كما يجب أن يقول جيته . وتزعم الحركة التى استهدفت التخلص من البابوات المتنازعين ، وقصدت إصلاح الكنيسة ، وأسهم فى إرسال جون هس وجيروم البراغى إلى الموت .

وأخذت الطبقات العليا ، تمدح أشخاصها ، وتزين دورها ، وسط مظاهر الفاقة التى يعانيها شعبها . وارتدى أفراد العامة البسيط من السترات ، والقمصان ، والسراويل ، والأحذية ذوات الرقاب ، وقلدت الطبقات الوسطى الملوك ، على الرغم من القوانين الخاصة بالنفقات ، فارتدى أفرادها ، الأردية الطويلة ، وربما كانت قرمزية اللون أو محفوفة بالفراء ، كما ارتدى السادة النبلاء الصديريات ، والجوارب الطويلة ، والألفعة الأنيقة والقبعات الرائشة التى تمسح الأرض عند الانحناءات المهذبة ووضع بعض الرجال قروناً على أصابع نعالهم ، لتطابق ما على رؤوسهم من رموز غير جلية . وآثرت سيدات من ذوات الحسب ، القبعات المخروطية كأبراج الكنيسة ، وكن يشددن أجسامهن بسترات ضيقة وسراويل زاهية اللون ، وتنورات من الفرو ، تتدلى أطرافها على الأرض فى جلال ويظهرن صدورهن بينما يزدن من جمال وجوههن بإسدال النقاب عليها . وبدأت الأزرار تستعمل لحبك الملابس[٤٠] ، وكانت قبل ذلك مجرد حلى ، ونحن نعكس هذه الحركة الآن . وكن يتلألأن ، حتى البدينات منهن ، بالحرائر والأنسجة المذهبة والمطرزة ، والأشرطة والجواهر على الشعر وعلى الرقبة واليدين والرداء والحذاء ، وتحت هذا البريق الوقائى ، كثرت عند كل نساء الطبقة العليا تقريباً .

وظلت دور الفقراء كما كانت فى القرون السابقة ، إلا أن النوافذ من الزجاج شاعت فيها ، أما القصور الصغيرة وبيوت الأغنياء فى المدن فلم تعد سجوناً مظلمة ، كانت قصوراً مريحة حسنة التأثيث بساحات فسيحة بها

نوافير ماء ، ودرجات محواة عريضة ، وطنف معلقة ، وسقوف شديدة الانحدار تناطح السماء وتغوص فى الثلج ، وقد زودت بغرف للخدم ، ومخازن ، وغرفة للحراسة وأخرى للبواب ، وغيرها للبياضات ، ومغسل ، وقبو للخمر ومخبز ، بالإضافة إلى القاعة وغرف النوم لأسرة صاحب البيت . وكانت بعض القصور ، كالتى يملكها بيير فوند (١٣٩٠) وشاتودن (حوالى ١٤٥٠) ارهاصاً بقلاع اللوار الملكية . وتعد دار الرأسمالى الكبير جاك كور فى بورجس ، أصون قصور ذلك العهد ، وهى عمارة كاملة لها برج قوطى من الحجر المنقوش ، وأفاريز وطنف مزخرفة ، ونوافذ على طراز عصر النهضة ، ولقد أخبرنا ، أنه قد تكلف كله حوالى ٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، بحساب النقد فى أيامنا . وأثثت بالفاخر من الطنافس : مدافئ فخمة ، تدفئ على الأقل ، جانباً من الغرفة وسكانها ، ومقاعد ومناضد متينة ، دأب الصانع على نقشها بالحفر ، دون كلل ، وأرائك عليها حشيات على طول الجدران مبطنة بقماش(٥٧) مزركش ، وخزائن تحف وصواوين ضخمة تعرض الصحاف الذهبية والفضية ، تليها أكواب زجاجية أبهى منها ، وسجاجيد سميكة ، وأرضيات من البلوط المصقول أو قرميد مطلى بالميناء ، ومخادع معرشة مرتفعة وعريضة تتسع للسيد وزوجته وطفل أو اثنين . ولقد نام على هذه السرر المريحة رجال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ونساءهما ، عراة ، ولم تكن قمصان النوم قد أصبحت ضرورة لا غنى عنها .

٤ — الآداب

ولقد واصل الرجال والنساء تأليف الكتب بين هذه الأطلال ومنها الرسائل الباقية (١٣٢٢ — ١٣٣١) التى وضعها نيقولا من ليرا ، وقاموا بإضافات محققة لفهم نصوص الكتاب المقدس ، فمهدت الطريق لـ « العهد

الجديد » لأرازمس ولترجمة لوثر الألمانية . وغلبت على قصص هذا العصر ، الحكايات الغرامية الخميفة مثل مائة حكاية جديدة التى ألفها انتوان دولاسال أو قصص خيالية عن الفروسية مثل فلور وبلانشفلير . أما الكتاب الذى ألفه جيهان ذو اللحية وهو طبيب من ليبج يسمى السير جون ماندفيل فلايقل عنها خيالا ، ولقد نشر (حوالى ١٣٧٠) وصفاً لرحلاته المزعومة فى مصر وآسيا وبولنده . وادعى جون أنه زار جميع الأماكن التى وردت أسماؤها فى الأناجيل ، « الدار التى ذهبت إليها مريم العذراء للتعلم » ، والموضع الذى سخنت فيه الماء التى غسل بها إلهنا أقدام الرسل » ، والكنيسة التى فرت إليها مريم لتدر اللبن من صدرها الجليل ، وفيها عمود من الرخام ، اتكأت عليه ، ولايزال مرطباً بلبنها ، ولم تزل الأرض لينة بيضاء حيث تساقط لبنها الأمثل ، وبلغ جون ذو اللحية أوجه فى وصفه الصين ، فلم تكن فصاحة مقيدة بالعلم إلا قليلا . ولكنه كان يدنو من العلم ، بين الحين والحين ، كما هو الحال فى قوله كيف ظل أحد الناس يتجه ناحية الشرق إلى أن عاد إلى وطنه من جديد » ، مثل مستر باسبارتو فى رواية جيل فيرن . وشرب مرتين من « نبع الشباب» ، ولكنه عاد إلى أوربا كسيحاً بداء النقرس ، الذى ربما أصيب به لعدم مغادرته ليبج على الإطلاق .

ولقد ترجمت هذه الرحلات إلى مائة لغة وكان لها وقع أدبى عظيم بين الناس أواخر القرون الوسطى .

وأروع ما أنتجه الأدب الفرنسى ، فى القرن الرابع عشر فيما نعلم هو كتاب « التواريخ » الذى نظمه جان فرواسار . هذا المؤلف ولد فى فالنسيين عام ١٣٣٨ ، وعكف على نظم الشعر فى بواكير حياته ، حتى إذا بلغ الرابعة والعشرين ، عبر البحر إلى لندن ، ليضع أشعاره ، عند قدمى فيليبا أميرة هانو ، زوجة الملك ادوارد الثالث . فأصبح كاتم سرها ، ولقى أشراف الإنجليز ، وأعجب بهم إعجاباً صريحاً ، جعله غير محايد

فى تاريخه . وسرعان ما انتزعه غرامه بالرحلة ، فساقه إلى اسكتلندا ؛ وبردو وسافوى وإيطاليا . ولما عاد إلى هانو أصبح قسيساً وكاهن شيماى . وهناك صمم على أن يعيد تأليف كتابه نثراً ، وأن يتوسع فيه من أوله ومن آخره . ورحل مرة أخرى إلى انجلترا وفرنسا ، يجمع المواد فى مثابرة ودأب . حتى إذا عاد إلى شيماى وقف نفسه على إتمام هذا التاريخ « النبيل الممتع . . الذى ستشتد الحاجة إليه بعد وفاتى . . ليشجع كل القلوب الباسلة ، ويطلعها على مثل شريفة » . وليست هناك قصة خيالية أروع منها ، والقارئ الذى يبدأ هذه الصفحات ، المسهبة ، الألف والمائتين ، وهو ينوى أن يقفز من قمة إلى قمة ، سيجد الأودية مشوقة أيضاً ، وسيسير فى القراءة فى بهجة وأناة إلى النهاية . ولم يشغف هذا القسيس — مثله فى ذلك مثل يوليوس الثانى — بغير الحرب . وفتن بالحركة ، والشهامة والأرستقراطية ، أما العامة فلم يلجوا صفحاته إلا باعتبارهم ضحايا النزاع الذى شجر بين الأشراف . ولم يبحث فى الحوافز ، واعتمد فى ثقة بالغة على الروايات المزوقة والمنحازة ، ولم يزعم أنه يفلسف الأخبار . فقد كان إخبارياً فحسب بل أنه أعظم الإخباريين جميعاً .

وتحدد المسرحية العصر الذى تمثل فيه ، ولقد احتلت المسرحيات الدينية والأخلاقية التى عرفت باسم « المعجزة » ، كما احتلت الفواصل والهزليات المسارح المؤقتة التى تشيد فى المدن . وأخذت الموضوعات غير الدينية تزداد على الأيام واقترن المرح بالفحش فى العادة ، بيد أن الموضوعات الدينية ظلت مسيطرة ، ولم يستشعر الناس الملل قط من المناظر التى تمثل آلام المسيح . ولقد تخصصت أهم فرقة تمثيلية فى هذا العصر وهى فرقة الإخوان الباريسية التى تمثل آلام السيد المسيح فى تمثيل قصة الفترة القصيرة التى قضاها المسيح فى أورشليم : وبلغت إحدى هذه المسرحيات التى ألفها « أرنول جريبان » خمسة وثلاثين ألف سطر .

وكانت للشعر جماعاته أيضاً . فقد أنشأت تولوز عام ١٣٢٣ أكاديمية للعلم البهيج ، وعملت المباريات العامة تحت رعايتها على إحياء فن الشعراء الجوالين « التروبادور» وطابعهم . وتألفت جمعيات أدبية مماثلة فى أمين ودواى وفالنسين ، وهى التى مهدت الطريق للأكاديمية الفرنسية التى أنشأها ريشيليو . واتخذ الملوك والسراة لهم شعراء مثلما اتخذوا منشدين ومهرجين يلحقون بحاشيتهم . وضم « رينيه الطيب » دوق انجوواللورين ، وملك نابلى بالاسم فقط ، رهطاً من الشعراء والفنانين إلى بلاطه فى كل من نانسى وتاراسكون وايكس ان بروفنس ، ونافس أحسن ناظم للقوافى ، حتى لقب « بآخر التروبادور» . وبسط شارل الخامس رعايته على أوستاش ديشان ، الذى شبب بالنساء ، وتزوج ثم شهر بالزواج فى قصيدة عنوانها مرآة الزواج ، تبلغ اثنى عشر ألف بيت ونعى على عصره الشقله والخسة :

يا عصر الرصاص ، أيها الزمن المفسود ، أيتها السماء من النحاس ،
أيتها الأرض بلا ثمر ، مجدبة لا خير فيها ،
أيها الناس الملعونون ، بكل أسى مفجع ..
أليس من الحق أن أنديكم جميعاً ؟
لأننى لا أرى شيئاً فى عالم الغد ،
المفعم بالحزن الممعن فى الاضطراب .
ويشمل فى فعاله كل شر :
واليوم يحل زمن البلاء ..

ونشأت كريستين دى بيزان فى باريس ، على أنها ابنة الطبيب الإيطالى لشارل الخامس ، فلما ترملت كان عليها أن تعول ثلاثة أطفال وثلاثة أقارب فوفقت إلى ذلك بأعجوبة بقرض الشعر الرائع وتأليف التاريخ الوطنى ، وهى تستحق منا تحية عابرة بوصفها أول امرأة فى أوربا الغربية استطاعت أن تعيش بقلمها . أما ألين شارتيه فكان أسعد حظاً ، فإن قصائده فى الحب

مثل قصيدته « الفاتنة بلا رحمة » ذات الإيقاع الحسن التي زجر فيها النساء على إخفاء مفاتنهن — قد أسرت الطبقة الأرستقراطية ، حتى قيل أن مارجريت أميرة اسكتلندا ، التي أصبحت ملكة فرنسا بعد ذلك ، قبلت شفتي الشاعر وهو نائم على إحدى الأرائك . وسرد أتين باسكييه ، هذه الأسطورة ، في قصص خلاب ، بعد مرور قرن من الزمان . .

لقد عجب الكثيرون من هذا الصنيع ولكني أقول الحقيقة فإنني أقرر أن الطبيعة ، قد وضعت روحاً جميلة في جسم ممعن في القبح — وهنا قالت السيدة أنهم يجب ألا يعجبوا من هذا الغموض ، فليس الرجل ، هو الذي رغبت في تقبيله ولكنني قبلت الشفتين اللتين نطقتا بهذه الكلمات الذهبية » .

ولم يكن مقدراً على أرق شعراء فرنسا في هذا العصر أن يقول الشعر ، إذ كان ابن أخي شارل السادس ووالد لويس الثاني عشر . ولكن شارل دوق أورليان أسر في أجنكور ، وأمضى خمساً وعشرين سنة (١٤١٥ — ١٤٤٠) معتقلا اعتقالا ليناً بانجلترا . فغمر الهم قلبه وتأسى بنظم الشعر الرقيق في الغزل ومحنة فرنسا . ولبثت فرنسا بأسرها تنشد أغنيتين في الربيع :

لقد بدل العام وشاحه البارد .
وشاح الريح والمطر والهواء المرير ،
وسار مؤتزراً حلة من الذهب .
حلة من الشمس الضاحكة والفصل الجميل ،
وما من طائر أووحش من وحوش الغابة أو الفلاة
إلا ويعلن بصياحه أوغنائه ،
ان العام يطوى وشاحه البارد :

بل ان انجلترا كان فيها فتيات جميلات ، فنسي شارل أحزانه عندما مر به الحب الهادئ :

يا إلهي . . ما أجمل أن أراها ،

يا إلهى الرحيم الودود العادل . .

إن كل فضيلة من الفضائل المختارة التى فيها

لجديرة بالمديح النادر .

ومن ذا الذى يمل جمالها ،

النضر كل يوم نضرة لا تضارع ؟

يا إلهى . . ما أجمل أن أراها ،

يا إلهى الرحيم الودود العادل . .

وسمح له آخر الأمر أن يعود إلى فرنسا ، فجعل من قلعته فى بلوا ، موئلا بهيجاً للأدب والفن ، حيث استقبل فيللون على الرغم من فقره وجرائمه ، ولما بلغ شارل من العمر أرذله ، ولم يعد قادراً على المساهمة فى مرح أصدقائه الشبان ، نظم اعتذاره إليهم فى أبيات رقيقة ، تصلح أن تكتب على قبره :

حى بالنيابة عنى جميع الصحاب

الذين تلقاهم الآن فى ألفة ،

وقل كم أكون سعيداً

إذا أصبحت واحداً من ثلتهم لو كان ذلك ممكناً ،

فإن الشيخوخة تقتلنى .

ولقد تحكم الشباب فى حياتى مرحاً فى زمن طال به العهد

ولكنه الآن ولى وذهب .

وكنت عاشقاً ، ولن يقدر لى أكثر من ذلك أبداً ،

ولقد عشت فى باريس حياة ممعنة فى الحرية .

وداعا فلن أشهد بعد ذلك أياماً طيبة . .

حى بالنيابة عنى جميع الصحاب .

٨ ـ الفن

كان فنانو فرنسا لهذا العهد أكثر تفوقاً من شعرائها ، ولكنهم شقوا أيضاً بإمحالها . ولم تقدر لهم هناك رعاية كريمة يعتمدون عليها فى المدينة أو الكنيسة أوعند الملك .« والولايات التى عبرت عن كرامة طوائفها ، بالمعابد الضخام ، وتسامت بهذا التعبير إلى عقيدة لا يرقى الشك إليها ، أضعفها وقضى عليها ازدياد سلطان الملك إلى جانب التوسع فى الاقتصاد من المجال المحلى إلى المجال القومى ولم تعد الكنيسة الفرنسية تمول أوتلهم ، مثل المبانى الهائلة ، التى ارتفعت على أرض فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. « ولقد انحطت العقيدة ، كما اضمحلت الثروة ، وتبدد الأمل الذى دفع فى هذه القرون إلى الحروب الصليبية ، وتشييد الكتدرائيات فى وقت واحد أى العمل والصلاة التى تحث عليه ـ فقد نشوته المنتجة وكان الأمر يحتاج فى العمارة إلى طاقة أكبر من طاقة القرن الرابع عشر ، ليتم ما بدأه عصر أشد فتوة . وعلى الرغم من هذا فقد أنجز جان رافى كاتدرائية نوتردام فى باريس (١٣٥١) ، وأضافت « رون » كنيسة صغيرة للعذراء عام (١٣٠٢) إلى كاتدرائية سبق أن أنشئت باسمها ، وشيدت بواتييه لكادرائيتها عام (١٣٧٩) واجهتها الغربية الشامخة .

وأخذ الطراز المشع للتخطيط القومى (١٢٧٥) ، يسلم قياده شيئاً فشيئاً ، إلى طراز قوطى هندسى ، يعتمد على أشكال اقليدية بدلا من الخطوط المشعة . وعلى هذا النحو شيدت بوردو ، كاتدرائيتها (١٣٢٠ ـ ١٣٢٥) وأقامت كان عام (١٣٠٨) برجاً رشيقاً ، مستدق الطرف ، على كنيسة سانت بيير ، ولقد تحطم هذا البرج فى الحرب العالمية الثانية ، وزودت اكسير كاتدرائيتها بصحن جديد عام (١٣٥٥) ، وأضافت كوتانس عام (١٣٧١ ـ ١٣٨٦) وأمين عام (١٣٧٥) ، كنائس صغيرة

رائعة إلى مزاريهما التاريخيين ، وأكدت رون مجدها المعمارى باقامة الكنيسة المجيدة لسانت أوين (١٣١٨ — ١٥٤٥) .

ولما تصورت فرنسا أنها منتصرة ، فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، أظهر معماريوها طرازاً قوطياً جديداً ، مرحاً فى ، وحه ، مسرفاً فى تفاصيل النقوش المحفورة ، معقداً مبهرجاً فى تفريقاته الزخرفية ، مسرفاً إلى حد غير معقول فى الزينة . وأصبح العقد القوطى ، أو العقد المدبب لقوس متصل ، وقتذاك عقداً مخروطياً لقوس مقلوب ، كلسان اللهب الذى أعطى هذا الطراز اسمه (المشع) . ولم تعد تستعمل تيجان العمد ، وتلولبت العمد أو خططت ، وأفرط فى حفر أماكن المرتل ، وحجبت بستائر حديدية من شرائط دقيقة ، وأصبحت الزخارف المدلاة كأعمدة الثلج الجامد المتدلى من سقوف المغاور والكهوف ، وصارت القباب تيها من الأضلاع التى تتراوح بين الظهور والخفاء ، وابتعدت فواصل النوافذ ، عن الأشكال الهندسية القديمة الجامدة ، وفاضت فى رشاقة فاتنة وتعمد لا يوصف ، وبدت الأبراج وكأنها شيدت من الزخرف ، واختفى البناء خلف الزينة . وكانت غرة هذا الطراز الجديد فى الكنيسة الصغيرة التى شيدت باسم القديس يوحنا المعمدان عام(١٣٧٥) فى كاتدرائية أمين ، وما إن جاء عام ١٤٢٥ ، حتى كان هذا الطراز قد غلب على فرنسا ، وبدأ عام ١٤٣٦ ، يحقق إحدى معجزاته الرقيقة ، وهى كنيسة سان ماكلو فى رون . وربما ساعد ، على انتصار الطراز المشع فى النصف الأول من من القرن الخامس عشر ، استرداد الثقة وبعث الروح العسكرية على يد جان دارك وشارل السابع ، ونمو الثروة التجارية ، كما يمثلها جان كير ، ونزوع الطبقة البورجوازية ، الصاعدة إلى الزينة المترفة . وظل الطراز القوطى فى هذا الشكل النسوى ، إلى أن أعاد الملوك والنبلاء الفرنسيون من حروبهم فى إيطاليا ، أفكار عصر النهضة المعمارية الكلاسية .

ويحمل نمو العمارة المدنية فى أعطافه ، ظهور الطابع الدنيوى لهذا العصر . ورأى الملوك والأمراء ، أن هناك ما يكفى من الكنائس ، فابتنوا لأنفسهم قصوراً ، تكون فتنة للشعب ، ومأوى لحظياتهم ، وأنفق الأغنياء من نواب المقاطعات ، ثروات طائلة على دورهم وأعلنت المجالس البلدية عن غناها بتشييد دور البلدية الفخمة ، وصممت بعض المستشفيات مثل مستشفى بون تصميماً جميلا طليقاً لابد أنه قد أسبغ الصحة على المرضى . وجمع البابوات والكرادلة ، حشداً منوعاً من الفنانين ، وعضدوهم ، بيد أن بنائى فرنسا ورساميها ومثاليها ، كانوا يلتفون حول نبيل أو ملك . وشيد شارل الخامس قصر فنسن عام (١٣٦٤ — ١٣٧٣) ، والباستيل عام (١٣٦٩) ، واستقدم الفنان واسع الأفق أندريه بونيفو ليحفر صوراً لفيليب السادس ، وجون الثانى وشارل نفسه للمقابر الملكية ، المصففة ، الرائعة ، التى تزحم ممشى كنيسة سانت دينيس وسردابها عام (١٣٦٤) . وشيد لويس أمير أورليانز قصر بيرفوند ، وكان جون دوق برى ، على الرغم من قسوته على الفلاحين ، واحداً من أعظم رعاة الفنون فى التاريخ .

وهو الذى صور له بونيفيه عام ١٤٠٢ كتاب المزامير . وهو ليس إلا واحداً من سلسلة المخطوطات المزوقة ، الموضوعة بالقرب من القمة ، فيما يمكن أن يسمى غرفة الموسيقى ، فى فنون الرسم . ولهذا السيد الفطن نفسه ، صور جاك دى هسدن « الساعات الصغيرة » و« الساعات الجميلة » و « الساعات الكبيرة » ، وهى تمثل كتب « الساعات » للصلوات اليومية الكنسية . وأخرج الإخوان بل جيهانيكان وهرمان مالويل من لمبورج ، الساعات الغنية (١٤١٦) وهى خمس وستون منمنمة تصور الحياة فى فرنسا ومناظر منها : النبلاء يصيدون ، والفلاحون يعملون ، ومنظر ريفى يضفى عليه الجليد صفاء . وتعد هذه الساعات الغنية المستورة الآن ، حتى عن أعين السائحين ، فى متحف كونديه فى شانتلى ، والمنمنمات التى صورت للملك الطيب ، رينية صاحب انجو آخر انتصارات فن التزويق ، ذلك لأن هذا الفن

قد نافسه فى القرن الخامس عشر الحفر على الخشب وانتشار المدارس الموفقة فى الرسم على الجدران واللوحات فى فونتنبلووأمين وبورجس ، وتورومولان وافنيون وديجون إذا لم تتحدث عن أساتذة الفن الذين كانوا يعملون لدوق برجنديا .. وأدخل بوشيفيه وفان ايكس ، طرز التصوير الفلمنكية إلى فرنسا ، وكذلك عن طريق سيمون مارتينى وغيره من الإيطاليين فى افنيون ، وعن طريق الدولة الإنجيفية فى نابولى عام (١٣٦٨ — ١٤٣٥) : ولقد أثر الفن الإيطالى فى الفرنسى ، قبل أن تغزو الجيوش الفرنسية ايطاليا بزمن طويل . حتى إذا جاء عام ١٤٥٠ ، كان الفن الفرنسى ، قد نهض على قدميه ، وسجل انتسابه إلى هذا العصر بصورة الورع لفيلينوف وهى بلا توقيع ، وتوجد الآن فى اللوفر.

ويعد جان فوكيه ، أول شخصية واضحة ، فى فن التصوير الفرنسى ، ولقد ولد فى تورعام (١٤١٦) ، وتعلم سبع سنوات فى إيطاليا (١٤٤٠ — ١٤٤٧) ، وعاد إلى فرنسا ، وهو متحيز للمهاد المعمارية الكلاسية التى أصبحت فى القرن السابع عشر ، هوسا ، على يد نيكولاس بوسان وكلود لورين . ومهما يكن من شىء ، فقد رسم صوراً متعددة لأشخاص وهى تكشف بقوة عن مقومات شخصياتهم : مثل جوفينال كبير أساقفة أورسان وحاكم فرنسا — وهو عبوس حازم ، وليس ممعناً فى التقوى إلى الحد الذى جعله غير صالح للحكم ، وأتين شيفالييه وهو القائم على خزانة المملكة — رجل مهموم ، منزعج من استحالة الحصول على المال بالسرعة ، التى تنفقه بها الحكومة ، وشارل السابع نفسه ، بعد أن جعلت منه أنييه سورل رجلا ، وأنييـــه فى اللحم الوردى ، تحول على يد فوكيه إلى عذراء هادئة سنية بعينين خفيفتين وصدر بارز وزوق جان لشفالييه ، كتاب الصلوات ، وبدد ملل إقامة الشعائر بمناظر ، نضرة ، من وادى اللوار . وتحتفظ رصيعة مطلية بالميناء فى اللوفر ، بصورة فوكيه كما رأى نفسه —

صورة ليس لها مثل رفائيل سيماء الأمارة ، يصعد إلى أعلى ، وإنما صانع بالفرشاة ، فى رداء العمل ، حازم حي ، مهموم ومصمم ، وعلى جبينه سمة قرن كامل من الفقر . ومع ذلك ، فقد مضت حياته ، بلا ملمات من حكم ملك إلى آخر ، وارتقى ، إلى أن أصبح آخر الأمر « مصور الملك » لويس الحادى عشر وبعد جهد السنين يأتى النجاح ، وسرعان ما يأتى الموت بعد ذلك .

٩ – جان دارك ١٤١٢ – ١٤٣١

فى عام ١٤٢٢ نادى ابن شارل السادس عشر الذى تبرأ منه أبوه ، بنفسه ملكاً باسم شارل السابع . ونظرت فرنسا فى عزلتها ، إليه لينقذها ، ثم ران عليها يأس عظيم وكان هذا الشاب الجبان ، فاتر الهمة عديم الاكتراث فى العشرين من عمره ، لم يصدق أنه يستحق الملك الذى أعلنه ، وربما شارك الفرنسيين شكوكهم فى شرعية مولده . وتظهر الصورة التى رسمها فوكيه له ، وجهاً حزيناً ساذجاً ، تحت عينيه جيوب ، وأنف ممتد . وكان متديناً إلى درجة الفزع ، يسمع ثلاث صلوات كل يوم ، ولا يترك ساعة من ساعات الكنيسة تمر دون أن يتلو ، ما يناسبها من صلاة ، وكان يخلو بين هذه الأوقات ، إلى رتل طويل من الخطايا ، وأنجب اثنى عشر مولوداً فرضهم على زوجته الفاضلة . ورهن جواهره ، ومعظم الملابس التى على كاهله ، ليمول مقاومة بلاده لإنجلترا ، ولكنه لم يكن مفطوراً على الحرب ، فترك الصراع لوزرائه وقواده . ولم يكن أحد منهم متحمساً أو متيقظاً ، وتشاجر بعضهم مع بعض فى حقد — اللهم إلا جان دينو الأمين ، والإبن غير الشرعى للويس ، دوق اورليان . ولما تحرك الإنجليز جنوباً لمحاصرة تلك المدينة عام (١٤٢٨) ، لم يتفقوا على خطة للوقوف فى وجههم ، وكانت الفوضى ، طابع ذلك الزمان ، وتقع اورليان ، على حنية ، فى اللوار ، فإن سقطت ، انضم الجنوب بأسره ، وهو المتردد فى الولاء وقتذاك لشارل السابع

إلى الشمال ، ليجعل من فرنسا مستعمرة إنجليزية . وأخذ الشمال والجنوب معاً يراقبان الحصار ، ويصليان من أجل حدوث معجزة .

وأخذت دمريمى القرية البعيدة ، الهاجعة إلى جوار الموز على حدود فرنسا الشرقية تراقب الصراع بعاطفة دينية وطنية . وكان الفلاحون هناك من أبناء القرون الوسطى فى إيمانهم وشعورهم ، فى العقيدة والشعور ، يعيشون من الطبيعة ، ولكن فيما هو فوق الطبيعى ، وكانوا واثقين من أن الأرواح تعيش فى الهواء المحيط بهم ، وأقسم كثير من النساء ، أنهن رأينها وتحدثن معها — واعتقد الرجال مثلما اعتقد النساء ، وهو ماكان سائداً فى أنحاء الريف الفرنسى ، أن الإنجليز شياطين ، تخفى أذنابها ، فى اذيال معاطفها وراجت نبوءة فى القرية ، وهى أن الله سيرسل فى يوم من الأيام ، فتاة عذراء ، تنقذ فرنسا من هؤلاء الشياطين ، وتضع حداً لحكم الحرب الشيطانية . وهمست زوجة عمدة دمريمى ، بهذه الآمال إلى جان ابنتها فى العماد .

وكان أبو جان واسمه جاك دارك ، فلاحاً ناجحاً ، ولعله لم يلق بالا ، إلى مثل هذه الحكايات . وقد عرفت جان بالتقوى ، بين هؤلاء القوم الأتقياء ، وأغرمت بالذهاب إلى الكنيسة ، وكانت تعترف بانتظام وحرارة وشغلت نفسها بجمع الصدقات للكنيسة وألفت الدواجن والطيور ، فى حديقتها الصغيرة ، أن تأكل من يدها . واتفق لها فى أحد الأيام ، أن تخيلت ، وهى صائمة ، أنها رأت ، نوراً عجيباً فوق رأسها ، وأنها سمعت صوتاً يهتف بها « يا جان كونى طفلة طيبة مطيعة . واذهبى دائماً إلى الكنيسة » . وكانت وقتذاك (١٤٢٤) فى الثالثة عشرة من عمرها ، وربما أسبغت عليها التغيرات فى وظائف أعضائها ، مسحة صوفية فى هذه المرحلة الممعنة فى الانفعال من مراحل حياتها . وتحدثت « هواتفها » — كما نعتت هذه الرؤى — بأحاديث كثيرة طوال السنوات الخمس بعد ذلك ، حتى خيل إليها آخر الأمر ، أن

الملك ميكائيل نفسه يأمرها : « اذهبي لإغاثة ملك فرنسا ، ولسوف تستعيدين ملكه . . اذهبي إلى السيد بودريكورت ، القائد فى فوكولور، وسيقودك إلى الملك » . وقال الهاتف فى مرة أخرى : « يا ابنة الله ، ستقودين الدوفان إلى ريمز ، حتى يستطيع هناك أن يحصل على رسامته وتتويجه » . ذلك لأن فرنسا كانت تشك فى حق شارل الإلهى فى الحكم ، فلم يحصل على رسامته من الكنيسة ، ولكن إذا صب الزيت المقدس على رأسه ، فإن فرنسا تقف من ورائه صفاً واحداً وفى ذلك إنقاذها.

وبعد تردد طويل مزعج أطلعت أبويها على رؤياها . فذهل أبوها عندما فكر فى فتاة بريئة تضطلع بمثل هذه الرسالة الخيالية ، قال إنه لن يسمح لها بذلك وتوعدها بأن يغرقها بيديه . وأراد أن يمعن فى تقييدها فأقنع ، شاباً قروياً ، أن يصرح بأنها وعدته بأن تمنحه يدها بالزواج ، فأنكرت قوله ، وفرت بعذرتها التى نذرتها لقديسيها ، ولكى تطع أوامرهم ، إلى عم لها ، وألحت عليه ، أن يأخذها إلى فوكولير عام (١٤٢٩) . وهناك نصح القائد بودريكور ، عمها ، أن يصفع الفتاة ، البالغة من العمر سبع عشرة سنة ، وأن يعيدها إلى والديها ، ولكن جان لما شقت طريقها ، ومثلت أمامه ، وصرحت بجنان ثابت ، أنها مبعوثة من الله لمساعدة الملك شارل على إنقاذ أورليان ، ذاب القائد المتعاظم ، فأرسل إلى شينون ، وهو يفكر فى أن بالفتاة مساً من الشياطين ، يطلب إذن الملك بلقائها . وجاء الإذن الملكى ، وأعطى بودريكور الفتاة سيفاً ، وابتاع لها أهل فوكولير ، جوادا ، ووافق ستة من الجنود أن يدلوها على الطريق ، فى الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر ، عبر فرنسا إلى شينون . وتسربلت بزى الرجال العسكرى — ، سترة وصدار وجوربين طويلين وطاق ومهمازين — وقصت شعرها كالفتيان — ولعلها فعلت ذلك منعاً لتقحم الرجال ، وتيسيراً لركوب الجواد اكتساباً لموافقة القواد والجند . وعبرت فى رصانة وثقة مدنا ، اختلفت فى النظر إليها بين الخوف منها باعتبارها ساحرة ، أو إجلالها باعتبارها قديسة .

وبعد أن قطعت فى رحلتها أربعمائة وخمسين ميلا ، فى أحد عشر يوماً ، بلغت الملك ومجلسه . ومع أن حلته البسيطة ، لم تكن تنبىء عن أبهة الملك ، فقد عرفته جان (كما أنبئنا — وكيف ترفع الأسطورة يدها من تاريخ هذه الفتاة) لفورها ، وحيته بأدب قائلة . . « أمدك الله بطول العمر ، أيها الدوفان الكريم . . . ان إسمى جان لا بوسل ان وإله السموات يتحدث إليك بوساطتى ، وهو يقول انك سترسم وتتوج فى ريمز ، وتكون وكيلا لملك السموات ، الذى هو ملك فرنسا » . وقال أحد القساوسة وهو الذى أصبح راعى كنيسة العذراء ، فيما بعد ، إنها أكدت للملك ، فى مجلس خاص ، شرعية مولده . وظن بعضهم ، أنها قبلت فى أول لقاء لها مع شارل ، أن يكون رجال الدين أصحاب الحق فى تفسير هواتفها ، وأنها اتبعت قيادتهم فى حديثها مع الملك ، وعن طريقها يحل الأساقفة ، محل القادة فى صياغة السياسة الملكية . ولما كان شارل لايزال مرتابا فى أمرها ، فقد أرسلها إلى بواتييه ليمتحنها العلماء هناك . فلم يجدوا فيها شراً وكلفوا بعض النسوة أن يتأكدن من عذرتها ، واطمأنوا من هذه الناحية الحساسة أيضاً . لأنهم اعتقدوا أن للعذارى ، مثلهن فى ذلك مثل مريم العذراء بعض المزايا باعتبارهن وسائل الله ومبعوثاته .

وكان دينوا ، قد أكد للحامية فى أورليان ، ان الله سيغيثهم قريباً بشخص ما . فلما سمع عن جان ، كان بين مصدق ومكذب لآماله ، ورجا البلاط ، ان يرسلوها إليه توا . فوافقوا ، وأعطوها حصانا أسحم وأحاطوها بدرع أبيض ، ووضعوا فى يدها علما أبيض ، مزيناً بزهرة فرنسا ، وأرسلوها إلى دينوا ، مزودة بجمع من الحرس ، يحملون الزاد للمحصورين : ولم يكن من العسير ، أن تجد منفذاً إلى المدينة (٢٩ ابريل عام ١٤٢٩) ، فلم يكن الإنجليز ، يحدقون بها إحداقاً تاماً ، ولكنهم قسموا رجالهم الذين يتراوحون بين ألفين وثلاثة آلاف (أى أقل من حامية أورليان) على اثنى عشر

حصناً ، فى أماكن استراتيجية بالضواحى . وحيا أهل أورليان جان ، باعتبارها مريم العذراء مجسدة ، واتبعوها مؤمنين بها حتى إلى الأماكن المحفوفة بالمخاطر ، وصحبوها إلى الكنيسة ، يصلون إذا صلت ، ويبكون إذا بكت . وترك الجند ، خطياتهم بأمرها ، وجاهدوا ، لكى يثبتوا تطهرهم ، ووجد أخذ قادتهم وهو لاهير ، أن ذلك مستحيلا ، وجاءته فتوى من جان ، أن يقسم على عصا قيادته . وهذا المغامر الجاسكونى ، الذى نطق بالدعاء المشهور « إلهى مولاى أتوسل إليك أن تعمل من أجل لاهير ، ما يعمله هو من أجلك لو أنك كنت القائد ، وكان لاهير هو الله . »

وأرسلت جان كتابا إلى تالبوت ، القائد الانجليزى ، تقترح عليه ، أن يتحد الجيشان وأن يكونوا إخوة ، وأن يتقدموا إلى فلسطين ، لتخليص الأرض المقدسة من الترك ، ورأى تالبوت ، أن هذا يخرج عن نطاق مهمته . وبعد ذلك بأيام قلائل ، تجاوز فريق من الحامية الأسوار ، دون أن يعلموا دينوا أوجان وهاجموا حصناً بريطانياً . فأبلى الإنجليز بلاءاً حسناً ، وتقهقر ، الفرنسيون ، ولكن دينوا وجان ، سمعا بهذه الفتنة ، فركبا جواديهما واستحثا رجالها أن يعودوا إلى الهجوم من جديد ، ونجح الهجوم ، وترك الإنجليز مكانهم وفى اليوم التالى هاجم الفرنسيون حصنين آخرين ، واستولوا عليهما ، وكانت العذراء وسط المعمعة . وفى الصدام الثانى ، اخترق سهم كتفها ، فضمد الجرح وعادت إلى المعركة . وأخذ مدفع جويوم ديزى ، القوى يصب فى الوقت نفسه على قلعة الإنجليز فى ليه توريل ، قذائف ، تزن كل منها مائة وعشرين رطلا . وأعفيت جان من رؤية الفرنسيين المنتصرين وهم يذبحون خمسمائة من الإنجليز عندما سقط هذا المعقل الحصين . وانتهى تالبوت إلى أن قواته ، لاتفى بالحصار ، فأمرها بالانسحاب شمالا (٨ مايو). وابتهجت فرنسا بأسرها ، ورأت فى « عذراء أورليان » إرادة الله ولكن الإنجليز ، قالوا إنها ساحرة ، وأقسموا أن يأخذوها حية أو ميتة .

وفى اليوم التالى لانتصارها خرجت جان لتلقى الملك ، المتقدم من شينون ، فحياها بقبلة ، ووافق على خطتها ، فى السير عبر فرنسا إلى ريمز ، وإن كان معنى ذلك المرور بأرض معادية . وقابل جيشه قوات إنجليزية فى مونج وبوجنسى وباتاى ، وأحرز انتصارات حاسمة ، لطخوها بمذابح انتقامية ، أفزعت العذراء . ولما رأت جندياً فرنسياً ، يذبح أسيراً إنجليزياً ، ترجلت عن جوادها ، وأمسكت برأس الرجل المحتضر فى يديها ، وواسته ، وأرسلت تطلب كاهناً ، يعترف له . وفى الخامس عشر من يوليو ، دخل الملك ريمز ، وفى السابع عشر ، رسم وتوج فى احتفالات رائعة فى الكاتدرائية العظيمة . ورأى جاك دارك ، وهو عائد من دومرى ابنته ، فى زى الرجال ، تمتطى صهوة جوادها فى أبهة عبر عاصمة فرنسا الروحية ، فلم يدع الفرصة تفوته ، وضمن بوساطتها ، إعفاء قريته من الضرائب . واعترت جان نوبة عابرة ، اعتقدت فيها أن مهمتها ، قد انتهت ، وفكرت ، « ان رضى الله أن أرحل وأرعى الأغنام مع أختى وأخى » .

ولكن حمى القتال مازجت دماءها . ومع أن نصف فرنسا اعتقد أنها ملهمة ومقدسة ، فقد كادت تنسى الآن أنها قديسة ، وأصبحت محاربة . كانت حازمة مع جنودها ، تؤنبهم فى حب ، وجردتهم من وسائل التسلية التى يعدها جميع الجنود حقاً لهم ، ولما رأت بغيتين فى صحبتهم ، جردت سيفها من غمده ، وضربت إحداهما بقوة ، تحطم معها السيف وماتت المرأة ، وتبعت الملك وجيشه فى غارة على باريس ، وكان الإنجليز لا يزالون يحتلونها ، وكانت فى العربة عند تطهير الخندق الأول ، وما إن اقتربت من الخندق الثانى ، حتى أصيبت بسهم فى فخذها ، ولكنها ظلت تحث الجنود . وفشل هجومهم ، وبلغت إصاباتهم ألفاً وخمسمائة ، فلعنوها لأنها ظنت أن الصلاة قد تسكت مدفعاً ، ولم يكن ذلك من تجاريبهم . واتهمها بعض الفرنسيات اللائى كن يتسقطن أول إخفاق لها بأنها قادت هجوماً يوم ميلاد العذراء

(٨ سبتمبر ١٤٢٩) . فانسحبت بفرقتها إلى كومبين ، ولما حاصرها هناك البرغنديون المتحالفون مع الإنجليز ، قادت هجوماً ببسالة ، ولكنه صد ، وكانت آخر من انسحب ، ووجدت أبواب المدينة قد أوصدت قبل أن تبلغها . فسحبت عن جوادها ، وأخذت أسيرة إلى جون صاحب لكسمبورج (٢٤ مايو ١٤٣٠) وكرمها هذا السيد وأسكنها فى قلاعه فى بوليو وبوريفوار.

وأوقعه حسن حظه فى مأزق خطير . فإن مولاه ، فيليب الطيب صاحب برجنديا ، طالب بالغنيمة الثمينة ، وحث الإنجليز ، سيرجون على أن يسلم الفتاة إليهم ، آملين أن يؤدى إعدامها العلنى إلى تحطيم ذلك السحر الذى طالما قوى من عزائم الفرنسيين ، وأرسلوا بيير كوشون ، أسقف بوڤيه ، الذى طرد من كنيسته لمناصرته الإنجليز ، إلى فيليب بالسلطة والمال ليتفاوض على نقل العذراء إلى السلطات الإنجليزية ، ووعدوه إن وفق فى مهمته ، أن ينصبوه كبيراً لأساقفة روين . وكان دوق بدفورد ، يدير جامعة باريس ، فناشد علماءها ، أن ينصحوا فيليب بأن يسلم جان . فقد تكون ساحرة خارجة على الدين ، إلى كوشون باعتباره رئيس الكهنوت فى المنطقة التى أسرت فيها . ولما رفضت هذه المطالب ، قدم كوشون إلى فيليب وجون رشوة مقدارها عشرة آلاف كراون من الذهب . ولم تنجح هذه المحاولة أيضاً ، ففرضت الحكومة الإنجليزية حظراً على جميع الصادرات إلى الأراضى الواطئة : فواجهت فلاندرز الإفلاس ، وهى أغنى مصدر لموارد الدوق . ووافق جون على الرغم من توسلات زوجته ، كما وافق فيليب على الرغم من لقب « الطيب » الذى يتسمى به ، على قبول الرشوة آخر الأمر ، فأسلما العذراء إلى كوشون ، الذى أخذها إلى روين . ومع أنها كانت من الناحية الرسمية هناك ، من سجناء محكمة التفتيش ، إلا أنها وضعت تحت الحراسة الإنجليزية فى برج قلعة ، يحتلها ايرل ورويك بصفته حاكم روين . ووضعت الأغلال فى قدميها ، ولفوا وسطها بقيد وربطت إلى جذع من الخشب :

وبدأت محاكمتها فى الواحد والعشرين من فبراير عام ١٤٣١ ، واستمرت إلى اليوم الثلاثين من مايو . ورأس كوشون المحاكمة ، وقام أحد كهانه مدعياً عاماً . ومثل راهب دومينيكى محكمة التفتيش ، وأضيف حوالى أربعين من علماء الدين والشريعة إلى هيئة المحكمة . وكانت التهمة هى الهرطقة : وأفتت الكنيسة بأن ادعاء تلقى الوحى الإلهى هرطقة عقوبتها الإعدام ، وذلك لكى تقمع الفريق المفزع من المتجرين بالسحر ، الذين ابتليت بهم أوربا . فأحرقت الساحرات ، لادعائهن القوى الخارقة ، والرأى الشائع ، بين رجال الكنيسة والمدنيين ، أن الذين يدعون مثل هذا الادعاء ، يكونون قد حصلوا فى الواقع على القوى الخارقة من الشيطان . ويبدو أن بعض قضاة جان ، كانوا يعتقدون هذا فى قضيتها ، وفى رأيهم أن رفضها الاعتراف بأن سلطة الكنيسة باعتبارها ، وكيل الله على الأرض ، تنسخ أوامر هواتفها ، يثبت أنها ساحرة . ثم أخذ أغلبية أعضاء المحكمة بهذا الرأى ، ومع ذلك فقد تأثروا من بساطتها الصريحة فى إجاباتها ، وبتقواها وطهارتها الواضحتين ، فقد كانوا بشراً ، ويبدو أنهم شعروا بقدر عظيم من الشفقة نحو هذه الفتاة التى كانت فى التاسعة عشرة من عمرها ، وكان من الواضح أنها ضحية الخوف من الإنجليز . قال ووروك بصراحة الجندى « إن ملك انجلترا قد دفع فيها ثمناً باهظاً ، وهو لن يتركها مهما يكن ، تموت ميتة طبيعية » . واقترح بعض أعضاء المحكمة أن الأمر ينبغى أن يعرض على البابا — وذلك يخلصها ويخلص المحكمة من السلطة الإنجليزية . وأبدت جان رغبتها فى أن ترسل إليه ، ولكنها عقدت مفاضلة فاصلة قضت عليها ، فإنها تعترف بسلطته العليا فى شئون العقيدة ، أما فيما يتعلق بما فعلته إطاعة لهواتفها ، فليس لها من قاض غير الله . وأجمع القضاة على أن قولها هذا هرطقة . وقضت فى المحاكمة شهوراً أنهكتها ، وأقنعت بأن توقع على تنازل عما سبق أن قالته ، ثم رأت أنها بهذا ستقضى حياتها سجينة فى نطاق القضاء الإنجليزى ، فسحبت تنازلها ، وأحاط الجنود

الإنجليز بالمحكمة ، وهددوا القضاة بالقتل ، إذا لم تمت العذراء حرقاً . وفى الواحد والثلاثين من مايو ، اجتمع نفر من القضاة وحكموا عليها بالإعدام .

وفى الصباح نفسه ، وضعت أكوام مرتفعة من الحطب فى ساحة السوق بمدينة زوين . ونصبت منصتان بالقرب منها — إحداهما لونشستر كاردينال إنجلترا وأساقفته ، والأخرى لكوشون والقضاة ، ووقف للحراسة ثمانمائة من الجنود البريطانيين . وأحضرت العذراء فى عربة ، يصحبها راهب أوغسطينى ، واسمه ، إسامبار ، الذى صادقها إلى النهاية ، معرضاً حياته للخطر . وطلبت صليباً ، فسلمها أحد الجنود الإنجليز إياه ، وقد صنعه من قضيبين من الخشب ، فقبلته ، ولكنها طلبت أيضاً ، صليباً باركته الكنيسة ، وأقنع إسامبار الموظفين ، أن يحضروا إليها صليباً من كنيسة سانت سوفير . فزمجر الجند من التأخير لأن الوقت أصبح ظهراً . وسأل قائدهم « أتريدوننا أن نتناول غذاءنا هنا ؟ » . فانتزعها رجاله من أيدى القساوسة ، وساقوها إلى القائمة التى تشد إليها . ورفع إسامبار ، أمامها صليباً ، وصعد راهب دومينيكى معها إلى المحرقة . وأشعلت أكوام الحطب ، وارتفعت ألسنة اللهب إلى قدميها . فلما رأت الراهب الدومينيكى ، لا يزال إلى جانبها ، ناشدته أن يهبط آمناً . وابتهلت إلى هواتفها ، وقديسيها ، والملك ميكائيل والمسيح ، ودخلت فى سكرات الموت . وتنبأ أحد كتاب سر الملك الإنجليزى بحكم التاريخ باكيا . . « قضى علينا ، لقد أحرقنا قديسة » .

وفى عام ١٤٥٥ أمر البابا كاليكستاس Calixtus الثالث ، بوحى من شارل السابع ، أن يعاد فحص الأدلة التى أدينت بها جان ؛ وفى عام ١٤٥٦ (وكانت فرنسا منتصرة حينذاك) أعلنت المحكمة الدينية التى أعادت النظر فى الموضوع ، ان الحكم الذى صدر عام ١٤٣١ ، ظالم وباطل . وفى عام ١٩٢٠ عد البابا بيندكت الخامس عشر عذراء أورليان ، بين قديسى الكنيسة .

١٠ — فرنسا تبقى ١٤٣١ — ١٤٥٣

يجب علينا ألا نبالغ فى الأهمية الحربية لجان دارك ، وربما كان فى استطاعة دينوا ولاهير ، أن ينقذا أورليان بدونها ، فإن خططهما فى الهجوم المتهور أحرزت النصر فى بعض الوقائع والهزيمة فى الأخرى ، وكانت إنجلترا تحس تكاليف حرب المائة عام . ولقد وقع فيليب صاحب برجنديا وحليف انجلترا ، معاهدة منفصلة مع فرنسا ، بعد أن مل الحرب ، وزعزع تخلفه ، قبضة الإنجليز على المدن التى غزوها فى الجنوب ، فتمكنت الواحدة بعد الأخرى من طرد الحاميات الأجنبية عنها . وأجلت باريس ، البريطانيين عام ١٤٣٦ بعد أن ظلت محتلة سبع عشرة سنة ، وحكم شارل السابع آخر الأمر فى عاصمة ملكه .

ومن عجيب ما يروى ، أن هذا الرجل الذى لبث طويلا كالخيال لا حول له ولا قوة ، قد تعلم فى ذلك الحين أن يحكم ويختار الوزراء الأكفاء ، وأن يعيد تنظيم الجيش ويهدئ من ثورة البارونات وأن يفعل كل ما يحقق الحرية لبلاده . فما الذى أحدث هذا التحول ؟ لقد حفزه إليه وحى جان ، فما كان أضعفه — فيما يبدو — إذ لم يرفع إصبعاً لإنقاذها . . ويروى أن حماته الجديرة بالاحترام ، يولاند أميرة أنجو هى التى أعانته بالرأى السديد ، وشجعته على استقبال العذراء ومناصرتها . ونحن — إذا صدقنا الرواية — قلنا إنها قدمت لزوج ابنتها الحظية ، التى ظلت تتحكم فى قلب الملك عشر سنوات.

وكانت انييه سورل — وهذا اسمها — ابنة سيد فى تورين ، وكانت يتيمة فى طفولتها ، فنشأتها على الأخلاق الحميدة ، إيزابل دوقة لورين . ثم صحبتها ، وهى إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمرها ، لزيارة البلاط الملكى فى شينون عام (١٤٣٢) أى بعد عام واحد من وفاة جان . وفتن شارل بجدائل شعرها الكستنائى ، وأغرم بضحكتها ، فآثرها لنفسه . ووجدتها يولاند سهلة الانقياد ، فرأت أن تصطنعها فى التأثير على الملك ،

وناشدت ابنتها مارى ، أن تقبل هذه الحظية الأخيرة من حظيات زوجها .
واستمرت مخلصة للملك ، خائنة لعهود الزواج طوال حياتها ، حتى إن ملكا ممن جاءوا بعد ذلك وهو فرنسيس الأول ، وكان صاحب خبرة طويلة بهذه الأمور امتدح ، « سيدة الجمال كله » بأنها خدمت فرنسا أكثر من أى راهبة حبيسة فى دير . « والتذ شارل طعم الحكمة من هاتين الشفتين » ، ولقد سمح شارل لها أن تخرجه من عادة الخمول والجبن إلى الجد والعزم . فجمع حوله رجالا قادرين مثل الياور ريشمون ، الذى قاد جيوشه ، وجاك كير الذى أعاد الاستقرار إلى مالية الدولة ، وجان بيرو ، الذى جعلت مدفعيته ، النبلاء المعارضين يلوذون بالفرار والإنجليز يسرعون إلى كاليه .

وكان جاك كير مغامراً فى التجارة ، ورجلا لا يعرف نسبه وحظه من التعليم قليل ، ومع ذلك ، كان يجيد العد ، كما كان فرنسياً اجترأ على أن ينافس بنجاح البندقيين والجنوبيين والقطلانيين فى التجارة مع الشرق الإسلامى . وكان يملك سبع سفن تجارية مجهزة ، يعمرها بمجرمين يستأجرهم ، ومشردين يختطفهم من عرض الطريق ، ثم يرسل سفنه تخوض البحار يرفرف عليها علم العذراء . واستطاع أن يجمع أعظم ثروة فى فرنسا لعهده ، حوالى ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، عندما كان الفرنك يساوى ما يقرب من خمسة دولارات بالعملة الهزيلة فى أيامنا . وفى عام ١٤٣٦ عينه شارل مشرفاً على دار سك النقود ، وسرعان ما جعله مشرفاً على موارد الحكومة ، ومصروفاتها . ولقد أيد مجلس الولايات عام ١٤٣٩ ، الملك بحماسة فى تصميمه على طرد الإنجليز من الأرض الفرنسية ، فشد من عزيمته بقوانين متعاقبة (١٤٤٣ — ١٤٤٧) ليستولى على جميع الضرائب فى فرنسا — أوبعبارة أخرى جميع الضرائب ، التى كان يدفعها المستأجرون لسادتهم الإقطاعيين ، فزاد دخل الحكومة سنوياً إذ ذاك إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ كراون ، فأصبحت الملكية الفرنسية ، منذ ذلك الوقت ، تختلف عن الملكية الإنجليزية ، فى استقلالها

عن السلطان المالى للولايات ، وتستطيع أن تقاوم نمو ديمقراطية الطبقة الوسطى . وأمد هذا النظام القومى للضرائب ، الحكومة بالمال من أجل انتصار فرنسا على انجلترا ، ولكن الملك كان قادراً على زيادة معدل الضريبة ، فقد أصبح ذلك وسيلة أساسية من وسائل الضغط الملكى ، وهو من أسباب اندلاع ثورة عام ١٧٨٩ . وكان لجاك كور شأن كبير فى هذا التطور المالى ، فاكتسب إعجاب الكثيرين وعداوة قلة من الأقوياء . فقبض عليه عام ١٤٥١ بتهمة — لم تثبت أبدا — استئجار عملاء ليدسوا السم لأنييه سورل وأدين ونفى من البلاد وصادرت الدولة جميع أمواله — وهى خطة بارعة للاغتصاب بطريق غير مباشر . ففر إلى روما ، حيث نصب ، أمير بحر على أسطول بابوى ، أرسل لتخليص رودس . ومرض فى كيوس ، ومات هناك عام ١٤٥٦ ، بالغاً من العمر إحدى وستين سنة .

وفى الوقت نفسه سار شارل السابع على منوال كبر ، فأنشأ عملة مستقرة ، وجدد بناء القرى المخربة ، وارتقى بالصناعة والتجارة ، وأعاد الحيوية الاقتصادية إلى فرنسا . وأمر بتسريح الفرق الخاصة من الجنود ، وألحق هولاء المسرحين بخدمته ، وهكذا تكوّن أول جيش نظامى فى أوربا ، (١٤٣٦) . وأصدر مرسوما ، نص على أنه يجب أن يوجد فى كل ناحية ، مواطن شديد البأس ، منتخب من زملائه ، يعفى من الضرائب كلها ، وأن يكون مسلحاً ، مدرباً على استعمال الأسلحة ، مستعداً فى كل لحظة ، لينضم إلى أمثاله فى الخدمة العسكرية للملك . وهؤلاء الرجال الأحرار من حملة القسى هم الذين طردوا الإنجليز من فرنسا .

وما أشرف عام ١٤٤٩ حتى كان شارل متأهباً للخروج على الهدنة التى وقعت عام ١٤٤٤ . وتعجب الإنجليز وصدموا وكانت قد أضعفتهم المنازعات الداخلية ، ووجدوا أن إمبراطوريتهم الآفلة فى فرنسا تكلفهم فى القرن الخامس عشر ما لا طاقة لهم به كما تثقل عليهم الهند فى القرن العشرين ،

فلقد تكلفت فرنسا على انجلترا عام ١٤٢٧ ثمانية وستين ألف جنيه فى حين حصلت منها على سبعة وخمسين ألفاً فقط . وحارب الإنجليز بشجاعة ولكن بغير تبصر ، إذ اعتمدوا طويلا على القسى والقضبان ، ولم تعد الخطط التى صدت الفرسان الفرنسيين فى كرسى وبواتييه تجدى فى فورمينى (١٤٥٠) فى الصمود أمام مدفع بيرو . وفى عام ١٤٤٩ جلا الإنجليز عن معظم نورمانديا ، وتركوا عاصمتها روين عام ١٤٥١ . وهزم تالبوت العظيم عام ١٤٥٣ وقتل فى كاستلون ، واستسلمت بوردو ، وعادت جوين بأسرها فرنسية مرة أخرى ، واحتفظ الإنجليز بمدينة كاليه فقط . ووقعت الأمتان فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٤٥٣ المعاهدة التى وضعت حدا لحرب المائة عام .

الفصل الرابع

بلاد الغال الخالدة

١٤٥٣ – ١٥١٥

١ – لويس الحادى عشر : ١٤٦١ - ١٤٨٣

وكان ابن شارل السابع وولى عهده متعباً على غير العادة . ولقد زوج وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، رغم إرادته (١٤٣٦) من مارجريت صاحبة اسكتلندا ، وكان عمرها إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، فانتقم لنفسه بإهمالها واتخاذ الخليلات . وأغرمت مارجريت بالشعر ، ووجدت السلام الأبدى فى الموت المبكر (١٤٤٤) وقالت وهى تلفظ أنفاسها « تبا للحياة . . امسكوا الحديث عنها . . » وانتقض لويس على أبيه مرتين ، وفر إلى فلاندرز بعد المحاولة الثانية ، وانتظر نافذ الصبر أن يؤول السلطان إليه . وأعانه شارل على بلوغ مأربه ، بأن انقطع عن الطعام إلى أن مات (١٤٦١) ، وحكم فرنسا بذلك واحد من أعجب الملوك وأعظمهم طيلة اثنتين وعشرين سنة.

وكان إذ ذاك فى الثامنة والثلاثين ، نحيلا غليظ القلب ، غير منغمس فى الترف ، له عينان مرتابتان وأنف طويل ، أقرب إلى الفلاح فى مظهره ، يتخذ زى الحاج الزاهد الذى يتألف من رداء أغبر خشن وقبعة رثة من اللباد ، وكان يصلى كالقديس ، ويحكم كأنما قرأ كتاب « الأمير » قبل أن يولد مكيافلى . . واحتقر أبهة الإقطاع ، وسخر من التقاليد والمراسيم ، وبحث فى شرعية مولده ، وأذهل جميع العروش ببساطته . وعاش فى قصر دى تورنل الكئيب بباريس ، أو قصر بلسيه ليه تور ، بالقرب من مدينة تور ، كالأعزب ، وان تزوج مرتين ، وكان شحيحاً وإن كان يمتلك فرنسا ،

ولم يحتفظ من الخدم إلا بالنفر الذين كانوا معه فى المنفى ، ولا يأكل من الطعام إلا بمقدار ما يتاح لأحد الفلاحين ، ولم يكن مظهره ينبىء عن شيء ، وإن كان ملكاً فى كل شيء .

فلقد أخضع كل عنصر فى شخصه لإرادته المصممة ، وكان على فرنسا ، أن تتحول بمطرقته ، من التمزق الإقطاعى إلى وحدة ملكية ودولة موحدة ، إذ يجب على هذه الحكومة الملكية المركزية أن ترفع فرنسا من رماد الحرب إلى حياة جديدة وبأس جديد ، ووقف لويس فكره آناء الليل وأطراف النهار ، على هدفه السياسى ، بعقل واضح ماكر ، مبتكر ، لا يهدأ ، مثله فى ذلك مثل قيصر ، يرى أنه ما من شيء يتحقق ، مادامت له بقية تحتاج إلى عمل . « أما السلام فلا يكاد يحتمل مجرد التفكير فيه » ، كما قال كومينيس . ومع ذلك فلم يكن موفقاً فى الحرب ، وآثر الدبلوماسية والتجسس ، والرشوة على استعمال القوة ، وجمع الناس حوله لتأييد أهدافه بالإقناع والتملق والتخويف ، واحتفظ بحشد كبير من الجواسيس فى خدمته فى داخل البلاد وخارجها ، وكان يدفع مرتبات سرية بانتظام لوزراء ملك انجلترا ادوارد الرابع . ويستطيع أن يستسلم ويحتمل الإهانة ويتظاهر بالخضوع ، وينتظر فرصة للنصر أو الانتقام . ووقع فى أخطاء جسام ، ولكنه تخلص منها ببراعة مذهلة غير هيابة : ولقد عنى بكل ما يتصل بالحكومة من تفاصيل ، ولم يكن ينسى شيئاً . وادخر مع ذلك فسحة من الوقت للآداب والفن ، فقرأ بنهم ، وجمع المخطوطات ، وفطن إلى الثورة التى ترهص بها المطبعة ، واستمتع بصحبة المثقفين ، وبخاصة إذا كانوا « بوهيميين » بالمفهوم الباريسى . وانضم وهو فى منفاه بفلاندرز إلى كونت شاروليه ، فى تأليف أكاديمية للعلماء ، الذين أساغوا حذلقتهم بحكايات مرحة على منهج بوكاشيو ، ولقد جمع انتوان دى لاسال ، بعضها فى مصنفه « مائة حكاية جديدة » واشتدت وطأة الملك على الأغنياء ، ولم يحفل بالفقراء ، وكان

معادياً لنقابات الغال ، وآثر الطبقة الوسطى باعتبارها أقوى مؤيد له ، ولم يرحم الذين يعارضونه أياكانت طبقتهم وأمر ، بعد ثورة بربينيان ، بأن تجب مذاكير ، كل ثائر منفى ، يجسر على العودة . وفى حروبه مع النبلاء حبس بعض الأعداء أو الخونة السنوات الطوال فى أقفاص من الحديد طولها ثمانية أقدام وعرضها مثل ذلك وارتفاعها سبعة ، وهى وسائل ابتكرها أسقف فردان ، الذى شغل قفصا منها بعد ذلك أربع عشرة سنة . واشتد إقبال لويس فى الوقت نفسه على الكنيسة ، لحاجته إلى معونتها ضد النبلاء والدول ، وكانت معه مسبحة لا تكاد تفارق يده ، يردد عليها الصلاة الربانية وينقطع لصلاة العذراء ، انقطاع راهبة فى سكرات الموت ، ولقد افتتح عام ١٤٧٢ صلاة التبشير — وهى صلاة ظهر للعذراء من أجل سلم المملكة . وزار الأضرحة المقدسة ، وبجل الآثار الدينية ، ورشا القديسين ليقوموا بخدمته ، وأخذ العذراء معه فى حروبه . ولما قضى ، عرض كقديس على حامل فى كنيسة فى مدينة تور .

وخلق بأخطائه هذه فرنسا الجديدة إذ وجدها مجموعة منحلة من الإمارات الإقطاعية والكهنوتية ، فجعل منها أقوى أمة فى العالم المسيحى اللاتينى . واجتلب نساجى الحرير من إيطاليا . وعمال المناجم من ألمانيا ، وعمل على تحسين الموانىء ووسائل المواصلات ، وحماية السفن الفرنسية ، وفتح أسواقاً جديدة للصناعة الفرنسية ، وجعل حكومة فرنسا حليفة للبورجوازية التجارية والمالية الناهضة . ورأى أن التوسع فى التجارة عبر الحدود المحلية والقومية فى حاجة إلى إدارة قوية مركزية . ولم يعد الإقطاع ضرورياً لحماية الزراعة والإشراف عليها ، وكانت طبقة الفلاحين تحرر نفسها ببطء من العبودية الخامدة ، ولقد مضى الزمن الذى كان فيه الأمراء الاقطاعيون يشرعون القوانين الخاصة بهم ، ويضربون سكتهم ، ويمارسون السيادة على ولاياتهم ، وألزمهم شارل بوسائل صالحة وطالحة بالخضوع والنظام واحدا بعد واحد .

وقيد حقهم فى الاعتداء على أملاك الفلاحين فى صيدهم ، وأنشأ إدارة بريد حكومية تخترق ولاياتهم (١٤٦٤) ، وحرم عليهم ، أن يخوضوا حروباً خاصة بهم ، وطالبهم بالمتأخر من الالتزامات التى أخفقوا فى دفعها لسادتهم فى الإقطاع وهم ملوك فرنسا .

ولم يكن الأمراء الإقطاعيون يحبونه . فاجتمع ممثلون لخمسمائة أسرة نبيلة فى باريس وألفوا جبهة الصالح العام (١٤٦٤) ليبسطوا أيديهم على امتيازاتهم بشعار الصالح العام . وانضم كونت شاروليه إلى هذه الجبهة ، فقد جعلته وراثته لعرش برجنديا مشوقا لضم شمال شرقى فرنسا إلى دوقيته . ورحل شارل دوق برى وهو شقيق الملك لويس نفسه ، إلى بريتانى وتزعم الثورة . . . فتجمعت الأعداء والجيوش من كل جانب ضد الملك ، ولو استطاعوا أن يتحدوا لقضوا على الملك، وكان أمله الوحيد أن يهزمهم متفرقين فرادى . فاندفع جنوباً عبر نهر آلييه ، وأكره قوة معادية على التسليم ،وأسرع عائداً إلى الشمال فى الوقت المناسب ليحول بين جيش برجندى وبين دخول عاصمته . وادعى كل فريق أنه انتصر فى معركة مونتلهيرى ، وانسحب البرجنديون ، ودخل لويس باريس وعاد البرجنديون مع حلفائهم وحاصروا المدينة . ولم يشأ لويس أن يخاطر بدفع الباريسيين إلى الثورة عليه ، وهم الذين يأبى عليهم ذكاؤهم أن يموتوا جوعاً فسلم بمقتضى معاهدة كنفلان (١٤٦٥) كل ما كان يطلبه أعداوه تقريباً — الأرض — والمال والمناصب ، وأخذ أخوه شارل نورمانديا . ولم يذكر شىء عن صالح الشعب ، وكان لابد من فرض ضرائب على الناس لجمع الأموال المطلوبة . وانتظر لويس وقته الملائم .

وسرعان ما انزلق شارل إلى محاربة الدوق فرنسيس صاحب بريتانى ، الذى أسره ، وسار لويس إلى نورمانديا واستعادها بلا إراقة دماء . ولكن فرنسيس ، الذى توقع بحق ، أن لويس يطلب بريتانى أيضاً ، تحالف مع كونت شاروليه — وكان قد أصبح وقتذاك الدوق شارل الجسور صاحب

برجنديا — فى معاهدة هجومية ، ضد الملك الذى لا رادع له . وشحذ لويس كل وسيلة من وسائل الدبلوماسية ، فعقد صلحاً منفرداً مع فرنسيس ، واتفق على حضور مؤتمر شارل فى بيرون . وكانت نتيجة ذلك ، أن سجنه شارل ، وأرغمه على التنازل عن بيكاردى والاشتراك فى تطويق لييج . وعاد لويس إلى باريس وقد بلغ الحضيض فى السمعة والسلطان ، بل إن الببغاوات دربت على السخرية منه (١٤٦٨) . وبعد عامين ، من تبادل الخيانة والغدر ، انتهز لويس فرصة انشغال شارل فى جلدرلاند ، وسير جيوشه إلى سانت كونتان وأمين وبوفيه . فألح شارل على ادوارد الرابع أن يتحد معه على فرنسا ، ولكن لويس أبعد إدوارد عن هذا المشروع بالمال . وكان يعرف كلف إدوارد بالنساء ، فدعاه إلى الحضور ، ليلهو مع نساء باريس ، كما أبدى استعداده أن يعين لادوارد ، كاردينال بوربون ، ليكون صاحب كرسى الاعتراف الملكى ، الذى « يسره أن يحله ، إذ اقترف خطيئة ما بوساطة الحب أو الشهامة » . واحتال حتى جعل شارل يقع فى حرب مع سويسرا ، حتى إذا قتل شارل لم يأخذ لويس بيكاردى فحسب وإنما أخذ برجنديا نفسها أيضا (١٤٧٧) . وهدأ من سورة النبلاء البرجنديين بالذهب ، وأرضى الشعب بأن اتخذ له خليلة برجندية .

وأحس عندئذ أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يواجه البارونات الذين طالما حاربوه ، وقلما لبوا نداءه ، أن يخرجوا للحرب من أجل فرنسا . وكان أكثر الأمراء الذين تآمروا عليه عام ١٤٦٥ قد ماتوا ، أو أقعدتهم الشيخوخة . وتعلم خلفاؤهم أن يخشوا ملكا ، يقطع رؤوس الخونة من الأرستقراطية ويصادر ضياعهم ، ملكا أنشأ جيشاً قوياً من المرتزقة ، وأنه مستعد على الدوام لجمع الأموال الطائلة لشراء الضمائر ودفع الرشى . وآثر لويس أن ينفق أموال شعبه لا أرواحه ، فاشترى سردينيا وروسيلون من أسبانيا . وحصل على روشل بموت أخيه ، وأخذ النسون وبلوا عنوة ،

وألح على رينيه أن يتنازل عن بروفنس للتاج الفرنسى (١٤٨١) ، وبعد ذلك بعام عادت أنجوومين إلى الملكية ، وفى عام ١٤٨٣ تنازلت فلاندرز ، وكانت تنشد معونة لويس ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عن كونتية ارتوا مع المدينتين المزدهرتين اراس ودواى . وهكذا قهر لويس البارونات وسيطر على مجالس البلديات والولايات فأنجز بذلك لفرنسا تلك الوحدة القومية والإرادة المركزية التى أنجز مثلها بعد عشر سنوات هنرى السابع ، لانجلترا ، وفرديناند وايزابلا لأسبانيا ، واسكندر السادس للولايات البابوية . وهذا الصنيع وإن أحل طغيان فرد محل طغيان أفراد كثيرين ، إلا أنه كان فى ذلك الوقت حركة تقدمية ، توطد النظام فى الداخل والأمن فى الخارج ، وتثبت العملة والمقاييس ، وتذيب اللهجات فى لغة واحدة ، وتعين على نمو أدب وطنى لفرنسا . ولم تكن الملكية مطلقة ، فقد احتفظ النبلاء بسلطات كبيرة ، وكانت موافقة مجلس الولايات ضرورية ، فى العادة لإقرار الضرائب الجديدة . وأعفى النبلاء والموظفون ورجال الدين من الضرائب . أعفى النبلاء على أساس أنهم حاربوا من أجل الشعب ، والموظفون لأنهم كانوا يبخسون فى الأجر والرشوة ، ورجال الدين لأنهم يحمون الملك والوطن بصلواتهم . وكان الرأى العام والعرف السائد يحدان من سلطة الملك ، وكانت المجالس المحلية لاتزال تزعم أن أى مرسوم ملكى بقانون لا يصبح نافذا فى مناطقهم إلا إذا وافق الأعضاء عليه ووثقوه . ومهما يكن من شىء فقد فتح الطريق للملك اويس الرابع عشر ونظام « أنا الدولة » .

وأخذ لويس نفسه بين هذه الانتصارات جميعاً يذوى جسما وعقلا . فسجن نفسه فى بليسيه — ليه — تور ، خوفا من الاغتيال ، وارتاب فى الجميع ، وقلما رأى إنساناً ، وعاقب على الأخطاء والنقائص بقسوة ، وارتدى بين حين وآخر حللا تناقض فخامتها أرديته الخشنة فى مطلع حكمه

وأصبح نحيلا شاحباً حتى إن الذين رأوه تعذر عليهم أن يصدقوا أنه على قيد الحياة . وكابد الآلام سنوات من البواسير . وأصيب بالفالج فى بعض الأحيان . وفى الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٤٨٣ ، أصابته نوبة من الفالج أفقدته النطق ، وما لبث خمسة أيام حتى مات .

فابتهج رعاياه ، لأنه أجبرهم على أن يدفعوا ما لا طاقة لهم به من تكاليف هزائمه وانتصاراته ، مما زاد الشعب فقراً ، وفرنسا عظمة ومجدا ، فى كنف سياسته التى لا ترحم . ومع ذلك فإن العصور التى جاءت بعده ، أفادت من إخضاعه النبلاء ، وإعادته تنظيم المالية والإدارة والدفاع ، ورقيه بالصناعة والتجارة والطباعة ، وتكوينه دولة موحدة حديثة . ولقد كتب كومنيس « إذا أحصيت جميع أيام حياته وعقدت موازنة بين المسرات والمباهج وبين آلامه ومتاعبه ، فستكون النتيجة ، عشرين يوماً محزناً فى مقابل يوم واحد بهيج . ولقد دفع هو وجيله ثمن ازدهار فرنسا وأبهتها فى المستقبل » .

٢ ـ المغامرة الإيطالية

وكان شارل الثامن فى الثالثة من عمره عندما مات أبوه فلبثت أخته آن دى بوجيه ، ولم تكن تكبره بغير عشر سنين ، تحكم فرنسا بتعقل ثمانى سنوات . فخفضت نفقات الحكومة ، وأعفت الشعب من ربع ضريبة الرؤوس ؛ وأعادت كثيرين من المنفيين ، وأطلقت سراح كثيرين من المسجونين ، ووفقت فى مقاومة محاولات البارونات ، « الحرب الحمقاء » (١٤٨٥) ، لاستعادة سيادتهم المحلية التى انتزعها لويس . ولما اشتركت بريتانى مع أورليان ولورين وانجوليم وأورانج ونافار فى عصيان آخر ، استطاعت بدبلوماسيتها وقيادة لويس دى لاترمويل أن تهزم الجميع ، وكانت مظفرة فى وضع حد لهذه المشكلة بأن أعدت لزواج شارل من آن صاحبة بريتانى ، التى قدمت دوقيتها العظيمة صداقا لتاج فرنسا (١٤٩١) . وعندئذ اعتزلت

نائبة الملك الحكم وعاشت بقية حياتها ، وهى إحدى وثلاثين سنة آمنة فى زوايا النسيان .

أما الملكة الجديدة ، وان اتفقت معها فى الاسم إلا أن شخصيتها كانت مختلفة تمام الاختلاف ، فلقد كانت قصيرة مسحاء نحيفة عرجاء ، غليظة الأنف واسعة الفم على وجه قوطى طويل ، ولها عقلها الخاص بها ، وفيها من الدهاء والبخل ما فى كل بريتانى . ومع أنها كانت بسيطة فى ثيابها ، بحلتها وقلنسوتها السوداوين ، إلا أنها كانت فى المناسبات الرسمية — تتلألأ بالجواهر والثياب الموشاة بالذهب ، وهى لا شارل التى قربت الفنانين والشعراء ، وكلفت جان بورديشون أن يصور « صلوات آن أميرة بريتانى » . ولم تنس قط موطنها الحبيب بريتانى وطرائقها فى الحياة ، فغلفت كبرياءها بالتواضع ، وعكفت على حياكة الثياب ، وكافحت من أجل إصلاح أخلاق الملك وحاشيته .

ويقول برنتوم الثرثار « إن شارل يشغف بالنساء أكثر مما تحتمله بنيته النحيلة » . واقتصر بعد زواجه على خليلة واحدة . ولم يكن يستطيع أن يشكو من منظر زوجته ، فلقد كان هو نفسه طويل الرأس أحدب ، قسماته تنم على السذاجة ، عيناه واسعتان بلا لون ، قصير النظر ، وشفته السفلى غليظة ومتدلية ، متردد فى الحديث ، ويداه ترتعشان فى تشنج . ومع ذلك كان حسن الطبع ، رحيما مثالياً فى بعض الأحيان . ويقرأ قصص الفروسية ، وامتلأ رأسه بفكرة إعادة فتح نابلى لفرنسا وبيت المقدس للعالم المسيحى : وظلت أسرة انجو ، تبسط يدها على مملكة نابلى (١٢٦٨ — ١٤٣٥) إلى أن انتزعها منهم ألفونسو صاحب أراجون ، وانتقلت مطالبة دوقات انجو بملكها إلى لويس الحادى عشر بالوراثة ، ثم جهر شارل بالمطالبة . واعتقد مستشاروه أنه آخر إنسان فى العالم يستطيع أن يقود جيشاً فى حروب كبيرة ، ولكنهم أملوا أن تمهد الديبلوماسية طريقه ، وأن الاستيلاء على نابولى ،

سيسمح للتجارة الفرنسية ، أن تتحكم فى البحر الأبيض المتوسط . وتركوا أرتوا فرانش — كونتيه إلى ماكسميليان صاحب النمسا وسردينيا وروسيلون لفرديناند ملك أسبانيا وذلك لحماية أطراف المملكة ، ورجوا أن يحصلوا على نصف إيطاليا من أجل الأجزاء التى اقتطعت من فرنسا واستطاع لودوفيكو نائب الملك فى ميلان أن يجمع جيشاً قوامه أربعون ألف رجل ، ومائة مدفع حصار وست وثمانون سفينة حربية . وذلك بفضل الضرائب الباهظة والجواهر المرهونة والقروض التى سحبت من رجال المال فى جنوا .

وخرج شارل مبتهجاً (١٤٩٤) ، ولعله لم ير بأساً من أن يخلف وراءه أخته وزوجته . فقوبل فى ميلان بالترحيب (وكان بينها وبين نابلى حزازة تريد أن تحسمها) . ولم يجد عند سيداتها مقاومة ما وخلف بعد مسيره جمعا من الأبناء غير الشرعيين ، ولكنه أبى فى شهامة أن يمس عذراء ناشزة جلبها وصيفه لإمتاعه ، وما كان منه إلا أن أرسل يطلب حبيبها ، ورأس بنفسه حفل خطوبتهما ، ومنحها صداقاً مقداره خمسمائة كراون . ولم تكن عند نابلى قوة عسكرية تقاوم جيشه فانتصر عليها فى يسر ودخلها (١٤٩٥) ، واستمتع بجمال مناظرها ، ومطاعمها ونسائها ، ونسى بيت المقدس .

ومن الواضح أنه كان من الفرنسيين السعداء ، الذين لم يصابوا بذلك المرض التناسلى الذى سمى فيما بعد « بالداء الغالى » لأنه انتشر بسرعة فى فرنسا بعد عودة الجنود إليها . وعقدت « محالفة مقدسة » بين الإسكندر السادس والبندقية ولودوفيكو صاحب ميلان (الذى تحول عن ولائه السابق) فأرغموا شارل على الجلاء عن نابلى والانسحاب عبر إيطاليا التى تناصبه العداء . وحارب جيشه الآخذ فى النقصان معركة غير حاسمة فى فورنوفو (١٤٩٥) ، وعاد مسرعاً إلى فرنسا ، حاملا معه مقومات النهضة فيما حمل من أسباب العدوى .

وفى فورنوفو أبدى بيير تيراى سيد باياز ، لأول مرة وكان إذ ذاك

فى الثانية والعشرين من عمره ، شجاعة أكسبته نصف اللقب المشهور الذى عرف به وهو « الفارس الذى لا يخاف ولايلام » : ولقد ولد فى قصر بايار بإمارة ولى العهد ، وهو من أسرة نبيلة ، لم يمت رئيس من رؤسائها طوال قرنين إلا فى حومة القتال ، ولعل بيير أراد فى هذا اللقاء ، أن يواصل ذلك التقليد . ونفق من تحته جوادان ، وظفر بأحد ألوية العدو ، فجعله مليكه فارساً تقديراً لبسالته . واستطاع أن يحتفظ فى عصر انتشرت فيه الفظاظة والعبث والخيانة بجميع فضائل الفروسية — فقد كان ، فى غير تظاهر شهماً ، مخلصاً فى غير خنوع . شريفاً فى غير تيه ، وخاض اثنى عشر حربا بروح رحيمة مرحة حتى لقبه معاصروه « الفارس الطيب » ، وسنلقاه مرة أخرى .

وعاش شارل بعد رحلته إلى إيطاليا ثلاث سنوات . وذهب لمشاهدة مباراة تنس فى امبواز فصفع رأسه باب غير محكم ، ومات من نزيف فى المخ بالغاً من العمر ثمانية وعشرين سنة . ولما كان أبناؤه قد ماتوا قبله ، فقد تحول العرش إلى ابن أخيه دوق أورليان ، الذى أصبح الملك لويس الثانى عشر (١٤٩٨) والذى ولد لشارل صاحب أورليان ، وهو شاعر عندما كان فى السبعين من عمره ، وكان لويس عند توليه العرش فى السادسة والثلاثين سقيم البنية منذ أمد . وكانت أخلاقه مهذبة على غير عادة ذلك العصر ، وسجاياه صريحة توصى بالمحبة ، حتى لقد تعلمت فرنسا أن تحبه ، رغم حروبه التى لانفع فيها وكان يبدو متهما بعدم اللياقة ، لأنه طلق عام تتويجه جان دى فرانس ، ابنة لويس الحادى عشر ، ولكن ذلك الملك العنيد فى مرونة ولين هو الذى أرغمه على الزواج من تلك الفتاة التى لا جاذبية لها ، عندما بلغ الحادية عشرة من عمره فقط . ولم يكن يستطيع أن يحبها ، فهو الآن يطلب إلى الإسكندر السادس أن يلغى ذلك الزواج على أساس قرابة العصب ، وأن يقر بناءه بالأرملة آن صاحبة بريتانى —

فى مقابل عروس فرنسية وكونتية ومعاش لابن البابا : قيصر بورجيا — وحملت آن معها دوقيتها كجزء من جهاز العروس . واتخذا مسكنهما فى بلوا ، وأعطيا فرنسا نموذجا ملكياً للحب والإخلاص المتبادلين .

ويمثل لويس الثانى عشر سيادة الشخصية على الفكر . ولم يكن فى دهاء لويس الحادى عشر ، بيد أن له النية الطيبة والرزانة الحسنة ، والفطنة ، التى تتيح له أن يجسم الكثير من قوته فى أعوانه الذين أحسن اختيارهم . وترك الإدارة ، ومعظم السياسة ، إلى صديق عمره جورج ، كاردينال امبواز ، فأدار هذا الكاهن الحكيم الطيب ، الأمور بحذق ، حتى إن الشعب المتقلب كان كلما جد أمر ، هز كتفيه ، وهمس « دع جورج ينهض به » . وتعجبت فرنسا عندما وجدت الضرائب المفروضة عليها تخفض ، خفض أولا العشر ثم الثلث . وانفق الملك الذى نشأ فى النعيم أقل ما يمكن على نفسه وعلى بلاطه ، ولم يسمن على حسابه مقربون . وألغى بيع الوظائف ، وحرم على الحكام قبول الهدايا ، وأباح البريد الحكومى للجمهور . وقيد نفسه بأن يختار ، لكل منصب إدارى شاغر ، واحداً من ثلاثة ، تعينهم الهيئة القضائية ، وألا يفصل موظفاً من موظفى الدولة إلا بعد محاكمة علنية وثبوت عدم النزاهة أو الكفاية عليه . وسخر بعض الهزليين ورجال البلاط من اقتصادياته ولكنه كان يقابل مزاحهم بروح متسامحة . وقال « قد يقولون لنا بين بذاءاتهم حقائق نافعة ، دعهم يسلون أنفسهم ، وعليهم أن يحترموا شرف النساء . . . وخير لى أن أجعل رجال البلاط يضحكون من تقتيرى ، على أن أجعل شعبى يبكى من تبذيرى » ، وكانت أفضل وسيلة تسرى عنه هى أن تدله على طريقة جديدة تنفع الشعب . ولقد عبر أبناء الشعب ، عن اعترافهم بالجميل له بأن لقبوه « بأبى الشعب » ولاتذكر فرنسا فى تاريخها مثل هذا الازدهار .

ومن المؤسف ، أن هذا الحكم السعيد تلطخ صحيفته بغزوة أخرى

لإيطاليا . وربما نهض لويس وغيره من الملوك بهذه الهجمات ، ليشغلوا النبلاء المشاغبين ويتخلصوا منهم ، وهم بغير ذلك يزعجون فرنسا بالحروب الداخلية ، مهددين بذلك الملكية والوحدة القومية اللتين لم تستقرا بعد . وكان على لويس بعد اثنى عشر عاما من النصر فى إيطاليا ، أن يسحب جنوده من شبه الجزيرة ، ثم خسر معركة مع الإنجليز فى جوينجيت ، (١٥١٣) ، وهى التى أطلق عليها الوصف الساخر « معركة المهاميز » لأن الفرسان الفرنسيين ، فروا من المعركة بسرعة غير عادية . ووقع لويس صلحاً ، وقنع بعد ذلك بأن يكون ملك فرنسا فحسب .

وزاد موت آن (١٥١٤) من أحزانه ، ولم تنجب له وريثا للعرش ، وزوج ، وهو غير راض تمام الرضى ، ابنته كلود إلى فرنسيس ، كونت انجوليم ، ويعد الثانى فى ولاية العرش . وألح عليه مساعدوه ، أن يتخذ زوجة ثالثة ، وكان فى الثانية والخمسين ، وأن يحجب فرنسيس ، الثائر بإنجاب ولد . فقبل مارى تيودور ، أخت هنرى الثامن ، البالغة من العمر ست عشرة سنة ، فجعلت الملك يسير فى حياة مرحة منهكة وتشبثت بكل ما يجب للجمال والشباب . وتوفى لويس فى الشهر الثالث من زواجه (١٥١٥) فخلف لزوج ابنته ، فرنسا المزدهرة ، التى ظلت تذكر بالحب أبا الشعب على الرغم من هزيمتها فى عهده .

٣ — نهضة القصور

أحس الفن الفرنسى الآن كله ، اللهم إلا العمارة الدينية ، تأثير الملكية الآخذة بأسباب القوة وفتوحها الإيطالية ذلك لأن الكنيسة تشبثت بالطراز القوطى المشع ، فى العمارة معبرة عن اضمحلالها بالزينة المسرفة والتفاصيل المبالغ فيها ، ولكن هذا الطراز ، كان يحتضر ، مثله فى ذلك ، مثل امرأة خليعة تجمع وهى تجود بأنفاسها كل المظاهر النسوية ، من رقة وزينة ورشاقة . ومع هذا كله بدأ تشييد بعض الكنائس الفخمة فى هذا العصر : سانت ولفرام

فى ابيفيل ، سانت أتين دى مون فى باريس ، والمزار الصغير المتقن الذى شيدته مرجريت أميرة النمسا فى برو ، تخليدا لزوجها فيلبرت الثانى ملك سافوى . وأدخلت على المبانى القديمة ، زخارف جديدة ، ووصفت كاتدرائية روين ، بابها الشمالى باسم « الباب المكتبى » نسبة إلى حوامل الكتب فى صحن الكنيسة ، وأنفقت المبالغ التى جمعت للانغماس فى أكل الزبد فى لنت ، على إقامة البرج الجنوبى الرائع ، وهو البرج الذى أسمته الفكاهة الفرنسية : « برج الزبدة» ، واستطاع كاردينال امبواز أن يحصل على أموال يشيد بها الواجهة الغربية ، على الطراز المشع نفسه . ومنح بوفيه ، جناح الكنيسة الجنوبى ، رائعتها التى لم تتم . ويفوق بابها ونافذتها الوردية معظم الواجهات الرئيسية ، وحسّن سينلس ، وتور وترويس هياكلها ، وشيد جان لوتكسبيه فى شارترز ، برجاً شمالياً غربياً مشرفاً ، وحاجزا ضخما للمرتلين ، وقد ظهرت فيهما أفكار عصر النهضة التى تغلب الخطوط القوطية . أما برج سانت جاك الرائع فى باريس ، فهو البقية المُرَمَّمة من كنيسة ، أقيمت فى هذا العهد لسانت جيمس الأعظم .

وأفصحت مبانى النبلاء المدنية عن الصراع والفوضى فى ذلك العصر . وأنشئت البلديات للمدن فى أراس ودواى وسانت — أومر ونويون وسانت كنتان وكومبين ودرين وايفريه وأورليان وسومور — وشيدت جرينوبل « دار القضاء » عام ١٥٠٥ ، وشيدت روين داراً أكثر بهاء عام ١٤٩٤ ، صممها روبرت انجو ورولان ليرو على الطراز القوطى المزخرف ، وأعاد القرن التاسع عشر زخرفتها . ثم جاءت الحرب الثانية فخربتها .

وهذا هو القرن الأول الذى ظهر فيه القصر ذو الطابع الفرنسى ، ذلك لأن الكنيسة أخضعت للدولة ، فغلب الاستمتاع بالحياة فى الدنيا على الاستعداد للآخرة ، وأصبح الملوك يستطيعون أن يكونوا آلهة ، وأن ينشئوا ، تزجية لفراغهم ، فردوساً على طول نهر اللوار . وتحول « القصر المنيع » أو القلعة

بين عامى ١٤٩٠ ، ١٥٣٠ إلى « قصر الملذات » . وطلب شارل الثامن بعد أن عاد من حملته على نابولى ، إلى معماريه ، أن يشيدوا له قصراً ، فى فخامة ما شاهده فى إيطاليا . وكان قد أحضر معه المعمارى الإيطالى فراجيوفانى جيوكوندو ، والمثال الرسام جيدوماتزونى ، والنقاش على الخشب دومينيكوبرنابى « بوكادور » ، وتسعة عشر فناناً إيطالياً آخرين ، وكان بينهم معمارى تخصص فى المبانى الحلوية هو دومينيكو باتشيلو . وهو الذى أصلح قبل ذلك قلعة أمبواز القديمة ، وكلف الملك هؤلاء الرجال ، يعاونهم بناؤون وعمال فرنسيون ، أن يحولوها إلى مسكن مترف يليق بالملك « على الطراز الإيطالى » . وكانت النتيجة بالغة الفخامة : فقد نهضت بجلال ، على منحدر يشرف على النهر الوديع ، مجموعة من الأبراج ، والقباب والطنف ، وزخارف من الرفارف ومخادع وشرفات . وهكذا ولد نوع جديد من العمارة .

فضايق هذا الطراز الوطنيين والمحافظين على القديم ، بالمزاوجة بين الأبراج القوطية وبين قصور عصر النهضة ، وبإحلال الأشكال والتفاصيل الكلاسية ، محل الزخرف المشع . وظلت الجدران ، والأبراج الأسطوانية والأسقف العالية المنحدرة ، والشرفات الخاصة بالدفاع والخنادق العارضة ، تتسم بطابع القرون الوسطى ، تذكر بالوقت ، الذى كانت فيه دار المرء ، يجب أن تكون قلعته وحصنه فى وقت واحد ، ولكن الروح الجديدة أخرجت المسكن من غلافه العسكرى الكثيف ، وعرضت النوافذ وحددتها بخطوط مستقيمة لتسمح بدخول أشعة الشمس ، وجملتها بأطر من الحجر المنقور ، وزينت الداخل بانصاف عمد كلاسية مربعة وأفاريز وزينات مدلاة وتماثيل ونقوش عربية وزخارف بارزة ، وأحاطت البناء بالبساتين والنوافير والازهار وغابة للصيد أو سهل بسام . ولقد أخلى الظلام فى هذه الدور المترفة مكانه للنور ، كما انقشع الخوف والكآبة ، اللذان اتسمت بهما القرون

الوسطى وحل محلهما اطمئنان عصر النهضة وجرأته ومرحه . وأضحى حب الحياة طرازاً معمارياً .

ونحن نبالغ فى الحكم على هذه القصور فى عصرها الأول إذا ألحقنا بها أصلها أو إذا عرضنا لتطورها الكامل . فإن كثيراً منها كان موجوداً قبل ذلك فى صورة القلاع ، ولم يحدث فيها غير مجرد التعديل ، وأكمل القرنان السادس عشر والسابع عشر ، هذا الشكل الفنى حتى بلغا به الانسجام الأرستقراطى ، وغير القرن الثامن عشر هذا الاتجاه وأحل ملحمة فرساى العظيمة ، محل روح التصور الغنائية المرحة . وكان قصر شينون الحصين ، قديماً ، عندما استقبل فيه شارل السابع ، جان (١٤٢٩) ، كما مر لوشى بتاريخ طويل باعتباره مقراً ملكياً وسجناً ، عندما وفد عليه لودوفيكو المورو سجيناً (١٥٠٤) وذلك بعد أن استولى لويس الثانى عشر على ميلان للمرة الثانية . وأصلح جان بوريه ، وهو وزير لويس الحادى عشر حوالى عام ١٤٦٠ ، قلعة لانجيه ، التى أنشئت فى القرن الثالث عشر ، فى شكل يتسم أساساً بطابع القرون الوسطى ، وإن كانت من أحسن القصور الباقية إلى الآن . وشيد شارل دامبواز حوالى عام ١٤٧٣ ، فى شومون ، قصراً آخر على نهج القرون الوسطى ، وأقام أخوه الكاردينال فى جايون ، قصراً حصيناً فخماً (١٤٩٧ — ١٥١٠) أتلفته الثورة الرعناء . ورمم دينوا وهو نبيل « ابن سفاح من أورليان » قصر شاتودن (١٤٦٤) ، وأضاف كاردينال اورليان لونجفيل ، جناحاً جديداً لهذا القصر ، على الطراز الذى يزاوج بين القوطى وعصر النهضة . ولاتزال فى قصر بلوا ، أجزاء على نمط القرن الثالث عشر ، وقد أنشأ له لويس الثانى عشر ، جناحاً شرقياً ، فى وحدة متجانسة من الآجر والحجر ، ومن الأبواب القوطية ونوافذ عصر النهضة ، ولكن ذروة فخامته كانت تنتظر فرنسيس الأول.

وكانت المرحلة الأخيرة للنحت القوطى رائعة إلى أقصى حد بالزخرف

المنقور ببراعة فى المقابر ، وبالمحفة فى كنيسة برو ، حيث تبدو سيبيل أجرِبا فى شكل لا يقل جمالا عما هى فى شارترز أو ريمز . ولكن الفنانين الإيطاليين كانوا يعيدون فى الوقت نفسه ، صياغة النحت الفرنسى على طراز عصر النهضة ، استقلالا وانسجاماً ورشاقة . وزاد الاتصال بين فرنسا وإيطاليا بفضل زيارة رجال الدين والسفراء والتجار والرحالة ، وقامت الأشياء الفنية الإيطالية المستوردة وبخاصة الأدوات الصغيرة المصنوعة من البرونز ، مقام المبعوثين من عصر النهضة من الذوق والشكل الكلاسيين . وتحولت الحركة ، بمجىء شارل الثامن وجورج وشارل صاحب امبواز ، إلى تيار متدفق والفنانون الإيطاليون هم الذين أنشأوا « مدرسة امبواز » ذات التأثير الإيطالى فى المقر الريفى للملوك . وتعد مقابر الملوك الفرنسيين ، فى كنيسة سانت دينيس ، سجلا أثرياً ، للتحول ، من جلال النحت القوطى الجهم ، إلى الأناقة الرقيقة والزخرف الذى ينم على المرح ، اللذين اتسم بهما تصميم عصر النهضة ، معلنة المجد محتفلة بالجمال حتى فى انتصار الموت .

ويتجسم هذا التحول فى شخص ميكيل كولومب . ولد عام ١٤٣١ ، ووصف عام ١٤٦٧ بأنه « أعظم نحات فى المملكة الفرنسية قبل أن تغزو فرنسا إيطاليا وتبتلعها بزمن طويل . وكان النحت الغالى من الآن فصاعداً كله تقريباً من الحجر ، فاستورد كولومب رخام جنوا ، وحفر عليه صوراً لا تزال عابسة جامدة بمسحة قوطية واضحة ، لكنها وضعت فى أطر زاخرة بالزينة الكلاسيكية . لقد نقش لقصر جايون ، نقشاً بارزاً مرتفعاً يمثل « القديس جورج والتنين » — فى صورة فارس لا حياة فيه على صهوة جواد ناشط خفيف الحركة ، وهما محاطان بأعمدة وأفاريز ورفرف فى تصميم عصر النهضة . وبدأ فى « عذراء العمود » المنقوشة على الحجر ، لكنيسة سانت جالمييه ، وان كولومب حقق الوداعة الكاملة التى يتسم بها الأسلوب الإيطالى فى بساطة الملامح ولطفها ، وفى الخطوط الناعمة للشعر المرجل . وربما

كان كولومب هو الذى نقر ، فى شيخوخته « المدفن الشرقى » (١٤٩٦) فى سراديب كنيسة فى سولزمس (*).

وتأثرت فرنسا فى التصوير بالأراضى الواطئة ، كما تأثرت بإيطاليا فقد بدأ نيكولاس فرومنت بواقعية هولندية فى صورته « بعث لازاروس » ولكنه انتقل عام ١٤٧٦ من أفنيون إلى ايكس آن بروفانس ورسم لرينيه صاحب انجو الصور ثلاثية الطيات « علّيقة موسى » ، وتظهر الصورة الرئيسية فيها ، وهى العذراء على العرش ، سمات إيطالية فى مهادها ، وفى العذراء السمراء ، وموسى المهيب ، والمَلَك الفاتن ، وكلب الصيد المتحفز والأغنام المخلصين ، وهنا أحرزت إيطاليا انتصاراً كاملا . وطبع تطور مماثل فى الأسلوب أعمال « أستاذ مولان » ، ولعله جان بريال . فلقد ذهب إلى إيطاليا مع شارل الثامن ثم مع لويس الثانى عشر ، فرجع ومعه نصف فنون عصر النهضة فى سجل مؤهلاته — فكان رسام منمنمات ونقوش جدارية ومصور أشخاص ومثالا ومعمارياً . وصمم فى نانت — ونقش كولومب على الحجر — المقبرة الرائعة لفرنسيس الثانى دوق بريتانى ، وخلد فى مولان ذكر أوليائه آن وبيير البيجوى ، مع الرسوم الجميلة للأشخاص التى توجد الآن فى اللوفر.

ولم تحتفظ الفنون الصغيرة بالامتياز الذى كان لها فى القرون الوسطى المتأخرة . فقد تحول المزخرفون الفلمنكيون ، منذ زمن طويل إلى الموضوعات الدنيوية والمناظر الأرضية . وتمثل منمنمات جان بورديشون فى « صلوات آن أميرة بريتانى » (١٥٠٨) العودة إلى البساطة والتقوى اللتين تتسم بهما القرون الوسطى مثل الأساطير المحببة عن العذراء وطفلها ، ومأساة جلجوثا وانتصار القديسين ، والرسم ردئ والمهاد كلاسية واللون قوى صاف ، كل هذا فى جو هادئ من التأنق والشعور النسويين . واتخذ الزجاج الملون

(*) استخرجت له صورة فى متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك .

فى هذا العصر — وقد يكون ذلك على سبيل المقابلة — واقعية فلمينكية عند عند النظرة الأولى لا تلائم النوافذ التى تدخل الضوء الساطع على أ، ضية الكاتدرائيات ، ومع ذلك فإن الزجاج الذى نقش فى هذا العصر لاوخ وروين وبوفيه ، فيه آثار من روعة القرن الثالث عشر . وأعادت ليموج إشعال أفرانها ، التى خمدت طوال قرن كامل ، ونافست إيطاليا والبلاد الإسلامية ، فى طلاء الأوانى بالميناء الصافية . ولم يفقد الحفارون على الخشب حذقهم ، وذهب رسكين إلى أن مواضع الممثلين فى كاتدرائية أمين هى خير ما فى فرنسا بأسرها ، وأثارت السجاجيد الملونة التى يعود تاريخها إلى نهاية القرن الخامس عشر ، انتباه جورج صاند فى قصر بريساك (١٨٤٧) ، وأصبحت ذخيرة متحف كلونى فى باريس ، وفى متحف جوبلنز سجاجيد رائعة (حوالى ١٥٠٠) تصور موسيقيين يعزفون فى حديقة أزهار السوسن .

وكان القرن الخامس عشر مجدبا بصورة عامة فى الفن الفرنسى باستثناء عمارة القصور . فلقد حرثت أقدام الجنود الأراضى وأخصبتها بدماء الحروب ، ولكن ختام هذه المرحلة ، هو الذى شاهد رجالا عندهم الوسائل والفراغ نثروا البذور التى استطاع فرنسيس الأول أن يجنى ثمارها . فإن صورة فوكيه لنفسه إنما تنم على عصر خنوع وبأس ، وتعكس منمنمات تلميذه بورديشون ، السلام العائلى فى الزواج الثانى للويس الثانى عشر ، والطمأنينة المبتسمة للأرض المسترجعة . فقد تجاوزت فرنسا أسوأ عهودها ، ويوشك أحسنها أن يجىء

٤ — فرانسوا فيون : ١٤٣١ — ١٤٨٠

ومهما يكن من شىء ، فإن هذا القرن من الصراع والفوضى قد أفزع ، شاعراً فحلا ومؤرخاً كبيراً . وكانت إحدى النتائج الطبيعية للاقتصاد القومى والحكومة مركزية ، أن استعمل الأدب الفرنسى لغة باريس ، أياً كان

موطن المؤلف: برجنديا أوبريتانى أوبروفانس . وكأنما أثرها فيليب دى كومين على اللاتينية ، ليثبت أن الفرنسيين قد نضجوا ؛ وسجل بها مذكراته . واستعار لقبه من كومين فى فلاندرز ، حيث ولد . وهو من أسرة ممتازة ، لأن الدوق فيليب الخامس كان اشبينه ، ونشأ فى البلاط البرجندى ، ولما بلغ السابعة عشرة (١٥٦٤) كان بين موظفى كونت شاروليه . حتى إذا أصبح الكونت ، شارل الجسور ، وأسر لويس الحادى عشر فى بيرون ، لم يرض كومين عن سلوك الدوق ، ولعله تنبأ بسقوطه ، فتحول راشدا إلى خدمة الملك . فجعله لويس حاجباً له وأسبغ عليه الإقطاعيات ، وأرسله شارل الثانى فى وفادات دبلوماسية هامة . وأنشأ كومين فى الوقت نفسه أثرين كلاسيين من الأدب التاريخى : أحدهما مذكرات وتاريخ الملك لويس الحادى عشر ، وثانيهما تاريخ الملك شارل الثامن — وهما سرد نثرى بلغة فرنسية واضحة بسيطة كتبهما رجل عرك الدنيا وشارك فى الأحداث التى وصفها .

وهذان الكتابان شاهدان على الثروة غير العادية للأدب الفرنسى فى المذكرات . ولها أخطاؤهما : فالحرب تكاد تستغرقهما وليس فيهما من الطرافة والحياة ما فى فرواسار أو فيلاردوين أو جوانفيل ، وفيهما كثير جداً من عبارات حمد الله والثناء عليه ، ذلك عند الإعجاب بسياسة لويس الحادى عشر الغاشمة . وكثيراً ما ينقطع عن السرد ويتعثر فى سقطات من اللغو . وعلى الرغم من هذا كله فإن كومين هو أول مؤرخ فلسفى : فهو يبحث عن العلاقة بين العلة والمعلول ، ويحلل الشخصيات والحوافز والمزاعم ويحكم على الأخلاق حكماً موضوعياً ويدرس الأحداث والوثائق الأصلية ليوضح طبيعة الإنسان والدولة . ولقد سبق بهذه الملاحظات مكيافلى وجويكشياردينى فى تقديره المتشائم للإنسانية فى قوله : « لا الفعل الفطرى ، ولا معرفتنا ، ولا حبنا لجارنا ولاشىء آخر غير هذا ، يكفى دائماً لأن يمنعنا من استعمال العنف بعضنا مع بعض أو يحول بيننا وبين الاحتفاظ

بما كان معنا . أو يصرفنا عن اغتصاب أملاك الآخرين بكل الوسائل الممكنة .. والأشرار يصبحون أكثر شراً على معرفتهم ، أما الأخيار فيزداد صلاحهم إلى أقصى حد » .

وكان عنده ، مثل مكيافلى ، أمل فى أن كتابه يعلم الأمراء حيلة أو حيلتين قال :

« ولعل السفلة لا يزعجون أنفسهم بقراءة هذه المذكرات ، أما الأمراء . . . فقد يقبلون عليها ، ويجدون بعض المعارف التى تكافئهم على متاعبهم . . . لأنه على الرغم من أن الأعداء والأمراء ليسوا دائماً سواء ، فإن ، أعمالهم واحدة فى العادة ، ومن المفيد دائماً أن تخبر عما مضى ؟ . فإن من أعظم الوسائل التى تجعل الإنسان حكيما ، أن يدرس التواريخ . . وأن يتعلم كيف يحدد ويلائم بين أحاديثنا وأعمالنا وبين النموذج والمثال اللذين كان عليهما أسلافنا . وما حياتنا إلا فترة قصيرة ، غير كافية لتمدنا بالتجربة عن أشياء جد كثيرة » .

واتفق شارل الخامس ، أحكم الحكام المسيحيين فى عصره ، مع ديكومين ووصف « المذكرات » بأنها كتاب صلواته .

وفضل الجمهور القصص الخيالى والمسرحيات الهزلية والهجائيات وفى عام ١٥٠٨ ظهرت النسخة الفرنسية من « أماديس دى جول » واستمرت حوالى عشر فرق تعرض مسرحيات الخوارق والأخلاقيات والهزليات والمساخر وهى حماقات تسخر من كل إنسان حتى القسس والملوك . وكان بيير جرنجور من أساتذة هذا الفن يكتب ويمثل هذه المساخر بحماسة ونجاح طوال جيل كامل . وأقدم مسرحية هزلية فى الأدب الفرنسى هى « السيد بيير باتيلان ، ولقد مثلت أول مرة حوالى عام ١٤٦٤ كما مثلت بعد ذلك بأمد طويل عام ١٨٧٢ . وباتيلان محام فقير يتلهف على القضايا . وهو يلح على بائع صوف أن يبيعه ستة أذرع من الثياب ويدعوه إلى الغذاء

معه فى ذلك المساء ليتسلم الثمن . فلما جاء التاجر ، كان باتيلان فى فراشه يئن من حمى مزعومة . ويصرح أنه لا يعرف شيئاً عن أذرع الثياب والغذاء . فينصرف التاجر مشمئزاً ، فيلعن راعى أغنامه ، ويتهمه بالتصرف سراً فى بعض الخراف ، ويجره أمام القاضى . وهنا يبحث الراعى عن محام زهيد الأجر فيعثر على باتيلان ، الذى دربه على أن يمثل دور الأبله وأن يجيب على جميع الأسئلة بثغاء « الشاه » باء ، وتحير القاضى من هذا الثغاء وارتبك من خلط التاجر فى شكواه بين الراعى والمحامى ، فأعطى فرنسا كلمة مأثورة تدعو فيها كل فريق وهى « فلنعد إلى هذه الأغنام » ولما يئس من الحصول على دليل منطقى فى هذه الضجة ، رفض القضية وطالب باتيلان المنتصر بأجره ولكن الراعى أجابه بثغاء الشاه « با » ، ومكر الأبله بالمحتال البارع . وتتكشف القصة بكل ما فى الروح الغالية من مهاترة . ولعل رابيليه قد ذكر باتيلان عندما فكر فى بانورج ، وموليير قد تقمص جرنجور والمؤلف المجهول لهذه المسرحية .

والشخصية التى لا تنسى فى الأدب الفرنسى فى القرن الخامس عشر هى شخصية فرنسوا فيون . فلقد كذب وسرق وغش وارتكب الفاحشة وقتل ، مثله فى ذلك مثل ملوك عصره ونبلائه ، ولكنه كان أكثر تعقلا . وبلغ الفقر منه مبلغاً جعله لا يملك حتى اسمه . ولقد ولد فرنسوا دى مونتكوربييه (١٤٣١) ونشأ فى غمرات الطاعون والبؤس بباريس ، وتبناه قسيس طيب اسمه جويوم دى فيون ، فأخذ فرنسوا لقب هذا « الكفيل » فلطخه بالعار وأسبغ عليه الخلود فى وقت واحد ، وصبر جويوم على فرار الصبى من المدرسة وعبثه ودفع له نفقات تعليمه فى الجامعة ، واستراح فى زهو عندما حصل فرنسوا على درجة ماجستير فى الآداب (١٤٥٢) ، وزوده بالطعام والمسكن فى أروقة كنيسة سانت بنوا ثلاث سنوات بعد ذلك منتظراً أن يبلغ الأستاذ مرحلة النضج .

وليس من شك فى تحول فرنسوا من التقوى إلى الشعر ومن علوم الدين إلى السرقة قد أحزن جويوم وأم فيون وكانت باريس تزخر بالخلعاء والبغايا والدجالين والنشالين والشحاذين وحماة العاهرات والقوادين والسكارى ، فما كان من الشاب المستهتر إلا أن اتخذ له أصدقاء فى كل طائفة ، وعمل ديوثاً فترة من الزمان . ولعله حصل من الدين فوق ما يطيق ، ولم يسغ الحياة فى الدير ، فمن العسير بوجه خاص أن يستجيب ابن رجل الدين للوصايا العشر . وفى الخامس من يونيه عام ١٤٥٥ بدأ « قسيس يدعى فيليب شرموى » العراك مع فرنسوا (كما يقول بنفسه) ، وقطع شفته بمدية ، فما كان من فيون إلا أن أصابه بجرح عميق فى فخذه ، ولم يمض أسبوع حتى كان فيليب قد أسلم الروح وأصبح بطلا بين رفاقه ، وخارجاً على القانون يطارده الشرطة ، ففر الشاعر من باريس ، وظل حوالى سنة مختفياً فى الريف .

وعاد هزيلا شاحباً ، جامد الملامح وخشن البشرة ، ساهر العين حذر الشرطة ، يحطم الأقفال حينا والجيوب أحيانا ، يستشعر الجوع إلى الطعام والحب . وأصبح عاشقاً لصبية بورجوازية ، احتملته حتى تجد فارساً خيراً منه ، يتغلب عليه ، فزاد حبه لها ، ولكنه سجل ذكراها بعد ذلك بأنها « سيدتى ذات الأنف الأعوج » . وأنشأ حوالى ذلك الوقت (١٤٥٦) « العهد الصغير » ، وهو أقصر وصاياه ، الشعرية فقد كان عليه أن يفى بديون كثيرة وأن يصلح أخطاء كثيرة أيضاً ، ولا يستطيع أن يتنبأ متى يختم حياته على حبل مشنقة . وهو يهجو عشيقته على قلة لحمها ، ويبعث بجوربه الطويل إلى روبرت فاليه ، « لكى يلبس خليلته رداء أكثر احتشاما » ، وأوصى لبرنيه مارشان « بثلاث حزم من القش أو العشب الجاف ، ليضعها فوق الأرض العارية لينام عليها ، ويمارس لعبة الحب » ، ويمنح حلاقه « أطراف شعرى وقصاصاته » ، ويترك قلبه ، محزوناً شاحباً ميتاً لا إحساس فيه ، إلى التى « أبعدت عينها عنى » .

وبعد أن تجرد من كل هذه الثورة ، وجد نفسه مفتقراً إلى الخبز واشترك ليلة عيد الميلاد عام ١٤٦٠ مع ثلاثة آخرين فى السطو على كلية نافار ، وسرقت العصابة حوالى خمسمائة كراون . ولما اطمأن فرنسوا إلى نصيبه الكبير من هذه المغامرة استأنف إقامته فى الريف . واختفى عن نظر التاريخ عاماً واحداً ، ثم نجده فى شتاء عام ١٤٥٧ بين الشعراء الذين أكرم وفادتهم ، شارل صاحب أورليان ، فى بلوا ... وأسهم فيون فى مباراة شعرية هناك ، ولابد أنه قد أمتع ، لأن شارل أبقاه ضيفاً عليه أسابيع ، وأفعم كيس الشاب الخاوى بالمال ، ثم حدثت بينهما مشادة أومشاجرة قضت على صداقتهما ، وعاد فرانسوا إلى عرض الطريق ، ينظم قصيدة اعتذار . وتجول جنوبا إلى بورجس ، واستبدل بقصيدة هدية من الدوق جون الثانى أمير بوربون ، وطوف حتى بلغ روسلون . ونحن نتصوره من شعره ، رجلا يعيش على الهبات والديون ، على الفاكهة والجوز والدجاج يلتقطها من المزارع على طوال الطريق ، يتحدث إلى الفتيات الريفيات وبنات الهوى فى الحانات . مغنياً أومصفراً على الطرق الكبيرة ، يراوغ الشرطة فى المدن . ثم لا نقع له على أثر مرة أخرى ، وإذا به يظهر فجأة بأحد السجون فى أورليان (١٤٦٠) وقد حكم عليه بالإعدام .

ولسنا نعرف ما الذى أوصله إلى هذا المصير ، وكل ما نعرفه أن مارى أميرة أورليان ابنة الدوق الشاعر ، دخلت فى يولية من هذا العام المدينة رسمياً ، وأن شارل احتفل بهذه المناسبة بأن أعلن عفواً عاماً عن المسجونين . فانتقل فيون من الموت إلى الحياة فى نشوة من الفرح . وسرعان ما استبد به الجوع فعاد إلى السرقة ، فقبض عليه وحوسب على فراره المتنكر قبل ذلك — وزج به فى سجن ينفذ منه المطر فى قرية مونج — سير — لوار بالقرب من أورليان . وعاش هناك شهوراً مع الجرذان والضفادع يعض على شفته الممزقة ، ويقسم ليثأرن من عالم يعاقب اللصوص ويترك الشعراء يموتون

جوعاً . ولم يكن العالم كله قاسياً . فقد أصدر لويس الحادى عشر ، وهو يمر فى أورليان ، عفواً عاماً آخر ، وأخبر فيون أنه أصبح حراً ، فرقص على حصير السجن رقصة الفاندانجو(*) . واندفع إلى باريس أو قريباً منها ونظم إذ ذاك وهو عجوز أصلع مفلس فى الثلاثين . أعظم قصائده ، التى أسماها ببساطة « الأناشيد » ، وأطلق أعقابه عليها ، وقد وجدوا الكثير منها يصاغ مرة أخرى فى صورة وصايا تهكمية باسم « العهد الكبير » (١٤٦١ — ١٤٦٢) .

وهو يهب نظارته إلى المستشفى للمكفوفين المعوزين حتى يميزوا « إن استطاعوا » الطيب من الخبيث والعظيم من الوضيع ، بين العظام فى مدافن الأبرياء . وسرعان ما استولت عليه إبان حياته فكرة الموت . فتفجع على زوال الجمال وتغنى بأنشودة جميلات الأمس :

قل لى أين ، وفى أى أرض للظلال ،
تقيم فلورا الجميلة من روما ، وأين
تاييس وارشيبياد ،
بنتا العم بجمالهما النادر
والصدى ، وجماله الخارق
وهو الذى كلما ناداه المرء عند تدفق نهره
أوسار ، أجاب من خارج الأرض ؟
وماذا صار إليه جليد العام الماضى ؟

وهو يرى أن خطيئة الطبيعة التى لا تغتفر ، أن تفتننا بالمحبة ثم تذيبها بين أذرعنا . وأشد قصائده مرارة « مرثية الجميلة صانعة الخوذات » :

أين ذلك الجبين الواضح البلورى ؟
والحاجبان المقوسان والشعر الذهبى ؟

(*) رقصة أسبانية بالصنج .

والعينان البراقتان ، أين هذا الآن ،
وقد فتن أحكم الحكماء ؟
الأنف الصغير المستقيم الجميل ،
والأذن الصغيرة الرقيقة البديعة ،
أين الذقن الذى له طابع الحسن ، وأين
والشفتان المضمومتان الحمراوان الواضحتان ؟

ويستمر الوصف من فتنة إلى فتنة ، ولم يترك شيئاً ، ثم تذوى كل واحدة منها فى ضلاة مرددة حزينة . . .

وتغضن النهدان وانقشعا ،
وانسحب الردفان كالنهدين
ولم يعد الفخذان فخذين ،
لقد ذبلت جميعاً كما ذبلت العضلات

ومن العجيب أنها تغنى هنا المنبار المحشو ، وهكذا لم يعد فيون يعشق الحب أو الحياة ، فيوصى بجسمه إلى التراب :

إننى أهب جسمى ، أيضاً
إلى الأرض ، جدتنا
وستجد الديدان فيه مع ذلك غنيمة صغيرة ؟
فقد أنهكه الجوع أعواماً طوالا .

ويترك كتبه إلى أبيه الذى تبناه معترفا بجميله ، وهدية وداعه لأمه العجوز ، أنشودة متواضعة ينظمها للعذراء . وهو يطلب الرحمة للجميع إلا الذين زجوا به فى السجن : الرهبان والراهبات والمهرجين والمغنين والحشم والشجعان ، «أيها الماجنون الذين يبرزون كل مفاتنهم .. أيها المشاغبون والمحتالون والبهلوانات المرحة ، والمهرجون يعرضون قردهم ، وينشرون سجاجيدهم . . . الطيبون البسطاء الأحياء منهم والأموات — إننى أدعو بالرحمة الشاملة ، لكل فرد منكم وللجميع » . وهكذا . .

وهنا ختام عهد فيون (الكبير والصغير معا) .

ختام عهد فيون المسكين . . فعندما يطويه الموت ،
أناشدكم أن تحضروا جنازته ،
عندما يصلصل الجرس فوق الرؤوس . .
أيها الأمير ، الرقيق كصقر محول ،
اسمع ما صنعه مع آخر زفراته ،
لقد احتسى رشفة طويلة من رحيق النبيذ الأحمر ،
عندما شعر باقتراب منيته .

وعلى الرغم من هذه الوصايا وتحيات الوداع ، فإنه لا يستطيع أن يفرغ كأس الحياة متعجلا . وفى عام ١٤٦٢ عاد إلى جويوم دى فيون وأروقة الدين ، وابتهجت به أمه . ولكن القانون لم يغفل عنه . وطلبت كلية نافار أن يقبض عليه ، ووافقت على إخلاء سبيله بشرط أن يدفع نصيبه فى السرقة منذ ست سنوات — أى أن يدفع أربعين كراون سنوياً لمدة ثلاث سنوات . وكان سيئ الطالع فى ليلة إخلاء سبيله . لوجوده مع اثنين من رفاقه المجرمين القدامى ، عندما دفعهم السكر إلى شغب طعن فيه أحد القساوسة . ويبدو أن فيون كان لا مؤاخذة عليه فى هذا الأمر ، فانسحب إلى غرفته ، وصلى ينشد الطمأنينة ، ومع ذلك فقد قبض عليه مرة أخرى ، فعذب بصب الماء فى حلقه حتى كاد ينفجر ، ومما أدهشه أن يحكم عليه بالإعدام شنقاً . ولبث فى سجن ضيق ، أسابيع ، بين اليأس والرجاء وتوقع الموت لنفسه ولصاحبيه فأنشأ وداعا مؤثراً للعالم :

أيها الناس ، أيها الإخوة الذين يعيشون بعدنا ،
لا تجعلوا قلوبكم جد قاسية علينا ،
فإنكم إن منحتمونا نحن المساكين بعض حسراتكم ،
فإن الله سرعان ما يأخذ عنكم هذه الحسرات .

نحن هنا خمسة أو ستة معلقون ، كما ترون ،
وهنا اللحم ، الذى كان كله حسن الغذاء ،
مأكولا متعفناً قطعته بعد ، مقطعاً ممزقاً ،
ونحن العظام نصير مع الجميع إلى تراب ورماد ،
لا تدعوا أحداً يضحك علينا نحن الأشقياء ،
بل ادعوا إلى الله أن يغفر لنا جميعاً . .
لقد غمرنا المطر وغسلنا نحن الخمسة جميعاً ،
وجففتنا الشمس وأحرقتنا ، نعم ، هلكنا ،
فالغربان والجوارح بمناقيرها التى تشوه وتمزق ،
قد سملت أعيننا ، وانتزعت لحانا وحواجبنا
أجراً لها ، لن نكون أحراراً أبداً ،
ولا مرة واحدة ، لنستريح ، وإنما تتعجلنا هنا وهناك
وتستاقنا بإرادتها الغشوم الرياح المتقلبة ،
وتنقرنا الطيور أكثر مما تنقر الفاكهة على أسوار البساتين ،
أيها الناس ، أقسم عليكم بحب الله ، ألا تدعوا كلمة سخر تقال هنا ،
ولكن ادعوا الله أن يغفر لنا جميعا .

وكان لا يزال عنده بصيص من الأمل ، فألح فيون على سجانه أن يحمل رسالة إلى أبيه الذى تبناه ، ليحمل إلى محكمة البرلمان استئنافا لحكم واضح الظلم . وتدخل جويوم دىفيون من أجل الشاعر مرة أخرى ، وهو الذى يستطيع أن يغفر للناس مرات ومرات ، فلابد أن تكون للشاعر بعض الفضائل تشجع على حبه . وفى الثالث من يناير عام ١٤٦٣ ، نطقت المحكمة بحكمها وأمرت بالآتى : .. يلغى الحكم السابق ، وبعد أن وضعت

فى الاعتبار سوء خلق فيون المذكور – ينفى عشر سنوات من المدينة .. وكونتية باريس » . فشكر فرانسو المحكمة فى نشيد مرح ، والتمس مهلة ثلاثة أيام « للإعداد لرحلتى ووداع قومى » . فسمح له بذلك ، وأغلب الظن أنه رأى أباه وأمه للمرة الأخيرة . وجمع أمتعته ، وأخذ زجاجة النبيذ وكيس النقود اللذين أعطاهما إياه جويوم الطيب ، وتلقى بركاته وخرج من باريس ومن التاريخ . ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك .

كان لصاً ، ولكنه كان لصاً مطرباً ، والعالم فى حاجة إلى الطرب . وكان يستطيع أن يكون فظاً مريراً كما فى أنشودة « مارجو البدينة » ورمى النساء اللائى لا يستجبن لرغباته بالأوصاف المفحشة ، وكان يتجاوز الحد فى تصريحه بتفاصيل الجسم الإنسانى . ونحن نستطيع أن نغتفر هذا كله من أجل الآثام التى اقترفت فى مقابل آثامه ، والرقة المنبعثة من روحه دائماً ، والموسيقى الشجية فى شعره . ولقد دفع عقوبة ما كان عليه ، وخلف لنا المثوبة فقط .

الفصل الخامس

انجلترا فى القرن الخامس عشر

١٣٩٩ — ١٥٠٩

١ — الملوك

ماكاد يجلس هنرى الرابع على العرش ، حتى تحدته الثورة . فلقد تخلص أوين جلن دُوير من السيطرة الإنجليزية فى ويلز إلى حين (١٤٠١—١٤٠٨) ، ولكن هنرى الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الخامس ، وكان يوم ذاك أمير ويلز ، تغلب عليه بخطة عسكرية مباغتة ، ومات أوين جلندوير ، بعد لحظات من تبليغه العفو الكامل عنه ، من المنتصر الشهم وذلك بعد أن أمضى ثمانى سنوات مطارداً فى حصون ويلز ونجادها . وقاد هنرى برسى ايرل نورثمبرلند ، بعض نبلاء الشمال فى ثورة ، أراد لها أن تساير فى الزمن ثورة أوين جلندوير ، ضد ملك لم يستطع أن يفى بالعهود التى قطعها لهم على نفسه ، فى مقابل معاونتهم إياه على خلع رتشارد الثانى ؛ وقاد هارى ، الابن المستهتر للايرل ، الملقب « بالمهماز الحاد » (وهو الذى صوره شكسبير شخصية محبوبة بلا مبرر) قوة عسكرية مترددة غير غير كافية ضد الملك فى شروزبرى (١٤٠٣) ، وهناك مات الفتى فى بطولة حمقاء ، وأبلى هنرى الرابع فى الصفوف الأولى من القتال بلاء حسناً ، وأظهر ابنه « أميرهل » المرح المتلاف شجاعة جديرة بالظفر بأجنكورت وفرنسا . ولم تترك هذه الثورات وغيرها من المتاعب لهنرى إلا فسحة ضئيلة من الوقت أو الحماسة للسياسة ، وكانت موارده أقل من نفقاته ، كما اختلف بلا كياسة مع البرلمان ، وختم ملكه بين الفوضى المالية وأصابته بمرض

الجذام، وهبوط المستقيم والمرض التناسلي . قال هولنشد « انه انتقل إلى جوار ربه في السادسة والأربعين من عمره . . في ارتباك عظيم ومتاع قليل » .

وتذهب الروايات ويذهب شكسبير إلى أن هنرى الخامس قد أمضى شبابا طليقاً ماجنا ، وأنه تآمر للاستيلاء على العرش ، حتى على أب ، أقعده المرض وإن تشبث بالسلطان . ويكتفى المؤرخون المعاصرون بمجرد الإشارة إلى ملذاته ، ولكنهم يؤكدون لنا ، أنه بعد توليه العرش « تحول إلى رجل آخر ، ودرس كيف يكون أمينا شجاعاً مهذباً » . وهذا العابث مع السكارى والخليعات ، يقف نفسه الآن ، على قيادة عالم مسيحى موحد ضد الأتراك الزاحفين ، وأضاف إلى ذلك أنه يجب أولا أن يغزو فرنسا ولقد حقق غايته القريبة بسرعة مذهلة ، وهكذا جلس أحد الملوك الإنجليز على عرش فرنسا لحظة مضطربة . وقدم له الأمراء الألمان فروض الولاء وفكروا فى تنصيبه إمبراطوراً . وقد نافس قيصر بصورة مجملة فى وضع خطط المعارك ، وإمداد جيوشه بالمؤونة ، وحب جنده له . وفى تعريض نفسه لجميع الوقائع والأجواء . ومات فجاءة بالحمى فى بوادى فنسن (١٤٢٢) ولما يزل شاباً فى الخامسة والثلاثين .

وأنقذ موته فرنسا ، وكاد يقوض أركان انجلترا . وربما كانت شعبيته تغرى ، دافعي الضرائب بإنقاذ الحكومة من الإفلاس ، ولكن ابنه هنرى السادس كان ، عند توليه العرش ، فى الشهر التاسع من عمره فقط ، وكانت النتيجة السيئة أن أغرق نواب الملك الفاسدون والقادة غير الأكفاء ، الخزانه فى دين تعجز عن تسديده . كما كان الحاكم الجديد أقصر باعا من الملك ، فهو دارس دقيق عصبي المزاج شغوف بالدين والكتب ، ترتعد فرائصه من فكرة الحرب ، وندب الإنجليز حظهم العاثر الذى أفقدهم ملكاً وأكسبهم قديساً . . وفى عام ١٤٥٢ أصيب هنرى السادس بالجنون على منوال شارل السادس ملك فرنسا . ووقع وزراؤه بعد عام واحد ، صلحاً يعترف بهزيمة انجلترا فى حرب المائة عام .

وحكم رتشارد ، دوق يورك ، عامين باعتباره حامياً للملك : وصرفه هنرى عن منصبه (١٤٥٤) فى لحظة من لحظات التعقل ، فادعى الدوق الغاضب ، العرش لأنه من نسل إدوارد الثالث ، واتهم الملوك من أسرة لانكستر بأنهم مغتصبون ، وانضم إلى سالسبورى ووروك وغيرهم من البارونات فى حروب الوردتين — الوردة الحمراء تمثل آل لانكستر والبيضاء آل يورك — التى ظلت إحدى وثلاثين سنة (١٤٥٤ — ١٤٨٥) يتحرش فيها النبيل بالنبيل وكأنما تقدم الأرستقراطية الأنجلونو رماندية على انتحار متواصل ، وتركت انجلترا فقيرة ومنعزلة ، وكان لابد أن يسرح الجنود نتيجة لسلام غير مألوف لهم ، فكرهوا أن يعودوا إلى زمر الفلاحين ، وانضموا إلى كل من الفريقين ، ونهبوا القرى والمدن ، وقتلوا بلا وازع من ضمير كل من يقف فى طريقهم . وقتل دوق يورك فى موقعة عند ويكفيلد التى ذكرها جولدسمث فى روايته المشهورة(*) (١٤٦٠) ، ولكن ابنه إدوارد ايرل مارش ، استمر فى الحرب بلا رحمة ، وذبح جميع الأسرى ، المنتسبين وغير المنتسبين ، بينما قادت مرجريت أميرة أنجو ، والزوج العقيم لهنرى الطيب ، آل لانكستر فى دفاعهم عن حوزتهم فى وحشية لا تعترف بالحياء وانتصر مارش فى توتن (١٤٦١) ، فقضى بذلك على أسرة لانكستر المالكة ، وأصبح أول ملك من أسرة يورك ، وتلقب بإدوارد الرابع .

ولكن الرجل الذى حكم انجلترا فى واقع الأمر ، السنوات الست التالية ، هو رتشارد نيفيل ، ايرل وروك . وهو رأس عشيرة غنية كبيرة العد ، وكانت له شخصية أسرة محببة ، كما كان داهية فى السياسة ، بارعاً فى الحرب ، فإن الفضل إنما يرجع إلى « وروك صانع الملك » فى الانتصار فى توتن ، وهو الذى أجلس إدواد على العرش . ووقف الملك التى استراح من الصراع ،

(*) رواية قسيس ويكفيلد

لفسه على النساء ، فى حين أحسن ورووك الحكم حتى إن انجلترا بأسرها جنوبى تاين وشرقى ستون (لأن مارجريت كانت لا تزال تحارب) أسبغت عليه جميع ألقاب التشريف ما عدا لقب الملك . ولما ثار إدوارد على الواقع وناصبه العداء ، انضم ورووك إلى مارجريت وطرد إدوارد من انجلترا وأعاد هنرى السادس إلى السلطة الإسمية (١٤٧٠) وأخذ يحكم مرة أخرى . ولكن إدوارد نظم جيشاً بمعونة برجنديا . وعبر إلى هل ، وهزم ورووك وقتله فى بارنت وهزم مارجريت فى توكسبرى (١٤٧١) وأمر بقتل هنرى السادس فى القلعة ، وعاش سعيداً فى آخر حياته بعد ذلك .

وكان إذ ذاك لا يزال فى الواحدة والثلاثين من عمره . ولقد وصفه كومين بقوله «كان من أجمل رجال عصره ، لا متعة له غير النساء والرقص والتسلية والقنص» . ولقد أفعم خزانته بمصادرة ضياع آل نيفيل ، وبقبول رشوة من الملك لويس الحادى عشر فى مقابل الصلح معه مقدارها مائة وخمسة وعشرون ألف كراون مع وعد بخمسين ألفاً أخرى كل سنة . وبلغ من طمأنينته أن تجاهل البرلمان ، الذى كانت فائدته بالنسبة إليه ؛ الموافقة على ما يريد من المال . وأحس بالاستقرار ، فاستسلم مرة أخرى للترف والخمول ، ولبس الفاخر من الثياب ، وأصبح سميناً مرحاً ، ومات فى الواحدة والأربعين من عمره ، وقد بلغ أوج سلطانه واكتملت جوانب شخصيته (١٤٨٣) :

وخلف ولدين : إدوارد الخامس البالغ من العمر اثنى عشرة سنة ، ورتشارد ، دوق يورك ، فى التاسعة : وكان عمهما رتشارد ، دوق جلوسستر ، خدم الدولة فى السنوات الست التى خاك رئيساً للوزارة ، فى جد وورع وبراءة ، حتى إنه لما نصب نفسه نائباً للملك ، وافقت انجلترا عليه بلا معارضة ، على الرغم من أطرافه المشوهة وظهره المقوس وملامحه الجافية وكتفه اليسرى المرتفعة على كتفه اليمنى . وسواء أكان الباعث نشوة السلطان

أو مجرد الشك فى تدبير المؤامرات لخلعه ، فإن رتشارد سجن عدداً من الأعيان ، وأعدم أحدهم . وفى السادس من يوليو عام ١٤٨٣ توج نفسه ملكاً باسم رتشارد الثالث ، وفى الخامس عشر من الشهر نفسه قتل الأميران الصغيران فى القلعة ، ولم يعرف أحد من الذى قتلهما . وثار النبلاء مرة أخرى ، يقودهم فى هذه المرة ، هنرى تيودور ، ايرل رتشمند . ولما التقت قواتهم الصغيرة ، بجيش الملك ، المتفوق فى العدد إلى حد كبير فى بوسورث (١٤٨٥) ، رفض معظم جنود رتشارد القتال ، وما ... رتشاردة يائسة ، مفتقراً إلى الملك وإلى جواد . . وانتهت بذلك أسرة يورك المالكة ، وبدأ ايرل رتشمند ، أسرة تيودور وتلقب بالملك هنرى السابع ، وهى الأسرة التى تنتهى بإليزابث .

ومارس هنرى ، تحت وطأة الضرورة ، الفضائل والرذائل التى تصور له أن منصبه يتطلبها . ولقد رسم له هلبين صورة جدارية فى هوايت هول يبدو فيها طويلا ، ممشوقاً لا لحية له ، مفكراً عطوفاً . لا تكاد تنم ملامحه على التدبير الماكر الغامض ، والكبرياء العبوس الثابتة ، والعزيمة المرنة وإن كانت صلبة فى مصابرتها ، وهى الصفات التى نقلت إنجلترا من الانحلال والفقر ، فى عهد الملك هنرى السادس ، إلى الثروة والسلطة المركزة فى عهد هنرى الثامن . ويقول بيكون إنه كان يحب « ما تجلبه الخزائن المفعمة للناس من غبطة » ، لأنه عرف قدرتها على الإقناع فى السياسة . فبرع فى فرض الضرائب على الأمة ، واستنزف دماء الأغنياء بالصدقات والهدايا بالإكراه ، واستغل الغرامات فى شراهة لتكون مورداً لخزانته ورادعاً للجريمة ، وكان يبتهج كلما رأى القضاة يلائمون بين الغرامة وبين جيب المحكوم عليه ، لا بينها وبين المخالفة . وهو أول ملك إنجليزى منذ عام ١٢١٦ جعل نفقاته فى حدود دخله ، وصدقاته وهباته تخفف من وطأة شحه . ووقف نفسه بإخلاص على شئون الإدارة ، وقلل من ملاهيه ليستكمل

عمله : وأظلم الشك الدائم حياته ، ولم يكن ذلك بغير سبب ، فلم يثق فى أحد ، وكان يخفى أغراضه ، ويحقق أهدافه بوسائل مشروعة أو غير مشروعة . وأنشأ محكمة ستارتشمبر لمحاكمة النبلاء المشاغبين ، الذين بلغ سلطانهم حداً يخشى منه على التأثير فى القضاة المحليين والمحلفين . وذلك فى جلسات سرية . واستطاع عاماً بعد عام أن يخضع الأرستقراطية المتخلفة ، وطبقة رجال الدين الخائنة للملكية . وعارض بعض الأفراد الأقوياء ، القضاء على الحرية وتعطيل البرلمان ، ولكن الفلاحين صفحوا ، عن ملك كبح جماح سادتهم ، وأثنى الصناع والتجار عليه ، لعمله الحكيم على النهوض بالصناعة والتجارة : ولقد وجد انجلترا فى فوضى إقطاعية ، وحكومة جد فقيرة ، لا سمعة لها بحيث تحصل على الطاعة أو الولاء ، وخلف لهنرى الثامن دولة محترمة منظمة ، مؤتمنة موحدة وفى حالة سلم » :

٢ — نمو الثروة الإنجليزية

من الواضح أن ثورة عام ١٣٨١ العظيمة لم تسفر عن كسب ما . فلم يزل الكثير من فروض العبودية يؤخذ قسرا ، بل إن مجلس اللوردات قد رفض بعد ذلك بزمان ، فى عام ١٥٣٧ قانوناً يقضى بالتحرير الكامل لعبيد الأرض . وازداد الضيق على « العامة » ، وأصبح آلاف من رقيق الأرض المتحررين عمالا يدويين فى المدن لا يملكون شيئاً ، وقال توماس مور ، إن الأغنام كانت تأكل الفلاحين . وكانت هذه الحركة طيبة من بعض الوجوه : فقد كانت الأغنام الراعية للكلأ ، تسمد الأرض المشرفة على البوار . وما إن جاء عام ١٥٠٠ حتى كان واحد فى المائة من السكان فقط عبيد أرض . فنشأت طبقة من الفلاحين الملاك ، الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم وهى التى منحت تدريجياً للرجل الإنجليزى العادى ، الشخصية المستقلة القوية التى صهرت الكومنولث وكونت دستوراً غير مكتوب لحرية غير مسبوقة .

ولم يعد النظام الإقطاعى مجدياً ، لأن الصناعة والتجارة ارتقتا بحيث اتخذتا الطابع القومى ، وتحولتا إلى اقتصاديات المال المنقول المرتبطة بالتجارة الخارجية . فحينما كان رقيق الأرض ينتج لسيده ، لم يكن عنده إلا حافز ضئيل للتوسع أو الإقدام ، ولكن عندما يستطيع الفلاح المتحرر والتاجر ، أن يبيعا إنتاجهما فى السوق الحر ، فإن الرغبة الملحة فى الربح تبعث الحياة الاقتصادية فى الأمة ، وأخذت القرى ترسل مزيداً من الطعام إلى المدن ، وتنتج المدن مزيداً من السلع للوفاء بثمن هذا الغذاء ، وهكذا تجاوز تبادل الفائض ، حدود البلديات القديمة وقيود النقابات لتغمر إنجلترا ، وتصل إلى ما وراء البحار .

وتحولت بعض النقابات إلى « شركات تجار » صرح الملك لها أن تبيع المنتجات الإنجليزية فى الخارج . وكانت معظم التجارة الإنجليزية تحمل فى القرن الرابع عشر على سفن إيطالية ، أما الآن فإن البريطانيين يبنون سفنهم ، ويسيرونها فى بحر الشمال والساحل الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط . وقاوم تجار جنوه والاتحاد الهنسياتى ، أهؤلاء الوافدين الجدد ، وحاربوهم بالقرصنة ومصادرة السفن ، ولكن هنرى السابع ، اقتنع بأن تقدم إنجلترا يتطلب التجارة الخارجية ، فوضع الملاحة الإنجليزية فى حماية الحكومة ، وأعد مع أمم أخرى ، اتفاقيات تجارية ، أقرت النظام والأمن البحريين . حتى إذا وافى عام ١٥٠٠ ، كان « التجار المغامرون » فى إنجلترا ، يسيطرون على بحر الشمال . وكان الملك بعيد النظر فأوفد وهو يستشرف التجارة مع الصين واليابان الملاح الإيطالى جيوفانى كابوتو ، الذى عاش إذ ذاك فى بريستول باسم جون كابوت ، ليبحث عن ممر شمالى عبر الأطلنطى (١٤٩٧) . وقنع كابوت ، باكتشاف نيوفوندلاند ، والساحل من لبرادور إلى ديلاوير فى رحلة ثانية (١٤٩٨) ، ومات فى تلك السنة ، وتحول ابنه سيباستيان إلى خدمة اسبانيا . وربما لم يدرك الملاح والملك أن هذه الرحلات ، استهلت

التوسع الإمبراطوري البريطاني ؛ وفتحت للتجارة الإنجليزية والمستعمرين البريطانيين ، إقليما يمكن أن يصبح على الأيام — القوة والخلاص لانجلترا .

ودعمت الرسوم الجمركية الوقائية ، الصناعة القومية ، وخفض النظام الاقتصادي ، سعر الفائدة ، تخفيضا كبيراً بلغ ٥ ٪ أحيانا ، ونظمت القوانين الحكومية تنظيما صارماً الأجور وأحوال العمل . وقضى قانون هنرى السابع (١٤٩٠) بـ :

« على كل رئيس عمل أو عامل أن يكون فى عمله ، بين منتصف شهرى مارس وسبتمبر ، قبل الساعة الخامسة صباحا ، وله نصف ساعة فقط لتناول الإفطار ، وساعة ونصف لغذائه (فى الظهيرة) وهو يستطيع النوم ، إن وجد فسحة له فى تلك الفترة . . وعليه ألا يترك عمله . . إلا بين الساعة السابعة والثامنة مساء . . ، وعلى كل رئيس عمل وعامل أن يكون فى عمله عند انبلاج الصبح وذلك فى منتصف سبتمبر إلى منتصف مارس ، وألا يغادره إلا بمجىء الليل . . ولا يسمح لأحدهم بالنوم نهاراً » .

ومع ذلك فإن العمال كانوا يستريحون ويشربون الخمر أيام الآحاد ، إلى جانب أجازة أربع وعشرين يوماً فى السنة . ووضعت الدولة أسعاراً عادلة « لكثير من السلع ، وقد سمعنا عن اعتقالات حدثت ، لتجاوز هذه الأسعار . وكانت الأجور الحقيقية ، بالنسبة إلى الأسعار ، أعلى بشكل واضح فى أواخر القرن الخامس عشر ، عما كانت عليه أوائل القرن التاسع عشر .

وأدى ضغط ثورات العمال فى انجلترا ، إبان ذلك العصر إلى الحصول على حقوق سياسية والوقوع فى أخطاء اقتصادية واستمرت دعوة شبيهة بالشيوعية فى كل سنة تقريباً ، وذكر العمال مراراً « بأنكم مخلوقون من نفس الطينة والمادة اللتين خلق منهما الأشراف ، فلماذا إذن يتريضون ويلعبون ، وأنتم تعملون وتكدحون ؟ — ولماذا يملكون الكثير جداً مما فى هذا العالم من ثروات وكنوز ، وأنتم تملكون أقل القليل ؟ » وكانت أعمال الشغب

كثيرة ، ضد التضييق على الأرض المشاع ، كما قامت خلافات موسمية بين التجار والعمال ، ولكننا نسمع أيضاً عن قلاقل من أجل الديمقراطية المحلية فى المدن ، وعن تمثيل العمال فى البرلمان وعن تخفيض الضرائب .

وفى شهر يونيه عام ١٤٥٠ ، سارت قوة كبيرة منظمة من الفلاحين وعمال المدن إلى لندن ، وعسكرت فى بلاك هيث . وعرض زعيمهم جاك كيد ظلاماتهم ، فى وثيقة منظمة « إن جميع الناس من العامة ، لا يستطيعون أن يعيشوا من كد أيديهم وفلاحتهم ، بسبب الضرائب والمغارم وغيرها من المظالم » . ولابد أن يلغى هذا الدستور العالى ، وأن تتألف وزارة جديدة . فاتهمت الحكومة زعيمهم كيد بالدعوة إلى الشيوعية(*) .

والتقى جنود هنرى السادس ، وأتباع بعض النبلاء ، بجيش الثوار فى سفنوكس (١٨ يونيه سنة ١٤٥٠) ومما أثار دهشة الجميع أن الثوار انتصروا وتدفقوا إلى لندن . وأمر مجلس الملك تهدئة لخواطرهم باعتقال لورد ساى ووليم كرومر ، وهما موظفان مكروهان لابتزازهما الأموال وطغيانهما . وفى الرابع من يوليه ، سلما إلى الغوغاء الذين حاصروا القلعة ، فحاكمهما الثوار ، وقد رفضا الدفاع عن نفسيهما وأعدما . ويقول هولنشد : إن الرأسين رفعا على قضيبين ، وحملا عبر الطرقات فى موكب مرح ، وكان فم كل منهما يصفع بقبلة دامية ، بين حين وآخر . وتفاوض كبير أساقفة كانتربرى وأسقف ونشستر للصلح ، الذى منح بعض المطالب ووعد بالعفو العام . ووافق الثوار وتفرقوا . ومع ذلك فقد هاجم جاك كيد قلعة كوينز بورد فى شيبى ، فاعتبرته الحكومة خارجا على القانون ، وأصيب بجرح مميت وهو يقاوم اعتقاله وذلك فى الثانى عشر من يوليه . وحكم على ثمانية من المتواطئين معه بالإعدام وعفا الملك عن الباقين ، فابتهج كافة رعاياه ابتهاجاً عظيما » .

(*) انظر صورة شكسبير الساخرة لجاك كيد : « سيكون هناك فى انجلترا سبعة أرغفة من التى بنصف بنس تباع ببنس كامل ... وسأجعلها من الكبائر احتساء زجاجة الجعة الصغيرة ، إن كل شىء سيكون مشاعا . . .

٣ ـ الأخلاق والطباع

كتب سفير البندقية حوالى عام ١٥٠٠ ، تقريراً إلى حكومته :

« معظم الإنجليز — سواء أكانو رجالا أم نساء ، وفى جميع الأعمار — حسان وأجسامهم ممشوقة . . وهم يحبون أنفسهم حباً عظيما ، ويحبون كل شيء يتعلق بهم ويعتقدون ، أنه ليس فى الناس سواهم ، وليس هناك عالم آخر سوى انجلترا ، وكلما رأوا غريباً جميلا قالوا « إنه يشبه الإنجليزى ، ومن الأسف الشديد أنه ليس كذلك » .

وقد يجيب الإنجليز ، بأن معظم هذا الوصف ، بشىء من التعديل الضرورى ينطبق على كل الشعوب . . ومن المؤكد أنهم كانوا شعباً قوياً فى الجسم والأخلاق والحديث . وهم يقسمون بحرارة حتى إن جان دارك أسمتهم دائماً الملاعين .

وكان النساء أيضاً يتكلمن ببساطة ، ويتحدثن عن مسائل فسيولوجية وجنسية بحرية ، قد تذهل السفسطائيين اليوم . ومزاجهم كحديثهم خشن مفحش . وطباعهم جافية ، حتى عند الطبقة الأرستقراطية ، وعليهم أن يدربوا ويستأنسوا ، بقانون ساوكى صارم . ولقد نشأت الروح الشهوانية التى اتسم بها الإنجليز فى عهد أليزابث فى القرن الخامس عشر ، نتيجة لحياة يكتنفها الخطر والعنف والقحة . وكان على كل امرئ أن يكون شرطى نفسه ، مستعداً أن يقابل الصفعة بالصفعة ، وأن يقتل عند الضرورة برباطة جأش . وهؤلاء الحيوانات القوية نفسها يمكن أن تكون كريمة ، شهمة ، ورقيقة فى بعض الأحيان . فلقد بكى محاربون جفاة ، عندما مات سيرجون تشاندوس وهو فارس مغوار . وتظهر رسالة مارجريت باستون إلى زوجها المريض (١٤٤٣) ، كيف يكون الحب ، لا عصر له ولا يضارعه شىء .

ويجب أن نذكر أن هذه السيدة نفسها ، قد هشمت رأس ابنتها ، عندما رفضت أن تتزوج من اختاره أبواها .

ونُشِّئت البنات فى حصانة رصينـــة واحتشام ، لأن الرجال كانوا حيوانات مفترسة ، وكانت العذرة عدة اقتصادية فى سوق الزواج . ويعد الزواج حادثاً من أحداث تنقل المتاع . فالفتيات قد يتزوجن زواجاً شرعياً فى سن الثانية عشرة ، والصبيان فى سن الرابعة عشرة ، حتى بغير موافقة والديهم ، ولكن الخطبة كانت تعد فى الطبقات العليا تعديلا للمعاملات المالية ، بوساطة الآباء والأمهات ، عقب باوغ الأطفال السنة السابعة من العمر مباشرة . وما دام زواج الحب شاذاً ، والطلاق محرماً ، فقد شاع الزنا ، وبخصة فى الطبقة الأرستقراطية . ويقول هولنشد : « لقد سادت هناك ، الرذيلتان الوبيئتان السكر والزنى ، مع الفحش البغيض ، وبخاصة عند الملك » واختار إدوارد الرابع ، بعد أن مر بتجارب عديدة فى الحب ، جين شور ، لتكون الحظية الأثيرة لديه . ولقد خدمته بإخلاص نزق ، وأثبتت أنها صديقة رحيمة فى البلاط لكثيرين من ذوى الحاجات . ولما مات إدوارد ، أرغمها رتشارد الثالث أن تجوب شوارع لندن ، فى ثوب الندم الأبيض وربما كان ذلك استعراضاً لآثام أخيه ، وإخفاء لآثامه هو ؛ وعاشت حتى بلغت أرذل العمر ، محتقرة مبغضة من أولئك الذين ساعدتهم .

ولم يحدث فى التاريخ المعروف إطلاقاً أن شعباً كان يماثل الإنجليز (الذين يتشبثون بالقانون اليوم) فى استهتارهم إذ ذاك بالقانون إلى حد بعيد . ولقد جعلت حرب المائة سنة الناس قساة مستهترين ، واستمر النبلاء بعد عودتهم من فرنسا ، يحاربون فى إنجلترا ، واستخدموا جنوداً مسرحين فى منازعاتهم . وشارك أبناء الطبقة العليا ، التجار الجشعين الذين داسوا كل فضيلة للحصول على المال . وكانت السرقات لا تحصى . وباع التجار الردىء من السلع واصطنعوا الزائف من الموازين ، وكاد

التدليس فى نوع الصادرات ومقدارها يقضى على تجارة انجلترا الخارجية ، فى فترة من الفترات . واستغلت التجارة فى البحار القرصنة ، وكانت الرشوة عامة أو تكاد : وقلما يحكم القضاة دون أن يحصلوا على « هدايا » ، وكان جباة الضرائب يرشون ، تيسيراً للتخلص منها ، ويطلب إلى الضباط المجندين مثل فولستاف الذى صوره شكسبير ، أن يتغاضوا عن مدينة من المدن ، فقد استطاع الأعداء ، أن يشتروا جيشاً إنجليزياً ، كان يغزو فرنسا ، واشتد جشع الناس للمال وقتذاك إلى حد الجنون كما هو الآن ، وأنكر شعراء مثل تشوسر الجشع فى شعرهم ، ولكنهم مارسوه فى واقع حياتهم وكان من الممكن أن يتقوض الكيان الأخلاقى للأمة ، لولا أن أسسه قد دعمتها حياة البساطة التى اتسم بها الرجل والمرأة فى الطبقة العامة ، ففى الوقت الذى كان فيه من هم أفضل منهم ، يدبرون الحروب والشرور لذلك العصر ، احتفظ هؤلاء العامة بالحياة المنزلية وحافظوا على الجنس .

وعاشت جميع الطبقات ، ما عدا التجار والعمال ، فى الريف أطول مدة يستطيعونها كل سنة . وتحولت القلاع التى لم تعد حصينة ، بعد انتشار المدفع ، ببطء إلى منازل كبيرة . وحل الآجر محل الحجر ، ولكن البيوت المتواضعة ، كانت لا تزال تقام من الخشب والطين . وفقدت الردهة الوسطى ، مساحتها وفخامتها القديمتين وهى التى كانت تستعمل فى يوم من الأيام لجميع الأغراض ، وتقلصت إلى دهليز يؤدى إلى غرفة معيشة كبيرة ، وغرف صغيرة ، وقاعة استقبال للحديث الخاص . وضعت السجاجيد على جدران بيوت الأغنياء ، وأضاءت النوافذ ، وهى من زجاج ملون فى بعض الأحيان المدخل الذى كان مظلما من قبل . أما دخان الموقد الذى كان يتسرب قبلا من النافذة والباب والسقف ، فقد جمع فى مدخنة ، ومدفأة ضخمة تزين غرفة المعيشة . وقد تعلقت السقوف بالخشب والأرضيات بالبلاط ، فى حين ظلت السجاجيد قليلة نادرة . إذا نحن صدقنا أقوال إراسموس التى يغلب فيها الجانب الأدبى على الدقة فى التصوير .

«كانت جميع الأرضيات تقريباً من صلصال ، مفروشة بحصير من حلفاء المستنفعات ، وقليلا ما تجدد حتى إن الأسس تظل عشرين سنة ، تردد أسافلها بالبصاق والقىء من الناس والكلاب والنبيذ والجعة ، وبقايا السمك وغيرها من القاذورات التى لا تسمى ، ويتصاعد منها ، بتغير الفصول ، بخار غير صحى فى رأيى» .

وكانت المخادع فخمة مزينة بالنقوش المحفورة ، ومزودة بالأغطـية عليها رسوم أزهار وتعلوها كُنَّة . كما كانت مائدة الطعام ، فى المنازل المريحة ، فنية ضخمة رائعة ، بنقوشها البارزة من خشب الجوز أو البلوط ويقوم بالقرب منها ، أو فى القاعة بصفة عامة ، صوان للأوانى أو الفضيات والتحف حيث ترتب للعرض أو الزينة . ونظمت ردهة الجلوس التى أعدت فى الأصل للحديث ، لتناول الطعام .

وكانوا يتناولون وجبات الطعام الرئيسية نهاراً ، وذلك للاقتصاد فى زيت الإضاءة و«الغداء» فى الساعة العاشرة صباحاً ، والعشاء فى الخامسة مساء . وحرص الرجال على ارتداء قبعاتهم عند الجلوس إلى المائدة ، ليمنعوا شعوزهم الطويلة ، من مخالطة الطعام . واحتفظ بالشوك لأغراض خاصة مثل تناول الكامخ أو تجمير الجبن ، وظهر استعمال الإنجليز لها على النمط الحديث ، أول مرة عام ١٤٦٣ ، أما السكين ، فقد كان الضيف هو الذى يأتى بها معه ، يحملهما فى جراب ، معلق بمنطقته ، ويتطلب آداب السلوك إذ ذاك أن يصل الطعام إلى الفم ، بوساطة الأصابع . ولم تكن المناديل مستعملة ، حتى منتصف القرن السادس عشر ، فقد كان على الرجال أن يتمخطوا باليد التى تمسك السكين بدلا من تلك التى تنقل الطعام إلى الفم . وكانت الفوط غير معروفة ، ويحذر الطاعمون بألا ينظفوا أسنانهم بغطاء المائدة ، وكانت الوجبات دسمة ، ذلك أن الغذاء العادى لواحد من أصحاب الوجاهة ، كان يتألف من خمسة عشر أو عشرين صحناً . واحتفظ اللوردات

العظام بموائد عظام ، فقد كانوا يطعمون يومياً ، مائة من الندماء والزوار والحشم ، وكان ورولك صانع الملك يذبح ستة ثيران كل يوم لمائدته ، وأطعم أحياناً خمسمائة مدعو . وكانت اللحم هى الطعام القومى والخضرات نادرة أو غير محبوبة . والجعة هى الشراب القومى ، ولم يكن النبيذ موفوراً أو منتشراً ، كما كان الحال فى فرنسا أو إيطاليا بيد أن المسموح به من الجعة ، هو جالون للفرد كل يوم حتى الراهبات . وقال السير جون فورتسكيو (توفى عام ١٤٧٠) « لا يشرب الإنجليز الماء ، إلا فى أوقات معينة لأغراض دينية . أو للتكفير عن ذنب .

وكان الرداء فاخراً عند الطبقة الأرستقراطية . أما البسطاء فكانوا يرتدون جلباباً فضفاضاً وقلنسوة ، أو معطفاً قصيراً يلائم العمل ، وكاف الموسرون بالقبعات المكسوة بالفراء أو الريش ، وأردية مزينة بالزهور ، أو سترات مزركشة تنتفخ عند الأكمام ، وجوارب طويلة ، شكا منها قسيس تشوسر بقوله « تظهر الساقين فى صورة مفزعة منتفخة ينفتق إحداها عن الأخرى بالإضافة إلى أرداف . . وكأنها الجانب الخلفى من قردة فى ليلة مقمرة » . وارتدى تشوسر نفسه عندما كان تابعاً فى حاشية الملك ، سترة مشعة وجوربين أحدهما أحمر والآخر أسود . واختفت فى القرن الخامس عشر الأحذية المدببة ، التى شاعت فى القرن الرابع عشر ، واستدارت الأحذية واتسعت عند الأصبع الكبير من القدم . أما « زى النساء » فهو يثير السخط ، وعلى الرغم من أن محيا بعضهن ، ينم على العفة والطيبة الكاملتين ، إلا أنهن يبرزن بقلة ردائهن غير المتناسق فتنتهن ودلالهن » . ومع ذلك ، فإن الصور التى وصلت إلينا ، تظهر الجنس المثير ، وقد حبس بإحكام فى حشد من الملابس من قمة الرأس إلى أخمص القدم .

وتراوحت ألعاب التسلية فى الداما والشطرنج ، إلى النرد ، ومن صيد السمك إلى قنص الوحوش ، ومن رمى السهام إلى المبارزة . ودخلت اجبة

الورق إلى إنجلترا حوالى نهاية القرن الخامس عشر، وهم لا يزالون يلبسون ملوكهم وملكاتهم، على طراز ذلك العصر. وكان الرقص والموسيقى شائعين كالميسر، وكل إنجليزى تقريباً، يشارك فى الأغانى الجماعية، ولقد نافس هنرى الخامس جون دستيبل، مع أعاظم الملحنين لذلك العهد. واعترفت القارة الأوروبية بالمغنين الإنجليز. ولعب الرجال التنس، وكرة اليد وكرة القدم وغيرها من ألعاب الكرة القديمة ورمى الأطواق، وتصارعوا وتلاكموا، وأعدوا الديكة للعراك، وتراهنوا وتحرشوا بالدببة والثيران. واحتشد الناس لمشاهدة البهلوان والسائرين على الحبال يعرضون فنونهم التى كانت تسرى عن القدماء، وتدهش المحدثين. واحتفظ الملوك والنبلاء بالمشعوذين والمضحكين والمهرجين، وكان الملك أو الملكة يعينان من يشرف على ألعاب ومشاهد عيد الميلاد، ومنحوه لقب لورد. والنساء يخالطن الرجال فى حرية فى كل مكان. يحتسين الخمر فى الحانات، يركبن وراء كلاب الصيد، ويصدن بالصقور، ويصرفن المشاهدين عن المتصارعين فى بعض الدورات، وهن اللائى قادتهن الملكة للتحكيم فى رمى الأطواق ومنح التاج الذهبى.

وكانت الرحلة لا تزال مجهدة، ولكن ما من أحد استقر فى داره، على ما يبدو — وذلك من مساوئ الزواج من واحدة. والطرق موحلة أو متربة، ولم يميز اللصوص بين عنصر جنس وطبقة أو مهنة. والفنادق بهيجة المنظر على الرغم من قذارتها تزدحم فيها الصراصير والفئران والبراغيث. ويجد كل رجل نهم بائعة هوى، وقلما تجد الفضيلة مخدعاً صالحاً لها هناك. يذهب الفقراء راجلين والأوساط على صهوات الخيل، فى جموع مسلحة عادة، ويستعمل الأغنياء عربات، تجرها خيول مطهمة، ونسب ابتكارها إلى رجل مجرى فى قرية كوكر من أبناء القرن الخامس عشر. وكانت عربات اللوردات مزينة بالنقوش البارزة وموشاة بالرسوم ومذهبة، لها حشيات

وستائر وبسط ، ومع ذلك فلقد كانت أقل راحة من ظهور الإبل ، وكانت تترنح كمركب صيد بشراع واحد . ولم تكن السفن خيراً مما كانت عليه فى العصر القديم ، ولعلها أسوأ حالا ، وأخذت السفينة التى جاءت بالملك جون من بوردو ، إلى لندن عام ١٣٥٧ اثنى عشر يوماً .

وانتشرت الجرائم وبلغت المدن من الفقر حداً لا تستطيع معه ، إلا أن تستخدم شرطة من المتطوعين غير المأجورين . ولكن الذكور كان يطلب إليهم جميعاً أن يسهموا فى « ملاحقة » مجرم هارب ، وكان يبحث عن الموانع فى الحكومات الصارمة من أجل القلة الذين يقبض عليهم ، وكانت عقوبة السطو والاختلاس والحريق العمد وانتهاك حرمة المعابد المقدسة ، كعقوبة القتل والتآمر ، وهى الشنق على أقرب شجرة ، وتترك الجثة ردعاً للآخرين وطعمة للغربان . وانتشر التعذيب — لكل من المتهم والشهود — إبان حكم إدوارد الرابع ، واستمر مائتى سنة . وكثر المحامون .

وقد يكون حكمنا على هذا العصر ممعناً فى القسوة ، متغافلين عن فظائع قرننا المتحضر . ولقد كان سير جون فورتسكيو القوام على العدالة فى عهد الملك هنرى السادس ، أحسن ظناً بعصره ، وكتب تمجيداً له مصنفين اشتهرا فى وقت من الأوقات : وفى محاورة امتدح قوانين انجلترا . ومجد صحة المحاكمة بوساطة المحلفين ، ونعى التعذيب ، وكان مثاله ، مثل آلاف الفلاسفة ، فى تحذير الأمراء الذين يجدر بهم أن يكونوا خدام الشعب المعتصمين بالقانون . ولقد وازن فى كتابه « الملكية » أو « حكومة انجلترا » بين فرنسا وانجلترا على أساس من العاطفة الوطنية : فالناس من فرنسا قد يحكم عليهم بغير محاكمة علنية : وقلما يدعى مجلس الولايات للاجتماع . والملك يفرض الضرائب على الحاجات الضرورية كالملح والخمر . وبعد أن بالغ فى تمجيد بلاده على هذا النحو ، ختم السير جون كلامه بقوله إن جميع الحكومات ، يجب عليها أن تخضع للبابا ولو أدى ذلك إلى تقبيل قدميه .

٤ – اللولارد

أعاد أرندل كبير الأساقفة عام ١٤٠٧ ، تأكيد سيادة الشريعة أو القانون الكنسى ، على كل تشريع وضعى ، وحكم بالكبيرة أو الهرطقة الكاملة على رفض أى مرسوم بابوى . وأقامت الكنيسة بعد ويكليف ، وازدادت قوتها فى انجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ، وفاضت الثروة المتدفقة عن خزائنها . وشاع الاكتئاب الدينى : فإن الأشخاص الذين يتوقعون الموت ، كانوا يتبرعون لبناء كنيسة ، ولإقامة القداس للتعجيل بدخولهم الجنة . وسيطرت الكنيسة على مجلسى البرلمان ، فقد كان لها فى مجلس الشيوخ حوالى عشرين أسقفاً وستة وعشرين من رؤساء الأديرة ، فى حين لم يكن فى المجلس من غير رجال الدين سوى سبعة وأربعين عضواً . وأصر هنرى السابع — وهنرى الثامن فيما بعد — لموازنة ذلك الوضع على تعيين أساقفة ورؤساء أديرتها من بين رجال الدين ، ويسر اعتماد الرتب الكهنوتية على الملكية ، تسليم رجال الدين ، لجهود هنرى الثامن فى سبيل تحقيق السيادة الملكية على الكنيسة الإنجليزية .

وفى الوقت نفسه استقر وعاظ ويكليف المساكين على نشر أفكارهم المناهضة لرجال الدين . ولقد ذكر أحد مؤرخى الأديرة ، فى فترة مبكرة ، ١٣٨٢ فى مبالغة تنم على الفزع « أنهم كانوا يتكاثرون بسرعة فائقة ، كالبراعم ، حتى عمروا المملكة بأسرها . . ومن النادر أن تلقى رجلين فى الطريق دون أن يكون أحدهما من تلاميذ ويكليف . ولقد وجدوا الجمهور المستعد للاستماع إليهم بين صفوف عمال الصناعة ، وبخاصة نساجى نورفولك . وفى عام ١٣٩٥ أحس جماعة اللولارد ، أنهم بلغوا من القوة حداً ، أتاح لهم أن يقدموا إلى البرلمان ، بياناً جريئاً بمبادئهم : فقد عارضوا عزوبة رجال الدين ، واستحالة القربان دم المسيح ولحمه

وعبادة الصور وزيارة القديسين والصلوات على أرواح الموتى ، وثروة الكنيسة وكثرة الموقوف عليها ، واستخدام رجال الكهنوت فى وظائف الحكومة وضرورة الاعتراف للقسس والاحتفال بالتعاويذ ، وعبادة القديسين . وأوصوا فى بيانات أخرى ، بأن الجميع يجب عليهم أن يعكفوا على قراءة الكتاب المقدس ، وأن يتبعوا تعاليمه باعتبارها فوق مراسيم الكنيسة . ورفضوا الحرب باعتبارها مناقضة للمسيحية ، والترف لأنه مناف للأخلاق ، وطالبوا بإصدار قوانين خاصة بالنفقات ، تفرض على الناس العودة إلى البساطة فى الغذاء والكساء ، وكرهوا الإيمان ، ووضعوا فى مقابل صفته القسم ، حيناً آخر مثل « أنا متأكد أن » و « إنها الحقيقة » ، وكان العقل الطهرى ووجهة النظر الطهرية ، يتخذان شكلهما فى إنجلترا قبل ذلك ، ولقد مزج نفر من الوعاظ ، الاشتراكية بعقيدتهم الدينية ، ولكن معظمهم ، كان ينفر من مهاجمة الملكية الخاصة ، وسعوا إلى تأييد الفرسان والنبلاء إلى جانب تأييد الفلاحين والعمال .

ومهما يكن من شىء فإن الطبقات العليا لم تستطع أن تنسى المأزق الشديد الذى نجت منه فى ثورة ١٣٨١ ، ووجدت الكنيسة فيهم ، استعداداً جديداً لحمايتها ، باعتبارهم قوة استقرار فى المجتمع . وهدد رتشارد الثانى ممثلى اللولارد فى البرلمان بالاعتقال وأكرههم على الصمت . وطالب أساقفة إنجلترا عام ١٣٩٧ ، الملك بإعدام الهراطقة المتعمدين « أسـوة بجميع الممالك الخاضعة للدين المسيحى » . ولكن رتشارد الثانى ، كره أن يسايرهم إلى هذا المدى ، ومع ذلك فقد أصدر هنرى الرابع وبرلمانه عام ١٤٠١ المرسوم المشهور بحرق جميع الأشخاص الذين تحكم عليهم إحدى المحاكم الدينية بأنهم هراطقة بالإصرار ، وتباد جميع كتب الهرطقة . وفى العام نفسه ، أحرق وليام سوترى ، وهو قسيس على مذهب اللولارد ، بعد أن شد إلى القائمة الخاصة بالإحراق . وقبض على غيره من أنصار المذهب نفسه ، وأجبروا على

تغيير آرائهم وعوملوا برفق . وقدم أميرويلز ، إلى هنرى الرابع عام ١٤٠٦ ، عريضة تقضى بأن دعوة اللولارد ، وهجومهم على أملاك الأديرة يهددان كيان المجتمع بأسره . وأمر الملك بزيادة التشدد فى محاكمة الهراطقة . ولكن انغماس الأساقفة فى سياسة البابوية ، جرف نشاطهم ، عن الهرطقة والهراطقة إلى حين . وفى عام ١٤١٠ أدانت الكنيسة جون بادبى ، وهو خياط لولاردى ، وأحرق فى سوق سمثفيلد . وقبل أن تشعل المحرقة ، رجا الأمير هال ، بادبى ، أن يرجع عن آرائه ، وأن يمنح فى مقابل ذلك الحياة والمال ، فأبى الرجل ، وارتقى المحرقة حيث لقى الموت

وجلس الأمير على العرش عام ١٤١٣ باسم هنرى الخامس ومنح تأييده الكامل لسياسة القمع . وكان أحد أصدقائه هو سيرجون ألد كاسل لورد كوبهام ، وهو الذى رأى نظارة مسرحيات شكسبير ، بعد ذلك ، أنه عين فلستاف . ولقد أبلى الدكاسل البلاء الحسن فى الحرب فى سبيل الأمة ، ولكنه تسامح مع دعاة اللولارد ، وبسط عليهم حمايته فى ضياعه بهيرفوردشاير وكنت . وطالب الأساقفة بمحاكمته ثلاث مرات ، وأبى حضور المحاكمة ثلاثاً ، ولكنه استسلم بناء على دعوة مكتوبة من الملك ، وقتل أمام الأساقفة (١٤١٣) فى نفس الموضع من كنيسة سانت بول ، حيث حوكم ، ويكلف قبل ذلك بست وثلاثين سنة . وأكد اعتقاده الثابت فى المسيحية ، ولكنه لم يقبل التخلى عن آراء اللولارد فى الاعتراف أو القربان . فأدين بالهرطقة ، وسجن فى برج لندن ، وأعطى مهلة أربعين يوماً ، على أن يعود عن هذه الآراء ، ولكنه بدلا من ذلك ، فر هارباً . وما أن بلغ اللولارد الذين كانوا حول لندن ، خبر فراره ، حتى جهروا بالثورة ، وحاولوا أن يقبضوا على الملك (١٤١٤) . وفشلت المحاولة ، وقبض على بعض الزعماء وأعدموا . واختفى الدكاسل ، ثلاث سنوات فى جبال هيرفوردشاير وويلز ، ثم قبض عليه آخر الأمر ، وأعدم بتهمة الخيانة ، ثم أحرق بتهمة الهرطقة (١٤١٧) ، لأن الدولة والكنيسة طالبت كل منهما بحقها .

ونحن إذا قسنا اضطهاد اللولارد إلى غيرهم ، نرى أنه كان معتدلا ، وبلغ عدد الذين أعدموا أحد عشر رجلا بين عامى ١٤٠٠ ، ١٤٨٥ . ولقد سمعنا عن طوائف من اللولارد عاشت إلى عام ١٥٢١ ، وفى سنة متأخرة هى سنة ١٥١٨ ، قتل توماس جان على المحرقة ،وهو الذى زعم أنه حول سبعمائة شخص إلى المذهب اللولاردى ، وأحرق ستة آخرون عام ١٥٢١ .

وأما فصل هنرى الثامن إنجلترا عن روما ، وقابلت الأمة هذا التحويل بلا ثورة ، فإن اللولارد من حقهم ، أن يزعموا ، أنهم مهدوا الطريق إلى هذا التحول إلى حد ما .

ونشر ريجنالد تيلوك ، أسقف تشيشستر عام ١٤٥٠ كتاباً ، اتخذ له عنواناً ، على طريقة العصر المتقلبة ، كبح جماح اللوم الزائد عن الحد لرجال الدين .

كان رداً صريحاً على المذهب اللولاردى ، وقد افترض وجود نزعة قوية ضد رجال الدين بين الناس . واقترح القضاء على هذه الآراء ، لا بالسجن فى المحرقة ، ولكن بالاحتكام إلى العقل فحسب. وأمعن الأسقف المتحمس فى الاحتكام إلى العقل ، حتى أغرم بالعقل فى ذاته ، وأوقعه ذلك فى الهرطقة ، وألفى نفسه ، يفند بالعقل بعض حجج اللولارد ، من الكتاب المقدس . ووضع العقل فوق الكتاب المقدس بصورة قاطعة كميزان للحقيقة ، فى « رسالة عن الاعتقاد » — وهو موقف احتاجت أوربا فيه مائتى سنة لاستعادته . وأضاف مؤلف «كبح جماح اللوم الذى لم يكبح جماحه » أن آباء الكنيسة لا يوثق بهم دائماً ، وأن أرسطو ليس ثقة لا يناقش ، وأن الرسل ، لا يد لهم فى العقيدة ، وأن هبة قسطنطين كانت انتحالا . وطالب الأساقفة الإنجليز بيكوك المعجب بنفسه بالمثول أمام محكمتهم (١٤٥٧) ، وخيروه بين الرجوع عن آرائه أو الإعدام حرقاً . وكان يكره الإحراق ، وقرأ

علانية إقراراً بالرجوع عن أقواله ، وشلح عن رتبته الكنسية ، واعتزل الناس في دير كنيسة تورنى إلى آخر حياته (١٤٦٠) .

٥ – الفن الإنجليزى ١٣٠٠ – ١٥٠٦

كانت الكنيسة ، على الرغم من الهرطقة واللاكهنوتية ، من القوة والثراء ، بحيث استطاعت أن ترفع فن العمارة الإنجليزية إلى مستوى من التفوق رفيع إلى حد ما . ولقد مول : نمو التجاوة وغنائم الحرب : الكاتدرائيات والقلاع والقصور ، وأسبغت على اكسفورد وكمبردج جلالا بما شيدت من دور جميلة للعلم لا تضارع . ولقد أخذت مواد البناء في إنجلترا من رخام بربك ومرمر نوتنجهام إلى غابات شرود وآجر أى مقاطعة ، ثم تحولت إلى صروح النبلاء وأبراج اللوردات ذوات الأطراف الدقيقة ، والسقوف الخشبية التى كانت تماثل في متانتها وجمالها القباب القوطية من الحجر . واستبدلت بالدعائم القبيحة التى تربط السقف ، والتى تصل الجدار بالآخر في صورة متكلفة ، الدعائم البارزة المطروقة ، تحمل بأكتاف ضخمة من خشب البلوط ، والعقد المرتفع فوقها ، وبهذه الطريقة ، قوصرت بعض من أجمل كنائس انجلترا صحونها . وهكذا حصلت كاتدرائية سلبى على سقف من خشب البلوط مضلع ومعقد ، تضارع الرسوم التى على شكل عقد ومروحة ، مما يسقف كنيسة « باث » ومنصة الترتيل في « إلى » — والجناح الجنوبى لكنيسة جلوسستر بأحجار متداخلة .

وأعطت نماذج من الزخارف الحجرية المفرغة في النوافذ ، ومن تغليف الجدران وحواجز المرتلين ، أسماءها لطرز معمارية متعاقبة ، تتداخل في الزمان وتختلط عادة في بناء واحد . واصطنع الطراز القوطى ذو الزخارف الهندسية (حوالى عام ١٢٥٠ — ١٣١٥) الأشكال الإقليمية ، كما هو الشأن

فى كاتدرائية اكستر . وانصرف الطراز القوطى الذى توسل بالأقواس فى الزخرف (حوالى ١٣١٥ — ١٣٨٠) ، عن الرسوم المحدودة ، إلى الخطوط التى تتماوج بحرية ، التى سبقت فى شىء من التحفظ ، طراز فرنسا المشع ، كما هو الحال فى النافذة المستديرة الجنوبية فى لكولن . وركز الطراز القوطى الرأسى (حوالى عام ١٣٣٠ — ١٥٣٠) ، على الخطوط الأفقية والرأسية فى داخل العقد ، كما فى كنيسة هنرى السابع فى دير وستمنستر . وخففت الألوان الزاهية ، التى اتسم بها الزجاج الملون فى القرن الثالث عشر ، بأصباغ أخف أو بصباغ فضى أو رمادى شاحب ، ونافست صور الفروسية الآفلة ، الأساطير المسيحية ، على هذه النوافذ . وبلغ الفن القوطى بذلك أوجه فاضمحلاله .

وقلما عرفت انجلترا مثل هذا الشغف بالبناء . فلقد جهدت ثلاثة قرون (١٣٧٦ — ١٥١٧) لكى تشيد الصحن الحالى فى دير وستمنستر ، ونحن نستطيع أن نحس إحساسا ضيقاً فى الهوادج الطوال لتلك السنوات ، جهد العقل واليد اللذين اشتركا فى عمل مقام لايضارع العبقريات الإنجليزية ، فى خير أعمالها . ويعد تجديد بناء وندسور أقل روعة ، فلقد ابتنى ادوارد الثالث هناك على مساحة ضخمة ، البرج المدور الكبير (١٣٤٤) ، وبدأ ادوارد الرابع (١٤٧٣) تشييد كنيسة سانت جورج بمنصاتها الجميلة للمرتلين وعقدها الذى على شكل المروحة وزجاجها الملون . وصمم الن دى ولسنجهام ، على الطراز القوطى المتوسل بالأقواس فى الزخرف ، كنيسة رائعة للعذراء وبرج « مصباح » لأيلى . وزودت كاتدرائية جلوسستر ببرج وسيط وعقد للمرتلين ونافذة شرقية ضخمة ، وأروقة متسعة ، وتعد سقوفها التى على شكل المروحة من عجائب انجلترا . ووسعت ونشستر صحنها الكبير وزينت واجهتها الجديدة بالطراز الرأسى . وشيدت كفنترى ، على هذا النحو الكاتدرائية ، التى لم ينفذ منها فى الحرب العالمية الثانية ، سوى برجها المدبب الفخم : وأقامت

ببتربره ، عقدها الشاهق على شكل المروحة ، وأكملت يورك منستر صحنها ، أبراجها الغربية ومنصة المرتلين فيها . وكانت الأبراج هي المجد الذي يتوج العصر ، تسبغ النبل على كابتى مرتن والمجدلية فى اكسفورد ودير فاونتين أبى وكنتربرى وجلاستبرى ودربى وتوتنن وغيرها من مئات الأضرحة . واستعمل وليام الويكهامى الطراز الرأسى فى تصميم كلية اكسفورد الجديدة ، واتبع هذا النهج وليم وينفليت ، وهو معمر آخر فى التسعين ، فى «المربع الكبير» بكلية ايتون ، وختمت كلية الملك وكمبردج ، العصر بكنيسة قد تغرى بنوافذها وعقدها ومنصات مرتليها كاليبان بالعلم وتيمون الأثينى بالصلاة .

وفى الطراز القوطى الرأسى طابع دنيوى واقعى يناسب تماما عمارة الكليات والقلاع والحصون وأبنية النقابات والبلديات . وشيد أمراء وروك على هذا الطراز فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، قلعتهم المشهورة بالقرب من ليمنجتن . وشيدت الجيلد هول فى لندن وهى مفخرة الطبقة التجارية فى العاصمة ، بين عامى ١٤١١ ، ١٤٣٥ ولكنها أحرقت عام١٦٦٦. فأعاد كريستوفرورن بناءها ، وأضيف إليها الجزء الداخلى الجديد عام ١٨٦٦ وهو الذى انهار تحت وطأة القنابل فى الحرب العالمية الثانية . كما اتخذت دكاكين المدينة ، فى قوائم نوافذها نموذجاً من الطراز الرأسى ، وهى تخلب مع رؤوسها المنقوشة وأفاريزها وطنفها البارزة ، ألبابنا بسحر مجد بائد .

ولقد احتفظ فن النحت الإنجليزى فى هذا العصر بالسمعة التى غلبت عليه ذلك لأن نحت التماثيل لواجهات الكنائس قد تخلف كثيراً عن العمارة التى كان الغرض منه أن يزينها كما هو الحال فى لنكولن واكستر . واستخدمت حواجز المذبح الكبير فى كاتدرائية وستمنستر ودير سانت البان ، قوالب للتماثيل ولكن هذا شىء لا يؤبه له لكى نضيفه إلى قصتنا . وأجود الأمثلة

على هذا الفن إنما توجد فى الآثار الجنائزية . ولقد حفرت صور جميلة لادوارد الثانى على المرمر فى كاتدرائية جلوسستر ، وللسيدة البانوربرس فى بيفرلى منستر ولهنرى الرابع والملكة جان فى كنتربرى ، ولرتشارد بوشان فى وروك . وبلغ المثالون الإنجليز أوج براعتهم فى عرض أزهار أرضهم الخضراء ونباتها . وكان الحفر الجيد يمارس على الخشب : وتبهر منصات المرتلين فى ونشستر وإيلى وجلوسستر ولنكولن ونوروتش الأنفاس بالجمال الذى بذل فى إظهاره غاية الجهد .

وكان الرسم لا يزال فناً ثانوياً فى انجلترا ، تخلف كثيراً عن معاصره فى فلاندرز وفرنسا وظل تزيين الكتب القديمة فناً محبباً ، ولقد دفع ادوارد الثالث مبلغ ستة وستين جنيهاً فى مقابل مجلد مزين للقصص الخيالى ؛ وقدم روبرت من أورمزبى إلى كاتدرائية نوروتش ، نسخة مزينة من المزامير تعدها مكتبة بدليان « أجمل مخطوطة إنجليزية » بين مجموعاتها . واضمحل فن المنمنمات بعد عام ١٤٥٠ بظهور الرسوم الجدراية واللوحات الحائطية ، وأفل نجم هذا الفن فى القرن السادس عشر قبل ظهور معجزة الطباعة الطريفة .

٦ – كاكستون ومالورى

فى تاريخ مجهول من القرن التاسع عشر ، أنشأ مؤلف ، لا يعرف اسمه الآن ، أشهر المسرحيات الأخلاقية الإنجليزية ، فإن تمثيليته « كل إنسان » عبارة عن مجاز وأخلاقه تجريدات منفرة منـــذ البداية ، مثل المعرفة والجمال والمقولات الخمسة والرشد والقوة والفضل والمآثر والصداقة والقرابة والاعتراف والموت وكل إنسان والله . ونحن نجد فى الاستهلال ، أن الله غاضب ، لأن وصاياه يتجاهلها تسعة من عشرة أشخاص فى ستة أيام من كل أسبوع ، فيرسل الموت ، ليذكر سكان الأرض ، بأنهم لابد أن

يبادروا بالعودة إليه ، وأن يقدموا حساباً عن أعمالهم . وهبط الموت من السماء إلى الأرض ، فى مساحة خط واحد ، فوجد كل إنسان قد امتلأ فكره بالنساء والذهب ، فما كان منه إلا أن أمره بالانتقال إلى الأبدية . فاحتج كل إنسان بعدم الاستعداد ، وطالب بفسحة من الوقت ، وقدم ألف جنيه على سبيل الرشوة ، ولكن الموت يمنحه مسكناً واحداً — وهو أن يصطحب معه إلى الأبدية صديقاً يختاره . فأخذ الرجل يطلب المزاملة فى هذه المغامرة العظيمة ، ولكن من طلب مزاملته يعتذر عن نفسه بشجاعة قائلا :

« إن كنت ستتناول الطعام ، وتحتسى الشراب وتبتهج ،
أو تغنم معا صحبة المرأة الشهية ،
فإننى لا أتركك . . . .
فيجيبه كل إنسان : إذاً فتعال معى فى رحلتى الطويلة .
الزميل : قسما بإيمانى ، لن أذهب معك الآن .
إلا إذا قتلت رجلا : وأزهقت روحه ،
عند ذاك أعاونك صادقاً .

فالتجأ كل إنسان إلى قريبه ، إلى ابن عمه ، الذى رفض الدعوة بحجة « أننى مصاب بتقلص فى أصبع رجلى » . فناشد الرجل ، الفضل لمعاونته ، ولكنه كان حبيساً ليست عنده الحرية لتقديم أى مساعدة . فتوسل الرجل آخر الأمر بالمآثر فابتهجت ، لأنه لم ينسها تمام النسيان ، فقدمته إلى المعرفة ، التى قادته إلى الاعتراف ، الذى طهره . ثم هبطت المآثر معه إلى قبره ، ورحبت أناشيد ملائكية بدخول الآثم المطهر إلى الجنة .

ولقد انتصر المؤلف فى معظم الأحيان — ولا تقول انتصر تماماً — على قالب درامى عصى . فإن تشخيص صفة من الصفات ، لا يمكن أن يكون لها من الوصف ما للشخص ، ذلك لأن كل إنسان عبارة عن تناقض مركب متفاعل ، وهو فريد إلا إذا كان واحداً من جماعته ، والفن العظيم يجب أن

يصور العام عن طريق الخاص كما فى هاملت أو كيخوته ، أو أديب أو بانبرج واحتاجت التجربة والعبقرية قرناً آخر ، لكى تحول المسرحية الأخلاقية الفاترة ، إلى المسرحية الإليزابيثية ، التى تصور ، الإنسان المتغير إلى ما لا نهاية .

والحادث الأدبى العظيم فى انجلترا إبان القرن الخامس عشر ، إنما هو إنشاء أول مطبعة انجليزية . ولقد هاجر وليم كاكستون ، المولود فى كنت إلى بروجس للتجارة . وترجم فى أوقات فراغه عن الفرنسية ، مجموعة من القصص الخيالى الفرنسى . وطلب أصدقاؤه نسخاً من هذه المجموعة ، فكان ينسخها لهم بنفسه ، ولكنه يخبرنا بأن يده «كلت ولم تعد تستطيع الكتابة الكثيرة بسرعة » . وعشيت عيناه من النظر الطويل على الورق الأبيض . ولعله رأى فى زياراته إلى كلونيا ، إنشاء المطبعة هناك (١٤٦٦) على يد أولرتش زل ، الذى تعلم هذا الفن الجديد فى مينز . وأسس فى عام ١٤٧١ كولاردمانسيون ، مطبعة فى بروج ولجأ كاكستون إليها ، باعتبارها وسيلة لإخراج نسخ كثيرة من ترجمته . وفى عام ١٤٧٦ عاد إلى إنجلترا وأنشأ بعد ذلك بسنة فى وستمنستر الحروف — ولعلها المطابع — التى أحضرها معه من بروج . وكان قد بلغ إذ ذاك الخامسة والخمسين من عمره ، ولم يبق له من حياته سوى خمس عشرة سنة ، بيد أنه طبع فى هذه الفترة ثمانية وتسعين كتاباً ، ترجم أكثرها بنفسه عن اللاتينية أو الفرنسية . وكان لاختياره عنوان كتبه ، ولأسلوب مقدماته الطريف الخلاب ، طابع لا يمحى على الأدب الإنجليزى . ولما توفى (١٤٩١) تابع زميله الإلزاسى وينكين دى ورد هذه الثورة .

ولقد حقق كاكستون ونشر عام ١٤٨٥ نصاً من أروع نصوص النثر الإنجليزى وهو — التاريخ الشريف للملك ارثر وعدد معين من فرسانه . وكان مؤلفها العجيب قد مات وربما كان ذلك فى السجن — قبل ذلك بحوالى ست عشرة سنة . فلقد خدم السير توماس مالورى ، فى حرب المائة سنة ،

كواحد من حاشية ريشارد دى بوشان أمير وروك ، ومثل وروك فى برلمان عام ١٤٤٥ ، ولما شعر بالوحدة فى أجازة الحرب ، اقتحم دار هيوسمث ، واغتصب زوجة الرجل ، وسلب بالإكراه مائة شلن من مارجريت كنج ووليم هيلز ، ثم اقتحم دار هيوسمث مرة أخرى واغتصب زوجته ثانية ؛ وسرق سبع بقرات وعجلين وخمساً وثلاثين وثلاثمائة من الغنم ، وانتهب كنيسة الرهبان البندكتيين فى كومب مرتين ، ووضع فى غياهب السجن مرتين . ويبدو من غير المعقول أن يؤلف مثل هذا الرجل ، تلك الأغنية الرقيقة التى تترنم بالفروسية الإنجليزية وهى التى نسميها الآن « موت الملك آرثر » ، وبعد أن اشتد الخلاف ، حول مؤلفها قرناً من الزمان ، أصبح من المجمع عليه أنها من تأليف السير توماس مالورى إبان سجنه .

وأخذ معظم القصص من الروايات الفرنسية عن الأساطير المتعلقة بالملك أرثر ، فرتبها فى سياق مقبول ، وصاغها بأسلوب محبب خلاب . وأصدرها لطبقة أرستقراطية تفقد ماضى فروسيتها من فظائع الحرب وأهوالها ، ودعا من أجل ذلك إلى العودة إلى القيم العليا التى اتسم بها فرسان الملك أرثر متناسياً مظالمهم ومظالم نفسه . ومل أرثر الفسق والفجور فاستقر مع صاحبته الجميلة الجريئة جينفير ، وحكم انجلترا — بل كل أوروبا فى الحقيقة — من عاصمته فى كاميلون (ونشستر) وطاب إلى فرسان مائدته المستديرة المائة والخمسين أن يقطعوا على أنفسهم عهدا : « ألا ينتهكوا حرمة أو يقتلوا نفساً . . . وألا يكونوا غلاظاً بأى حال من الأحوال ، وأن يرحموا من يطاب الرحمة . . . وأن يغيثوا النساء الضعيفات ، ولو واجهوا الموت دون ذلك .

والحب والحرب هما الموضوعان الممتزجان فى كتاب يردد وقائع فرسان لا ضريب لهم ، من أجل سيدات وفتيات يفقن الوصف جمالا وفتنة وكان تريستـــرام ولانسيلون يجعلان من كل من ملوكهما ديوثاً ، ولكنهما يمثلان رغم ذلك الشرف والشجاعة . ولما التقيا وقد تحصن كل منهما

بالدرع والخوذة واللامة ، تبارزا ، وقد اختفت شخصية كل منهما أربع ساعات حتى كل سيفاهما وثلما .

ثم انبرى لانسيلو آخر الأمر قائلا : أيها الفارس ، إنك تبلى فى النزال ، البلاء الحسن كأعظم ما رأيت من الفرسان ، لذلك أطلب إليك أن تتفضل فتخبرنى باسمك . فأجاب تريسترام : سيدى لقد أقسمت ألا أبوح باسمى لأحد . فقال سيرلانسيلو ، الحق أننى إذا طلبت فلا يحول قسم بينى وبين البوح باسمى . فقال سير تريسترام ، أحسنت ، ولذلك فأنا أطلب إليك أن تبوح باسمك . فقال : أيها الفارس الوسيم ، إن إسمى سير لانسيلو دى ليك . فقال : سير تريسترام : يا عجبا ، ما الذى فعلت ؟ فأنت أحب رجال العالم إلى : فقال السير لانسيلو أيها الفارس الوسيم ، أخبرنى باسمك . فأجاب حقاً ، إن اسمى سير تريسترام دى ليون . فقال سير لانسيلو ، يا للمسيح ، أى مغامرة مرت بى . . وهنا ركع سير لا نسيلو وسلمه سيفه . وهنا ركع سير تريسترام بدوره وسلمه سيفه . . . . واصطحبا إلى الصخرة ، وجلسا عليها وخلعا خوذتيهما . . . . وقبـــل كل منهما الآخر مائة مرة » .

وأى قفزة هذه ، من تلك المملكة الخيالية ، التى لا يعمل فيها أحد من أجل العيش . . كل النساء فيها « منعمات » إلى مادة الواقع الحقيقى إلى رسائل باستون وهى تلك الرسائل الحية التى جمعت أسرة مفرقة على الحب والمال فى انجلترا ، إبان القرن الخامس عشر ! ونحن نجد هنا جون باستون ، الذى مارس القانون فى لندن أو ضواحيها ، فى حين أخذت مارجريت تربى أطفالها وتدير أملاكه فى نوروتش ، إن نفسه كلها للعمل وهو جاد ، لاذع نزاع إلى المنافسة ، أما هى فكلها استسلام ، زوجة متواضعة ، نادرة ، شديدة الحياء ، ترتعد لمجرد التفكير فى أنها أساءت إليه . وهكذا كان آل جنيفر فى صميم العالم الواقعى . ومع ذلك فنحن نجد هنا أيضاً العواطف الرقيقة ، والهموم المشتركة بل الخيال ، وتعترف مارجريت

بروز لسير جون باستون الثانى انها تحبه ، وانها تأسف ، لأن الصداق ، الذى تستطيع أن تقدمه له ، أقل بكثير من مكانته ، « ولكن إن كنت تحبنى ، كما أثق أنك حقاً كذلك ، فإنك لن تتركنى لهذا السبب » وهو الذى آلت إليه ثروة آل باستون ، فيتزوجها على الرغم من اعتراض أهله ، ويموت فى غضون سنتين . وهكذا نجد قلوباً رقيقة ، تحت السطح الجافى لهذا العصر المضطرب .

٧ — الإنسانيون الإنجليز

يجدر بنا ألا ندهش من أن وفرة الدراسة للكلاسيات فى إيطاليا لعهد كوزيمو ولورنزو دى مدتشى ، لم تثر الاصدى ضئيلا فى إنجلترا ، التى كان تجارها لا يعبأون بالأدب إلا قليلا ، والتى كان نبلاؤها لا يخجلون من أميتهم على الرغم من ثرائهم . ورأى السير توماس مور : فى مطلع القرن السادس عشر أن أربعين فى المائة من الشعب الإنجليزى فقط يستطيعون القراءة . وكانت الكنيسة ، والجامعات التى تسيطر عليها ، هى التى ترعى الدارسين وحدها . وإلى إنجلترا يرجع الفضل فى أن رجالا أمثال جروسينى ولينا كر ولانيمر وكوليت : استطاعوا ، فى هذه الظروف ، وتحت وطأة الحرب المدمرة الضارية ، أن يقبسوا من الشعلة الإيطالية : وأن يحملوا قدراً كافياً من ضوئها وحرارتها إلى إنجلترا ، فيجعل ذلك رجلا مثل أرازمس الحكم الفيصل فى الأدب يشعر بأنه فى وطنه عندما هبط الجزيرة عام ١٤٩٩ . ووقف الإنسانيون أنفسهم ، على دراسة الثقافتين الوثنية والمسيحية على السواء ، فأنكرتهم قلة غير ناضجة من « الطرواديين » الذين خافوا أن يأتى هؤلاء اليونان « بالنفائس من إيطاليا » ، ولكنهم وجدوا من يدافع عنهم بشجاعة ومن يصادقهم بين أكابر رجال الكنيسة ، أمثال وليم الوينفليتى ، أسقف ونشستر ووليم ورهام رئيس أســاقفة كانتربرى وجون فيشر ، أسقف

روشستر ، وفيما بعد توماس كاردينال وُلْسى ، رئيس قضاة إنجلترا .

واستشغر بعض الدارسين من الإنجليز ، منذ زيارة مانويل شريسو لوراس ، (١٤٠٨) لإنجلترا بحمى لا يطفئها فى نظرهم غير الرحلة إلى إيطاليا للدراسة أو المجون ، ولقد عاد همفرى ، دوق جاوسستر ، من إيطاليا ، مغرماً بالمخطوطات ، وجمع مكتبة ، أثرت فيما بعد ، مكتبة بودليان . ودرس جون تيتوفت ، إيرل ورسستر ، على جوارينو الفيرونى فى فيرارا وجون أرجيرو بولوس فى فلورنسه . ثم عاد إلى إنجلترا وبين يديه من الكتب أكثر مما فى نفسه من الفضائل . ودرس الراهب وليم تيلى من عام ١٤٦٤ — ١٤٦٧ فى بادوا وبولونيا وروما ، وأحضر معه كثيراً من الآثار الكلاسية ، ثم أخذ يدرس اللغة اليونانية فى كانتربرى .

وكان توماس ليناكر أحد تلاميذه المتحمسين هناك . ولما عاد تيلى ، (١٤٨٧) إلى إيطاليا ، اصطحبه ليناكر معه ، وظل اثنتى عشرة سنة . ودرس فى فلورنسه على بوليتيان وشالكوند يليز وحقق كتباً يونانية لالدس مانوتيوس ، وعاد إلى إنجلترا متبحراً فى فروع مختلفة من المعرفة ، حتى استدعاه الملك هنرى السابع ، ليؤدب آرثر ، أمير ويلز . وأوجد مع جروسين ولاتيمر فى اكسفورد « حركة اكسفورد » لإحياء اللغات والآداب القديمة ، فألهمت محاضراتهم جون كولت وتوماس مور ، واجتذبت أرازمس نفسه . وكان ليناكر أشهر الإنسانيين الإنجليز ، يجيد اللغتين اليونانية واللاتينية ، وترجم جالينوس ، وارتقى بالطب العلمى ، وأسس الكلية الملكية للأطباء وأوقف ثروته على تمويل كراسى أستاذية الطب فى اكسفورد وكمبردج . وقال أرازموس ، إن الفضل يرجع إليه ، فى أن الدراسة الجديدة ، بلغت من الاستقرار فى بريطانيا ، حظاً لا يحتاج معه أى إنجليزى إلى أن يرحل إلى إيطاليا فى سبيل العلم .

وكان وليم جروسين قد بلغ الأربعين عندما انضم إلى ليناكر فى فلورنسه . فلما عاد إلى انجلترا عام ١٤٩٢ ، استأجر غرفاً فى كلية أكستر وفى أكسفورد وكان يحاضر عن اللغة اليونانية ، على الرغم من احتجاج المحافظين الذين كانوا يرتعدون خشية ، أن تقضى النسخة اليونانية الأصلية للعهد الجديد على ترجمة جيروم اللاتينية الشائعة وهى التى ظلت الحجة ألف سنة . ولكن جروسين أكد من جديد ، أنه صحيح المعتقد ، مستقيم إلى حد التزمت . ولم ينشأ فى نفس الإنسانيين الإنجليز أى عداء للمسيحيين حتى العداء المضمر الخفى ، كما حدث لبعض الدارسين فى عصر النهضة الإيطالية ، ولقد حرص هؤلاء الإيطاليون على التراث المسيحى ، وجعلوه مقدماً على جميع عناصر التربية العقلية ، ولم يجد أشهر هؤلاء ، حرجاً من تولى منصب نائب مطران كنيسة سانت بول .

ولقد كان جون كولت أكبر أبناء سير هنرى كولت ، وهو تاجر غنى أنجب اثنين وعشرين طفلا وتولى منصب عمدة لندن مرتين . وفى اكسفورد مست الشاب ، جذوة الإنسانيين من ليناكر وجروسين « فالتهم بشغف » كتب أفلاطون وأفلوطين وشيشيرون ورحل عام ١٤٩٣ إلى فرنسا وإيطاليا ، وقابل ارازمس وبوديه فى باريس ، وتأثر بسافونارولا تأثراً عميقاً فى فلورنس ، وهاله نزق الكرادلة والبابا اسكندر السادس وتحررهم فى روما . ولما عاد إلى انجلترا ، ورث ثروة أبيه ، وأصبح من اليسير عليه أن يحرز مكانة مرموقة فى السياسة ، ولكنه آثر حياة الدرس فى أكسفورد وتجاهل التقليد القديم الذى يجعل تدريس علوم الدين وقفاً على القساوسة وأخذ يحاضر أهل روما عن إنجيل القديس بولس ، فأحل النقد والشرح للنص الشائع ،

محل الحذلقة والجدل ، وانتعشت جماهيره الغفيرة بطرافة منهجه ، وبتركيزه على الحياة الفاضلة باعتبارها أسمى علوم الدين ، ولقد وصفه أرازموس الذى رآه فى أكسفورد عام ١٤٩٩ ، بأنه قديس تغرية الشهوة والترف دائماً ، ولكنه « احتفظ بزهرة عذرته إلى وفاته » واحتقر الحياة اليسيرة التى يعيشها الرهبان فى زمانه ، وأوصى بثروته للأعمال الدينية والخيرية .

وكان يمثل معارضة الكنيسة مع ولائه لها ، فقد أحبها على الرغم من أخطائها . وتساءل عن الصدق الحرفى لسفر التكوين ، ولكنه قبل القول بأن الكتاب المقدس منزل بالوحى . وسبق المصلحين الدينيين بتأكيده صحة الكتب المقدسة على روايات الكهنوت وأشكاله ، ورفضه أن تكون الفلسفة المدرسية للقرون الوسطى ، المزيج العقلى المخفف للمسيحية البسيطة ، وشكه فى قدرة القسس على التطهير بالاعتراف ، ووجود المسيح بالفعل فى القربان ، وفى استنكار الحياة الدنيوية التى يعيشها رجال الدين :

« لو أن الأسقف الأكبر ، الذى نسميه البابا . . . كان أسقفا بحق ، لما فعل شيئاً بنفسه ، ولكن الله فيه هو الذى يفعل . فإن حاول شيئاً بنفسه ، فإنه يكون نافث سم . . . . لقد حدث هذا كثيراً بالفعل منذ سنوات طوال ، وازداد فى هذه الأيام زيادة كبيرة ، حتى سيطر على جميع أعضاء الكنيسة المسيحية ، وإذا لم يقبض المسيح بيده على كنيستنا الممعنة فى الاضطراب فإنها تشرف على الموت . . . . . ، إن أولئك القساوسة اليائسين ، الذين يوجد منهم فى هذا العصر كثرة هائلة ليترددون فى الفجور الشنيع ، فهم لا يخشون الخروج من بطن بغى حقيرة إلى هيكل الكنيسة وإلى مذبح المسيح وإلى الأسرار الإلهية . . ولسوف تحل عليهم نقمة الله فى يوم من الأيام .

وفى عام ١٥٠٤ نصب كولت نائباً لمطران كنيسة سانت بول ، ومن هذا المنبر الرفيع عارض بيع مناصب الأسقفية ، والفساد الناجم عن قوامة رجل واحد على موارد كنائس متعددة . وأثار بآرائه هذه معارضة عنيفة ، ولكن ورهام كبير الأساقفة ، عمل على حمايته . وكان ليناكر وجروسين ومور ، قد استقروا وقتذاك فى لنـــدن وقد برئوا من جمود أكسفورد وتعصبها للقديم ؛ وشحذت عقولهم زيارات أرازموس وسرعان ما حظوا بتأييد الملك هنرى الثامن . وبدا أن كل شىء ممهد لنهضة إنجليزية ، ستتحرك مصطحبة ، إصلاحاً دينياً سلمياً .

الفصل السادس

حادثة في برجنديا

١٣٦٣ — ١٥١٥

١ — الدوقية الملكية

استطاعت برجنديا ، بفضل موقعها على الجناح الشرقى لفرنسا حول ديجون ، وبفضل السياسة الرشيدة لدوقاتها ، أن تخرج من حرب المائة عام دون أن تصاب إلا قليلا ، حتى أصبحت أكثر البقاع ازدهاراً ، فى العالم المسيحى وراء الألب. ولما انقرضت الأسرة الدوقية البرجندية من آل كابيتان ، وعادت الإمارة إلى التاج الفرنسى ، منحها جون الثانى إلى رابع أبنائه فيليب (١٣٦٣) مكافأة له على شجاعته فى مقاطعة بواتييه . ولقد أحسن ، فيليب الجسور ، تدبير الأمور فى برجنديا ، إبان الإحدى والأربعين سنة التى لبثها دوق لبرجنديا ، وكان زواجه سياسياً إلى حد كبير ، حتى دخلت فى حكمه هانو وفلاندرز وأرتوا وفرنش — كونتة وأصبحت دوقية برجنديا التى كانت من الناحية الاصطلاحيـــة ، ولاية فرنسية ، دولة مستقلة ، غنيت بالتجارة والصناعة الفلمنكيتين ، ونعمت برعاية الآداب .

ومد جون الذى لا يخاف ، سلطانه بوساطة شبكة دقيقة من المحالفات والدسائس ، إلى نقطة الانفجار ، وأحست فرنسا أنها لا بد أن تقاوم التحدى . وكان لويس ، دوق أورليان ، يحكم فرنسا نيابة عن أخيه المجنون شارل السادس ، فعقد محالفة بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فى خطة تقضى بالوقوف فى وجه الدوق الذى لا يخاف إلى حد التهور . استأجر لويس جماعة من المغتالين قتلوا جون ، فأعقب ذلك صراع عنيف

بين الحزب البرجندى والحزب الأرمنياكى — وهم أنصار حمى لويس كونت أرمنياك — من أجل السيطرة على السياسة الفرنسية ، ومات جون بدوره مقتولا بطعنة خنجر من يد مغتال (١٤١٩) . وأنكر ابنه فيليب الطيب كل سبب من أسباب الولاء لفرنسا ، وعقد محالفة بين برجنديا وانجلترا ، وضم تورناى ونامور وبرابانت وهولنده وزيلند ، ولمبرج واوفان : ولما عقد الصلح مع فرنسا) ١٤٣٥ (فرض الاعتراف بالسيادة العملية لدوقيته ، والتنازل عن لكسمبرج ، وليج وكامبراى واترخت . وبلغت برجنديا إذ ذاك أوجها ، منافسة فى الثروة والسلطان أية مملكة من ممالك الغرب .

وأغلب الظن أن فيليب لم يكتسب لقب « الطيب » من القلوب الطيبة . ذلك لأنه لم يكن يترفع عن الغدر والقسوة وسورة الغضب الأهوج . بيد أنه كان ابناً وفياً ، وإدارياً بارعاً وأبا محباً حتى لأبنائه الستة عشر غير الشرعيين. وكان كغيره من الملوك شغوفاً بالنساء له أربع وعشرون خليلة ، ويصلى ويصوم ويتصدق ، وجعل عواصمه — ديجون وبروجس وجنت —مراكز الإشعاع الفنى للعالم الغربى خارج إيطاليا . وأتاح حكمه الطويل لبرجنديا وولاياتها ، من أسباب الترف ، ما جعل رعاياه يتسامحون معه ولا يذكر أخطاءه إلا القليل منهم وتمردت المدن الفلمنكية على حكمه ، وتحرقوا شوقاً لرؤية تحول ، منظماتهم النقابية القديمة وحرياتهم الإقليمية ، إلى اقتصاد قومى ، فى ظل حكومة مركزية . وسحق فيليب وابنه شارل ثوراتهم ، ولكنهما سمحا لهم بترضية سلمية ، لأنهما أدركا أن أعظم موارد الأمارة إنما تستمد من صناعة هذه المدن وتجارتها وليس من شك أن مناطق الرين السفلى ، قبل فيليب كانت تختلف فى النظم الاجتماعية وشئون السياسة ، اختلافها فى العنصر ولغة الحديث ، فضمها فى دولة موحدة ، وأقر فيها النظام ، وأعان على ازدهارها .

وأصبح المجتمع البرجندى فى بروجس وجنت وليج ولوفان وبروكسل ودیجون (١٤٢٠ – ١٤٦٠) إذ ذاك أكثر المجتمعات فى أوربا صقلاً واجتذاباً للقلوب ، لا نستثنى من ذلك فلورنسا المعاصرة التى كان يحكمها كوزيمو دى مدتشى . فقد احتفظ أمراء الدوقيات بجميع مظاهر الفروسية ، وفيليب الطيب هو الذى أنشأ نظام خبرة الصوف الذهبية (١٤٢٩) ، ويعود بعض الفضل إلى البرجنديين أحلاف إنجلترا ، فى اتخاذها أبهة الفروسية وبريقها وهذه الفروسية هى التى صقلت السطح الخشن للطباع الإنجليزية ، وأسبغت المجد على وقائع هنرى الخامس ، وبرزت فى صفحات فرواسارت وماأورى . ولما تجرد النبلاء البرجنديون من السلطان المستقل ، عاشوا فى الحاشية أفراداً وأظهروا جميع أمارات الشرف وأبرزوا فى الرداء والحلى كل ما يزين التطفل والفجور . وأخذ التجار والصناع يحاكون حاشية الملك فى الزى وكانوا يطعمون ويلبسون زوجاتهم كأنما يهيئون المشهد لروبنز . وغدا الاكتفاء بالزوجة الواحـــدة فى ظل دوق محب مثله خيانة كبرى للملك أو الحكومة . ولقد أنجب جون الهينزبرجى المرح أسقف لييج ، اثنى عشر ابن سفاح . . وكان لجون البرجندى أسقف كامبراى ، ستة وثلاثون ابنا وحفيدا خارج نطاق الزواج ؛ وهكذا ولد كثير من علية القوم فى ذلك العصر ، الشىء الذى كان يعمل على تحسين النسل . . وكان من اليسير أن توجد البغايا فى كل وقت وبأى ثمن فى الحمامات العامة . وزعمن فى لوفان أنهن صاحبات مساكن ، يؤجرنها للطلبة ، وكانت الحفلات كثيرا ما تتسم بالبذخ ، واستخدم فنانون مشهورون فى تصميم المناظر وإعداد الأنوار ، وكان الناس يعبرون الحدود والبحار ليشاهدوا المناظر الفخمة تمثل فيها النساء العاريات أدوار الربات والجنيات القديمات .

٢ — الروح الدينى

ونجد مقابل هـذا المجتمع الثائر القديسين والمتصوفة ، الذين أعطوا هولندة ، فى كنف أولئك الدوقات مكانة رفيعة فى التاريخ الدينى . فقـد اعتزل القسيس جان فان ريسبرويك منصبه فى بروكسل وهوفى الخمسين من عمره (١٣٤٣) وأوى إلى دير أوغسطينى فى جروينندايل ، بالقرب من واترلو ،حيث وقف نفسه على التأملات والتآليف الصوفية . وصرح بأن « روح القدس » هى التى كانت تهدى قلمه ، ومع ذلك فإن مذهبه فى الحلول كاد ينكر خلود الفرد .

« فإن الله ذاته ، يحل مع الأبرار ، فى غيبوبة الكيفيات . . . وهو فناء أبدى للنفس . . وتحصل الدرجة السابعة ، عندما نكشف وراء كل المعرفة أو وراء العارف بكل شىء ، فى أنفسنا لا عارف ليس له قرار . وعند ما نتجاوز جميع الأسماء التى لله أو الكائنات ، فإننا نحتضر ، ونتحول إلى لا إسمية أبدية ، حيث نفقد أنفسنا . . . .

ونتأمل جميع هذه الأرواح المبرورة ، التى فنيت ودخلت وغابت فى جوهرها الإسمى ، فى ظلام غير معروف بلا كيفية » .

ولقد شهدت الأرض الواطئة[1] وولاية الراين الألمانية ، وفرة من جماعات غير دينية — البيجاردين والبيجوينين وإخوان الروح الحر — أثمرت أحوالها الصوفية غالباً التقوى والخدمة الاجتماعية والسكينة والسلم وأدت أحياناً إلى إنكار الأسرار المقدسة على أساس أنها غير ضرورية ، وإلى الرضى عن الخطيئة أحياناً لأنها ستفنى بالاتحاد فى الله . وتلقى جبريت (أو

---

(١) تستعمل الأرض الواطئة أو المنخفضة فى هذا الكتاب بمدلولها الأصلى لتدل بالتقريب على ما يشمل بلجيكا وهولندة الحديثتين .

جريت أو جيرار) جروت الدفنترى ، قدراً صالحاً من العلم فى كولونى وباريس وبراغ ، ثم امضى فترة طويلة فى صحبة « ديزبرويك » فى جروبندايل ، وكان أثره فيه عظيما جعله يرى أن حب الله هو الغاية فى حياته . وبعد أن رسم شماساً (١٣٧٩) بدأ يلقى عظاته فى مدن هولنده ، باللهجة العامية ، إلى جماهير ضاقت بهم الكنائس المحلية وكان الناس يتركون أعمالهم وطعامهم ليستمعوا إليه . وكان أرثوذكسى المذهب فى تزمت ، ويعد نفسه « مطرقة على رؤوس الهراطقة » فهاجم على الرغم من ذلك التحالل الأخلاقى الذى غلب على رجال الدين والمدنيين على السواء وطالب بأن يلتزم المسيحيون بدقة أخلاقيات المسيح . . فاتهم بالهرطقة ، وسحب أسقف أترخت ، حق جميع الشمامسة فى الوعظ ، وأصدر أحد أنصار جروت وهو فلورس رد يوجمزون Radewijnszoon ، قاعدة شبه رهبانية — شبه شيوعية « لإخوان الحياة العامة » الذين عاشوا فى أخوة مدينة ديفنتر وعلى رأسهم جروت ، وهم الذين شغلوا أنفسهم بالوعظ — دون أن يحصلوا على مراسيم الرهبانية — وتقضى هذه القاعدة بأن يقوموا بالعمل اليدوى والتعليم والعبادات ونسخ المخطوطات . . . ومات جروت فى الرابعة والأربعين من عمره (١٣٨٤) بالجدرى ، أصابته عدواه وهو يمرض صديقاً له ، ولكن أنصاره مدوا سلطانهم عن طريق مائتى شعبة إخوان فى هولنده وألمانيا . وجعلت مدارس هؤلاء الإخوان للآثار الكلاسية الوثنية ، مكاناً بارزا فى مقدراتها ، فمهدت بذلك السبيل لمدارس اليسوعيين الذين واصلوا عمل مدارس الإخوان فى الإصلاح الدينى المعارض . ولقد رحب هؤلاء الإخوان بالطباعة بعد ظهورها مباشرة ، واستعملوها فى نشر « عبادتهم الحديثة » وكان اسكندر هيجويز فى ديفنتر (١٤٧٥ — ١٤٩٨) مثالا لا ينسى للطلاب المجددين فى ذلك العصر فهو « المعلم القديس الذى يقف حياته على إرشاد تلاميذه وهدايتهم أخلاقياً فأصلح المقرر الدراسى ، وركزه حول

الآثار الكلاسية ، واكتسب ثناء إيرازمس على صفاء أسلوبه اللاتيني ولما توفى لم يترك شيئاً غير ملابسه وكتبه ، ذلك أنه وهب كل شيء سواها للفقراء سراً . ونجد بين طلاب العلم الذين نبغوا فى ديفنتر نيقولاس أكوساوى ،أرازموس ورودلف أجريكولا وجان دى جرسون ومؤلف كتاب « محاكاة المسيح » .

ولسنا نعرف على التحقيق من الذى ألف هذا الكتيب الشائق عن التواضع . ولعله توماس هموكن من مدينة كمبين Kampen من أعمال بروسيا . ولقد جمع فى سكينة خلوته بدير سانت اجنس بالقرب من زول ، (١٣٨٠ — ١٤٧١) من الكتاب المقدس ومن أقوال آباء الكنيسة ، ومن عبارات القديس برنارد شارحاً التجرد من الدنيا بالتقوى ، كما تصوره ويسبرويك روجروت وأعاد صياغة هذا كله فى لغة لاتينية وشيقة سهلة .

« ما الذى يجديك فى أن تشغل نفسك بجدل عميق فى الثالوث ؛ إن كنت مجردا من التواضع ، ومكروها من الثالوث ؟ والحق ، أن الكلمات السامية لا تجعل الإنسان مقدما عادلا ، بيد أن الحياة الفاضلة هى تجعله أثيرا عند الله . وإنه لخير لى أن أحس وخز الضمير من أن أحفظ الكتاب المقدس وأقوال الفلاسفة جميعهم فما الذى يفيدك ، إن افتقرت إلى حب الله وإلى فضله ؟ باطل الأباطيل والكل باطل ، سوى أن تحب الله ، وألا تخدم إلا إياه . وأسمى مراتب الحكمة ، أن تحتقر الدنيا وتتجه إلى مملكة السماء — ومع ذلك فلا تثريب على التعلم . . . . لأنه حسن فى ذاته كما أن الله قد أمر به ، ولكن الضمير الصالح والحياة الفاضلة مفضلان على الدوام .

العظيم بحق هو من يحمل فى قلبه حبا عظيما . والعظيم بحق هو الصغير فى نظر نفسه ، الذى لا يأبه برفعة الشرف . والحكيم بحق هو الذى يطرح جانبا جميع الأشياء الأرضية باعتبارها روثا ، حتى يغنم صحبة المسيح .

اهرب عن صخب الناس بأسرع ما تستطيع ، لأن معالجة الأمور

الدنيوية عائق عظيم . والواقع أن من التعاسة أن نعيش على هذه الأرض ... وأنه لأمر عظيم أن نلتزم الطاعة فى الحيـــاة ، وأن يكون فوقنا رئيس ، وألا نكون مخيرين بمشيئتنا . وأمن لنا أن نطيع من أن نحكم . . . وبذلك تبدو الصومعة التى نسكنها جميلة .

وفى « محاكاة المسيح » بلاغة رقيقة ، تعكس البساطة العميقة لعظات المسيح وأمثاله . وهو رادع ضرورى دائم لما فى العقل الرخو والسفسطة الجوفاء من غرور ذهنى . فنحن عندما نكل من مواجهة أعباء حياتنا فإننا نعتصم بالإنجيل الخامس لتوماس اكمبيس . ولكن من ذا يعلمنا ونحن فى خضم العالم وأعاصيره كيف نكون مسيحيين ؟

٣ – برجنديا المشرقة ١٣٦٣ – ١٤٦٥

أخذت الولايات الخاضعة للحكم البرغندى على الرغم من أمثال هذه الاستغفارات التوماسية ، تنغمس فى نشاط عقلى ملحوظ . فلقد جمع الدوقات أنفسهم – وفيليب الطيب أكثرهم فى ذلك – المكتبات وشجعوا الأدب والفن . وكثرت المدارس ، وسرعان ما أصبحت جامعة لوفان التى أسست عام ١٤٢٦ ، مركزا من مراكز التعليم فى أوربا . ولقد سرد جورج كاستيلان فى « تاريخ دوقات برجنديا » تاريخ الدوقية فى كثير من البلاغة الناصعة وقليل من الفلسفة ، وإن كان قد عرضه بلغة فرنسية قوية ، فأسهم به مع فرواسار وكومين فى إيجاد تلك الوسيلة المحببة من النثر الواضح الرشيق . وأقامت جماعات خاصة ، قاعات للخطابة للتدرب على الخطابة والشعر وتمثيل المسرحيات . وتنافست لغتا المملكة – الفرنسية أورومانسية الوالون فى الجنوب واللهجات الألمانية التى كان نتكلم بهـــا الفلمنكيون والألمان فى الشمال – فى إظهار الشعراء ، الذين أسدل النسيان عليهم ستاره .

وكان التعبير الأرفع للدوقية يتجسم فى الفن . وبدأت أنتورب عام

١٣٥٣ كاتدرائيتها الكبيرة ذات الممرات الكثيرة وأتمتها عام ١٥١٨ ، وشيدت لوفان كنيسة سانت بيير الجميلة فى تناسبها — وهى ضحية أخرى للحرب العالمية الثانية . وكان الناس والمدن من الغنى بحيث أصبح من المستطاع أن يقدموا القصور ومبانى البلديات ، فى البهاء نفسه الذى كان يشيد به الكنائس لله . واتخذ الأساقفة الذين حكموا لييج ، لأنفسهم ورجال إدارتهم ، سكنا فى أعظم قصر وأجمله فى الأرض المنخفضة . وأنشأت جنت دارها النقابية عام ١٣٢٥ . وبروكسل قاعة بلديتها فى عام ١٤١٠ — ١٤٥٥ ولوفان من عام ١٤٤٨ — ١٤٦٣ ، وأضافت بروجى دار بلديتها بين عامى ١٣٧٧ ، ١٤٢١ ، وتوجتها ببرج ناقوس عالمى الشهرة ١٣٩٣ — ١٣٩٦) الذى استخدم كمعلم من المعالم للملاحين الضاربين بعيداً فى البحر . وبينما عبرت هذه المبانى القوطية النبيلة عن كبرياء المدن والتجار ، فقد أنفق الدوقات وأفراد الطبقة الأرستقراطية الأموال على تزويد قصورهم وقبورهم بضروب كثيرة ناصعة من النحت والتصوير والزخرفة الخطبة . ولما كان الفنانون الفلمنكيون ، قد أخافتهم الحرب من فرنسا ، فقد تزاحموا عائدين إلى مدنهم . وحشد فيليب الجسور نجوما ساطعة من العبقريات ، ليزين مقره الصينى فى شارتريز دى شامبمول — وهو دير أرتوزى فى الحقل الهادى المجاور لريجون .

وأوفد فيليب عام ١٣٨٦ جان دى مارفى ، لكى يصمم له ضريحا فى شارتريز . ولما توفى مارفى (١٣٨٩) أتم عمله كلوز ساوتر الهولندى ، ولما توفى ساوتر بدوره (١٤٠٦) واصل العمل تلميذه كلوز ، وانتهى الضريح آخر الأمر (١٤١١) فاستقبل رفات الدوق ، الذى كان قد مات ، قبل ذلك بسبع سنوات . وفى عام ١٧٩٣ أمر مجلس ثورى فى ريجون بهدم الضريح العظيم ، فنثر حطامه أو أثاث . وفى عام ١٨٢٧ ، جمع رجال الدين فى المقاطعة ، بعد أن تنفسوا نسيم الحـــرية ، القطع الباقية منه

وأودعوها متحف ريجون . ورقد الدوق وزوجته الدوقة مارجريت أميرة فلاندرز فى تابوت مرمرى جميل على منصة ضخمة من الرخام ، وتحتهما رسوم أربعين شخصا يبكون — وهى التى بقيت وحدها من النقوش التسعين — موت الدوقين فى حزن صامت رائع . أما باب الكنيسة فى شارتريز فإن ساوتر وتلاميذه (١٣٩١ — ١٣٩٤) نقروا خمسة رسوم فاخرة . العذراء تتلقى ولاء فيليب ومارجريت ، يقدمها إليها يوحنا المعمدان وكاترين القديسة الاسكندرية . وأقام سارتر فى الصحن أروع أعماله وهو بئر موسى — وهى قاعدة تحمل تماثيل لموسى وداود وارميا وزكريا واشعيا ودنيال ، وفوقها مشهد الصلب ، ولم يبق منه إلا رأس نبيل مهموم للمسيح تتوجه الأشواك . ولم تشهد أوربا مثل هذا النحت الذى تبدو فيه القوة الفائقة والجرأة الفريدة ، منذ أزهى عصور الفن الرومانى .

وكانت للمصورين دولة عظيمة كالمثالين . وظل رسامو المنمنمات يحظون برعاية الكبراء . . فلقد دفع كونت وليام أمير هانو ، بسخاء من أجل تزيين « أجمل صلوات العذراء » (حوالى ١٤١٤)(*) . ووضع عبقرى مجهول (لعله هوبير فان ايك) نموذجا ومستوى لألف رسام من الأرض الواطئة للمناظر الطبيعية وذلك بالتقاطه بدقة مجهرية ، ثغرا فيه سفن تلقى مراسيها أو تحجز عباب البحر ، والركاب يصعدون والملاحون ورجال الشاطىء يقومون بأعمالهم المختلفة ، والأمواج تتكسر على شاطىء هلالى ، والسحب البيضاء تسير خفية عبر السماء — كل هذا فى حجم بطاقة الصورة الشمسية . وفى ١٣٩٢ زين ملكيور برويد رلام اليبرسى دير شارتريز دى شامبمول بأقدم لوحة حائطية باقية معبرة خارج إيطاليا . ولكن برويد رلام

(*) وتعرف كذلك باسم صلوات تورين . وذهبت بعض هذه المنمنمات فى حريق المكتبة الأهلية بتورين عام ١٩٠٤ ، ولكن صوراً فوتوغرافية منها قد بقيت ، وبقت أصول متعددة فى متحف مدينة تورين .

والفنانين الذين نقشوا الحوائط وتماثيل الدير ، قد استعملوا أمزجة ألوان تقليدية — خلطوا ألوانهم ببعض المواد الغروية ، وقلما يتحقق بهذه الوسائل التدرج فى الظلال والصفاء فى الألوان الخفيفة ، وقد تقضى الرطوبة على العمل بعد تمامه . وفى فترة مبكرة أى عام ١٣٢٩ قام جاك كومبير من جنت بتجربة خلط الألوان بالزيت . وطور الفلمنكيون بعد قرن من المحاولة والخطأ هذا التطبيق الفنى الجديد ، وأحدث ذلك فى الربع الأول من القرن الخامس عشر ، ثورة فى فن التصوير . فعندما صور هوبرفان أيك وأخوه الأصغر جان « تمجيد الحمل » لكاتدرائية سانت بيفن فى جنت ، لم يؤكدا تفوق الزيت كمطية للون فحسب ، ولكنهما أنشآ ، إحدى روائع الفن فى تاريخ التصوير ومن أجلها أصبحت سانت بيفن مقصدا للزائرين منذ ذلك الوقت .

أما من ناحية الشكل فإن هذا الأثر الذى يعد أعظم آثار الفن التصويرى فى القرن الخامس عشر ، والذى يصفه جيته بأنه « محور تاريخ الفن » ، عبارة عن طية من ست لوحات جدارية ، مصورة على الخشب ، على كل جانب اثنتا عشرة صورة وعندما تفتح الطية ، يبلغ طولها احدى عشرة قدما ، وعرضها أربع عشرة قدما ، وفى وسط الصف الأسفل ، منظر خيالى للريف ، مع مدينة ذات أبراج عالية — بيت المقدس — ترتفع فى المساحة التى وراء التلال ، وفى الأرض الأمامية عين « ماء الحياة » وأبعد من هذا إلى الخلف مذبح وعنده حمل يرمز إلى المسيح يتدفق منه دمه القربانى ، بينما يتجمع حوله البطارقة والأنبياء والرسل والشهداء والملائكة والقديسون فى عبادة خاشعة . وفى الوسط العلوى شخص يجلس على عرش ، يشبه شخصية خيّرة لشرلمان له ملامح سامية ، ولقد رسم على أنه الإله الأب — وهو تمثيل غير مطابق للربوبية وإن كان تصورا نبيلا لحاكم رشيد وقاض عادل . ولا يتفوق عليه فى هذه الصورة إلا شخصية واحدة — هى شخصية

العذراء ، لها قسمات لطيفة ، شقراء تيوتونية ، لا تمثل الجمال ، بقدر ما تمثل الطهارة والوداعة ، وبدت العذراء السستينية أقل نبلا . وعلى يسار السيدة مريم جمع من الملائكة ، وفى أقصى اليسار آدم عارى الجسد . نحيل حزين ، يتذكر فى بؤس فترة سعيدة من الزمن . « وإلى يمين الإله الأب ، يوحنا المعمدان ، وهو فى زى أكثر ترفا من راع ، يعظ فى البرية . وفى أقصى اليمين تقف حواء عارية ، مكتئبة غير جميلة ، تندب الفردوس المفقود ، ولقد ظلت صورتها فترة من الزمن ، مثلها فى ذلك مثل آدم فى الطرف الآخر ، تصدم الفلندرى الذى ترتعد فرائصه من البرد ولم يألف العرى فى الحياة أو الفن . وأعلى صورتها قابيل يقتل أخاه كمدخل رمزى للتاريخ .

والجانب الخلفى من هذه المجموعة يهبط عن الطراز المتسامى للوحات الداخلية . فنجد فى الصف الأوسط ملاكا إلى اليسار ومريم إلى اليمين ، تفصلهما مسافة ، يصوران البشارة ــ الوجهان عاريان ، والأيدى جميلة إلى حد ظاهر ، والأزياء كأروع ما تكون فى التصوير الفلمنكى . وفى الأسفل مقطوعة شعرية لاتينية من أربعة أبيات ، ذهبت القرون ببعض كلماتها ، أما الباقى فهى « بدأ هوبرت فان أيك ، هذه المهمة الصعبة ، وهو العظيم الذى لا يضارعه فى حذقه أحد ، وجوهانس الذى يليه فى الفن . . . شجعتهما وصية « جودوكس فيد . وهذا الشعر فى السادس من مايو ، يدعوكم لمشاهدة العمل وقد تم » ، وفى البيت الأخير حروف معينة ، مجموعها فى حساب الجمل ١٤٣٢ ؛ وهى السنة التى أنجز فيها هذا الأثر الفنى . وكان فيد وزوجته هما الواهبان . ونحن نتساءل : ما هو المقدار الذى رسمه هربرت ، والذى رسمه جان ؟ إنها مشكلة تستعصى على الحل لحسن الحظ ، ومن ثم فقد تظل

الدراسات تكتب فى الموضوع حتى يختفى(*) أثر للصورة .

وربما كان فى هذه الصورة التى تعد بداية مرحلة جديدة فى الفن إسرافاً فى الأشخاص والمنمنمات : فقد أظهر كل رجل وامرأة وملاك وزهرة وغصن وفوار وحيوان وحجر ودرة بصبر وإخـــلاص بطوليين — وقد أمتعت « ميشـــيلانجلو » الذى رأى ، فى الواقعية الفلمنكية ، تضحية بالتعبير الأساسى ، فى سبيل التفاصيل العارضة غير المتصلة بالموضوع . ولكنه لا يوجد شيء فى إيطاليا المعاصرة ، يضارع هذه الصورة فى المجال والفكرة والتأثير ، ولم يتفوق عليها فى فترة متأخرة من تاريخ التصوير ، إلا سقف الكنيسة السستينية لميشيلانجيلو وصور روفائيل الجدارية فى الفاتيكان ، وربما صورة « العشاء الأخير » لليوناردو ، قبل إن تدخل فى تحللها الطويل بل أن أوربا المتعلمة كلها كانت تتحدث عن صورة « تمجيد الحمل » إبان الفراغ من إنشائها . ولقد ناشد الفونسو الهام ، الفنان جان فان أيك ، أن يذهب إلى نابلى ، ويصور له ، أمثال أولئك الرجال والنساء ، ذوى الشعر الذهبى الذين كثروا فى هذه الصورة وإن قل وجودهم فى إيطاليـــا الجنوبية .

وخرج هيوبرت فان إيك من محيط علمنا بعد عام ١٤٣٢(**) ، ولكننا

(*) لقد بقيت صورة « عبادة الحمل » برغم كثير من الإصلاحات والأحداث ـ ورممت فى الأعوام ١٥٥٠ ، ١٦٦٣ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٩ ، ١٨٥٩ ، ١٨٣٩ ، ١٩٥١٠ . ولقد تفككت الأجزاء الرئيسية بوساطة جيش الثورة الفرنسية إلى باريس عام ١٧٩٤ ، ثم أعيدت عام ١٨١٦ . وبيع الجانبان (من غير آدم وحواء) إلى بائع صور فنية (١٨١٦) ، واشتراها متحف برلين (١٨٢١) ، وأعيدا إلى جنت بمعاهدة فرساى (١٩١٩) ، ونقلت المجموعة فى الحرب العالمية الثانية إلى فرنسا حماية لها ، وأخذها الألمان عام ١٩٤٢ ، وأخفيت عام ١٩٤٤ ، فى مناجم الملح النمسوية ، وأعيدت إلى كنيستها عام ١٩٤٦ ، بوساطة جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

(**) وينسب إليه بغير تحقيق خمس صور : (نيويورك) ، ومريمات الثلاثة عند القبر (مجموعة فير هوتن فان بوتنجن) وصورة صغيرة للعذراء فى فرنكفورت ، وجانبان المذبح (نيويورك) تمثل الصلب والمحاكمة الأخيرة وفيه بوتشيان ؟ .

نســتطيع أن نتتبع جان فى حيـــاة عاملة مزدهرة . فقد جعله فيليب الطيب حاجباً له (وكان إذ ذاك منصباً له جلاله وسلطانه) وأرسله إلى الخارج فى سفارات وكأنه جوهرة من تاج برجنديا . وينسب إليه ما يقرب من أربع وعشرين صورة لا تزال باقية إلى الآن ، وتكاد تكون كل واحدة منها عملا فنياً كبيراً . وفى درسدن صورة للعذراء وطفلها ، وهى تلى « عبـــادة الحمل » فى إنتاج فان أيك ، وتمتدح بولين « الرجل ذا الزهرة » — وجه دميم غير متناسب إلى حد عجيب مع الزهرة الجميلة ، وفى حيازة مدينة ملبورن صورة العذراء وطفلها فى بلدية إنس « وهى لا تكاد تتجاوز تسع بوصات فى ست ، ومع ذلك نقدر قيمتها بخمس وعشرين ألف دولار ، وتكتنز بروجز صورة العذراء والكاهن بايل — وفيها العذراء رائعة من شعرها المنساب إلى هدبة ردائها المتثنى فى روعة . والكاهن سمين أصلع طيب وهى من أعم صور الأشخاص فى القرن الخامس عشر ، وتعرض لندن الزوجين حديثاً ، جيوفانى أو فلفين ومعه عروسه فى قاعة داخلية يتلألأ بمرآة وشمعدان ، وحصلت مجموعة فريك فى نيويورك ، حديثاً بثمن كبير لم يذكر ، على صورة للعذراء وطفلها زاهية الألوان ومعها القديسة بربارا وإليزابث ، وفى واشنطن صورة بشارة تمتـــاز بخداع يوهم بعمق الفراغ وفخامة ثياب جبرائيل ، وهما يحولان البصر على مريم ، وفى حوزة اللوفر صورة العذراء والحاجب رولان . وفيها مشهد أخاذ لنهر تتلوّى عليه جسر يزدحم بالناس ومدينة ذات أبراج وحدائق مزدهرة ، وسلسلة تلال ترتفع مرحبة بالشمس . ونجد فى هذه الصور كلها ، إلى جانب الألوان التى تستوعبها إصرار على تصوير الواهبين كما كانوا يبدو للعين ، بحيث يتم الوجه على الحياة التى عاشها صـــاحبها ، والأفكار والأحاسيس التى صاغت على مر السنين الملامح ، لتجعل منها ، اعترافاً يفصح عن الشخصية ولقد طرحت جانباً فى رسوم الأشخاص هذه الروح المثالية التى اتسمت بها

القرون القرون الوسطى ، وبدأت تظهر طبيعة حديثة — لعلهـا تعكس الاتجاه الدنيوى للطبقة الوسطى — بكل مقوماتها .

ولقد حصل فنانون كثيرون آخرون على الشهرة فى هذه البيئة وذلك العصر الخصيبين أمثال : بتروس وكريستوس وجاك دارت ووبرت كامين (أستاذ فلمال) ونحن نحنى رؤوسنا لهم خاشعين ثم نواصل السير إلى تلميذ كامين وهو روجر دى لا باستير . ولما أن بلغ روجر السابعة والعشرين من عمره ، ذاع صيته ، فى مسقط رأسه تورناى ، فأحرز مرتين الدرجات الثلاث ، أو قنانى النبيذ الثلاث ، التى رصدها لجان فان إيك ، ومهما يكن من شىء ، فقد لبى الدعوة ليكون مصوراً رسمياً فى بروكسل ، ومن ثم جعل لاسمه الصيغة الفلمنكية روجيه فان درويدن . وفى عام ١٤٥٠ وكان قد بلغ الواحدة والخمسين ، رحل إلى روما للاحتفال بعيده الخمسينى ، ولقى المصورين الإيطاليين ، واحتفل به بوصفه أحد مشاهير العالم وربما كان تقدم التصوير بالزيت فى إيطاليا بتأثيره . ولما توفى عام ١٤٦٤ فى بروكسل ، كان أشهر فنان فى أوربا بأسرها .

وبقى فنه فى آثار كثيرة . ولقد صور أيضاً فيليب الطيب ، ورولان — وزير فيليب لمدة أربعين سنة — وشارل الجسور وغيرهم من الشخصيات البارزة . وتتسم « صورة سيدة » بجمال يفرق الوصف فى المتحف القومى بواشنطن — وهى تجسم المشاكسة والتقوى والتواضع والكبرياء . وكان روجر فى فن تصوير الأشخاص رومانسيا لا يبلغ شان جان فان ايك ، ولكنه أظهر فى صوره الدينية ، دقة وإحساساً مرهفاً ، وعمقاً فى الانفعال وهو ما يفتقر إليه فن جان القوى الواقعى ، وربما كانت الروح الإيطالية أو الفرنسية ، تتوسل فى التعبير بالشكل الفلمنكى ، وتبعث بذلك منهج القرون الوسطى .

ولقد سجل روجيه ، مثله فى ذلك مثل الإيطاليين ، الأحداث الحيوية المثيرة ، فى قصته مريم وابنها : فإن جبريل يعلن فتاة مفزعة أنها ستكون

أم الرب ، والطفل فى المزود ، وعبادة المجوس ، وصورة القديس لوقا وفيها العذراء وهى ترعى طفلها ، وزيارة مريم لاليزابث ، والأم تتأمل طفلها فى سعادة ، والحضور إلى الهيكل ، والصلب ، والنزول عن الصليب ، والقيامة ، ويوم الحشر . وبلغ روجيه فى هذا المشهد الأخير أوجه ، فى مجموعة لوحات لعلها صممت لتضارع « عبادة الحمل » ولكنها غير جديرة بذلك تماماً . ولقد صورت لرولان ، وهى الآن فى المستشفى الفخم ، الذى أسسه الوزير العظيم فى بوين . وفى اللوحة الجدارية الوسطى ، يجلس المسيح للمحاكمة ، وتغلب الرحمة عليه عما فى صورة ميشلانجيلو ، ويقف فى كلا الجانبين الملائكة بملابسهم البيضاء الناصعة : يحملون وسائل عذابه وموته ، ويظهر تحتهم ميكائيل رئيس الملائكة : يضع فى الميزان الحسنات والسيئات : وإلى اليسار تركع مريم فى خشوع وضراعة ، وفى أحد الجانبين يجثو الأبرار فى صلاة شكر ، وفى الجانب الآخر يقع الأشرار فزعين فى الجحيم ، وهناك ثلاثية فى أشورب تكاد تبلغ فى شهرتها هذه الصورة وهى تصور الأسرار المقدسة السبعة فى مشاهد رمزية . وأراد روجيه ألا نتمثله ، مستغرقاً فى وجد دينى ، فصور حسناء تغتسل ، وشابين يسترقان النظر إليها من خلال شق فى الحائط ، بفضول تشريحى نهم لا يشبع أبداً .

٤ – شارل الجسور : ١٤٦٥ – ١٤٧٧

تبخر هذا الفوران كله بفضل حدة مزاج شارل المتهور ، الملقب خطأً بالجسور . وهو الذى صوره روجيه فان درويدن ، فى صورة كونت شاروليه الفتى الجميل الحاد ذى الشعر الأسود ، الذى قاد جيوش أبيه ، فى انتصارات دامية ، وعرك سلطان أبيه منتظراً وفاته . ففى عام ١٤٦٥ أحس فيليب الطيب بنفاذ صبره ، فسلم إليه مقاليد الحكم ، وأشبع بذلك طموح الشاب ونشاطه .

وأبى شارل تقسيم دوقيته إلى ولايات شمالية وأخرى جنوبية تتفرق مكاناً

وتتعدد لغة ، وأبى فوق ذلك الولاء الإقطاعى الذى يدين به عن بعض هذه الولايات لملك فرنسا ، وعن بعضها الآخر لإمبراطور ألمانيا . وكان مشوقاً لتحقيق برجنديا العظمى ، مثل لوثارينجيا (لورين) فى القرن التاسع ، لتكون مملكة وسطى بين ألمانيا وفرنسا ، سوحدة من الناحية الطبيعية ، ذات سيادة من الناحية السياسية . ولقد فكر أحياناً ، فى أن وفيات بعض أولياء العهود الذين يتداخلون فى نسبه فى الوقت المناسب ، قد تسلمه العروش الفرنسية والإنجليزية والإمبراطورية ، وتسمو به إلى مصاف أرفع الشخصيات فى التاريخ مكانة . ولقد نظم ، تحقيقاً لهذه الأحلام ، أحسن جيش عامل فى أوربا ، وفرض على رعاياه من الضرائب ما لا نظير له فى الماضى ، وكيف نفسه لمكابدة كل عناء وتجربة ، ولم يمنح عقله وجسمه ، ولا أصدقاءه وأعداءه ، فترة من الراحة والسلام .

ومع ذلك : فقد فكر لويس الحادى عشر ، فى برجنديا باعتبارها إقطاعة من ملك فرنسا ، وحارب تابعه الغنى متفوقاً فى الخطط والدسائس . فانضم شارل إلى النبلاء الفرنسيين ضد لويس ، وغنم مدناً أخرى ، والعداوة الدائمة لملك عنيد . وفى هذا الصراع انتفضت دينان ولييج على برجنديا ، وأعلنا ولاء هما لفرنسا ، كتب بعض المتحمسين فى دينان Dinant ، على صورة معلقة لشارل ، إنه ابن سفاح لقسيس مستهتر . فهدم شارل أسوار المدينة بالمدافع ، وأباحها لجنوده ثلاثة أيام ينهبونها ، واسترق جميع رجالها ، وشرد كل نسائها وأطفالها ، وأحرق جميع مبانيها حتى أصبحت أثراً بعد عين ، وألقى بثمانمائة من الثائرين مقيدة أيديهم وأرجلهم من خلاف فى نهر الموز (١٤٦٦) ومات فيليب فى شهر يونيو التالى ، وأصبح كونت شاروليه ، شارل الجسور . فأعاد الحرب مع لويس ، وأجبر لييج التى ثارت مراراً بمحاصرتها ، على أن تؤيده وتعاونه فى هذه الحرب . وقدم سكان المدينة المتضورون جوعاً ، جميع ما يمتلكون ثمناً لحياتهم . فرفض العرض ،

وأباح المدينة ، ولم ينج من النهب بيت أو كنيسة ، وانتزعت كؤوس القربان من أيدى القساوسة وهم يقومون بالصلاة ، وأغرق جميع الأسرى الذين عجزوا عن دفع الدية الباهظة (١٤٦٨) .

والعالم ، وإن تردى ، طويلا فى أعمال العنف ، لا يستطيع أن يغتفر لشارل قسوته ، وخروجه على تقاليد الإقطاع فى حبس مليكه وإذلاله . فلما غزا جلدرلاند ، وحصل على الألزاس ، وتقدم بخطى إمبراطور ليتدخل فى كولونيا ومحاصرة نيس Neuss . بادر جميع جيرانه إلى الوقوف فى وجهه . وأسخط بيتر فان هاجنباك ، الذى عينه والياً على الألزاس ، الناس لفظاظته وجوره وقسوته ، فشنقوه ، وأعلن الاتحاد السويسرى محاربة شارل إلى الموت (١٤٧٤) ذلك لأن التجار السويسريين كانوا من ضحايا بيتر ، والذهب الفرنسى كان يوزع من الناحية العسكرية فى سويسرا ، والولايات السويسرية كانت تحس بأن اتساع سلطان شارل خطر يهدد حريتها . فترك شارل نيس ، واتجه ناحية الجنوب ، فغزا اللورين — موحداً لأول مرة طرفى وقيته — وسير جيشه عبر جورا ، إلى فود . وكان السويسريون أشجع الجنود فى عصرهم ، فهزموا شارل بالقرب من جرانسن Granson ، ثم دحروه بالقرب من مورات (١٤٧٦) وهكذا اكتسح البرجنديون ، وبلغ الحزن بشارل أن أشرف على الجنون . فاغتنمت اللورين الفرصة وانتفضت عليه ، وأرسل السويسريون الرجال وبعث لويس الذهب لمعاونة الثورة ، وألف شارل جيشاً جديداً ، وحارب الحلفاء بالقرب من نانسى ، وهزم فى المعركة ولقى الموت (١٤٧٧) . وفى الغداء التهمت الغيلان قطعاً من لحمه العارى ، ووجد غارقاً إلى النصف فى مستنقع ، ووجهه متجمد ملتصق بالجليد . وكان فى الأربعة والأربعين من عمره . وهكذا اندمجت برجنديا فى فرنسا

٥ - الفن فى الأراضى الواطئة

١٤٦٥ — ١٥١٥

اضمحلت فلاندرز الجنوبية فترة من الزمن بعد فيليب الطيب ، ودفعت الاضطرابات السياسية بكثير من النساجين إلى إنجلترا ، وكانت صناعة النسيج البريطانية النامية تحصل على تجارتها ومواردها الخامة من المدن الفلمنكية ، وما إن جاء عام ١٥٢٠ ، حتى كان النسيج الإنجليزى يزحم أسواق فلاندرز نفسها . وازدهرت بروكسل وميشلن ، وفالنسين بالتفوق فى صناعة الشرائط والسجاجيد والفرش والحلى ، ونامور بفضل صناعة الجلود ، ولوفان بفضل جامعتها وجعتها . وحوالى عام ١٤٨٠ ، بدأت القناة التى تصل بروجس بالبحر ترسب الطمى فى مجراها ، وبذلت جهود جبارة لتطهيرها ، وقضت الرمال والرياح على هذه الجهود ، ولم تعد السفن التى تمخر عباب البحر ، تستطيع الوصول إلى بروجس بعد عام ١٤٦٤ . وسرعان ما هجر تجارها ، ثم صناعها المدينة إلى أنتورب ، التى كانت السفن ذوات الغاطس الكبير ، تدخلها عن طريق مصب نهر شلد . وعقدت أنتورب اتفاقيات مع المصدرين الإنجليز ، وشاركت كاليه فى تجارة إنجلترا مع القارة الأوروبية .

ولقد بقيت الحياة فى هولندة بفضل السدود ، التى ينبغى أن يعاد بناؤها مراراً ، وقد تنهار فى أى وقت ، ولقد اختل بعضها عام ١٤٧٠ فأغرق عشرين ألفاً من السكان . وكانت الصناعة الرئيسية الوحيدة هى صيد سمك الرنجة وتجفيفها . وأخرجت هولندة كثيرين من أشهر المصورين فى ذلك العصر ، ولكنها كانت أفقر من أن تحتفظ بهم ، فهاجروا جميعاً إلى فلاندرز ما عدا جيرتجن الذى شرب نخب سنت جانز .

وهناك ، حتى فى المدن الآفلة ، كان الأغنياء من نواب المقاطعات يرتدون الملابس الفاخرة ، ويسكنون بيوتاً من الآجر المتين بها أساس فخم — علقوا

على جدرانها حوراً على النسيج من أراس وبروكسل ، وزودوها بآنية متلألئة من النحاس الأصفر من دينان . وشيدوا كنائس رائعة مثل كنيسة نوتردام دى سالبون فى بروكسل ، وكنيسة سانت جاك فى أنتورب ، وأقاموا برج واجهة كاتدرائية أنتورب حجراً حجراً ، وبدأوا فى تشييد قاعة البلدية العظيمة فى جنت . وأمدوا المصورين بالمال ، وجلسوا أمامهم لتصوير أشخاصهم ، وتقربوا إلى السموات بفن يقوم على النذور ، وسمحوا لنسائهم بقراءة الكتب . وربما كانت نزعتهم الدنيوية ، هى التى حفزت فن التصوير الفلمنكى ، فى الفترة الثانية من ازدهاره ، إلى التركيز على الواقعية والمناظر الطبيعية حتى فى الصور الدينية ، والبحث عن موضوعات جديدة فى الدور والحقول .

واستهل ديرك بوتس الاتجاه الواقعى بمبالغات طبيعية عند أصحاب البدع . ولقد جاء إلى بروكسل من مسقط رأسه هارلم ، ودرس هناك على يد روجيه فان درويدن ، وأقام فى لوفين ، وصور لكنيسة سانت بيير مجموعة لوحات جدارية هى « العشاء الربانى الأخير » ، ومعها لوحة حائطية موضوعها — عيد الفصح فى أسرة يهودية — ويبدو أنها توحى بأن العشاء الربانى الأخير ، كان احتفالاً بعشيرة يهودية سنّيّة ، يقوم بها يهود لا يزالون مؤمنين باليهودية . وصور للكنيسة ذاتها « استشهاد القديس إيرازس » تصويراً حرفياً مذهلا ؛ جلاذان يديران دولاباً ، يخرج ببطء ، أمعاء القديس المتجرد من الثياب . وفى « استشهاد القديس هيبوليتوس ، أربعة جياد تساق فى أربع اتجاهات تنفصل ذراعي الفريسة ورجليها . وفى « قطع رأس الفارس البرىء » نجد فارساً اتهمته إمبراطورة فاشلة فى حبه انتقاماً منه ، بأنه حاول هتك عرضها ، فأمرت بقطع رأسه ، وفيها انبطحت الجثة الدامية على الأرض ، واطمأن الرأس المنفصل فى حجر الأرملة ، وكان بوتس يتفادى عنفه ، فى الغالب ، بإظهار الطمأنينة الراضية عند المحتضر أو الميت — وفى هذه الصور

ألوان حية ، ونجد بين حين وآخر منظراً طبيعياً حسناً أو رسماً منظوراً ، بيد أن رسومها المتقنة وشخوصها الجامدة والوجوه التي لا حياة فيها ، توحى بأن الزمن ليس حكيماً فى انتقائه على الدوام .

وقد يكون هوجوفان درجوز ، أخذ نسبته من جوز فى زيلندة ، وهو شاهد آخر على عبقرية هولندة الخصبة الآفلة . وفى عام ١٤٦٧ سمح له بأن ينضم إلى نقابة المصورين فى جنت . وكان ذلك إرهاصاً بشهرة التصوير الفلمنكى ، حتى إن تاجراً إيطالياً فى فلاندوز ، وقع اختياره عليه ، لكى يصور ثلاثية كبيرة لمستشفى سانتا ماريا نيوفا فى مدينة فلورنسا التى كانت تعج بالفنانين . وانتخب هوجو لموضوعه هذه العبارة « إن من حملته قد عبدته » . وصورة العذراء بالحجم الطبيعى ، يغمرها الخشوع ، وهى من الروعة بمكان ، وإلى اليسار راع يتنبأ بروعة رفائيل وتيتيان ، ويعد المنظر الطبيعى الشتوى ، عملا جديداً ، من ناحية الحب المخلص للطبيعة . وأن ما اتسم به فان دوجوز من الواقعية العاتية ، والأداء الأصيل ، والرسم الدقيق والتحديد المضبوط للشخصية ، قد وضعه على قمة المدرسة الفلمنكية فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر . ولقد دخل أحد الأديرة بالقرب من بروكسل (حوالى ١٤٧٥) ، أما ليجد مزيداً من الهدوء يعينه على العمل ، وأما ليتخلص من المخاوف الدينية التى اعترته . وهناك واصل التصوير وأمعن فى تعاطى الخمر ، (كما يقول راهب زميل له) . واستولت عليه فكرة ، إن الله قد كتب عليه اللعنة الأبدية ، فأظلمت حياته ودفعته إلى الجنون .

ويخبرنا فسباسيانو دا بستيش ، أن الدوق فيديريجو صاحب أوربينو Urbino ؛ قد أرسل حوالى عام ١٤٦٨ ، إلى فلاندرز يطلب مصوراً ، يزين غرفة مكتبه ، لأنه « لا يعرف أحداً فى إيطاليا ، يفهم كيف يصور بالألوان الزيتية » . فلبى فان فاسنهوف الدعوة ، وهو صديق فان درجوز ،

وأقام فى أربينو ، وعرف منذ ذاك باسم جوستس فان جنت . فصور للدوق العالم ثمانى وعشرين صورة لطائفة من الفلاسفة كما صور لفريق من الإخوان الرهبان فى أربينو مذبحاً « تناول الأسرار المقدسة » . ومع أن هذه الآثار فلمنكية الأسلوب إلا أنها تسجل تأثيراً متبادلا بين فلاندرز وإيطاليا ، فقد تأثر المصورون الإيطاليون بالفن الفلمنكى فى الإقبال المتزايد على استعمال الزيت والنزعة إلى الواقعية ، كما تسربت المثالية والحرفية الإيطالية فى الفن الفلمنكى :

ونحن نجد أن هانز مملنج ، وإن كنا لم نعثر على خبر يفيد زيارته إيطاليا ، قد أدخل فى تصويره رشاقة ورقة ، لعله اكتسبها من مصورى كولونيا ، أو من روجيه فان درويدن ، أو لعل هذا التأثير قد جاءه من البندقية وعلى طول الرين إلى ميتز . ولقد ولد بالقرب من ميتز ، وربما اكتسب نسبته من مسقط رأسه مزملنجن ، ثم رحل من ألمانيا إلى فلاندرز وبروجس حوالى عام ١٤٦٥ . وهناك ، وبعد ثلاث سنوات ، طلب إليه سير جون دن ، وهو زائر إنجليزى ، أن يصور له « العذراء على العرش » . فكانت صورة تقليدية فى المنهج والآراء . ولكنها تظهر فى الوقت نفسه اقتداره الحرفى ، ورهافة حسه ، وتفرغه للعبادة . ولقد أبرز القديس يوحنا المعمدان ، فى واقعة فلمنكية والقديس يوحنا الإنجيلى فى مثالية ملائكية ، وكشفت الفردية النامية فى الفن ، من نفسها فى صورة « مملنج » وهو يختلس النظر متلفتاً حول عمود .

وكان ممنلج يشبه بروجينو ، الذى جاء بعده بقرن من الزمان فى رسمه مئات الصور للعذراء ، فى رقة الأمهات وسكينة الأبرار وهذه الصور معلقة على جدران المتاحف ، تراها العين أينما اتجهت فى برلين وميونخ وفينا وفلورنسة ولشبونة ومدريد ، وباريس ولندن ونيويورك ووشنطن وكليفلند وشيكاغو . وتوجد اثنتان من أحسن هذه الصور بمستشفى سانت جون فى بروجس ، ونجد أن مريم تسيطر على صورة « زواج القديسة كاترين الصوفى » ، حيث تبدو

الفخامة فى كل شخصية ، وهى تتصدر مرة أخرى « صورة عبادة الطفل » ويلفت النظر فيها المجوسى — وهو شخصية تشبه جوته المستشار الخاص — وفى صورة رحبة الأفق فى ميونخ ، رسم مملنج جميع الأحداث الرئيسية فى حياة المسيح المدونة . وسرد فى صورة أخرى بتورينو « قصة » الآلام « وعرض فيها أخلاطاً من الرجال والنساء ، حتى إن « بروجل » وجد عناء فى التفوق عليه فى كثرة العدد . وصور من أجل صندوق أرغن فى دير بمدينة ناجيرة بأسبانيا ، ثلاثية للسيد المسيح تحيط به الملائكة ، تضارع صورة « الملاك الموسيقى » للرسام ميلوزد دافورلى التى رسمت قبل ذلك بأعوام ، ولم يرمتحف أنتورب أنه مغبون عندما دفع مائتين وأربعين ألف فرنك ثمناً لهذه الصورة عام ١٨٩٦ . يرسم صورة متعــددة الأجزاء لمذبح مرضوعها ، « يوم الحساب » لأيا كويوتانى وهو وكيل لورنزو دى مديتشى فى « بروجس » ، ووضعت فى سفينة مبحرة إلى إيطاليا ، ولكن ربانا هانسياتيا استولى على السفينة ، فاحتفظ لنفسه بما كان فيها من أموال وترك الصورة تذهب إلى كنيسة العذراء فى دنزج .

ولقد صور مملنج فى هذه الآثار الرئيسية وفى اللوحات الخاصة بالأفراد ، بعض الرسوم الرائعة للأشخاص : مارتن ڤان نيو ومنيوف و « امرأة » — فى مظهر فخم تحت قبعتها العالية وفى أصابعها خواتم كثيرة — وكلا الصورتين فى إحدى مستشفيات بروجس ، وصورة « شاب » فى معرض لندن للصور ، و « عجوز » فى نيويورك ، وحامل السهم فى وشنطن . وهى لا تبلغ الإلهام والعمق اللذين اتسم بهما فن تيتيان أو رفائيل أوهولبين ، ولكنها تبلغ السطوح البسيطة بخلق صناع . أما الصور العادية غير الأساسية مثل آدم وحواء ، وأم سليمان فى الحمام فلا تفتن الناظرين .

وزين مملنج فى ختام حياته العملية تقريباً ، ضريحاً قوطياً ، فى مستشفى بروجس ، وقد صمم لكى يستقبل ، آثار القديس أورسولا . فقص فى ثانى

لوحات حائطية ، كيف أن السيدة الورعة ، خطيبة الأمير كونون ، أجلت زواجها حتى تجمع إلى روما ، وكيف أبحرت ، مع أحد عشر ألف عذراء ، فى نهر الرين إلى بازل ، وقادتهن فى رحلة فوق جبال الألب ، واعتصمت ببركات البابا وكيف أن هؤلاء الـ ١١,٠٠١ قد استشهدن على يد الهون فى كلونيا . وبعد ذلك بتسع سنوات (١٤٨٨) ، قص كارياكشيو فى صورة ، هذه القصة الرائعة المستحيلة فى آن واحد ، برسم أدق ، وألوان أزهى ، وذلك لمدرسة القديس أرسولا فى البندقية .

وليس من الإنصاف لمملنج ولا لأى مصور آخر ، أن ننظر إلى صوره ، نظرة كلية ، فكل واحدة منها لزمان ومكان معينين ومنهما تحمل خصيصته الغنائية . ونحن إذا نظرنا إليها نظرة عريضة فسنجد لتونا حدوده — ضيقة فى الأفق والأسلوب ورتابة شخوصه ، حتى رسومه المتواضعة للعذراء بما فيها من شعر ذهبى مزسل ، والسطح محبب أو صادق ، ويضىء بألوان لامعة ، ولكن الريشة قلما تنفذ إلى أعماق النفس تحت هذا السطح ، إلى سر العزلة ، والدهشة ، والطموح والهموم . وصور النساء عند ممنلج لا حياة فيهن ، وكلما جردهن عن ثيابهن ، فإننا نصاب بالحزن ، عندما نجد أن كل واحدة منهن عبارة عن معدة كبيرة وصدر رقيق . وربما كان الطابع الغالب فى تلك الشئون مختلفاً عما هو عليه الآن ، بل أن رغباتنا قد تلقنا المبادئ . ومع ذلك فيجب أن نعترف أن ممنلج عندما مات (١٤٩٥) ، كان زعيم مصورى شمالى جبال الألب بإجماع أوليائه ومنافسيه . فإن أحس فنانون آخرون بأخطائه أكثر من إحساسهم بأخطائهم . فإنهم لا يستطيعون أن يبلغوا مبلغه فى رقة الأسلوب وصفاء إحساسه وروعة تلوينه . ولقد ظل تأثيره عظيما قرناً كاملا على المدرسة الفلمنكية .

وواصل جيرار ديفيد مذهبه . فلقد جاء إلى بروجس من هولنده حوالى عام ١٤٨٣ ، وفتنته رقة ممنلج الغنائية ، وصوره عن العذراء تكاد تماثل

صور مملنج ، ولعلمها اقتسما فيا بينهما نموذجاً يصدران عنه . وهي في بعض الأحيان كما في صورة « الراحة أثناء الفرار إلى مصر » (وشنطن) ، فإنه يتساوي مع مملنج في إظهار وصيانة جمال العذراء ، وتفوق عليه في تحديد رسم الطفل . وتحول في كهولته إلى التجارة ورحل إلى أنتورب ، وبه انتهت مدرسة بروجس ، بينما بدأت مدرسة أنتورب على يد كونتن ماسيس .

وكان ماسيس ، ابن حداد في لوفان واستقبل في نقابة سانت لوك للمصورين بأنتورب عام ١٤٩١ ، بالغاً من العمر خمسة وعشرين عاماً . ومن العسير مع ذلك ، أن يوافق سانت لوقا على صورة « مأدبة هيرود » حيث كان هيرود يأسر بحز بسكين رأس المعمدان المفصول عن جسده ، أم علي « دفن المسيح » حيث كان يوسف الأريماش ، ينذف لطع الدم عن شعر الجثة التي لا دم فيها . وتزوج ماسيس مرتين ، ودفن سبعة أطفال ، فكانت له صلابة في نسج لوحاته ، وحموضة في زيوته . وبذلك استطاع أن يصور فاجرة أرادت أن تخدع مرابيا عن نقوده ، وأظهر في حالة نفسية أهدأ ، صيرفياً يعد ذهبه ، بينما تنظر زوجته إليه نظرة يختلط فيها التقدير بالغيرة ، أما صور ماسيس للعذراء فهي أكثر إنسانية من صور ممليج ، إحداها (في برلين) تقبل وتداعب طفلها كأي أم ، وألوان ملابسها التي تتراوح بين الزرقة الناصعة والأرجوانية والحمرة تبرز جمالها . ولما تحول إلى فن تصوير الأشخاص ، فإننا نجده ينفذ في ملامح الوجه إلى الشخصية وكان بذلك أكثر توفيقاً من ممليج ، كما في الصورة الرائعة « دراسة من أجل صورة شخص » في متحف جاكيمار أندريه في باريس ، ولقد لجأ إليه بيستر جيلليس Gillis (١٥١٧) عندما أراد أن يرسل إلى توماس مور ، صورة صادقة لشخصه وأخرى لأرازمس . وأحسن ماسيس مع تصوير جيلليس ، ولكن صورته لأرازمس كانت سيئة الطالع ، إذ أعقبتها الصورة التي رسمها هلبين .

ولما ذهب « دورد » (١٥٢٠) وهلبين (١٥٢٦) إلى أنتورب قدما إلى ماسيس أسمى آيات الإجلال باعتباره عميد الفن الفلمنكى .

ومع ذلك فقد ظهر في الوقت نفسه فى برابانت ، أكثر الفنانين أصالة وعبثاً فى التاريخ الفلمنكى . ونحن نجد فى آثار ماسيس — كما فى الغوغاء بنظراتهم الشذراء فى « إظهار المسيح للناس » (مدريد) أو الوجوه اللعيمة فى صورة « عبادة المجوس » (نيويورك) — الوجوه الشوهاء القاسية كالتى صورها ليوناردو فى عبثه الساخر بقلمه . ووفق هيرونيمس بوش فى استغلال هذه الأضاحيك . ولقد ولد ، وأنفق الشطر الأكبر من حياته فى بوـ ل — ديك (فى شمالى برابانت ، وهى الآن هولنده الجنوبية) ، وأصبح يعرف بصفتها الفلمنكية « هيرتوجنبوش » واختصر أخيراً إلى بوش . وظل يصور الموضوعات الدينية المألوفة فترة من الزمان ، واقترب فى بعضها كما هو الحال فى « عبادة المجوس فى مدريد » من العادية . ولكن إحساسه بالمضحك أخذ يسيطر على خياله وفنه . ولعله ارتاع فى طفولته من حكايات القرون الوسطى عن العفاريت والأشباح ، وعن الشياطين تخرج من وراء كل صخرة ، أو تبرز من كل شجرة ، وأضحى الآن يستطيع أن يرسم هذه المردة رسماً كاريكاتوريا ، فى هجاء يشفى نفسه منها . ويبعدها عن عقله بالضحك منها . وأنكر بحساسية الفنان وصمات الإنسانية — الشاذ أو اللعيم أو المشوه — والتقطهم فى مزيج هستيرى من الغضب والسرور . بل إنه فى المشاهد الرعوية كما فى صورة « المولد » (كلونيا) ، فإنه يجعل الصدارة لأنف بقرة ، وفى « عبادة المجوس » (نيويورك) يختلس الفلاحون النظر من النوافذ ومن الطرقات المسقوفة تحت القناطر ، إلى العذراء وطفلها . ومع ذلك فقد رسم فى هذه الصورة الأخيرة بحذق يبلغ حد الكمال ، صورة جليلة للقديس بطرس ، وملكا زنجيا ، يضع وقاره المهيب سائر الشخوص فتتضاءل . ولما كان بوش قد بدأ بقصة المسيح ، فقد أظلم صوره بوجوه

بهيمية وعيون وحشية ، متوحشة، وأنوف ضخام وشفاه ممطوطة سمجة نهمة .
ولما تحول إلى قصص القديسين ، فقد أظهر القديس يوحنا الإنجيلي فى صورة رقيقة إلى حد عجيب ، فى مهاد غير عادى من المشاهد الطبيعية بين جزر وبحر ، بيد أنه وضع فى أحد الأركان شيطانا يتأمل — له قلنسوة قسيس وذنب فار وأرجل حشرة — وينتظر فى صبر أن يرث الأرض — وفى صورة « إغراء القديس أنطونى » أحاط الناسك المتوحد اليائس ، بفاجرات مبتهجات وتخيلات سحرية » — قزم غرست رجلاه فى كتفيه وطائر له ساقا ماعز وقرد له أرجل بقرة وفأر تتخطاه عليه ساحرة ومنشد متجول يضع على رأسه جمجمة حصان . وأخذ « بوش » العجائب من الكاتدرائيات القوطية وجعل منها عالماً قائماً برأسه .

كان أبعد ما يكون عن الواقعية . ولكنه كان ينقل بين حين وحين مشهداً من الحياة ، كما فى « الابن السفيه » ، إلا أنه بالغ هنا فى إظهار الدمامة والفقر والخوف . وليست صورته « ركبة الدريس » نسمة فى أوائل الربيع ، ولكنها تصوير مرير لعبارة « كل الحشائش لحم » وكل شىء مثالى فوق الحمل : شاب يعزف الموسيقى لفتاة تغنى ، وخلفهما عشيقان يتبادلان القبلات وملاك يجثو على ركبتيه ، وفوقهما يرفرف « المسيح » فى السحاب . بيد أنه يصور على الأرض قاتلا ، يطعن عدوه المترنح ، وقوادة تغوى فتاة على الفجور ، ودجالا يبيع الدواء لكل داء وقسيساً بديناً يتسلم النذور من الراهبات ، وعجلات العربة تدهس بعض المحتفلين غير المكترثين . وإلى اليمين ، فريق من الشياطين ، تعاونهم قردة ، يسحبون الأشرار إلى الجحيم . ولقد علق فيليب الثانى ملك أسبانيا الذى غلبت الكآبة عليه هذه القطعة الفنية فى الاسكوريال . ووضع بالقرب منها ، زميلة لها هى « مباهج الدنيا » . وفيها نرى غديراً ، يغتسل فيه العرايا من الرجال والنساء ، وحوله موكب راكب من العرايا على متون حيوانات نصفها طبيعى ونصفها الآخر من

تهاويل الخيال ، ويبرز الشوك والحسك من كل جانب فى الصورة ، وفى مقدمتها ، عريانان يتعانقان فى رقصة فالس ، بينما يحدق إليهما طائر ضخم فى نشوة فلسفية . ويظهر قطاع منها خلق حواء لتكون أصل جميع الشرور ، ويظهر قطاع آخر تعذيب الأشرار . وهى معجزة فى الإبداع والحذق فى الرسم والخيال المريض — وتمثل بوش خير تمثيل .

وقد يتساءل البعض : هل وجد ، حتى فى فجر التجديد الحديث ، ملايين المسيحيين البسطاء الانفعاليين ، المصابين بكابوس مثل هذا ؟ وهل كان بوش واحداً من هؤلاء ؟ من العسير أن نقول ذلك . فنحن نرى فى صورة له تمثله فى مكتبة أرّاس ، وقد بدأ فى الشيخوخة ، تام القوة العقلية والحدة البصرية ، كان رجلا حصيفاً ، تجاوز غضبه الهجاء ، واستطاع أن ينظر إلى الحياة بمرح امرئ سرعان ما يخرج من الحلبة . ولم يكن من الممكن أن يصور هذه الأخيلة الحاذقة ، إذا ظلت مستولية عليه . لقد تغلب عليها ، وهو أدنى إلى الغضب منه إلى السرور ، لأن الإنسانية احتضنتها على الدوام . ومما يؤكد أن معاصريه استمتعوا بآثاره ، على أنها مرح تصويرى ، أكثر منها مفازع دينية ، رواج صوره المنقولة بالحفر والمطبوعة ، وجاء « بيتر بروجل » بعد جيل واحد فاستطاع أن يدرب هذه الشياطين ، ويحول أولئك الغيلان إلى حشد مرح سليم ، وبعد ذلك بأربعة قرون عكس الفنانون العصابيون ، أمراض عصرهم العصبية ، بتصوير أخيلة ساخرة تعبق ، معبودهم بوشى .

ويختتم هذا الفصل فى تاريخ التصوير الفلمنكى بظهور شخصية ، أدخل فى المنهج التقليدى . ولقد ولد صاحب هذه الشخصية فى « موبيج » ، ومنها أخذ نسبته « مابوس » ، واسمه « جان جوساير » ولقد رحل إلى أنتورب عام ١٥٠٣ ، ومن المحتمل أن يكون ذلك ، بعد أن ثقف الفن على يد دافيد فى بروجس . ودعى عام ١٥٠٧ إلى بلاط الدوق فيليب البرجندى وهو

أحد ثمرات عشق فيليب الطيب ، وصحب جان الدوق إلى إيطاليا ، وعاد بشيء من الصقل أضيف إلى ريشته ، وشوق إلى تصوير العاريات والأساطير الوثنية ، ونحن نجد فى صورته « آدم وحواء » أنه جعل الجسم العارى جذاباً لأول مرة فى الفن الفلمنكى . وفى صورتيه مريم والطفل والملائكة والقديس لوقا يرسم العذراء ، أصداء لما فى إيطاليا من أطفال سمان ومهاد معمارية تتسم بطابع عصر النهضة ، وقد يرجع الفضل إلى إيطاليا ، فيما نراه فى صورة « العذاب فى الحديقة » من العرض الرائق لضوء القمر . ولكن قوة « جوساير » تركزت فى فن تصوير الأشخاص . ولم يصدر عن مصور فلمنكى ، منذ جان فان إيك ، هــذه الدراسة للشخصية التى نجدها فى صورة « جان كاروندليه » فى متحف اللوفر ، ففيها يركز الفنان على الوجه واليدين ، ويكشف عن الغنى الموروث ، ويميط اللثام عن الإدارى الذى لا يتزعزع ، المهموم بأعباء السلطة ، وعلى يد ماسيس انتهى الرعيل الأول فى التصوير الفلمنكى وهو الذى بلغ حد الكمال فى الصور التى أبدعتها مدرسة « فان إيك » . وقبس جوساير من إيطاليا ، تلك التجديدات الحرفية ، والأناقة فى الزخرف ، والرشاقة فى الخطوط ، والحذق فى إظهار الجلى والقاتم على السواء ، وتصوير الأشخاص ، وهى السمات التى نجدها فى القرن السادس عشر (إذا استثنينا بروجل) تحول التصوير الفلمنكى ، عن براعته وعبقريته فى حدود وطنه وتتركه ثابتاً فى تفوقه ، حتى بلغ أوجه على يد روبنز وفان ديك .

ولم ينجب شارل الجسور ابنا ، ولكن ابنته مارى كانت مخطوبة إلى مكسيمليان صاحب النمسا ، أملا أن يحمى آل هبسبرج برجنديا من فرنسا . ومع ذلك عندما ضم لويس الحادى عشر الدوقية فرت مارى إلى جنت حيث دفعت الثمن لتكون الملكة الدستورية بموافقة فلاندرز وبرابانت وهانو وهولنده ، وهو توقيعها على « قرار امتياز جروت » (فبراير ١٤٨٨) ، الذى ناشدها أن لا تتزوج ، وألا تفرض ضريبة أو تعلن حرباً ، إلا بموافقة

(المقاطعات) أو مجالس الأقاليم الموقعة على القرار . وبهذا المرسوم وغيره من المراسيم الصادرة بعد ذلك ، بما فيها المدونة السعيدة كما أطلقت برابانت على تصريحها الخاص بحريتها المحلية ، بدأت الأراضى المنخفضة قرناً طويلا من الصراع فى سبيل الاستقلال . ولكن زواج مارى من مكسميليان (أغسطس ١٤٧٧) جاء بآل هبسبرج الأقوياء إلى الأراضى الواطئة » حتى إذا توفيت مارى (١٤٨٢) أصبح مكسميليان نائباً عن الملك . ولما انتخب مكسميليان إمبرطوراً (١٤٩٤) أسلم منصب نائب الملك فى الأراضى المنخفضة إلى ابنه فيليب . ولما مات فيليب (١٥٠٦) عينت أخته ، مارجريت أميرة النمسا ، حاكمة عامة بوساطة الإمبراطور . ولما أعلن أن ابن فيليب ، وهو شارل الخامس المقبل ، قد بلغ سن الملك (١٥٢٥) ببلوغه الخامسة عشرة ، أصبحت الأراضى المنخفضة جزءا من الإمبراطورية الهبسبرجية الشاسعة ، فى ظل واحد من أكثر الحكام دهاء وطموحاً فى التاريخ . ولهذا قصة .

الفصل السابع

أوربا الوسطى

١٣٠٠ — ١٤٦٠

١ — الأرض والعمل

ما دام الإنسان يعيش تحت رحمة الجغرافية الطبيعية ، فقد كتب عليه أن ينقسم بوساطة الجبال والأنهار والبحار ، إلى جماعات تتطور فى شبه عزلة ، مختلف لغاتها وشرائعها ، وملامحها التى تتحكم فيها الظروف المناخية وعاداتها وأزياؤها . ودفع الافتقار إلى الأمن الإنسان إلى الشك فى الغريب ، فأصبح يكره ويختصم الملامح الأجنبية المستهجنة ، وطرائق العيش للجماعات الأخرى غير جماعته . وهذا التنوع الأخاذ فى الأرض — من جبال وأودية وأزقة بحرية ومضايق ، وخلجان وغدران — الذى يجعل أوربا منظراً جامعا لمباهج شتى ، قد مزق ، سكان قارة صغيرة إلى عشرات من الأقوام ، يجترون خلافاتهم ، ويحبسون أنفسهم فى تراث أحقادهم . وهناك فتنة فى هذا الخليط من النشأة المختلفة ويستطيع المرء أن يطلب الغوث لعالم من الناس ، محصور فى أساطير بذاتها وأزياء بأعيانها . ومع ذلك ، فإن فوق هذه الخلافات وتحتها . . الخلافات فى الزى والعادة والعقيدة واللغة ، فقد فرضت الطبيعة والحاجة على الإنسان ، وحدة اقتصادية وارتباطا ، يزداد وضوحهما وسلطانهما كلما حطم الاختراع والمعرفة الحدود . وتستطيع العين المنصفة الشاملة أن ترى ، من النرويج إلى صقلية ومن روسيا إلى أسبانيا ، الناس لا يختلفون كثيراً فى الزى واللغة ، وإنما تراهم مشغولين فى مهن متماثلة ومصبوبين فى قوالب أخلاقية متشابهة : كالفلاحة والتعدين ونسيج الملابس

وبناء المنازل والهياكل والمدارس ، وتربية الناشئين والتجارة بالفائض عن حاجتهم ويشكلون النظام الاجتماعى باعتباره أقوى وسيلة للدفاع والبقاء . وسنتأمل لحظة أوربا الوسطى باعتبارها وحدة على هذا الأساس .

فقد كان الشغل الشاغل للإنسان فى اسكنديناوه ، أن يقهر البرد ، وفى هولنده أن يتغلب على البحر ، وفى ألمانيا الغابات وفى النمسا الجبال ، وتوقف مصير الزراعة وهى أساس الحياة على مدى الانتصارات . وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كانت دورات المحاصيل قد أصبحت عامة فى أوربا مضاعفة غلة الأرض . ولكن نصف سكان أوربا الوسطى بين عامى ١٣٤٧ ، ١٣٨١ ، قد هلكوا بالطاعون ، فعطل موت الفلس خصوبة الأرض . ولقد فقدت ستراسبورج فى عام واحـــد ١٤,٠٠٠ نسمة وكراكا و ٢٠,٠٠٠ وبرسلو ٣٠,٠٠٠ . ولبثت مناجم « هارز » بلا عمال قرناً من الزمان . وواصل الناس الأعمال القديمة معتمدين على صبر الحيوان الأعجم ، فى حفر الأرض وحرثها . وتوسعت السويد وألمانيا فى استخراج الحديد والنحاس ، كما كان الفحم يستخرج من آخن ودرتمند والزنك من سكسونياه والقصدير من هارز والفضة من السويد والبترول والذهب من كارنثيا وترانسلفانيا

وعمل هذا الفيض من المعادن على تغذية الصناعة النامية التى غدت بذورها تجارة رائجة . وكانت ألمانيا إماماً فى التعديل فأصبحت بطبيعة الحال ، رائدة فى علم المعادن . وظهرت أفران صهر المعادن هناك فى القرن الرابع عشر ، فغير تشغيل المعدن بمساعدة المطرقة المائية والطاحونة الدوارة وغدت نورمبرج ، عاصمة تجار الحديد واشتهرت بموقعها وأجراسها . وجعلت التجارة والصناعة نورمبرج واجزبرج ومنيز وسبير وكلونيا ، مدناً ذوات حكومة مستقلة تقريباً . وبوأت أنهار الرين ومين ولش والدانوب ، مدن ألمانيا الجنوبية ، مكان الصدارة فى المواصلات البرية ، مع إيطاليا والشرق . ونشأت بيوت تجارية ومالية ، لها أسواق وعملاء إلى مدى بعيد ، على طول

هذه الطرق ، وتفوقت فى القرن الخامس عشر على الحلف الهنسياتى اتساعاً وقوة . وكان هذا الحلف لا يزال قوياً فى القرن الرابع عشر . مسيطراً على التجارة فى مجرى الشمال والبلطيق ، ولكن الأقاليم الاسكنديناوية اتحدت عام ١٣٩٧ لتحطم الاحتكار ، وسرعان ما بدأ الإنجليز والهولنديون بعد ذلك ينقلون سلعهم بأنفسهم . بل إن سمك الرنجة قد تآمر على الهانس ، إذ قرر أن يتكاثر فى بحر الشمال ، بدلا من البلطيق ، ففقدت لوبك وهى من عمد الحلف تجارة الرنجة وأفل نجمها ، وغنمت أمستردام هذه التجارة وازدهرت .

وغليت مراجل حرب الطبقات تحت هذا التطور الاقتصادى — بين الريف والمدينة وبين السلدة لملاك وعبيد الأرض وبين النبلاء ورجال الأعمال وبين الغرف التجارية ونقابات العمال وبين الرأسماليين والصناع وبين الكهنوت والعلمانيين وبين الكنيسة والدولة . وكان رق الأرض فى السويد والنرويج وسويسرا أخذا فى الزوال أو زال بالفعل ، ولكنه اتخذ حياة جديدة فى المناطق الأخرى من أوربا الوسطى ، أما فى الدنمارك وبروسيا وسيليزيا وبوميرنيا وبرندنبرج ، حيث نال الفلاحون حريتهم بتمهيد البرارى للزراعة ، فقد أعيد رق الأرض فى القرن الخامس عشر على يد أرستقراطية عسكرية ، ونحن نستطيع أن ندرك مدى الفظاظة التى اتسم بها هؤلاء الفتيان النبلاء الألمان من مثل سائر ردده فلاحو برندنبرج ، وهو يدعو بطول البقاء لجياد السيد المالك ، حتى لا يحل العبيد محلها فى الركوب . وقنع البارونات والفرسان التيوتون ، فى أراضى البلطيق أول الأمر ، باسترقاق أهل البلاد التى غزوها من الصقالبة ، وحملهم ، نقص الأيدى العاملة بسبب الطاعون والحرب البولندية عام ١٤٠٩ ، على أن يسترقوا جميع « الكسالى الذين يتسكعون فى الطريق أو فى المدن » ، وعقدت المعاهدات مع الحكومات المجاوره بشأن تسليم الهاربين من رقيق الأرض .

وقرب الأباطرة ، الطبقة البرجوازية التجارية ، لتحد من غلواء البارونات ، فحكم هؤلاء التجار البلديات تماماً ، حتى صارت دار البلدية فى كثير من الأحيان ، هى بعينها الغرفة التجارية . وضعف سلطان النقابات المهنية وأخضعت للقواعد التى تضعها المجالس البلدية تحديداً للأجور ، ومنعت من العمل المشترك ، وتحول العمال الحاذقون للمهن ، المعتزون بخبرتهم ، هنا ، كما حدث فى إنجلترا وفرنسا إلى عمال يدويين بلا حول ولا قوة . وحلول العمال الثورة حيناً بعد حين . وفى عام ١٣٤٨ استولى عمال مدينة نورمبرج على المجلس البلدى وحكموا المدينة مدة عام ، ولكن جنود الإمبراطور أعادوا التجار الأشراف إلى السلطة . وصدر فى بروسيا عام ١٣٥٨ مرسوم يقضى بصلم أذن ، كل عامل يضرب عن العمل . واندلعت ثورات الفلاحين فى الدنمرك (١٣٤٠ ، ١٤٤١) ، وسكسونيا وسيلزيا وبرندنبرج وأراضى الرين (١٤٣٢) والنرويج والسويد (١٤٢٤) ، ولكن هذه الثورات كانت منحلة العرى فى التنظيم فلم ينتج عنها غير أعمال عنف عارضة . وانتشرت الأفكار الثورية فى المدن والقرى . ولقد كتب عام ١٤٧٨ متطرف مجهول ، رسالة يعرض فيها « إصلاحاً يقوم به القيصر سيجيسموند » وهو شخصية خيالية ، وذلك على أسس اشتراكية . وهكذا مهد المسرح ببطء لحرب الفلاحين عام ١٥٢٥ .

٢ — إقرار النظام

النظام أبو الحضارة والحرية ، والفوضى هى القابلة التى تولد الدكتاتورية ، ومن ثم فإن التاريخ يمتدح حينا بعد حين الملوك . وكانت وظيفتهم فى القرون الوسطى أن يحرروا الفرد من السيطرة المحلية وأن يركزوا فى يد واحدة ، سلطة التشريع والقضاء والعقاب وإصدار السكة وإعلان الحرب . ونباكى البارون الإقطاعى على فقدان الاستقلال المحلى . بيد أن المواطن

البسيط رأى الخير فى أن يكون هناك سيد واحد وعملة واحدة وقانون واحد ؛ وقلما أمل الناس فى تلك الأيام التى فشت فيها الأمية ، أن الملوك أنفسهم قد يختفون من الوجود ، ولا يخلفون وراءهم سلطاناً غير القوانين والأخطاء التى اقترفها الناس بحرية .

ولقد حكم اسكنديناوه بعض الملوك الأفذاذ فى القرن الرابع عشر فوحد ماجنوس الثانى ملك السويد ، قوانين مملكته المتعارضة فى مجموعة قوانين منسجمة قومية (١٣٤٧) . ونظم أريك الرابع فى الدنمرك البارونات ودعم السلطة المركزية ، وأضعفها كريستوفر الثانى وأعادها ولدمار الرابع ، وجعل بلاده ، إحدى الدول الرئيسية فى السياسة الأوربية . ولكن أعظم شخصية فى الدول الحاكمة الاسكنديناوية فى ذلك العصر ، هى شخصية ، مارجريت ابنة فالديمار ، ولقد زوجت وهى فى العاشرة (١٣٦٣) من هاكون السادس ملك النرويج ، وهو ابن ماجنوس الثانى ملك السويد ، وبدا أنه قد كتب عليها ، بفضل الزواج والدم ، أن توحد العرشين اللذين تربط بينهما القرابة ، ولما قضى أبوها (١٣٧٥) أسرعت إلى كوبنهاجن ومعها ابنها أولاف وعمره خمس سنوات ، وأقنعت الناخبين فى البارونات ورجال الدين أن يقبلوا ابنها ملكاً على أن تكون هى نائبة الملك . وبموت زوجها (١٣٨٠) ورث أولاف تاج النرويج ، ولما كان لا يزال فى العاشرة من عمره فقد أصبحت مرجريت هناك أيضاً نائبة ملك ، وكانت إذ ذاك فى السابعة والعشرين من عمرها . وأذهلت حكمتها وحياتها وشجاعتها معاصريها ، الذين ألفوا عدم الكفاءة . أو العنف فى الحكام من الرجال ، وأيد السادة الإقطاعيون فى الدنمرك والنرويج مفاخرين ، هذه الملكة الرشيدة الخيرة ، وهم الذين تسلطوا على ملوك كثيرين قبل ذلك . حتى إذا بلغ أولاف سن الرشد (١٣٨٥) غنمت له دبلوماسيتها ، حق الجلوس على عرش السويد . ولكنه مات بعد ذلك بسنتين ، فظهر أن خططها التى وضعتها فى فراسة وبعد نظر ، لتوحيد

اسكنديناوه قد حبطت بموته : ولكن المجلس الملكى فى الدنمارك ، لم يجد وريثاً ذكراً يضارع « مارجريت » فى القدرة على إقرار الأمن والسلام ، فتجاوز القوانين الاسكنديناوية ، التى تعارض حكم المرأة ، وانتخبها نائبة ملك (١٣٨٧) . وتقدمت إلى أسلو ، فاختيرت نائبة ملك النرويج مدى الحياة (١٣٨٨) ، وبعد ذلك بعام ، أقصى النبلاء السويديون ملكاً لم يرضوا عنه ، ونصبوها ملكة عليهم . وأقنعت العروش الثلاثة كلها بأن تبايع أريك أكبر أبناء أختها ، ولياً لعهودها . واستدعت عام ١٣٩٧ مجالس الدول الثلاث إلى كالمر فى السويد ، وهناك أعلن أن السويد والنرويج والدنمرك قد اتحدت إلى الأبد ، تحت سلطة حاكم واحد ، على أن تحتفظ كل واحدة منها بعاداتها وقوانينها . وتوج أريك ملكاً ، بيد أنه كان لا يزال فى الخامسة عشرة ، فاستمرت مارجريت نائبة ملك إلى أن ماتت (١٤١٢) ، ولم يحظ حاكم أوربى آخر فى ذلك العصر بمملكة متسعة كهذه ، أو بحكم موفق كحكمها .

ولم يرث ابن أختها حكمتها ، فجعل أريك الاتحاد ، يصبح فى الحقيقة إمبراطورية دنمركية ، بمجلس فى كوبنهاجن يحكم الدول الثلاث ـ واضمحلت النرويج فى هذه الإمبراطورية ، وفقدت زعامتها الأدبية التى احتفظت بها من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر . وفى عام ١٤٣٤ تزعم انجلبركت انجلبركسن ثورة السويد على سيادة الدنمرك ، وجمع فى أربوجا (١٤٣٥) مجلسا قوميا من النبلاء والأساقفة وملاك الأراضى وممثلى المقاطعات ، وأصبح هذا المجلس المتوسع فى تكوينه ، وقد استمر خمسمائة سنة ، ريخستاج السويد الحالى . وانتخب انجليبروكس وكارك كنتسن نائبى ملك . واغتيل بطل الثورة بعد ذلك بعام ، وحكم كنتسن السويد نائب ملك ، ثم ملكا ، إلى أن مات (١٤٧٠) .

وبدأ فى الوقت نفسه كريستيان الأول (١٤٤٨ — ١٤٨١) أسرة

ألدنبرج الحاكمة ، التى حكمت الدنمرك إلى عام ١٨٦٣ والنرويج إلى عام ١٨١٤ . ودخلت أيسلنده فى حكم الدنمرك إبان نيابة مرجريت عن الملك (١٣٨١) . وقد ولى مجد تاريخ الجزيرة وأدبها ، ولكنها استمرت تقدم إلى أوربا التى تمزقها الفوضى ، درسا لم يلتفت إليه عن كفاءة الحكومة ونظامها .

وكانت أقوى ديمقراطية فى العالم وقتذاك مستقرة فى سويسرا . ونجد أن البطولة فى تاريخ هذه البلاد المنيعة كانت مجسمة فى الولايات ، وفى عام ١٢٩١ بدأت الولايات التى تكتنفها الغابات ، ويتحدث أهلوها الألمانية وهى أورى وشوتز وانترفالدن ، تؤلف اتحاداً من أجل الدفاع المشترك . وأحرز الفلاحون السويسريون انتصاراً تاريخياً على جيش آل هبسبرج فى مورجارتن (١٣١٥) ، فاحتفظ الاتحاد باستقلال حقيقى بينما اعترف بالسيادة الإسمية للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأضيفت إلى الاتحاد ولايات جديدة : لوسرن (١٣٣٢) وزيورخ (١٣٥١) وجلاروس وزج (١٣٥٢) وبرن (١٣٥٣) ، وأصبح اسم ولاية شوتز يطلق على الجميع عام ١٣٥٢ . وشجعت الحدود الجغرافية على الاستقلال الذاتى وقبل الاتحاد اللغات الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية وطرائق كل منها تبعا لانحدار أوديتها ومجارى أنهارها ، فاحتفظت كل ولاية بإصدار قوانينها بوساطة مجالس ينتخبها المواطنون . وتراوح تمثيل الحرية بين ولاية وأخرى ومن عصر إلى عصر ، ولكن جميع الولايات خضعت لسياسة خارجية موحدة وحل منازعاتها بوساطة مجلس اتحادى . ومع أن الولايات يحارب بعضها بعضا ، فإن دستور الاتحاد أصبح وظل مثالا موحيا بالاتحاد — اتحاد أقاليم تستمتع بالحكم الذاتى تحت أجهزة وقوانين اختيرت بحرية .

وتطلب دفاع الاتحاد عن حريته تدريبا عسكريا لجميع الذكور وخدمة عسكرية عند الطلب ، يتقدم بها جميع الرجال بين العاشرة والستين وأصبح

المشاة السويسريون ، المسلحون بالحراب والمدربون على النظام الدقيق ، أكبر جيش مخوف باهظ التكاليف فى أوربا . ورأت الولايات أن تقتصد فى دخلها ، فأجرت فرق جيشها للدول الأجنبية ، وجعلت « البسالة السويسرية حينا من الزمن سلعة تجارية . ولبث الأمراء النمسويون ، يدعون لأنفسهم حقوقا إقطاعية فى سويسرا ، وحاولوا الحصول عليها أحيانا ، فقضى على هذا الادعاء فى سمباتش (١٣٨٦) وتافلس (١٣٨٨) ، بمعارك تستحق الذكر فى تاريخ الديمقراطية . وأكدت معاهدة كنستانس عام ١٤٤٦ مرة أخرى ، حرية سويسرا الفعلية وولاءها الأسمى للإمبراطورية الفعلية .

٣ – ألمانيا تتحدى الكنيسة

كانت ألمانيا أيضا اتحاداً ، ولكن الأجزاء التى تألفت منها ، لم تكن تحكم بوساطة مجالس ديمقراطية ، وإنما بوساطة أمراء مدنيين أو دينيين ، يعترفون بولاء محدود ، فقط لرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وحكم بعض هذه الولايات مثــل بفاريا ووتنبرج وثورنجيا وهى وناسو وميس وسكومونيا وبرندنبرج وكارنثيا والنمسا والبلتنيان — دوقات أو كونتات ، أومرغريفات(*) أو غيرهم من السادة المدنيين ، بينما خضعت ولايات أخرى — مثل مجدبرج وميتز وهال وبامبرج وكلونيا وبريمن وستراسبورج وسالزبورج وتريبه وبازل وهلديشين — من الناحية السياسية بدرجات متفاوتة ، لأساقفة أو رؤساء أساقفة ، ولما وافت سنة ١٤٦٠ ، حتى كانت حوالى مائة مدينة قد حصلت على مواثيق تحررها بالفعل من حكامها المدنيين أو الدينيين . ويوجد فى كل إمارة مندوبون عن الطوائف الثلاث — النبلاء ورجال الدين والعامة — يجتمعون بين حين وآخر فى مجلس إقليمى ، يحدد عن طريق المال سلطة الأمير . وأرسلت الإمارات والمدن الحرة ممثلين لها إلى الريخستاج أو المجلس الإمبراطورى . وكان يدعى مجلس خاص هو كرفير ستنتاج

(*) المرغريفات : لقب ألمانى .

أو مجلس المنتخبين ، لاختيار الملك ، وجرى العرف أن يتألف من ملك بوهيميا ودوق ساكسونين ومارجريف Margrave براندنبرج وكونت بلاتين ورؤساء أساقفة منيز وتريروكلونيا . وكان اختيارهم يسفر عن تنصيب ملك ، ويصبح رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عندما يتوجه البابا ، ومن ثم فلقبه قبل التتويج هو « ملك الرومان » والأصل أن يتخذ عاصمة فى نورمبرج ، وكثيراً ما يتخذها فى مكان آخر ، حتى فى براغ . وارتكز سلطانه على العرف والسمعة ، أكثر من اعتماده ، على الممتلكات أو القوة ، وليست له من الأرض سوى أملاكه الخاصة باعتباره أميراً إقطاعياً مثل كثيرين غيره ، وكان يعول على ريخستاج أو الكوفيرستنتاج للحصول على الأموال لإدارة حكومته أو شن الحرب ، ولقد فرض هذا التعويل على رجال قادرين من أمثال شارل الرابع أو سيجسمند ، سقوطاً مهيناً فى الشئون الخارجية . وقضى الباباوات الأقوياء فى القرن الثالث عشر على أسرة هوهنستوفن ، فأنهك ذلك الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى أنشأها (٨٠٠) البابا ليو الثالث وشارلمان . أما فى عام ١٤٠٠ فقد كانت ارتباطاً واهياً من ألمانيا والنمسا وبوهيميا وهولنده وسويسرا .

وبعث الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ، عندما أختار يوم واحد من عام ١٣١٤ ، فريقان متنازعان من المنتخبين لويس أمير بافاريا وفردريك صاحب النمسا ، ملكين متنافسين واعترف البابا يوحنا الثانى والعشرون ، من مقره البابوى فى الأفنيون بالاثنين كملكين ، ولم يجعل أحدهما إمبراطوراً ، واحتج بأنه ما دام البابا ، لا يملك إلا أن يتوج الملك إمبراطوراً ، فيجب أن يسمح له ، أن يحكم على صحة الانتخاب ، وقال الحبر الطموح أكثر من ذلك ، بأن إدارة شئون الإمبراطورية يجب أن تسند إلى البابوية بين وفاة إمبراطور وتتويج آخر . وآثر لويس وفردريك الاحتكام إلى الحرب . وانتصر لويس على غريمه وأسره فى موهلدورف (١٣٢٢) ومن ثم ادعى

لنفسه السلطة الإمبراطورية الكاملة . فأمره يوحنا أن يجرد نفسه من جميع لألقاب والسلطات ، وأن يمثل أمام المحكمة البابوية ليتلقى الحكم بعصيان الكنيسة . فأبى لويس وأصدر البابا قراراً بحرمانه (١٣٢٤) وطلب إلى جميع المسيحيين فى الإمبراطورية أن يخرجوا عن طاعته ، وحكم بحرمان كل إقليم يعترف به ملكا عليه . فتجاهلت معظم ألمانيا هذه المراسيم ، لأن الألمان كانوا كالإنجليز ، يعدون باباوات أفينيون ، خدامها وحلفاء لفرنسا . ولقد بدأ الناس يرون أنفسهم ، إبان ضعف العقيدة والبابوية المضطرد ، وطنيين أولا ومسيحيين بعد ذلك . واضمحلت الكاثوليكية ، التى تتجاوز لقومية ، ونشأت القومية وهى بروتستانتيلية .

وحصل لويس فى هذا المأزق على المعونة والتأييد من حلفاء متباينين . ووسمت نشرة البابا يوحنا «Pope John's bull Cam inter nonnulla» (١٣٢٣) بالهرطقة ، القول بأن المسيح والرسل أبوا تملك العقار ، وأنه وجه محكمة التفتيش ، لتستدعى أمام جلساتها « الفرنسسكان الروحانيين » الذين أكدوا هذا الرأى . ورد كثير من الإخوان الرهبان ، الاتهام بالهرطقة على البابا ، وعبروا عن فزعهم المقدس من ثروة الكنيسة ، ووصف بعضهم الحبر العجوز بأنه خارج على المسيحية ، وقاد ميـكل سيزينا ، رئيس الروحانيين ، أقلية كبيرة منهم ، إلى التحالف الصريح مع لويس ملك بافاريا (١٣٢٤) فتشجع لويس بتأييدهم ، وأصدر فى مدينة ساشزينها وزن منشوراً ضد « يوحنا الثانى والعشرين » ، الذى يدعى أنه بابا ، واتهمه بأنه سفاح نصير للظلم ، صمم على أن يقوض أركان الإمبراطوزية ، وطالب بأن يعقد مجلس عام ، يحاكم البابا بتهمة الهرطقة .

ومما شجع الملك أكثر من ذلك ، ظهور أستاذين من جامعة باريس ، فى بلاطه بنورمبرج وهما مرسيليوز من بادوا وجون من جانداان — وليس من شك فى أن كتابهما « دفاع عن السلام » قد هاجم بابوية أفنيون ، فى عبارات

أدخلت السرور على الملك : « ما الذى تجده هناك غير حشد من تجار الرتب الدينية من كل صقع ؟ وماذا غير صخب المتلاعبين بالقضايا ، . . . وامتهان الرجال الشرفاء ؟ أما إنصافهم الأبرياء فيسقط فى الحضيض ، إلا إذا اشترى بالمال » ، وردد المؤلفان أقوال الوعاظ الألبجنيين والولدنيزيين فى القرن الثالث عشر ، وسبقا لوثر بمائتى سنة ، وكانت حجتهما أن تعتمد المسيحية ، كلية على الكتاب المقدس . ويجب أن يدعى مجلس عام للكنيسة لا بوساطة البابا ولكن بوساطة الإمبراطور ، وينبغى أن يحصل على موافقة الأخير فى انتخاب أى حبر ، والبابا مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر ، عليـه أن يخضع للإمبراطور .

وابتهج لويس بذلك ، وصمم ليذهبن إلى إيطاليا ، وليتوجن إمبراطوراً ، بوساطة أهل روما . وخرج فى أوائل عام ١٣٢٧ على رأس جيش صغير ، وبعض الفرنسيسكان والفيلسوفين ، اللذين استخدمهما فى تأليف تصريحاته العامة . وأصدر البابا فى أبريل نشرات جديدة ، تقضى بالحرمان على جون ومارسيليوز ، وأمر لويس أن يترك إيطاليا . ولكن الفيكونت الحاكم رحب به فى ميلان ، وتسلم التاج الحديدى ، باعتباره الملك الاسمى للمبارديا . وفى السابع من يناير عام ١٣٢٨ ، دخل روما ، وسط تهليل ، جمهور ينكر إقامة البابا فى أفنيون . واستقر فى قصر الفاتيكان ، واستدعى مجلساً شعبياً للاجتماع فى الكابيتول . وظهر أمام الجمع الحاشد مرشحاً لتقلد التاج الإمبراطورى وأبدى الجمع موافقته الصاخبة ، وفى السابع عشر من يناير وضع على رأسه التاج المنشود ، وكان الذى وضعه هو المأمور سكباراكولونا — عدو البابوية العنيد ، الذى حارب قبل ذاك بربع قرن تقريباً بونيفاس الثامن وتوعده بالموت ، والذى رمز ثانية فى لحظة ، إلى تحدى الدولة الناشئة ، للكنيسة الآخذة فى الضعف .

ولم يدر فى خلد البابا يوحنا قط ، وقد بلغ الثامنة والسبعين — أن يهزم -

فأعلن حرباً صليبية ليجرد لويس من كل سلطة ، وأمر الرومان ، أن يطردوه من مدينتهم ؛ حتى لا يقعوا تحت طائلة قرار الحرمان ، وأن يعودوا إلى طاعة البابوية . فأجاب لويس بعبارات تذكر بسلفه هنرى الرابع المحروم من غفران الكنيسة ، فعقد اجتماعاً شعبياً آخر ، وأصدر أمام الجمع مرسوماً إمبراطورياً ، يتهم البابا بالهرطقة والطغيان ، ويجرده من منصبه الكهنوتى ، وحكم عليه بعقوبة ، تقررها السلطات الزمنية . وتألفت لجنة ، من رجال الدين ومن العلمانيين ، بتوجيه لويس ، فعينت بيتر الكورفارى منافساً على كرسى البابوية . وعكس لويس تقاليد ليو الثالث وشارلمان ، فوضع التاج البابوى المثلث على رأس بيتر ، ونادى به بابا نيقولاس الخامس (١٢ مايو ١٣٢٨) . ودهش العالم المسيحى ، وانقسم إلى معسكرين ؛ على نفس الأسس تقريباً التى قسمت أوربا بعد الإصلاح الدينى .

وقلبت الأحداث المحلية الصغيرة الموقف رأساً على عقب . فقد عين لويس مارسيوز من بادوا مديراً روحانياً للعاصمة ، فأمر هذا الرجل ، القساوسة القليلين الذين بقوا فى روما ، أن يحتفلوا بالقداس كالمعتاد ، على الرغم من قرار الحرمان ، ثم عذب بعض الذين رفضوا ، وعرّض راهباً أوغسطينيا لحب الأسود على الكابيتول ؛ فأحس كثير من الرومان بأن هذه الأعمال تحمل الفلسفة فوق طاقتها . ولم يتعلم الإيطاليون قط ، حب التيوتون ، فلما اغتصب بعض الجنود الألمان ، الطعام من الأسواق ، دون أن يدفعوا له ثمناً ، شبت الفتن . واحتاج لويس إلى المال لينفق على جنده وحاشيته ، ففرض جزية مقدارها عشرة آلاف فلورن على المدنيين ، ومبالغ مماثلة على رجال الدين واليهود . وبلغت المعارضة حداً من الخطورة جعل لويس يرى أن الوقت قد حان ، ليعود إلى ألمانيا . فبدأ فى الرابع من أغسطس عام ١٣٢٨ ، انسحابه عبر إيطاليا . وفى اليوم التالى احتلت الكتائب البابوية روما ، وخربت قصور الذين أيدوا لويس من الرومان ، وصودرت

أملاكهم لحساب الكنيسة . ولم يبد الناس مقاومة ، بل عادوا إلى عباداتهم وجرائمهم .

واطمأنت نفس لويس فى بيزا بلقاء نصير جديد ، هو أشهر فيلسوف فى القرن الرابع عشر . فقد فر وليام الأوكهامى من سجن بابوى فى أفنيون ، وعرض على الإمبراطور خدماته قائلا (عن رواية غير محققة) « دافع عنى بسيفك وسأدافع عنك بقلمى » . فأصدر كتابات قوية ، ولكنه لم يستطع أن ينقذ الموقف . فقد أقصى لويس ، جميع العناصر الحاكمة فى إيطاليا ، وكان أنصاره من الجيبلين ، يأملون أن يحكموا شبه الجزيرة لمصلحتهم باسمه ، فأحزنهم أن يجدوه يزعم لنفسه السلطات والمصالح جميعها ، يضاف إلى ذلك أنه جعلهم يفرضون ضرائب باهظة لخزانته . وكانت قواته ضئيلة لا تناسب مزاعمه ، فانصرف عنه كثير من الجيبلين حتى للفيكونت ، وعقدوا مع البابا صلحاً بالشروط التى قدروا عليها . وترك منافس البابا ، لموارده فاستسلم لضباط البابا الذين قبضوا عليه ، وسيق أمام يوحنا الثانى والعشرين ، وحبل المشنقة حول عنقه ، فألقى بنفسه على قدمى البابا مستغفراً (١٣٢٨) . فعفى عنه يوحنا ، وعانقه كضال يعود إلى الكنيسة ، وحبسه مدى الحياة .

وعاد لويس إلى ألمانيا ، وأرسل الوفود مراراً إلى أفنيون ، تعلن سحبه لقراراته السابقة واعتذاراته ، من أجل عفو البابا واعترافه . فرفض يوحنا ، واستمر فى الحرب إلى أن مات (١٣٣٤) . واستعاد لويس بعض نفوذه ، عند ما بدأت إنجلترا حرب المائة عام ، ورغبت فى محالفته ، واعترف إدوارد الثالث بلويس إمبراطوراً ، وحيا لويس بدوره ، إدوارد ، باعتباره ملكاً لفرنسا . فاغتنم مجلس من الأمراء والمطارنة الألمان (فى ١٦ يوليوسنة ١٣٣٨) فرصة محالفته دولتين كبيرتين ضد البابوية ، وقرر ، أن اختيار ملك ألمانى بوساطة الناخبين الألمان ، لا تبطله سلطة أخرى ، وأعلن مجمع فى فرنكفورت الموافقة على المين (٣ أغسطس ١٣٣٨) أن قرارات البابا ضد لويس

ملغاة وباطلة . وحكم بأن لقب الإمبراطور وسلطته ، متحفاً من الناخبين الإمبراطوريين ، ولا يحتاجان إلى إقرار من البابا . وتجاهلت ألمانيا وإنجلترا احتجاجات البابا بندكت الثانى عشر ، وبذلك سارا خطوة نحو الإصلاح الدينى .

وثمل لويس بالنجاح ، فقرر أن يطبق إلى أقصى حد نظريات مارسليوز ، وأن يمارس السلطة الدينية والدنيوية معاً ، فصرف من عينهم البابا عن صدقات الكنيسة ، وعين رجاله فى مكانهم ، ووضع يده على الأموال التى جمعها جباة البابا من أجل حرب صليبية ، ونسخ زواج مارجريت أميرة كارينثيا — وهى وارثة معظم التيرول — وزفها إلى ابنه ، على الرغم مما بينه وبينها من قرابة تجعل الزواج منها من ناحية الشريعة الكنسية باطلا . فأقسم الزوج المرفوض وهو أخوه الأكبر شارل كما أقسم أبوهما چون ملك بوهيميا أن ينتقما منه ، ورأى كليمنت السادس ، الذى أصبح بابا عام ١٣٤٢ ، فى هذا فرصة ، ليخلص من العدو العنيد للسدة البابوية . واستطاعت الدبلوماسية البارعة أن تكتسب ناخباً بعد آخر ، إلى الرأى الذى يقول ، إن السلام والأمن ، لا يعودان إلى الإمبراطورية ، إلا بخلع لويس وتنصيب شارل ، ملك بوهيميا إمبراطوراً ، وتعهد شارل بطاعة أوامر البابا ، فى مقابل تأييده . وفى يوليو عام ١٣٤٦ اجتمع مجلس ناخبين فى رنز ، وقرر بالإجماع ، أن يكون شارل ملكاً على ألمانيا . وأخفق لويس فى أن يجد ، أذناً صاغية فى أفنيون لإلحاحه بالخضوع للبابا ، فأعد العدة للحرب حتى الموت دون عرشه ، وكان أثناء ذلك مشغوفاً بالصيد وقد بلغ الستين من عمره ، وسقط عن جواده وقتل (١٣٤٧) »

وأحسن شارل الخامس الحكم ، ملكاً وإمبراطوراً . وكرهه الألمان لأنه جعل براغ عاصمة الإمبراطورية ، ولكنه أصلح الإدارة فى ألمانيا ، كما فعل فى موطنه ، وأمن التجارة والمواصلات ، وأنقص الضرائب ، واحتفظ بعملة

مستقرة ، وأمد الإمبراطورية كلها بجيل من الناس ينعم بسلام نسبي . وفى عام ١٣٥٦ ، نال شهرة فيها قدر من المغالطة فى التاريخ ، بإصدار سلسلة من القوانين عرفت « بالنشرة البابوية الذهبية » — وإن كانت قليلا من كثير من الوثائق تحمل الخاتم الإمبراطورى الذهبي . لعله اقتنع بأن غيابه الطويل عن ألمانيا يتطلب مثل هذا الإجراء ، فقد منح الناخبين السبعة سلطات تكاد تمحو سلطة الإمبراطور . وكان على الناخبين أن يجتمعوا سنوياً ليصدروا التشريعات الخاصة بالمملكة ، والملك أو الإمبراطور ، مجرد رئيس لهم ويدهم المنفذة . وكانوا فى ولاياتهم يملكون السلطة القضائية الكاملة ، وملكية المناجم والمعادن الكامنة فى الأرض ، والحق فى ضرب السكة الخاصة بهم ، وزيادة الدخل إلى جانب الحق المقيد فى إعلان الحرب وإبرام معاهدات السلام . وكانت هذه النشرة بمثابة إقرار ثانوى للحقائق الواقعة ، فحاول شارل أن ينشئ بوساطتهم اتحاداً تعاونياً من الإمارات . ومع ذلك فقد شغل الناخبون بشئونهم الإقليمية ، وأهملوا مسئولياتهم باعتبارهم يؤلفون مجلساً إمبراطورياً ، حتى أن ألمانيا ظلت إمبراطورية بالإسم فقط . وقد هيأ الاستقلال المحلى للناخبين على هذا النحو لناخب سكسونيا أن يحمى لوثر ، وما أعقب ذلك من انتشار المذهب البروتستانتى .

وحافظ شارل فى شيخوخته على ولاية العهد الإمبراطورى لابنه بوساطة الرشوة بالجملة (١٣٧٨) وتحلى ونسسلوس الرابع ببعض الفضائل ، ولكنه كان يدمن الشراب ويحب موطنه الأصلى ، فكره الناخبون منه ذلك وخلعوه (١٤٠٤) . مؤثرين عليه روبرت الثالث الذى يخلف أثراً يذكر فى التاريخ . واختير سيجموند أمير لكسمبورج ملكا على المجر (١٣٨٧) وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وانتخب عام ١٤١١ ملكا على الرومان وسرعان ما حصل على لقب الإمبراطور . وكان رجلا ذا ملكات منوعة ، جذابا ،

جميلا مغروراً وكريماً محبوباً وقاسياً فى بعض الأحيان وثقف لغات متعددة وكلف بالأدب لا يفضل عليه سوى النساء والسلطان . وربما مهدت نياته الطيبة له موضعاً صغيراً فى جهنم ، ولكن شجاعته كانت تخونه فى الأزمات . ولقد حاول مخلصا أن يصلح مساوئ الحكومة الألمانية ويقضى على أسباب ضعفها ، وأصدر بعض القوانين الصالحة ، ونفذ القليل منها ، بيد أن الناخبين أحبطوا مساعيه ، باستقلالهم الذاتى ومحافظتهم على ما ألفوه وعدم رغبتهم فى الإسهام بنصيبهم فى نفقات صد هجمات الترك المتقدمين . وأوقف فى أعماله الأخيرة ماله ونشاطه على محاربة الهوسيين فى بوهيميا . ولما توفى (١٤٣٧) بكت أوربا فيه ، رجلا كان يمثل التقدم الأوربى فترة من الزمن وإن أخفق فى كل شىء إلا الكرامة .

ولقد أوصى شارل الناخبين فى بوهيميا والمجر وألمانيا أن يختاروا زوج ابنته ، ألبرت أمير هبسبورج . ونعم ألبرت الثانى بالتيجان الثلاثة ، ولكنه مات بالدوسنطاريا قبل أن تتفتح قدراته ، فى حملة ضد الأتراك (١٤٤٠) . ولم يخلف ابناً ، ولكن الناخبين ، اختاروا للتاجين الملكى والإمبراطورى ، شخصاً آخر من آل هبسبورج هو فريدريك أمير ستيريا ، ومنذ ذلك وقع اختيارهم مراراً على أمير من آل هبسبورج ، حتى أصبح السلطان الإمبراطورى فى واقع أمره ، ملكاً وراثياً ، فى هذه الأسرة الموهوبة الطموح . وجعل فريدريك الثالث ، النمسا ، دوقية كبرى ، واتخذ آل هبسبورج فينا عاصمة لهم ، وأصبح المفروض أن يكون ولى العهد ، هو الدوق الأكبر للنمسا ، ودخلت الصفة الوراثية فى الأخلاق النمساوية والفيناوية كمقوم نسائى رشيق يمتزج بخشونة الشمال المذكرة فى النفس التيوتونية .

٤ — المتصوفة

لقد غرس القرنان الرابع عشر والخامس عشر بذور الإصلاح الديني : وكابد لويس ملك بافاريا وويكليف فى انجلترا وهس فى بوهيميا ، التجربة قبل لوثر وهنرى الثامن وكالفن ونوكس وأصبحت ثورة رجال الدين المتزايدة فى اسكندناوة والمعفاة من الضرائب عبئاً ثقيلا على الشعب والحكومة وزعم النقاد أن الكنيسة كانت تملك نصف أراضى الدنمرك ، ولها الحق الإقطاعى على كوبنهاجن نفسها .ونظر النبلاء بحسد مشئوم ، إلى أملاك لا يحميها إلا العقيدة بل إن المسيحيين المحافظين كانوا ضد الكهنوت . أما فى سويسرا فقد كان الاستقلال الأشم للولايات تمهيداً لظهور زونجلى وكالفن . وفى عام ١٤٣٣ طردت مجديبرج ، كبير أساقفتها وكهانها ، وانتقضت بمبرج على حكم الأساقفة ، وحاصرت باسو أسقفها فى قلعته . وفى عام ١٤٤٩ ، وجه أستاذ فى جامعة أرفورت (حيث قدر للوثر أن يدرس) إلى البابا نيقولاس الخامس ، دفاعاً عن مجالس العامة باعتبارها أعلى سلطة من البابوات . وانتشرت أصداء من ثورة الهوسيين فى بوهيميا المجاورة ، إلى ألمانيا بأسرها ، وحافظت الجماعات الولدنيزية ، هنا وهناك ، سراً على الهرطقة القديمة والأطماع الشبيهة بالشيوعية . واتجه الورع نفسه إلى تصوف يقترب من الهرطقة .

وأجمع التصوف عند جوهانس إيكهارت ، مذهبا من مذاهب وحدة الوجود ، لا يعبأ بالكنيسة ، ويكاد يتجاهل القانون الديني المحدود . وكان هذا الراهب الدومينيكى على حظ من العلم جعل لقب « أستاذ » جزءاً من اسمه . وصيغت كتاباته الفلسفية بلغة لاتينية متحذلقة ، ولو أنها كانت كل آثاره ، لما بلغ حظا من الشهرة أو الخطر . ولكنه كان يدعو بلغة ألمانيــة منظومة فى ديره فى كولونيا ، إلى مذهبه الجرىء فى وحدة الوجود مما

عرضه لمحكمة التفتيش . واتبع ديونيس الأريوفاغيط(*) وجوهانز سكوتس ارجينا ، فجهد للتعبير عن حسه الغلاب بباله موجود فى كل مكان . وهذا الإله غير المحدود ، لم يتصوّره إيكهارت ، شخصا أو روحا ، ولكنه وحدة مطلقة خالصة . . . هوة بلا كيفية وبلا شكل ، للإله الصامت الواسع . . . حيث لا يرى قط خلاف ، لا أب ولا ابن ولا روح قدس ، حيث لا يوجد واحد فى داره ، ولكن حيث تكون جذوة النفس فى سلام أكثر مما تكون مع نفسها . ولا يوجد بصفة أساسية سوى هذا الإله الذى لا شكل له . . . " الله كل شىء ، وكل شىء هو الله . إن الأب ينجينى بلا توقف ، فأكون ابنه . وأنا أقول أكثر من ذلك : إنه يُنْجِبُ فى ذاته ، وفى ذاته ينجبنى . والعين التى أرى بها الله هى العين ذاتها التى يرانى الله بها . . . وعينى وعين الله عين واحدة " .

وفى كل فرد قطعة من الله ، وعن طريقها تستطيع الاتصال به مباشرة وتستطيع أن تكون ذاته . لا عن طريق شعيرة الكنيسة ، ولا حتى عن طريق الكتاب المقدس ، ولكن عن طريق هذا الوعى الكونى وحده تستطيع النفس أن تقترب وأن ترى الله . وكلما تجرد الفرد من أغراضه الذاتية والدنيوية ، كلما أصبحت هذه الجذوة الإلهية أكثر شفافية وأحد بصرا حتى يكون الله والنفس واحد آخر الأمر ، و" نتحول كلية إلى الله " . فليست الجنة والأعراف والجحيم أماكن ، ولكنها أحوال النفس .. فالافتراق عن الله هو الجحيم ، والاتحاد معه هو الفردوس . واشتم كبير أساقفة كلونيا من هذه الأقوال رائحة الهرطقة ، فدعا إيكهارت للمحاكمة (١٣٢٦ فأكد الرجل صحة محافظته على العقيدة واقترح أن يحكم على أقواله باعتبارها مبالغات أدبية ، ومع ذلك فقد أدانه الأسقف . فاستأنف الراهب الحكم إلى

(*) قاضى بمحكمة يونانية عليا قديماً .

البـــابا يوحنا الثانى والعشرين ثم تخلص من المحرقة بالموت فى الوقت المناسب (١٣٢٧) .

وانتشر تأثيره على يد تلميذين دومينكيين عرفا كيف يحتفظان بمذهبه فى وحدة الوجود فى نطاق أمين . فقد عذب هانيريخ سوسو نفسه ، ست عشرة سنة [٢]، فى زهادة صارمة ، وحفر اسم المسيح فى لحمه على قلبه ؛ وزعم أنه تلقى فى فمه دما من جراح المسيح ، « وألف » كتيبه فى الحكمة الخالدة » باللغة الألمانية . لأن الله كما قال ، أوحاه إليه بهذه اللغة . أما جوهانزتولر فقد وصف ديكهارت بأنه « أســتاذه الأقدس » ودعا فى ستراسبورج وبازل إلى مذهب الاتحاد الصوفى بالله . ونسب لوثر إليه كتابا عنوانه علم اللاهوت الألمانى ، وكان تأثير هذا الكتاب ، فيه عميقا ، ببساطة معتقده : الله ، المسيح ، الخلود .

ونظرت الكنيسة بشيء من الاهتمام إلى المتصوفة الذين تجاهلوا أغلبه تعاليمها ، وأهملوا شعائرها وزعموا الوصول إلى الله بلا استعانة من القصص أو الأسرار المقدسة . وهنا نجد مبادئ الإصلاح الدينى بحكم الفرد على نفسه ، وكل إنسان فى ذاته قسيس ، وليس التبرير فى الأعمال الطيبة ولكنه فى العقيدة السامية . وفى رأى الكنيسة أن الإيحاءات الخارقة قد تأتى من الشياطين والمجاذيب كما تأتى من الله والقديسين ، وأن الأمر يحتاج إلى إرشاد صارم يحفظ الدين من التحلل إلى فوضى تتألف من ديانات وعلوم دين فردية . ولا يزال هذا الخلاف فى الرأى يقسم المخلصين .

٥ — الفنون

طال مكث الطراز القوطى فى ألمانيا ، بعد أن أخلى مكانه ، فى إيطاليا وفرنسا ، لمؤثرات عصر النهضة الكلاسية بأمد طويل . وهو الآن يتوج المدن المزدهرة فى أوربا الوسطى بكنائس ، لم تبلغ فى جلالها المهيب ما بلغته المزارات العظيمة فى فرنسا ، وهى مع ذلك ترفع الروح بجمالها الهادئ

وروعتها غير المتكلفة . ولقد بدأت إيسالا تشيد كاتدرائيتها عام ١٢٨٧ ، وفرايبورج السكسونية عام ١٢٨٣ ، وأولم عام ١٣٧٧ (وبها أعلى برج قوطى فى العالم) وشرعت فينا فى بناء كاتدرائية القديس ستيفن ١٣٠٤ ، وستروليزند كنيسة السيدة مريم عام ١٣٨٢ ، ودانزج كنيسة أخرى للسيدة مريم عام ١٤٢٥ . وأضافت أخن وكلونيا موضع المرتلين فى كاتدرائيتهما ، وأتمت ستراسبورج « الموسيقى المجمدة » الخاصة بكاتدرائيتها عام ١٤٣٩ ، وشيدت أكزانتن كنيسة القديس فيكتور الجامعية الأنيقة ، وقد خربتها الحرب العالمية الثانية . واعتزمت نورمبرج بأربع كنائس مشهورة ، تصقل التقوى بالفن والذوق . وتليين كنيسة لورنز (١٢٧٨ — ١٤٧٧) إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ببابها الفخم ونافذتها المستديرة المتلألئة . وكانت كاتدرائية القديس (١٣٠٤ — ١٤٧٦) ستيفن معلماً محببا ، فإن سقفها المنحدر يغطى صحن الكنيسة وممماشيها بقنطرة واحدة ، وأسقطه إله الحرب عام ١٩٤٥ . وأعيـد عام ١٣٠٩ بناء مماشى كنيسة سيبالدوس وأقيم فيها عام ١٣٦١ مكان جديد للمرتلين ، وتم حوالى عام ١٩٤٨ بناء أبراجها الغربية وركب بين عامى ١٣٦٠ ، ١٥١٠ زجاجها الملون البديع . وزودت كنيسة السيدة مريم (١٣٥٥ — ١٣٦١) ، بدهليزها المزين بكثير من التماثيل ، وأصبحت أثراً بعد عين فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه ، وفى كل يوم عند الظهيرة تنحنى يلا كلل تماثيل الناخبين الأربعة ، فى الساعة المشهورة بالواجهة أمام شارل الرابع ، اعترافا بجميل دستوره المشهور . وكان فن النحت لا يزال ساذجا ، بيد أن الكنائس فى برسلاو وهالبارتن وكنيسة سيبالدوس فى نورمبرج ، كانت تتلقى تماثيل خشبية أو حجرية للعذراء من بعض النبلاء .

ولم تجمل المدن كنائسها فحسب وإنما جملت أيضا مبانيها العامة وحوانيتها ودورها . وقامت وقتذاك تلك الدور ، هرمية السقف المعرش نصفها

بالخشب ، التى تكسب المدن الألمانية ، فتنة مشوقة توحى بجو القرون الوسطى ، للعيون العصرية المثالية . وكانت « دار المجلس مركز الحياة المدنية ، وهي ملتقى النقابات الكبيرة أحياناً ، وقد تحمل حوائطها صوراً جدارية ، وكانت أعمال الخشب فيها تحفر عادة بما عرف عن التيوتون من عزم وقوة . وللبهو الكبير فى دار المجلس بمدينة بريمن (١٤١٠ — ١٤٥٠) سقف من جذوع الخشب المنقوش ، وسلم محوى بأعمدة وحاجز من الخشب المنقوش ، وثريات مزخرفة على شكل سفن . ولقد خربت دور المجالس الآتية فى الحرب العالمية الثانية : مجلس كلونيا (١٣٦٠ — ١٥٧١) عقد فيه الاجتماع العام الأول للاتحاد الهنسياتى ، ومجلس منستر (١٣٣٥) ، حيث أبرمت معاهدة وستفاليا ، ومجلس برنزڤيك وهى من دور القرن الرابع عشر من المجالس البلدية التى على الطراز القوطى ، وفرنكفورت — على — المين (١٤٠٥) حيث دعا الناخبون إمبراطوراً جديداً لتناول طعام الغداء . وفى ماريلبورج ، شيد أشياخ الشعب التيوتونى قصرهم الألمانى الضخم (١٣٠٩ — ١٣٨٠) . وقد واجهت دار البلدية كنيسة سيبالدس فى نورمبرج ،وشيدت (١٣٤٠) لكى تسع جميع أعضاء ريشستاج الإمبراطورية ، ثم رمم ست مرات ، فلم يبق منه إلا القليل من طابع القرون الوسطى فى الشكل . وأقام هبفرتش بارلو ، وهو مثال من براج ، فى ميدان السوق أمام كنيسة العذراء ، النبع الجميل (١٣٦١) الذى تكثر فيه تماثيل أبطال وثنيين ويهود ومسيحيين وتجسم نورمبرج فى القرون الثلاثة بين عامى ١٢٥٠ ، ١٥٥٠ بتماثيلها وكنائسها وعمارتها المدنية ، الروح الألمانى فى أوجه وكماله . وكانت طرقاتها الملتوية فى أغلبها ضيقة غير مرصوفة ، ومع ذلك فقد كتب بابا المستقبل بيوس الثانى عن نورمبرج .

« عندما يأتى المرء من فرانكونيا السفلى ، ويرى هذه المدينة المجيدة ، فإن فخامتها تبدو عظيمة بحق . فإن دخلها ، تأكدت مشاعره الأولى بجماله

الطرقات وتناسب المنازل ، والكنائس . . جديرة بالعبادة جدارتها بالإعجاب . وتسيطر القلعة الإمبراطورية بشموخها على المدينة ، وكأنما بنيت دور نواب المقاطعة للأمراء . والحق أن ملوك اسكتلندة يسرهم أن يسكنوا بيوتاً مترفة كالتى يسكنها المواطن العادى فى نورمبرج » .

أما الفنون الصناعية الصغرى والصناعية فى المدن الألمانية ، على الخشب والعاج والنحاس والبرونز والحديد والفضة والذهب ، فقد بلغت وقتذاك النضج الكامل لنموها فى القرون الوسطى . وأنتج الفنانون والنساجون أقمشة مزركشة رائعة تعلق على الحوائط ، كما مهد النقاشون على الخشب الطريق لديرر وهولبين ، وزين المنمنمون المخطوطات عشية ظهور الطباعة على يد جوتنبرج ، ونقش العاكفون على زخرفة الخشب ، الأثاث الفخم ، وصاغ سباكو الحديد ، للكنائس ، فى القرن الخامس عشر ، نواقيس لا مثيل لها فى رخاصة حليها . ولم تكن الموسيقى فنا فحسب ، ولكنها كانت نصف حياة الفراغ فى المدن . ومثلت نورمبرج وغيرها من المدن حفلات تنكرية عظيمة تتألف من التمثيليات والأغانى الشعبية . ولقد عبرت الأغنية الشعبية عن أحاسيس الشعب الدينية أو الغرامية . وشنت الطبقات الوسطى هجوماً جماعياً على مشكلات تعدد الأنغام ، ونافست النقابات فى تأليف فرق الغناء الجماعى الضخمة ، وأخذ القصابون والدباغون وسباكو النواقيس وغيرهم من الرجال الأقوياء يتبارون للحصول على جائزة المغنى الأول فى دورات إنشادية صاخبة وأسست أول مدرسة للمغنيين الأوائل فى مينز عام ١٣١١ ، ونشأت غيرها فى ستراسبورج وفرنكفورت على المين وويرزبرج وزيورخ وأوجزبرج ونورمبرج وبراغ . أما الطلاب الذين ينجحون فى فى الحصول على الأجازات الأربع وهى دارس وصديق مدرسة وشاعر ومغن فيمنحون لقب أستاذ . وهبط العنصران الرومانى والمثالى إلى الأرض عند

النسبيين(*) لما حمل نواب المقاطعات الألمان الأغنية ، واقعيتهم الشهوانية .

وإذا سيطرت الطبقة التجارية على المدن ، فإن جميع الفنون ما عدا عمارة الكنائس ، تتخذ اتجاها واقعيا . وكان الجو بارداً ورطباً فى الغالب لا يشجع على العرى ، ولم تجد عبادة الجسم أو الكبرياء الجسمى موطناً ملائماً هنا كما كان الحال فى إيطاليا إبان عصر النهضة أو فى بلاد الإغريق . ولما رسم كونراد وتز الكنستانسى « سليمان وملكة سبأ » ألبسهما وكأنهما يعيشان على جبال الألب فى فصل الشتاء . ومع ذلك فقد كان فى حوالى عشرة مدن مدارس تصوير فى القرن الخامس عشر : ألم وسالزبرج وفرنكفورت وأوجزبرج وميونخ ودرستاد وبازل وأخن ونورمبرج وهمبورج وكولمبار وكولونيا ، وبقيت إلى الآن نماذج من هذه المدارس جميعاً ونحن نقرأ فى أخبار ١٣٨٠ : «كان فى كولونيا فى هذا الوقت مصور مشهور اسمه ولهلم ، لا يوجد له مثيل فى طول البلاد وعرضها . ولقد رسم رجالا ببراعة يخيل للرائى معها أنهم أحياء » وكان الأستاذ ولهيلم واحدا من كثيرين « على الفطرة » . ولقد أنشأ الأستاذ برترام والأستاذ فرانك وأستاذ سانت فيرونيكا وأستاذ مذبح هستر باكر — تحت التأثير الفلمنكى فى الغالب نظاما للتصوير المشترك فى ألمانيا ، ورسموا موضوعات الإنجيل التقليدية بعاطفة دينية ، يمكن إرجاعها إلى إيكهارت والمتصوفة الألمان الآخرين .

وتنتهى بالمصور ستيفن لوكنر ، الذى مات فى كولونيا عام ١٤٥١ ، هذه المرحلة التمهيدية للتطور ، وبذلك نصل إلى أوج المدرسة الأولى . وتعد صورته « عبادة المجوس » مفخرة كاتدرائية كولونيا ، وهى تضارع معظم الصور التى أنشئت قبل منتصف القرن الخامس عشر ؛ ففيها عذراء جميلة متواضعة معتزة بنفسها فى وقت واحد ، وطفـــل مبتهج وحكماء الشرق وهم ألمانيو السحنة ولكنهم حكماء بحق . وتأليفها تقليدى ، وتلوينها ناصع بالأزرق

(*) النسبيون هم الشعراء الألمان الغنائيون الذين شاع مذهبهم من ١١٥٠ — ١٣٥٠ م .

والأخضر والذهبي . وفى « عذراء وردة التكعيبة وعذراء البنفسج » ، صورت الأمهات الشواب المثاليات الألمانيات ، ذوات الجمال الرقيق الرصين . بكل ما فى فن القرون الوسطى من حِرْفية ، تتجه بوضوح إلى التجديد . فقد كانت ألمانيا على عتبة أعظم عصورها .

٦ – جوتنبرج

ما الذى وضع نهاية للعصور الوسطى ؟ أسباب كثيرة أخذت تعمل خلال ثلاثة قرون : فشل الحروب الصليبية ، وزيادة معرفة أوربا الناهضة بالإسلام ، والاستيلاء المحقق على القسطنطينية ، وبعث الثقافة الكلاسية الوثنية ، وانتشار التجارة بفضل رحلات أسطول هنرى الملاح وكولمبس وفاسكو دا جاما ، ونشأة الطبقة التجارية التى مولت مركزية الحكومة الملكية ، وتقدم الدول القومية ، متحدية سلطة البابوات التى تعلو على القومية ، وثورة لوثر الموفقة فى وجه البابوية ، والطباعة :

ولقد كان التعليم كله تقريبا ، قبل جوتنبرج ، فى يد الكنيسة . . . وكانت الكتب باهظة الثمن ، والنسخ مجهداً وغير معتنى به أحياناً . واستطاع قليل من الكتاب الاتصال بجمهور كبير ولكن بعد وفاتهم ، وكان عليهم أن يكسبوا عيشهم من التعليم ، أو الانخراط بفرقة من فرق الرهبان ، أو بمعاش يجريه عليهم الأغنياء أو صدقات يحصلون عليها من الكنيسة . ويدفع ناشرو كتبهم ، النزر اليسير لهم ، أولا يدفعون لهم شيئاً على الإطلاق ، بل إذا وجد ناشر يدفع لهم ، فإن حق الطبع لم يكن مكفولا لهم ، إلا بمنحة بابوية بين حين وآخر . وكانت المكتبات كثيرة ، وإن تكن صغيرة ، وكانت للأديرة والكاتدرائيات والكليات وبعض المدن مجموعات متواضعة قلما تزيد على ثلثمائة مجلد ، وحفظت الكتب عادة داخل الجدران ، وربط بعضها بالسلاسل فى المقارئ أو الأدراج . وكان لشارل الخامس ملك فرنسا

مكتبة مشهورة بحجمها ٩١٠ مجلدات ، ولهمفرى ، دوق جلوستر ٦٠٠ مجلد ، وربما كانت مكتبة الدير بكنيسة السيد المسيح فى كنتربرى ، تضارع فى الكبر أى مكتبة خارج حدود الإسلام ، وضمت ٣٠٠٠ مجلد ، عام ١٣٠٠ . وكانت خير مكتبة عامة فى انجلترا هى مكتبة ريتشارد دى بورى سانت ادموندز ، الذى سجل غرامه بكتبه فى رسالة « حب الكتب » (١٣٤٥) ، وجعل هذه الكتب تشكو من سوء المعاملة التى لقيتها من « ذلك الحيوان من ذوات الساقين الإثنين المسمى امرأة » ، الذى أصر على أن تستبدل بها التيل الرقيق أو الحرير .

وزاد الطلب على الكتب بكثرة المدارس وانتشار القراءة ورأت طبقات رجال الأعمال ، القراءة مفيدة فى شئون الصناعة والتجارة ، وفر نساء الطبقتين الوسطى والعليا ، بواسطة القراءة ، إلى عالم من الخيال ، يستعضن به عن دنيا الواقع ، وما إن جاء عام ١٣٠٠ حتى كان الوقت الذى لا يستطيع فيه القراءة غير رجال الدين قد ولى أو كاد ، وأدى هذا الإقبال المتزايد إلى ظهور جوتنبرج أكثر من أى شىء آخر ، حتى عن زيادة مقدار الورق وظهور مداد زيتى . ولقد أحضر المسلمون صناعة الورق إلى أسبانيا فى القرن العاشر ، وإلى صقلية فى القرن الثانى عشر ، وانتقلت إلى ايطاليا فى الثالث عشر ، وإلى فرنسا فى الرابع عشر ، وكانت صناعة الورق قد بلغ عمرها قرناً من الزمان عندما جاءت الطباعة . ولما صار ارتداء التيل مألوفاً فى أوربا فى القرن الرابع عشر ، اتخذت صناعة الورق مادتها الرخيصة من خرقه المنبوذة ، فهبط سعر الورق وتهاونت سهولة الحصول عليه مع انتشار القراءة ، على تقديم مادة الكتب المطبوعة وتسويقها .

أما الطباعة نفسها فكانت كالآثار المطبوعة ، أقدم من المسيحية فقد طبع البابليون على الآجر حروفاً أو رموزاً ، وطبع الرومان وشعوب كثيرة أخرى على النقود ، والخزانون على أوانيهم ، والنساجون على الأقمشة ، ومجلدو الكتب على أغلفتها ، واصطنع كل رجل من الأعيان ، فى العصور

القديمة أو الوسطى ، الطباعة ، كلما وقع الوثائق بخاتمه ، واستخدمت وسائل مماثلة فى الخرائط وأوراق اللعب . ويرجع تاريخ الطباعة الحجرية — وهى كتب من الخشب أو المعدن تنقش عليها كلمات أو رموز أو صور — فى الصين واليابان إلى القرن الثامن ، وربما قبل ذلك . ولقد طبع الصينيون بهذه الطريقة ، عملة ورقيــة ، فى القرن العاشر أو قبله . وظهرت الطباعة الحجرية فى تبريز عام ١٢٩٤ ، وفى مصر حوالى عام ١٣٠٠ ، ولكن المسلمين فضلوا النسخ بالخط على الطباعة ، ولم يعملوا فى هذه الحالة ، كما فى أحوال كثيرة أخرى ، على نقل التقدم الثقافى من الشرق إلى الغرب .

واستعملت طباعة الحروف — وهى الطبع بحرف منفصل متحرك — فى الصين منذ عام ١٠٤١ — ولقد استخدم وانج تشن عام ١٣١٤ حوالى ستين ألف حرف خشبي متحرك ، ليطبع كتاباً واحداً فى الزراعة ، وحاول أول الأمر استخدام حروف طبع معدنى ، ولكنه وجد أنها لا تستوعب المداد فى يسر كالخشب . وكان الحرف المطبعى المتحرك ، مع ذلك ، قليل التيسير أو الفائدة ، للغة لا أبجدية لها ولكنها تضم أربعين ألف حرف منفصل ، ولذلك ، ظلت الطباعة الحجرية هى المألوفة فى الصين إلى القرن التاسع عشر : وفى عام ١٤٠٣ طبع إمبراطور كورى ، عدداً كبيراً من المجلدات ، بوساطة حروف معدنية متحركة ، وكانت الحروف تحفر على خشب صلب ، وصبت قوالب من عجينة الخزف على تلك النماذج ، وفى هــذه القوالب صيغت الحروف المعدنية .

أما فى أوربا فربما ظهرت الطباعة بالحروف المتحركة فى هولندة أولا ، وهى ليست قبل عام ١٥٦٩ ، طبقاً للروايات الهولندية . وطبع لورنس كستر البارلمى ، كتيباً فى الدين بالحروف المعدنية المتحركة عام ١٤٣٠ ، بيد أن هذا الشاهد غير محقق . ولم يسمع شيء غير ذلك فى هولندة ، عن الحروف المتحركة ، حتى عام ١٤٧٣ ، عندما أقام ألمانى من كولونيا ، مطبعة

فى أترخت . ولكن هؤلاء الرجال كانوا قد تعلموا فن الطباعة فى ميتز .

وولد جوهان جوتنبرج هناك لأسرة ثرية حوالى عام ١٤٠٠ واسم أبيه جتر فليش ومعناه لحم الأوزة ، وآثر جوهان لقب أمه . وعاش معظم سنواته الأربعين الأولى فى ستراسبورج ، ويبدو أنه قام هناك بتجارب فى قطع الحروف المعدنية وصبها . وأصبح حوالى عام ١٤٤٨ مواطناً فى ميتز . وفى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٤٥٠ تعاقد مع جوهان فست ، وهو صائغ غنى ، رهن له بمقتضى ذلك العقد ، مطبعته فى مقابل دين مقداره ٨٠٠ جلدر ، بلغ بعد ذلك ١٫٦٠٠ جلدر ، وربما كان جوتنبرج هو الذى طبع صك غفران ، أصدره نيقولا الخامس عام ١٤٥١ ، ولا تزال باقية منه نسخ متعددة ، تحمل أقدم تاريخ طبع وهو عام ١٤٥٤ . وقاضى فست جوتنبرج مطالباً إياه بسداد الدين عام ١٤٥٥ ، فعجز عن الوفاء وتنازل عن سطبعته ؛ واستمر فست فى إدارة المؤسسة مع بيتر سكوفير ، الذى استخدمه جوتنبرج صفاً للحروف . ويعتقد البعض أن سكوفير هو الذى طور وقت ذاك ، الأدوات الجديدة وفن الطباعة : « مِجْوَب » جامد فى الصلب المنقوش لكل حرف ورقم وفاصلة ، وبيت معدنى لتلقى المجاوب ، وقالب معدنى أيضاً لصف البيوت والحروف فى سطر ؛

وفى عام ١٤٥٦ ، أقام جوتنبرج ، بمال اقترضه مطبعة أخرى ، ومنها أصدر ، فى تلك السنة أو التى تليها ، ما اعتبر بصفة عامة أول كتاب له ، مطبوع بالحروف المعدنية المتحركة ، وهو النسخة المشهورة الجميلة المنسوبة لجوتنبرج من الكتاب المقدس — وهى مجلد ضخم فى ١٫٢٨٢ صحيفة من القطع الكبير على عمودين . وفى عام ١٤٦٢ حاصرت جنود أدولف أمير ناسو ، مدينة ميتز ، ففر الطابعون ، فنشروا بذلك الفن الجديد ، فى أنحاء ألمانيا . ولما جاء عام ١٤٦٣ كان هناك طابعون فى ستراسبورج وكولونيا وبازل وأوجزبرج ونورمبرج وإلم . أما جوتنبرج ، وكان أحد الفارين ، فقد أقام

فى إلتفيل ، حيث واصل طباعته . وجاهد الأزمات المالية المتلاحقة ، حتى تصدق عليه أدولف (١٤٦٥) بمنحة تضمن له دخلا يحميه غوائل الدين .. ومات بعد ذلك بثلاث سنوات .

وليس من شك فى أن حروف الطبع المتحركة ، كان لابد أن تظهر على يد غير جوتنبرج لولم يولد ، إذ دعت إليها ، حاجة العصر الملحة ، وهذا يصدق على معظم المخترعات . ولقد كتب جويوم فيشيه الباريسى ، وهو من أهل باريس عام ١٤٧٠ ، رسالة يعبر فيها عن الترحيب الحماسى الذى قوبل به الاختراع وهو يقول : « لقد اكتشفت فى ألمانيا طريقة جديدة مدهشة لإنتاج الكتب ، ولقد حصـل حذاقها فنهم ، فى مينز ومنها نشروه فى العالم . . . ولسوف ينتشر نور هذا الاكتشاف من ألمانيا ، حتى يعم جميع أنحاء الأرض . ولم يرحب به كل الناس . فقد احتج النساخون بأن الطباعة ستقضى على أسباب معاشهم ، وعارضته الطبقة العليا بحجة أنه ابتذال آلى ، وخشوا أن يقلل من قيمة مكتباتهم الخطية ، وارتاب فيه رجال السياسة والدين لاحتمال أن تصبح الطباعة مطية سهلة للآراء الهدامة . ومع هذا كله فقد شقت لنفسها طريق النصر . وفى عام ١٤٦٤ أقام ألمانيان مطبعة فى روما ، وفى عام ١٤٦٩ أو قبله افتتح ألمانيان آخران دار طباعة فى البندقية ، وفى عام ١٤٧٠ أدخل ثلاثة من الألمان أيضاً هذا الفن فى باريس ، وفى عام ١٤٧١ وصلت الطباعة إلى هولندة ، وفى عام ١٤٧٢ إلى سويسرا ، وفى عام ١٤٧٣ إلى المجر ، وفى عام ١٤٧٤ إلى إسبانيا ، وفى عام ١٤٧٦ إلى إنجلترا ، وفى عام ١٤٨٢ إلى الدنمرك وفى عام ١٤٨٢ إلى السويد وفى عام ١٤٩٠ إلى القسطنطينية . وأصبحت نورمبرج على يد أسرة كوبرجر وباريس على يد الاتيينين وليون بفضل دوليه والبندقية بفضل ألدوس مانوتيوس وبازل بوساطة أمرباخ وفروبن وزيورخ بوساطة فروشاور وليدن على يد الزيفير ، خلايا عامرة بالطباعة والنشر . وسرعان ما أصبح نصف سكان أوربا من القارئين كما لم يحدث ذلك قط

من قبل » . وأضحت الرغبة فى اقتناء الكتب ، إحدى عوامل الفوران فى عصر الإصلاح الدينى » وإليك ماكتبه دارس من بازل إلى أحد أصدقائه « فى هذه االحظة بالذات ، وصل من البندقية ، حمل عربة كاملة من الكتب الكلاسية ، من خير طبعات ألدوس . هل تريد شيئاً منها ؟ إن كنت تريد أخبرنى فى الحال ، وأرسل النقود ، فما تكاد سلعة كهذه تصل ، حتى ينهض إليها ثلاثون شارياً لكل مجلد ، متسائلين عن الثمن ، ويفقأ بعضهم أعين بعض للحصول عليها » واستمرت ثورة الطباعة بالحرف المتحرك .

وإذا أردنا أن نصف نتائجها جميعاً ، كان لزماً علينا أن نسجل نصف تاريخ العقل الإنسانى الحديث . ووصف أرازمس ، فى نشوة رواج مؤلفاته ، الطباعة بأنها أعظم المكتشفات ، ولعله بخس بذلك الكلام والنار والعجلة والزراعة والكتابة والقانون بل لعله قد بخس وصول الإنسان إلى استعمال الألفاظ النكرات الشائعة . وأحلت الطباعة محل المخطوطات الخفية ، نصوصا رخيصة الثمن ، تتضاعف بكثرة ، فى عدد نسخها ، التى تمتاز بدقتها وخفة حملها عما كانت عليه من قبل ، وتعمل بذلك على التوحيد بين لمشتغلين بالعلم ، حتى أن الدارسين فى بلاد شتى ، يستطيعون أن يعمل أحدهم مع الآخر بوساطة مراجع إلى صفحات معينة من طبعات معينة . وكثيراً ما كان الكيف ضحية الكم ، بيد أن أقدم الكتب المطبوعة ، كانت فى كثير من الأحوال نماذج فنية للطبع بالحرف المتحرك والتجليد . ولقد أذاعت الطباعة — أو بمعنى آخر يسرت للجمهور — كتيبات رخيصة للإرشاد فى الدين والأدب والتاريخ والعلم ، فأصبحت أعظم وأرخص الجامعات كلها ، تفتح أبوابها للجميع . ولم تثمر الطباعة عصر النهضة ، ولكنها مهدت الطريق للتنوير . . . للثورتين الأمريكية والفرنسية . . للديمقراطية . وجعلت الكتاب المقدس ملكاً شائعاً . وهيأت الناس لدعوة لوثر بالتحول من الاحتكام إلى البابوات إلى الإنجيل ، وسمحت بعد ذلك بدعوة العقليين من

الاحتكام إلى الإنجيل ، إلى الاحتكام إلى العقل . وقضت على الاحتكار الكهنوتى للتعليم ، وسيطرة القساوسة على التربية . وشجعت آداب اللهجات المحلية ، لأن الجمهور الكبير الذى تتطلبه لا يمكن الوصول إليه عن طريق اللغة اللاتينية ويسرت الاتصال والتعاون الدوليين بين العلماء . وأثرت فى نوع الأدب وقوامه بإخضاع المؤلفين لجيوب الطبقات الوسطى وأذواقها ، بدلا من إخضاعهم لمن يرعاهم من الطبقتين العليا والكهنوتية ، وأعدت بعد الحديث الملفوظ ، وسيلة ميسرة لاستيعاب الهذر ، أكثر مما عرف العالم إلى زماننا :



